



العرب والبرتغال في التاريخ

١٧٢٠ - ١١٣٤ هـ - ١٧١١ م

د. فالح حنظل



Bibliotheca Alexandrina

■ مؤلفات الدكتور فالح حنظل

١. اسرار مقتل العائلة المالكة في العراق
٢. معجم الألفاظ العامية في دولة الإمارات العربية المتحدة
٢. معجم الغوص واللؤلؤ في الخليج العربي
٤. معجم القوافي والالحان في الخليج العربي
٥. الفصل في تاريخ الإمارات العربية المتحدة
٦. رسائل الرسول (ص) وكتبه وموقدوه الى حكام الخليج العربي
٧. الشحوح وتاريخ منطقة رؤوس الجبال في الخليج العربي
٨. العرب والبرتغال في التاريخ
٩. تحقيق كتاب نقل الأخبار في وفيات المشايخ وحوادث هذه الديار
١٠. تحقيق كتاب نيل الرتب في جوامع الأدب
١١. تحقيق كتاب الجواهر والآليء في تاريخ عمان الشمالي
١٢. تحقيق كتاب عقود الجمان في أيام آل سعود في عمان
١٣. مراجعة كتاب الإمارات العربية والخط الجوي الريطاني الى الشرق
١٤. ديوان الشاعر مبارك بن محمد بن ثامر المنصوري
١٥. ديوان الشاعر غيث بن جمعه بن جمهور القبيسي
١٦. ديوان الشاعر خميس محمد علي المزروعى
١٧. ديوان الشاعر علي بن رحمه الشامسي
١٨. ديوان الشاعر سلطان بن عبيد الظاهري
١٩. ابن ظاهر فيلسوف الإمارات وأمير شعراء النبط

العرب والبرتغال في التاريخ

العرب والبرتغال

في التاريخ

٩٣ هـ إلى ١١٣٤ هـ

٧١١ م إلى ١٧٢٠ م

أكثر من ألف سنة من الأحداث بين الأمتين

لم تأت في كتاب واحد قبل هذا

تأليف

فالح حنظل

دكتوراه في الدراسات العربية والإسلامية

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

منشورات المجمع الثقافي

Cultural Foundation Publications

ابوظبي - الإمارات العربية المتحدة - ص. ب. ٢٣٨٠ - هاتف : ٢١٥٣٠٠٠

ABU DHABI - U . A . E . - P . O . BOX : 2380 - TEL. 215300 Cultural Foundation

فالح حنظل، ١٩٢٤ -

العرب والبرتغال في التاريخ ٩٢ هـ إلى ١١٣٤ هـ - ٧١١ م إلى ١٧٢٠ م: أكثر من ألف سنة من الاحداث بين الامتين / تأليف
فالح حنظل. - ط ١. - ابو ظبي: المجمع الثقافي، ١٩٩٧.
٥٦٠ ص، ٢٤ سم.

ببليوجرافية: ص ٥٣٧ - ٥٤٦.

- ١ - العالم العربي - تاريخ - الاحتلال البرتغالي. ٢ - دول الخليج العربي - تاريخ - الاحتلال البرتغالي. ٣ - العالم العربي - العلاقات الخارجية - البرتغال. ٤ - البرتغال - العلاقات الخارجية - العالم العربي.
- ٥ - البرتغال - تاريخ (٧١١ - ١٧٢٠ م). ١ - العنوان

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمجمع الثقافي

تصميم الغلاف : علي الجاك سعيد . التنفيذ الداخلي : عادل يونس



الإهداء

إلى ولدي، فنار...

إلى مَنْ لم يَخْتبر بعدُ الحياة

إلى مَنْ لم تُنَحَّ له الفرصة بعدُ لاستقراء أحداث ووقائع التاريخ

لاستخلاص العبر والدروس منها.

إليه وإلى جيله الطالع

أهدي قصة العرب والبرتغال في التاريخ

وهي قصة أول استعمار ظهر في العالم

وكانت نهايته على أيادي العرب

عسى أن يجلدوا فيه دروساً وعبراً

شكر وتقدير

لا بد لي من تقديم خالص الشكر والتقدير لكل من ساعدني في تزويدي بالمعلومات التي ساعدتني على كتابة هذا الكتاب وأخص بالشكر منهم السيد ماريو كوريا MARIO CORREIA البرتغالي الجنسية والموظف في شركة أبوظبي للعمليات البترولية البرية الذي قام مشكوراً بترجمة ما احتجت إليه من البرتغالية إلى الإنجليزية ، كما أشكر السيد عبدالمجيد القيسي المستشار في حكومة أبوظبي لمراجعته مسودات الكتاب ، والشيخ مصطفى الدغيدي لقيامه بتصحيح مسوداته لغوياً ، وأشكر أيضاً موظفات القسم البرتغالي في مركز الوثائق والدراسات في أبوظبي . كما أشكر السيد فايز الطيب الذي قام بطبع الكتاب والسيد عادل يونس الذي قام باخراج صفحاته .

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

لم يَدُرْ في خلدي عندما فكرت في الكتابة عن موضوع العرب والبرتغال في التاريخ ، أنني سأُعْطِي فترة تاريخية عُمَرها ألف عام .

ذلك أنني عندما باشرت بتأليف كتابي (المفصل في تاريخ الامارات العربية المتحدة ١٦٢٤ - ١٩١٠م) ، فإن أول ما أثار اهتمامي هو ما كتبه الدكتور عائشة السيار في كتابها (الدولة اليعربية في عُمان) حيث أرّخت فيه لأيام تلك الدولة العُمانية التي أنهت الوجود البرتغالي في الساحل العربي من الخليج العربي ، والتي ابتدأت قصة تلك الدولة عام ١٦٢٤ ، وهو العام نفسه الذي اخترته بداية لكتابي (المفصل في تاريخ الامارات العربية المتحدة) ، حيث فَصَّلْتُ فيه على شكل حوليات ما حدث بين الدولة اليعربية والبرتغاليين من أحداث وحروب في عُمان وفي شرقي افريقيا وغيرها من الأماكن ، معتمداً في الغالب على ما ذكره المؤرخون العمانيون من روايات ضعيفة وأساطير تدور حول ذلك الموضوع وغيره ، والتي يظهر فيها عجز كبير في وصف الحوادث بشكل دقيق . ولعل أعجب ما في التاريخ العُماني ، هو أن الفترة البرتغالية الأولى في عُمان ، أي الفترة من حوالي عام ١٥٠٠ إلى عام ١٦٠٠ مفقودة بالمرّة من ثنايا كتبهم رغم أهمية تلك الفترة في تاريخ عُمان .

إلا أن ما كتبه العمانيون عن فترة صراعهم الأخير مع البرتغاليين فتح الباب أمامي لمحاولة التعرف إلى الفترة المفقودة في التاريخ العماني والخليجي ، وهي فترة ما قبل عام ١٦٢٤ ، أي منذ أن وطئت أقدام البرتغاليين أول مدينة عُمانية وهي مدينة (قلهات) وكان ذلك في عام ١٥٠٧ م . فَرَحْتُ أحاول أن أجمع المصادر والحقائق

والمعلومات والوثائق بشكل زمني عكسي ، أي عكس ما درج عليه كاتبو الحوليات السنوية ، أي أنني اتخذتُ النهاية كبداية ثم رحتُ أتسلك السُّلم من الأسفل الى الأعلى ، فكانت أولُ مشكلة صادفتني هي أن أهل الخليج العربي - عفا الله عنهم - من عمانيين وبحرينيين وأحسائيين وعراقيين ، لم يتركوا لنا خبراً واحداً يشفي غليل الباحث عن أيام البرتغاليين في تلك الفترة من تاريخ الخليج العربي .

ولما كانت البداية في كتابة التاريخ هي البحث عن الوثائق ، أي أن التاريخ علم وثائقي يعتمد على الوثائق التي تركها الأولون من بقايا مادية ومدونات تاريخية ، إذا عثرَ عليها الباحث قام بتدقيقها وتمحيصها وتسجيلها وتحديد زمنها ، لذلك فقد رحتُ أبحث عن المصادر عند الأمم الأخرى ، وكان بديهيّاً أن ينصرف ذهني إلى الاعتماد على وثائق البرتغاليين أنفسهم باعتبارهم أصحاب القسم الثاني من القصة . إلا أنني اكتشفت أن المصادر الموجودة في مركز الوثائق في أبوظبي في عام ١٩٨٠ كانت قليلة وكلها مكتوبة باللغة البرتغالية ، ولم يكن يوجد آنذاك من يترجمها إلى العربية .

إلا أن ذلك الأمر لم يفت من عزمي ، لأبني وجدت بعض ما أحتاجُ إليه من مصادر جيدة عند المؤرخين اليمنيين والمصريين ، ذلك أن أرض اليمن شهدت مصادمات عنيفة بين اليمنيين والبرتغاليين ، كما أن الجيوش المصرية على العهدين المملوكي والعثماني ، خرجت من مصر وقاتلت البرتغاليين في سواحل الهند والمحيط الهندي .

لكن ما كان ينقص تلك المصادر ، أنها كانت مُشَتَّة وغير منسقة ، فصار لزاماً عليّ أن أقوم بتمحيصها وأعيد تأليف وتركيب الحقائق المبعثرة هنا وهناك ، وأقارنها بما تمكنت من الحصول عليه من مصادر أخرى ، لأنتهي إلى مرحلة اعتبرتها في وقتها مرحلة نهائية لكتابة موضوع تاريخي أطلقتُ عليه اسم (الغزو البرتغالي للبلاد العربية للفترة من ١٥٠٠ إلى ١٧٠٠م) وقصدتُ في موضوعه بحث التواجد البرتغالي في أرض الخليج العربي وقصة الحروب التي خاضها اليمنيون والمصريون وأهل البحرين والأحساء ثم الأتراك العثمانيون والفرس الصفويون وآخرهم العمانيون ضد البرتغاليين .

وفي عام ١٩٨٥ سنحت لي الفرصة أن أزور البرتغال ، فقضيت ثلاثة أيام متتالية في مركز الوثائق والأرشيف ، وهناك اكتشفت أن ما كتبتُه عن فترة المائتي عام من العلاقات العربية - البرتغالية ، لا يعدو أقل من ثلث الحقبة التاريخية الأصلية للعلاقات بين الشعيين ، وأن هناك فترة ثانية في تلك العلاقات تسبق الفترة التي غطيتها ، وهي فترة العلاقات المغربية - البرتغالية ، والتي حدثت أيام النشوء والصعود البرتغالي ، فإن المغرب العربي كان أول الدول العربية التي صارت سواحلها الغربية مسرحاً للتواجد البرتغالي لمدة مائة عام تقريباً قبل أن تصبح سواحل عُمان والخليج العربي مسرحاً لتواجدهم أيضاً ، وكانت تلك الفترة ، أي الفترة الثانية تمتد من عام ١٢٥٠م تقريباً أي عندما غادر آخر عربي أرض البرتغال إلى حوالي عام ١٥٠٠م عندما وصلت سفن البرتغاليين إلى سواحل عُمان والخليج ، وهي فترة تعجُّ بالكثير من الأحداث المغربية - البرتغالية .

ولم ينتهِ الأمر عندي باكتشاف المرحلة الثانية من عمر العلاقات العربية - البرتغالية ، ذلك أن هناك مرحلة أولى ، وهي مرحلة مهمة جداً كانت ناقصةً عندي في البحث ، وهي مرحلة أيام العرب في أرض البرتغال ، وتقارب الخمسمائة عام ، ابتدأت في عام ٧١٤م وانتهت في عام ١٢٥٠م تقريباً .

وهكذا فعندما انتهيتُ إلى ما انتهيتُ إليه ، وجدتُ نفسي مُلزماً بالبحث والتنقيب والكتابة عن حقبة تاريخية عمرها ألف عام ، لم يستطع المؤرخون أن يكتبوا عنها إلا النزر اليسير ، كما لم يولها الكثير من الباحثين أهمية خاصة ، لذلك فإنها لم تُكتب في كتاب واحد يشمل القصة كلها بشكلٍ كاملٍ وشاملٍ لمعرفة تفاصيل ما حدث بين الأمتين خلال ألف عام .

ولكي أوجز أهمية الموضوع الذي أنا بصددده ، فإن حقائق تاريخية كبرى قد ظهرت أمامي بعد أن أكملت دراسته وهي :

١ : إن العرب دخلوا (إشبونة) أي لشبونة عاصمة البرتغال في يومنا هذا ، في السنة الثالثة من فتحهم الأندلس أي حوالي عام ٧١٤م ، وكان فتحُ البرتغال قد تم

على يد القائد عبدالعزيز بن موسى بن نصير .

٢ : إن العرب عندما دخلوا أرض البرتغال ، لم يكن للبرتغال وجود سياسي أو كيان مستقل موحد آنذاك ، لذلك فقد أطلق العرب على أرض البرتغال اسم (الغرب) أي غرب الأندلس ، وبقي هذا الاسم قائماً إلى يومنا هذا ، حيث يُطلق البرتغاليون اسم (الغرف ALGIRAVE) على جنوب البرتغال .

٣ : إن تأسيس دولة البرتغال وظهورها على الخريطة والمسرح العالمي كدولة ، قد تم عندما تمكن البرتغاليون بمساعدة الحملة الصليبية الثانية من انتزاع (لشبونة) عاصمة البرتغال من يد العرب عام ١١٥٠م تقريباً ، وما أعقب ذلك من تنويع الملك دون أفونسو هنريك كأول ملك برتغالي ، وقام هذا بإعلان مملكة (بورترس كالا) التي صارت فيما بعد (PORTUCALIS) أي بوابة غاليسيا ، واتخذ شعار دولته وهو الدرع المصفح الذي يعلوه التاج وتحيط به خمس دوائر تمثل خمسة قادة عرب قتلهم البرتغاليون في معركة (قرق) .

٤ : إن العرب بقوا في (الغرب) أي جنوب البرتغال للفترة من سقوط لشبونة في حوالي عام ١١٥٠م ، إلى مغادرة آخر عربي لأرض البرتغال عام ١٢٥٠م ، وكانت تلك سنوات مقارعة بأسلة ، حاول فيها المغرب العربي إنقاذ ما يمكن إنقاذه من ممتلكات عربية في أسبانيا والبرتغال ، إلا أن محاولاته باءت بالفشل بل كانت على حساب قوته واستقلاله .

٥ : إن فترة العنفوان البرتغالي الأول ، أي فترة النشوء والكشوفات البحرية والتي أدت بالبرتغال إلى أن تصبح أول دولة استعمارية في العالم حسب المفهوم الاستعماري الحديث . تلك الفترة تمت في مراحلها الأولى على حساب السواحل والموانئ الغربية في المغرب العربي ، بل إن تاريخ المغرب العربي ولفترة امتدت مائتي عام تقريباً ، لم يكن إلا تاريخ مقارعة الشعب العربي المغربي للاستعمار البرتغالي في تلك السواحل .

٦ : إن البرتغال وإسبانيا وصلتا إلى أوج عظمتيهما السياسية كدولتين استعماريتين في حوالي عام ١٥٧٠م يتحكمان في شؤون الشعوب . إلا أن بداية النهاية للبرتغال كدولة عالمية كبرى قد تم على يد العرب أيضاً ، وذلك عندما تمكنت الدولة المغربية السعدية بقيادة السلطان المعتمد بالله عبدالمالك ، من إبادة جيش برتغالي وأوربي مكون من خمسين ألف جندي يقودهم الملك (سيباستيان) ملك البرتغال ، فأهلكوه وأهلكوا جيشه عام ١٥٧٨م ، فاستغلت إسبانيا الفرصة وقامت باحتلال البرتغال ، فصارت البرتغال مُستعمرة بعد أن كانت مُستعمرة .

كما تمكنت فيما بعد الدولة العثمانية العربية من طردهم من مسقط عام ١٦٥٠ ، ثم إنهاء وجودهم بشكل تام في أية بقعة عربية حوالي عام ١٧٢٠م .

وهكذا توضحت الصورة أمامي ، بأنني يجب أن أعطي ألف عام من التاريخ ، فكان علي أن أحيط بكل ما كُتبَ عن الموضوع أو حوله ، وهو أمر ليس بالسهل ، فالحقائق والمعلومات غير منسقة ، والثغرات التاريخية غير مسدودة ، والمؤرخون كتبوا كل حسب هواه ، ونقلوا روايات بين ضعيفة إلى مخالفة للحقيقة إلى مبالغ فيها إلى صحيحة وصادقة ، علماً بأن عدد المراجع يزداد ويقل حسب طبيعة البحث التاريخي والحقبة الزمنية ، لذلك فإنني وإن كنت قد بدأت بمراجع قليلة إلا أنني تمكنت بعد فترة مضيئة من العمل الدؤوب والبحث العلمي الجاد من أن أحصل على مراجع كثيرة . لكن تلك المراجع كانت مكتوبة بعدة لغات كالبرتغالية والإسبانية والانجليزية والتركية والفارسية والهندية والعربية ، فاعتمدت أولاً على المصادر العربية ثم الانجليزية ثم التركية وهي اللغات التي أجيدها ، ولما كانت المصادر البرتغالية تعتبر أغنى المصادر التي تبحث عن الفترتين الثانية والثالثة من هذا الكتاب فإنني والحمد لله تمكنت من العثور على مترجمين برتغاليين ساعدوني على قدر الإمكان في ترجمة الكثير مما احتجته إلى الانجليزية ، إلى أن انتهيت إلى قرار بأن معظم من كتب من الانجليز عن المنطقة قد نقلوا نقلاً حرفياً عن أشهر الكتب والمراجع البرتغالية ، بحيث قررت

الاعتماد على كتابين انجليزيين هما :

1. HISTORUY OF THE DISCOVER AND CONQUEST OF INDIA BY THE PRUTUGUES,
CPT JOHN STEVAS, LONDON 1695 .

2. THE PORTUGUESE IN INDIA, F.C. DANVERS, LONDON 1895.

واعتمدت أكثر على الكتاب الثاني بعد أن أشبعتُ الكُتُبَ البرتغالية بحثاً وتمحيصاً كمصدر نهائي لغربة وتحليل ومقابلة ما فيها بما جاء في اللغات الأخرى خاصة عن الفترة من عام ١٥٠٠م إلى ١٧٠٠م ، وهي الفترة الثالثة .

وبما أن معظم أحداث التاريخ ليست أحداثاً فردية ولا تقع بفعل عشوائي أو اعتباطي ، وإنما تقع بفعل البشر الذين تُسيطر على أفعالهم وأعمالهم قواعد ونواميس تدفع بهم بعضاً ببعض ، فتقوم دولٌ وتموت أخرى حسب سنة الله تعالى .

لذلك فإن منهج البحث الذي اتبعته في كتابي هذا ، هو أن أُقسِّمَ تلك الفترة الطويلة من التاريخ إلى أدوار وعصور وحقب زمنية طول كل حقبة يتماشى مع الحدث . ولما كان المؤرخون قد درجوا على أن يقسموا التاريخ إلى تاريخ سياسي واقتصادي واجتماعي ، الخ ، فإن ما عكَبَ على طريقتي في سرد الأحداث هو الطابع السياسي ، أي سرد الأحداث السياسية كالحروب وأخبار الملوك والحكومات والاحزاب والانقلابات ، وهو أمر لا بد منه لأن واقع التاريخ البشري يُثبت أن هناك ترابطاً وتفاعلاً ما بين الأحداث السياسية والدوافع الإنسانية الأخرى كالمعتقدات الدينية والاقتصادية والمعيشية ، الخ ، والتي لم أهملها عند سردي للأحداث بل بينتها بكل وضوح ، إلا أنني لم أشأ أن أثقل على القارئ وهو يخوض غمار ألف سنة من الأحداث السياسية بأن أكثر عليه النصوص التي تحمل وجهات النظر المختلفة أو المتعارضة ، كما أنني لم أكثر من الهوامش كما يفعل بعض الكتاب الذين يحشون نصف صفحاتهم بهوامش تجعل القارئ لا يدري أين يُدير عينيه وأي السطور يقرأ ، كما بذلتُ جهدي أن أراعي وحدة الموضوع وأن أتجنب الخوض بكثرة فيما حدث بين البرتغاليين وغير العرب ، اللهم إلا بالقدر الذي يَخُصُّ العرب ، فلم أتوسع بالبحث عن البرتغاليين والهنود أو

البرتغاليين والأفارقة ، لكنني توسعت فيما حدث بينهم وبين الفرس والأتراك العثمانيين لما بين هذين الشعبين من الوقائع التي حدثت في أرض العرب من صلة وثيقة ، وبذلك فقد تجنبْتُ الحديث عن الموضوعات المتباعدة أو المتنافرة التي تطيل الموضوع أكثر ، لذلك فقد وقع كتابي هذا في تسعة وثلاثين فصلاً ، كل فصل يمثل وحدة متناسقة ومتجانسة ومتسلسلة في مادتها بحيث أن موضوعاتها المتتالية والمتراطة تمهد لفصل آخر يعتمد في فهم مادته عليه .

وأخيراً ، فإن التاريخ سجل حياة الأمم ، وواجب المؤرخ تدوين أحداث تلك الحياة في تسلسلها وتعاقبها ، والتاريخ أيضاً دراسة الحاضر عن طريق الماضي فهو لذلك يجب أن يُدرس لأجل أن نصل إلى تفهّم أحسن للواقع ، وبدراسته نحصل على إضاءة جيدة لمجريات الأمور واطلاع واضح لختلف النظريات والأفكار التي كوَّنت وسيرت ركب الأحداث .

وما أوجنا نحن العرب في يومنا هذا ونحن نقف حائرين أمام مشاكلنا السياسية لا نعرف كيف نعالجها خاصة مشكلتنا مع الصهيونية ، أن ندرس ما فعله أجدادنا حين أنشأ الاستعمار البرتغالي والبريطاني والفرنسي مخالفة في أجسامهم ، وأن نتعظ من دروس التاريخ ، وأن نتجنب أخطاء الماضي ، ولعل أكبر أخطائنا نحن العرب في يومنا هذا ، هي أخطاء أجدادنا نفسها عندما كانوا يقفون مشتين غير متحدين أمام مشاكلهم السياسية .

إن تفهّمنا لمشاكل عصرنا الحالي يمكن فهمها بطريقة أفضل حين مقارنتها بحالات مشابهة وقعت في الماضي . فالتاريخ مدوّن الماضي لجلاء الحاضر ، وما أكثرها من حالات مشابهة في هذا الكتاب . ومن تاريخ الصراع العربي البرتغالي نتعلم منه أن الحياة تنافس واختيار للأحسن . ففي الصراع من أجل البقاء نجد أن بعض القوى تتغلب والأخرى تفشل حسب سُنّة أن من كان مع الله كان الله معه .

وهكذا انتهى الاستعمار البرتغالي وانتهى الاستعمار الانجليزي وكذلك الفرنسي

وغداً ينتهي الاستعمار الصهيوني ، في الوطن العربي بعون الله عز وجل متمثلين بما جاء بسورة الروم في التنزيل العزيز قوله تعالى في الآية رقم (٩) :

« أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ، وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » صدق الله العظيم .

المؤلف -

فالح زكي حنظل

دكتوراه في الدراسات العربية والإسلامية

٣ - جمادى الآخرة - ١٤١٧ هـ

١٤ - تشرين أول - ١٩٩٦ م

الفصل الأول

الفتح العربي للبرتغال

يقوم تاريخ الفتح العربي للبرتغال ، وكما ترويه المصادر العربية ، على مجموعة من الأخبار التي تنقصها الإحاطة والشمول ويحيط بها الغموض في أغلب الأحيان ، بحيث يتكلف المؤرخ جهداً كبيراً ، لتثبيت وقائع ذلك الفتح وما يليه من تحقيق وتأريخ أيام العرب هناك ، وسير ملوكهم وحكامهم ودولهم وإماراتهم ، منذ نشأتها حتى سقوطها ، بتفصيل يروي ظمأ الباحث والمؤرخ .

كما أن المصادر الاسبانية والبرتغالية ، لم تذكر لنا تفاصيل ذات فائدة عن تلك الفترة من تاريخ شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا والبرتغال) ، إلا أنه يمكن تحديد تاريخ الفتح العربي للبرتغال منذ البداية إلى خروج العرب من (لشبونة) العاصمة بحوالي أربعمئة عام (٧١٤م - ١١٥٠م) ، ومنذ خروجهم من (لشبونة) إلى أن غادر آخر عربي أرض البرتغال مائة عام آخر (١١٥٠-١٢٥٠) فتكون مدة التواجد العربي في أرض البرتغال خمسمائة عام . ولكي نتبع مراحل الفتح العربي للبرتغال ، لا بد من العودة إلى الفتح العربي الأول لشبه الجزيرة الأيبيرية ، وإلقاء بعض الضوء عليه ، والحديث عنه باختصار .

كانت آيبيريا (إسبانيا - والبرتغال) قبل الفتح الإسلامي تحت حكم القوط الغربيين (VISIFOTHs) ، الذين استبدوا وطمغوا في البلاد مما دفع بأحد قادة الجيش واسمه

(رودريكو RODRIGO) ويسميه العرب (لوزريق) إلى القيام بالاستيلاء على السلطة وعزل الملك (WITIZA) ويسميه العرب (غيطشة) عن الحكم ، لكن أتباع (غيطشة) هذا لم يقبلوا بذلك فقاموا بالاتصال بحاكم المغرب الإسلامي القائد موسى بن نصير لغرض مساعدتهم على استعادة السلطة من (رودريكو) .

ولما كان موسى بن نصير ومن معه قد أرسوا كلمة الإسلام في الشمال الأفريقي ، فقد كانت الخطوة الطبيعية التالية لهم هي فتح الأندلس ، وذلك لتأمين الحدود الإسلامية ونشر الدعوة هناك ، لذلك فإنه ومن المرجح أن يكون موسى بن نصير قد استغل ذلك الموقف السياسي في أيبيريا لصالحه فبدأ استشارته مع الخليفة الوليد بن عبد الملك في دمشق للقيام بهذا العمل الكبير .

وقد ترددت القيادة الإسلامية من دمشق في القيام بهذا العمل ، لكن موسى أقنع الوليد بالأمر ، فلما اقتنع هذا بأمر موسى الاتصال بالقائد (يوليان JULIAN) ، وكان هذا يعمل أيضاً ضد نظام رودريكو الجديد ، فوافق على أن يضع نفسه في خدمة قوات العرب . وقبل أن تقوم الحملة ضد إسبانيا ، كان موسى بن نصير قد أرسل قوة استطلاعية مكونة من أربع مائة من المشاة ومائة من الفرسان بقيادة طريف بن مالك الملقب بأبي زرعة ، واجتازت هذه القوة المضيق من مدينة سبتة وهي محملة على سفن (يوليان) ، ونزلت قرب جزيرة (بالوما) التي صار اسمها (جزيرة طريف TARIF) الآن ، وعندما عاد طريف إلى المغرب قدم معلومات عسكرية مفيدة إلى موسى بن نصير ساعدته على وضع خطة الإنزال .

أكمل موسى بن نصير خطة حشد الجيش ، فصار لديه سبعة آلاف جندي مسلم واختار طارق بن زياد والي طنجة قائداً للجيش ، وفي الخامس من شهر رمضان من عام ٩٣هـ الموافق لشهر نيسان من عام ٧١١م أي بعد سنة من حملة طريف عبر طارق وجيشه من مدينة سبتة بسفن عريية ، ومعه سفن إيليان أيضاً^(١) ، ونزل الجيش في

(١) الدكتور عبد الرحمن الحجي - التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة - ص ٤٧ .

جنوب إسبانيا على جبل صخري اسمه (MONS CALPE) عرف فيما بعد باسم جبل طارق (GIBRALTAR) ، وعندما تصدت حاميات الملك (رودريكو) لجيش طارق ، أنزل بهم هزيمة ، ثم كتب إلى موسى يطلب نجدة ، فأرسل له موسى جيشاً بقيادة طريف بن مالك فأصبح جيش طارق اثني عشر ألف محارب وقيل أيضاً ثمانية عشر ألف جندي من قريش وبقية العرب ووجوه الناس^(٢) أما الملك رودريكو فقد حشد جيشاً يتراوح عدده ما بين أربعين إلى مئة ألف مقاتل ، والتقى الجيشان في يوم الأحد ٢٨ / رمضان / ٩٣ هـ أي حوالي أيار من عام ٧١١ م في كورة شذونه SIDUNIA في سهل الفرنتيره FRONTERA ، حيث ألقى طارق خطبته الشهيرة وأحرق سفنه ، ثم أنزل هزيمة بجيش رودريكو .

ولما اكتمل ذلك النصر لطارق اندفعت جيوشه مستثمرة الفوز نحو الشمال فسقطت مدن جنوب إسبانيا (الأندلس) الواحدة تلو الأخرى مثل مدن (استجة ECIZA) و (اشبيله SIVILLA) و (قرطبة CORDOBA) و (غرناطة GRANADA) وغيرها من مدن الجنوب وترك فيها بعض الحاميات فيما اندفع هو والقسم الأكبر من جيشه مخترقاً وسط إسبانيا وقلبها إلى أن وصل إلى مدينة (طليطلة TOLIEDO) وفتحها واستمر بالاندفاع شمالاً إلى أن وصل إلى مدينة (المائدة) المجاورة لمدينة (مَجْرِيْط) التي هي مدريد عاصمة إسبانيا في يومنا هذا ، وإزاء اندفاع طارق بجيشه وتوغله في مسافات شاسعة في قلب إسبانيا ، فقد طالت خطوط مواصلاته ، وضعفت حامياته في المدن الجنوبية التي فتحها ، فعادت وسقطت بيد الأسبان ، ولأسباب أخرى قد يطول شرحها في هذا المختصر فقد قرر موسى بن نصير والي الشمال الأفريقي أن يلحق بالأندلس وبجيش طارق على رأس جيش يقوده بنفسه لنجدة طارق واستعادة المدن التي خسرها وتأمين خطوط مواصلاته وفتح أجزاء أخرى من الأندلس وبقية أرجاء شبه الجزيرة الأيبيرية .

(٢) الدكتور عبدالعزيز سالم - تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس - ص ٩٤ .

موسى بن نصير يفتح البرتغال

بعد أن قرر موسى القيام بغزو الأندلس ، رتب أموره في عاصمته القيروان واستخلف ولده عبدالله نائباً عنه في حكم شمال أفريقيا ، وعبر إلى الأندلس مع ولديه عبدالعزيز وعبد الأعلى على رأس جيش قوامه ثمانية عشر ألف مقاتل وكان ذلك في نهاية عام ٩٣هـ - حزيران ١٧١٢م وعندما اكتمل العبور تحشد الجيش في الجزيرة الخضراء لغرض إعادة التنظيم وهناك وزع موسى الرايات على ألوية جيشه فكانت عشرين راية ، ثم بنى مسجداً في المكان الذي وزع فيه الرايات وأسماه مسجد الرايات .^(٣)

ثم اندفع نحو مدينة (شدونه) فأعاد فتحها واتجه شمالاً نحو (قرمونه) ففتحها ثم أعاد فتح مدينة (اشبيلية) التي هرب منها قائد الحامية وجيشه إلى مدينة (باجه) البرتغالية ثم اتجه موسى بجيشه غرباً فوصل إلى مدينة (نبله NIBLA) المتاخمة لحدود البرتغال ففتحها وبذلك أصبح جيشه على حدود البرتغال وقريباً من أول مدينة برتغالية وهي (باجه BEJA) ، وعلى كل حال فإن المصادر التاريخية العربية لم تزودنا بمعلومات تفصيلية عن فتح (باجه) البرتغالية ، ومتى كان ذلك ، وهل أن موسى بن نصير هو فاتح (باجه) أم أن ابنه عبدالعزيز هو الذي فتحها .

لقد اتفقت كل المصادر على أن موسى بن نصير اندفع بألوية جيشه شمالاً بعد أن حرر معظم مدن الجنوب أي الأندلس واتخذ من مدينة (اشبيلية) قاعدة وعاصمة له ، وأنه في شهر آب من عام ٧١٣م التقى بطارق بن زياد في مدينة (طليطله) وهناك التقيا بالملك رودريكو فأنزله هزيمة وقضيا عليه في معركة (وادي يرباط) في أيلول من العام نفسه .

ثم لم تلبث تلك الجيوش العربية أن اندفعت إلى شمال إسبانيا من مناطق (سرقسطه ZARAGOZA) إلى (برشلونة BARCELONA) إلى الحدود الإسبانية -

(٣) الدكتور عبدالرحمن الحجي - المصدر نفسه ص ٦٩ .

الفرنسية إلى (جليقة GALICIA) على المحيط الأطلسي في أقصى الشمال الغربي لإسبانيا ، ولكن دون إحكام سيطرة تامة هناك .

ثم كان استدعاء الخليفة الأموي لموسى وطارق بالعودة إلى دمشق فلم يكن بد من العودة فتوقفت عمليات الفتح في إسبانيا .

بداية عهد الولاة في الأندلس

عبد العزيز بن موسى بن نصير يكمل فتح غرب الأندلس أي البرتغال

عاد موسى بن نصير من شمال إسبانيا وأقام في اشبيلية لترتيب أمور الأندلس وأحوالها وعيّن ابنه عبد العزيز والياً على الأندلس ، فيما قفل هو وطارق عائدين إلى دمشق فغادرا أرض إسبانيا في عام ٩٥هـ - ٧١٤ م .

استلم عبد العزيز بن موسى بن نصير زمام الأمر في الأندلس ، وعلى عهده بدأت قصة الفتح العربي الغامضة للبرتغال ، إذ يسود بعض الاعتقاد أن فتح مدينة (باجة) البرتغالية تم على يد عبد العزيز بينما كان موسى وطارق يفتحان شمال إسبانيا .

وعلى كل حال فإن وصول العرب إلى مدينة (باجة BEJA) البرتغالية ، فتح الباب أمام جيوش عبد العزيز أن تتوغل هناك .

لكن العرب لم يعرفوا أنهم كانوا في داخل أرض البرتغال كما هي عليه في يومنا هذا ، كما أن اسم البرتغال لم يكن وارداً آنذاك في قاموس اللغة الأسبانية أو البرتغالية ، ذلك أن اسم البرتغال ظهر عام ١٠٩٥م عندما استقل كونت هنري أوف بورغندي بالبرتغال عن الأسبان فصار اسم القطر البرتغال .

لذلك فإن العرب أطلقوا على المناطق التي تم فتحها في جنوب البرتغال اسم (الغرب) باعتبارها تقع غرب الأندلس وغرب العاصمة اشبيلية ولا زال جنوب البرتغال يسمى (ALGIRAVE) إلى يومنا هذا ، ثم إن العرب لما توغلوا شمالاً في أرض البرتغال واحتلوا العاصمة (أشبونة أي لشبونة LISBOA) في يومنا هذا واندفعوا شمالاً

إلى وادي نهر (دويره RIO DOURO) ، فإنهم أطلقوا اسم الثغر الأدنى على الجزء الأكبر من برتغال اليوم ، أما الاسم الأكثر شيوعاً فهو الغرب أي غرب الأندلس ، إلا أن العرب توقفوا في فتوحاتهم هناك عند نهر التاجه الذي يسميه الإسبان والبرتغاليون (TEJO) ، وهو النهر الذي يشطر إسبانيا والبرتغال إلى شطرين ويمر من منتصفهما تقريباً . ويورد الدكتور عبدالعزيز سالم في كتابه تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس خبر ذلك الفتح مذكوراً باقتضاب في (الرسالة الشريفة) . وقد جاء فيها :

« فلم يبقَ في الأندلس بلدة دخلها المسلمون بأسيافهم وتصير ملكاً لهم إلا قَسَمَ موسى بن نصير أراضيها ، ما عدا ثلاثة بلدان هي شترين (SANTAREM في البرتغال) وقلنبرية (COIMBRA في البرتغال أيضاً) (وشيه في الشرق) . »

وعلى كل حال فإن (باجه BEJA) تم فتحها عام ٧١٣ م ، على يد عبدالعزيز ، وأن مدينة (يابه EVORA) التي تقع في شمالها قد تم فتحها عام ٧١٤ م ثم تبعتها مدينة (شترين SANTAREM) التي تقع قرب العاصمة لشبونه ، ثم استطاع عبدالعزيز التقدم شمالاً إلى مدينة (قلمريه COIMBRA) وذلك لملاقاة بعض الحاميات والوحدات العربية التي تركت في شمالي إسبانيا .

أما المصادر البرتغالية المتوفرة لدينا فقد وصفت ذلك الفتح باقتضاب أيضاً وذكرت أنه في سنة ٧١٣ م نظم السُكَّان المسيحيون في (باجه) جنوب البرتغال حملة لمساعدة أهالي (أشبيلية) المتمردين ضد العرب وساروا نحو المدينة ، وانضمت اليهم جموع من مدينة (بله) الاسبانية ، إلا أن موسى بن نصير استطاع سحق العصيان ، واندفع بجيشه شمالاً نحو مدينة (ماردة) الاسبانية وفتحها في ٣٠ / حزيران / ٧١٣ م ومن هناك أرسل موسى ولده عبدالعزيز ليؤدب المدن العاصية ويفتحها فقام عبدالعزيز بفتح مدينة (بله) الاسبانية ومدينة (باجه) البرتغالية وربما مدينة أخرى تقع اليوم في جنوب البرتغال اسمها (ESTOMBRA) .

ثم قرر عبدالعزيز أن يتقدم شمالاً فسقطت مدينة (يابره EVORA) بيده في ١٤ / آذار / ٧١٥ م واستولى في الشهر نفسه على مدينة (IDANHA-a-VELHA) ، وفي ٢٨ / نيسان استسلمت مدينة (ALCACAR DE-SAL) (يسمىها العرب قصر أبي دانس) ، أما لشبونة فقد سقطت ومعها مدينة (قلمرية COIMBRA) في سنة ٧١٦ م .

وتذكر لنا المصادر نفسها أن عبدالعزيز قد ذهب قبل اغتياله إلى أقصى الشمال وغزا مدينة (بورديو OPORTO) ومدينة (براغا BRAGA) إلى أن دخل إلى داخل (GALICIA) في أقصى الشمال الاسباني التي يسميها العرب (جليقة) .^(٤)

هذا ، ولم تترك لنا المصادر التاريخية العربية ولا الأجنبية أخباراً وحوادث أخرى جرت في البرتغال طيلة عهد الولاة في الأندلس والذي امتد من عام ٩٥ هـ إلى ١٣٨ هـ أي من ٧١٤ م إلى ٧٥٥ م ، حيث بدأ عهد الإمارة هناك .

(٤) ف. ج. فيلوزو: THE PROBLEM OF ARABIC - ISLAMIC INFLUENCE IN PORTUGUESE CIVILIZATION:

الفصل الثاني

البرتغال في عهد الإمارة بالأندلس

من ١٢٨هـ إلى ٤٠٠هـ المصادف ٧٥٥م إلى ١٠٠٩م

يعتبر دخول عبدالرحمن الداخل إلى قرطبة واستلامه مقاليد الأمر هناك وهروب آخر حاكم عربي في عهد الولاة وهو يوسف الفهري ، بداية لعهد الإمارة في الأندلس ونهاية لعهد الولاة فيها والذي استمر لمدة ٤٢ سنة تقريباً . وكما حصل في عهد الولاة من شحّة في المصادر التاريخية التي تبحث بالتفصيل عن أيام العرب في البرتغال ، فإن المصادر التاريخية شحّت أيضاً بتزويدنا بمعلومات تُرضي بحثنا التاريخي وتشفي شوقنا لمعرفة أيام العرب هناك خلال فترة عهد الإمارة الذي استمر لمدة تقدر بمئتين وخمسين عاماً تقريباً ، اللهمّ الا في قضيتين مهمتين وهما : قضية ظهور الدعوة العباسية في مدينة (باجه) ، وقضية هجمات (النورماند VIKINGS) المتعددة على مدينة (لشبونة) التي كانت بيد العرب يومذاك .

فبالنسبة لقضية الدعوة إلى العباسيين في الأندلس ، يحدثنا الرواة العرب أنه في عام ١٤٦هـ . أي بعد ثماني سنوات من تمكن عبدالرحمن الداخل من الحكم في الأندلس ، وعندما كان الخليفة أبو جعفر المنصور يحكم الدولة العباسية من بغداد ، فإن الأندلس كانت قد أعلنت نفسها دولة أموية لا علاقة لها بالنظام العباسي في بغداد ، مما دفع بأبي جعفر المنصور أن يعمل لضم هذا الجزء من ممالك العرب آنذاك

إلى مُلك الدولة العباسية ، فأجرى اتصالاً مع العلاء بن مغيث الجذامي قائد الجند في مدينة (باجه) يحثه على إعلان العصيان ضد (قرطبة) ونظام عبدالرحمن الداخل . ثم أن العلاء التقى ببعض أعوان الخليفة العباسي في المغرب العربي وأجرى محادثات معهم بهذا الصدد ووافق على طلب المنصور ، فلما تم ذلك أعلن العصيان في (باجه) ورفع شعار بني العباس أي الراية السوداء ودعا إليهم ، فلما بلغ أمره إلى عبدالرحمن الداخل وهو في قرطبة خرج إليه بجيشه والتقى به في قرية مجاورة لإشبيلية اسمها (الكرم) وهناك دارت الدوائر على العلاء وانهزم جيشه وقُتل في المعركة وانتهت بموته تلك الفتنة .

أما قضية هجمات النورمانيين أي الـ (VIKINGS) على مدينة لشبونة ، فإنهم قاموا بعدة هجمات كانت أولها عام (٢٢٩هـ - ٨٤٤م) وآخرها عام (٣٦٠هـ - ٩٧١م) فقد حدث الهجوم الأول في أوائل شهر ذي الحجة ٢٩٩هـ اكتسح فيه النورمانديون لشبونة وتمكنوا من الوصول إلى قرطبة ثم أقفلوا عائدين . والنورمانديون هم الذين أطلق الغرب في الأندلس عليهم اسم (المجوس) ، وهم شعب يرجع إلى أصل جرمانى ، عُرف عنه شدة ولعه بالقتال والحرب وشدة بأسه وقسوته فقد ظهرت مراكزهم فجأة أمام مدينة (أشبونة) أي (لشبونة) الحالية ، وبوغت حاكم المدينة العربي واسمه وهب الله بن حزم ، بهم ، فلم يستطع أن يجمع قواته لصدّهم فاحتكموا المدينة واستباحوها لعدة أيام ثم اندفعوا نحو مُدُن (لبله) و(قادس) و(شدونة) و(باجه) ثم دخلوا (إشبيلية) فاستباحوها لمدة سبعة أيام ، وتقدموا نحو (قرطبة) وحاصروها ، بينما راحت وحداتهم الموجودة في المدن التي فتحوها تقتل الرجال وتسبي النساء ، إلى أن خرج لهم جيشٌ عربي بقيادة (نصر الخصي) وهو أحد قادة الأمير عبدالرحمن الثاني ، وتمكن من إنزال هزيمة بهم وقتل أكثر من خمسمائة رجل منهم فترجعوا إلى (لشبونة) وهناك ركبوا البحر عائدين من حيث أتوا ، واستمرت تلك الفتنة نحو مائة يوم^(١) .

(١) عبدالرحمن علي الحجبي - المصدر نفسه ص ٢٢٩ نقلاً عن كتاب (ترصيع الأخبار وتنويع الآثار) وكذلك الدكتور أمين توفيق الطيبي - دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس - ص ٢٢٢ .

وفي عام ٢٤٥هـ - ٨٥٩م وردت إشارة في المصدر التاريخي نفسه عن محاولة ثانية قام بها النورمانديون للهجوم على جنوب البرتغال إلا أن المحاولة فشلت ، وعلى أثر فشلها فإن ملك الدانمارك (هوريك HORIC) أرسل إلى عبدالرحمن يطلب منه عقد صلح ، فاختار عبدالرحمن رجلاً من أهالي مدينة (شلب SILVES) ، اسمه يحيى بن حكم البكري الحياتي ويعرف باسم الغزال أيضاً ، لاجراء تلك المفاوضات نيابة عنه .

وإزاء ما تردد من شدة بطش هؤلاء النورمانديين وعدم الاعتماد على معاهدات الصلح التي تعقد معهم ، فإن حكام الأندلس قاموا بتأسيس أسطول قوي ليجوب مياه البرتغال للدفاع عن تخومها ومدنها الساحلية ، كما أنهم ربطوا (الغرب) البرتغالي ، بمدينة اشبيلية ، فأصبحت اشبيلية عاصمة لتلك المقاطعات البرتغالية ، وظهر اسم مدينة وميناء (شنت مريه الغرب) أو (سانت ماريا) الذي يقع في السواحل الجنوبية البرتغالية وهو غير مدينة (شنت مريه الشرق) التي تتبع قرطبة ، فكانت (شنت مريه الغرب) وميناء (قصر أبي دانس ALCACER DOSAL) ومدينة أشبونه أي لشبونه قواعد بحرية للأسطول العربي .

ويذكر لنا المؤرخون العرب أنه في عام ٢٤٧هـ - ٨٦١م حاول النورمانديون الهجوم ثانية على الأندلس فيقولون :

« وفي تلك السنة كان خروج المجوس إلى الأندلس ، فلم يكن لهم في هذه الكرة من الاتساع في البحر والإضرار بأهل السواحل ما جرت به عادتهم ، ولم يجدوا في السواحل مطمعا لشدة ضبطها ولا قوام مع ذلك من البحر هولا أعطب لهم من مراكبهم أربعة عشر مركبا بناحية (البحيرة) فنكبوا عن حائط الأندلس وأسرعوا إلى الانصراف إلى بلدهم . »^(٢)

وعندما تولى الخليفة عبدالرحمن الثالث (٣٠٠هـ إلى ٣٥٠هـ - ٩١٢م إلى

(٢) عبدالرحمن علي الحجي - المصدر نفسه - ص ٢٣٩ .

ويقول ابن حزم الأندلسي : إن بني داس بن عوسجه من المصامدة كانوا أصحاب مدينة (قليرة) وإلى جدهم ينسب قصر أبي دانس .

٩٦٢م) الحكم ، وأعلن الخلافة في الأندلس وتسمى باسم الناصر لدين الله ، فإن أحداثاً جديدة استجدت على الوضع العام في إسبانيا ، ذلك هو ظهور التكتلات السياسية والعسكرية القوية بين الإسبان المناهضين للعرب في منطقة (جليقه GALI-CIA) التي تقع شمالي نهر دويرة في أقصى الشمال الغربي من إسبانيا ، وكانت تضم معها شمال البرتغال أيضاً ، فكانت مدينة (شنت ياؤب) أو (SANTIAGO DE CONPOSTELA) أي مدينة (القديس يعقوب) مركزاً لكافة التجمعات التي تريد إخراج العرب من البلاد ، ففيها قبر القديس يعقوب الذي يشكل محجاً يحج إليه المسيحيون من كافة أرجاء العالم ، فصارت المدينة مركزاً لدعاة الحرب ضد العرب . وراح الخطباء من كافة الدول الأوروبية المسيحية يتبارون في حث الناس على قتال العرب وإخراجهم من الأندلس لذلك فقد شهدت المناطق الشمالية من البرتغال معارك عديدة بين العرب من جهة والإسبان والبرتغال المتحالفين من جهة أخرى ، ولعل أشهرها معركة (الخنديق) التي جرت على نهر دويرة بين القوات الأوربية المتحالفة بقيادة الملك روميرو الثاني (RAMIRO II) ملك ليون وبين القوات العربية بقيادة الخليفة الناصر لدين الله وكان ذلك في عام ٩٣٩م ، وفي تلك المعركة كان الدافع الديني المسيحي لدى الأوربيين شديداً لدرجة أنهم تصوروا أن القديس يعقوب ظهر وسط المعركة راكباً حصاناً أبيض ومرتدياً درعه وسيفه وقاد المعركة بنفسه . وفي أعوام ٩٥٣ - ٩٥٥م كانت أحواز الأشبونة قد تعرضت لغارة من قبل (أردونو الثالث) ملك ليون ، إلا أن المسلمين أوقعوا به هزيمة .

وعندما توفي الخليفة عبدالرحمن الثالث (الناصر لدين الله) خلفه في الحكم الخليفة الحكم الثاني (المستنصر بالله) الذي حكم من عام ٣٥٠ إلى ٣٦٦هـ أي ٩٦١ إلى ٩٧٦م وعلى أيامه حدث هجوم آخر على البرتغال ففي بداية شهر رجب ٣٥٥هـ ٢٣ حزيران - يونيو ٩٦٦م ورد خبرٌ من ميناء قصر أبي دانس (ALCACER DO SAL) الواقع جنوب لشبونة يقول :

« جرت أحداث اعتركت فيها البحرية الأندلسية التي نمت وقويت منذ زمن بقيادة أمير البحر عبدالرحمن بن رماحس ، فردّوا وقد أعطيت بعض مراكبهم » .

وفي منتصف رجب ورد كتاب من قصر أبي دانس إلى المستنصر بالله يذكر فيه ظهور أسطول المجوس ببحر الغرب بقرب هذا المكان واضطراب أهل الساحل كله لذلك ، وكانوا في ثمانية وعشرين مركباً ، ثم ترادفت الكتب من تلك السواحل عن أخبارهم ، وأنهم قد أضروا بها ووصلوا إلى بسط (أشبونة) ، فخرج اليهم المسلمون ودارت بينهم حرب ، استشهد فيها من المسلمين وقتل فيها من الكافرين ، وخرج أسطول (إشبيلية) فاقتحموا عليهم بوادي (شلب) وحطموا عدة من مراكبهم واستنقذوا من كان فيها من المسلمين وقتلو جملة من المشركين وانهزموا إثر ذلك خاسرين . ويرد أيضاً اسم قائد بحري اندلسي هو خشخاش بن سعيد بن أسود ويلقب (خشخاش البحري) في التصدي لمراكب المجوس ، حتى استشهد^(٣) .

أما ابن خلدون فيجعل ظهور (المجوس) سنة ٣٥٤ هـ فيقول : « وظهرت في هذه السنة مراكب المجوس في البحر الكبير ، وأفسدوا بسائط (أشبونة) وناشبههم الناس القتل فرجعوا إلى مراكبهم ، وأخرج الحكم ، القادة لاحتراس السواحل . ، وأمر قائد البحر عبدالرحمن بن رماحيس بتعجيل حركة الاسطول ، ثم وردت أخبار بأن العساكر نالت منهم في كل جبهة من السواحل »^(٤) .

وبعد خمس سنوات من التاريخ أعلاه هاجم الـ (VIKING) أو المجوس الأردمانيون مرةً أخرى في بداية رمضان ٣٦٠ هـ أول صيف ٩٧١ م فيذكر المؤرخون العرب ما يلي :

« وفي صدر رمضان منها وقع الإرجاف بتحرك المجوس الأردمانيين لعنهم الله وظهورهم في البحر الشمالي ورووهم سواحل الأندلس الغربية على عاداتهم ، فانزعج السلطان لما سيق له من خبر ، وعهد إلى عبدالرحمن بن رماحس قائد البحر

(٣) الدكتور عبدالرحمن الحججي - المصدر نفسه - ص ٣٠٩ عن البيان المغرب وكذلك الدكتور الطيبي - المصدر نفسه - ص ٢٢٣ .

(٤) ابن خلدون - العبرج ٣١٤ / ٤ .

وهو في قرطبة بالتأهب للركوب لناحية (الغرب) فنقذ بأمره يوم الاثنين لست خلون من شهر رمضان وتمكن من ردهم خائئين» .

ثم عاد المحجوس الأردمانيون لمهاجمة سواحل الأندلس الغربية (أي سواحل البرتغال) وكان ذلك في بداية سنة ٣٦١هـ أي نهاية ٩٧١م فردّهم منتصراً إلى قرطبة من مدافعتهم وردّ لهم لينهي خبر ذلك إلى الخليفة الحكم المستنصر ويداوله في مهماته .

« وفي ليلة الجمعة لليلتين خلتا من صفر احتل الوزير القائد غالب بن عبدالرحمن بمحلة (فحص السرادق) قافلاً من غزاته إلى (ساحل الغرب) التي تجول فيها وأشرف على المحجوس الأردمانيين الجائشين في هذه السنة ، فاستركب اليه الجيوش يوم السبت بعده ، من قصر قرطبة في التعبئة المنتظمة بالعدد الفخمة ، إلى أن وصل قصر قرطبة والخليفة يومئذ مقيم به ، فتوصل إليه وقعد بين يديه ملياً ومفاوضاً له ومُسائلاً عن حركاته وتقلباته في غزاته التي كفى الله فيها المسلمين القتال وكان الله قوياً عزيزاً»^(٥) وفي مصدر آخر :

« وفي يوم الثلاثاء لخمس خلون من ذي القعدة منها احتل مدينة الزهراء صاحب الخيل زياد بن أفلح وصاحب الشرطة العليا هشام بن محمد ، قافلين من غزاتهما إلى (ساحل الغرب) لتتبع أخبار المحجوس الاردمانيين - أهلكهم الله - المتوقعين بالناحية فتوصلا إلى أمير المؤمنين وأنبأه بما قضيا في وجههما ، وحيث بلغا من قصدهما وأنهما انتهيا إلى مدينة شترين (أي مدينة SANTAREM البرتغالية) قاصية ذلك الصقع ، وتظاهرت لديهما الأنباء الصحيحة بأن الأردمانيين - لعنهم الله - نكصوا عن الإقدام على المسلمين عند تسمعهم بخبر الدلوف إليهم والاستعداد لهم برأ وبعراً ، فانقلبوا على وجوههم وجدوا في نكوصهم وأن الجواسيس الذين أرسلوا لامتحان أخبارهم عادوا إليها بعد بلوغهم (شنت ياقب) من قاصية بلد العدو ، ولم يختلف عليهم في فرارهم بفضل الله تعالى ومنته»^(٦) .

(٥) الدكتور عبدالرحمن الحججي - المصدر نفسه - ص ٣١٠ .

(٦) الدكتور عبدالرحمن الحججي - المصدر نفسه - ص ٣١٢ .

هذا ولم تسعفنا أخبار الرواة والمؤرخين العرب بأكثر مما ذكره عن أخبار (الغرب) أي البرتغال على زمن وعهد الإمارة في الأندلس والذي استمر لمدة تقارب مئتي عام كان أبرز أحداثه هو إعلان الخلافة هناك على زمن عبدالرحمن الثالث وظهور قرطبة العاصمة مركزاً من مراكز العلم والثقافة وجهاد ملوك وخلفاء ذلك العهد في الفتوحات والانتاج الفكري والعمراني والعلاقات مع الدول الإسلامية وغير الإسلامية ودفاعهم عن التخوم الغربية أي البرتغال ضد هجمات النورمانديين إلى أن انتهت الخلافة ، وبعدها قامت في إسبانيا ممالك ودويلات مستقلة يحكم كلاً منها أمير مستقل فكان ذلك بداية (عهد الطوائف) هناك .

الفصل الثالث

البرتغال على عهد الطوائف في الأندلس

٤٠٠هـ إلى ٤٨٤هـ المصادف ١٠٠٩م إلى ١٠٩١م

كان آخر من تولى الملك والإمارة في الأندلس على عهد الولاة هو هشام بن الحكم الثاني الملقب بالمؤيد بالله وكان صبيّاً في الحادية عشر من عمره ، ولم يكن باستطاعته النهوض بأمور الدولة ورعاية شؤون الأمة ، مما دفع بوزيره محمد بن أبي عامر المعروف باسم الحاجب المنصور أن يأخذ السلطة لنفسه وأن يحكم باسم هشام ، مما جعل بعض المؤرخين يطلقون اسم عهد بني عامر على تلك الفترة التي استمرت مدة عشرين عاماً تقريباً . وعندما مات محمد بن أبي عامر حكم بعده ابنه عبد الملك الملقب (المظفر) ، ثم ابنه الآخر عبد الرحمن (شنجول) ومقتل الأخير انتهت الخلافة في الأندلس .

وبذهاب الخلافة وانتهاء حكم أسرة بني عامر ، فإن عهد الطوائف في الأندلس يكون قد ابتدأ ، ويكون ذلك أيضاً بدايةً لعهد تصدّع ذلك البناء الشامخ ، فقامت الممالك والدويلات المستقلة في الأندلس يحكم كلاً منها أمير أو ملك ، فتقسمت الأندلس إلى ست مناطق رئيسية تضم كل منها إمارة أو أكثر ، حتى بلغت أحياناً عشرين إمارة تربع على عروشها حكام اقتسموا ألقاب الخلافة ، فتلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمظفر وأمثالها وساروا بآمتهم نحو الخراب^(١) .

(١) عبد الرحمن الحجي - المصدر نفسه - ص ٣٢٤ .

وفي ذلك قال الشاعر أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني :

مما يُزهدُنِي في أرض أندلس أسماءُ معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهريحي انتفاخا صولة الأسد
فصارت في الأندلس الممالك العربية التالية :

مملكة سرقسطه ويحكمها بنو هود - مملكة قرطبة ويحكمها بنو جمهور - مملكة
طليطلة ويحكمها بنو دثون - مملكة بطليوس يحكمها بنو الأفطس - مملكة بلنسية
يحكمها عدد من العوائل - مملكة غرناطة ويحكمها بنو زيزي - مملكة أشبيلية
ويحكمها بنو عبّاد .

والذي يهمنا في التقسيم أعلاه هو أمر مملكتي بطليوس وأشبيلية ، حيث يُفهمُ مما
أورده المؤرخون العرب - على قلة الاخبار وشحتها كالعادة - أن (الغرب) أي
البرتغال حكمها بنو الأفطس ملوك (بطليوس) أولاً ، ثم لما ظهر المعتمد بن العباد
ملك اشبيلية القوي ضم جنوب البرتغال إلى ملكه فصار غرب الأندلس أي البرتغال
تابعاً لمملكة أشبيلية ولربما اقتسمت المملكتان العريتان البرتغال ، فصار شماله تابعاً
لمملكة بطليوس وجنوبه لمملكة أشبيلية .

أما العاصمة (بطليوس) فهي المدينة الأسبانية المسماة (BADAJOZ) التي تقع على
حدود البرتغال الحالية مع إسبانيا وفي وسطها مقابل العاصمة (لشبونة) تقريباً . هذه
المملكة تولى أمرها رجل يسمى مسلمة بن الأفطس ، لم تذكر لنا المراجع العربية خبراً
مهماً عنه ، ثم تولى أمرها ابنه أحمد ولا خبر عنه أيضاً ثم تولى أمرها ابنه أبو محمد
عبدالله المنصور ، ثم سيف الدولة أبو بكر محمد المظفر ، فلما مات المظفر ، ترك
ولدين الأول هو يحيى الذي صار والياً لمدينة بطليوس ، والثاني هو عمر الذي تولى
أمر (يابره) و(الشبونة) ، فلما توفي يحيى ، انفرد عمر بالأمر ، فصعد إلى دست
الحكم وصار اسمه أبو محمد عمر الملقب بالمتوكل على الله ويعرف أيضاً باسم عمر
بن الأفطس ، وقد تولى الحكم عام ٤٦٠ هـ - ١٠٦٧ م وحكم لمدة ربع قرن تقريباً أي

إلى عام ٤٨٧ هـ - ١٠٩٤ م تقريباً وعلى زمانه امتد حكمه إلى طليطلة حتى سقوطها بيد الملك (أدفونش) أو (الفونسو السادس) ، وعاصر المتوكل أيام المعتمد بن عباد ملك اشبيلية وكان أحد العناصر الفعالة في طلب النجدة من ملك المغرب ، يوسف بن تاشفين لإنقاذ الأندلس من أيدي القوات الأوربية .

ومن الإشارات التاريخية القليلة المتيسرة لدينا عن أيام بني الأفطس في البرتغال هو ما فعله الملك المتوكل من دعوة لجمع شمل العرب والمسلمين واتحاد ملوك الطوائف في الأندلس لمواجهة الخطر الأوربي هناك . فبعد أن سقطت طليطلة نظم حملة سياسية لهذا الغرض فكان من أشهر الدعاة الفقيه سليمان بن خلف وشهرته أبو الوليد الباجي الذي طاف البلاد داعياً إلى الوحدة الإسلامية تجاه الخطر ، وكان من دعاة الوحدة أيضاً الفقيه أبو عمر يوسف عبد البر الذي تولى القضاء في مدينة (شترين) ومدينة (الإشبونة) أيام ملكها المظفر بن الأفطس وهو والد المتوكل حكم من عام ٤١٣ هـ - ٤٣٧ هـ أي ١٠٢٢ م - ١٠٤٥ م . وخبر الملك المظفر هذا هو الخبر الصغير الوحيد الذي تركه لنا الرواة العرب عن أيام بني الأفطس في (أشبونة) أي لشبونة عاصمة البرتغال اليوم^(٢) .

وفي رواية أخرى عن مدينة (أشبونة) أنه كان هناك والياً للمدينة أسمه (سابور) وذلك على عهد الخليفة الحكم الثاني المستنصر بالله (٩٦١ م - ٩٧٦ م) فلما أنقضى حكم الإمارة في الأندلس ، انفصل سابور في أشبونة وغربي الأندلس واستعان بعبد الله بن محمد بن مسلمة المعروف بابن الأفطس . وبعد وفاة سابور قام ابن الأفطس بأمر ولدي سابور ، ثم استأثر بالحكم في مدينة (بطليوس) دونهما وارتحل الاخوان إلى مدينة (الأشبونة) حيث تولى أمرها أحدهم وهو عبد العزيز بن سابور ، ثم خلفه أخوه عبد الملك وكان عاجزاً فاتصل أهل الأشبونة سرّاً بابن الأفطس ليبعث اليهم بوال من عنده فوجه اليهم ابنه محمداً ولم يشعر عبد الملك إلا والبلد قد امتلأ بالعسكر فاستسلم وخرج من الأشبونة واستقر بقرطبة^(٣) .

(٢) الحجى - المصدر نفسه .

(٣) الدكتور الطيبي - المصدر نفسه - ص ٢٢٨ .

أما مملكة أشبيلية فتأتي في مقدمة دول الطوائف من حيث سعتها وتفوقها السياسي ، وكان لها شأن في أحداث فترة الطوائف وخاصة في غربي الأندلس حيث تقوم هذه المملكة .

وقد حكمت أسرة بني العباد اشبيلية وبرز نجمها عقب ذهاب الخلافة فنشأ صدر بيت بني العباد ومؤسس مجدهم اسماعيل بن محمد بن عباد اللخمي المعروف باسم أبي الوليد ، حيث تعاقب على الحكم بعده ذو الوزارتين أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد ، ثم ابنه أبو عمرو عباد بن محمد الملقب بالمعتضد والذي بذل جهوداً كبيرة في ضم إمارات غربي الأندلس إلى مملكة أشبيلية .

توفي المعتضد سنة ٤٦١ هـ - ١٠٦٩ م بعد ولاية استمرت ثمانية وعشرين عاماً وخلفه ابنه أبو القاسم محمد بن عباد الملقب (المعتمد على الله) . وقد وصف المؤرخون (المعتمد) بأنه من الملوك الفضلاء الشجعان العقلاء ولد في مدينة (شلب SILVES) وهي في البرتغال اليوم .

كما تذكر لنا صفحات التاريخ أن مُدَنَ (باجه) و (شلب) كان يحكمها (بنو مُزَيْن) التابعون لبني عباد حكام مملكة اشبيلية وفي بعض المصادر البرتغالية أن البرتغال آنذاك كانت مُقسمة إلى قسمين وهما منطقة (شلب SILVES) تحت حكم بني العباد ومنطقة (سانتا ماريا دو غاردي أوسنوبا OSSONOA) وهذه تعود إلى إمارة لشبونة ولعلها كانت تحت حكم بني الأفطس^(٤) .

وعلى أيام المعتمد بن عباد ملك أشبيلية والمتوكل عمر بن محمد ملك بطليوس سقطت مملكة طليطلة بيد الملك الأسباني (الفونسو السادس) ويسميه العرب أدفونس بن فردلند وذلك في محرم سنة ٤٧٨ هـ - ١٠٨٥ م ، فأيقظ هذا الحادث وأمثاله من قبله ، المعتمد والمتوكل وبقية أمراء الطوائف من أحلامهم وأدركوا خطورة الأوربيين

(٤) المصدر : الكتابان البرتغاليان التاليان :

A'DESCOBERTA DE PORTUGAL. P. 45 .

HISTORIA CONCISA DE PORTUGAL P.105 .

وأطماعهم وآثارهم على دينهم وأمتهم ، فطلبوا العون من الملك يوسف بن تاشفين
ملك مملكة المرابطين في المغرب فاستجاب لطلبهم فكان دخوله إلى الأندلس بداية
لعهد المرابطين هناك .

أما مملكة أشبيلية فتأتي في مقدمة دول الطوائف من حيث سعتها وتفوقها السياسي ، وكان لها شأن في أحداث فترة الطوائف وخاصة في غربي الأندلس حيث تقوم هذه المملكة .

وقد حكمت أسرة بني العباد اشبيلية وبرز نجمها عقب ذهاب الخلافة فنشأ صدر بيت بني العباد ومؤسس مجدهم اسماعيل بن محمد بن عباد اللخمي المعروف باسم أبي الوليد ، حيث تعاقب على الحكم بعده ذو الوزارتين أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد ، ثم ابنه أبو عمرو عباد بن محمد الملقب بالمعتضد والذي بذل جهوداً كبيرة في ضم إمارات غربي الأندلس إلى مملكة أشبيلية .

توفي المعتضد سنة ٤٦١ هـ - ١٠٦٩ م بعد ولاية استمرت ثمانية وعشرين عاماً وخلفه ابنه أبو القاسم محمد بن عباد الملقب (المعتمد على الله) . وقد وصف المؤرخون (المعتمد) بأنه من الملوك الفضلاء الشجعان العقلاء ولد في مدينة (شلب SILVES) وهي في البرتغال اليوم .

كما تذكر لنا صفحات التاريخ أن مُدَنَ (باجه) و (شلب) كان يحكمها (بنو مُزَيْن) التابعون لبني عباد حكام مملكة اشبيلية وفي بعض المصادر البرتغالية أن البرتغال آنذاك كانت مُقسَّمة إلى قسمين وهما منطقة (شلب SILVES) تحت حكم بني العباد ومنطقة (سانتا ماريا دو غاردي أوسنوبا OSSONOA) وهذه تعود إلى إمارة لشبونة ولعلها كانت تحت حكم بني الأقطس^(٤) .

وعلى أيام المعتمد بن عباد ملك أشبيلية والمتوكل عمر بن محمد ملك بطليوس سقطت مملكة طليطلة بيد الملك الاسباني (الفونسو السادس) ويسميه العرب أدفونش بن فردلند وذلك في محرم سنة ٤٧٨ هـ - ١٠٨٥ م ، فأيقظ هذا الحادث وأمثاله من قبله ، المعتمد والمتوكل وبقية أمراء الطوائف من أحلامهم وأدركوا خطورة الأوربيين

(٤) المصدر : الكتابان البرتغاليان التاليان :

A'DESCOBERTA DE PORTUGAL, P. 45 .

HISTORIA CONCISA DE PORTUGAL P.105 .

وأطماعهم وآثارهم على دينهم وأمتهم ، فطلبوا العون من الملك يوسف بن تاشفين
ملك مملكة المرابطين في المغرب فاستجاب لطلبهم فكان دخوله إلى الأندلس بداية
لعهد المرابطين هناك .

الفصل الرابع

حكام إسبانيا النصرانية في الشمال أيام الطوائف

لا بد وقبل الحديث عن عهد المرابطين في الأندلس وجهادهم في إسبانيا والبرتغال ، من الحديث عن سلطات إسبانيا والبرتغال قبل دخول المرابطين من مراكش إلى هناك ، إذ جرى اتحاد ممالك إسبانيا في الشمال في عصر تنازع الطوائف وفُرقتها في الأندلس . ففي حوالي عام ١٠٠٠ الميلادي ظهر على المسرح السياسي والعسكري الاسباني الملك (سانجو غارسيا الثالث SANCHO GARCES III) ويسميه العرب (سانجه بن غرسيا) ، وعندما مات هذا الملك في حوالي عام ١٠٣٥م ترك أربعة أولاد وهم : غارسيا ملك نبار ، ورودمير ملك أرغون ، وفرناند ملك قشتالة وليون ، وابن اسمه كونزالو كان صغيراً في السن .

كان فرناند أقوى الإخوة إذ استطاع الاستحواذ على ملكهم ، وكانت فترة ملوكيته حوالي ثلاثين عاماً ١٠٣٥ - ١٠٦٥م كما كانت له اليد الطولى في مهاجمة الأراضي الأندلسية حيث عاث في الأنحاء الشمالية لمملكة طليطلة وكذلك في بعض ممالك اشيلية ، وفي سنة ١٠٦٤م احتل مدينة (قلمرية GOMBRA) البرتغالية ، وانتزعها من بني الأفطس .

وقبل وفاته قسم مملكته بين أولاده الثلاثة ، فوضع سانجو ولده الكبير حاكماً على قشتاله وابنه الفونس حاكماً على ليون وابنه الثالث غارسيا حاكماً على (جَلِيْقَة GALICIA) وشمال البرتغال . فلما مات في عام ١٠٦٥ تنازع الأولاد على السلطة والعرش وانتهى الصراع بانتصار الفونس على اخوته فأصبح ملكاً على قشتاله وليون وجليقة وشمال البرتغال ، وصار اسمه الملك الفونسو السادس ويسميه العرب (الفُنش) وحكم حوالي سبعة وثلاثين عاماً أي من عام ٤٦٥ هـ إلى ٥٠٢ هـ - ١٠٧٢ م إلى ١١٠٩ م وراح يعد العدة لقتال العرب واحتلال طليطلة حتى تمكن من احتلالها في شهر محرم ٤٧٨ هـ ، مايو ١٠٨٥ م وقضى على ملكها القادر بالله يحيى بن اسماعيل بن ذي النون ، ووقف بعض ملوك الطوائف جامدين لا يتحركون ، اللهم إلا حاكم بطليوس الذي كان يحكم البرتغال أيضاً وهو المتوكل على الله عمر بن محمد الأقطس الذي حاول انقاذ المدينة لكنه فشل لغدر وخيانة القادر بالله نفسه .

وقد شكل احتلال الاسبان لمملكة طليطلة التي كانت قلب الأندلس ، شطر بلاد المسلمين إلى شطرين وتمزيق شملهم ، وقد عبّر عن ذلك الشاعر الطليطلي أبو محمد عبدالله بن فرج بن عزنون المعروف بابن العسال بقوله :

شدوا رواحلكم يا أهل أندلس فما المقام بها إلا من الغلظ
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط

وهكذا شمع الفونس بأنفه وشن غاراته على المدن والقرى المجاورة لطليطلة فحاز على ثمانين قرية منها ، وتهافت الأمراء العرب الضعاف مثل حسام الدين بن رزين ملك مدينة (شتتمرية) يحملون الهدايا إليه^(١) . مما دفع بالفونس هذا أن يطلق على نفسه لقباً عربياً هو (الامبراطور ذي الملتين) أي الإسلامية والنصرانية . كما منح نفسه لقباً إسبانياً هو : (IMPRATEUR TOTIUS HISPANIAE) وقام بتعزيز جيشه بقوات من

(١) ابن الكردوبوس : تاريخ الأندلس ، تحقيق الدكتور أحمد مختار عبادي - ص ٨٨ .

الملك (فيليب الأول) ملك فرنسا ، وكذلك من (دوق أوف بورغندي DUKE OF BURGUNDY) وقد قام الفونس هذا وقبل وفاته بتزويج ابنته تيريزا إلى (الكونت هنري أوف بورغندي) ، ومنحه حكم مقاطعتي (OPOROT) و (COMBRA) التي حصل عليها من العرب وصار لقب هنري هذا : (كونت بورتوكالينسو- CONT PORTOGA- LENSIS) وهو لقب مأخوذ من مدينه اسمها (PORTUS CALA) تقع على مصب نهر دورو ويسمى اليوم نهر (OPROTO) وأن هذه المدينة هي التي أعطت فيما بعد اسم البرتغال كما هو عليه الآن .^(٢)

(2) F.C. DANVERS - THE PORTUGUESE IN ININDIA VOL (1) P: 13

الفصل الخامس

البرتغال في عهد دولة المرابطين في الأندلس

٤٨٤هـ إلى ٥٢٠هـ المصادف ١٠٩٢م إلى ١١٣٤م

استفحل خطر الفونسو السادس على دويلات الطوائف بعد أن ذاق حلاوة الانتصار على المسلمين في طليطلة ، فعزم على فتح مدن الأندلس كلها حتى أنه لما عَرَضَ عليه رعيته أن يلبس تاج الامبراطور على عادة أسلافه القوط ، أرجأهم في ذلك حتى يستولى على دار المسلمين في قرطبة . ثم عمد إلى استدلال ملوك الطوائف بفرض الإتاوات والجزية عليهم ، وبدأ بالمعتمد بن عباد ملك اشبيلية وكبير ملوك الطوائف ، فطلب منه تسليم بعض حصونه وأعماله إلى رُسُلِهِ وكتب اليه رسالة استهلها بقوله : « من الامبراطور ذي الملتين الملك المفضل الأذفَنَشْ ابن شانجه إلى المعتمد بالله . . الخ » ، فهلع المعتمد ولاحت له طوابع المصير المروع الذي سينحدر إليه إذا لم تتداركه يد العناية بعون أو نجدة من الخارج . ويبدو أن الملك المتوكل عمر بن الأفطس صاحب بطليوس والبرتغال كان يشعر بالقلق نفسه ، فأراد أن يكون صفاً واحداً مع ملوك الطوائف في وجه الخطر المتزايد ، وكان قد سبق له أن أرسل القاضي أبا الوليد الباجي إلى أمراء الطوائف يدعوهم إلى الوحدة ، وفي رواية أن الملك المتوكل هذا كان أول ملوك الطوائف الذين كتبوا إلى الملك يوسف بن تاشفين ملك مملكة المرابطين في المغرب يطلب منه نجدة المسلمين في الأندلس .

لكن الروايات اتفقت فيما بعد على أن الملكين المعتمد بن عباد والمتوكل عمر بن

الأفطس هما اللذان تبنّيا ونفذا خطة الاستعانة بدولة المرابطين التي كانت قائمة في مراكش وملكها يوسف بن تاشفين لتخليص البلاد من الفوضى السياسية ومن تهديد الفونس . فطلب المعتمد من صديقه المتوكل ومن الأمير عبد الله بن حبّوس الصنهاجي ملك غرناطة ، أن يرسل كل واحد منهم موفداً عنه ليجتمعوا به ، فلما اجتمعوا أكدوا قرار الاستعانة بدولة المغرب ، وأشار خلال الاجتماع إلى التخوف من نتائج ذلك فأجاب المعتمد قائلاً : (رعي الجمال خيرٌ من رعي الخنازير) أي أن أكون مأكولاً ليوسف بن تاشفين أسيراً عنده أرعى الجمال ، خيرٌ من عبدٍ لافونس أرعى خنازيره .

وعلى هذا الأساس ، سافر المعتمد إلى المغرب والتقى يوسف بن تاشفين وطلب منه النصرة والنجدة ضد القوى الإسبانية المتفوقة آنذاك في الأندلس ، فاستشار يوسف بن تاشفين الفقهاء والأعيان في أمر نجدة الأندلس ، فوافقوه على ذلك فاستنفر قواته للجهاد واجتمع له نحو سبعة آلاف فارس وأكثر من المشاة ، وأمرهم بالعبور نحو الأندلس لنجدة فعبرت أولاً قوة الفرسان بقيادة داود بن عائشة ، وآخرها موكب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وكان ذلك في منتصف ربيع الأول ٤٧٩ هـ ٣٠ حزيران ١٠٨٦ م^(١) .

وعندما اجتاز المرابطون المغاربة البحر إلى الجزيرة الخضراء تلقاهم المعتمد أحسن لقاء وانضمت قواته إليهم واتخذ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من أشبيلية عاصمة المعتمد قاعدة له وأقام بها ثلاثة أيام ، ثم ارتحل إلى بطليوس عاصمة المتوكل بن الأفطس الذي فتح معسكرات جيشه لهم .

أما الملك افونسو السادس فسرعان ما وصلته النجدة من ملوك النصارى من جليقة وليون ويسكونيه وقشتاله وغيرها واندفعت تلك الجيوش نحو بطليوس حيث تتجحف الجيوش الإسلامية هناك .

(١) الدكتور السيد عبدالعزيز سالم - تاريخ المغرب الكبير - ص ٧٢٢ .

وفي منطقة اسمها (الزلاقة) وتسمى باللاتينية (SACRALIAS) وقع الالتحام وقامت المعركة الكبرى الحاسمة ، ودارت الدوائر على الجيوش الإسبانية وجُرح الفونس جرحاً بالغاً ، ففر على جناح الظلام ولاذت فلول الجيوش الأخرى منهزمة ومنسحبة نحو طليطلة ، وهكذا محت قوات المغرب العار الذي لحق بملوك الأندلس من مذلة الفونسو السادس لهم .

وقبل عودة يوسف بن تاشفين إلى مملكته في المغرب جمع رؤساء الأندلس ونصحهم ووعظهم وأمرهم بالاتفاق والاتحاد ، وترك فرقة من جيشه قوامها ثلاثة آلاف مقاتل تحت تصرف المعتمد بن عباد^(٢) .

لكن موقعه (الزلاقة) لم تكن إلا صدمة أصابت الفونسو موقتا ، ثم أخذ يستفيق منها وتمكن بعد عام واحد من إعادة تنظيم قواته ، فنقل ميدان نشاطه إلى شرقي الأندلس ، بعيداً عن مملكتي أشبيلية وبطليوس في الغرب وفي البرتغال ، لذلك فقد ساء حال الشرق ، خاصة بعد أن صالح الفونس قائده (السيد الكنيطور) الذي شهر سيفه لقتال العرب ، فدارت معارك شديدة بين الطرفين خسر فيها العرب مواقع كثيرة في شرقي الأندلس ، مما دفع بالملك المعتمد بن عباد إلى أن يطلب النجدة ثانية من ملك المرابطين في المغرب يوسف بن تاشفين ، فأجده هذا وعبر إلى الأندلس مرة ثانية لقتال الفونس وكان ذلك في عام ٤٨١ هـ ، إلا أن الأمر لم يستتب بعدها فقد ساءت أحوال ملوك الطوائف مرة أخرى وعادوا إلى خلافاتهم بل تعاونوا مع القائد الإسباني (السيد الكنيطور) ، وارتد قسم من المسلمين عن الاسلام وانتهى الأمر بهم أن قاموا ببيع المسلم الاسير بخبزة وقدر خمر ورطل لحم سمك ، ومن لم يفد نفسه قُطِعَ لسانه وفُتت أجفانه وسلطت عليه الكلاب الضارية^(٣) .

لذلك فقد ترددت الكتب والفتاوى من فقهاء الأندلس وعلمائه إلى يوسف بن

(٢) تاريخ الأندلس لابن كردوبوس - ص ٩٤ .

(٣) تاريخ الأندلس لابن كردوبوس - ص ١٠٤ .

تاشفين ، أن ينقذ البلاد من الفوضى السياسية التي أوجدها ملوك الطوائف .

لذلك عزم ابن تاشفين عزمًا صادقًا على استئصال شأفة ملوك الطوائف والإطاحة بعروشهم ، فعبر إلى الأندلس للمرة الثالثة في سنة ٤٨٣هـ - ١٠٩٠م ، وهو ينوي هذه المرة القضاء على دول الطوائف وتوحيد كلمة الأندلس وتأليف جبهة مغربية - أندلسية لمواجهة خطر افونسو السادس المتزايد .

وعندما وصل إلى الأندلس قام أولاً بعزل الملك عبدالله الزيري ملك غرناطة ، ثم أرسل بعدها أربعة جيوش مرابطيه لمحاصرة ملوك الطوائف في بلادهم ، فحوصرت البلدان وسقطت اشبيلية ووقع المعتمد بن عباد أسيراً بيدهم فكُبل بالحديد وأُرسِل سجيناً إلى مراكش وبقي في السجن إلى أن مات .

أما الملك المتوكل على الله عمر بن مظفر بن الأفطس حاكم بطليوس والبرتغال فقد اتهم بالاتصال مع العدو وقام أمير الجيوش المغربية الأمير سير بن أبي بكر بإعدامه ، وكان ذلك في عام ٤٨٨هـ - ١٠٩٤م وأعدم معه ولديه الفضل والعباس ، فقال فيهم وزيرهم الشاعر أبو محمد عبدالمجيد بن عبدون :

الدهر يجمع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور

وفي خبر آخر عن قصة إعدام المتوكل ، أنه بعد أن قضى المرابطون على بني عباد ، استوحش المتوكل وخاف على نفسه فحالف الفونس وتنازل له عن ثلاث مدن مهمة هي إشبونة وشتيرين وشنتمرية الغرب ، مما دفع بالأمير سير أن يوجه جيوشه إلى بطليوس وألقى القبض على المتوكل وولديه وأعدمهم في عيد الأضحى ٤٨٧هـ - ١٠٩٤م ، ثم تابع تقدمه نحو أشبونة وكانت بها حامية بقيادة ريمون البرجوني صهر الفونس واستطاع بعد قتال عنيف أن يسترد الثغر وفتح كذلك شتيرين وكان ذلك في العام نفسه^(٤) . وبإعدام المتوكل على الله وانتهاء سلطة بني الأفطس على بطليوس

(٤) د . سعدون عباس نصر الله - دولة المرابطين - ص ١٣٤ .

ومدن البرتغال فإن السيادة على المنطقة أعطيت للأمير سير بن أبي بكر اللمتوني ، الذي اتخذ من اشبيلية مقراً له بينما راحت قواته تقاتل الملك الفونس السادس وتنزل به الهزائم الواحدة تلو الأخرى واستطاع في عام ٥٠٤هـ - ١١١١م أن يستعيد المدن البرتغالية شنترين ويابره ولشبونة التي كانت قد سقطت لفترة بيد الأعداء وأن يعيد ضمها إلى منطقة بطليوس كما كانت على عهد بني الأفطس فكان ذلك بداية لعهد المرابطين في الأندلس والبرتغال .

وعندما توفي ملك المغرب يوسف بن تاشفين عام ٥٠٠هـ - ١١٠٦م . خلفه ابنه علي بن يوسف ، وكانت دولة المرابطين إذ ذاك في أوجها ، فقد ترك يوسف بن تاشفين لابنه امبراطورية كبرى تمتد من المغرب إلى الأندلس شمالاً ، وقد صرف الملك الجديد علي بن يوسف الجزء الأعظم من وقته في متابعة شؤون الأندلس ، ثم لم يلبث أن مات عام ٥٣٣هـ فخلفه ابنه تاشفين في الحكم ، لكن أيام تاشفين كانت قصيرة فمات عام ٥٣٩هـ . فكان في موته بداية النهاية لدولة المرابطين في المغرب والأندلس ، لتقوم مقامها دولة الموحيدين هناك .

وعلى كل حال فلقد امتازت دولة المرابطين وخاصة في أيامها الأولى بجهادها في الأندلس وقتالها للجيوش الأوربية والإسبانية من ممالك قطالونيا وأرغون وقشتاله وشمال البرتغال ، خاصة معركة (أقليش) التي وقعت في شهر شوال سنة ٥٠١هـ وفيها قتل الأمير الصغير (سانشو) ابن الفونس السادس وأمه مسلمة اسمها (زائدة) كانت زوجة المأمون بن المعتمد بن عباد وقعت أسيرة بيد أفونسو السادس وانجبت منها ابنه (سانجو) هذا الذي قتل وعمره خمس عشرة سنة ، وقد بلغ الحزن بوالده أفونسو السادس أن مات بعده بثلاثة أشهر فدفن في قشتاله^(٥) .

أما بالنسبة للتنظيمات التي كانت عليها دولة شمال البرتغال النصرانية فكما قلنا في الفصل الرابع ، إن الملك أفونسو السادس قام بتزويج ابنته تيريزا من

(٥) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس - ص ١١٤ .

الكونت (هنري أوف بورغندي) ويسمى بالبرتغالية (أريكو دي بورغونيا ENRIQUE DE BORGONA) لذا صارت تسميته عند العرب (الرنك) .

شارك (الرنك) هذا في عدة معارك ضد قوات دولة المرابطين مع بقية الجيوش الإسبانية ، وعندما مات في مايو من عام ١١٤٤م خلفه ابنه (دون أفونسو هنريك) وهو الملك الذي سيقدر له أن ينتزع البرتغال بصورة نهائية من المسلمين وأن يوحد شمالها بجنوبها وأن يطلق عليها اسم البرتغال .

أما دولة المرابطين فلم تعيش أطول من عام ١١٤٧م ، فقد سارت سراعاً على سنة الأدوار التي سارت فيها الممالك قبلها ، دور نشاط حربي ، يتلوه تكاسل وفوضى يؤديان إلى التضعف والسقوط ، وكان أبنائها البربر قد ألفوا شظف البداوة فما أن تم انتقالهم إلى ربوع الترف في مراكش والأندلس حتى سادت عليهم رذائل المدينة فاعتورهم الوهن وتدهور حال جيشهم في الأندلس وخاصة بعد أن راح تألف دول الشمال الإسبانية يسدد الضربات العنيفة لهم ، كما أن قيام ثورة (الموحدين) في داخل المغرب ، اضطرتهم إلى صرف قسم كبير من جهودهم للقضاء عليها ، ولما طالبوا أهل الأندلس بمعاونتهم ، تنكر لهم هؤلاء وتحولوا عنهم وطردهم في نهاية الأمر ولائهم عليهم ، بل تحالفوا في بعض الأحيان مع الإسبان ضدهم ، وهكذا سقطت دولة المرابطين في المغرب والأندلس ، لتقوم مقامها دولة الموحدين هناك .

الفصل السادس

نظرة سريعة على أحوال المشرق الإسلامي

- * قيام الممالك البوذية والسلاجقية والأتابكية على هيكل الخلافة العباسية .
- * الحملة الصليبية الأولى وسقوط القدس عام ١٠٩٩ م .
- * الحملة الصليبية الثانية تساعد على انتزاع (الشبوة) من العرب وتمنح البرتغال استقلالها التام

قبل أن نتحدث عن موضوع البرتغال على عهد دولة الموحدين المغربية وأيامها وجهادها في الأندلس ، لا بد أن نلقي نظرة سريعة على أحوال العالم العربي والإسلامي في الشرق يومذاك ، ذلك أن عهد الموحدين سيشهد قيام دولة البرتغال المستقلة ، ثم قيام تلك الدولة المستقلة بقتال العرب بكل شراسة وضراوة وبسط نفوذها الكامل على منطقة (الغرب) ، أي غرب الأندلس وجنوب البرتغال وإنهاء كل أثر عربي أو إسلامي هناك ، وقد تم لهم ذلك بعد تعاونهم مع الحملات العسكرية الصليبية التي كانت تأتي من أوروبا بحراً فتتمر بسواحل البرتغال وتنزل هناك لتقاتل العرب قبل ذهابها إلى السواحل العربية في سوريا ولبنان ، وقد أدت تلك الانتصارات العسكرية إلى نهاية دولة الموحدين في الأندلس والبرتغال وكذلك نهايتها في المغرب العربي وراحت المؤشرات التاريخية تسير بعدها بسرعة نحو نهاية العرب في الأندلس بصورة كلية .

فإذا عدنا ببصرنا نحو الدولة العباسية يومذاك لوجدنا أنها كانت تسير في طريق

التردي والتمزق فقد انكسر جناحا النسر العباسي في الشرق والغرب ، وصار قلبه هدفاً لنبال الدخلاء من الفرس والترك . وقد ابتدأت المشاكل على زمن الخليفة المقتدر العباسي عندما ظهر في عام ٩٠٩م عبيد الله الفاطمي مؤسس الدولة الفاطمية في مصر وشمالى أفريقيا ، وظهر عبدالرحمن الثالث الأموي في حوالي عام ٩٣٠م في الأندلس ، وأعلن كل منهما الخلافة واحقيقته فيها وفي شعارها وألقابها ، بحيث شاهد العالم الإسلامي في تلك الحقبة ثلاثة خلفاء رسميين في آن واحد .

وفي عام ٩٤٥م طرأ على الخلافة في بغداد ما هو أشد وأدهى ، ذلك حينما منح الخليفة العباسي المستكفي لَقَبَ (أمير الأمراء) إلى القائد أحمد بن بويه ، فصار ذلك التاريخ بداية لوقوع الخلافة العباسية تحت نفوذ أسياذ من الفُرس هم البويهيون

وقد امتدت السيطرة البويهية على الخلافة العباسية إلى حوالي عام ١٠٥٥م ، وفي تلك الفترة تردت الخلافة إلى أحط دركات الذل وأصبح أمير المؤمنين العباسي العوبة في يد (أمير الأمراء) الفارسي البويهى .

إلأن أمر الخلافة العباسية تغير نسبياً عند ظهور القوة الاسلامية الأخرى على مسرح التاريخ ، وهم السلاجقة الأتراك . فقد ظهر هؤلاء من بلاد ما وراء النهر قرب (بخارى) أي بلاد تركستان الواقعة فيما بعد (نهر جيحون - OXUS) ، وقد باشر هؤلاء السلاجقة منذ عام ٤٢٠هـ - ١٠٢٩م تقريباً باجتياح الجزء الشمالي والشرقي من بلاد فارس ، وفي حوالي عام ١٠٣٩م تمكن القائد السلجوقي (طغرل بك) من احتلال مدينة (مرو) عاصمة خراسان ومن هناك راح يكتب الخليفة العباسي في بغداد القائم بأمر الله ويعدده بتخليص العراق من سطوة الفرس البويهيين ، وهكذا تمكن طغرل بك من دخول بغداد بعد أن أنزل هزائم كبرى بالبويهيين واحتل عاصمتهم في فارس ودخل بغداد في ٢٥/ ذي القعدة/ ٤٤٧هـ الموافق ديسمبر ١٠٥٥م .

وفي بغداد التقى بالخليفة القائم ، فمد له القائم يده وقام طغرل بك بتقبيلها ، فشكره

القائم ومنحه لقب (ملك المشرق والمغرب) ثم صار لقب طغر بك ومن حكم بعده من أمراء السلاجقة (السلطان) ، فكان ذلك بداية عصر جديد دخلت فيه الخلافة العباسية في حماية الأتراك السلاجقة الذين وهبوا الخلافة ببغداد حياة جديدة بعد أن دب إليها التدهار والانحيار .

وعلى عهد السلطان السلجوقي ملك شاه بن ألب أرسلان بن طغرل بك حدث أمر مهم جداً ، ذلك أنه في حوالي عام ١٠٧١م تمكن هذا السلطان من الدخول إلى القدس وانتزاعها من يد الدولة الفاطمية التي كانت آنذاك قد تساهلت مع الامبراطورية البيزنطية في أمر رعاية الأماكن المقدسة المسيحية ، فأثار هذا العمل قلق واضطراب الأوساط المسيحية العالمية إذ اعتبرتهم تلك الأوساط متعصبين إسلاميين أكثر قسوة على المسيحيين من الفاطميين .

ومما زاد الطين بله أنه وفي العام نفسه استطاع السلاجقة إنزال هزيمة ساحقة بالامبراطور البيزنطي اليوناني الموجود في تركيا ، ففقد البيزنطيون كل أسيا الصغرى (تركيا) تقريباً وامتدت أملاك السلاجقة الأتراك حتى وصلت بحر مرمرة ، مما دفع بالامبراطور (ميخائيل السابع) امبراطور القسطنطينية أن يرسل رسالة في عام ١٠٧٥م إلى البابا (جريجوري السابع) يطلب المساعدة ، إلا أن البابا المذكور لم يستطع تلبية طلب الامبراطور .

لكن عام ١٠٩٥م شهد تحولاً جديداً وخطيراً في مسار الأحداث ، ذلك عندما قرر الامبراطور البيزنطي (الكسيوس) توسلاته بالبابا (إيربان الثاني) أن يوقف الزحف الإسلامي ، فاستجاب البابا لذلك ، وفي ٢٦/ نوفمبر/ ١٠٩٥م ألقى خطابه الشهير الذي دعا فيه إلى مساعدة اليونانيين البيزنطيين وقال : « إنه ينبغي تجهيز المسيحيين في حملة كبرى لقهر المسلمين لمن ينبغي الحصول على التوبة الكاملة من الله ، لأنه هكذا أراد الله » .

وهكذا بادر الألو ف من الأوربيين وفي نوبة حماس متدفق إلى اتخاذ الصليب شعاراً لهم وأمر البابا أن يتولى قيادة الحملة (أسقف باي PUY) وأعطاه منصب نائب البابا باعتبار أن الحملة يجب أن يقودها أحد رجال الدين ، فتم حشد خمسة جيوش صليبية اجتازت أوروبا وتجمعت في القسطنطينية في ربيع عام ١٠٩٧م ثم اجتازت البوسفور وتوغلت داخل تركيا ووصلت إلى أنطاكية وفتحتها في عام ١٠٩٨م وبذلك خلا الطريق إلى القدس ، فسقطت القدس في ١٥ / ٦ / ١٠٩٩ م .

وعلى إثر ذلك فقد قامت المملكة اللاتينية المسيحية في بيت المقدس وقامت إلى جوارها إمارة الرها المسيحية أيضاً والتي كان يحكمها أولاد وأحفاد بلدوين دي برغ .

وفي عام ١١٠٠م قدمت جيوش صليبية جديدة أرادت توجيه ضربة قاضية للمسلمين بالاستيلاء على بغداد ، لكنهم لم يستطيعوا إثبات أقدامهم في المدن السورية واللبنانية الساحلية مثل طرابلس وصيدا وبيروت ، حيث صارت هذه المدن موانئ للقوات الصليبية المحمولة بحراً والتي كان يقودها ملك النرويج (سيجورد SIGURD THE SORALAFARI) وهو الذي كان قبلها يقاتل المسلمين في الأندلس ، لذلك فقد تفاقم شر الصليبيين في سوريا وفلسطين ولبنان غير أنه لا الخليفة العباسي ولا السلطان السلجوقي أبدوا اهتماماً جدياً بهذا الأمر في أوله .

وجاء الفرج عندما ظهر (الأتابكة) على مسرح التاريخ الاسلامي ، والأتابكة أصلاً هم ضباط ومراتب القوات المسلحة في عهد السلاجقة فقد كانوا يختارونهم من المماليك الأتراك وينشئونهم نشأة عسكرية خالصة في بلاط الخليفة أو السلطان ، وقد عُرِف هؤلاء المماليك الأتراك بالشجاعة وشدة البأس فصار السلاجقة يسندون إليهم حكم الولايات ، ولكن سرعان ما أخذ هؤلاء المماليك بالتمرد على سادتهم السلجوقيين وأخذوا يحلون محلهم في حكم الولايات . وهكذا أخذ الضعف يدب في جسم الدولة السلجوقية فتفككت امبراطوريتهم وانتقل نفوذهم إلى المماليك الذين أصبحوا أوصياء أو (أتابكة) على السلاطين السلاجقة .

وعلى هذا النحو قامت أسرة أتابكية في دمشق أسسها (طغكين) وأسرة أخرى في شمال شرقي سوريا هي أسرة (الأراتقة) ، على أن أعظم الاتابكة وأشهرهم كانوا أتابكة الموصل في العراق ، وأعظم ملوكهم هو عماد الدين زنكي الذي حكم منذ سنة ١١٢٧م ، ثم ضم اليه حلب وحران ونصيبين ، وفي عام ١١٣٥م استولى على حصون الصليبيين في شرقي إمارة أنطاكية ، ثم كانت أعظم أعماله وهي سقوط مملكة الرها المسيحية بيده عام ١١٤٤م ، وهو الحدث الذي يعتبر نقطة تحول في تاريخ الحروب الصليبية في الشرق ، وكذلك نقطة تحول في تاريخ العرب في البرتغال في الغرب .

وبعد سنتين من سقوط الرها مات عماد الدين زنكي ، فخلفه في الحكم ابنه نور الدين زنكي وكان (البابا يوجين الثاني) قد بلغه نبأ سقوط الرها فقام بارسال منشور بابوي إلى ملك فرنسا (لويس السابع) يحثه على القيام بواجبه باعتباره أن فرنسا كانت الموطن الطبيعي للصليبية يومذاك ، فاتفق هذا مع ملك المانيا (كونراد الثالث) ومع الإمبراطور (مانويل كومنين) إمبراطور بيزنطة ونادوا بالتطوع لحملة صليبية ثانية .

استجاب لذلك النداء الألوف من المتطوعين الأوربيين من مختلف الجنسيات والقوميات وعندما اجتمعوا للحركة قرروا تقسيم الجيوش إلى قسمين هما : الجيوش البرية والجيوش البحرية ، وكانت الجيوش البرية بقيادة ملكي فرنسا والمانيا ، وكان عليها أن تسلك الطريق البري نفسه الذي سلكته جيوش الحملة الصليبية الأولى ، أي من أوروبا مروراً بتركيا ثم البلاد العربية ، أما الجيوش البحرية فكان عليها أن تغادر موانئها على المحيط ثم تدور حول شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا والبرتغال) ثم تمر من مضيق جبل طارق فالبحر المتوسط ثم إلى الموانئ العربية في سوريا ولبنان وفلسطين حيث تلتقي بالجيوش البرية هناك .

والذي يهمنا من أمر الحملة الصليبية الثانية هذه هو موضوع الجيوش البحرية ، فقد تشكلت هذه الجيوش من متطوعين انجليز وألمان ونورمنديين وفلامنك وفايكنز

وغيرهم وقد بلغ عددهم أكثر من أربعة عشر ألف مقاتل ، اقلعوا بحراً ووصلوا سواحل البرتغال في أوائل عام ١١٤٧م ، حيث رست سفنهم في مصب نهر التاج ، وهناك التقى بهم الملك البرتغالي دون أفونسو هنريك (DOM AFFONSO HENRIQUES) وتمكن من اقناعهم بمساعدته عسكرياً لاقتحام لشبونه وانتزاعها من يد العرب فوافقوا على ذلك وسرعان ما تم التنسيق بين الطرفين ووضعت خطة مشتركة للجيشين البرتغالي والصليبي فشنا هجوماً مشتركاً كاسحاً على (لشبونه) وانتزعوها من العرب في ٢٥/٦/١١٤٨ م .

وقد ساعد هذا الانتصار على تثبيت استقلال البرتغال ليس من العرب فقط ، ولكن من الإسبان أيضاً ، فاتخذوا من (لشبونه) عاصمة للمملكة البرتغالية وفتحوا موانئها أمام السفن الصليبية القادمة من أوروبا ، واستفادوا مرة أخرى من حملة صليبية ثالثة توقفت هناك وأنزلوا مقاتليها واستولوا على مدينة (شلب) ، كما سنيين ذلك بالتفصيل في فصل لاحق^(١) .

وينقل لنا الدكتور أمين توفيق الطيبي في كتابه (دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس) ، وصفاً عن سقوط (لشبونه) استقاه من رسالة بعث بها راهب انجليزي شارك في الحملة . والرسالة محفوظة في كلية كوربوس كريستي بجامعة كمبردج بانكلتره جاء فيها : إن الاسطول الصليبي كان متكوناً من ١٦٤ مركباً تحمل نحو ١٣٠٠٠ رجل ، أبحروا من ميناء دارتموث على ساحل انكلتره الجنوبي في مايو ١١٤٧م ، وكان هؤلاء الصليبيون من ثلاث جماعات ، انجليز وألمان وفلمنك (من شمال بلجيكا) وعند وصول الحملة إلى ميناء (أبورتو) للتزود بالمؤن رحب بهم اسقف المدينة ودعاهم لمساعدة الملك (افونسو هنريك) في مهاجمة لشبونه وانتزاعها من أيدي المسلمين ، وتم الاتفاق بين أفونسو وزعماء الصليبيين على أن تؤول كل الغنائم

(١) الحرب الصليبية - أرنست بيكر - تعريب السيد باز العربي - ص ٧٥ .

وكذلك . DANVERS: THE PORTUGUESE IN INDIA VOL (1) P-15 .

وفي مصدر آخر أن المدينة صمدت سبعة عشر يوماً ، وسقطت يوم ٢٧/جمادي الأول / ٥٤٢هـ .

في المدينة للصليبيين وحدهم وكذلك فدية الاسرى ، وعرض أفونسو عليهم أراضي لمن يرغب منهم الاستقرار في الأراضي المفتوحة .

وقبل أن يبدأ الهجوم أوفد (أفونسو هنريك) إثنين من كبار رجال الدين للطلب إلى والي لشبونة وقاضيها تسليم المدينة ، وقد خاطب رئيس اساقفة (براجا) قاضي لشبونة الذي كان مع رجاله فوق السور طالباً منهم الرحيل والتخلي عن البلاد لأهلها ، قائلاً إن العرب قد استولوا على المدينة عن طريق الخداع .
فأجابه القاضي قائلاً :

« كم من مرة جئتم إلى هنا مع حجاجكم وأعلاجكم لإخراجنا . . ؟ هل أنتم غير قانعين بما لديكم ، أو هل ثمة مشكلات في دياركم تدفعكم إلي التحرك المستمر . ؟ .
أحسب أن هذه المدينة كانت في وقت من الأوقات ملكاً لكم ، ولكنها الآن ملكنا ، وقد تؤول اليكم في وقت ما في مستقبل الأيام ، إلا أن ذلك رهن بمشيئة الله ، بمشيئته تعالى احتفظنا بالمدينة ولن نخرج من أيدينا إلا بمشيئة الله تعالى فقط ، إنصرفوا ، فلن تدخلوا المدينة إلا بحد السيف ، اصنعوا ما تشاؤون ، أما نحن فسنعمل ما يشاؤه الله تعالى » .

بدأت العمليات الحربية في اليوم التالي ، وتمكن الصليبيون الانجليز باستعمالهم المقاليع من إبعاد المسلمين عن الرض الغربي إلى داخل المدينة المسورة حيث صمد المدافعون لهم وخيم المهاجمون في مقبرة المدينة .

وفي اليوم التالي قام المسلمون بهجوم مضاد لمحاولة استرداد الرض الغربي ولكن بدون جدوى ، وأبدت المدينة مقاومة طويلاً ونصب المهاجمون المنجنقات إلا أن المدافعين أحرقوها وأحرقوا برجاً خشبياً أقامه الانجليز .

وشرع الألمان في حفر خمسة أنفاق لكنهم طردوا منها ، ويعد مضي ستة أسابيع أخذت عزيمة المهاجمين في الفتور وأخذ المدافعون يسخرون منهم من فوق أسوار

الفصل السابع

البرتغال في عهد دولة الموحدين في الأندلس

٥٤٠هـ إلى ٦٢٠هـ المصادف ١١٤٥م إلى ١٢٢٥م

بدأت دولة المرابطين تضعف في أواخر أيامها نتيجة لطول وعنف الصراع مع الإسبان والبرتغاليين ومن يعاونهم من الدول الأوربية الأخرى ، وقد كان لضعف معنويات أمراء الدولة وقادة جيوشها وضعف الروح الإسلامية العالية التي كانت عندهم ، أن ظهرت بينهم بعض الأفكار الدينية المعتمدة التي تكدر صفاء العقيدة الإسلامية وتخالف الفهم الإسلامي السليم ، لذلك فقد قامت جماعة دينية تُسمى نفسها (الموحدون) بالدعوة إلى الفهم النقي للإسلام والعودة بالمسلمين إلى القرآن والسنة وتجديد قوى الأمة على هذه الأسس^(١) .

كان أول زعيم للموحديين هو أبو عبد الله المهدي محمد بن تومرت المولود عام ٤٨٥هـ - ١٠٩٢م في بلدة السوس في مراكش ، وقد كبر وترعرع في أحضان العلم والفقه والسياسة ، ثم لم يلبث أن أسس في أول شبابه مدرسة علمية دينية صار يدخلها الألوف من الناس يستمعون إلى منطقه وحجته ، وفي تلك المدرسة التقى بزميله وصاحبه في الجهاد عبد المؤمن بن علي الكومي ، فاتفق الإثنين على الدعوة إلى العلم والإيمان الصحيح ونبد البدع ، ثم لم يلبث ابن تومرت أن صرح بالعصمة لنفسه وتلقب بلقب (المهدي) ودعا إلى إسقاط حكومة المرابطين .

(١) عبد الرحمن الحجي - المصدر نفسه - ص ٤٥٦ .

إلا أن (المهدي) توفي عام ٥٢٧هـ - ١١٣٢م ، فبايع الناس زميله في الجهاد عبدالمؤمن بن علي الكومي زعيماً للموحدين ، فقام هذا بتنظيم نفسه وجماعته على شكل كوادر قتالية مسلحة ، وياشر بقتال قوات الحكومة المرابطية واستولى على مدينة فاس ، وبعدها دخل العاصمة مراكش فاتحاً وألقى القبض على اسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين آخر ملوك المرابطين وقتله ، فبايعه الناس أميراً للدولة الجديدة ، دولة الموحدين في المغرب التي صارت مراكش عاصمة لها وكان ذلك في عام ٥٤٠هـ - ١١٤٥م ، أي قبل ثلاث سنوات من سقوط (لشبونة) بيد البرتغاليين وظهور دولة البرتغال المستقلة على صفحات التاريخ الأندلسي والعالمي^(٢) .

ولكي نحصر بحثنا بأيام الموحدين في البرتغال بشكل خاص والأندلس بشكل عام ، لا بد من عودة إلى الوراء قليلاً لندقق في المصادر البرتغالية عن قصة تأسيس دولة البرتغال والتي وقعت في أواخر أيام المرابطين وأوائل أيام الموحدين .

ذكرنا في أخبار الفصل الخامس من هذا الكتاب ، كيف أن الملك الإسباني (أفونسو السادس AFFONSO VI) احتل طليطله وراحت جيوشه تقاتل المسلمين في كل مكان ، وكيف أن هذا الملك قام بتزويج ابنته (تريزا) إلى (الكونت هنري أوف بورغندي CPUNT HENRY OF BURGONDY) ، وكان ذلك في عام ١٠٩٥م . وبناءً على ذلك فقد قام بمنحه مقاطعتي (أوبروتو ORERTO) و (كوميبرا COIMBAR) وهذه الأخيرة تعرف عند العرب باسم (قلمريه) وكذلك (قلنبيره) ، وكلتا المدينتين تقعان في شمال البرتغال ، وكانتا قبل هذا التاريخ بيد العرب إلا أن الملك أفونسو السادس استطاع أن ينتزعها منهم ، ويقدمها إلى زوج ابنته ويمنحه لقب (كونت أوف بورتو كالينس COUNT OF PORTOCALENSIS) فقام هذا الملك بتطوير إسم مملكته إلى (البرتغال) وهو الاسم الذي استمده أصلاً من اسم مدينة (بورتس كالا - POR-TUS CALA) ثم صار اسمها (أوبورتو OPORTO) وبعدها تحول الإسم إلى (PORTU)

(٢) الدكتور حسن إبراهيم حسن - تاريخ الإسلام - ج ٤ ص ٢٢١ ، وكذلك الدكتور السيد عبدالعزيز سالم - المغرب الكبير - ص ٧٨٦ .

(CALIS أي بوابة غاليسية ، إذ هي معبر غاليسية إلى الجنوب وتقع على مصب نهر دورو (DOURO) .

وهكذا ظهر اسم البرتغال إلى الوجود . كما قام هذا الملك باتخاذ مدينة (كومرياس GUIMARAES) عاصمة له ، وهي مدينة تقع إلى الشمال من وادي نهر (دويره RIO DOURO) أي شمال البرتغال في يومنا هذا وشمال ما كان يسمى بالثغر الأدنى أيام الأندلس . وتذكر المصادر البرتغالية أن هذا الكونت عُرف بكثرة قتاله ضد العرب ، لكن تفاصيل أيامه ومعاركه غير معروفة بصورة دقيقة للبرتغاليين أنفسهم^(٣) .

في أوائل شهر مايو من عام ١١١٤ مات الكونت هنري أوف بورغندي هذا فخلفه في الحكم ابنه (دون أفونسو هنريك DOM AFFONSO HENRIQUES) وهو معروف في الرواية الإسلامية باسم (صاحب قلمريه) ويسمى أيضاً (ابن الريق) وكذلك (ابن الرنك)^(٤) .

وتذكر المصادر البرتغالية أن هذا الرجل أنزل هزيمة كبرى بالعرب يوم ٢٥/ تموز/ ١١٣٩ في معركة اسمها (OURIQUE) حيث قُتل في تلك المعركة خمسة ملوك عرب ، فصار تاريخ تلك المعركة ومكان وقوعها ذكرى لتأسيس مملكة البرتغال ، وأن شعار دولة البرتغال وهو الدرع المصفح الذي يعلو التاج ويدخله توجد خمس دوائر سوداء تمثل الملوك الخمسة العرب الذين قتلوا في تلك المعركة^(٥) .

أما المصادر العربية المتوفرة لدينا فلا تحدثنا عن معركة بهذا الحجم فقدَ فيها العرب خمسة ملوك وقعت عام ١١٣٩ م وهو ما يوافق عام ٥٣٤ الهجري تقريباً ، اللهم إلا المعركة التي قُتل فيها أمير الموحدين أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، الذي استشهد وهو يحاول استرجاع مدينة (شتيرين) البرتغالية من الملك أفونسو نفسه وكان ذلك في ٧/ رجب/ ٥٨٠ هـ وهو ما يوافق عام ١١٨٤ م ، أي بفارق أربعين عاماً عن تاريخ

(٣) DANVERS - المصدر نفسه - ص ١٤ .

(٤) الحجري - المصدر نفسه - ص ٤٦٠ .

(٥) DANVERS - نفس المصدر والصفحة نفسها .

المعركة التي ذكرتها المصادر البرتغالية ، كما لا نتصور أن تكون تلك المعركة هي معركة (الأرك) ، فتلک حدثت عام ٥٩١هـ - ١١٩٥م . وعلى كل حال فقد تمكن أفونسو هنريك هذا من الاستيلاء على مدينة (شنترين SANTAREM) التي لا تبعد كثيراً عن لشبونه ، وكان ذلك في ١٥/٣/١١٤٧م ، وبذلك استطاع أن يحصل على نصف مساحة البرتغال تقريباً ، كما أن موقع المدينة على خطوط المواصلات المؤدية إلى الشمال جعلته يُحكم السيطرة على شمال البرتغال ، مما دفعه إلى إعلان نفسه ملكاً على البرتغال ، وفي الوقت نفسه أعلن استقلاله عن الحكومة الإسبانية ، وبارك له البابا الكسندر الثالث ذلك^(٦) .

وبعد عام من سقوط (شنترين) تمكن هذا الملك من احتلال مدينة (لشبونه) وميناء (قصر أبي دانس ALCACER DOSAL) وذلك بعد أن عاونه جيش من الصليبيين الذين كانوا في طريقهم من أوربا إلى الشرق لمقاتلة الأمير نور الدين زنكي واستعادة إمارة الرها المسيحية من المسلمين ، كما ذكرنا ذلك في تفاصيل الفصل السابق ، فكان سقوط لشبونه بيد الملك أفونسو في الفترة الزمنية نفسها التي صعد فيها إلى سدة الحكم الأمير عبدالمؤمن بن علي أول حاكم لدولة الموحدين في المغرب .

وجه الأمير الموحدي نظره إلى الأندلس ، وكان الناس فيها قد أعلنوا الثورات ضد المرابطين ، وخطبو للموحدين في المساجد ، مما رَغَّب عبدالمؤمن أن يرسل جيشاً من مراكش إلى الأندلس لإخضاع الأمراء المرابطين هناك فأمر بتشكيل ثلاثة جيوش عبرت إلى الساحل الأندلسي في شعبان ٥٤١هـ - ١١٤٧م وراحوا يهاجمون مدن الأندلس ومدن (الغرب) أي جنوب البرتغال أيضاً ، فسقطت مدن (لبله) و (شلب) و (باجه) و (بطليوس) ثم دخلت (أشبيلية) في طاعتهم أيضاً ، أما (قرطبة) فقد دخلت في طاعة الموحدين عام ٥٤٣هـ . وفي سنة ٥٤٩هـ تغلب الموحدون على (غرناطة) بعد أن خرج منها ميمون بن بدر اللتموني ، وبعد أن تم كل هذا عبر عبدالمؤمن بنفسه إلى

(٦) المصدر السابق والصفحة نفسها .

الأندلس وأمر بإحكام السيطرة على مدن بطليوس وباجه وبابره ، وبذلك تمت له السيطرة الكاملة هناك وكان ذلك في عام ٥٥٦هـ - ١١٦٠م تقريباً . ثم انصرف لتوحيد المغرب العربي فأحكم سيطرته على الجزائر ، ثم تونس وبعض أجزاء طرابلس الغرب في ليبيا أيضاً ، وهكذا تم له إخضاع المغرب العربي كله وضمه إلى دولته ، فأصبحت دولة الموحدين تمتد من طرابلس شرقاً إلى مراكش غرباً وصعوداً إلى الأندلس وأجزاء من البرتغال .

انتقل الخليفة عبدالمؤمن إلى رحمة الله في ٢٧/ جمادي الآخر/ ٥٥٨هـ - ١١٦٢م ودُفن في (تينملل) بجوار قبر صديقه في الجهاد المهدي أبو عبدالله محمد بن تومرت^(٧) .

فخلفه ابنه الأكبر محمد ، وبايعه الناس وتولى الخلافة ٤٥ يوماً ، ثم عُزل منها لإمور أخذت عليه ، فأجمعت آراء شيوخ الموحدين على مبايعة أبي يعقوب يوسف وهو ابن عبدالمؤمن الآخر وكان والياً على إشبيلية في الأندلس ، درس على الكثير من علماء الأندلس في اللغة والنحو والقرآن وكان محباً للجهاد في سبيل الله ، فجاز إلى الأندلس مرتين ، مرة في سنة ٥٦٦هـ للنظر في ضبط الثغور وإصلاح حال البلاد ، ثم جاز مرة أخرى عام ٥٧٩هـ - ١١٨٣م لمحاربة البرتغاليين .

ففي عام ١١٧٠م تقريباً بلغ أبا يعقوب أن (فرناند) ملك منطقة (ليون) راح يغزو المناطق المسلمة المجاورة له ، كما بلغه أن الملك (ابن الريق) أو (أفونسو هنريك) ملك البرتغال راح يوسع حدوده الجنوبية والشرقية على حساب أملاك المسلمين في غربي الأندلس وأنه احتل مدينة (يابره EVORA) وحاصر مدينة (بطليوس BADAJOZ) . فقام أبو يعقوب بتشكيل جيش بقيادة الشيخ أبو حفص وأمره بمقاتلة الملك البرتغالي وفك الحصار عن مدينة بطليوس ، فلما وصل الجيش المغربي إلى إشبيلية بلغه أن أهل بطليوس هزموا البرتغاليين ، فعدل عن متابعة السير إلى هناك .

(٧) الدكتور السيد عبدالعزيز سالم - المغرب الكبير - ص ٧٩٦ .

غير أن الأحوال لم تلبث أن ساءت في الأندلس من جديد ، بسبب هجمات الإسبان والبرتغاليين ، وكانت مملكة البرتغال أشد هذه الممالك وطأة على بلاد المسلمين ، فعزم أبويعقوب الجواز إلى الأندلس للمرة الثانية على أن يبدأ هذه المرة بقتال البرتغاليين وكان ذلك في عام ٥٧٩هـ - ١١٨٣م ، فزحف بجيشه نحو مدينة (شنترين SANTAREM) البرتغالية وحاصرها حصاراً شديداً ودمر مزارعها وخرّب مروجها وشن الغارات على نواحيها ، لكن الملك البرتغالي أفونسو هنريك كان قد تأهب لذلك الحصار فملأها بالأقوات والسلاح ، لذلك فقد استعصت على الجيش المغربي ، وكان موسم الشتاء على الأبواب ، فخاف المسلمون هجوم البرد وخافوا فيضان نهر تاجه فلا يستطيعون عبوره وينقطع عنهم المدد فأشاروا على الخليفة بالرجوع إلى اشبيلية .

ولما كان الخليفة أبويعقوب قد يش من فتح مدينة (شنترين) قرر أن يهاجم مدينة (لشبونة) العاصمة البرتغالية نفسها وعندما قرر الرحيل حدث هرج في أوساط جيشه أدى إلى حدوث كارثة قاتله فيه ، فبعض المصادر العربية تقول إن البرتغاليين استطاعوا أن يستميلوا إليهم فريقاً من الجيش الموحيدي فقد أعلنوا ليلاً أن أبا يعقوب قد ارتحل عائداً إلى المغرب فأوقعوا بذلك الاضطراب في الجيش الموحيدي ، وأخذ الجند يفرون من المعركة ، ولما تأكد البرتغاليون أن جند الموحيدين قد انفضوا عن قائدهم شنوا هجوماً ساحقاً على معسكر الخليفة نفسه .

ورواية أخرى تقول إنه لما أصدر الخليفة أوامره بالحركة نحو لشبونة ، قام بعض رجاله بتقويض الأخبية والخيام على عجل فأحدث ذلك هرجاً في معسكر المسلمين وعبر أكثر الجنود المسلمين نهر التاجه ولم يبق إلا نفر قليل من العسكر في معسكر الخليفة نفسه ، فلما رأى البرتغاليون ذلك وشاهدوا رحيل معظم الجيش أغاروا على معسكره وقتلوا جملة من قادة جيشه وأصيب الخليفة بسهم مسموم كما أصيب بعدة طعنات في جسمه ، ولما شعر الجنود بخدعة البرتغاليين عادوا مسرعين إلى المعسكر

للدفاع عن قائدهم وتراجع البرتغاليون إلى وراء أسوار مدينة شنترين ، بينما حمل الجنود خليفتهم الجريح على محفة حيث مات بعد ليلتين من هذه المعركة وذلك في ٧/ رجب / ٥٨٠هـ - ١١٨٤م ودفن بجوار أبيه عبدالمؤمن^(٨) .

وهكذا قُتل الخليفة المغربي أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن ، بسيوف برتغاليه ، فقام المسلمون بانتخاب ابنه أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن ، خليفة لهم ، وصار لقبه (المنصور) .

أما على صعيد الأحداث في البرتغال ، ففي سنة ١١٨٥م ، أي بعد سنة من استشهاد أبو يعقوب ، مات ملك البرتغال أفونسو هنريك فخلفه على عرش البرتغال ابنه الملك (سانجو الأول DOM SANCHO I) .

قام سانجو الأول بتوطيد ملك أبيه الذي امتد إلى منتصف البرتغال الحالية تقريباً ، أي أن جنوب البرتغال ، أو منطقة (الغرب) التي كانت لا تزال بيد العرب ، راح يضع الخطط لانتزاعها منهم وتمكن بالفعل من انتزاع قسم منها فصار لقبه (مُجددُ بناء المدن) وكذلك لقب (والد الوطن)^(٩) .

أما الخليفة (المنصور) فقد واجه كثيراً من المهام الصعبة في المغرب والأندلس معاً ، ففي بداية عهده انتهز (بنو غانية) فرصة وفاة أبيه وخرج أميرهم علي بن اسحاق عليه وأعلن الثورة ، وثار تونس وبعض أجزاء شمال أفريقيا ، فقاتلهم المنصور قتالاً شديداً ، أما في البرتغال ، فقد قام الملك سانجو الأول بوضع الخطط اللازمة لضرب العرب في جنوب البرتغال ، وكانت خططه تقوم على أساس فتح ميناء العاصمة لشبونة للسفن الأوربية التي كانت تحمل الجيوش الصليبية لقتال المسلمين في الأراضي العربية ، ويتم الاتفاق معها على معاونته في قتال العرب .

(٨) عبدالمعز سالم - المصدر نفسه - ص ٨٠١ ، وكذلك الدكتور حسن إبراهيم حسن - تاريخ الإسلام - ج ٤ ص ٢٢٣ .

(٩) DANVERS - المصدر نفسه - ص ١٥ .

وفي عام ١١٨٩ وصلت إلى ميناء لشبونة السفن التي كانت تحمل الجيش البريطاني
الذاهب لقتال صلاح الدين الأيوبي في فلسطين ، ذلك أنه لما تمكن صلاح الدين
الأيوبي من استرداد بيت المقدس في معركة (حطين) عام ١١٨٧ ، بادرت البابوية
بإرسال المنشورات إلى سائر أنحاء أوروبا تدعو إلى حملة صليبية ثالثة ، فاستجاب لها
ملوك أوروبا الثلاثة الكبار في ألمانيا وفرنسا وإنجلترا ، وقرر ملكا فرنسا وإنجلترا وهما
فليب اغسطس ملك فرنسا وهنري الثامن ملك إنجلترا أن يقلعا بحراً بأسطولين
متفرقين ليلتقيا بالجيش الألماني الراجل ويجمع الكل في عكا^(١٠) .

والذي يهمنا من أمر هذه الحملة ، هو أن الأسطول البريطاني الذي كان يحمل
مقاتلين إنجليز وعدداً آخر من المغامرين الأوربيين . توقف في لشبونة ، فكانت هذه
فرصة ذهبية للملك البرتغالي سانجو الأول ، للتعاون مع الإنجليز لانتزاع مدينة (شلب)
من العرب .

وافق الإنجليز على ذلك وسرعان ما اندفعت حشودهم المتعاونة مع البرتغاليين
وهاجموا مدينة (شلب) وحاصروها ، وحاولوا القيام بمحاولات عديدة لاقتحامها إلا
أنها فشلت كلها ، إلى أن قاموا بقطع المياه عن المدينة فاضطرت إلى الاستسلام
ودخلت القوات البرتغالية البريطانية إليها ، وطلب القائد البريطاني من الملك سانجو أن
يسمح له بقتل كل العرب في المدينة ، لكن سانجو رفض ذلك وسمح له بنهب وسلب
المدينة وكان ذلك في عام ٥٨٥هـ - ١١٨٩م^(١١) .

فلما بلغ أمر ذلك النصر البرتغالي مسامع الخليفة المنصور ، أمر بتشكيل جيش يقوده
بنفسه ويعبر به إلى الأندلس ليقاتل البرتغاليين ويسترجع مدينة (شلب) وبقيّة المدن
التي احتلوها .

وهكذا عبر إلى الأندلس بتاريخ ٣/ ربيع الأول/ ٥٨٥هـ ، أي في السنة الميلادية
نفسها . وتنفرد المصادر العربية فقط بذكر ما حدث عند عبور المنصور ، فتذكر

(١٠) أرست باركر - المصدر نفسه - ص ٨٦ .

(١١) DANVERS - المصدر نفسه - ص ١٥ ، وكذلك الحجي - المصدر نفسه - ص ٤٦٣ .

أنه تعاون مع واليه الموجود في قرطبة وهو محمد بن يوسف وهاجم الإثنان مَدَن (باجه BEGA) و (يابره EVORA) و (شلب SILVES) و (قصر أبي دانس ALCACER DO SAL) واستعادوها من البرتغاليين ، أي أنهم عادوا فأحكموا أمرهم على جنوب البرتغال أي منطقة (الغرب ALGARVE) ، ثم عاد بعدها المنصور إلى أشبيلية ليشرف من هناك على تنظيمات الأندلس المدنية والعسكرية ، ثم توجه عائداً إلى مراكش في السنة نفسها .

أدت انتصارات المنصور هذه إلى أن يقوم صلاح الدين الأيوبي بإرسال بعثة إلى مراكش للتفاهم مع الملك المغربي حول وضع خطط لتعاون عسكري مشترك لقتال القوى الصليبية الأوربية التي كانت تهاجم كلا البلدين ، لكن المنصور ، ورغم انتصاراته الباهرة التي أحرزها ضد الجيوش البرتغالية وغيرها إلا أنه لم يستطع تلبية طلب صلاح الدين ، ذلك أن انتصاراته أثارت حسد الأعداء الداخليين وعلى رأسهم بنو غانية ، فأعلنوا العصيان ثانية في مدينة طرابلس الغرب وامتدت ثورتهم إلى تونس ، فقرر الخليفة المنصور الخروج بنفسه لمقاتلة بني غانية ومن معهم .

وصلت أنباء خروج الخليفة المغربي وجيشه إلى تونس لقتال الخارجين عن طاعته هناك إلى مسامع الملك الإسباني أفونسو الثامن ملك قشتاله ، فأمر هذا الملك بحشد الجيوش من جميع أرجاء إسبانيا والبرتغال مع متطوعين صليبيين ، وهاجموا في يوم واحد المدن الأندلسية وطوقوا أشبيلية عاصمة الموحدين في الأندلس .

كان الخليفة المنصور في منطقة (المنصورة) عندما بلغته أنباء الحرب في الأندلس ، فقرر وقف قتال بني غانية والجواز إلى الأندلس لمقاتلة أفونسو الثامن ، وأمر بحشد جيش جديد لهذا الغرض فاجتمع له الألف من قبائل العرب والبربر وزناته ومصموده كما التحق بمقره عدد كبير من أشياخ الموحدين والفقهاء والزهاد ، وعبر هذا الجيش إلى الأندلس في ٢٠ / جمادي الآخر / ١١٩٤ م .

وهناك وفي منطقة اسمها (الأرك) تقع قرب قرطبة على حدود مملكة قشتاله

الإسبانية التقى جيش المنصور بجيوش أفونسو الثامن ودارت معركة كبرى بين الطرفين حمل فيها المسلمون على جيوش أفونسو حملة كبرى وكان الخليفة المنصور يمشي منفرداً بين رجاله يحثهم على الحرب والقتال .

فانهزم جيش قشتاله وأحكمت فيهم سيوف الموحدين ، وقُتل من كتائب (سانت ياغو) أو القديس يعقوب وهي كتائب دينية متطرفة تعود لمنطقة جليقة ، قُتل من هؤلاء ثلاثة أساقفة ونحو ١٧ قساً وعدد كبير من الفرسان . أما جيش البرتغال فقد كان بقياده (كنزالو فيجاس) وكان اسم وحدات ذلك الجيش ، (كتائب يابره EVORA) فقد حلت بهم هزيمة منكرة وقتل القائد البرتغالي وتمزقت جيوشه وكتائبه . وهكذا حلت الهزيمة بأفونسو الثامن وجيوشه ، وعاد المنصور إلى اشبيلية ظافراً فأكمل بناء الجامع الكبير وقفل عائداً إلى مراكش ، وكانت معركة (الأرك) هذه آخر المعارك العظيمة التي انتصر فيها العرب على جيوش إسبانيا والبرتغال ، إذ انتقل الخليفة المغربي أبو يوسف يعقوب (المنصور) إلى رحمة الله في مراكش في ٢٢ / ربيع الأول / ٥٩٥ هـ الموافق عام ١١٩٨ م ، وخلفه على العرش ابنه أبو عبدالله محمد الملقب بالناصر لدين الله .

تولى الناصر لدين الله الحكم في المغرب وقد واجهته في أول خلافته مشكلات كثيرة أهمها ثورة بني غانية ، فقد استطاع يحيى بن اسحاق بن غانية احتلال تونس ، هذا بالإضافة إلى ثورات قامت هنا وهناك في المغرب نفسه مما أجبر الخليفة الناصر لدين الله أن ينصرف في أوائل أيام حكمه إلى قتال الخارجين عليه من العرب والبربر . أما أفونسو الثامن ، فلم ينس هزيمة الموحدين له في (الأرك) إذ تذكر بعض المصادر العربية أنه لما حلت به الهزيمة حلق شعر رأسه ونكس صليبه وركب حماراً بدلاً من الحصان ، وأقسم أن لا يركب فرساً ولا ينام على فراش حتى ينتصر على العرب ، فأخذ يسعى جاهداً منه سنة ١٢٠٨ للتوفيق بين ملوك إسبانيا المسيحية والبرتغال وتوحيدهم وأرسل الوفود إلى فرنسا وألمانيا وإيطاليا داعياً إياهم لمحاربة العرب .

وكان البابا (أنوسان الثالث) يعد العدة لحملة صليبية خامسة غرضها مقاتلة الملك

العادل شقيق صلاح الدين الأيوبي في مصر ، فلما علم بأمر الملك افونسو الثامن في إسبانيا ، بعث إلى أساقفة جنوب فرنسا أمراً بأن يعلنوا النفير العام لرعايهم وأن يسيروا بأنفسهم لمؤازرة ملك قشتاله ، وأنه يمنح كل من يلبي هذه الدعوة الغفران التام^(١٢) .

ويقول المؤرخون العرب : « إن ملك قشتاله بث القسيسيين والرهبان من البرتغال إلى القسطنطينية العظمى ينادون في البلاد ، فجاء عبّادُ الصليب من كل فج عميق ومكان سحيق وأقبلوا إليه إقبال الليل والنهار من رؤوس الجبال وأسياف البحار » . وهكذا وقبل أن ينتهي عام ٦٠٨ هـ - ١٢١٢ م ، اجتمعت في طليطلة عاصمة قشتاله جموع هائلة من جيوش أوربية ومتطوعي الحملة الصليبية الخامسة ، وتم تنظيم تلك الجيوش وتعبئتها على الشكل التالي :

الجيش الأول : بقيادة الفونسو الثامن ومعه جيش البرتغال بقيادة الأمير بدر و جيش سانت ياغو و جيوش أخرى .

الجيش الثاني : جيش منطقة (أرغون) و (نافار) و (ليون) بقيادة الملك بدر الثاني .

الجيش الثالث : مكونٌ من مئة ألف مقاتل من وحدات صليبية أوربية مختلفة بقيادة قائد من قشتاله هو (دون ليجو لوبث) وعدد من الاساقفة والرهبان .

وفي شهر صفر من عام ٦٠٩ هـ ، أي شهر يوليو تموز عام ١٢١٢ م التقى الطرفان في مكان يسمى (لاس نافاس دي تولوسا LAS NAVAS DE TOLOSA) ويسمى مؤرخو العرب هذا الموقع (العقاب) نسبة إلى حصن أموي قائم بالقرب من ذلك المكان ، وفي ١٥ / صفر اشتبك الجيشان في قتال عنيف ، وكان الخليفة الناصر لدين الله يشرف على المعركة وهو على رأس ربوة تطل على الميدان ، وسرعان ما انجلي الموقف عن سيطرة الأوربيين على المعركة ، فانتهت بهزيمة ساحقة للمسلمين إذ تمكنت الجيوش الأوربية من القضاء عليهم فهربوا تاركين وراءهم الألوف من القتلى ، ولم يبق أمام

(١٢) الدكتور عبدالعزيز السيد سالم - المصدر نفسه - ص ٨١٢ ، وكذلك الدكتور حسن إبراهيم حسن - المصدر نفسه - ص ٢٢٧ .

الخليفة الناصر لدين الله سوى الفرار أيضاً ، فغادر إلى اشبيلية ومنها إلى مراكش وهو في أشد الحزن لهذه الهزيمة واحتجب في قصره بقية سنة ٦٠٩ هـ حيث توفي هماً وحزناً في ٤ / شعبان / ٦١٠ هـ أي بعد سبعة أشهر من هزيمته في (العقاب) .

وهكذا انتهت واقعة العقاب ، وهي الواقعة المشؤومة التي لم يقم للمسلمين بعدها قائمة محمد ولم تستقر الأندلس بعد العثرة ، فأضحت الأندلس الإسلامية لقمة سائغة لفاتحها الجدد وتقاسمها الأمراء النصاري وصغار أمراء المسلمين ، ومنها مملكة (غرناطة) التي قامت في عام ١٢٣٨ م ، وانتهت كلياً عام ١٤٩٢ م ، حيث انتهى معها آخر أثر عربي وإسلامي في جزيرة إيبريا أي إسبانيا والبرتغال .

كما أن تاريخ وفاة الناصر لدين الله سجل بداية لانحيار دولة الموحدين ، فسادت الفوضى الإدارية ، وتفككت وحدة قبائل الموحدين واشتدت حركة (بني غانية) حيث بعثت قوى الموحدين واستهلكتها ، فسقطت حكومة الموحدين عندما صعد إلى عرش المملكة الخليفة أبو العلاء ادريس الذي أطاحت به القوى السياسية الجديدة وهي قوه (بني مرين) الذين احتلوا مراكش وألقوا القبض عليه وقتلوه ، وكان ذلك نهاية دولة الموحدين وقيام الدولة المرينية أي دولة بني مرين في المغرب في عام ٦٦٧ هـ .

أما على الصعيد البرتغالي ، فقد ترك لنا المؤرخون هناك أسماء معارك عديده خاضوها ضد العرب في (الغرب) أي جنوب البرتغال ، ووضعوا معركة العقاب على أنها أهم المكاسب التي حصلوا عليها وتكلموا عن معركة اسمها (UCLES) وأخرى اسمها (SALADO) حيث قالوا إنها كانت معارك خسرها العرب في الجنوب البرتغالي .

وينفرد الدكتور عبدالرحمن الحججي بذكر معركة تلت معركة العقاب شاركت فيها قوات الحملة الصليبية الخامسة ، خسر العرب فيها ميناء قصر أبي دانس ، وحدثت عام

١٢١٧ حينما هاجم (الفونس الثالث) ملك البرتغال بمساعدة أسطول ألماني كان متجهاً نحو مصر لمقاتلة المصريين فحاصروا ميناء قصر أبي دانس (ALCACER DO SAL) الواقع على مسافة ٩٠ ميلاً جنوب لشبونه ، وبعد مقاومة وقتال مرير أبداه أهل المدينة اقتحم البرتغاليون والصليبيون المدينة وقتلوا الآلاف من سكانها فكانت تلك المعركة من الكوارث المنذرة بنهاية العرب في الأندلس^(١٣) .

أما المصادر البرتغالية المتوفرة لدينا ، فتختصر الاحداث وتقول إنه لما مات الملك البرتغالي الملك (أفونسو الثالث AFFONSO III) في عام ١١٧٩ تولى العرش ابنه (دون دينز DOM DINIZ) الذي يعتبر عهده نهاية لكافة الحروب مع العرب حيث تم تحرير البلاد بكاملها وأصبحت البرتغال بلداً مستقلاً كاملاً ، ويذكرون اسم القائد البرتغالي (PAIO PERES CORREIA) ويعتبرونه (فاتح الغرب) ويضعون تاريخاً لذلك وهو عام ١٢٥٠ م .

فإذا أخذنا بهذا التاريخ أي عام ١٢٥٠ م كنهاية لحكم العرب للبرتغال ، فتكون أيام العرب هناك من ٧١٤ م إلى ١٢٥٠ م أي أكثر من خمسمائة عام^(١٤) .

وهكذا انتهى حكم العرب في البرتغال وخسروها كليه في الفترة الزمنية نفسها التي سقطت فيها بغداد عاصمة الخلافة العباسية بيد المغول عام ١٢٥٨ م ، فكانت تلك هي نهاية أيام العرب في البرتغال لتبدأ بعدها قصة جديدة وهي أيام البرتغال في أرض العرب .

(١٣) الحجي - المصدر نفسه ، نقلاً عن ابن الأبار في الحلة السراء .

(١٤) DANVERS - المصدر نفسه - ص ١٦ .

الفصل الثامن

أثر الحضارة العربية الإسلامية على البرتغال

كان الفينيقيون ومن بعدهم القرطاجينيون قد استقروا في شبه الجزيرة الأيبيرية ، وأغلقوا مضيق هرقل (مضيق جبل طارق فيما بعد) . إلا أن الرومان هاجموا القرطاجين عام ٢٠٢ ق م. وأنزلوا بهم هزيمة وشكلوا ولاية جديدة اسمها (هسبانيا) كانت تشمل منطقة (لوزيتانا) أي البرتغال في يومنا هذا والتي ينتمي سكانها إلى الجنس الكلتي . وفي عام ١٣٧ ق م. احتل الرومان مدينة اسمها (OLISSIPO OLISIPONIA) هي لشبونة الحالية واتخذوها مقراً إدارياً .

وفي القرن الخامس الميلادي قدم جماعة من البرابرة الألمان وتمكنوا من السيطرة على منطقة البرتغال ، إلا أنه في عام ٥٤٩ م قام الامبراطور البيزنطي JUSTINIAN باحتلال جنوب إسبانيا (الإندلوسيا) وجنوب البرتغال الحالية أيضاً

واستمر الحال كذلك إلى الفتح العربي الإسلامي للبرتغال أي منذ أوائل القرن الثامن الميلادي وانتهى إلى ما بعد حوالي خمسة قرون كما بيناه في الفصول السابقة ، ولقد كان تداخل المسلمين العرب بأهل إيبيريا ومنهم البرتغاليون مستمراً ، ولم يقتصر هذا التداخل والاحتكاك على فترات الحرب فقط ، بل شمل فترات السلم أيضاً ، فعندما يتصل شعبان أحدهما بالآخر ، فإن الشعب صاحب الحضارة الأرقى هو الذي يؤثر على الآخر ، وهكذا كانت الحالة بالنسبة للعرب في إسبانيا والبرتغال .

وقد حاول البرتغاليون بعد سقوط لشبونة أن يحوّلوا الأثر العربي هناك ، خاصة بعد أن صارت المدينة عاصمة للبرتغال على عهد الملك أفونسو الثالث ، إلا أن الأثر النفسي والعلمي العربي لا زال هناك ، خاصة في أسماء المواقع الجغرافية العربية الأصل حيث تكثُر بشكل واضح في الجنوب .

ففي لشبونة ما زال الحيُّ الشرقيُّ منها يحمل اسمه العربي (ALFAMA) وهذه التسمية البرتغالية محرقةٌ عن اسمه العربي (الحَمَّة) . وقد ورد وصف (الأشبونة) في كتب الأدب والتراجم ، فقد قيل إن أبا بكر بن محمد بن إدريس الفرابي العالوسي ألّف كتاباً عن مسقط رأسه الأشبونة اسمه (الدُرر المكنونه في أخبار أشبونة) ، وقيل أيضاً إن كتاباً اسمه (المُغرب في حُلِّي المغرب) لابن سعيد أفرد فيه فصلاً بعنوان : (كتاب الرياض المصونة في حُلِّي مملكة أشبونة) وفصلاً آخر بعنوان (كتاب الغره الميمونه في حُلِّي مدينة أشبونة)^(١) .

هذا وقد أفاض الجغرافيون في الحديث عن الأشبونة ، فيقول ياقوت الحموي في معجم البلدان :

أشبُونه : بالضم ثم السكون ثم ضم الباء الموحدة . متصلة (بشتيرين) ، قريبة من البحر المحيط ، يوجد على ساحلها العنبر الفائق . قال ابن حوقل : هي على مصب نهر شتيرين إلى البحر ، قال : ومن فم النهر وهو المعدن إلى أشبونة إلى شتيره يومان وينتسب إليها جماعة منهم أبو إسحاق إبراهيم بن خلف بن عبد الكريم بن سعيد المصمودي من البربر ويعرف بالزاهد الأشبونني^(٢) .

وفي كتاب (الروض المعطار) لمحمد عبد المنعم الحميري :

أشبُونة : بضم الهمزة وسكون الشين المعجمة وضم الباء المنقوطة بواحدة ، بعدها واو ساكنة ونون وهاء تأنيث ، قال البكري : ومدينة أشبونة بغربي باجه وهي مدينة

(١) الدكتور الطيبي - المصدر نفسه - ص ٢٣٠ .

(٢) ياقوت الحموي - معجم البلدان - ص ١٦٣ .

قديمة على سيف البحر تتكسر الأمواج على سورها ، وسورها رائق البنيان بديع الشأن ، وبابها الغربي قد عُقدت عليه حنايا على عمد من رخام متقنة على حجارة من رخام ، ولها باب غربي أيضا يعرف بباب الخوخة ، مشرف على مرج فسيح يشقه جدولا ماء يصبان في البحر ، ولها باب قبلي يسمى باب البحر ، تدخل أمواج البحر فيه عند مدّه وترتفع في سوره ثلاثة أقدام ، وباب شرقي أيضا يعرف بباب الحمة ، والحمة على مقربة منه ، ومن البحر بماءين : ماء حار وماء بارد فإذا مد البحر واراها ، وباب شرقي يعرف بباب المضيق وكذلك باب المقبرة^(٣) .

وقد أفاض المصنفون الجغرافيون المسلمون في الحديث عن ثروة الأشبونة البرية والبحرية والمعدنية ، فأحمد الرازي (القرن العاشر الميلادي) يتحدث عن وفرة أسماكها وصيدها البري ، كما يتحدث عن جودة عسلها وعن جمع التبر من الساحل المقابل لها وعن جودة عنبرها الذي يلفظه البحر عند ساحلها ويقول إن الأشبونة تتصل بأحواز مدينة شترين ، ولها خصلة بانث في طيب الثمرات وأماكن الصيد في البر والبحر ، وبزاتها أحسن البزات ، وفي جبالها شورة العسل ، وهو الأبيض الخالص يشبه السكر في المذاق ، ولها معدن من التبر الخالص غزير المادة ، ويوجد في ساحل الأشبونة العنبر الفائق المتناهي كثيرا ، وهو يفوق كل عنبر ولا يشبهه إلا الهندي^(٤) .

وفي كتاب الروض المعطار أيضا أن البساتين تكثر في إقليم الأشبونة المشهور بخصب التربة ووفرة المياه ، ومدينة شتره على مقربة من الأشبونة .

أما الإدريسي صاحب (نزهة المشتاق) فيتحدث عن تبر الأشبونة وحنطتها فيقول : وعلى ضفة النهر (تاجه) من جنوبيه قبالة مدينة لشبونة يوجد حصن المعدن (ALMADA) وسُمي بذلك لأنه عند هيجان البحر يقذف هناك بالذهب والتبر ، فإذا كان زمن الشتاء قصد إلى هذا الحصن أهل تلك البلاد ، فيخدمون المعادن الذي به إلى

(٣) تاريخ الأندلس لابن كردبوس - حاشية المحقق د . أحمد مختار العبادي - ص ١٦٣ .

(٤) النص العربي لكتاب الرازي مفقود ومترجم إلى البرتغاليه ، وقد عثر عليه أخيراً في نص كتاب اسمه (فرحة الأنفس) لابن غالب - الدكتور الطيبي - المصدر نفسه - ص ٢٢٥ .

انقضاء الشتاء ، وهو من عجائب الأرض ، وقد رأيناه عياناً . ويذكر أهل لشبونة أن الحنطة تزرع (بفحص بلاطه) وهي منطقة ما بين شترين ولشبونة ، فتقيم في الأرض أربعين يوماً فتُحصَدُ ، وأن الكيل الواحد منها يعطي مائة كيل وربما زاد ونقص .

وقد حدثنا الإدريسي عن قصة الفتيه المغربيين أو (المغربين ؟) وهم فتيه ركبوا بحر الظلمات ليكتشفوا مجاهله ومعرفة نهايته فيقول ما موجهه : إن من مدينة لشبونة كان خروج المغربيين في ركوب بحر الظلمات ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتهاؤه ولهم بمدينة لشبونة موضع قرب الحمة درب منسوب اليهم يعرف بدرب المغربيين ، وذلك انهم اجتمعوا ثمانية رجال كلهم أبناء عم فأنشأوا مركباً حمالاً ، وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر ، ثم دخلوا البحر في أول (طاروس) أي هبوب الريح الشرقية فجروا فيه نحواً من أحد عشر يوماً فوصلوا بحرأ غليظ الموج كدر الروائح كثير التروش (الصخور) قليل الضوء ، فأيقنوا بالتلف فردوا قلاعهم في اليد الأخرى ، وجروا في البحر ناحية الجنوب اثني عشر يوماً فخرجوا إلى جزيرة الغنم ، وساروا مع الجنوب اثني عشر يوماً إلى أن لاحت لهم جزيرة ، ومن هذه الجزيرة نقلوا إلى مدينة على ضفة البحر حيث سُجنوا هناك مدة ثلاثة أيام ثم مثلوا أمام الملك فطمأنهم ، ويبدو أن الملك قرر إعادهم ، إذ حُمِلوا في مركب معصوبي الأعين وأنزلوا بعد رحلة استغرقت ثلاثة أيام على ساحل المغرب عند بلدة (أسفي) وهناك علموا من بعض الأهالي أن بينهم وبين بلدة الأشبونة مسيرة شهرين .

هذا ويرى الباحثون الجغرافيون الآن ، أن محاولة المغربيين هؤلاء كانت الخطوة الأولى لحركة الكشف البحرية البرتغالية منذ أن كانت المدينة تحت السيادة العربية ، كما تسنى للبرتغاليين إحراز ما اكتشفوه في القرنين الخامس عشر والسادس عشر بفضل اقتباسهم طريقة بناء مراكب العرب التقليدية في غرب الأندلس .

وقد أنجبت الأشبونة عدداً من الشعراء والأدباء والفقهاء أشهرهم أبو زيد عبد الرحمن بن مقانا الأشبوني وكذلك الشيخ أبو الحسن علي بن اسماعيل القرشي

الفهري الأشبوني وكان يعرف باسم (الطيطل) وهو من نظم الدرر المفضل لاسيما في الزهد .

ويبدو أن الأشبونه كانت مقصد الأدباء في غربي الأندلس فابن بسام صاحب كتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) يذكر أكثر من مرة أنه قصد الأشبونة لملاقاة أدبائها والوافدين عليها ، فعند الحديث عن الأديب أبي جعفر بن الدودين البلنسي يقول ابن بسام : « هو أحد من لاقيته وشافهته وأملى عليّ نظمه ونثره بالأشبونة سنة سبع وسبعين وأربعمائة . » ويتحدث ابن بسام عن الأديب أبي عامر بن الأصيلي من سرقسطه فيقول : « وهبط إلى الأشبونة أيام كوني بها وزرته ونزلت عليه في منزله أول التقائي به في لُمة من أهل الأدب . » ويبدو أن نزاعاً عائلياً قد حدث في مدينة الأشبونة في أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي بين أسرتين كبيرتين فيها ، وهما آل أخطل ، وأسرة الفقيه ابن ابراهيم الفهري ذهب ضحيته الوزير الفقيه أبو عبدالله محمد بن ابراهيم الذي كثيراً ما يثنى عليه ابن بسام ويتفجع لمقتله فيقول : « وكان الوزير الفقيه سويداء قلب ذلك الإقليم ومجلسه بالأشبونة مرمى جمار المنثور والمنظوم ، هو المقتول هناك المظلوم رفع الله درجته وقَتَلَ قَتْلَهُ ، ولما كُسِفَ ذلك النير المشرق ، أنطلقت أيدي الدهماء ، إذ عدموا من كان يفيض عليهم أنوار الآراء ويستنزل بها ما أمتنع بآراء سديدة الأنحاء وسياسيات لطيفة من شدة ولين وحركة وسكون . » ولأبي عامر الأصيلي من سرقسطه في الوزير الفقيه قصيدة يقول فيها :

تَجَنَّبْتُ فِي أَشْبُونَةِ آلِ أَخْطَلِ	وَأَمَلْتُ رُكْنِي فِي الْخُطُوبِ وَمَعْقَلِي
إِلَيْكَ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ أَدَى بَنَى الْهَوَى	وَمَنْ عَرَفَ الْأَطْوَارَ حَادٍ عَنِ الْأَهْوَى
غَدَرْتُمْ فَكَانَ الْغَدْرُ مِنْكُمْ سَجِيَّةً	فَتَى الْعِلْمِ وَالْمَجْدِ التَّلِيدِ الْمُؤَثِّلِ

ومن مشاهير شعراء الأشبونة محمد بن سوار الأشبوني . ومن فقهاءها عبدالرحمن

بن عبدالله ، وكان يروي عن الإمام مالك بن أنس^(٥) .

وبعد سقوط الأشبونة ، وإجلاء معظم المسلمين عنها ، تم تحويل مسجدتها الجامع إلى كنيسة ، ويقال إن كاتدرائية لشبونة اليوم تقوم على أطلال المسجد الجامع وما زال الحي الشرقي من لشبونة يحمل اسمه العربي (ALFAMA) أي الحُمَّ علاوة على وجود حصون وقصور ومساجد عربية كثيرة لا تزال قائمة إلى يومنا هذا هناك .

أما مدينة (شنترين SANTAREM) فيرد ذكرها عند ياقوت الحموي في معجم البلدان فيقول :

شنترين : كلمتان مركبتان من (شنت) كلمة و(رين) كلمة ، وهي مدينة متصلة بأعمال (باجه) في غربي الأندلس ، ثم غربي قرطبة ، وتقع على نهر (تاجه) قريب من انصبابه في البحر المحيط ، وهي حصينة بينها وبين قرطبة خمسة عشر يوماً ، وبين باجة أربعة أيام .

والى مدينة شنترين ينتسب أبو الحسن علي بن بسام التغلبي الشنتريني صاحب كتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) ، وفي شنترين أيضاً ظهر أديب آخر اسمه علي بن جعفر بن علي السعدي الصقلي الشنتريني ، صاحب كتاب (الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة) .

أما ابن بسام صاحب كتاب (الذخيرة) ، فيبدو أنه كتبه بعد أن برح مسقط رأسه (شنترين) عام ١٠٩٣ أي بعد سقوطها بيد الفونس وقبل أن يستردها المرابطون إذ يقول في مقدمة كتابه :

« وعلم الله تعالى أن هذا الكتاب لم يصدر إلا عن صدر مكلوم الأجناء وفكر خامد الذكاء ، لا نتبأذى من شنترين قاصية الغرب . . . الخ »

ويورد ياقوت الحموي في معجم البلدان خبر مدينة (شنتره SINTRA) وهي غير شنترين فيقول :

(٥) نقل عن الدكتور الطيبي - المصدر نفسه - ص ٢٢٦ إلى ٢٣٢ .

شَتَّرَه : بالفتح ثم السكون ، مدينة من أعمال لشبونه في الأندلس ، قيل إن فيها
تفاحاً دور كل تفاحة ثلاثة أشبار والله أعلم ، ملكها الإفرنج سنة ٥٤٣ هـ ، وقد نسب
إليها قوم من أهل العلم .

وقد أورد ياقوت أيضاً ذكر مدينة (يَابْرَه EVORA) فقال عنها : بلدة في غربي
الأندلس يُنسبُ إليها أبو بكر عبدالله بن طلحة بن محمد بن عبدالله اليابري
الأندلسي ، مات بمكة سنة ٥٢٣ هـ .

وأورد ياقوت خبر مدينة (قلمريه COIMBRA) فيقول : قُلمريه : بضم أوله وثانيه
وكسر الراء ، مدينة بالأندلس هي اليوم بيد الإفرنج خذلهم الله .

ويحدثنا ياقوت عن مدينة (شلب SILVES) فيقول : شَلْب : بكسر أوله وسكون
ثانيه وآخره باء موحدة ، وهي مدينة بغربي الأندلس ، بينها وبين (باجه) ثلاثة أيام ،
وتقع غربي قرطبه ، وهي قاعدة ولاية أشكونيا ، وبينها وبين قرطبة عشرة أيام
للفارس ، وقد بلغني أنه ليس بالأندلس بعد اشبيلية مثلها ، وسمعت ممن قال : قُلَّ أن
ترى من أهلها من لا يقول شعراً ولا يتعاطى الأدب ولو مررت بفلاح خلف فدانه
وسألته عن الشعر ، قرض من ساعته ، وينسب إليها جماعة منهم محمد بن ابراهيم
بن غالب بن عبد الغافر بن سعيد العامري .

وقد تولى أمر مدينة شلب المعتمد بن عباد الذي ولد في مدينة (باجه) ولما يتجاوز
الثالثة عشر من عمره ، فأصبحت شلب مقر عامل اقليم الغرب وفي شلب كان
المعتمد قد تعرف على شاعر كبير هو أبو بكر محمد بن عمار . وفي مدينة شلب أيضاً
التقى المعتمد بفتاة حسناء اسمها اعتماد هام في حبها واتخذ لقبه من حروف اسمها
وفيها قال :

أغانية الشخص عن ناظري	وحاضرة في صميم الفواد
عليك السلام بقدر الشجون	ودمع الشؤون وقدر السهاد
دست اسمك الحلو في طيه	والأفت فيك روح اعتماد

وقد غادر المعتمد شلب وصار ملكاً في اشيلية عام ٤٦١هـ - ١٠٦٩م .

أما بالنسبة لإسهام الحضارة العربية والاسلامية في الثقافة البرتغالية ، فقد كان أثرها رائعاً كتأثيرها في الثقافة الأندلسية بصورة عامة ، وإذا كان الباحثون العرب والبرتغاليون ، لم يكتبوا كثيراً عن هذا التأثير فحسبهم أن البرتغال كانت من ضمن الأندلس آنذاك ، وكل ما يقال ويكتب عن التأثير العربي في الأندلس الإسبانية ، يُقال عن الغرب البرتغالية أيضاً .

فمما لا شك فيه أن للعرب أثراً رائعاً في التاريخ الفكري والعلمي للعصور الوسطى الأوروبية ، فقد كانت الشعوب العربية منذ منتصف القرن الثامن حتى أوائل القرن الثالث عشر الحَمَلَة الرئيسيين لمشعل الثقافة والمدنية في العالم فكانت الثقافة العربية الطريق الذي سهّل السبيل لبزوغ عصر النهضة في أوروبا ، والذي ساهمت فيه (أيبيريا العربية) إسهاماً هاماً .

فعند دخول العرب إلى إسبانيا ، لم يكن بين كل ألف إسباني من يعرف القراءة والكتابة باللاتينية ، إلا إسباني واحد ، لذلك فقد هرع الإسبان المضطهدون (MOCARABES) إلى الدخول في الإسلام والاختلاط بالعرب والانكباب على العلوم العربية والاسلامية ينهلون منها ، حتى أنه عندما سقطت لشبونه بيد البرتغاليين ، كان أكثر من نصف سكانها من الإسبان المسلمين . لذلك فقد قام هؤلاء الإسبان المستعربون الذين تثقفوا بالثقافة العربية ، واطلعوا على آداب لغتها ، فأدخلوا الكثير من المفردات العربية إلى الإسبانية والبرتغالية .

فاللغة البرتغالية تضم الفاظاً عربية كثيرة أغلبها يمس موضوع التنظيمات الحكومية والقانون وفن البناء وغيرها .

وأمامي الآن كتاب اسمه : VESTIGIOS DA LINGUA ARABICA EM PORTUGAL لمؤلفه JOAO DESOUSA وقد حققه ونشره البرفسور (DE. A. FARINHA. DE. CAR- VALHO) . هذا الكتاب يحتوي على مئات الألفاظ العربية الأصل التي

دخلت في البرتغالية . ويظهر هذا التأثير على لغة المؤسسات البرتغالية في يومنا هذا فدخلت ألفاظ القائد (ALCAIDE) و الفارس وهي رتبة الملازم في الجيش البرتغالي (ALFERES) والعديل (ADAIL) وهي رتبة أيضاً والميراني أي أمير البحر (ALMIRANTE) والطلائع وهي الوحدات العسكرية (ATALAIA) وكذلك الوزير (ALVAZIR) والمشرف (ALMOXARIFE) وغيرها من مئات الألفاظ .

ويذكر أن مكتبة الحكم الثاني التي حوت على ألوف الكتب العربية والموجودة اليوم في متحف الاسكوريال في مدريد ، قد اقتبس منها البرتغاليون علوم التجارة والفلسفة والثقافة وأهمها موضوع القانون الجنائي وقانون الموارث البرتغالي فيكاد يكون القانون الجنائي البرتغالي في العصور الوسطى عربياً في مواصفاته ، ويظهر قانون الموارث التأثير الكبير للتشريع القرآني على الحياة القديمة للسكان ، وكان التقليد أن تُحمى المرأة المرضعة والمربية لابن سيدها وقد أطلقوا عليها اسم (أمة) أو (AMAH) وكان لهؤلاء المربيات تأثير كبير في التقاليد والفلكلور البرتغالي ، فقد كُنَّ يغنين القصص الشعرية الرومانسية التي ما هي في الحقيقة إلا ذكريات ماضية للقصيدة العربية ، إما في المحتوى أو في الإيقاع^(٦) .

كما أن الأساطير البرتغالية وتسمى (LENDAS) لازالت إلى يومنا هذا تتحدث عن الفتيات العربيات الجميلات ، اللواتي كُنَّ يظهرن من عيون الماء العذبة ومجاري المياه في الوديان فينشدن الأغاني الحلوة وبذلك يسحرن ويستهوين قلوب الشبان البرتغاليين ، فصار اسم أغلب الفتيات البرتغاليات فاطمه FATIMA ويظهر تأثير العلوم الأخرى ، خاصة في العمارة والبناء واضحاً على اللغة البرتغالية ، فالكتب البرتغالية تعترف أن العرب علموهم بناء السدود (ACUDE) . وبناء الأبنية المرتفعة واستعمال الدروج والسلالم التي تتحمل الضغط العالي ، وعلموهم بناء الطواحين ونواير الماء ، حتى خياطة الملابس ، فصار الخياط يسمى (ALFAYAT) وعلموهم طبخ الشريد

(٦) ف. ج. فيلوز - اثر الحضارة العربية الإسلامية على البرتغال .

فصار يسمى (ACORDA)^(٧) .

وهكذا فنحن نأمل أن يزداد في كل يوم عدد الباحثين العرب والبرتغاليين
للكشف عن الأثر الثقافي المهم الذي تركه العرب في البرتغال .

(٧) نقلاً عن كتاب برتغالي اسمه : A'DESCABERTA DE PORTGAL .

الفصل التاسع

- * سقوط دولة الموحدين في المغرب وقيام دولة بني مرين هناك .
- * دولة بني مرين تواجه صعوبات سياسية في المغرب وتسبب نحو الضعف فيما تتعاظم قوة البرتغال .
- * البرتغال تحتل ميناء (سبتة) المغربي في ١٤١٥/٨/٢١م لتتخذ منه قاعدة انطلاق نحو فتوحاتها في أفريقيا والشرق .
- * نظرة على أحوال مملكة البرتغال في عهدها الأول وتعاقب الملوك فيها ثم ظهور الملك (دون جوان) الأول ملكاً من أسرة (أفيزا) عام ١٣٨٥ .
- * ظهور اسر الأمير هنري الملاح على صفحات التاريخ البرتغالي .

إنتهى حكم العرب في البرتغال حوالي عام ١٢٥٠م كما رأينا ذلك في الفصل السابع من الكتاب ، إلا أن ذلك التاريخ لا يعني نهاية العرب في إسبانيا أيضاً ، فعلى الرغم من الضعف العام الذي أصاب الوجود العربي هناك ودلالة المؤشرات السياسية على أن أيام العرب أوشكت على الأفول ، فإن العرب بقوا هناك في إمارة صغيرة في أقصى جنوب الاندلس ، هي إمارة غرناطة والتي لم تسقط بيد الإسبان إلا في عام ٨٩٧هـ - ١٤٩٢م .

إلا أنه وبقدر ما يتعلق الأمر بالعلاقات العربية - البرتغالية ، والتي هي موضوع كتابنا هذا ، فإن العلاقات البرتغالية - المغربية انقطعت تقريباً منذ أن خسر العرب معركة

العقاب التي وقعت بين الطرفين عام ١٢١٢ م ، وكانت نتيجتها اندفاع البرتغال نحو استثمار الفوز بالاستقلال التام عن الحكم العربي ، فيما تهاوت مملكة الموحيدين في المغرب إلى أن سقطت بيد بني مرين في حوالي عام ١٢٦٩ م ، فقامت دولة بني مرين في المغرب ، وحكمت حوالي مئتي عام وهي الفترة الزمنية التي بدأت فيها قوة البرتغال بالتعاظم وقوة المغرب بالهبوط والنزول ، فكانت آخر أيامها سيئة إلى درجة كبيرة ، لكثرة الاعداء الداخليين ، وتعدد مراكز القوى ، فلم تتمكن السلطة في فاس من صيانة الأمن والدفاع عن البلاد ، مما دفع بدولة البرتغال الناشئة والمتعاونة مع إسبانيا إلى أن ترسل أساطيلها وتحتل مدينة (سبته) المغربية عام ١٤١٥ م ، فكان ذلك بداية لسقوط دولة بني مرين وقيام دولة بني وطاس في المغرب .

* * *

قامت دولة بني مرين في حوالي عام ١٢٦٩ وسط ظروف عصيبة ، لذلك فإن تاريخها مضطرب وملئٌ بمشاكلها الخاصة مع بقايا علاقات وروابط بمملكة غرناطة العربية في جنوب إسبانيا ، الأمر الذي جعل من رجالها قادة سياسيين وليسوا عسكريين ، استطاعوا أن يفاوضوا في أخرج الأوقات وأصعب الحالات ، فهي عكس الدولة التي سبقتها أي دولة الموحيدين . فدولة الموحيدين قامت على أسس عسكرية دفعتها إلى إرسال جيوشها خارج حدودها للقتال في إسبانيا والبرتغال .

ولكن بصورة عامة فإن هزيمة العرب عام ١٢١٢ ، وانهيار دولة الموحيدين أضعف المغرب عسكرياً ، بحيث انصرفت الدولة المرينية إلى الدبلوماسية الهادئة في معالجة أمورها السياسية ، فنرى لرجالها جولات في ميدان السياسة مع ممالك قشتالة وأراغون في إسبانيا ومملكة غرناطة العربية ومملكة البرتغال الحديثة ، علاوة على علاقاتهم بممالك مصر والشام والحجاز وفرنسا وإنجلترا وأخيراً مع الدولة العثمانية في فجر ظهورها^(١) .

(١) الدكتور عبدالهادي التازي - الموجز في تاريخ العلاقات الدولية للمملكة المغربية - ص ٦١ .

عُرف من ملوكها الأوائل السلطان يعقوب بن عبدالحق المعروف باسم أبو يوسف ، وكانت لهذا الرجل صولات دبلوماسية مع ملوك الإمارات الإسبانية وملك غرناطة العربية ، إلا أن علاقاته مع الأخير لم تكن على ما يرام ، إذ يبدو من دراسة بعض صفحات التاريخ ، أن ملك غرناطة كان أحياناً يرأسل السلطان المغربي في طلب العون منه للوقوف أمام المد الإسباني لكن السلطان لم يكن في موقف يساعده على أن يمد يد النجدة له ، مقابل ذلك فإن ملك غرناطة ، وبمساعدة من ملك قشتالة الإسباني ، تمكن من احتلال ميناء (سبتة) المغربي ، إلا أن السلطان تمكن من استعادته عام ١٢٧٤ م .

وتتلاقح أماننا أسماء سلسلة من سلاطين الدولة المرينية وسط تدوين تاريخي مضطرب وغير دقيق للأحداث ، فيظهر لنا في عام ١٢٨٦ م اسم السلطان يوسف بن يعقوب بن عبدالحق ، المعروف باسم أبو يعقوب يوسف ، والسلطان أبو ثابت ، ثم تتلاحق سلسله أخرى من أسماء الملوك مثل أبو الربيع وأبو سعيد وأبو الحسن ، وأبو فارس ، وأبو عنان ، وأبو سالم . الخ ، تعرضت فيه المغرب على أيامهم المحشورة حشراً بشكل مرتبك في صفحات التاريخ لعلاقات سيئة مع مملكة غرناطة في الأندلس ، حيث كانت تلك المملكة تعمل على إسقاط دولة بني مرين . هذا علاوة على تعرض هذه الدولة إلى مزاحمة سياسية من (الدولة الحفصية) التي كانت قائمة في تونس مما اضطر بعض الملوك المرينيين إلى التنازل لذكر اسماء ملوك تونس الحفصيين على المنابر في المغرب ، وفي حالات أخرى توطدت أواصر القربى بين بني مرين في المغرب وبني حفص في تونس ، بزواج الأمير علي المريني بالأميرة فاطمة الحفصية ، مما جعل الدولة الحفصية تتدخل كثيراً في الشؤون الداخلية للمغرب ، خاصة على زمن السلطان عبدالحق بن أبي سعيد المريني ، مما دفع ببعض المؤرخين إلى اعتبار أن المغرب سقط بيد الدولة الحفصية .

إلا أن هذه الدولة تعرضت إلى هزة كبرى عندما تمكنت قوات برتغالية من احتلال

مدينة سبته المغربية ، فعلى عهد السلطان أبو سعيد عثمان المريني وبعد صراع سياسي بالغ مع جميع المنافسين له ، أصيبت الدولة بالضعف من جراء التجزئة الداخلية وعدم تمكن السلطان من إدارة الشؤون العامة بسبب انشغاله بالحرب ضد أخيه مولاي يعقوب ، وتعرض البلاد لنكبات طبيعيه كالطاعون والمجاعة ، كل هذا أدى إلى استئساد دولة البرتغال وهي الدولة الناشئة الطامحة في التوسع والسيطرة والساعية لاكتشاف منابع الثروات والخيرات في العالم ونشر المسيحية في أرجاء الأرض ، فدفعها إلى أن تتطلع إلى موقع مدينة (سبته) المغربية الاستراتيجي المشرف على طرق المواصلات التجارية البحرية بين جنوب أوروبا ومضيق جبل طارق والمشرف على سواحل الاطلسي والذي يشكل قاعدة عسكرية متقدمة مثالية للإنطلاق نحو سواحل أفريقيا الغربية . كل هذا حفزها إلى أن تقوم بتجهيز حملة عسكرية بحرية مكونة من أسطول مؤلف من ٢٢٠ سفينة على ظهرها حوالي ٥٠٠٠ ر ٥٠٠ مقاتل من البرتغال وبريطانيا والمانيا وفرنسا ، أبحرت بسرية تامة من البرتغال يوم ٢٥ / ٧ / ١٤١٥ م ، ووصلت إلى ميناء سبته المغربي يوم ٢١ / ٨ / ١٤١٥ م ، وتمكنت من احتلاله^(٢) .

أدى احتلال سبته إلى ظهور فجر جديد في تاريخ البرتغال ، وتاريخ أسرة (آفيس) الحاكمة هناك وهو فجر سياسة التوسع البرتغالية نحو السواحل العربية المغربية ، ثم الغزو البرتغالي للبلاد العربية والإسلامية ، وقد شكلت (سبته) قاعدة لانطلاقهم نحو سواحل أفريقيا الغربية ، فأحكموا قبضتهم هناك وعينوا حاكماً للمدينة هو : PEDRO DE MENESES ، وقبل أن نستمر بقصة ما حدث بعد الغزوة البرتغالية للمغرب واحتلال (سبته) لابد من معرفة كيف كانت الأحوال في البرتغال ، وما هي الظروف التي مرت بها هذه الدولة ، ودرجات التطور والرقى التي اعتلتها والتي مكنتها من إرسال قواتها لتحتل موقعا في المغرب تمهيدا لاحتلال مواقع استراتيجية أخرى في مناطق أخرى لتكون أول وأكبر دولة استعمارية في العالم .

(٢) الدكتور إبراهيم شحاته حسن - واقعة وادي المخازن في تاريخ المغرب ص ٣٨ وكذلك الدكتور عبد الكريم كريم المغرب في عهد الدولة السعيدية - ص ٦ .

قلنا في الفصل السابع من هذا الكتاب ، إن عهد الملك البرتغالي أفونسو الثالث AF-FONSO III ، شهد نهاية العرب في البرتغال ، وقد انصرف هذا الملك بعد ذلك إلى تثبيت قواعد مملكته وتحصين حدودها ووضع الركائز السياسية لها وتحديد علاقاته بجارته إسبانيا ، وكانت سياسته الخارجية تعتمد على تقوية علاقاته ببريطانيا ، وهي الدولة التي ساعدت البرتغال ضد العرب ، كما أنه عمل على تشجيع الزواج بين الشعبين ، وقد توفي عام ١٢٧٩م فخلفه ابنه (دون دينيز DOM DINIS) الذي سار على نهج والده في تقوية علاقاته السياسية مع بريطانيا ، وارتبط بصدقة مع الملك (أدوارد الأول) ملك بريطانيا فعقد معه معاهدة تجارية عام ١٢٩٤ . وفي عام ١٣١١ اتفق مع الملك (أدوارد الثاني) على تشكيل وحدات عسكرية خاصة أطلق عليها اسم (وحدات فرسان العاصفة المدوية KNIGHTS TEHLARS) وقام الاثنان بتدريب هذه القوات على كافة أساليب القتال العسكرية فخلقوا منها وحدات مقاتلة كفؤة ، فلما اكتمل لهما هذا الأمر رفعوا النبا إلى البابا (كليمنت الخامس CLEMENT ٧) فبارك لهما هذا الفعل ، مما دفع بالملك البرتغالي أن يعلن أن مملكته تقوم على أساس (إرادة المسيح) ، وأن مملكة البرتغال هي مملكة (العاصفة المدوية) ، وعلى هذا الأساس أيضاً أصدر أوامره بتشكيل إسطول حربي برتغالي أسند قيادته إلى الاميرال (مانويل بيساننا) .

فلما مات هذا الملك ، خلفه في الحكم الملك (دون بيدرو الأول DOM PEDRO I) الذي راح يقوي النزعة العسكرية ويثبت اركان الدولة القوية ، متعاوناً مع الملك أدوارد الثالث ملك بريطانيا في تدريب قواته العسكرية ، وفي عام ١٣٥٣ تم عقد معاهدة سياسية وتجارية جديدة بين البلدين .

وعندما حل عام ١٣٦٧م مات الملك دون بيدرو الأول فخلفه على عرش البرتغال ابنه الملك (فرديناند FERDINAND) الذي استمر على اتباع النهج السياسي نفسه في

التعاون الوثيق مع بريطانيا وراح يتعاون مع مملكة (قشتاله) الإسبانية أيضاً ، فصار لمملكة قشتاله نفوذ داخل مملكته بحيث إنه عندما توفى ولم يكن له ولدٌ يخلفه ، فإن حكومة (قشتاله) الإسبانية أوفدت وصياً على عرشه من قبلها اسمه (ليونورا-LEONO RA) ، فقبل هذا العمل باستياء شعبي عام في البرتغال واعتبروه تدخلاً سافراً من حكومة (قشتاله) الإسبانية في الشؤون الداخلية البرتغالية ، وانه فاتحة لوقوع البرتغال بيد إسبانيا .

لذلك فقد قامت الهيئات والمؤسسات الوطنية البرتغالية بإصدار قرار بتاريخ ١٦ / ١٢ / ١٣٨٣ بانتخاب (دون جوان) عميد أسرة (أفيز AVIZ) وهو أيضاً ابن غير شرعي للملك دون بيدرو الأول ، ليكون وصياً على العرش وحامياً للبرتغال ، فقام هذا بطرد بعض القوات القشتالية من مواضعها في البرتغال ، وبذلك حقق نصراً عسكرياً وصار بطلاً شعبياً ، مما دفع بشعب البرتغال إلى اختياره ملكاً عليهم ، وتم عقد اجتماع شعبي كبير في مدينة (قلمريه CPMBRA) وتم تنصيبه ملكاً على البرتغال وكان ذلك بتاريخ ٦ / ٤ / ١٣٨٥ ، فصار اسمه (الملك دون جوان الأول) ، ويلفظ بالبرتغالية (دوم جواو) ويكتب بالبرتغالية (DOM JOAO) .

اعتبرت مملكة قشتاله الإسبانية انتخاب (دون جوان) أو (دوم جواو) تحدياً لسلطتها ، فأرسلت قطعات عسكرية احتلت بعض مناطق البرتغال ، فقام الملك البرتغالي بطلب النجدة من الحكومة البريطانية ، وأرسلت له جيشاً محملاً على ثلاث سفن رست في جبل طارق أنزلت قواتها هناك في ١٤ / ٨ / ١٣٨٥ والتقت بقوات قشتاله وأنزلت بها هزيمة ، وإزاء تلك المعاونة البريطانية قام الملك البرتغالي بعقد معاهدة مع بريطانيا بتاريخ ٩ / ٥ / ١٣٨٦ اتفق فيها الطرفان على أن تبقى المملكتان متحدتان وصديقتان إلى الأبد ، وقد عزز الملك البرتغالي تلك المعاهدة بزواجه من الأميرة البريطانية (فيليبا أوف لانكستر PHILIPPA OF LANCASTER) ، ابنة دوق لانكستر أخو الملك هنري الرابع . وقد عاش (دون جوان) طويلاً ، واتسمت سياسته

بالاحتفاظ بصداقة بريطانيا ، وإقامة سلام مع حكومة قشتاله فيما بعد . وعلى عهد الملك البريطاني (هنري الرابع) ، تم منحه وسام ربطه الساق البريطاني (ORDER OF THE CARTER) ومنحه أيضاً لقب (فارس القديس جورج) ، فاتخذ من شعار القديس جورج وهو حيوان (الدراكون) شعاراً لدولته ، كما صار نداء (يا قديس جورج) بمثابة النشيد الوطني الذي يلهب الحماس ويدعو إلى الحرب والفتح . وعلى زمن الملك البريطاني هنري الخامس ، طلب نجدة عسكرية بريطانية لمساعدته في احتلال (سبته) المغربية فأوفدت له بريطانيا حملة بحرية عسكرية مكونة من جنود بريطانيين ومتطوعين ألمان وفرنسيين ، وقد تبرع أحد أثرياء الإنجليز بأربع سفن محملة بالمؤن والطعام للحملة ، فلما وصلت الحملة إلى لشبونة قام الملك البرتغالي بإرسال أولاده الثلاثة (دون بيدرو) و (دون دورات) و (دون هنري) على رؤوس قطعاته البرتغالية للمشاركة في الحرب ضد العرب . وهكذا تم حشد خمسين ألف مقاتل أوروبي هاجموا مدينة (سبته) واحتلوها كما بينا سابقاً . وكان من نتائج ذلك النصر البرتغالي ، أن قام الملك دون جوان بمنح ولده دون بيدرو لقب (دوق كمبيرا) ، ومنح ولده هنري لقب (دوق فيسو) وكذلك لقب (السيد المنفذ لأوامر المسيح MASTER OF THE ORDER OF CHIRIST) ، كما منحه مقاطعة (الغرب) فصار حاكماً لها ، وهكذا ارتبط النصر البرتغالي في سبته باسم الأمير هنري الذي صار فيما بعد الأمير هنري الملاح^(٣) .

(٣) DANVERS ..- المصدر نفسه ، والبحث مترجم من الصفحات ١٦ ، ١٧ ، ١٨ .

الفصل العاشر

- * نظرة على التجارة الهندية - الأوربية وطرق النقل البحرية آنذاك ..
- * أهمية تجارة التوابل .
- * الأمير هنري الملاح يؤسس معهداً علمياً للاكتشافات البحرية والأمير بدرو يقوم بسفرة إلى دول المشرق الإسلامية .
- * هنري الملاح يستمر في حركة الاستكشافات على الساحل الأفريقي الغربي .
- * هنري الملاح يشارك مع حملة عسكرية برتغالية لاحتلال ميناء القصر الصغير المغربي .
- * وفاة هنري الملاح بتاريخ ١٦٤٠/١١/١٣ .

شكّل النصر الذي حققه الأمير هنري بن الملك دون جوان في احتلاله مدينة سبته المغربية شهرة كبيرة له راح صداها يدوي في جميع أنحاء أوروبا بحيث وصلت دعوات من ملوك إنجلترا والمانيا وقشتاله الإسبانية ، يعرضون عليه منصب قيادة جيوشهم ، كما أن البابا بارك له لقب (السيد المنفذ لإرادة المسيح) ، مما دفعه إلى أن يتمسك بهذا اللقب لينفذ الإرادة التي اعتبرها أمراً ربانياً لنشر المسيحية وكذلك لاكتشاف مناطق العالم التي لم تُكتشف بعد ، وأهمها الطريق البحري المؤدي رأساً إلى الهند المركز الأول في العالم يومذاك لتجارة التوابل والعطور ، إذ كانت تلك المواد غالية الثمن وتقاس بالذهب ، وكانت عبارة (أعلى من الفلفل) عبارة شائعة للتعبير عن أية موجة غلاء فاحش لسعة من السلع ، حتى صار الناس ينظرون إلى الفلفل نظرتهم اليوم إلى

العملة الصعبة .

قبل أن نخوض في موضوع مغامرات هذا الأمير البحرية واكتشافاته في أفريقيا ، لا بد من إلقاء نظرة على موضوع التجارة الهندية - الأوربية وسوق البضائع الهندي الذي كان يلقي رواجاً لا مثيل له في أوربا في ذلك الزمن .

يرجع تاريخ الاتجار بالتوابل بين الشرق والغرب إلى عهود سحيقة في التاريخ ، فعندما اكتسح الاسكندر المقدوني الشرق الاوسط وتوغل في بلاد الهند لمس عن يقين الفوائد المحتمنة من تجارة التوابل فوضع مشروعاً لطريق تجاري بحري و بري يمر بالخليج العربي فوادي الرافدين فسوريا أو تركيا ليصل إلى موانئ أوربا . ولما مات الاسكندر وأصبح بطليموس ملكاً لمصر أحيا مشروعاً تجارياً آخر لجلب تجارة الهند إلى أوربا على أن يمر الطريق البحري من الهند فالحيط الهندي ثم البحر الأحمر . وتحقيقاً لتوصيل المراكب إلى البحر الابيض أمر بشق ترعة تصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط إلا أنه فشل في تحقيق ذلك الأمر فأهمله ، إلا أنه أفلح في جعل مدينة الاسكندرية مركزاً لتجارة التوابل وتوزيعها إلى أوربا ، حتى أطلق الناس على الاسكندرية لقب (باب التوابل) .

ويقال إن عدد السفن التي كانت تحمل تجارة الهند والشرق الاوسط إلى مصر فأوربا كانت حوالي (١٢٠) سفينة سنوياً ، رغم أن السفرة الواحدة إلى بلاد الهند جيئة وذهاباً كانت تستغرق سنتين ، لكن الحمولة الواحدة كانت كفيلة بجعل التاجر الذي يقوم بهذه الصفقة رجلاً ثرياً ، لذلك فقد أصبحت مصر المحتكر الأول للتجارة الهندية ، أما المحتكر الثاني فهي الدول التي تقع على الخليج العربي ووادي الرافدين ، ثم سواحل سوريا ولبنان ، واستمرت تلك الكيفية والوضعية منذ زمن الاسكندر إلى عهد الاستكشافات البرتغالية الذي هو موضوع هذا الفصل .

إذن كان هناك طريقان بحريان يربطان الهند بأوربا .

الأول : طريق المحيط الهندي ، فالبحر الأحمر ، حيث تتوقف السفن في خليج السويس (كما هو اسمه الآن) لتفرغ حمولتها ويعاد تحميلها على ظهور الركائب إلى ميناء الاسكندرية حيث تفرغ ليعاد تصديرها ببيعها للسفن الأوروبية الراسية هناك والتابعة لتجار أوروبا .

الثاني : طريق المحيط الهندي فالخليج العربي فنهر الفرات إلى داخل حدود سوريا حيث تُفرغ الحمولة هناك ليعاد تحميلها على ظهور الركائب إلى الموانئ الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ، حيث توجد سفن التجار الأوروبيين لشراؤها وبيعها في أسواق أوروبا .

وكان الاعتقاد السائد في بلاد الغرب أن (جنة عدن) هي مصدر التوابل والعطور والاحجار الكريمة وأن هذه السلع ترد إلى مختلف الديار على أربعة انهار عظيمة هي السند ودجلة والفرات والنيل . كما أن التجار العرب كانوا المحتكرين الرئيسيين لهذه التجارة المربحة ، حيث كان الرخاء النسبي سائداً في أقطار الشرق الأوسط ومجتمعاته إذا ما قيس بالوضع الاقتصادي المسيطر على الاقطار الغربية . لذلك فقد كانت مصر المملوكية آنذاك المركز الأول لهذه التجارة التي تصدرها إلى مملكة البندقية في إيطاليا أو إلى الاتحاد التجاري في هولندا الذي تم تشكيله لغرض تنظيم هذه العمليات التي تستنزف الذهب من أوروبا لتنقله إلى الشرق .

كل ذلك دفع بالأمير البرتغالي هنري إلى القيام بمحاولاته لاستكشاف طرق بحرية جديدة قد توصله إلى مصدر الثروة في العالم ، أي الهند ، فلم يكن أمامه إلا القيام بمغامرة الابحار والسير على طول الساحل الأفريقي الغربي ، عسى أن يوصله إلى مكان ما ، وعسى أن يكون هذا المكان هو الهند .

· ولد الأمير هنري (DOM HENRIQUE) عام ١٣٩٤ ، وهو ابن الملك البرتغالي (دون جوان الأول) وأمه الأميرة البريطانية (فيليبا) وكان ملك بريطانيا هنري الرابع خاله ،

وكما كان له أخوان هُما (دون دورات) (ودون بيدرو) ، ولغرض القيام برحلاته قرب الشاطئ الأفريقي الغربي راح يجمع المعلومات من البحارة العرب الذين كانوا يبحرون بين الساحلين ، لذلك فقد افتتح مقرآله في مدينة (ساكرا-SA GRA) في منطقة الغرب أي جنوب البرتغال أطلق عليه اسم المركز البحري الحربي (NAVAL ARSENAL) ، إلا أنه استبدله فيما بعد إلى اسم قصر ابن الملك (VILLA DE INFANT) حيث حوله إلى معهد لدراسة علوم الفلك والفضاء والرياضيات والعلوم البحرية ، لغرض القيام برحلات بحرية ناجحة في المستقبل .

ولم يكن دون بيدرو الأخ أقل منه رغبة في المغامرة وفي اكتشاف الهند ودول الشرق الأوسط ، إلا أنه كان يفضل السفر براً ، لذلك فقد قرر في عام ١٤١٦ ، أي بعد سنتين من احتلال (سبته) ، أن يقوم بهذه الرحلة إلى دول المشرق الاسلاميه ، وتمكن من زيارة استانبول ، ثم القدس وبعدها بغداد ، حيث قابلَ حاكم المدينة (GREAT TAN OF BABYLONIA) وبعد ذلك قفل عائداً إلى فلسطين ومنها أبحر إلى روما وقابل البابا (مارتين الخامس) . وفي بلاطه شرح للبابا ما شاهده ، فبارك له عمله ، وأوصاه القيام بسفرة إلى أوروبا لمقابلة ملوكها وشرح أبعاد رحلته لهم ، فقام بمقابلة ملوك هنغاريا والدانمارك والبندقية ثم انجلترا حيث استقبله الملك هنري الخامس بحفاوة وترحيب ومنحه لقب (فارس ربطة الساق) ، وبعدها عاد إلى البرتغال في عام ١٤٢٨ أي بعد غياب استمر إثني عشر عاماً .

أما على صعيد نشاطات الأمير هنري ، فإنه وإلى حوالي عام ١٤٢٠ لم يستطع أن يتقدم لأكثر من منطقة رأس نون CAPE NON . وفي عام ١٤٣٤ تم له اكتشاف رأس بوجادور CAPE BOJADOR ، وفي عام ١٤٤١ أرسل رسالة إلى البابا يخبره باكتشافاته وأنه يقوم بعملية التبشير هناك بين الشعوب غير المسيحية الأفريقية (INFIDEL NA-TEVCS) وأنه يطلب منه أن تكون كافة الأراضي المكتشفة مستعمرات للملك البرتغال ، مؤكداً له أن الرسالة الإلهية التي يحملها توجب عليه أن يُدخل هذه الشعوب بدين المسيحية ، وأن هذه الغاية أي التبشير هي المقصد الرئيسي لاكتشافاته .

بارك البابا تلك الخطوة والاكتشافات ، وارتفعت شهرة الأمير هنري في البرتغال وأوريا ، مما دفع بأخيه (دون بيدرو) الذي كان ولياً للعهد أن يصدر مرسوماً يمنع فيه أي برتغالي أن يبحر إلى المناطق المكتشفة حديثاً إلا بعد موافقة الأمير هنري .

وهكذا اندفع الأمير بحماس شديد ، نحو الإسراع في الفتوحات ، فراح يجلب الافارقة إلى لشبونة ليدخلهم في المسيحية من جهة ، وليحصل منهم على أكبر قدر من المعلومات عن الساحل الأفريقي ، كما أن توغله في أفريقيا أوصله إلى مناجم الذهب هناك فنقله إلى البرتغال .

وفي عام ١٤٤٣ تمكن من الوصول إلى (لاكوس) واجتمع بالتجار هناك ، وأمرهم بعدم التعامل مع أي تاجر عربي أو مسلم وساعدهم على القيام بمذبحة قتلوا فيها عدداً من التجار العرب وأسروا مائة وخمسين منهم ، ثم قام ببناء قلعة لتكون مقراً للأعمال التجارية بين أفريقيا والبرتغال ، بينما امتدت الاستكشافات إلى جنوب السنغال .

وفي ٢٣ أكتوبر ١٤٥٨ شارك الأمير هنري الملاح في حملة عسكرية مكونة من ٢٥ ألف رجل حملهم أسطول مكون من ٢٨٠ سفينة هاجموا ميناء ومدينة القصر الصغير المغربية واحتلوها ، إلا أنه لم يعيش طويلاً بعد ذلك إذ توفي في ١٣ / ١١ / ١٤٦٠ ، ودُفن في كنيسة القديسة ماري في لأكوس ، ثم نُقل الجثمان بعدها إلى سانتا ماريا حيث يرقد هناك^(١) .

(١) DINVER - المصدر نفسه - والفصل مترجم من الصفحات ١٩ إلى ٢٣ .

الفصل الحادي عشر

- * حملة برتغالية تخرج لاحتلال مدينة (طنجة) المغربية في ١٤٣٦/٩/١٣ إلا أن قوات الوزير أبو زكريا الوطاسي تصدها .
- * مشاكل داخلية في المغرب العربي .
- * سقوط (القسطنطينية) بيد السلطان العثماني محمد الفاتح .
- * مقتل ملك المغرب السلطان عبدالحق بن أبي سعيد المريني، وقيام سلطنة مولاي محمد علي الإدريسي .
- * محاولات برتغالية جديدة لاحتلال طنجة في أعوام ١٤٦٨ و ١٤٦٩ .
- * سقوط مدن (أصيلا) و (طنجة) المغربية بيد القوات البرتغالية في شهر أيلول من عام ١٤٧١م .
- * الوزير محمد الشيخ بن أبي زكريا الوطاسي يطيح بالحاكم الإدريسي ويدخل فاس عام ١٤٧٢، فيكون ذلك العام بداية لقيام الدولة الوطاسية في المغرب العربي .

شكّل سقوط مدينة (سبتة) المغربية ، بداية لضعف سياسي شمل المغرب العربي على حساب تعاظم القوتين الاستعماريتين يومذاك وهما إسبانيا والبرتغال .

ولما كان المغرب بموقعه الجغرافي أقرب نقطة إلى الدولتين ويمتلك سواحل طويلة على المحيط الأطلسي ، فقد اتجهت إليه أنظار إسبانيا والبرتغال ، وأخذتا يعملان على احتلال المدن الواقعة على سواحله الغربية ، والتي تشكل محطات توقف لسير سفن الاستكشاف والتبشير المتجهة نحو سواحل إفريقيا الغربية .

لذلك فقد كانت أهمية الشمال الأفريقي عامة والمغرب العربي خاصة بالغة باعتبارهما الباب الموصل إلى استكشافات جديدة خاصة في أفريقيا التي تسيطر على الطرق الموصلة من الهند إلى أوروبا ، وأن وجود أية قوة اسلامية قوية هناك يخلق تهديداً خطيراً لهاتين الدولتين ، لذلك فقد اندفعوا نحو تلك الفتوحات ، يساعدهم على ذلك الاوضاع السياسية المتردية للدوله العربية المشتتة في شمالي أفريقيا ، حيث انقسم الشمال الأفريقي إلى ثلاث ممالك هي : مملكة الحفصيين في تونس ومملكة بني زيان في الجزائر ومملكة بني مرين في المغرب .

كما أدى سقوط سبته بيد البرتغاليين عام ١٤١٥ إلى بداية تقلص نفوذ دولة بني مرين ثم انهيارها ، إذ إن ذلك الحدث أظهر عجز السلطان أبو سعيد المريني ، لذلك استاء الشعب من تلك الخسارة ، فقامت ثورة في البلاد عام ١٤٢٠ ، قُتل فيها السلطان أبو سعيد المريني وتولى الحكم ابنه القاصر عبدالحق بن أبي سعيد المريني ، ولما كان عبدالحق قاصراً وقليل الخبرة ، فقد أختار الشعب أبو زكريا الوطاسي والي مدينة (سلا) كي يكون وصياً على العرش وأن يشغل منصب الوزير الذي يعادل منصب رئيس الوزراء في يومنا هذا ، علماً بأن أسرة الوطاسي تتصل بنسب القرابة مع أسرة المرين الحاكمة في المغرب .

استهل أبو زكريا الوطاسي مهامه الوزارية فأعلن الجهاد ضد الغزاة البرتغاليين ، وسارع بتشكيل حملة عسكرية قادها بنفسه وهاجم المعسكر البرتغالي في سبته بغية استرداد المدينة ، إلا أن هجومه فشل بسبب شدة المقاومة البرتغالية ، وبسبب عدم تهيؤ الجيش المغربي واستعداده للقتال بشكل كامل . إلا أن عام ١٤٣٧ شهد حدثاً مهماً في العلاقات المغربية البرتغالية عندما وافق الملك دون جوان الأول ، وبدفع وإلحاح من ابنه الأمير هنري الملاح بضرورة إيجاد موطئ قدم آخر في السواحل المغربية الغربية يساعده على اتمام عمليات الاستكشاف من جهة ، ومن جهة أخرى يقف أمام محاولات اسبانيا الرامية إلى نفس أهداف البرتغال ، خاصة بعد أن قامت اسبانيا باحتلال (جزر

الكناري) وجزيرة ماديرا ، إذ إن هذه الجزر تقع مقابل الساحل المغربي ويمكن أن تشكل مواقع عسكرية يُمكن الحركة منها باتجاه المغرب وسواحل أفريقيا الغربية ، مما يشكل خطراً على طموح البرتغال في الحصول على مغانم ومكاسب من تلك المكتشفات ، وكان هدف الأمير هنري الملاح هو مدينة (طنجة) المغربية وهي أيضاً ميناء يجاور بموقعه ميناء سبته ويشكل قاعدة وحافة في الالتفاف نحو السواحل الغربية .

أمر الملك دون جوان الأول بتجهيز حملة مكونة من ثمانية آلاف جندي وصلت إلى طنجة في ١٣ / ٩ / ١٤٣٦ ، إلا أن الوزير أبو زكريا الوطاسي كان متهاً لصدها فتقدم على رأس جيشه ، وأوقف الزحف البرتغالي وأجبر قوات العدو على التقهقر ، فكانت كارثة على الجيش البرتغالي وقع خلالها الأمير دون فرناندو الابن الأصغر للملك دون جوان أسيراً بيد القوات المغربية ، فيما أطبقت القوات المغربية على القوات البرتغالية وحاصرتها ، وقد استمر الحصار مدة شهر واحد ثم وافق الوزير أبو زكريا الوطاسي على انسحاب القوات المغربية ، لقاء انسحاب القوات البرتغالية التام من مدينة سبته أيضاً ، على أن يبقى الأمير فرناندو أسيراً في المغرب ولا يفرج عنه إلا بعد الانسحاب التام من جميع الأراضي المغربية ، وعلى هذا الأساس جرى انسحاب القوات التي كانت محاصرة ، ولم يُنفذ الملك دون جوان وعده بالانسحاب من سبته ، لذلك فقد بقي ابنه دون فرناندو أسيراً في المغرب إلى أن مات هناك^(١) .

أدى انتصار الوزير أبي زكريا الوطاسي في معركة طنجة إلى ارتفاع اسمه ومنزلته الشعبي ، إلا أنه اغتيل بظروف غامضة في عام ١٤٤٨ ، وقد أدى اغتياله إلى هزة سياسية عنيفة تعرض لها العرش المغربي ، وظهر المغرب العربي وكأنه منقسم إلى قسمين وموزع بين قوة العرش التي يمثلها السلطان عبدالحق بن أبي سعيد المريني وقوة الوزارة التي تمثلها الأسرة الوطاسية ، لذلك فلم يكن أمام السلطان إلا أن يأمر بالتنكيل بوجهاء وأعلام الأسرة الوطاسية ، فأصدر أمراً بأعدامهم في عام ١٤٥٧ ، فأعدم من

(١) د . إبراهيم شحاته حسن - المصدر نفسه - ص ٣٧-٣٨ .

أُعدم ، وهربَ من هربٍ وتمكن محمد الشيخ وهو ابن الوزير أبي زكريا الوطاسي من الهروب والاختفاء في مدينة (أصيلا) واتخاذها قاعدةً لدعوته لإسقاط الدولة المرينية إلا أن القضاء على نفوذ الأسرة الوطاسية لم يمهّد مشاكل السلطان عبدالحق المريني إذ تراكمت عليه مشاكل أخرى بين داخلية وخارجية ، مثل مشكلة تدخل الدولة الحفصية التونسية في شؤون مملكته مما اضطره على الموافقة على أن يشاركوه في السلطة وراح الخطباء في الجوامع يخطبون باسم الدولة الحفصية التونسية .

وعلى الصعيد الداخلي ، قامت ثورة في البلاد عندما علم الشعب أن عبدالحق قد اتخذ وزيراً يهودياً ، وكذلك عندما ظهرت إشاعة أنه دس السم للشيخ محمد بن سليمان الجزولي شيخ الطريقة الجزولية الصوفية وقتله .

وفي تلك الأثناء وقع في المشرق العربي حدثٌ عظيم هز أوروبا المسيحية هزاً عندما تمكن السلطان العثماني محمد الفاتح من احتلال (القسطنطينية) وأطلق عليها اسم (استانبول) واتخذها عاصمة لموقعها الاستراتيجي بين أوروبا وآسيا ، فكان خوف البابا أن يمتد نفوذ هذه الدولة المسلمة فيهدد الدول المسيحية ، فراح يحث كلاً من إسبانيا والبرتغال على الاتفاق والتفاهم في سبيل انتشار أوسع في العالم ، لذلك فقد بارك قيام البرتغال بتجهيز حملته عام ١٤٥٨ ، التي قادها هنري الملاح واحتلال مدينة القصر الصغير المجاورة لمدينة سبته كما مر بنا تفصيل ذلك الحادث في الفصل العاشر من الكتاب .

لقد أدى سقوط مدينة القصر الصغير إلى تقوية القاعدة العسكرية البرتغالية في سبته ، فصارتا قاعدتين عسكريتين متقدمتين للهجوم على مدينة طنجة الاستراتيجية المهمة ، ولم يتمكن البرتغاليون من الهجوم إلا في عام ١٤٦٤ ، إلا أن الهجوم البرتغالي فشل في احتلال المدينة بسبب الدفاع القوي الذي دافعت المدينة به عن نفسها ، غير أن ذلك النصر لم يعوض للشعب خسارته لسبته والقصر الصغير ، والذي اعتبر أن الدولة المرينية مسؤولة عنه ، لذلك فقد قامت ثورة جديدة في البلاد يقودها

أشراف مدينة فاس ، ويتزعمها مولاي محمد بن علي الإدريسي ومعه الشريف أبي فارس الوريكلي ، والزعيم عمر السيف أحد دعاة الحركة الصوفية الجزولية ، ومعهم أبو الحجاج بن منصور بن زيان الوطاسي ، وقد تمكنت هذه الحركة من اغتيال السلطان عبدالحق بن أبي سعيد المريني عام ١٤٦٥ م وإعلان سلطنة مولاي محمد علي الإدريسي .

إلا أن أمور المغرب لم تستب بمقتل السلطان المريني ونهاية دولته ، ذلك أن مولاي محمد علي الإدريسي لم يستطع أن يحكم قبضته على أمور البلاد ، إذ سرعان ما نفس عليه ، محمد بن الشيخ أبي زكريا الوطاسي وهو الذي كان قد اتخذ من مدينة أصيلا مركزاً لمقاومة حكم الدولة المرينية ، فنشبت حروب بين الطرفين استغلها الملك البرتغالي أفونسو الخامس ، فجرد حملة أخرى في عام ١٤٦٨ لاحتلال طنجة ، وثالثه عام ١٤٦٩ ، حاولت أيضاً احتلال مدينة (أنفا) إلا أنها كلها منيت بالفشل الذريع ، وبذلك صارت طنجة على حد قول أحد المؤرخين البرتغاليين : مقبرة نبلاء البرتغال^(٢) .

إلا أن حدثاً خطيراً وقع عام ١٤٧١ م عندما أتم الملك أفونسو الخامس حشد قوة عسكرية ضخمة مكونة من ٤٧٤ سفينة محملة بثلاثين ألف جندي توجهت يوم ١٤٧١ / ٩ / ٢٤ نحو مدينة (أصيلا) مقر الثائر محمد الشيخ الوطاسي واحتلتها فجأة .

وبما أن أصيلا تقع جنوب طنجة على المحيط ، فإن مدينة طنجة وقعت في كمامشة بين القوات البرتغالية الموجودة في الشمال في مدن سبتة والقصر الصغير وبين الاحتلال الجديد في الجنوب لأصيلا . لذلك فقد هربت حامية المدينة ، وهرب معها السكان أيضاً وبذلك فقد دخلتها القوات البرتغالية بعد خمسة أيام من سقوط أصيلا .

(٢) د . ابراهيم شحاته حسن - المصدر نفسه - ص ٣٩

هنا اختلفت الأتباء عن سبب سقوط هذه المدن الاستراتيجية المهمة ، فمن قائل إن محمد الشيخ الوطاسي ، تنازل عن أصيلا للبرتغاليين لقاء مساعدتهم له في الانتصار على الشريف الإدريسي^(٣) ومن قائل إن محمد الشيخ رفع شعار الجهاد ضد البرتغاليين والدفاع عن الوطن ، وبهذا الشعار فإنه جمع الأنصار حوله ، خاصة الذين يتذكرون مآثر والده العسكرية وقتاله ضد البرتغاليين لكنه لم يستطع أن يحقق نصراً ، وهكذا وبعد سنتين من سقوط أصيلا وطنجة ، وبعد معارك دامية بين محمد الشيخ الوطاسي ومولاي محمد علي الإدريسي ، تمكن الوطاسي من الانتصار ودخل (فاس) فاتحاً عام ١٤٧٢ وبذلك قامت الدولة الوطاسية في المغرب وانتهى شبح الدولة المرينية من تاريخ المغرب العربي لبدأ تاريخ الدولة الوطاسية بقيادة محمد الشيخ بن أبي زكريا الوطاسي ثم أولاده من بعده إلى سقوط هذه الدولة على يد الدولة السعدية بعد حوالي نصف قرن ، وقد بدأ منذ أول تأسيس الدولة الوطاسية بؤادر التوسع البرتغالي إلى أقصاه في سواحل المغرب المطلة على المحيط الأطلسي^(٤) .

ومن البديهي أن احتلال البرتغال لهذه الأجزاء ، قد عزز من وضعيتها في شمال المغرب فقامت أمانتي الملك أفونسو الخامس لاحتلال مواضع أكثر على الساحل ، خاصة عندما مات هنري الملاح عام ١٤٦٠ ، واكتشف ابن أخيه (الملك أفونسو الخامس) في مكتبته خارطة ثمينة جداً ، كان عمه قد أتم رسمها مستنداً إلى خارطة تعود إلى مملكة (فينسيا) أي البندقية في إيطاليا ، ووضع لها عنواناً هو : (VENETIAN FRA MOURO OF CAMALADOLESE OF SAN MIGUAL DE MURANO) وتُظهر هذه الخريطة بكل وضوح أن الساحل الغربي لأفريقيا ينتهي في نقطة اسمها بالإيطالية رأس الشيطان (CAVO DI DIAVB) حيث يلتف الساحل بعدها نحو الأجزاء الشرقية من الساحل الأفريقي ، فتظهر دولة (سوفاله) أي الموزمبيق ، وتظهر الزنجبار أيضاً ، وكانت المعلومات الموجودة على هذه الخريطة قد تم الحصول عليها من العرب .

(٣) دكتور عبد الهادي التازي - الموجز في تاريخ العلاقات المغربية الدولية - ص ٨٢ .

(٤) الدكتور إبراهيم شحاته حسن - المصدر نفسه - ص ٥٠ وكذلك الدكتور كريم - المصدر نفسه - ص ٢٩ .

وقد أدى اكتشاف تلك الخارطة إلى فرح الملك البرتغالي ، خاصة إذا علمنا بأنها أظهرت نقطة (رأس الشيطان) التي هي رأس الرجاء الصالح ، قبل ستة وعشرين عاماً من تمكن البرتغاليين الإلتفاف حولها ، لذلك فقد اندفع الملك أفونسو بحماس أكبر للوصول إلى رأس الشيطان هذا الذي سيأخذه إلى سواحل شرقي افريقيا وربما بعدها إلى الهند .

وهكذا وفي عام ١٤٦٢ ، أمر الملك بتجهيز سفيتين حربيتين من نوع (كارافيل CARAVEL) بقيادة القبطان (بيدرو دي سنترا) وأمره أن يتجه جنوباً على طول الساحل الافريقي ، فلم يستطع هذا القبطان من الوصول إلى أبعد من سيراليون ، فأمره الملك حينذاك بتنظيم عملية الاستيلاء على تجارة العاج في ذلك البلد .

وفي عام ١٤٧١ تمكنت السفن البرتغالية من اجتياز خط الاستواء من الشمال إلى الجنوب ، وبذلك تمكن المكتشف البرتغالي (فيرنا كومز) من الوصول إلى منطقة أسماها رأس القديسه كاترين ، على بعد درجتين بحريتين من خط الاعتدال الجنوبي^(٥) .

(٥) DINVERS - المصدر نفسه - ص ٢٤ .

الفصل الثاني عشر

- * تنافس برتغالي - إسباني للحصول على مستعمرات في المغرب العربي وشوب الحرب بينهما.
- * إسبانيا تحتل موقعا لها في جنوب المغرب العربي.
- * وفاة ملك البرتغال أفونسو الخامس وولاية ابنته (دون جوان الثاني DOM JOAO II) المعروف باسم يوحنا الثاني عام ١٤٨١.
- * البرتغاليون يصلون إلى رأس الرجاء الصالح عام ١٤٨٢م.
- * بعثة برية برتغالية تصل إلى البلاد العربية والهند بقيادة (دي كوفيلها) و(دي بافيا).
- * سقوط مدن (أزمورا) و (أسفي) و (العرائش) بيد القوات البرتغالية، ومدن (مليلة) و (بلداس) بيد القوات الإسبانية.
- * كريستوفر كولومبس يصل أمريكا.
- * سقوط مملكة غرناطة العربية بيد الإسبان عام ١٤٩٢ ونهاية الحكم العربي هناك.
- * اتفاقية (تورد سيلاس TORDESILLAS) بين إسبانيا والبرتغال لاقتسام العالم ١٤٩٤/٧٧م.
- * الملك مانويل الأول يعتلي عرش البرتغال عام ١٤٩٥م.
- * فاسكو دي غاما يصل إلى الهند عام ١٤٩٨م.
- * قصة البحار العربي أحمد بن ماجد.

في السنوات الممتدة من نهاية القرن الخامس عشر إلى مطلع القرن السادس عشر كان البرتغاليون قد نجحوا في استكشافاتهم ومشاريعهم البحرية والتجارية ، ولم يعد توسعهم في المغرب يمكن أن ينفصل عن الأهداف السياسية والاقتصادية لهذا

المشروع ، أو الظاهرة الاستعمارية عموماً ، خاصة في العلاقات المغربية - الأيبيرية التي اتسمت بالعداء التاريخي ، وأثار حركة الاسترداد الإسباني في إسبانيا . كل هذه أججت نار الحماس البرتغالي إلى اكتشاف المزيد من غرب أفريقيا حيث موارد الذهب والرقيق والطريق المؤدي بالنهاية إلى أعظم ثروة في العالم وهي ثروة الهند .

إلا أن التوسع البرتغالي على الساحل الغربي للمغرب وأفريقيا كان مصحوباً بتنافس إسباني ، وبدا هذا التنافس واضحاً منذ الحركات العسكرية الأولى للبرتغال واحتلالها مواقع في المغرب خاصة بعد سقوط طنجة وأصيلا بيدهم ، وظهور إشاعة أن السلطان محمد الشيخ الوطاسي دشن أيامه الأولى باتفاق للسلام مع أفونسو الخامس ملك البرتغال^(١) .

فإسبانيا في تلك السنوات كانت قد أتمت وحدتها السياسية بعد مدة طويلة من المنازعات والمنافسات الداخلية ، إلى أن تحققت بصورة تامة عام ١٤٦٩م بزواج فرناند ملك أرغون من إيزابيلا ملكة قشتاله عام ١٤٦٩م ، وبذلك أصبحت إسبانيا خاضعة لسلطة سياسية واحدة . وبسبب دوافع مختلفة قامت تنازع البرتغال على المنطقة المغربية التي تقع جنوب مدينة (أسفي) على المحيط ، وبسببها ولأسباب سياسية أخرى اشتعلت الحرب بين الطرفين .

استغل الملك محمد الشيخ الوطاسي ذلك النزاع فعقد اتفاقاً مع الإسبان كي يساعده في الهجوم على سبته لاسترجاعها فوافق الإسبان على ذلك وتشكلت حملة مشتركة بين الطرفين هاجمت الحامية البرتغالية في عام ١٤٧٦م إلا أن الهجوم فشل ولم يتمكن أي من الطرفين اقتحام المدينة ، لكن إسبانيا لم تترك ذلك الفشل يمر دون استثمار لبعض الفوز ، فأصدرت تعليماتها إلى قواتها الموجودة في جزر الكناري أن تحتل موقعاً لها في الساحل المغربي الجنوبي في منطقة (وادي دون) ، وقاموا ببناء قلعة عسكرية هناك باسم (سانتا كروز)^(٢) .

(١) الدكتور التازي - المصدر نفسه - ص ٨٢ .

(٢) د . عبد الكريم كروم - المصدر نفسه - ص ٣٠ .

وقد توقفت حركات الاستكشاف البرتغالية عام ١٤٨٠ تقريباً بسبب المشاكل التي أثارها إسبانيا بوجهها من جهة ، ومن جهة ثانية أن الملك أفونسو الخامس البرتغالي أعلن عن مطالبته بعرش مملكة قشتاله عام ١٤٧٥ وبذلك عرض عرش إيزابيلا المتحد مع عرش مملكة الأراغون للخطر ، واحتدم النزاع بين إسبانيا والبرتغال واستمر إلى عام ١٤٧٩ عندما أعلن أفونسو الخامس تخليه عن إدعائه بالحقوق في قشتاله ، فتم عقد اجتماع لهذا الغرض في مدينة طليطله في ٦ / ٣ / ١٤٨٠ ، تنازل فيه الملك البرتغالي عن ادعاءاته السابقة ، وتنازل عن مطالبته بجزر الكناري أيضاً مقابل تنازل الإسبان له عن غينيا والأراضي التي ستكتشف فيما بعد وراء غينيا ووراء جزر الكناري أيضاً ، وإطلاق اليد للبرتغاليين في غزو مملكة فاس ، أي المغرب العربي .

وفي عام ١٤٨١ توفي الملك البرتغالي أفونسو الخامس ، وتولى العرش بعده الملك (دون جوان الثاني DOM JOAO II) المعروف في بعض المصادر العربية باسم الملك يوحنا الثاني^(٣) .

لم يكن هذا الملك أقل حماساً من والده في الاستمرار بالاندفاع جنوباً على الساحل الأفريقي الغربي ، فعندما اعتلى العرش كانت السفن البرتغالية قد وصلت إلى دولة (مالي) الحالية ، وكانت مالي آنذاك مملكة يحكمها ملك مسلم هو محمد الأول ، ويعرف باسم (مانسا مالي) ، وكان هذا الملك يعاني من صراعات داخلية كثيرة في مملكته ، فلما وصل البرتغاليون إلى هناك استضافهم وطلب مساعدة حكومة البرتغال في توطيد الأمن في مملكته ، وعندما عادت السفن إلى البرتغال قدم القادة البرتغاليون تقريراً إلى الملك عن تلك الدولة ، وعن علاقاتها بدولة المغرب العربي ، وكذلك عن نشاط التجار العرب هناك ، فوافق الملك على أن يساعد ملك مالي على تثبيت حكمه لقاء استغلال واحتكار تجارة بلاده ، فأمر ببناء قاعدة عسكرية برتغالية في العاصمة (سونجو) ومركزاً تجارياً لهذا الغرض^(٤) .

واستمر دون جوان بنشاطاته الاستكشافية الأخرى بأن أمر اثنين من أتباعه ، وهما

(٣) DANVERS المصدر نفسه - ص ٢٤

(٤) الدكتور إبراهيم علي الطرخان - دولة مالي الإسلامية - ص ١١٤ .

الأب (أنطونيوي دي لزبو) والسيد (بيدرو دي مونتاريو) بمهمة السفر إلى القدس ، لغرض جمع معلومات عن طرق الملاحة البحرية العربية ، وأسس التجارة العربية مع جمهورية البندقية التي كانت هي والعرب المخترعين الرئيسيين لتجارة التوابل الهنديه ، وقد تمكن هذان الموفدان من الوصول إلى القدس ، إلا أنهما عادا بدون أن يحققا مهمتهما بشكل جيد ، معتردين بأن جهلهما اللغة العربية منعهما من الحصول على معلومات مفيدة .

وفي عام ١٤٨٦م أوفد الملك بعثتين ، الأولى بعثة بحرية بقيادة (بارثولوميو دي دياز BARTHOLOMEO DE DIAZ) والثانية بعثة برية من رجلين هما (جون بيريس دي كوفيلها) و (أفونسو دي بافيا) وكلا الرجلين يجيدان اللغة العربية ، وكانت مهمة البعثتين محاولة اكتشاف أكبر ما يمكن اكتشافه من طرق برية أو بحرية موصلة إلى الهند ، وكذلك معرفة موقع مملكة (القديس يوحنا PREST JOHN) وهي الحبشة في يومنا هذا ، تلك المملكة التي دارت حولها الكثير من الأساطير والخرافات في أوروبا كونها مملكة مسيحية تقع في إفريقيا محاطة بدول إسلامية ، وقد كان الملك البرتغالي متلهفاً للوصول إلى تلك المملكة لغرض معرفة موقعها ، وفيما إذا كان لديها سواحل بحرية توصله إلى الهند ، وهل تمتلك زراعة التوابل .

وكانت أحسن مفاجأة للملك عندما تمكن البحار (بارثولوميو دي دياز) من الوصول إلى نهاية الساحل الغربي لأفريقيا وسط عواصف وبحر هائج الموج واستطاع أن يدور بسفنه حول الرأس الذي كان اسمه (رأس الشيطان) كما هو في خريطة الأمير هنري الملاح ، وأدرك أنه قد غير اتجاه المسير الآن ، وها هو ينظر إلى البحر الذي قد يوصله إلى الهند والشرق ، فأقفل راجعاً إلى لشبونة ، وقابل الملك دون جوان الثاني وأخبره باكتشافه العظيم وقال له : إن هذا الرأس الإفريقي هو رأس العواصف فأجابه الملك قائلاً : بل هو رأس الرجاء الصالح (CAPE OF GOOD HOPE) وكان ذلك في ديسمبر من عام ١٤٨٧ ، بعد رحلة استغرقت ستة عشر شهراً وسبعة

عشر يوماً^(٥)

أما (دي كوفيلها) و (دي بافيا) فقد غادرا لشبونه يوم ٧ / ٥ / ١٤٨٧ ، واتجها بحراً نحو مدينة (نابولي) الإيطالية ثم إلى جزيرة رودس ، ومنها إلى الاسكندرية ، ثم إلى القاهرة ، حيث تظاهرا هناك بأنهما تاجران يرغبان الذهاب إلى الشرق ، والتقىا بتجار عرب كانوا يريدون الذهاب إلى عدن فقررا السفر معهم وحصلوا منهم على تفاصيل عمليات التفرغ والشحن وأنواع السفن وأسماء التجار والشركات العربية والهندية التي تحتكر تجارة التوابل الهنديه بين الهند والبلاد العربية خاصة مصر ومملكة البنديقية الأوربيه وثبتا مكان ومصدر التوابل الهنديه في ميناء (كالي كوت) في الهند .

ثم ركبوا سفينة أخذتهما إلى ميناء (سواكن) في السودان ومن سواكن وصلا إلى ميناء عدن في اليمن . وفي عدن قررا أن يفترقا على أن يذهب (دي كوفيلها) إلى الهند و(دي بافيا) إلى مملكة القديس يوحنا أي الحبشه ، كما اتفقا على أن يلتقيا ثانية في القاهرة للعودة سوية إلى لشبونه . ومن عدن استقل (دي كوفيلها) سفينة يملكها أحد التجار العرب كانت متوجهة إلى مدينة (كونانور) الهنديه على ساحل (المالابار) ، وبعد رحلة بحرية وصل إلى الهند حيث توقفت السفينه في مدن (كونانور) و(كالي كات) و(گوا) وكلها تقع في ساحل (المالابار) ، وشاهد هناك المخازن مملوءة بأكداس من التوابل من مختلف الأنواع والأصناف ، وحصل على قائمة أسعار يبيعها من الموانئ الهنديه ، وقارنها بأسعار يبيعها في أسواق أوربا ، فكانت الفروق كبيرة بحيث دلت على أن الاسراع في الحصول على هذه المنتجات من مواردها الأصلية ، وبيعها في الاسواق الأوربيه ، سيدر أرباحاً هائلة على البرتغال .

وعندما أكمل دراساته ومعلوماته عن الموضوع ، ركب سفينة لتعود به إلى عدن ، ولما توقفت السفينة في جزيرة هرمز ، نزل هناك وحصل على معلومات عن أهمية الجزيرة وموقعها المسيطر على مدخل الخليج وعن تجار التوابل والطرق البحرية المؤدية

(٥) DANVERS المصدر نفسه - ص ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١

إلى البلاد الواقعة على الخليج العربي ، وعن طريقة وصول البضائع الهنديه إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط عن طريق الخليج العربي ، ثم غادر هرمز متجهاً إلى عدن .

وفي عدن حصل على معلومات جديدة عن الساحل الشرقي لأفريقيا وموقع (سوفاله) و (جزر القمر) ، أي الموزمبيق ومدغشقر . ومن عدن أبحر ثانية متجهاً نحو باب المندب فالبحر الأحمر ، وتوقف في ميناء (زيلع) الصومالي ، ومنه تمكن من الوصول إلى القاهرة ، حيث توقف هناك في انتظار زميله (دي بيغا) .

وبعد أيام من وصوله إلى القاهرة ، وصل إليه رجلان برتغاليان عرفا انفسهما له بأنهما (رابي ابراهام) من مدينة (باجه) وآخر اسمه (جوزيف) من بلدة (ليماكو) ، واخبراه أن (دي بيغا) قد مات ، وأنه عندما علم الملك بذلك كلفهما بمهمة الاتصال به ، فسافرا إلى الشرق ووصلا بغداد ومنها إلى فارس ، ثم إلى جزيرة هرمز ، وإنهما يحملان رسالة من الملك إليه ، وكانت الرسالة أن يُعطي كافة المعلومات التي لديه عن الرحلة إلى الرجلين ، وأن يتوجه بنفسه إلى الحبشة لاتمام المهمة .

وهكذا أعطى كل المعلومات التي يعرفها إلى جوزيف ، وقرر أن يأخذ معه ابراهام إلى الحبشة . فسافر جوزيف بالمعلومات إلى الملك . أما دي كوفلهام و ابراهام فقد قررا الذهاب إلى هرمز أولاً للحصول على معلومات أكثر عن الجزيرة ذات الموقع الاستراتيجي الهام في السيطرة مستقبلاً على تجارة الهند ، وقد تمكنا من الوصول إلى هرمز وأنجزا المهمة هناك ثم عادا إلى عدن ، ومن عدن أبحرا إلى الحبشة ، وفي الحبشة قابلا ملكها وشرحا له أهداف الرحلة ، فرحب بهما ، كما أعطاهما هدية ثمينة هي تاج ذهبي مطعم بالفضة وقال « إن هذه الهدية من الولد لوالده ، وإنني الولد والوالد هو ملك البرتغال ، وإنني أطلب منه معونة وجيشاً لكي أقاتل به المسلمين ، واسترجع منهم بيت المقدس » .

وبعد ذلك فإن دي كوفيلها سَلَّم التاج والرسالة إلى ابراهيم وأخبره أن يوصلها إلى ملك البرتغال ، أما هو فقد فضل العيش في الحبشة ، فاستقر فيها وتزوج من حبشية ومات بعد ثلاثة وثلاثين عاماً^(٦) .

أما بالنسبة للعلاقات المغربية - البرتغالية ، فإن بعض المصادر التي لدينا تفيد أن مدن (أزمور) و (أسفي) كانتا قد سقطتا بيد القوات البرتغالية منذ أن تولى الملك دون جوفان الثاني الحكم عام ١٤٨١ ، وأنه قد أحكم قبضته هناك ، واتخذ من مدينة (أسفي) محطة تجارية بين غانا والبرتغال . كما تشير بذلك رسالة بعثها هذا الملك إلى أهالي المدينة مؤرخة في سنة ١٤٨٨ ، استهلها بقوله : (من دون جوفان بنعمة الله سلطان البرتغال والغربيين المحيطين بالبحرية وصاحب كنافة الذهبين . . الخ) . يؤكد فيها رضاه عنهم ويطلب منهم رفع الأعلام البرتغالية وتأدية يمين الطاعة ، على أن يرسلوا له كل شهر ٣٠٠ مثقال ذهباً ، أو قيمتها مع إقامة دار للتجارة في المدينة التي سيستقر فيها التجار البرتغاليون .

أما أهالي مدينة (أزمور) فقد بعثوا للملك البرتغالي رسالة يعربون فيها عن طاعتهم وخضوعهم لحمايته ويؤكدون له الجزية السنوية وهي (عشرة آلاف شابل) كما يخبرونه بأنهم لن يأخذوا من المراكب البرتغالية ضرائب وكذا التجار البرتغاليون الذين سيتاجرون معهم ، وكعربون على طاعتهم فقد رفعوا الأعلام البرتغالية على بيوتهم ، ويرجون من الملك البرتغالي أن يخبر ملوك النصارى أن لا تتعرض سفنهم لمراكبهم في البحر^(٧) .

إلا أن ذلك لا يعني أن المقاومة العربية قد انتهت في المغرب ، إذ تذكر لنا بعض المصادر خبر معركة عظيمة وقعت بين الطرفين في منطقة (وادي اللوكوس) قرب مدينة (العرائش) ، غير أن تفاصيل الأحداث وكيف دارت المعركة ، لم تذكرها المصادر البرتغالية ولا المغربية بشكل دقيق ، إذ يُفهم أن محاولة إنزال بحرية برتغالية

(٦) DANVERS المصدر نفسه - ص ٣١ ، ٣٢ .

(٧) النص التفصيلي للرسالة في كتاب الدكتور ابراهيم شحاته حسن - ص ٤٠ ، والدكتور عبد الكريم كريم - المصدر نفسه - ص ١٥ .

جرت على جزيرة اسمها (مليحه) تقع مقابل مصب نهر يجري في الوادي ، ثم تقدمت السفن البرتغالية داخل النهر الذي يجري في الوادي ، فلما علم السلطان محمد الشيخ الوطاسي بذلك أسرع بقواته إلى هناك ووصل إلى مصب النهر وقام بسده بالحجارة ، وبذلك حاصر القوات البرتغالية في الوادي ، وانتهى الأمر بعقد هدنة انسحبت على أثرها القوات الغازية بعد تخريب قلعة لهم كانت هناك باسم (قلعة كراسيوسا) .

إلا أن مصدر آخر لدينا يقول إن مدينة (العرائش) المغربية التي تقع على مصب وادي الكوس قد سقطت هذا العام بيد البرتغاليين^(٨) .

وفي أواسط أفريقيا تمكن رحالة ومستكشف برتغالي اسمه (دي فيرو) من الوصول إلى (نيجيريا) واستطاع الدخول إلى العاصمة (بنين) وهناك قابل الملك وشرح له مهمته بصفته ممثلاً لملك البرتغال وتمكن من عقد اتفاقية تجارية لتبادل البضائع بين البلدين ، واستخدام ميناء المدينة لرسو السفن وكذلك وافق ملك نيجيريا على السماح للبرتغاليين أن يرسلوا مبشرين دينيين للتبشير بالمسيحية هناك^(٩) .

وقبل أن يموت الملك البرتغالي يوحنا الثاني ، فإن التنافس بين إسبانيا والبرتغال كان على أوجه ، وظل التنافس قائماً إلى أن وصلت إسبانيا جزر البحر الكاريبي على يد البحار الجنوبي (كريستوفر كولومبس) في أكتوبر ١٤٩٢ ، وهو العام نفسه الذي سقطت فيه (غرناطة) المملكة العربية الأخيرة في الأندلس في إسبانيا ، فكان ذلك نهاية لكل أثر عربي في إسبانيا وشبه جزيرة آيبيريا .

وفي ٧/ يونيو/ ١٤٩٤ عقدت الدولتان إسبانيا والبرتغال اتفاقيتهما الشهيرة (توردسيلاس TORDESILLAS) لتقسيم أقاليم ما وراء البحار غير المكتشفة بينهما ، على أن يكون ذلك التقسيم بجعل المستعمرات الشرقية المكتشفة من نصيب البرتغال ، والمستعمرات الغربية من نصيب إسبانيا على مدى خطوط الطول من مسافة ٣٦٠

(٨) الدكتور إبراهيم شحاته - المصدر نفسه ص ٨٢ وكذلك د . عبد الكريم كريم - المصدر نفسه - ص ٣١ .

(٩) آدم عبدالله الأتوري - موجز تاريخ نيجيريا - ص ٤٥ .

مرحلة غربي جزر الرأس الأخضر ، أما بالنسبة للتقسيمات الاستعمارية للبلدين في شمال افريقيا ، فطبقاً لإثفاقية سابقة كان قد تم عقدها فإن التوسع الإسباني سيبقى في دول الجزائر وتونس وليبيا ، أما التوسع الاستعماري البرتغالي فسيكون غرباً ، أي من خط طول ٢ شرقاً إلى الغرب .

وقد لاحظنا كيف كانت التحركات العسكرية لكلا البلدين ، فيإلى التاريخ أعلاه كانت موانئ (مليله) و (بادس) المغربيتان اللتان تقعان على ساحل البحر الأبيض المتوسط بيد الإسبان وكذلك منطقة سانتا كروز في الجنوب الغربي على المحيط الأطلسي بيدهم أيضاً ، أما بقية الموانئ المغربية المطلة على المحيط فقد كانت بيد البرتغال . وقد بارك وصادق على هذا الاتفاق البابا إسكندر السادس .

وفي ٢٥ / أكتوبر / ١٤٩٥ مات الملك البرتغالي يوحنا الثاني (DOM JOAO II) وخلفه في الحكم ابنه (الملك مانويل KING MANOEL) (١٤٩٥-١٥٢١) ، الذي كان يحترق شوقاً للوصول بحراً إلى الهند ، فقام بدراسة كافة التقارير التي أعدتها البعثات الاستكشافية عن الطريق البحري الذي يلف حول رأس الرجاء الصالح ، كما درس تقارير الموفدين الذين سبق أن وصلوا عن طريق البر إلى البلاد العربية والهند ، فزاد ذلك من قناعته بأن الطريق إلى الهند يمكن الوصول اليه بحراً إذا ما تم الالتفاف حول سواحل أفريقيا والوصول إلى مداخل البحر الأحمر ، وقد أكد له مستشاره اليهودي ابراهام زاكوت الأهمية الاقتصادية للوصول إلى الهند ، وهي احتكار تجارة التوابل والبضائع الهندية ، وأن احتكار البرتغال لهذه التجارة سيضعف مركز مصر ، ويجعلها عاجزة عن أية قدرة عسكرية ، كما أن الوصول إلى مملكة القديس جون أي الحبشة سيساعد على إحكام السيطرة على الساحل الافريقي الشرقي ونشر المسيحية هناك .

اختار الملك مانويل قائداً للرحلة البحرية وهو (فاسكودي غاما VASCO DA GAMA ابن (استافودي غاما) الذي كان يشغل منصب مدير حسابات القصور الملكية ، وكانت سفينة القيادة (سانت جبرائيل) بقيادة (فاسكودي غاما) نفسه ،

والسفينة الثانية (سانت ميشيل) بقيادة (باولو دي غاما) أخو فاسكو ، والسفينة الثالثة (بيريو) بقيادة (نيكولا كويلهو) ، وتراوحت حمولات السفن ما بين ١٢٠ طناً إلى خمسين طناً ، لذلك فقد تم تخصيص ١٦٠ رجلاً لهذه الرحلة . وكانت سفينة القيادة مجهزةً بعشرين مدفعاً ، إلا أن الملك أمر بمضاعفة عدد المدافع وطلقاتها ، كما أمر أن يُرفَعَ على ساريتها علم البرتغال الذي يحمل شعار الملك ، وقد رُسم على أشرعة المقدمة والمؤخرة شعار الصليب ، وتم شحن السفن بالذهب والهدايا وعدد من الافارقة ليكونوا مترجمين في الرحلة ، كما التحقت سفينة رابعة بالحملة اسمها (أوساريو) ، وأقلعت الحملة في يوم ١٤٩٧/٦/٢ وتمكنت من الالتفاف حول رأس الرجاء الصالح بعد ثلاثة أشهر تقريباً^(١٠) .

وقد واجهت الرحلة مصاعب كثيرة ، فأوشك بعض البحارة على إعلان العصيان والعودة إلى لشبونه ، وفي الطريق أصيبت السفينة التي يقودها (نيكولا كويلهو) بعطب شديد ، مما جعلها تتأخر عن إتمام الرحلة ، ولكن بقية السفن بقيادة دي غاما تمكنت من إكمال رحلتها بعد أن انتقل إليها قبطان وبحارة السفينة العاجزة ، وفي أوائل عام ١٤٩٨ وصلت السفن إلى مدينة (ملندي MELIND) وهي مدينة تقع على ساحل البحر في دولة (كينيا) في يومنا هذا وهناك علم (دي غاما) أنه يواجه البحر الذي سيأخذه إلى الهند . ولكن كيف يصلُ إلى هناك ، وما هو الطريق البحري الذي يجب عليه أن يسلكه ؟ . . . هذا ما كان يجهله .

قبل أن ندخل في تفاصيل ما فعله دي غاما أثناء وجوده في (ملندي) وقصة إبحاره منها ووصوله إلى الهند وقصة الدليل الذي أوصله إلى هناك ، لا بد أن نتطرق بالحديث عن ما فعله عندما وصل إلى الموزمبيق ومباسه والوحشية والعنف اللذان اتسمت بهما تصرفاته وطباعه ، وهي السمة التي لازمت البرتغاليين في كل تصرفاتهم مع الشعوب والأمم التي استعمروها خلال فترة حياتهم كأمة مُستعمرة ، إذ يذكر لنا أحد المؤرخين الانجليز وهو (فنست جونز) في كتابه (الإبحار في البحر الهندي) قائلاً: ^(١١)

(١٠) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٤٥ .

(١١) SAIL THE INDIAN SEA - VINCENT JONES P. 64.

إنه عندما تمكن دي غاما وسفنه من الالتفاف حول رأس الرجاء الصالح ، ووصل إلى الموزمبيق ، فإن أهالي البلاد تجمعوا على الساحل وأظهروا لهم لقاءً حاراً ظناً منهم أنهم أتراك (يقصد ممالك دولة مصر) ، إلا أنهم أصيبوا بخيبة أمل عندما شاهدوا الصليبان مرسومة على أشرعة السفن وعلى الاعلام التي ترفرف على صواريخها .

وفي اليوم التالي قام حاكم البلاد بزيارة إلى السفينة (سانت جبرائيل) ، فاستقبله دي غاما بحفاوة ودعاه إلى تناول طعام الغداء وتكلم معه بواسطة مترجمه (فرنان مارتين) الذي تعلم العربية في المغرب فعلم منه أن تجارة الذهب قليلة هناك ، وأن معظم المتاجرين بها هم العرب والمسلمون ، كما علم أن مملكة القديس جون (الحبشة) ليست بعيدة عن الموزمبيق ويمكن الوصول إليها براً أيضاً .

وفي اليوم التالي وصل إلى السفينة هنديان ، قالاً إنهما مسيحيان ، حيث راحا يؤديان الصلاة المسيحية أمام الصليب ، وأخبرا دي غاما أنهما مستعدان للإدلاء بأية معلومات يحتاج إليها ، واتفق دي غاما معهما على أن يلاقيه في اليوم التالي ، إلا أنهما لم يحضرا إليه فعلم أن المسلمين اعتقلوهما ، لذلك فقد أمر بجلب بحارين مسلمين من الساحل ، فلما جيء بهما ، أخبرهما أنه يرغب أن يشتغلا معه ويدلاهما الطريق إلى الحبشة لقاء (ثلاثين كراون ذهب) لكل واحد أي حوالي (١٣٠ غرام) ، وأمر أن يبقى أحد البحارين في السفينة كرهينة ، وأن يُسمح للآخر بالنزول إلى المدينة لإخبار أهله ، إلا أن هذا البحار وحالما نزل إلى المدينة ذهب إلى الحاكم وشرح له ما حدث ، ثم هرب مختفياً ، ولما لم يعد في مساء اليوم التالي أمر دي غاما ستة قوارب مسلحة أن تذهب إلى المدينة للتفتيش عنه ، وعندما وصلت القوارب إلى الساحل شاهد البرتغاليون صفاً من الأهالي المسلحين يقفون على الساحل وقد بدا عليهم الاستعداد للقتال فعادت القوارب مسترعة إلى السفن ، وأخبر بحارتها دي غاما بما حدث على الساحل ، فأمر دي غاما أخاه (بولو) أن يضع سفينته في وضع يمكنها من إطلاق النار على الساحل ، على أن تسندها السفينة (بيريو) ، ثم أطلقت السفن نيرانها

على حشود الأفارقة المتجمعين على الساحل ، ففرقت جمعهم .

وفي صباح اليوم التالي رفعوا الأشرعة وانتقلوا إلى مكان يبعد ثمانى كيلومترات تقريباً عن الأول ، وكان ذلك في يوم الأربعاء ١٤ / مارس / ١٤٩٨ .

ونظراً لعدم ملائمة الريح للإبحار شمالاً ، فإن دي غاما قرر البقاء هناك لعدة أيام ، حيث وصله موقد من الحاكم يعرض عليه اقتراحاً بالمصالحة ، كما أنه حصل على دليل مسلم موزمبيقي وافق أن يذهب معه كدليل في الرحلة .

إلا أن ما حدث في صباح اليوم التالي هو أن عدداً من الأهالي تجمعوا على الساحل للتطلع على السفن ، فاعتبر دي غاما هذا الفعل عدائياً ، وأمر سفنه بفتح النار عليهم ، وفي اليوم التالي ، جهز بعض رجاله للنزول إلى الساحل ، إلا أن الأهالي رشقوهم بالحجارة ، فأمر بقصف المدينة لمدة ثلاث ساعات ثم أرسل على الدليل المسلم الذي كان قد وضعه في السجن وأمر بربطه على عمود في السفينة تحت الشمس المحرقة ، إلى أن تشقق جلده وتفطر وخرج الدم منه ، فأمر بفك وثاقه وجلبه وأجبره أن يعترف على مكان القصر الملكي وخُطط الأهالي للهجوم . ثم أمر بشحن سفنه بالطعام والماء ، وفي يوم ٢٩ / ٣ / ١٤٩٨ أقبل شمالاً إلى أن وصل إلى مدينة (كيلوا KILWA) الواقعة في دولة تانزانيا في يومنا هذا ، فحسبها جزءاً من مملكة الحبشة ، ثم وصل إلى مدينة (مباسه) التي تقع خلف جزيرة زنجبار بتاريخ ٦ / ٤ / ١٤٩٨ .

وفي مباسه لاحظ البرتغاليون أن المدينة قد استعدت للقائهم بشكل سلمي ، حيث رفع الأهالي الأعلام على المباني والسفن وراحوا يقرعون الطبول ، وبعد ساعتين من الوصول جاء إليهم مركب من نوع (داو) محمل بهدايا من ملك مباسه ، نقلها إلى دي غاما أربعة من الهنود المسيحيين ، ووجهوا إليه الدعوة لزيارة الملك ، وبالمقابل أمر دي غاما أربعة من رجاله بالذهاب إلى الملك وإخباره أن دي غاما يريد السلام والصداقة ، واستمرت تلك العلاقة الجيدة لمدة يومين . وفجأة هبت عاصفة دفعت بسفينة القيادة البرتغالية إلى أن تصطدم بأرض رملية ، وفيما كان دي غاما وبحارته منشغلين

بتخليص السفينة من القاع التي غرزت فيها فإن الدليل المسلم الموزمبيقي وزميل له كان قد حضر بنفسه إلى السفينة لزيارة صديقه فسجنه دي غاما حاولا الهرب من السفينة البرتغالية إلى سفينة عربية ملاصقة لها ، إلا أنهما لم يتمكنوا من ذلك ، فألقي القبض عليهما وأمر دي غاما بربطهما بالحبال ثم أمر بتعذيبهما بسكب زيت الزيتون الملتهب على جسميهما العاريين ، حيث يُباشَرُ بالسكب على الظهر ثم الصدر ثم البطن ثم الأعضاء التناسلية ، ثم قاموا بكسر كتف الأول ، فلما علموا بأنه يوشك أن يموت ألقوه في البحر ، أما الثاني فقد مات في صباح اليوم التالي وألقوا بجثته في البحر أيضاً .^(١٢)

فلما علم (ملك ممباسة) بذلك الأمر ، وكان قد وصل إلى علمه أيضاً ما فعله البرتغاليون في الموزمبيق ، قرر أن يقاتلهم ويطردهم من البلاد ، وفي مساء ذلك اليوم جهز جماعة من مقاتليه وأمرهم بالذهاب سباحة إلى السفن البرتغالية وقطع الأسلاك والحبال التي تربط السكّان أي عجلة القيادة بالدفة ثم قطع حبال المرساة ، وبذلك فإن السفن البرتغالية ستندفع بفعل التيارات المائية ولا يمكن السيطرة عليها ، وبعد منتصف الليل إندفعت جموع المقاتلين من أهالي ممباسة وهم يسبحون في الماء إلى السفن البرتغالية ، وانقسموا إلى مجموعتين ذهبت الأولى إلى السفينة (بيريو) ، والثانية إلى السفينة (سانت روفائيل) ، إلا أن حرس السفينة (بيريو) شعروا بالمهاجمين فانطلقت صيحات الإنذار من أفواه البرتغاليين : « اقتلوا هؤلاء الكلاب فإن إلها سيمنعهم من تحقيق النصر لأنهم كفّار . » وفتحوا عليهم النار وأبادوهم جميعاً . وهكذا فشلت خطة ملك ممباسة .

وفي ١٣ / ٤ ، قرر دي غاما أن يغادر ممباسة متجهاً نحو الشمال ، إلا أنه اكتشف أنه بحاجة إلى دليل يده على الطريق البحري ، وبينما هو كذلك إذ به يشاهد من بعيد (سمبوقاً) أي سفينة صغيرة تحمل بعض الأهالي ، فأمر مسلحيه باللاحاق بهم

(١٢) VINCENT JONES - المصدر نفسه - ص ٦٥ .

واعتقالهم ، ولما تم لمسلحيه ذلك جيء بهم إليه فوجدهم سبعة عشر راكباً من بينهم أحد وجهاء مدينة ممباسه ومعه زوجته ، فأخبره دي غاما أن يدلّه على الطريق إلى الهند ، إلا أن الممباسي أخبره بأنه سيأخذه إلى مدينة (ملندي) ، حيث توجد في مرسى ميناء المدينة سفناً كثيرة تعود إلى هنود مسيحيين من منطقة (كامباي) الهنديه ، وأنه سيتمكن ولا شك من الحصول على دليل من هناك .

ولما وصل دي غاما إلى (ملندي) التي تقع في كينيا في يومنا هذا ، طلب من الوجيه الممباسي أن يذهب إلى حاكم المدينة ويبلغه تحياته ورغبته في السلام ، وأن ما يحتاجه هو دليل بحري يدلّه على الطريق إلى الهند .

فلما عاد الممباسي بعد المقابلة كان معه اثنان من رجال الحاكم ومعهم هدايا ، واخبراه بأن الحاكم يرغب بالتعاون وأنه مستعد لمنحه الدليل الذي سيوصله إلى الهند ، فأجابهم دي غاما بأنه مسرور لهذا الجواب ، وأنه سيدخل بسفنه إلى ميناء المدينة غداً .

وفي اليوم التالي خرج حاكم ملندي لاستقبال سفن دي غاما وعُزِّفَت الموسيقى وقرُعت الطبول ابتهاجاً ، وصعد حاكم ملندي إلى سفينة دي غاما حال وصولها ورحب به ودعاه إلى النزول ضيفاً عنده في بيته ، وفي صباح اليوم الثاني أعاد دي غاما الزيارة للحاكم ولكنه أبقى في السفينه موفد الحاكم وهو ولي العهد كرهينه لحين عودته من الزيارة .

وانتهت الزيارة الودية وعاد دي غاما إلى السفينة فشهد جمعاً من الهنود يقفون على الساحل في انتظاره فعلم منهم بأنهم هنود مسيحيون يرغبون بأداء الصلاة في سفينته ، فسمح لهم بالصعود ، وهناك راوحوا يؤدون الصلاة أمام صور السيد المسيح (ع) والسيدة العذراء والصليب . ثم تعالت هتافاتهم : « المسيح .. المسيح » ، وعرضوا عليه أن يساعده في مهمته ، وحذروه من التعامل مع المسلمين فدعاهم دي غاما إلى وليمة عشاء في مساء اليوم نفسه وأطلقت مدافع السفن نيرانها ابتهاجاً بالحفل .

وبعد يومين من الوصول ، وعندما كان دي غاما متلهفاً للحصول على الدليل البحر الذي سيدله على طريق الهند ولما لم يبدُ تجاوب من حاكم بلدة ملندي ، فإنه أرسل أحد رجاله لمقابلة ولي العهد الذي كان عنده في السفينة سابقاً ، فاستجاب ولي العهد وأرسل له رجلاً كهلاً ومعه بعض المرافقين على ظهر سفينة (داو) ، وصعد الرجل ومرافقوه إلى السفينة (سانت جبرائيل) . فاستقبله دي غاما ومعه زمرة المستكشفين المغامرين من البرتغاليين وهم يقفون أمام الرجل الذي يمثل عشرات السنين من التجربة والخبرة في علوم البحر ، تلك التجربة والخبرة التي تمثل أيضاً تجارة العالم الكبرى ، والتي آن الآوان للبرتغاليين أن يستثمروها وأن يدمروا كل الدول المستثمرة وكل التجار الذين طالما استفادوا من تلك التجارة ومن الطرق البحرية المؤدية من الشرق إلى الغرب^(١٣) .

فمن كان هذا الدليل البحري ، الذي أوصل دي غاما إلى الهند ، وبذلك قلب كل الموازين السياسية التي كانت سائدة في العالم آنذاك ، وجعل من البرتغال أكبر دولة استعمارية عرفها العالم لمدة قرن من الزمان تقريباً ؟

إن كل المصادر البرتغالية تقول إن الدليل البحري لفاسكو دي غاما ، رجل هندي من منطقة (كُجرات) أو (جُوزورات) الهنديه (GUJERATI) القريبة من بومباي اسمه (ماليمو كانا) ويكتب بالبرتغالية (MALEMO CANA) وقد تلفظ كانا الأخيرة -CANA (QUA)^(١٤) أما بالنسبة لجنسيته فقالوا عنه إنه (مورو) وتكتب بالبرتغالية (MOURO) ويعنون بها المسلم وكذلك العربي المغربي أو العربي بصورة عامه وهم في الغالب يخلطون بين تلك المعاني ، فحددوا جنسيته بأنه (MOURO GUAZARAT) أي مورو من منطقة كجرات الهنديه ، كما أن أقدم كتاب انجليزي مترجم عن البرتغاليه في عام ١٦٩٥م وعنوانه : HISTORY OF THE DISCOVERY OF INDIA ومؤلفه رجل اسمه (MANUEL DE FARIAY SOUFA)

(١٣) VINCENT JONES - المصدر نفسه ص ٦٨

(١٤) COSTA BROCHODE-OPILOTO ARABE DE VASCO DA GAMA. LISBOA 1959 .

ومترجمه إلى الانجليزية (CAPT. JOHN PAULS) يقول عن الدليل ، إنه (مورو) من كنجرات الهندية واسمه (ماليمو كانا) ، وعن هؤلاء نقل وكتب كل من أرخ لوصول فاسكو دي غاما إلى الهند ، وذكر شيئاً عن هوية الدليل الذي دله على الطريق .

أما العرب فقد ذكروا أن الذي أوصل دي غاما إلى الهند هو البحار العربي أحمد بن ماجد . وقد ورد هذا الخبر في مصدر عربي واحد ، هو كتاب (البرق اليماني في الفتح العثماني) لمؤلفه المؤرخ ، قطب الدين النهروالي إذ قال ، في الفصل الثاني من الكتاب تحت عنوان (في ذكر انتقال الدولة باليمن من بني طاهر إلى الأمير حسين من الجراكسه) ما يلي :

« وقع في أول القرن العاشر ، من الفوادم والنوادر دخول الفرقتين اللعين ، من طائفة الفرنج الملاعين إلى ديار الهند ، وكانت طائفة منهم يركبون من زقاق سبته في البحر ويلجئون في الظلمات ويمرون بموضع قريب من جبال القمر ، بضم القاف وسكون الميم جمع أقمر ، أي أبيض وهي مادة أصل بحر النيل ، ويصلون إلى المشرف ويمرون بموضع قريب من الساحل ، في مضيق أحد جانبيه جبل والجانِب الثاني بحر الظلمات في مكان كثير الموج لا تستقر به سفائنهم وتنكسر ولا ينجو منهم أحد ، واستمروا على ذلك مدة وهم يهلكون في ذلك المكان ، ولا يخلص من طائفتهم أحد إلى بحر الهند ، إلى أن خلص منهم غراب^(١٥) إلى الهند ، فلا زالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر ، إلى أن دلهم شخص ماهر يقال له أحمد بن ماجد ، صاحبه كبير الإفرنج وكان يقال له (إلى ملندي) وعاشره في السكر ، فعلمه الطريق في حال سكره وقال لهم : لا تقربوا الساحل من ذلك المكان ، وتوغلوا في البحر ثم عودوا ، فلا تنالكم الأمواج ، فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم ، فكثروا في بحر الهند ، وبنوا في (كوه) في بلاد (الدكن) قلعة يسمونها (كوتا) ثم أخذوا (هرموز) وتقووا هناك ، وصارت الإمدادات تترادف عليهم من البرتغال ، فصاروا

(١٥) الغراب : تسمية لنوع من السفن .

يقطعون الطريق على المسلمين أسراً ونهباً ، ويأخذون كل سفينة غصباً ، إلى أن كثر ضررهم على المسلمين ، وعم أذاهم على المسافرين» (١٦) .

كان ذلك هو المصدر العربي الوحيد عن أحمد بن ماجد وفاسكودي غاما وقصة الوصول البرتغالي إلى الهند .

فكيف انتقلت قصة ابن ماجد إلى المؤرخين الأوروبيين ؟ . .

هذا الكتاب أي (البرق اليماني) عثر عليه أحد علماء اللغة العربية من فرنسا وهو (البروفسور ديفيد لوباس PROFESSOR DAVID LOPES) فقام في عام ١٨٩٢ بترجمة النص الذي ورد فيه اسم ابن ماجد في الكتاب المذكور ، إلا أن هذا الاكتشاف لم يثر اهتمام أحد من الأوروبيين آنذاك .

وفي عام ١٩١٣ قام عالم فرنسي آخر هو (جبرائيل فيراند G. FERRAND'S) بدراسة خارطة بحرية قديمة تعود إلى أمير البحر التركي (علي شلبي) ، ويسمى أيضاً سيدي علي ريس وكذلك علي بن حسين وهو الذي قاتل البرتغاليين في الخليج العربي عام ١٥٥٨ م ، وقد ألف كتاباً اسمه المحيط ترجم فيه أراجيز أحمد بن ماجد ، وقد استسلم علي شلبي للبرتغاليين عام ١٥٨٨ عندما كان يقاتلهم في (مباسه) ، فكانت هذه الخارطة من جملة الأشياء التي استولى عليها البرتغاليون ، وهي تعتبر إحدى العجائب لدقتها في وصف تعاريج الساحل الأفريقي الغربي ، فظهر لفيراند أن الخارطة مرفقة بمخطوطات تعود إلى عدد من البحارة العرب ، منهم أحمد بن ماجد .

فتح ذلك الاكتشاف أمام (فيراند) مجال البحث والتنقيب عن هوية ابن ماجد فحقق ما كتبه وذكره البروفسور لوباس نقلاً عن البرق اليماني . وفي الوقت نفسه اكتشف البروفسور الروسي جوموفسكي (T. A. CHUMO VSKY) مخطوطات عربية في

(١٦) قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكي - البرق اليماني في الفتح العثماني - ص ١٨ .

قسم معهد الدراسات الشرقية التابع للمجمع العلمي السوفيتي في (ليننغراد) تعود إلى أحمد بن ماجد فقام بترجمتها إلى الروسية ، ثم أعاد ترجمتها إلى العربية الأستاذ محمد منير مرسى ، وبعد ذلك فقد صدرت عدة كتب بمختلف اللغات عن أحمد بن ماجد وعن قصة (ماليمو كانا) ، وأخضعت رواية النهروالي للبحث والتدقيق والتحقيق في موضوع هل أن (ماليمو كانا) هو (أحمد بن ماجد) أم أنهما شخصان مختلفان ، كما قام العلماء بترجمة كتب ومؤلفات أحمد بن ماجد ونفوا عنه تهمة (السُّكْر) التي ذكرها عنه النهروالي وعدّوه من كبار علماء الفلك والطبيعة والجغرافية^(١٧) .



إن الدراسات التي قمنا بها للبحث عن هوية أحمد بن ماجد تقول إنه من مدينة اسمها (جُلْفار) كانت تقع قرب مدينة (رأس الخيمة) في إمارة رأس الخيمة في دولة الإمارات العربية المتحدة في يومنا هذا ، ولم يعد لها أثرٌ ظاهرٌ الآن ، إلا أنها مذكورة في الكثير من المصادر العربية خاصة كتب التاريخ العُماني ، حيث كانت مركزاً وميناءً لنزول جيوش الدولتين الأموية والعباسية للقضاء على الثورات العُمانية المختلفة للاستقلال بعمّان عن حكم دمشق أو بغداد ، إلا أن هذه المدينة انتهت فجأة من الوجود ، ولم يعد لها ذكرٌ بل حُلّت محلها بلدة اسمها (الصير) ثم صار اسمها (صير القواسم) ، وأخيراً (رأس الخيمة) التي كانت عاصمة إمارة القواسم في الخليج العربي منذ بداية القرن السابع عشر الميلادي ، وما تبقى الآن من ذكر لابن ماجد هناك ، هو تلٌ يقع في منطقة (الندود) أي التلال الموجودة بالقرب من بلدة رأس الخيمة وتحت أحد هذه التلال يعتقدُ الناس أنه يوجد ركام منزل أحمد بن ماجد .

ترك أحمد بن ماجد عدة مخطوطات هي عبارة عن قصائد على شكل (أراجيز) لا تخضع لقافية واحدة ، وهذه الأراجيز مبعثرة الآن بين متاحف روسيا وفرنسا ولندن

(١٧) محمد منير مرسى - ثلاث أزهار في معرفة البحار - ص ٧٧ .

والقاهرة ودمشق ، وهي :

١ : كتاب حاوية الاختصار في أصول علم البحار ويحتوي على :

(أ)

أرجوزة تحفة القضاة

(ب)

أرجوزة بر العرب في خليج فارس

(ج)

أرجوزة فلكية عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب

(د)

أرجوزة وصف الطريق البحري والبري إلى مكة المكرمة

(هـ)

القصيدة الذهبية وهي قصيدة بائية تعالج موضوع الرياح

(و)

أرجوزة الفايقه في قياس الضفدع

(ز)

أرجوزة القسمة على انجم بنات نعش

٢ : كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد وينقسم إلى اثني عشر فصلاً ، كل

فصل منها يسمى فائدة .

٣ : الأرجوزة (السُّفالية) ، وهي أرجوزة تقع في (٧٠٠) بيت شعر ، ومعنى (السُّفالية)

أي بلاد (سُوفاله) أي المؤزميق ، وأهمية هذه الأرجوزة ، أن ابن ماجد يؤرخ فيها لوصول البرتغاليين إلى الهند ، كما أنه يعترف ضمناً بأنه دكَّهم على الطريق .

٤ : الأرجوزة المعلقة

٥ : الأرجوزة الثائية

٦ : الأرجوزة المعربة

٧ : أرجوزة كنز المعالمه

٨ : أرجوزة (نتخات) بر الهند

٩ : أرجوزة ميمية الإبدال

ومن الأرجوزة (السفالية) نقتطف الأبيات التالية التي قد تلقي ضوءاً على الموضوع :

من عدمٍ جَلَّ تعالى وعلا
وكم نرى في البحر من أطفاه

الحمد لله الذي أنشأ الملا
قد كلت اللسن عن أوصافه
إلى أن يقول :

فديرة البر بلا مُحالهِ^(١)
وحولها شعبٌ طويلٌ بُررا
في عيد ميكال بالتوهم^(٢)
في سُفالة بقى معكوس^(٣)
والسفن فوق الماء يا خائي^(٤)
وكن عارفاً موسم تلك الأرض
لعم تسعماية وست وزايدة^(٥)
والسامري برطله وظلما^(٦)
والناس في خوفٍ واهتمام
من جانب السودان شط اللجي
وأندلس في حكمه مناسبة
جزر كثيرةٌ وهم لهم موالى
فيها ومالوا الهند باليقين
وصاحبو وللسوامر ركنوا^(٧)
في هذه الطريق الأفرنج
ذا حاكمٍ أو سارقٍ أو مجنوننا

وإن ترد من كلوة سُفالة
أهلها إسلامٌ تحت الكُفرا
نزلوا بها الإفرنج علق الموسم
قام عليهم موج تلك الرؤوس
وانقلبت أدقّالهم في الماء
غرقى يرون بعضهم لبعض
وجا لكالكوت خذ ذي الفايده
وباع فيها واشترى وحكما
وسار فيها مُبغضُ الاسلام
وخبرني ما حمله الفرنجي
وهو الذي قهر المغاربة
وآخر الأفرنج للشمال
تجيز عامين كاملين
واشتروا البيوت ثم سكنوا
ورجعوا من هندهم للزنج
والناس تضرب فيهم الظنونا

فيقصّدون البر ذاك الحين
ويدخلون هناك في الجبال
لكل من يأتي من أرض الهند
وكل جزر جاء إليها ورمى
وصفتهم حقاً وهذا جهدي
إلى أن يقول :

عرّفتها حتى بقى ربّانها
فشرحته يا صاحبي والعدّه
فقال الإفريج بالتحقيق
وسوف تزداد بهذي الطرق
وخصني والي البلاد بالسفر
فقد ركنوا لي والنبي الهادي
فادعوا لي في الموت والحياة
وصلّى الإله في ضياء وسحر
ما دارت النعوش في الأقطاب

يسألني عنها وعن شعبانها
عن الذي رواه لي وعدّه
إنّا كشفناها على الطريق
من الإفريج معرفة وحذق
من دون غيري بالهدى والظفر
وتركوا من عاين البلاد
من الإله غافر الزلات
على النبي المصطفى خير البشر
واهتدت السفن بالسحاب

شرح الكلمات والمعاني :

- ١ : كلوه وسُقاله : كلوه مدينة تقع في تنزانيا الآن وسُقاله للموزمبيق .
- ٢ : عيد ميكال : من أعياد النصراري وهو عيد القديس ميخائيل .
- ٣ : سُقاله : الموزمبيق كما قلنا .
- ٤ : الأدقال : جمع دقل أي سارية السفينة التي يستند إليها الشراع .
- ٥ : كاليكوت : مدينة في الهند وتكتب قاليقوط أيضاً وهي أول ميناء وصل إليه دي غاما ، كما سترى في التفاصيل فيما بعد .
- ٦ : السامري : لقب مالك كاليكوت ويكتب بالانجليزية (ZAMORIN) .
- ٧ : السوامر : جمع سامري ، كما هو مشروح في أعلاه .

وينفرد المؤرخ (دينفرز) في مصدره بذكر خبر تاجر مسلم أرسله ملك ملندي مع دي غاما إلى الهند وقد كتب اسمه (DAVANE) ويلقب (TAIBO)، ولعل أصل هذا الاسم هو (الطيب) وقال عنه، إنه تاجر كبير يعرف كيف يتعامل مع الهنود. أما بالنسبة للفظ (ماليمو كانا)، وهي اسم الدليل البحري، فقد قيل في تعريفها إنها مقسومة إلى قسمين (ماليمو) أي المعلم أو العالم، و (كانا) لفظة هندية تعني الفلك، فالمعنى العام يكون، (عالم الفلك)، على كل حال، فإن قصة الدليل البحري الذي أوصل دي غاما إلى الهند لازالت غامضة إلى الآن ولم يُبَيَّن فيها بشكل نهائي^(١٨).

* * *

عندما تمت استعدادات الرحيل، أمر دي غاما سفنه بالإقلاع متجهاً صوب الهند، وفي يوم ١٤٩٨/٨/٦ وصلت السفن البرتغالية إلى مكان قريب من بلدة (كاليكوت) الهندية، وهي بلدة تقع في مقاطعة (كيرالا) على ساحل (المالابار) في جنوب الهند.

كانت بلدة (كاليكوت) الهندية، من أهم الموانئ التجارية التي يتم منها شحن وتصدير التوابل والبضائع الهندية، وشاهد دي غاما أن ميناء المدينة يعج بسفن عربية كثيرة، أغلبها مصرية.

وعندما استشار دي غاما التاجر دافاني (DAVANE) أعلمه برغبته النزول إلى المدينة لمقابلة حاكمها، نصحه دافاني بالتريث وعدم النزول إلا بعد الحصول على عدد من الرهائن الهنود ووضعهم في السفينة خوفاً من حدوث مالا يُحمد عقباه، ثم تطوع (دافاني) بأن يذهب بنفسه لمقابلة حاكم المدينة.

كان حاكم المدينة يُعرف باسم (السامري) وهو هندي مسلم، وكذلك كان أغلب

(١٨) لمزيد من التفاصيل راجع كتاب إبراهيم خوري - أحمد بن ماجد منظر الملاحة الفلكية في المحيط الهندي - منشورات مركز الدراسات والوثائق في الديوان الأميري برأس الخيمة.

سكان كاليكوت ، وفي لقاء دافاني بالسامري ، أخبره السامري بأنه يرغب بمعرفة هوية هؤلاء الناس الغرباء وسبب وجودهم في الميناء ، فقام دافاني بشرح الموضوع للسامري ، إلا أن السامري لم يعطه جواباً شافياً فعاد دافاني إلى السفينة وأخبر دي غاما بعدم رغبة السامري بالتعاون معه .

وبعد ثلاثة أيام وصل مبعوث من السامري إلى دي غاما يطلب منه مغادرة الميناء ، إلا أن دي غاما أصر على مقابلة السامري ، فشكل وفد آخر من (دافاني) و(خوانونيس) وهو برتغالي يجيد العربية و (نيكولا كويلهو) ومعهم اثنا عشر رجلاً مسلحاً .

وهنا ثار أهالي مدينة كاليكوت عندما شاهدوا الوفد متجهاً نحو قصر الملك ، وذهبوا إلى قاضي المدينة وأخبروه بوجوب الضغط على الحاكم أن لا يقبل التعامل مع هؤلاء الناس ، فقام السامري بحجز الوفد ، ثم أمر بإغلاق الميناء بوجه السفن البرتغالية وعدم التعامل معهم .

فلما علم دي غاما بأمر اعتقال أعضاء البعثة ثارت ثائرتة ، فنزل ومعه عدد من المسلحين البرتغاليين إلى رصيف الميناء ، وهناك كانت ثلة من جنود السامري بانتظارهم فاعتقلوهم ووضعوهم في السجن ، إلا أن تهديداً وصل من السفن البرتغالية يأمر السامري بإطلاق سراح دي غاما ، وإلا فإن السفن البرتغالية ستقوم بتدمير المدينة بمدافعها ، لذلك فقد أمر السامري بإطلاق سراح المحتجزين وأمر بجلب دي غاما أمامه واعتذر له عما صدر منه ، بينما وجه دي غاما تهديداً للسامري بأن عمله هذا سوف لن يمر بدون انتقام وعقاب .

ولما عاد إلى سفينته اجتمع بضباطه وأخبرهم بما حدث ، إلا أنه لم يقدم على عمل انتقامي بل بالعكس فقد راح يجمع المعلومات التجارية والاقتصادية عن المدينة وأحوالها وهو الأساس الذي قامت من أجله الرحلة ، ثم أبحر من هناك متجهاً نحو

مدينة كنانور .

وفي حوالي شهر نوفمبر ، وصلت سفنه إلى مدينة (كنانور CANANOR) الهندية ، وهناك وافق حاكم المدينة على مقابلته ، وعقد معاهدة تجارية معه .

ومن (كنانور) اتجهت السفن البرتغالية جنوباً حتى وصلت مدينة (كوا COA) وهناك التقى بحاكمها المسمى (سابايو SABAYO) . وفي خلال كل تلك الرحلات كان دي غاما يجمع المعلومات الدقيقة عن أسعار البضائع الهندية ، خاصة التوابل ومصادرها ومخازنها وكيفية شحنها وأسماء التجار الذين يتعاملون بها ، والسفن التي تنقلها وأجور الشحن والنقل وكل ما يخص تجارة الهند التي كان العرب يسيطرون عليها سيطرة تامة خاصة تجار مصر ، بحيث اقتنع بأنه لن تتمكن البرتغال من احتكار هذه التجارة إلا بعد القضاء على نفوذ الدول العربية التي تتعامل بها .

وعندما انتهت هذه المهمة ، قرر العودة إلى لشبونة ، وفي يوم ٨ / ١ / ١٤٩٩ وصل ثانية إلى مدينة (ملندي) على الساحل الأفريقي وغادرها يوم ٢٠ / ١ / ١٤٩٩ ووصل إلى لشبونة عاصمة البرتغال يوم ١٨ / ٩ / ١٤٩٩ . وهناك استقبله الملك مانويل وجماهير الشعب استقبال الأبطال الفاتحين ، وفي الاجتماعات العديدة التي عقدها الملك مع دي غاما ، أطلع الملك على كافة التقارير الاقتصادية والعسكرية وفرح بها وراح يضع الخطط اللازمة للإطاحة بالنفوذ العربي ، فيما أطلق على نفسه لقب : (سيد الملاحة والتجارة مع الحبشة وبلاد العرب وفارس والهند والصين)^(١٩) .

LORD OF CONQUEST NAVIGATION AND COMMERCE OF ETHIOPIA, ARABIA,
PERSIA, AND CHINA .

(١٩) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٦٤-٦٥ ، وكذلك السير آرثولد ولسون - الخليج العربي - ص ٢٠٧ .

الفصل الثالث عشر

* حملة بيدرو الفاريز غابريال (PEDRO ALVAREZ GABRAL) في ١٥٠٠/٣/١م تكتشف البرازيل بالصدفة .

* حملة (جوان دي نونا JOAO DE NOVA) في ١٥٠١/٤/١م

* حملة (فاسكو دي غاما) الثانية في ١٥٠٢/٣/٢٥م

* الحملة الرابعة بتاريخ ١٥٠٣/٤/١٤ مكوّنة من :

١ : مجموعة أفونسو البوكيرك

٢ : مجموعة فرانسيسكو البوكيرك

٣ : مجموعة أنطونيو دي سالدانا

* الحملة الخامسة بقيادة (لوبيس سوريش دي البركاريا LOPO SOARES DE ALBERGARIA) بتاريخ ١٥٠٤/٤/٢٢م .

لم يترك الملك مانويل الفرصة تفلت من يده دون استثمار الفوز استثماراً سريعاً للحصول على أكبر احتكار تجاري في أوروبا لتجارة الهند ، وذلك بعد أن تم له اكتشاف الطريق البحري المؤدي رأساً من أوروبا إلى الهند دون المرور بالممرين المائيين العربيين وهما البحر الأحمر والخليج العربي .

فأمر بإقامة صلوات الشكر في كل كنائس الدولة على هذا النصر ، ثم أمر بتجهيز حملة جديدة للذهاب إلى (كالي كوت) لتأسيس مركز تجاري برتغالي هناك .

ولعلمه بأن الدول العربية والإسلامية التي كانت تستثمر تلك التجارة والتي على

رأسها مصر ، لن تسكت على ذلك ، فقد راح يضع الخطط العسكرية لاستعمال القوة ضد العرب والمسلمين لتحقيق التفوق العسكري البحري في بحار العالم المختلفة ، وأهمها المحيط الهندي وبحر العرب والبحر الأحمر والخليج العربي .

وهكذا فقد أصدر أوامره للقائد (بيدرو الفاريز غابريال PEDRO ALVAREZ GABRAL) لتجهيز حملة بحرية عسكرية مكونة من ثلاث عشرة سفينة حربية مسلحة بمدفعية قوية ، وعلى متنها ألف ومئتا بحار وجندي مقاتل ، وكان معه من القباطنة (بارثولوميو دياز) مكتشف رأس الرجاء الصالح ، وعدد آخر من الضباط والتجار والقسس والرهبان ، على أن يكون واجب الحملة الذهاب إلى الهند وفتح مركز تجاري في ساحل (المالابار) هناك ، والعودة بأكبر ما يمكن حملة من توابل وتجارة الهند .

غادرت الحملة ميناء (بيليم) البرتغالي يوم ٩/ مارس / ١٥٠٠ ، وفي يوم ٢٢/ مارس صادفت عواصف هائجة أجبرت إحدى سفنها على العودة إلى لشبونة ، أما بقية الأسطول فقد استمر بالابحار على طول الشاطئ الأفريقي ، إلا أن الرياح الهائجة أبعدته رويداً رويداً عن الساحل ، ثم لم يلبث أن ضاع وسط أمواج البحر العاتية وتغير اتجاه السير كلياً عنده بحيث انتهى الأمر بالسفن إلى أن تصل البرازيل في أمريكا الجنوبية ، وكان ذلك في ٢٤ / ٤ / ١٥٠٠ ، وقد أطلق غابريال اسم (فيراكروز VERA CRUZ) على المنطقة المكتشفة ثم صار الاسم (SONTA CROZ) ثم تحول إلى البرازيل .

وعندما قرر غابريال العودة إلى أفريقيا ، أبحر عائداً يوم ٥ / ٢ / ١٥٠٠ وأمر إحدى سفنه بالتوجه إلى لشبونة لإخبار الملك عن هذا الاكتشاف الجديد ، فباركه الملك وفرح به وأرسل على الفور حملة جديدة لاحتلال البرازيل فيما استمر غابريال بالاتجاه نحو أفريقيا وسط عواصف هائلة بحيث لم يتمكن من الالتفاف حول رأس الرجاء الصالح إلا بست سفن وصل بها إلى بلدة سوفاله في الموزمبيق يوم ١٦ / ٧ ، ثم وصل بلدة ملندي في كينيا يوم ٨ / ٢ ، وأخيراً وصل إلى مدينة كالي كوت الهندية يوم

١٥٠٠ / ٨ / ٣٠ أي بعد ستة أشهر تقريباً من مغادرته ساحل البرتغال^(١) .

كان ساحل الهند الشرقي مقسماً سياسياً إلى ثلاث مقاطعات كبيرة هي ، مقاطعة (كُجُرَات) وتقع في الشمال ويحكمها ملك مسلم هو مظفر شاه بن محمود بن أحمد شاه ، ثم مقاطعة (مدراس) وتقع فيها مدينة (كُوا) ويحكمها الملك عادل شاه ، والاسم هذا هو لقب كل ملوك (كُوا) حيث يعرفون باسم عادل شاه ، أي الملك العادل ، أما المنطقة الثالثة فهي ساحل (المالابار) في مقاطعة (كيرالا) في الجنوب ، وهناك كانت تتحكم ثلاث زعامات هي :

١ : حاكم مدينة (كالي كوت) المعروف باسم السامري وهو مسلم .

٢ : حاكم مدينة (كوشن COCHIN) .

٣ : حاكم مدينة (كنانور CANANOR) .

وصل غابريال إلى (كالي كوت) وطلب مقابلة الملك السامري وتمكن من عقد معاهدة سلام معه وموافقته على قيام البرتغاليين بفتح مركز تجاري (FACTORY) هناك ، إلا أن الهنود المسلمين وقفوا ضد إنشاء هذا المركز بل راحوا يمنعون السفن التجارية من التحميل من الميناء ، فلما اشتكى غابريال إلى السامري ، ولم يسمع منه رداً مشجعاً قام بفتح نيران مدافعه على جملة السفن العربية الموجودة في الميناء وأحرق اثنتين منها بما فيهما من بحارة عرب^(٢) .

وفي يوم ١٧ / ١٢ / ١٥٠٠ قام مسلمو المدينة بشن هجوم على المركز البرتغالي المؤقت الذي تم تأسيسه وقتلوا فيه مديره (آيرسل كوريا) ومعه كل البرتغاليين والهنود المتعاملين معهم ثم قاموا بحرق المكان ، وإزاء ذلك أصدر غابريال أوامره إلى سفنه بفتح النار على المدينة فقصفها لمدة يومين متتالين ، ثم غادر الميناء .

(١) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٦٦ .

(2) A. D. FORTADA - GOA - P 55

وفي الطريق التقى بسفيتين عربيتين قام بحرقهما في وسط البحر ، ثم وصل إلى مدينة (كوشن) الهنديه وهناك التقى بمسيحي عربي من سوريا عرض عليه خدماته كترجمان مع ملك المدينة ، فوافق غبريال على ذلك ونجحت المحادثات مع ملك كوشن في الحصول على امتياز احتكار تجارة التوابل ، وقد شارك تجار المدينة اليهودي انجاح المحادثات وساعدوهم على بناء قلعة وكنيسه ومركز تجاري ، وعين غبريال مديراً للمركز وهو (كونزالس باريوسا) وحصل أيضاً على معلومات مفيدة عن التجارة المصرية مع حكومة البنديقية الأوربية . وفي المساء قام مسلمو المدينة بحرق المركز التجاري سراً لكن رجاله تمكنوا من إخماد النار ، ثم لم تلبث أن وصلت إلى غبريال دعوات من حكام مدن (كنانور) و (كولان) وغيرها من المقاطعات التي كانت تكن العداء للملك (كالي كوت) تدعوه لزيارتهم وعقد صفقات تجارية معهم ، ثم غادر ساحل الهند عائداً إلى لشبونه فوصلها يوم ٢١ / ٧ / ١٥٠١ ، وهناك قابله الملك مانويل فرحاً مسروراً بتأجيل رحلته ، خاصة عندما أفرغت سفنه حمولاتها من كل ما تشتهيه أوربا من توابل وعطور وبضائع هندية اشتراها غبريال بأسعار غاية في الرخص ، بحيث إن يبيعها في أوربا سيدر على البرتغال الأرباح الخيالة التي طالما حلمت بها^(٣) .

كان ملك البرتغال ، وعندما لم يسمع من غبريال لمدة طويلة قد قرر إرسال حملة ثانية إلى الهند عهد بقيادتها إلى القبطان (جوان دي نوبا JOAO DE NOVA) ومعه أربع سفن حربية للتوجه إلى الهند ، كما أصدر مرسوماً إلى كافة التجار البرتغاليين يذكر لهم فيه أن من يرغب بالمغامرة والسفر إلى الهند لجلب البضائع من هناك باسمه ، فإن عليه أن يعطي للحكومة البرتغالية ربع البضاعة المستوردة والموجودة على ظهر سفينته .

وفي يوم ١٠ / ٤ / ١٥٠١ غادرت حملة دي نوبا لشبونه ووصلت إلى الهند في شهر

(٣) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٧٠ .

تموز من نفس العام حيث التقت هناك بممثل المركز التجاري في كنانور الذي أخبرهم بعدم الذهاب إلى (كالي كوت) لأنها غير آمنة بل التوجه إلى مدينة (كوشن) .

وفي الطريق إلى كوشن علمَ دي نوبا أن اسطولاً يعود إلى ملك (كالي كوت) يحرس المدينة ، فهاجمه وأغرق خمس سفن تابعة له ، ثم وصل إلى كوشن حيث جرى إستقبال له وتم شحن سفنه بكميات كبيرة من التوابل والبضائع الهنديه عاد بها إلى لشبونة .

ومن الجدير بالذكر أن جمهورية البندقية وهي الدولة الأوربية المحتكرة الأساسية لتجارة التوابل هناك قد بلغت المعلومات عن نجاح الجهود البرتغالية في الوصول إلى الهند ، وأن السفن البرتغالية عادت إلى لشبونة محملةً بالتوابل الهنديه ، لكن رد الفعل لم يكن إيجابياً ، حيث اعتقد أهل البندقية أن هذه الرحلات قد تخفق في المستقبل أو لربما لم يكونوا يدركون خطرها على تجارتهم بعد .

أما مصر التي كانت تعتمد كثيراً على هذه التجارة ، فهي تقوم بنقل البضائع من موانئ السويس في البحر الأحمر ، إلى ميناء الإسكندرية في المتوسط ، فتبيعها هناك إلى تجار البندقية بأرباح تدعم اقتصادها القومي كثيراً ، فقد كانت هي الأخرى غير آخذة الموضوع جدياً .

كما أن اليمن التي كانت تسيطر على مدخل البحر الأحمر بحيث يشكل ميناء عدن مركزاً لتجمع السفن التجارية القادمة والمغادرة من وإلى الهند ، ويستفيد التجار العرب والهنود المقيمون في اليمن كثيراً من هذه التجارة أيضاً ، فلم تكن عارفةً بما يحبتهُ القدر لها ، فقد كانت هي ومصر غارقتين في مشاكل سياسية وانقسامات داخلية كثيرة ، وهو الموضوع الذي سنعرض له بالتفصيل في فصلٍ قادم .

وفي لشبونة ، أثارت الأخبار التي نقلها إلى الملك قائد الحملة البرتغالية الثانية (جوان دي نوبا) عن مقاومة مسلمي الهند في (كالي كوت) والمتعاونين مع العرب ، للوجود

البرتغالي هناك ، وعن نفوذ حكومة مصر وسيطرتها الكاملة على الحركة التجارية هناك ، فافتنع الملك بأنه لا بد من القيام بإجراء عسكري يحسم أمر القضاء على الاحتكار العربي - الاسلامي لتلك التجارة ، وكسر شوكة الهنود المسلمين في (كالي كوت) فأمر بتجهيز حملة ثالثة لهذا الغرض وقد اختار قائداً لها ، هو (فاسكو دي غاما) المكتشف الأول لطريق الهند ، فصارت هذه الحملة تعرف باسم حملة فاسكو دي غاما الثانية .

تكونت الحملة من عشرين سفينة ، مقسمة إلى عشر سفن ذات حمولات ثقيلة لشحن المواد التجارية ، وخمس سفن مقاتلة من نوع (كارافيل CARAVELS) مجهزة بمدفعية ثقيلة ، عهدَ دي غاما بقيادتها إلى قريبه (أستافو دي غاما) وخمس سفن أخرى مقاتلة من نوع (الفرقاطة) ، وكان عدد مقاتلي الحملة (٨٠٠) جندي مسلحين تسليحاً حديثاً ، غادرت ميناء لشبونة يوم ٢٥ / مارس / ١٥٠٢ م ، وبعد رحلة بحرية وصلت إلى (سوفاله) أي الموزمبيق فأسس دي غاما مركزاً تجارياً هناك ، وتم تعيين (كونزالوا بيكسو) مديراً للمركز . وفي مدينة (كيلوا) خرج الأمير ابراهيم نائب الملك هناك لاستقباله ، فأبلغه دي غاما أن يقبل بحكم البرتغال لبلاده كرهاً أو طوعاً فلما رفض الأمير ، قام باعتقاله وقصف المدينة بعدة طلقات من مدفيعته ، ثم أخبره بعزمه على حرق المدينة مما أجبر الأمير أن يوافق على طلباته وأن يفتح مركزاً تجارياً برتغالياً هناك ، وأن يدفع جزية سنوية مقدارها ألف جنيه وكمية من الذهب والاحجار الكريمة إلى دولة البرتغال^(٤) .

وفي (ملندي) جرى استقبال حار لدي غاما ، وتم تجديد معاهدة الصداقة هناك . وفي يوم ١٨ / ٨ / ١٥٠٢ أبحر متجهاً نحو الهند ، فوصل أولاً إلى ميناء (دابول DABUL) ، وهناك تصدى له أسطول كاليكوت بقيادة القائد الهندي (خوجا قاسم) فالتحم الاسطولان إلا أن الغلبة كانت للبرتغاليين ، فدمروا الاسطول الهندي ، واحتجزوا سفينة كانت تحمل نساءً هنديات ، ولما تم لهم هذا الأمر اتجهوا نحو

(٤) سينر ترمينجهام - الإسلام في شرقي أفريقيا - ترجمة محمد عاطف التواوي - ص ١٤ .

(كنانور) حيث كان (كونزالس باربوسا) مدير المركز التجاري البرتغالي في انتظارهم هناك .

قام فاسكودي غاما بشحن سفن النقل بحمولتها من التوابل والبضائع الهندية ، وعيّن القائد (فنسنت سودرا VINCENT SODRA) قائداً عسكرياً في المدينة وترك معه الثمنمائة جندي والسفن الكارافيل المقاتلة ، وأمر بالقيام بمراقبة السواحل الهندية وإغراق وحرق أية سفينة تعود إلى كاليكوت أو سفينة تعود إلى (مكة) ، (وهو تعبير يقصد به البرتغاليون سفن المسلمين أو العرب بصورة عامة ، وليس سفن مكة المكرمة على وجه التخصيص) ، ثم غادر الهند بحمولته الكبيرة من التوابل ووصل إلى لشبونة في الأول من سبتمبر أيلول ١٥٠٣ .

كان رد الفعل الهندي على ذلك العمل أن قام السامري ملك (كالي كوت) بحشد أسطول لغرض ضرب الحكام الهنود المتعاونين مع البرتغاليين خاصة حكام (كوشن) و (كونانور) ، وعندما علم القائد البرتغالي (فنسنت سودرا) بأمر ذلك الحشد ونيته توجه بأسطوله إلى مدينة (كوشن) للدفاع عنها . وفي كوشن المدينة ، أوكل (سودرا) أمر حمايتها إلى القائد (دياكو فرناندس كوريا) ، أما هو فقد أخذ معه بعض السفن وقرر الذهاب إلى مدخل البحر الأحمر لاستطلاع ومقاتلة السفن التجارية العربية واصطيادها هناك ، وعندما وصل إلى ساحل مدينة (كمباي) الهندية ، شاهد وهو في البحر سفيتين عربيتين ، فأوقفهما واستولى على حمولتهما وأحرقهما بركابهما الأحياء .

ثم أبحر متجهاً نحو السواحل العربية ، فوصل جزر كوريا موريا التابعة لدولة عُمان ، إلا أن العدالة الإلهية كانت له بالمرصاد هناك ، إذ ما إن غادر الجزر بسفنه حتى هبت ريحٌ صرصر عاصفة قلبت سفنه وأهلكته هو وأسطوله^(٥) .

وعندما وصلت أنباء غرق القائد البرتغالي ، تم تعيين خَلَفَهُ (الفارو دي أتيدا-ALVA

(٥) DINVERS - المصدر نفسه - ص ٩٤ .

(RO DE ATAIDA) بدلاً عنه ، فيما راح السامري ملك كاليكوت يحشد جيشاً قوامه خمسون ألف مقاتل ، تمكن بعد مدة من شن هجوم على (كوشن) وأنزل هزيمة يحاكمها وكذلك بالحامية البرتغالية الموجودة هناك وأجبرها على التراجع والانسحاب نحو (كنانور) فيما أرسل البرتغاليون سفينة إلى البرتغال أخبرت الملك بما حصل هناك ، فقرر الملك أن يرسل حملة رابعة إلى الهند .

تكونت الحملة الرابعة من تسع مدمرات حربية مقسمة إلى ثلاث مجموعات ، كل مجموعة من ثلاث سفن كما يلي :

١ : المجموعة الأولى بقيادة أفونسو دي البوكيرك - AFFONSO DE ALBU-
. QUERQUE

٢ : المجموعة الثانية بقيادة فرانسيسكو دي البوكيرك - FRANCISCO DE ALBU-
. QUERQUE

٣ : المجموعة الثالثة بقيادة أنطونيو دي سالدانا - ANTONIO DE SALDANHA

وأعطيت الأوامر للمجموعتين الأولى والثانية بالتوجه إلى الهند ومساعدة حامية مدينة كوشن والقضاء على تحركات السامري هناك ، أما المجموعة الثالثة فكان واجبها أن تمسك مدخل باب المندب في البحر الأحمر ، لغرض اصطيد ومقاتلة السفن التي تنقل البضائع الهنديه إلى مصر .

وفي منتصف شهر أبريل من عام ١٥٠٣ غادرت هذه المجموعات المياه البرتغالية ووصلت المجموعتان الأولى والثانية إلى الهند ، والتقوا هناك بأسطول (السامري) وأنزلوا به هزائم كثيرة لم تخل من عنف عجيب خاصة في معاملة البرتغاليين للأسرى الهنود وذلك بحرقهم أحياء ، وانتهت الحرب بإجبار السامري على عقد معاهدة مع أفونسو دي البوكيرك مكونة من أربع نقاط أهمها أن يوقف التعامل التجاري مع العرب ، ثم قاموا بتشييد قلعة عسكرية برتغالية ، وقاعدة للأسطول الحربي في مدينة

(كوشن) ، وتم تعيين القائد (دورات باشيكو) قائداً للبحرية والجيش (وأنطونيو دي سا) مديراً للمركز التجاري والقس (بيدرو رودريك) قيماً على كنيسة (سيدة الرحمة) وهي مركز التبشير المسيحي هناك .

ولما انتهت مهمة المجموعتين الأولى والثانية أففلتا عائدتين فوصلت مجموعة أفونسو دي البوكيرك إلى لشبونة في نهاية شهر تموز من عام ١٥٠٤ ، أما المجموعة الثانية ، أي مجموعة فرانسيسكو دي البوكيرك فحالما غادرت ميناء (كنونور) الهندي وصارت وسط المحيط الهندي فاجأتها ريح عاتية ، أغرقتها جميعاً ، فهلك فرنسيسكو دي البوكيرك وسفنه ولم يرجع إلى لشبونة أبداً .

أما سفن المجموعة الثالثة بقيادة أنطونيو دي سالدانا ، فقد واجهت أولى مشاكلها على الساحل الأفريقي الغربي إذ أغرقت العواصف إحدى السفن هناك ، ولما وصل سالدانا إلى (ملندي) أعاد تنظيم نفسه وجدد المعاهدة التجارية المعقودة بين الطرفين ، ثم توجه نحو القرن الأفريقي ليجد لنفسه قاعدة في زنجبار تتصدى للسفن العربية ، إلا أن ملك زنجبار خرج له بعشرين مركباً والتحم به ، غير أنه لم يقدر عليه وقتل ابن الملك في هذه الحملة ، فقام دي سالدانا باجباره على عقد معاهدة صلح ودفع جزية سنوية للبرتغال فيما راحت سفنه توقف السفن العربية والهنديّة وتحرقها بركابها الأحياء .

وكانت خامس الحملات العسكرية التي أوفدها الملك إلى الهند بقيادة (لويو سوريش دي البركاريا LOPO SOARES DE ALBERGARIA غادرت لشبونة في ٢٢/٤/١٥٠٤ ، حيث التقى قائدها أولاً بسالدانا الذي كان يترصد للسفن الإسلامية في مدخل البحر الأحمر ، واطلّع منه على مجرى الأحوال هناك ، ثم توجه إلى الهند ووصل إلى مدينة (كوشن) وقام بجرد مساكن ومخازن من دخل المسيحية من الهنود ولما تم له ذلك أمر جنوده بنهب وحرق مساكن المسلمين وتمكنت سفنه من إلقاء القبض على سبع عشرة سفينة تحمل تجاراً مصريين ويمنيين ، فأمر باغراقها بركابها ثم

قام بتقوية الحامية البرتغالية هناك وملاً مخازن سفنه بالتوابل وأقفل عائداً إلى لشبونه ووصلها يوم ٢٠/٧/١٥٠٦^(٦) .

وفي ذلك الوقت أحست الدول العربية خاصة مصر باقتراب الكارثة الاقتصادية التي تهدد بلدانهم ، كما شعرت جمهورية البندقية المتعاملة مع مصر بأن شمس تجارتها أوشكت على المغيب ، فأجرت الدولتان اتصالات سياسية ودبلوماسية لتطويق نتائج الموضوع ، ولما فشلتا سياسياً قررت مصر إعلان الحرب على البرتغال ومساعدة ملك اليمن الذي تعرضت سواحله إلى اعتداءات برتغالية وكذلك مساعدة ملك (كالي كوت) المسلم في حربه ضد البرتغاليين في الهند ، وهذا ما سنفصله في فصل قادم .

(٦) DANVERS - المصدر نقسث - الصفحات من ٩٥ إلى ١١٦ ، إذ يؤكد هذا المؤرخ في صفحات عديدة من الكتاب قصة حرق الأحياء من المسلمين الذين يقومون أسرى بيد القوات البرتغالية .

الفصل الرابع عشر

* نظرة على الأحوال السياسية في مصر، تولي السلطان المملوكي قانصوه الغوري الحكم عام ١٥٠٠م.

* مفاوضات مصرية مع حكومة البندقية للحد من النشاط التجاري البرتغالي .

* السلطان قانصوه الغوري يرسل تهديداً إلى البابا يوليوس الثاني .

* نظرة على الأحوال السياسية في اليمن، الدولة الطاهرية تحكم اليمن بشماله وجنوبه تحت عرش الملك عامر بن عبد الوهاب الطاهري .

* الإمام شرف الدين يحيى بن شمس الدين الزيدي، يدعو إلى المذهب الزيدي والاستقلال في اليمن الشمالي .

* عودة إلى الأحوال السياسية في المغرب العربي، والعلاقات المغربية البرتغالية .

* اعتقال السلطان محمد بن محمد بن الشيخ الوطاسي، المعروف بأسر (محمد البرتغالي) عرش المغرب عام ١٥٠٠م.

* ظهور حركة محمد بن القانن السعدي وهي حركة دينية سياسية في المغرب عرفت بأسر الدعوة (السعدية) تدعو إلى قتال البرتغاليين وإسقاط الحكومة الوطاسية .

* إسبانيا تحتل ميناء (المرسى الكبير) الجزائري ومدينة (غصاصة) المغربية عام ١٥٠٦م.

أدى اتساع نشاط البرتغاليين في الهند وسيطرتهم على مصادر تجارة التوابل والسلع الشرقية، إلى حجب وصول هذه السلع بكميات كبيرة إلى مصر والشام، مما جعل مصر تواجه ظروفاً صعبة هي وزميلتها في الشراكة في تجارة التوابل الهندية، دولة

البندقية الإيطالية في أوروبا . وقبل أن نخوض في مجريات الأمور بين الدولتين من جهة وبينهما وبين دولة البرتغال وبقية دول أوروبا من جهة أخرى ، لا بد أن نلقي الضوء على الوضعية السياسية التي كانت مصر عليها إبان تلك الفترة .

* * *

شهدت مصر في عام ٩٠٦ الهجري ١٥٠٠ - ١٥٠١ م ، تولي السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه بن بيردي الغوري المعروف باسم (قانصوه الغوري) السلطة هناك ، وهو الملك السادس والأربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو أيضاً الملك العشرون من ملوك الشراكسة لدولة المماليك البرجية في مصر .

ومن الجدير بالذكر أن دولة المماليك قامت في مصر إثر سقوط دولة صلاح الدين الأيوبي هناك عام ١٢٥٠ م فقامت على أنقاضها دولة المماليك البحرية من ١٢٥٠ إلى ١٣٨٢ م ، ثم دولة المماليك البرجية من ١٣٨٢ إلى ١٥١٧ م ، والتي كان آخر ملوكها قانصوه الغوري .

والملك الأشرف قانصوه الغوري شركسي الأصل من مماليك الملك الناصر محمد قايتباي ، وكان قد انخرط في سلك الجندية فقاتل في حلب ثم صار والياً على طرطوس ثم والياً على ملطيه وكلها في سوريا^(١) .

وكان صعوده إلى السلطة يوم كانت مصر متخمة بالمشاكل والخلافات الداخلية بين المماليك الشراكسة والطوائف الأخرى مثل الأتراك والمصريين والمغاربة ، مما أدى إلى تولي خمسة سلاطين الحكم خلال خمس سنوات ، وكان سادسهم هو السلطان قانصوه الغوري فكانت فترة حكمه من عام ١٥٠١ إلى عام ١٥١٧ م وبنهايتها انتهت دولة المماليك في مصر ، لتقوم مكانها الدولة العثمانية هناك .

وقد ورث قانصوه الغوري عن أسلافه تجارة (الترانزيت) الهندية العربية التي كانوا

(١) ابن إياس - بدائع الزهور في وقائع الدهور - ص ٣ .

يقومون بها منذ أمد بعيد ، إلا أن نجاح البرتغاليين في الوصول إلى الهند بجرأ بطريق رأس الرجاء الصالح وتثبيت أقدامهم في موانئ ساحل الهند الغربي والتدهور العسكري الهندي ومباشرة البرتغاليين بتدمير الأساطيل المصرية التجارية ، أظهر شبح المستقبل الاقتصادي الغامض لمصر في الأفق .

ففي عام ١٥٠٢ م ، وعندما أصبحت البرتغال وسيطة التجارة بين الشرق والغرب باشرت بإغراق أوروبا بالسلع الهندية بأسعار رخيصة ، وطاف البرتغاليون بأسواق أوروبا لاستمالة شركاتها وعملائها لأسواق لشبونة التي هي أرخص من الأسواق العربية ومن سوق البندقية ، كل هذا جعل تجار أوروبا يرتادون أسواق لشبونة ويهملون اتصالهم بأسواق مصر والشام . ففي عام ١٥٠٢ عادت السفن الأوروبية التي كانت في بيروت بأربع بالات من الفلفل فقط ، ولم تجد سفينتان من خمس سفن في الإسكندرية ما تحمله إلا بمشقة كبيرة .

وبينما كانت الأمور تجري على ذلك النحو وصل إلى البندقية وفد برتغالي عرض على حكومتها وهيئة التجار فيها تسهيلات لحصولهم على حاجتهم من التوابل والسلع الشرقية من أسواق لشبونة ، على أن يقوم البنادقة بتوزيعها بأنفسهم في أسواق أوروبا ، بدلا من إصرارهم على ارتياد أسواق مصر المرتفعة الأسعار والتي بدأ ينضب معينها ، لكن كبرياء البندقية وعظمتها آنذاك منعها من الاستجابة لهذا النداء حتى لا توقع بنفسها صك تبعيتها التجارية للبرتغال ، ولكنها في الوقت نفسه لم تغفل عن خطط البرتغاليين ومشاريعهم التجارية ومعرفة أسرار الطريق البحري الذي تسلكه سفنهم^(٢) .

ولدى عودة المبعوثين من لشبونة قررت البندقية أنه لا بد من عمل حاسم يرد لها اعتبارها التجاري ويبقيها التاجر الأول لتوابل الهند وأكبر دولة تجارية أوروبية ، فقررت الحكومة إرسال سفارة في العام نفسه برئاسة (بنديتو سانودو BENEDETTO

(٢) دكتور نعيم زكي فهمي - طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب - ص ٧١ .

(SANOU DO) إلى البلاط المملوكي في مصر لمقابلة السلطان الغوري ليوضح له الأخطار التي ستعرض لها مصالح البلدين من جراء وصول البرتغاليين إلى الهند . وفي الاجتماعات التي عقدها رئيس البعثة مع السلطان تبين له أن السلطات المصرية قد أحست بخطورة الموقف والأوضاع السائدة في مدخل البحر الأحمر ، واقترح السلطان الغوري أن تقوم جمهورية البندقية بإرسال المساعدات اللازمة له ، للقيام بضرب السفن البرتغالية في البحر العربي والمحيط الهندي وفسح المجال للسفن العربية لممارسة نشاطها كالسابق ، لكن هذا الطلب رفضته حكومة البندقية متعللة بأن أي تعاون عسكري بين أي بلد أوروبي وبلد مسلم سيؤدي إلى اتهام البابوية لذلك البلد الأوروبي بالخيانة ، واقترحوا بدلاً من ذلك نقطتين هُما :

١ : أن يقوم السلطان الغوري بإجراء الاتصالات اللازمة مع الحكام الهنود في المقاطعات الإسلامية ومطالبتهم بعدم التعامل مع البرتغاليين ومقاومتهم إن أمكن .

٢ : أن يقوم السلطان بتخفيض أسعار التوابل التي تصل إلى بلاده لتمكين البندقية من مضاربة الأسعار البرتغالية^(٣) .

إلا أن تفاقم اعتداءات البرتغاليين على السفن المصرية واليمانية والعربية الأخرى ، وإنزالهم الهزائم بالهنود المسلمين ، جعلت السلطان الغوري يقتنع بأن مصالحه وتجارته وهيئته أمام العالم أصبحت مهددة ، وقد تأكد له هذا بصورة عملية عندما أرسل أسطولاً تجارياً إلى ساحل (المالابار) الهندي لجلب الكميات المعتادة من التوابل ولكن هذه السفن لم تستطع الوصول كلها إلى مصر بسبب تعرض البرتغاليين لها ، وما عاد منها كان فارغاً . وقد نقل له ركاب السفن حقائق الوضع المتردي هناك .

إلا أن السلطان الغوري وإلى عام ١٥٠٤م لم يكن في وضع يسمح له بمقاتلة البرتغاليين بسبب سوء أوضاعه الداخلية سواء في مصر أو الشام ، لذلك قرر استخدام

(٣) الدكتور محمد عبدالعال أحمد - البرتغاليون في البحر الأحمر - ص ٩٨ .

الدبلوماسية في معالجة هذا الأمر فأرسل بعثة برئاسة الأسقف (ماوروس دي سان برنادينو) رئيس دير جبل صهيون بيت المقدس ومعه راهبان ليتوجهوا إلى بابا روما وملوك وأمراء أوروبا للوقوف على الأحوال السياسية وإقناع البابا على حث البرتغاليين لوقف أعمالهم العدوانية وبعبكسه فسيجد السلطان نفسه مضطراً إلى اغلاق كنيسة القيامة ومنع الحجاج المسيحيين من دخول بيت المقدس . وقد سافر الأسقف إلى روما وقابل (البابا يوليوس الثاني) الذي ما إن سمع تهديدات سلطان مصر حتى هلع للخبر ، فأرسل موفدين بابويين إلى ملكي إسبانيا والبرتغال لينقلوا لهما التهديد المصري^(٤) .

وكان رد فعل الملك مانويل ملك البرتغال فوراً إذ إنه أرسل إلى البابا يطمنئه بآلاً يقلق لتلك التهديدات وأنه قرر هذه المرة القضاء قضاءً مبرماً على أية قوة عربية أو إسلامية تقف في وجهه ، وأنه سيحتل ساحل الهند الشرقي احتلالاً كاملاً ، كما سيحتل جنوب الجزيرة العربية خاصة ميناء عدن اليماني ، ليتمكن من غلق مضيق باب المندب والبحر الأحمر ، كما سيحتل هرمز وما جاورها ليتمكن أيضاً من غلق الخليج العربي .

وبالفعل فقد نفذ الملك مانويل تهديداته فأمر بإعداد حملة جديدة بقيادة (دون فرانسيسكو دي الميادا DOM FRANCISCO DE ALMEIDA) ليكون قائداً لها وليشغل منصب نائب الملك في الهند^(٥) .

ولم تكن مصيبة منع التوابل المصيبة الوحيدة التي نزلت بمصر ، ذلك أن مياه البحر الأبيض المتوسط شهدت معارك بين السفن المصرية وسفن قراصنة رودوس ، الذين كانوا يتصيدون السفن المصرية وينهبونها في قبرص ، كما أن العلاقات بين مصر والبنديقية تأزمت بسبب الارتباك الذي ساد العلاقات التجارية بينهما ، وفشلت كل

(٤) DANVERS - المصدر نفسه - ص ١١٦ ، وكذلك الدكتور محمد عبدالعال أحمد - المصدر نفسه - ص ٨٩ ، والدكتور نعيم زكي فهمي -

المصدر نفسه - ص ٨٧ .

(٥) DANVERS - المصدر نفسه - ص ١١٨ .

الجهود الدبلوماسية التي حاولها الغوري ، وفشلت كذلك كل خططه لإفساد العلاقات التي نشأت بين البرتغاليين وأمراء (كانانور) و (كوشن) الهنود ، لذلك لم يبق أمامه إلا الحل العسكري ، وهو الأمر الذي لم يكن يستطيع القيام به في عام ١٥٠٥م أي عام الإعداد للحملة البرتغالية الجديدة ، ذلك أن الجيش المصري كان منشغلاً بالقتال في جبهتين ، واحدة في الكرك في الاردن ، والثانية في ينبع في الحجاز لمقاومة بعض الحركات الانفصالية هناك .

وستترك أمر الحملة البرتغالية الجديدة إلى الفصل القادم لنلقي الضوء على الأحوال السياسية في أرجاء الوطن العربي الأخرى التي يهددها الغزو البرتغالي ، خاصة اليمن المهددة بسقوط عدن ، والمغرب العربي المبتلي بالاحتلال البرتغالي لسواحله الغربية .

* * *

فكيف كان الوضع في اليمن يومذاك ؟ . .

كانت الدولة القائمة في اليمن تعرف باسم الدولة الطاهرية ، ويتزعمها السلطان عامر بن عبد الوهاب بن عامر بن طاهر ، الذي ورث العرش عن والده ثم جده السلطان عامر بن طاهر ، مؤسس الدولة الطاهرية عام ١٤٥٤م ، والذي انتزع السلطة من الدولة الرسولية التي كانت قائمة في اليمن قبل الدولة الطاهرية . ولم تكن اليمن يومذاك منقسمة إلى يمنين ، شمالي وجنوبي ، إلا أن أيام السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهري الأولى شهدت بوادر ذلك الانقسام بالنزاع السياسي الذي يقوده الثائر الزيدي الإمام شرف الدين يحيى بن شمس الدين والذي يدعو إلى حركة دينية تتمسك بمذهب الإمام زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنهم جميعاً ، وقد اتخذ شرف الدين من مدينة (صنعاء) قاعدة لتحركاته فيما كانت جيوش السلطان تطوق المدينة وتقاتل قوات الإمام الزيدي الثائر ، مما دفع باليمن الذي كان متحداً بشقيه الشمالي والجنوبي إلى أن يسير في الطريق الذي تُشَمُّ منه رائحة الانفصال والانقسام ، فقد أوشك الإمام الزيدي الثائر أن يستقل بصنعاء ، وذلك في

حوالي عام ١٥٠٠م تقريباً عندما أنزل هزيمة بجيش السلطان ، إلا أن السلطان تمكن في شهر أغسطس من عام ١٥٠٤م من إنزال هزيمة بقوات الإمام وألقى القبض عليه ونفاه إلى مدينة (تعز) ووضعهُ تحت الحراسة هناك .

كانت مدينة عدن عاصمة الدولة الطاهرية اليمانية آنذاك ، ولعدن موقع بحري ممتاز في السيطرة على حركة السفن التجارية المبحرة من الهند إلى مصر وبالعكس ، فهي تسيطر على مدخل البحر الأحمر من مضيق باب المندب ، لذلك فقد كانت على علاقات طيبة مع مصر كما ارتبطت بعلاقات تجارية مع تجار البضائع الهندية أيضاً وكذلك مع حكام الإمارات المسلمة في الهند ، كما ارتبطت بعلاقات مماثلة مع دولة عُمان المجاورة ودولة هرمز التي كانت تتحكم بمدخل الخليج العربي .

وقد تعرضت المدينة لدخول عدد من الجواسيس والمغامرين البرتغاليين إليها للتجسس على حركة السفن التجارية في مينائها . فقد شهد عام ١٥٠٣م حادثة غريبة هي وصول مغامر برتغالي هو (لودفيكو دي بارثيما LUDVICO DE BARTHEMA) إلى عدن ، فألقى القبض عليه وسيق إلى قصر السلطان وسُجنَ هناك ، وبعد أيام وصل إلى عدن خمسون مسلماً هربوا سباحةً من السفن التي وقعت بيد البرتغاليين ، وعندما علم هؤلاء بوجود برتغالي مسجون في قصر السلطان ، هجموا على السجن لقتله ، إلا أن الحرس أنقذه .

وبعد شهرين تقريباً سيق البرتغالي لمقابلة السلطان الذي كان منهمكاً في استعراض الجيش الذي سيرسله لمقاتلة الإمام الزيدي في صنعاء ، فلاحظ بارثيما أن تعداد الجيش كان ثلاثة آلاف جندي ، وعلم أن جيش اليمن يبلغ تعدادهُ الكلي حوالي ثمانين ألفاً ، معظمهم من الأفارقة مسلحين برماح وسيوف قصيرة عريضة ، كما يحمل كل منهم مقلاعاً لقذف الحجر يلفه فوق رأسه ، وكانوا يرتدون ثياباً من نسيج أحمر فوقها سترة قطنية تقيهم ضربات الأعداء . وعندما قابل بارثيما السلطان ، إدعى أنه مسلم ، فلما طلب منه السلطان أداء الشهادة ارتج ، فحكم عليه بالسجن مدى الحياة ، إلا أنه تمكن

من الهرب من السجن بعد أن تظاهر بالمرض فهرب إلى الحبشه ومنها إلى الهند ، فوصلها عام ١٥٠٥ وقام برسم خارطة جغرافية لخط الملاحة من لشبونه إلى الهند وخارطة لشبه جزيرة العرب^(٦) .

وعلى العموم فإن المصادر التاريخية اليمنية ، لم تذكر لنا خبراً عن البرتغاليين ، اللهم الا في حادثة (ابن ماجد) ، واستمر الحال كذلك إلى حوالي عام ١٥٠٦ فذكروا اخبار حملة (فرانيسكو دي الميادا) وهي الحملة البرتغالية التي ستطرق إلى تفاصيلها في فصلٍ قادم .

* * *

أما على صعيد العلاقات البرتغالية - المغربية فقد شهد عام ١٥٠٠م اعتلاء السلطان محمد بن محمد بن الشيخ الوطاسي عرش المغرب بعد وفاة والده . والسلطان هذا معروف أيضاً بلقب (البرتغالي) فيذكر اسمه على محمد البرتغالي وكذلك البرتغالي . وقد شهدت أيامه ظهور بدايات الحركة السياسية المعارضة وهي (الحركة السعدية) نسبة إلى زعيمها محمد بن القائم السعدي .

والحركة السعدية هذه امتدادٌ للطريقة الشاذلية - الجزولية التي كانت ترى في احتلال البرتغاليين والإسبان للسواحل المغربية انتقاصاً من سيادة الدولة الوطاسية والنظام الحاكم في المغرب ، حيث إن المراكز والقلاع البرتغالية الممتدة ما بين طنجة إلى أكادير والتي تشرف على الطريق التجاري البحري المؤدي إلى الهند ، أقام بها البرتغاليون معسكرات وقواعد بحرية لتموين أسطولهم وجعلوا منها نقاط استناد لاكتساح البلاد ، ولما كان الأهالي في المناطق الساحلية قد أدبوا على التعامل مع الأجانب في مراكز الاحتلال فقد ساد النفوذ البرتغالي في تلك المناطق ، لذلك فإن نواة الثورة السعدية قامت ضد الاحتلال وضد التجزئة في البلاد ، واعتبرت أن

(٦) جاكولين بيري - اكتشاف جزيرة العرب - ص ٥١ .

(٧) عبدالكريم كريم - المصدر نفسه - ص ٢٢ .

الرجوع للإسلام هو الطريق الذي سينقذ الوطن ، فبنوا تحركهم السياسي على أساس فكري ديني^(٧) .

ولم يكن البلاء الذي حل في المغرب مقتصرأ على تحرشات البرتغال ، بل زادت عليه إسبانيا أيضاً باحتلالها مدينة (ماسا) ثم الانسحاب عنها ، إلا أن الإسبان تمكنوا في عام ١٥٠٥م من احتلال مدينة (المرسى الكبير) الجزائرية ، وأقاموا هناك معسكراً وقلعة وسوقاً تجارياً ، ومن مدينة المرسى الكبير الجزائرية ، هاجموا مدينة (غصاصة) المغربية واحتلوها عام ١٥٠٦ فيما وقفت قوات السلطان محمد بن محمد بن الشيخ الوطاسي عاجزة عن القيام بأي عمل عسكري ضد تلك القوات الغازية .

(٧) عبدالكريم كريمة - المصدر نفسه - ص ٢٢ .

الفصل الخامس عشر

- * حملة دون فرانسيسكو دي الميادا DOM FRANCISCO DE ALMEDA في ١٥٠٥/٣/٢٥ وإعلان منصب أول نائب للملك في الهند .
- * الحملة المصرية الأولى إلى الهند بقيادة الأمير حسين الكردي .
- * انتصار الحملة المصرية في معركة (شول CHAUL) ومصرع القائد البرتغالي لورنزو ابن نائب الملك فرانسيسكو دي الميادا .

بحلول عام ١٥٠٥م ، أخذت البرتغال تحبى الحاصل الطيب من وصولها إلى الهند وتمكنت من احتكار أغلب التجارة الهندية ، بحيث أصبحت موانئ ساحل (الملبار) الهندي تعج بحركة التعامل التجاري مع البرتغاليين ، مما دفع بالملك مانويل إلى أن يقرر القيام باحتلال ساحل (الملبار) بصورة نهائية وتعيين نائب عنه هناك يحمل لقب نائب ملك البرتغال لكي يصبح للوجود البرتغالي صفة سياسية دائمة ويصبح نائب الملك هذا مسؤولاً ومسؤولية رسمية عن القضاء على أي احتكار آخر لأي دولة عربية في تجارة الهند ، خاصة دولة مصر التي راح سلطانها يهدد بشن الحرب الانتقامية ، وكذلك القضاء على الحركات العسكرية التي كان يقوم بها الحكام الهنود المسلمون الذين يرغبون في إدامة التعاون مع مصر ، ولا يريدون الرضوخ للبرتغاليين ، كما يقوم نائب الملك بضرب الدويلات الأفريقية الواقعة على الساحل الشرقي إن هي حاولت التعاون مع المصريين ، وكذلك مراقبة حركة السفن العربية في مضيق باب المندب .

لذلك قرر الملك البرتغالي إرسال حملة عسكرية جديدة من نوعها بقيادة

(فرانسييسكو دي الميادا DOM FRANCISCO DE ALMEDA) الذي سيكون قائداً للحملة ، ونائباً للملك في الهند أيضاً .

وقد تكونت الحملة من (٢٢) سفينة ، إحدى عشرة منها للشحن يكون واجبها تحميل التوابل والبضائع الهندية والعودة بها ، وإحدى عشرة سفينة قتال على ظهرها ألف وخمسمائة جندي ، غادرت البرتغال يوم ١٥٠٥ / ٣ / ٢٥ .

وصل (الميادا) إلى مدينة كيلوا في أفريقيا والتقى بالأمير ابراهيم نائب الملك هناك الذي كرر خضوعه للملك البرتغال ، وفي يوم ١٥٠٥ / ٨ / ٨ كان الميادا يقف أمام ممباسة ، وعندما لاحظ أن المدينة قد أقفلت ميناءها ، أمر بانزال كتيبة مكونة من (٥٥٠) جندي اقتحمت المدينة واستباحتها ثم أحرقتها وسفنها .

وفي ٩ / ١٣ وصل إلى الهند وتوقف في ميناء (انجديف ANJEDIVA) وهناك علم بأن ثمة عصيان ضد تحميل السفن البرتغالية وقع في مدينة (أنور ONOR) فأرسل ابنه لقمعه وهناك أصيب ابنه بجرح فأمره بإحراق المدينة ، ثم أمره بالتوجه نحو مدينة (كينانور) وبناء كنيسة هناك باسم (سانت أنجيلو) .

وأخيراً استقر المقام به في مدينة (كوشن COCHIN) الهندية فاتخذها عاصمة له وأعلن عن منصبه كنائب للملك البرتغال ، فكان أول نائب للملك هناك ، وبعد فترة جهز حملة بحرية بقيادة ولده لورنزو وأمر بالتوجه إلى أفريقيا والقيام بإحكام السيطرة على مضيق باب المندب وبناء قلاع وقواعد بحرية برتغالية على طول الساحل الشرقي ، على أن يكون مركز القيادة البحرية البرتغالية في رأس القرن الأفريقي في الصومال^(١) .

ولإزاء ما حصل في الهند من موقف سياسي جديد بوجود نائب للملك البرتغال هناك ، فقد اهتزت الأوساط السياسية المسلمة في الهند ، خاصة تلك التي كانت تتعامل بتجارة التوابل مع مصر ، فراح (السامري) ملك كالي كوت يبعث بالرسائل

(١) DANVERS - المصدر نفسه ص ١١٨-١١٩ .

الواحدة تلو الأخرى إلى سلطان مصر ، السلطان قانصوه الغوري ، يطلب منه إرسال نجدة إليه لمقاتلة البرتغاليين ، ومن جهة أخرى راح يعقد المحالفات العسكرية مع ملك (كنانور) ويهاجمان بين الفينة والفينة السفن البرتغالية أو القلاع البرتغالية ، وانضم إليهم فيما بعد السلطان مظفر شاه بن محمد شاه سلطان ولاية (الكُجرات) الهندية . وكان من جملة الخطوات التي اتبعها السامري ، هي الاتصال بحكام (مَلَقَا) عاصمة الملايو وحكام سومطره لغرض بيع توابعه إليهم بدلاً من التعامل رأساً مع البرتغاليين ، بينما كانت قوات لورنزو إين دي الميادا نائب الملك تقوم باقتحام وحرق المدن الهندية التي تخرج عن طاعة البرتغاليين وإيقاف وحرق سفن الملك السامري ملك كاليكوت ، وهكذا بقي التحالف الهندي المسلم في انتظار النجدة والإنقاذ من مصر .

* * *

فكيف كانت الأوضاع السياسية في مصر ؟

عندما كانت رسائل ملوك الهند تنهال على السلطان قانصوه الغوري تطلب النجدة منه ، لم يستطع الغوري تلبية فوراً بسبب انشغال جيشه في القتال على جبهتين داخليتين ، واحدة في الكرك في الاردن والثانية في ينبع في الحجاز ، وذلك لمقاومة بعض تحركات الانفصاليين هناك . ولكن شدة التهديدات البرتغالية بغلق مضيق باب المندب بوجه السفن المصرية واقترب انهيار التجارة المصرية بصورة عامة ، وفقدان سمعة مصر كدولة تجارية من الطراز الأول إضافة إلى توالي الرسائل من الهند في طلب النجدة ، أدت بالسلطان الغوري إلى أن يأمر (باش العسكر) أي قائد الجيش وهو الأمير حسين الكردي أن يجهز حملة للذهاب إلى الهند وقاتل البرتغاليين وتدميرهم هناك .

وفي حوالي الربع الأخير من عام ١٥٠٥م تشكلت الحملة بقيادة الأمير حسين الكردي الذي يُعرف على قلة باسم حسين المشرف أيضاً وتكوّنت من الوحدات والكتائب التالية :

- ١ : كتيبة المماليك السلطانية .
 - ٢ : كتيبة الرماة من جنود أتراك وأفارقة .
 - ٣ : كتيبة (أولاد ناس) ولعلهم أبناء البلد من المصريين أو المغرب المتطوعين للحرب .
 - ٤ : القوة البحرية المكونة من جنود البحارة ومعظمهم من المغاربة بقيادة (باش المغاربة) الخواجه نور الدين علي المسلاتي المغربي .
 - ٥ : ألحقت بالقوة وحدة مهندسين وبنائين ونجارين وحدادين وعمال ، وكانت مهمة هذه الوحدة أن تقوم بتقوية أسوار الموانئ التي ترمبها ، خاصة مدينة جدّه التي من المحتمل أن يهاجمها البرتغاليون .
- وفي الأول من شهر جمادي الآخر من عام ٩١١ هـ الموافق لعام ١٥٠٥ م قام السلطان قانصوه الغوري ، باستعراض قواته وأمر بدفع رواتبهم لمدة أربعة أشهر مقدماً ، كما أمر بمنح جنود كتيبة المماليك السلطانية مبلغ عشرين ديناراً لكل جندي .
- وفي يوم الإثنين ٦ / جمادي الآخر / ٩١١ هـ - ١٥٠٥ م غادرت العساكر مدينة القاهرة إلى السويس ، حيث كانت القوة البحرية بقيادة الخواجه نور الدين في انتظارهم ، فركبوا البحر متجهين نحو أهدافهم^(٢) .
- وصلت الحملة المصرية إلى ميناء ينبع الحجازي ، الذي يعتصم فيه الأمير يحيى بن سبيع ، وكان هذا قد أعلن انفصاله عن حكم الدولة المملوكية في مصر ، فلما سمع بوصول الأسطول المصري خرج لمقاتلته ، إلا أن الأمير حسين الكردي تمكن من دحره ، وتمكنت القوات المصرية من اقتحام مدينة ينبع وتخریب ممتلكات الحاكم ابن

(٢) ابن أبياس - يدائع الزهور في وقائع الدهور - الصفحات ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ .

سبيع وترك حامية صغيرة فيها ، ثم توجهت إلى مدينة جدة ، وأرست سفنها هناك ونزل الأمير حسين الكردي إلى المدينة ، وأمر بالمباشرة ببناء سور للمدينة كي يحميها من جانب البحر ، وكذلك بناء بعض الحصون والقلاع والدفاعات البحرية اللازمة ، وعندما انتهى من ذلك توجه إلى ساحل السودان وتوقف في ميناء سواكن ، وأمر بتحصينه وجعله مهيباً كقاعده بحرية لقتال السفن البرتغالية إن هي تورطت بالدخول إلى البحر الأحمر ، خاصة بعد أن وصلته معلومات تفيد أن أسطولاً برتغالياً مكوناً من عشرين سفينة حربية شوهد في مداخل البحر الأحمر عدة مرات^(٣) .

وبعد أن تم للأمير حسين تحصين البحر الأحمر ، اتجه نحو مضيق باب المندب فوصل أولاً إلى بلدة جازان حيث تزود بالماء والطعام ، ثم وصل إلى جزيرة كمران الاستراتيجية التي تقع قرب الساحل اليمني وتسيطر بموقعها على مدخل البحر الأحمر ، ثم توقف بعدها في بلدة المتينة ثم بلدة مخا ، ثم اجتاز مضيق باب المندب ووصل إلى عدن في شهر شوال وقيل أيضاً في شهر محرم من عام ٩١٣ هـ ، وهذا التاريخ يوافق المصادر البرتغالية التي ذكرت أن حملة حسين الكردي كانت عام ١٥٠٧ م .

وتذكر المصادر اليمنية أن القوة المصرية كانت محملة على ثلاث سفن ضخمة (واحدتها تسمى غراب) وثلاث سفن أصغر منها (واحدتها تسمى برشه) . وفي ميناء المدينة وقف حاكم عدن الأمير مرجان الظافري ممثلاً لسلطان اليمن السلطان عامر بن عبدالوهاب الطاهري الذي لم يتمكن من حضور الاستقبال لانشغاله في قتال الإمام الزيدي الثائر شرف الدين يحيى بن شمس الدين الذي تمكن في أواخر العام المنصرم من إعلان انفصاله عن الدولة الطاهرية وإعلان إمامة زيدية في مدينة حجة ، ولقّب نفسه بلقب المتوكل على الله .

وفي ميناء عدن ترجل قائد القوة المصرية الأمير حسين الكردي ورحب به الأمير

(٣) ابن أبياس - المصدر نفسه - ص ٩٦ .

مرجان الظافري والي المدينة ، وتم عقد عدة اجتماعات بين الأميرين اشتكى الأمير الظافري فيها من تحركات القوات البرتغالية المكثفة على سواحل اليمن ، وبعدها شرح القائد المصري مهمته للأمير الظافري ، وهي ذهابه إلى الهند لمقاتلة البرتغاليين هناك فتحمس الأمير لذلك ، وأقام ضيافة عظيمة للقوة المصرية وفتح لهم أبواب مستودعاته لشحن سفنهم بالطعام والمؤن ، ونزل جنود القوة للاستراحة في منطقة جبل حقات وتوافد جمع غفير من أهالي المدينة للسلام والترحيب بالقوة المصرية .

وينقل لنا المؤرخون اليمنيون خبراً مؤسفاً وقع أثناء وجود الجنود المصريين في مدينة عدن ، ذلك أن منادياً من بينهم نادى في أوساط الناس بأنهم في أمان الله وأمان السلطان قانصوه الغوري فأثار ذلك حفيظة الأمير الظافري ، لكن الحادث مر بسلام ولم تكن له نتائج سيئة على العلاقات المصرية اليمنية ، وبعدها غادر الأسطول المصري ميناء عدن متجهاً إلى الهند^(٤) .

* * *

قبل أن ندخل في تفاصيل معارك البحرية المصرية في الهند ، لابد من ذكر خبر حملة برتغالية صغيرة بقيادة (تريستو دي كونها TRISTAO DA CUNHA) كانت تقاتل مع قوات نائب الملك (فرانسيسكو دي الميادا) وابنه (لورنزو) ، ولما أنهت واجبها ، عادت إلى البرتغال ، ويبدو أن هذه الحملة علمت ببناء وصول البحرية المصرية أو حركتها نحو الهند لقتال البرتغاليين لأن الملك مانويل أمر فوراً بتشكيل حملة كبرى لمقاتلة كل العرب والمسلمين ، أودع قيادتها إلى (دي كونها) نفسه يعاونه القائد الشهير (أفونسو دي البوكيرك) ، وقد غادرت الحملة المذكورة ميناء لشبونة يوم ١٨ / ٤ / ١٥٠٦ ، وسنفصل أمر تلك الحملة الكبرى في الفصل القادم إن شاء الله .

وصلت القوات العسكرية المصرية إلى السواحل الهندية في عام ٩١٤ هـ وهو ما

(٤) بامخرمه - قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر - ص ١٠١ ، وكذلك يحيى بن الحسين - غاية الأمان في أخبار القطر اليمني .

يوافق عام ١٥٠٧ م ، ووافق أيضاً قول المؤرخين البرتغاليين الذين قالوا إن عدد سفن الاسطول المصري كان اثنتي عشرة سفينة وعدد جنوده ألف وخمسمائة جندي^(٥) وتذكر المصادر البرتغالية أيضاً أن الحملة هاجمت بلدة (أيودا IODA) ثم توجهت نحو بلدة (ديو DIU) وهناك التقت بالحكام الهنود المسلمين الناقمين على البرتغاليين فاجتمع الأمير حسين الكردي بالسلطان (مظفر شاه) حاكم منطقة (كُجُرات) ، كما اجتمع بالأمير (مالك عزيز) حاكم مدينة (ديو) ، وانضم إليهم الملك السامري ملك (كالي كات) ، كما انضم إليهم ملوك وأمراء مناطق (بيجابور) و (أحمد نيجايات) وغيرها من المناطق المسلمة ، والتحقت بهم قوة بحرية هندية بقيادة الأمير (قرباي) .

وقد تم الاتفاق على أن تكون مدينة (ديو) قاعدة للأسطول المصري ومقرّاً للقيادة المصرية - الهندية المشتركة ، كما تم الاتفاق أيضاً على تحديد موعد للقيام بالتعرض لطرد القوات البرتغالية من السواحل الهندية .

بلغت أنباء وصول البحرية المصرية إلى السواحل الهندية إلى مسامع نائب الملك البرتغالي (دي الميادا) فلهع لها وأمر ابنه لورنزو بقيادة اسطول مكون من ثمان سفن والخروج به إلى البحر للدفاع عن مدن (كنانور) و (كوشن) ، إلا أن لورنزو اندفع أكثر من ذلك إذ ذهب إلى ميناء (شول CHAUL) ليهاجم المصريين من هناك ، لكن خبر حركته وصل إلى مسامع الأمير حسين كردي فهرع بأسطوله نحو المدينة ، وعلم أن الاسطول البرتغالي موجود داخل الميناء ، فقرر حصاره وتدميره هناك ، إلا أن البرتغاليين شعروا به فوجهوا نيران مدافعهم نحو السفن المصرية وأوقفوا تقدمها ، واستمر التراشق بنيران المدفعية إلى الليل .

وفي الصباح قرر (لورنزو) أن يكسر الحصار الذي ضربه عليه المصريون ، فأمر سفينتين من نوع (غالي GALLEYS) أن تحاولا اقتحام صفوف السفن المصرية وأن تكسرا الطوق ، فاندفعت السفيتان البرتغاليتان وتصدى لهما المصريون الذين قفزوا

(٥) DANVERS - المصدر نفسه ص ١٢٩ ، وكذلك كتاب - تحفة المجاهدين في بعض احوال البرتغاليين للفقير الشيخ زين الدين - ص ٤٠ .

اليهما ، وتسلقوا السطح وحدث اشتباك بالسيوف والسلاح الأبيض ، وفي هذه الأثناء وصلت قوة بحرية يقودها الأمير (مالك عزيز) حاكم بلدة (ديو) الهندية ، فأمر (لورنزو) كل سفنه برفع الأشرعة والخروج من الميناء لمقاتلة المسلمين ، واستمر الاشتباك بنيران المدفعية إلى مساء اليوم ، حيث توقف الطرفان عن القتال .

وفي المساء عقد قادة السفن البرتغالية اجتماعاً مع لورنزو طلبوا منه المباشرة بعقد محادثات هدنة مع المسلمين ، إلا أن لورنزو رفض ذلك وقرر العودة إلى القتال في صبيحة اليوم التالي .

وفي صباح اليوم التالي خرج بسفينته على رأس قطعاته فتصدى له مالك عزيز والأمير حسين الكردي وأجبراه على التراجع نحو مصب أحد الأنهار فغرزت سفينته هناك ثم مالت إلى أحد جوانبها وبذلك فقدت قابليتها على الحركة ، فأحاطت بها سفن القاطدين المصري والهندي ، وهنا أصابت قذيفة مدفع فخذ لورنزو وحطمت ، فأمر رجاله بربطه بالحبال على سارية السفينة لكيلا يقع وراح يصرخ بهم حاثاً إياهم على القتال ، وبعد قليل أصابته قذيفة مدفع ثانية حطمت عموده الفقري وأهلكته .

وهنا اندفع المقاتلون المصريون والهنود إلى ظهر سفينة قيادة العدو وأعملوا السيف برقاب من فيها ولم ينجُ منهم إلا تسعة عشر برتغالياً رموا بأنفسهم في البحر وأنقذتهم السفن الأخرى ، فلما تأكد لقوات المسلمين مصرع لورنزو سمحوا للسفن البرتغالية بترك الميناء ، فعادت هذه السفن إلى (كوشن) وأخبروا فرانسييسكو دي الميادا نبأ مصرع ابنه لورنزو والهزيمة التي لحقت بهم ، فيما عادت السفن المصرية والسفن الهندية إلى بلدة (ديو) ثانية ، ومن هناك أرسلوا الأمير الهندي تمر باي ليتجول بأسطوله مقابل السواحل الهندية لمقاتلة السفن البرتغالية^(٦) .

وفي شهر شعبان وصلت إلى القاهرة أنباء انتصارات القوات المصرية على القوات البرتغالية ، فسر السلطان لذلك الخبر وأمر بإقامة الأفراح ودقت الطبول في القاهرة لمدة ثلاثة أيام^(٧) .

(٦) DANVERS - المصدر نفسه ص ١٣٠-١٣١ .

(٧) ابن أبياس - المصدر نفسه - ص ١٤٢ .

وفي بلدة (شول) حيث مقر نائب الملك البرتغالي المفجوع بمصرع ولده ، كانت القوات البرتغالية شبه مشلولة ، إذ لم يكن هناك أمل في انقاذها من قبضة المصريين والهنود المسلمين ، إلا وصول الحملة البرتغالية الكبرى التي أمر الملك مانويل بإرسالها لتحطيم قوة العرب والمسلمين بشكل نهائي والتي كان يقود أحد أساطيلها القائد البرتغالي المشهور (أفونسو دي البوكيرك AFFONSO DE ALBUQUERQUE) وهي الحملة التي ستتطرق لها بالتفصيل في فصل لاحق .

الفصل السادس عشر

- * الأوضاع السياسية في اليمن قبل الحملة البرتغالية الكبرى .
- * الأوضاع السياسية في عُمان قبل الحملة البرتغالية الكبرى .
- * الأوضاع السياسية في إيران قبل الحملة البرتغالية الكبرى .

في يوم ٨ / ٥ / ١٥٠٦ غادرت ميناء لشبونه حملة عسكرية برتغالية كبيرة بقيادة قائدين هما : (تريستو دي كونها TRISTAO DE CUNHA) و (أفونسو دي البوكيرك AFFONSO DE ALBUQUERQUE) وقد تكونت من (١٦) سفينة حربية ، واجبها إنهاء السيطرة العربية والإسلامية على تجارة الهند ، وذلك باحتلال الموانئ العربية والإسلامية ، وإغلاق الممرين المائتين العربيين وهما البحر الأحمر والخليج العربي .

قبل أن نخوض بتفاصيل تلك الحملة ومجريات الأمور فيها لا بد أن نتوقف برهة لنعطي صورة واضحة عن الأحوال السياسية في البلدان العربية والإسلامية التي تعرضت لها تلك الحملة بالقتال والحرب واحتلال الأراضي والمدن وإعدام الأسرى وحرقتهم وجدع أنوفهم وآذانهم إلى غير ذلك من مظاهر الوحشية والقسوة التي اتسم بها قادة الحملة ، خاصة (أفونسو دي البوكيرك) الذي يعود إليه الفضل في تثبيت قواعد الاستعمار الأوربي في الشرق الأوسط والهند وكانت تلك الدول العربية والإسلامية هي : اليمن وعمان ومملكة هرمز التابعة لسلطة الشاه اسماعيل الصفوي في إيران .

فكيف صار الوضع السياسي في اليمن عما تركناه في فصل سابق . . ؟

لقد كان حاكم اليمن السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهري قوياً طموحاً ويعتبر من أبرز شخصيات الأسرة الطاهرية ، وقد امتد حكمه تسعة وعشرين عاماً ، عمل فيها كثيراً على تثبيت أقدامه في اليمن الجنوبية والسواحل البحرية غير أنه عانى كثيراً من الصدام مع الأئمة الزيدية في اليمن الشمالية الذين كانوا لا يعترفون به أصلاً ويرون أنهم أحق بالسلطة منه ، وقد بدأ الصدام بين عامر والأئمة الزيديين منذ عام ٩٠٢هـ - ١٤٩٦م ، وقد سقطت صنعاء بيد الزيديين عدة مرات ، ثم تمكن السلطان من انتزاعها منهم ، وكان أخطر ما واجهه من مشاكل هو إعلان الإمام المتوكل على الله شرف الدين يحيى بن شمس الدين إمامته في مدينة (حجة) في ١٠/ حمادي الأول/ ٩١٢هـ أي ديسمبر سنة ١٥٠٦م وهو العام نفسه الذي قامت فيه الحملة البرتغالية الكبرى^(١) .

وهكذا ففي الفترة التي كان البرتغاليون فيها يهددون السواحل اليمنية ، وقواتهم موجودة على أبواب عدن ، كان السلطان يضطر كثيراً إلى إرسال الحملات إلى جهات اليمن المختلفة وخاصة إلى الشمال لتدعيم نفوذه هناك . ورغم ذلك بقي عهده ارتفع شأن مدينة عدن إذ قصدها التجار من كل مكان واستقروا بها ، حتى قيل إن أغلب سكانها كانوا من المصريين والمغاربة والأحباش والفرس وأهالي ساحل أفريقيا الشرقي ، وقام السلطان باعادة بناء سورها الضخم المكون من سورين وله ستة أبواب ، كما اهتم ببناء دار (الفرضة) أي الميناء والجمارك لتحصيل الرسوم على البضائع الهندية ، وأقام العديد من المخازن والأسواق التي تعج بالبضائع الهندية ، وكثيراً ما كان يتوجه إلى عدن في موسم الرياح الموسمية ليشرّف بنفسه على خروج القوافل البحرية إلى الهند^(٢) .

ولكن وبمرور الزمن أصاب الضرر ببلاده وتجارته نتيجة الحصار البرتغالي للسفن العربية والإسلامية ، وفقدت عدن الكثير من عوائلها الجمركية ، بل أصبحت مهددة

(١) الدكتور السيد مصطفى سالم - الفتح العثماني الأول لليمن - ص ٢٩ نقلاً عن عيسى بن لطف الله - مخطوطة روج الروح .

(٢) الدكتور السيد مصطفى سالم - المندوحة - ص ٤٣ .

باجتياحها من قبل البرتغاليين باعتبارها تشكل بوابة البحر الأحمر الذي يمكن غلقه بالسيطرة عليها ، لذلك فعلى الرغم من انشغاله بحروبه الداخلية ، إلا أن هذا لم يمنعه من قتال البرتغاليين عام ٩١٢هـ - ١٥٠٦م ، وهو العام نفسه الذي قامت به الحملة البرتغالية الكبرى ، إذ يذكر لنا المؤرخون اليمنيون في أخبار ذلك العام ما يلي :

« وفي هذه السنة قويت شوكة المسلمين وقطاع طرق المسلمين في البحر بطريق الهند وهرموز ، وكان أعظمهم ضرراً طائفة الاقرنج ، فإنهم فعلوا بالمسلمين الأفاعيل ، وأخذوا كل سفينة غصباً ، واستحلوا دماء المسلمين ، وأموالهم ونساءهم وأولادهم ، وفعلوا المنكر عياناً ، واستمروا على ذلك زماناً ، فبعث أهل مدينة عدن الخبر لمولانا السلطان فورد أمره الشريف بالتجهيز عليهم ، وبذل الأموال العظيمة لمن يتوجه إليهم ، فوجه إليهم من مدينة عدن أربعة عشر مركباً ما بين كبير وصغير وفيها من المسلمين فوق مئة مائة وتوجه معهم الفقيه إسماعيل الحرواني والشيخ عثمان العمودي وجماعة من طلبة العلم للجهاد في سبيل الله ، وكان خروجهم من عدن في البحر يوم الخميس السابع والعشرين من شهر شوال ، واستمر القنوت عليهم في الصلوات الخمس ، وفي خطبة يوم الجمعة بمدينة زيد وعدن وغيرها^(٣) .

هذه الحملة لم يرد ذكرها عند المؤرخين البرتغاليين ، كما أن المؤرخين اليمنيين لم يتركوا لنا خبراً آخر عنها ، ومن المرجح أن تكون قد عادت أدراجها إلى عدن ، لأنها ستكون فريسة سهلة أمام الحملة البرتغالية الكبرى . وقد عجز السلطان عامر بعد ذلك عن إرسال حملة أخرى إلى البحر وذلك لضعف إمكانياته الحربية والمادية والانشطار السياسي الذي يوشك أن يقسم اليمن إلى قسمين ، يمن شمالي يدين بالملذهب الزيدي ، ويمن جنوبي يدين بالملذهب الشافعي .

* * *

(٣) ابن الدبيع الشبلي الزيدي - الفضل للزيد على بقية المذاهب في أخبار زيد - تحقيق د. محمد عيسى صالح - ص ٢٠٢ . وكذلك كتاب (تلاوة البحر) لعقيد الدين بالسخرمة - نشرها د. محمد عبدالخالق أحمد في كتابه (البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية للسيطرة عليه) ص ٩٩ .

ومن الممالك العربية الأخرى التي تعرضت للغزو والدمار البرتغالي ، كانت مملكة عُمان . فلقد شهدت مُدُنُها الساحلية الواقعة على بحر عُمان مذابح بشعة ارتكبتها (البوكيرك) وسقطت عاصمتها (صُحار) بأيديهم وارتكبوا مجزرة أخرى في مسقط ، ولم يكن الوضع السياسي في عُمان بأحسن من الوضع في اليمن بل كان أتعس منه بمرات عديدة ، بدليل أنه ما من مؤرخ عُماني واحد ترك لنا خبراً ولو صغيراً عن وصول البرتغاليين إلى سواحل عُمان والمذابح التي ارتكبوها هناك وسقوط المدن الساحلية الواحدة تلو الأخرى بأيديهم ، إذ كان التمزق السياسي في هذا القطر العربي على أشده في تلك الأعوام . ويقف المرء حائراً وهو يقرأ ما كتبه في تاريخهم عن حشد من الأسماء والمناصب والألقاب التي تولت الحكم في عُمان ، وعن كثرة الحروب الأهلية والاعتقالات السياسية وسقوط الملوك والأئمة ، فإذا أخذنا سقوط بلدة وميناء (قلهات) العُماني بيد (ألبوكيرك) في أوائل عام ١٥٠٧م ، نموذجاً ، فإنهم لم يوردوا أي خبر عن ذلك الحادث ، واستمر التاريخ العُماني ساكناً عن ذكر البرتغاليين إلى حوالي عام ١٠٢٤هـ أي عام ١٦١٥م ، أي بعد أكثر من مائة عام ، عندما نقلوا خبراً عن اقتتال لعدد من أمراء المقاطعات المتنازعين على السلطة . ووسط فوضى الأسماء والألقاب والأحداث ، يبرز اسم الأمير عمير بن حمير الذي لجأ إلى (النصاري) فأجاروه وأعانوه على خصومه ، ويديهي أن المقصود بالنصاري هنا ، البرتغاليون^(٤) . ولم يتسنَّ للمؤرخين العمانيين ، ذكر أخبار البرتغاليين في البلاد ، إلا بعد قيام الدولة اليعربية هناك التي أسسها ناصر بن مرشد اليعربي عام ١٦٢٤م ، وهي الدولة التي سَيَقْدُرُ لها أن تقوم بإنهاء النفوذ البرتغالي ليس في عُمان فحسب ولكن في الخليج العربي وشرقي أفريقيا أيضاً ، وهو ما سنتطرق له في فصول هذا الكتاب اللاحقة .

فإذا أخذنا بما ذكره المؤرخون العمانيون عن أخبار ملوكهم ، فإن نزول البرتغاليين

(٤) سرحان بن سعيد الأركوي العماني - تاريخ عُمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة - تحقيق عبدالمجيد القيسي - ص ٩١

إلى سواحل عُمان واحتلالهم المدن ، كان على أيام الإمام محمد بن اسماعيل الإسماعيلي الذي تولى الحكم عام ٩٠٦هـ - ١٥٠٠م وتوفي عام ٩٤٢هـ - ١٥٣٥م ، وخلفه في الحكم ولده بركات بن محمد بن اسماعيل ، وعلى زمانه ازداد تشتت الكلمة وتفرقت الأمة وضعفت الدولة ووهنت قوتها ، فصار الملكُ موزعاً في أيدي زعماء القبائل والطوائف من جماعة النباهنة وآل عمير وآل هلال ، ولما مات بركات بن محمد آل الملك من بعده لبني نبهان ورؤساء القبائل^(٥) . ثم تستمر فوضى الأسماء والزعامات وأنباء المعارك والحروب الأهلية العُمانية طيلة التواجد البرتغالي على الساحل العُماني .

وعلى كل حال فإن المصادر البرتغالية التي لدينا ، تقول إن معظم ساحل عُمان كان يدين بالولاء إلى حكام من بني جابر ، ويذكر المؤرخ السالمي أن بني جابر هم الجبور ومنهم آل هلال ، كما يذكر المؤرخون البرتغاليون أن دولة هرمز التابعة للمملكة الصفوية في إيران كان لها نفوذ على المدن الساحلية العُمانية ، وشواطئ الساحل الغربي في الخليج في منطقة البحرين وكذلك مدينة البصرة في العراق .

* * *

فكيف كان الوضع السياسي في إيران آنذاك . . ؟

عاصر قدوم البرتغاليين إلى الخليج العربي وجود الدولة الصفوية في إيران وبلوغها درجة عظيمة من القوة وتوسعها على حساب دويلات عديدة في المنطقة بلغ جذوته في السيطرة على العراق عام ١٥٠٨م على يد الشاه إسماعيل الصفوي ، فكان من المتوقع أن تتصدى هذه الدولة للغزو البرتغالي الذي انتزع منها جزيرة هرمز ذات الموقع الاستراتيجي الخطير في الخليج العربي ، لكن الدولة الصفوية في تلك الفترة أي فترة أوج عظمتها في عهد الشاه اسماعيل الصفوي ، لم تكثر لذلك بل إن الشاه تنازل عن هرمز وتعاون مع البرتغاليين في سبيل أن يخلو له الجو لاحتلال العراق وقتال

(٥) المصدر السابق نفسه ص ٧٦ . وكذلك أبو محمد عبدالله بن حميد بن سلوم السالمي - كتاب تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان - ص ٢٧١ .

الدولة العثمانية التي كانت ترى أن التوسع الصفوي في العراق يهدد مصالحها فيه ، فصارت أرض العراق مسرحاً للصراع الإيراني - العثماني .

تأسست الدولة الصفوية في مستهل القرن السادس عشر ، وينتسب الصفويون إلى جدهم الأكبر الشيخ صفي الدين الأردبيلي (١٢٥٣-١٣٣٤م) الذي كانت شهرته قد ذاعت باعتباره ولياً من الأولياء ، اعتنق المذهب الشيعي الإثني عشري ودعا إلى التصوف والتف حول مريدون كثيرون ، وعمرور الزمن تحولت تلك الحركة الدينية البحتة إلى حركة سياسية قوية خاصة عندما انتقلت زعامتها إلى الشيخ اسماعيل الذي احتل تبريز عام ٩٠٧هـ / ١٥٠١-١٥٠٢م وأعلن قيام الدولة الصفوية في إيران وصار لقبه الشاه اسماعيل الصفوي . ثم احتل أصفهان وشيراز ، واتسع نفوذه إلى جنوب تركيا فسيطر على ديار بكر ، ثم تقدم نحو العراق فقبض على دولة (آق قوينلو) ، وتمكن القائد الصفوي لالا حسين من احتلال بغداد ، فدخلها الشاه عباس وأسند الحكم إلى خادم بك طاليش وجعله أميراً على الديوان ولقبه بلقب خليفة الخلفاء^(٦) . كان ذلك في نفس السنة التي كانت فيها الحملة البرتغالية الكبرى قد احتلت هرمز التابعة لإيران .

* * *

أما البصرة فقد كانت تشكّل مركز تجارة الهند في رأس الخليج ، والتي تتصل برأ بتجارة الصين وإيران والهند ، فصارت المكان الذي تتجمع به البضائع الواردة من الهند أو غيرها من الأماكن ثم يعاد تحميلها على القوافل التي تسلك طريق البر ، أو يعاد تحميلها على سفن أصغر تستطيع أن تمخر في نهر الفرات لتصل إلى داخل العراق فسوريا ثم إلى نقطة قريبة من البحر المتوسط ، حيث تنقل إلى هناك بواسطة الركائب .

فعندما سقطت بغداد بيد الصفويين ، كانت البصرة قد وقعت بقبضة (المشعشين) الذين كان ينازعهم عليها الشيخ عيسى بن محمد الأعمى من قبيلة آل غزي المنسوبة

(٦) مصطفى عقيل الخطيب - التنافس الدولي في الخليج العربي - ص ٢١ . وكذلك د . عماد أحمد الجواهري - العراق والتوسع الصفوي - مجلة الخليج والجزيرة العربية العدد (٢٠) ص ٦٥ .

لعشائر المنتفق ، وقد عُرف من حكام (المشعشع) السيد محسن بن السيد محمد المشعشي ، الذي لم يهنأ بسيطرته على البصرة طويلاً فقد أصيب بكارثة عندما حاول الشاه اسماعيل الصفوي القضاء على نفوذ المشعشين هناك ، فوُقت المدينة بقبضة القبائل مجدداً ، وتأسست في البصرة حكومة محلية ما زال الكثير من تنظيماتها يكتنفه الغموض ، غير أنه من المعروف في المصادر التاريخية أن (آل عليان) وهم من قبائل المنتفق أيضاً ، تولوا إمارة تلك الحكومة التي والت الحكم الصفوي في إيران^(٧) . ومن البديهي أن سيطرة البرتغاليين على جزيرة هرمز في مدخل الخليج العربي وتحكمهم في هذا الممر ، كان له أسوأ الأثر على البصرة بحيث لم تشهد طوال تاريخها عهداً انحسرت فيه تجارتها كالعهد الذي شهدته خلال النصف الأول من القرن السادس عشر .

* * *

والآن كيف كان الوضع السياسي في جزيرة هرمز قبل سقوطها بيد البرتغاليين ، وهي الجزيرة التي تسيطر على مدخل الخليج ، لذلك فقد شكّلت هدفاً استراتيجياً مهماً للحملة البرتغالية الكبرى .

لم تكن (هرمز) الجزيرة ، معروفة بأهميتها السياسية أو الاقتصادية بحسب موقعها الجغرافي إلى حوالي عام ١٣٠٠ م ، إذ كانت إلى ذلك التاريخ مدينة تقع على الساحل الفارسي بالقرب من ميناء (ميناب) حالياً ، وكانت (ميناب) تقوم مقام هرمز الجزيرة في سيطرتها على مدخل الخليج العربي ، وقد زارت تلك المدينة الرحالة (ماركوبولو) فقال عنها إنها ميناء لتصدير منتجات كرمان والمناطق المجاورة لها إلى الهند والبصرة والساحل العربي من الخليج وفارس . ولم تعمّر تلك المدينة طويلاً إذ هاجمها التتر فأمر حاكمها (شهاب الدين) سكانها الانتقال إلى جزيرة تقع في مواجهة مدينة هرمز اسمها (جرون) ، فانتقل إليها الناس وأطلقوا عليها اسم المدينة التي جاءوا منها فصار

(٧) د . عماد أحمد الجواهري - الدور التاريخي للبصرة على الخليج العربي - مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية - العدد ١٣ ص ٨٣ .

اسم الجزيرة (هرمز) .

وَيُنْقَلُ عن المؤرخين الإيرانيين أن حكام الجزيرة من أصل عربي ، وأن مؤسسها هو (محمد درهم كوب) وهو شيخ عربي جاء إلى فارس واستقر هناك كما قيل إن ملوكاً عرب من (آل قيصر) أصلهم من عُمان ارتحلوا إلى ساحل فارس الشرقي وحكموا هناك ، فكانت مدينة هرمز عاصمتهم .

وجزيرة هرمز ، جزيرة بيضاوية الشكل تقع في مدخل الخليج العربي على بعد (١٨ كم) من الساحل الفارسي في الجنوب الشرقي من بندر عباس ، أرضها غير صالحة للزراعة بسبب ملوحة المياه وندرتها ، ويبلغ عدد سكانها حوالي أربعين ألف نسمة من المسلمين ، وبها عدد من الهندوس واليهود والمسيحيين وهم في الأغلب تجار ، حيث يشتغل السكان بتجارة السلع الهندية أو السلع الواردة من الصين والشرق الأقصى ، لذلك فقد عُرف سكانها بالثراء والترف وارتفاع مستوى المعيشة ، وقد امتد نفوذ تلك المملكة إلى البحرين والقطيف وسواحل عُمان والبصرة وقد ذكر الرحالة البرتغاليون الذين زاروها قبل أن يحتلها أفونسو البوكيرك ، أنه كان في مينائها حوالي (٣٠٠) سفينة تجارية ، وقيم فيها (٤٠٠) تاجر من الذين يتعاملون مع الهند ومصر ، يرتدون الملابس الحريرية الثمينة ويلبسون الذهب والفضة . لذلك فليس غريباً أن تشكل هذه الجزيرة هدفاً استراتيجياً مهماً للحملة البرتغالية الكبرى ^(٨) .

* * *

وما دمنّا قد تسلسلنا في إعطاء فكرة عن الصُور السياسية في المنطقة التي ستكون مسرحاً للحركات العسكرية لتلك الحملة ، فلا بد أن نقف قليلاً في جزيرة (سقطره) التي تقع في مواجهة البر اليمني وهي من توابع اليمن الجنوبية ، حيث وقعت هذه الجزيرة بقبضة البرتغاليين لأهمية موقعها المقابل لعدن ومدخل البحر الأحمر في باب المندب ، فتذكر المصادر العربية أن الجزيرة كانت بيد حاكم من أهل (المهرة) في اليمن

(٨) مصططفى عقيل الخطيب - المصدر نفسه ص ١٩ .

الجنوبية اسمه السلطان عامر بن طوعري بن عفرير المهري ، وأنه قاتل البرتغاليين واستشهد في معركة مع مائتين وسبعة عشر من رجال المهرة^(٩) . كما يذكر البحار العربي ابن ماجد في إحدى أراجيزه أن بعض سكان الجزيرة هم من (أهماج النصرى) ، ولعله يقصد (النصرى الأحباش) ، كما تؤكد المصادر البرتغالية وجود النصرى فيها .

تلك كانت الصورة السياسية للدول العربية والإسلامية التي ستكون هدفاً للحملة البرتغالية الكبرى ، والتي سنذكر أحداثها في الفصل القادم . وهي الحملة التي ستثبت النفوذ البرتغالي في الهند و عمان و هرمز و أماكن أخرى و تجعل من البرتغال دولة استعمارية من الدرجة الأولى تتقاسم العالم مع الدولة لاستعمارية الكبرى الأخرى وهي إسبانيا .

(٩) محمد عبد القادر بامطرف - الشهداء السبعة - ص ٥٩ .

الفصل السابع عشر^(١)

- * سقوط سقطرة .
- * حرق سفن جزر كوربا موربا العمانية .
- * سقوط مدينة قلهاث العمانية .
- * مذبحه في مدينة قريات العمانية .
- * مذبحه في مسقط .
- * استسلام صحار .
- * مذبحه في خور فكان .
- * معركة هرمز .
- * أفونسو البوكيرك يعود فيرتكب مجزرة في مدينة قلهاث
- * البوكيرك يصبح نائباً للملك في الهند .

أناط الملك البرتغالي أمر الحملة البرتغالية الكبرى إلى (تريستودي كونها TRISTAO DE CONHA) على أن يعاونه (أفونسو دي البوكيرك AFFONSO DE AL BUQUERQUE) وكانت أوامر الملك إلى (دي كونها) أن يحتل أولاً جزيرة سقطره ، ويبني فيها قلعة عسكرية وأن يقوم بحماية المسيحيين الموجودين هناك ، كما يجب عليه إقامة مستودع وقاعدة بحرية ليتمكن الأسطول البرتغالي من إستخدامها والخروج منها لمقاتلة السفن المصرية والعربية وكذلك لغلق مضيق باب المندب .

(١) مواد هذا الفصل مترجمة حرفياً عن ما جاء في الفصل السادس من كتاب DANVERS . وكذلك عن ما جاء في كتاب برتغالي اسمه COMENTARIOS DO GRAND AFFONS DE ALBUQUERQUE القسم الأول ، الفصول XXIV - XXVII - XXII.

فإذا تم بناء القلعة والقاعدة البحرية ، فعليه أن يأخذ قسماً من السفن ويذهب إلى الهند لمساعدة نائب الملك في القضاء على القوة المصرية المتواجدة هناك على أن يبقى (البوكيرك) ومعه ست سفن حربية وأربعمئة مقاتل في سقطره ليقوم من هناك باحتلال عدن واحتلال جدة والقضاء على كل أثر للتجارة العربية - الهندية .

كما استلم البوكيرك ، بصفة خاصة أمراً سرياً من الملك مانويل يعلمه فيه أنه وفي حالة نجاحه في مأموريته فإنه وبعد ثلاث سنوات سيُسَمَّمُ منصب نائب الملك في الهند بدلاً من (فرانيسكو دي الميادا) ، وهو الأمر الذي ألهم حماس البوكيرك ليقوم بمغامراته العسكرية الخطيرة ، وجعله لا يعبأ بتعليمات (دي الميادا) إليه ، ولا يهتم بالشكوى التي قدمها بصفته نائباً للملك في الهند إلى الملك عن عدم إطاعة البوكيرك لأوامره ، وقد أدى خروجه على أوامر نائب الملك إلى حدوث محاولات تمرد وعصيان ضده ، إلا أنه سحق كل معارضيهِ وانتصر في معظم معاركه وأطلق على نفسه لقب (العظيم) وصار نائباً للملك في الهند ، كما سنرى تفاصيل ذلك في الصفحات اللاحقة . وعلى كل فقد تشكلت الحملة من السفن التالية :

اسم القائد	اسم السفينة
TRISTAO DE GUNHA	ESPIRITO SANCTO
تريستو دي كونها	(١) اسبيريتو سانكتو
ALVARO TELLES BARETO	SANT VINCENT
الفارو تيليس باريتو	(٢) سانت فنسنت
JOAO GOMES DE ABREU	LUZ
جوان غومز دي أبرو	(٣) لوز
LEONEL COUTINHO	LEITOA NOV
ليونيل كوتنهو	(٤) ليتوانوفا
JOAO DE NOVA	FLOR DE LAMAR
جوان دي نوبا	(٥) فلوردي لامار
MANOEL TELLES BARRETO	RAY GRAND
مانويل تيلاس باريتو	(٦) ري غراند
AFFONSO LOPES DA COSTA	RAY PEQUENO

أفونسو لوباز داكوستا	ري بيكينو	
FRANCISCO DE TAVORA	SANT GEORGE	(٧)
فرانسيسكو دي تافورا	سانت جورج (مركب أحمال)	
ANTONIO DO CAMPO	ESPRIITO SANCTO	(٨)
أنطونيو دو كامبو	اسبيريتو سانكتو	
		(٩)

١٠) السفينة كيرن (GERNE) وهي بقيادة البوكيرك نفسه يعاونه الضباط التالية اسماؤهم :

ROY PEREIRA	روي بيريرا
ROY DIAS PEREIRA	روي دياز بيريرا
JOB QUEIMADO ALVARO	جوب كيمادو الفارو
FERNAN JOAODA VIEGA	فرناندوس جوادا فيجا
TRISTO ROIZE	تريستور ريز

وعدد آخر من الضباط قادة السفن بحيث بلغ مجموع السفن ست عشرة سفينة .
ومن المفيد أن نذكر أن هذه السفن يُطلقُ عليها البرتغاليون اسم (كارافيل CARAVIL) وهي مدمرات على درجة كبيرة من الدقة في الصنع تمتاز بحجمها المتوسط وكثرة أشرعتها التي تُعطيها دفعا سريعا أثناء الحركة والمطاردة علاوة على تفوقها بالمدفعية من ناحية عيار القنبلة وعدد المدافع الموجودة على ظهرها . وهذه السفن يطلق عليها المؤرخون العرب اسم (الغراب) و (البرشة) أيضاً .

أما تسليح الجنود البرتغاليين ، فإن البندقية لم تكن معروفة يومذاك ، لذلك فقد كان الجنود مُدَرَّعين تدريعا كاملا من قمة الرأس إلى أخمص القدم ، ويحملون بأيديهم السيوف وأسلحة الاقتحام المكونة من الرماح الطويلة الضخمة التي يستعملها جنديان ، وكذلك سلاح (القُلَّة) الحديدية الضخمة المسننة المربوطة بالسلسلة الحديدية التي تُحطمُ دروع وتروس الخصم ، علاوة على (مدافع الهاون) وهي مدافع صغيرة الحجم وعيارها صغير يمكن أن يستعملها جندي واحد إلا أنها شديدة الفتك في عمليات الهجوم .

وبيديهي أن هذا النمط من الأسلحة ، لم يكن مما يتيسر وجوده لدى العرب أو المسلمين يومذاك مما أعطى للبرتغاليين تفوقاً ملحوظاً في السلاح والعدة العسكرية ، علاوة على حسن التنظيم وارتفاع المعنويات والقيادة الجيدة ، وهي أمور كان يفتقر إليها العرب كثيراً أيضاً .

وقد غادر دي كونها ومجموعة السفن ميناء لشبونة يوم ١٨ / ٤ / ١٥٠٦ ، وفي اليوم التالي أعقبه البوكيرك ومعه المجموعة الباقية من السفن .

ويعد أن تمكنوا من الالتفاف حول رأس الرجاء الصالح توقفوا في الموزمبيق بسبب سوء الأحوال الجوية ، إلا أن البوكيرك توقف بسفنه أمام بلدة صغيرة هناك ونزل إلى الشاطئ ومعه مفرزة من الجنود وألقوا القبض على قارب به عدد من سكان البلدة ، فأخذهم أصحاب القارب إلى البلدة وجمعوا المسلمين فيها ، ثم أمر البوكيرك بإعدامهم جميعاً بلا ذنب ولا جريمة ارتكبوها ، ثم أمر بحرق البلدة وغادرها ، فكانت هذه العملية أولى العمليات الوحشية للإنسانية التي اتسم بها هذا القائد في قتاله ضد العرب والمسلمين .

ولم يكن دي كونها أحسن منه في ذلك . فقد دخل بلدة اسمها (لولانكانا LULANGANAN) وكانت تُعرف بأنها تتبادل التجارة مع مدن ملندي وممباسة فهاجم قصر الحاكم ، ثم أمر بجمع كافة العرب والمسلمين الموجودين في المدينة وضرب أعناقهم بالسيف ، ثم أمر جنوده بنهب المدينة . وتوجه بعدها نحو بلدة اسمها (زادا ZADA) .

وكانت العواصف وارتطام السفن بالصخور قد أغرقت سفينة (روي بيريرا) التابعة لقوة البوكيرك كما أن السفينة (فلور دي لامار) أصيبت بعطب تطلب إصلاحها ، ثم توجه الاسطول نحو بلدة (ملندي) فاستقبلهم الملك هناك بالترحاب . وطلب البوكيرك من ملك ملندي أن يعطيه أدلاء يعرفون ساحل بلاد العرب وجزيرة هرمز ،

وأخبره أنه ينوي احتلالهما ، فأعطاه الملك ثلاثة من أدلائه الذين يعرفون الموانئ العربية ويعرفون حكامها أيضاً .

ثم غادر الاسطول (ملندي) وتوجه نحو بلدة (أنكوشا ANGOKA) وكان حاكمها رجلاً مسلماً ، فلما شاهد سكان المدينة الأسطول البرتغالي في البحر ، جمعوا ما يمكن جمعه وهربوا من المدينة ، ولما دخلها دي كونها أمر بنهبها وحرقها ، واحترق فيها بعض السكان من الشيوخ الذين لم يتمكنوا من الهرب .

ثم غادرها ووصل بأسطوله إلى بلدة (بارابو BARABO) وأهلها مسلمون وعرب عرفوا بتجارتهم مع منطقة (كمباي) في الهند . فلما وصلها ، كان الأهالي قد تجمعوا في الساحل ، فيما اعتبره دي كونها تحدياً له ، فأمر سرية من جيشه بالتهيؤ للنزول إلى الساحل وقتال الأهالي هناك ، إلا أنه شاهد زوراً قادماً إليه وبه شخصان من أهالي المدينة ، فأمر أن يصعدا إليه فقالا له إنهما موفدان من حاكم المدينة الذي يود التعرف على أسباب وجودهم ، فأجابهم قائلاً إنه يمثل ملك البرتغال وإنه يحمل أوامره بتدمير أية مملكة تقف أمام رغباته وقتل أي حاكم يحاول الوقوف بوجهه ، لذلك فإنه يطلب من حاكم البلدة أن يقدم فروض الطاعة للملك البرتغال .

وبعد يومين أرسل حاكم (بارابو) وفداً ثانياً لمقابلة دي كونها ، وأخبره رئيس الوفد أن الحاكم يطلب مهلة ليستطلع رأي أهالي البلدة .

فما كان من دي كونها إلا أن أمر بربط رقبة الموفد بحبل مربوط إلى طلقة مدفع ، وأخبره بأنه سيطلق المدفع ويرسله إلى الحاكم بهذه الصورة ، ما لم يعترف له بحقيقة نوايا الحاكم ، فاعترف الموفد بأن حاكم البلدة ينوي أن يهاجم عندما تهب العواصف المتوقع هبوبها خلال أيام قلائل ، فأمر دي كونها بتجهيز قوة عسكرية تهاجم البلدة ، وسرعان ما نزلت قوارب الإنزال البرتغالية ووصلت إلى الساحل ، فاشتبك معها المدافعون وتمكنوا من قتل عدد من الجنود وخرج الضابط (انطونيو دي سا) ، إلا أن المدافعين تراجعوا إلى داخل المدينة ، فلما دخلها الجنود البرتغاليون ، كانت النسوة

المسلمات يشاركن في القتال برمي الاحجار عليهم من سقوف منازلهن ، إلا أن المقاومة فشلت ، فهرب من هرب ، أما باقي أهل البلدة فقد لجؤوا إلى مسجد المدينة .

وهنا كان دي كونها ، وأفونسو البوكيرك قد نزلا من السفن وتوجها نحو البلدة ، ولما وصلا إليها علم دي كونها بأمر اللاجئين الموجودين في المسجد ، فأمر باعدامهم جميعاً داخل المسجد ، فأُعدِمُوا .

وعندما كان دي كونها يتجول في المدينة أصيب بسهم في فخذه فحمله البوكيرك قاتلاً له ، أنت الآن فارس ، وبعد ذلك قام دي كونها بتوزيع الأوسمة على الضباط الذين شاركوا في القتال ومنهم ابنه (نونادي كونها) ، ثم أمر بحرق المدينة وغادرها متجهاً إلى جزيرة سقطره .

وعلى مشارف الجزيرة ألقي الأسطول البرتغالي مراسيه ، وشاهد دي كونها قلعة كبيرة مسورة تسويراً جيداً ، مبنية في الميناء لحماية البلدة ، فأمر ضابطين من ضباطه بالتوجه بقارب نحوها وإنذار الحاكم هناك بالاستسلام ، وإلا فإنه سيدخلها لن يترك عرباً حياً فيها .

لكن حاكم البلدة طرد الضباطين البرتغاليين ، فلما عادا إلى الاسطول أمر دي كونها الجيش بالنزول إلى الجزيرة واحتلالها ، وكان يقود الوحدات التابعة له بنفسه ، بينما كان البوكيرك يقود وحداته أيضاً . (ونحن لانعرف من كان حاكم الجزيرة إلا من مصدر المؤرخ اليماني محمد عبدالقادر بامطرف في كتابه الشهداء السبعة الذي يقول إنه كان السلطان عامر بن طوعري بن عفرير وإن القلعة قد بناها (المهرة) هناك منذ عام ٤٨٨ م .) وقد اشتبكت قوة (البوكيرك) بمعركة دارت رحاها يدأ بيد مع المدافعين من أهالي سقطره ، وانتهت بمصرع الحاكم ورجاله ، فيما تراجع بقية المدافعين إلى القلعة واعتصموا بها ، إلا أن البوكيرك أمر رجاله بمهاجمتها فهاجموها ، وأثناء الهجوم انهال حجر ضخّم على رأس البوكيرك طرحه أرضاً ، إلا أنه لم يقتله لأنه لم يلبث أن وقف

على قدميه ثانية وتمكنت بعض الوحدات من جنوده من كسر باب القلعة والدخول إليها ، ثم تدفق الجند البرتغالي إلى الداخل ، فيما تراجع المدافعون إلى داخل أبراج القلعة ، أما قوة (دي كونها) فقد تمكنت أيضاً من دحر المقاومة السقطرية وهرب المدافعون إلى الجبال ، فالتحق دي كونها بالبوكيرك وشددوا زخم الهجوم على الأبراج فتقاتل الطرفان لعدة ساعات وانتهت المعركة باقتحام القلعة من قبل البرتغاليين وقتلوا كل من كان فيها من المدافعين .

وفي صباح اليوم التالي توجه (دي كونها) نحو مسجد المدينة فأمر بنصب الصليبان عليه وتحويله إلى كنيسة أطلق عليها اسم كنيسة (سيدة النصر) OUR LADY OF THE VICTORY وأقام الأب القس (أنطونيو دي لوريرو) قداساً هناك ثم اجتمع بمسيحي الجزيرة وأعلن لهم بأنهم الآن في حماية التاج البرتغالي وفرحوا بذلك .

وبعدها أمر بالمباشرة ببناء القاعدة البحرية هناك ، وأطلق عليها اسم (سانت ميشيل) ، ولما انتهت منها أصدر أمراً بتعيين (أفونسو دي نورونها AFFONS DE NORONHA) قائداً للقاعدة ، ولما تم له كل ذلك أعطى لأفونسو البوكيرك ست سفن كاملة العدة والعدد ليقا تل بها السفن المصرية والعربية التي تدخل أو تخرج من البحر الأحمر ، أما هو فقد أبحر بسفنه إلى الهند يوم ١٠ / ٨ / ١٥٠٧ ، لمعاونة قوات نائب الملك هناك .

وفي اليوم نفسه قام البوكيرك بمصاحبة ثلاث سفن حربية بالخروج إلى البحر لاستطلاع مدينة عدن ومدخل البحر الأحمر ثم عاد إلى سقطره وقد اتخذ قراراً جديداً ، وهو أن احتلال مدخل الخليج العربي وجزيرة هرمز يشكل هدفاً استراتيجياً أهم في هذه المرحلة من احتلال عدن أو قصف جدة بالمدافع ، وأن إيجاد قواعد عسكرية برتغالية متقدمة وقريبة إلى الهند وتقع في مدخل الخليج العربي ، سيؤدي ولا شك إلى نتائج عسكرية أحسن من احتلال البحر الأحمر في هذه المرحلة ، وعلى

ذلك فقد ترك الضابط (دي نورونها) في قاعدة (سانت ميشيل) في سقطره بينما توجه باسطوله نحو السواحل العربية القريبة من مدخل الخليج لاحتلالها واحتلال هرمز أيضاً .

وهكذا ففي يوم ١٤ / ٨ / ١٥٠٧ كانت السفن البرتغالية تقف بمواجهة جزر (كوريا موريا) التابعة لمملكة عُمان وكانت هذه الجزر محاطة بممرات صخرية ضيقة عبرها البوكيرك بحذر ، إلى أن وصل إلى منطقة (رأس الحد) العُمانية ، وهناك شاهد أربعين سفينة تعود إلى مملكة هرمز ، فأسرها وأحرقها .

وبعد أن تم له هذا اتجه نحو مدينة (قَلَهَات) العُمانية التي تقع بين رأس الحد ومدينة مسقط والتي كانت آنذاك ميناءً مهماً للسفن التجارية العربية الهندية وكانت تحت حماية ملك هرمز . وعندما نزل البوكيرك إلى المدينة ، وجد أن أهلها لا يرغبون بالمقاومة والقتال ، وأخبروه بأنهم مستعدون للتعاون معه ولو خالف هذا أمر حاكم هرمز .

وفي يوم ٢٢ / ٨ غادر (قَلَهَات) متجهاً نحو البلدة العُمانية الثانية (قَرِيَّات) ، فوصلها وألقى مراسيه في البحر ، ومن سطح سفينته لاحظ أن أهالي المدينة قد قاموا بتحصينها بالحجارة والصخور من جانب البحر ، وشاهد أربعة مدافع منصوبة هناك ويكمن خلفها عدد كبير من الرجال ، فقرر قتالهم وتدمير البلدة ، فأرسل أولاً وفداً ليفاض السكان ، إلا أن الأهالي منعوهم من النزول فعادوا إلى السفن . وهنا أصدر البوكيرك أوامره برمي المدينة بالمدافع ، وعلى إثر ذلك القصف رد أهل المدينة بقصف مقابل واستمر الرمي بالمدفعية بين الطرفين إلى الليل ، وفي الليل أمر البوكيرك عدداً من مقاتليه بالنزول بالقوارب واحتلال موضع متقدم على جزيرة صغيرة تقع قرب الساحل مقابل المدينة ، وتمكنت هذه القوة المستترة بالظلام من احتلال هذا الموقع ، وفي صباح اليوم التالي وبعد القصف المدفعي البرتغالي للمدينة ، نزلوا وحدث الاشتباك بين الطرفين ، تمكنت فيه القوة البرتغالية من إنزال هزيمة بالعُمانيين ، فدخل

البوكيرك المدينة وقتل كل من فيها من رجال ونساء وأطفال وأمر برفع العلم البرتغالي على مسجد المدينة ، ثم أمر بنهبها فنُهبتُ وشُحنتَ المسروقات إلى السفن البرتغالية ، فلما تم له ذلك أمر بحرق المدينة بما فيها الجامع حتى أزالها من الوجود . وكان خلال المعركة قد حصل على بعض أسرى الحرب فأمر بقطع أنوفهم وآذانهم وأركبهم مركباً أمرهم أن يذهبوا به إلى جزيرة هرمز ليطلع الناس هناك على نتائج من يحاول أن يقف بوجه البرتغاليين ، ثم أمر بجرد الأسلحة التي حصل عليها من العرب فكانت خمسة وعشرين مدفعاً وأعداداً كثيرة من السهام والقسي والرماح ، وعندما كان متوجهاً نحو البحر شاهد ثمانية وثلاثين سفينة في الميناء فأمر بحرقها جميعاً ، ثم غادر المكان متجهاً نحو مدينة مسقط .

لم تكن مسقط حين وصلها البوكيرك عاصمة عُمان ، إذ كانت مدينة صُحار هي العاصمة ، لكن مسقط كانت من أهم المدن والموانئ العُمانية بسبب موقعها الجغرافي على خليج عُمان فهي محطة توقف ضرورية لكل السفن المبحرة بين الهند والبلاد العربية سواء عن طريق جنوب الجزيرة العربية فباب المندب ثم البحر الأحمر ، أم عن طريق الخليج العربي . وعندما ألقى البوكيرك مراسيه أمام المدينة ، حيث وصلها ظهراً وبعد أربعة أيام من مذبحة قريات ، شاهد مركباً صغيراً يتقدم نحو سفينته فلما وصل إليها علم أن موفدين يمثلان حاكم مسقط يرغبان بالصعود والتحدث إليه ، فسمح لهما بذلك ولما صعدا إلى ظهر المركب قالاً للبوكيرك إن حاكم مسقط قد سمع بما حصل في قريات وأنه لا ينوي القتال بل يرغب بإجراء مفاوضات ، فأجابهم البوكيرك أن يقولاً لحاكم مسقط أن يتقدم بكتاب يعلن فيه طاعته وخضوعه للملك البرتغال وأن عليهما أن يعودا بالجواب غداً ، وعندما عاد العريبان إلى مسقط ، أمر البوكيرك وحدة من وحداته بالتقدم نحو ساحل مسقط لإجراء استطلاع ميداني للمدينة ، فذهبت وحدة الاستطلاع ولما عادت أخبرته أن المدينة يحيط بها سور خشبي ارتفاعه حوالي عشرين ذراعاً مسنوداً بالصخور وخلفه أسوار خشبية أخرى مسنودة

أيضاً بحيث يصل عرض الأسوار إلى عشرة أذرع ، كما أن مدخل ميناء المدينة مكون من خور ماء ضحل لا يمكن الدخول إليه إلا ليلاً عند المد وهو أيضاً مُحَصَّنٌ بحائطين مبنيين بين جبلين يمكن للمدافعين عن المدينة إغلاقه بالصخر والأحجار .

وفي صباح اليوم التالي عاد موفدا حاكم مسقط ليقابل البوكيرك وأخبراه أن حاكم مسقط وافق على عقد صلح بدون قيد أو شرط ، فطلب منهما الانتظار قليلاً ريثما يعقد اجتماعاً مع ضباطه . وبعد الاجتماع قال لهما أن يتقلا إلى حاكم مسقط شروطاً جديدة وهي أن يقوم بدفع جزية إلى ملك البرتغال تساوي الضريبة التي كان يدفعها سنوياً إلى ملك هرمز ، وأن عليه أن يقوم بتجهيز الأسطول البرتغالي والقاعدة الحربية البرتغالية المزمع تشييدها هناك بالطعام والماء بصورة مستمرة ، وأنه إذا وافق على ذلك فستكون المدينة في حماية القوات البرتغالية لتساعده في الدفاع عنها ، وبعبارة أخرى فسوف يقوم بتدميرها .

ثم أمر عدداً من ضباطه بقيادة القائد (أنطونيو دي كامبو) أن يرافقوا العُمانيين وأن يذهبوا لمقابلة حاكم المدينة وأن يُجبروه على عقد معاهدة الاستسلام .

فذهب الوفد البرتغالي برفقة العُمانيين ولما عادوا ، أخبروا البوكيرك بأن المعاهدة سيتم التوقيع عليها غداً ، فيما تبعتهم زوارق محملة بالماء والطعام هدية من حاكم المدينة إلى أسطول البوكيرك . وفي صباح اليوم التالي وإلى المساء تقريباً فإن موفدي حاكم المدينة لم يحضرا ويدهما معاهدة الاستسلام ، كما أن زوارق جلب الطعام من الشاطئ قد توقفت ، وبدا وكأن المدينة قد أغلقت أبوابها ، فقرر البوكيرك أن يتقدم إلى الساحل بنفسه للاستطلاع عن كذب عما يجري في مسقط ، ولما حل الظلام وصل بمركب صغير إلى مدخل الخور المؤدي إلى ميناء المدينة وهناك التقى بسفينة من نوع (البتيل) تخرج من الميناء فهاجمها وأسر ركابها ونقلهم إلى سفينته واستفسر منهم عن الأوضاع داخل مسقط فأخبروه أن المدينة مستعدة للقتال لأن أحد زعماء (بني جابر) من حكام المنطقة قد وصل إليها ليلاً مع عدد من المقاتلين واجتمع بحاكم المدينة

واتفق الاثنان على عدم الاستسلام والقيام بقتال القوة البرتغالية الغازية .

اعتبر البوكيرك تلك المعلومات التي حصل عليها بمثابة إعلان حرب من حاكم مسقط فاجتمع بضباطه ليلاً لتنفيذ خطة الهجوم صباحاً ، وقبل أن يدخل الاجتماع أمر أن تتهيأ إحدى الوحدات بقيادة الضابط (دنيس فرناندس - DINIS FER-NANDOZ) وأن تحاول الوصول إلى الشاطئ للحصول على معلومات أكثر ، لكن المدافعين من أهل مسقط شعروا بوصولها فهاجموها وجرحوا عدداً من جنودها وأجبروها على التراجع إلى السفن .

وفي الاجتماع كانت خطة البوكيرك أن يهاجم بمحورين ورتلين ، محورٌ بقيادته بنفسه ومحورٌ آخر بقيادة الضباط (أفونسو لوباز) و(أنطونيو دي كومبا) و(مانويل تالاس) على أن يمهّد للهجوم بقصف مدفعي للمدينة تقوم به السفن من البحر فإذا وصل المشاة إلى شاطئ البحر ، فإن علامة الهجوم ستكون قرع الطبول من الوحدة التي يقودها البوكيرك .

وفي صباح اليوم التالي باشرت مدفعية الأسطول بقصف دفاعات مسقط ونزلت الوحدات المهاجمة فكانت وحدة البوكيرك على الجناح الأيسر للمدينة ووحدات بقية الضباط على الجناح الأيمن ، وعندما قرعت الطبول باشرروا الهجوم ، كانت السرية التي يقودها أفونسو لوباز قد تسلحت بمدافع هاون ، وهي مدافع صغيرة الحجم ذات عيار صغير تصلح لقصف المواقع القريبة ، وعندما وصلت هذه الوحدة إلى الأسوار الخشبية للمدينة فتحت نيران مدافعها إلا أن طلقات المدافع لم تؤثر على سور المدينة ، فيما راح المدافعون عن مسقط يرشقون المهاجمين بالسهم وحجار المنجنيق ونيران المدافع فأصيب القائد أفونسو لوباز بجرح وقتل خمسة جنود برتغاليين وتم إخلاء القائد إلى الخلف وتوقف هجوم محور اليمين البرتغالي .

أما محور اليسار بقيادة البوكيرك ، فبعد أن واجه مقاومة عنيفة من المدافعين ، تمكن من فتح ثغرة في سور المدينة واقتحمها وأجبر المدافعين على الانسحاب ، وقد أدى

انسحاب العرب أمام البوكيرك إلى انسحاب القوة العربية التي كانت تدافع أمام محور هجوم اليسار البرتغالي أيضاً . وكانت خطة البوكيرك تقضي أنه في حالة اختراق دفاعات مسقط ، فعلى الرتلين المهاجمين أن يتوحدا برتل واحد يدخل شوارع المدينة ويقاتل من فيها ، لكن رتل اليمين البرتغالي وعندما شاهد تراجع العرب طاردهم في أزقة المدينة ، إلا أن المدافعين تمكنوا من شن هجوم مقابل على هذا الرتل وقتلوا وجرحوا أعداداً منه وأجبروه على التراجع إلى الخلف فعادوا ليلتحقوا بقوة البوكيرك التي كانت لا تزال تقاتل عند أسوار المدينة ، فقابلهم البوكيرك بغضب لا تكسارهم وتراجعهم بسبب مخالفتهم تعليماته التي كانت تنص على الالتحاق به عند القيام باختراق سور مسقط .

أعيد تنظيم القوة المهاجمة وتم تضييد جرح أفونسو لوباز وعهد إلى وحدته ووحدة الضابط فرانسيسكو تافورا أن تقوما بالدخول إلى أزقة المدينة وشوارعها وقاتل العرب هناك على أن تتبعهما بقية السرايا بقيادة البوكيرك . وفي أزقة المدينة اقتحم المدرعون والمسلحون بالرماح الطويلة تلك الأزقة إلا أن هذه الرماح ونظر أطولها وضخامتها فقد أعاقت تقدمهم ، مما سهل على المدافعين الموجودين فوق أسطح منازل المدينة رميهم بالسهم والحجارة الثقيلة ، إلا أن مقاومة المدافعين ابتدأت بالاضمحلال نتيجة التفوق بالسلاح والعدة التي كان عليها الجيش البرتغالي ، خاصة وحدات الجنود المدرعين ووحدات الجنود حاملي القلعة الحديدية التي تحطم الدروع ، ووحدات الجنود الذين يستعملون مدافع الهاون الصغيرة ذات الفتك الشديد في الاشتباك القريب . وتعترف المصادر البرتغالية أن معركة ضارية نشبت داخل المدينة بين المدافعين من بني جابر والمهاجمين ، إلا أن النصر كان في النهاية للبرتغاليين ، حيث انسحب المقاتلون إلى الجبال والشعاب المحيطة بالمدينة وبقيت المدينة خالية إلا من النساء والأطفال والشيوخ ، فقامت قوات أنطونيو دي كومبا بحصرهم فيما راحت قوات جوادي نوبا تفتك بالأحياء ، فقتلت أعداداً كبيرة من نساء المدينة وأطفالها ، ولما انتهى جوادي نوبا

من تلك المجزرة خرج إلى خارج المدينة حيث شاهد رتلًا آخر من المدنيين من الأطفال والنساء والشيوخ فأبادهم عن بكرة أبيهم .

تمكنت قوات البوكيرك من احتلال مقر حاكم المدينة ، وعندما جيء به للتحقيق تبين أنه من أهالي هرمز وقد تقلد منصبه بأمر من ملك هرمز ، فأمر البوكيرك بخلع ملابسه ثم أمر بقطع أعضائه التناسلية وإعدامه أمام أعوانه . ولما وصلت إليه أخبار بأن المدافعين العرب قد التجأوا إلى الجبال وأن أعداداً من أهالي المدينة لازالوا في السهول والشعاب ، أمر الضابط فرانسيسكو دي تافورا أن يذهب اليهم ويعيدهم إلى المدينة ، فتمكن تافورا من جمع عدد منهم ، جلبوا أمام البوكيرك فصفهم صفاً واحداً وضرب أعناقهم ، وأبقى على عدد منهم أمر بجذع أنوفهم وأذانهم وأركبهم سفينة ليذهبوا بها إلى بقية مدن عُمان وهرمز حتى يطَّلَع الناس عليهم هناك .

ولما انتهى من ذلك باشر بعمليات استثمار الفوز ، فدفع بعض قطعاته لتأخذ مواضع دفاعية خارج المدينة تحسباً من هجمات مضادة قد يقوم بها العرب ، وباشرت قطعات أخرى بهدم المواضع الدفاعية وأسوار المدينة والبيوت التي قد تشكل عائقاً أمام تحرك البرتغاليين ، وبقي البوكيرك في المدينة ثمانية أيام نهبها نهباً كاملاً ، ونقل كل ما فيها من طعام وأحواض ماء عذب إلى سفنه . وعندما كان أحد الجنود يقوم بتفتيش أحد الدور ، اكتشف أن أهل الدار قد قاموا بخزن الطعام بغرفة أغلقوا بابها بالطابوق فبدا وكأنه حائط ، فلما بلغ هذا الخبر إلى البوكيرك أمر بتهديم كل بيوت المدينة بحثاً عن الطعام المخبأ فيها ، فاكتُشِفَت كميات من الذهب تعود إلى نساء مسقط ، كما تم شحن ثلاثين مدفعاً صالحاً للاستعمال إلى السفن ، ثم أمر بإحضار أحد الأسرى من الشيوخ العرب الذي قال إنه على علاقة جيدة بأمير بني جابر وأخبره أن يذهب إلى الجبال ويخبر الأمير أن يقوم بدفع مبلغ عشرة آلاف أشرفي (XERAFINS) ذهب^(٢) لقاء عدم حرق مسقط ، فلما لم يعد الشيخ العربي أمر البوكيرك بحرق المدينة وابتدأ بالمسجد الجامع الكبير حيث قام الجنود بتقويض أعمدته مما جعل السقف يهبط عليهم فاعتقد

(٢) يذكر اسم النقد الأشرافي هذا خطأ في بعض المصادر العربية على أنه (سيرافين) وهو ترجمة صوتية للفظلة (XERDFINS) .

البوكيرك أنهم ماتوا جميعاً ولكنهم لم يصابوا بسوء وقاموا بحرقه ، ثم أحرقوا المدينة كلها .

كتب البوكيرك في مذكراته قائلاً :

« إن مدينة مسقط مدينة كبيرة ، ونفوسها كثيرة وبها آبار مياه كثيرة ونخيل وأشجار ، وأن المدينة يحكمها وال ومندوب عن حكومة هرمز ، أما المنطقة التي تحيط بها فيحكمها بنو جابر (BENJABAR) ، وأن سلطة بني جابر هذه تمتد من مسقط إلى منطقة ظُفار حيث حدود مملكة عدن ، كما أن سلطة بني جابر تمتد إلى البحرين وساحل القطيف حيث يحكمون هناك باسم ملك هرمز » .

ثم غادر البوكيرك مدينة مسقط المنكوبة متجهاً نحو المدينة التي لا تبعد عنها كثيراً وهي مدينة (صُحار) وكانت صُحار قد وصلتها أنباء الفاجعة التي حلت بمسقط ، وعندما وصلها لاحظ أن المدينة محصنة تحصيناً جيداً ، وقدرَ لَوَّ أن المدينة تريد الدفاع عن نفسها لاحتاج إلى قوة أكبر للهجوم عليها ، إلا أن حاكم المدينة عرض الاستسلام ، وقد ورد اسمه في المصادر البرتغالية (السيد ALCAYDE) ، كما وافق هذا الحاكم على إبقاء حامية برتغالية في المدينة وأن يقوم بدفع كافة نفقاتها . ثم أبحر البوكيرك على طول الشاطئ متجهاً نحو بلدة خورفكان .

وخورفكان ميناء يقع على ساحل بحر عُمان ، وهو اليوم يعود إلى إمارة الشارقة في دولة الإمارات العربية المتحدة ، والميناء على شكل خور مائي أي لسان مائي داخل البر محاط بجبال على شكل فكين . وفي اليوم الثاني من اقلاع اسطول البوكيرك شاهد عن بُعد قارباً من نوع (السمبوك) فأمر أحد قواربه بمطاردته وإلقاء القبض على من فيه ، إلا أن القارب تمكن من الهرب والاختفاء ، ثم استمر الاسطول بالسير على طول الساحل إلى أن لاحت لهم معالم بلدة تقع عليه ، فسأل البوكيرك الأدلاء الذين كانوا معه عن اسم المدينة فقالوا له إنها خورفكان وتكتب (ORFACAO) بالبرتغالية .

وما إن بدت طلّائع الأسطول الغازي هناك ، حتى دب الرعب في ميناء المدينة إذ لاحظ البوكيرك أن سفناً عديدة قد تركت الميناء على عجل هاربة من المعركة المتوقعة نشوبها هناك فأمر سفينه بالقاء مراسيها بعيداً عن الميناء ، فيما نزل هو وجملة من مقاتليه إلى قارب مسلح صغير ، اقترب به قليلاً من الساحل ليستطلع ما يجري هناك ، فشاهد جمعاً غفيراً من سكان المدينة وقد وقفوا بكامل أسلحتهم على الشاطئ ، كما شاهد أعداداً من الفرسان ومن راكبي الجمال ، فقدّر الموقف هناك بأن المدينة تنوي الدفاع عن نفسها وأن رجالها مستعدون للقتال .

عاد البوكيرك إلى سفينه واجتمع بضباطه وأخبرهم بما شاهد على ساحل المدينة ، وأخبرهم أيضاً بأنه سيمهل أهلها يوماً واحداً عسى أن يغيروا رأيهم ويرسلوا من يفاوضه على الاستسلام ، فإن لم يحدث هذا فسوف يهاجم المدينة صباحاً . وعندما كان يضع خطة الهجوم مع أركان حربه كانت سفينه ترصد تحركات أهالي خورفكان على الساحل فشاهدوا أعداداً من المقاتلين وقد تجمعوا قريباً من الشاطئ وراحوا ينشدون أهزيج وأناشيد الحرب والحماسة فيما بدا وكأن بعضهم اتجه نحو بعض القوارب الموجودة في الميناء ليستقلها ويذهب لقتال البرتغاليين وهم في سفنهم ، كما أن أعداد الفرسان وراكبي الجمال قد ازدادت أيضاً ، وبدا واضحاً أن المدينة مستعدة للقتال .

استغرق اجتماع البوكيرك بضباطه ليلاً إلى حوالي الساعة الثالثة صباحاً ، وكانت خطة الهجوم تقوم على أن يُمهّد لها بقصف مدفعي من السفن ، وأن تنقسم القوة المهاجمة إلى رتلين ، رتل بقيادة البوكيرك نفسه ورتل بقيادة الضباط (فرانيسكو دي تافورا) و(أفونسو لوباز) و(جوان دي نوبا) .

بدأ الهجوم في الساعات المبكرة من الفجر بقصف مدفعي كثيف أعقبه نزول الرتل الذي يقوده البوكيرك يعاونه الضباط (أنطونيو دي نورونها) الذي اندفعت سراياه إلى الأمام وراحت تستخدم مدافع الهاون في تحطيم الدفاعات الخشبية والحجرية التي

وضعها أهالي خورفكان على ساحل البحر ، وتمكنت تلك المدافع من تحطيم تلك الدفاعات واندفعت من خلالها السرية التي يقودها دي نورونها ، وفوجىء العرب المدافعون بالجنود المدرعين وحاملي القلعة الحديدية وحاملي الرماح الطويلة وهم يخترقون صفوفهم ، فتراجعوا إلى الخلف واعتصموا في منازل المدينة حيث راحوا يرشقون العدو بالسهام من فوق سطوح منازلهم ، وقد أصيب عدد من المهاجمين مما أجبر دي نورونها إلى إصدار أوامره إلى وحدته بالتوقف عند الحافات الأمامية للمنازل القريبة من الساحل ، إلا أن البوكيرك قام بقيادة بقية الرتل بنفسه والتحق بدي نورونها صارخاً ب رجاله أن يدخلوا المدينة ، فحدث هياج عظيم عند البرتغاليين واندفعوا داخل أزقة المدينة وقتلوا أعداداً كثيرة من المدافعين .

أما قوة الرتل الثاني فقد كانت تهاجم من الجانب الثاني للمدينة وفعلت مدافع الهاون التي أحسنوا استخدامها ، نفس فعلها في عمليات هجوم الرتل الأول وأجبرت المدافعين على الانسحاب ، فاندفعت السرية التي يقودها (أفونسو لوباز) وكانت في المقدمة ثم تبعها السرية التي يقودها (انطونيو دي كومبو) إلى داخل المدينة وفي داخل أزقة المدينة واجهت هذه القوة مقاومة عريية شديدة فحدث اشتباك بالسلاح الأبيض .

وأخيراً تمكنت سرية (فرانسييسكو تافورا) من إجراء خرق للمقاومين الذين كانوا يرشقونهم بالحجارة وتمكنت من الوصول إلى قلب المدينة مستفيدة من أشجار النخيل لتسترها من أحجار العرب التي كانوا يلقونها عليهم ، إلا أن البوكيرك أمر دي تافورا بالعودة إلى الرتل الثاني ومساعدة بقية الوحدات المشتبكة بقتال عنيف مع المدافعين من أهل خورفكان .

وهنا لاحظ البوكيرك أن أهالي المدينة باشرؤا بإخلائها وأن قافلة مكونة من الرجال والنساء الذين بدا عليهم الرعب والتعب يهربون بدون نظام ، فطلب من انطونيو دي نورونها أن يجمع ثمانين رجلاً وأن يسرع بالحقاق بهؤلاء الناس ويقتلهم جميعاً ،

فهرع دي نورنها وراء القافلة التي صارت قريبة من الجبال التي تُحيط بالمدينة وقبل أن يصل إليها ، بوغت بهجوم معاكس قام به الفرسان العرب المسلحون بالقسي والنشاب وصدوه وأعادوه إلى الخلف فهرع البوكيرك بقوته لنجدة دي نورونها وحدث قتال عنيف مع قوة الفرسان العرب خارج البلدة وقرب الجبال المحيطة بها . وهنا انتبه البوكيرك إلى أن وحداته قد تباعدت ، كما ابتعد الرتل الأول عن الرتل الثاني وقدر أن الموقف ليس بصالحه ، فأصدر أوامره إلى كافة الوحدات بالعودة والتجحفل ثانية داخل حدود مدينة خورفكان التي كانت قد أُخليت من المدافعين الذين انسحبوا إلى الجبال والتحقوا بقوة الفرسان هناك .

وفي داخل المدينة اجتمع البوكيرك بقيادة الوحدات وألقى فيهم كلمة تشجيعية واصفاً إياهم بأنهم أولاد وأحفاد مقاتلين عظام ، ثم أمر بجمع الغنائم من المنطقة التي يحتلها من المدينة فراح الجنود ينقلون ما يحصلون عليه إلى السفن البرتغالية ، فيما راحت بقية الوحدات تعزز مواضعها الدفاعية داخل المدينة .

وبينما هم على هذه الحالة ، قام العرب بشن هجوم معاكس مفاجيء كبدوا سرية انطونيو دي كومبو خسائر كبيرة فأمر البوكيرك بانزال خمسة مدافع ثقيلة العيار من السفن إلى الشاطئ ، ولما وصلت تلك المدافع راحت تصب نيرانها على المدافعين العرب الذين كانوا يعتصمون بالجبال ، إلا أن هجوماً عربياً معاكساً آخر شنه المدافعون وحدث اشتباك كبير بين كل القوات البرتغالية والعربية إلى أن حل الظلام فتوقف الطرفان عن القتال .

وفي صباح اليوم الثاني شاهد البوكيرك ثلاثة من العرب على ظهور الخيل وقد رفعوا علماً أبيض ، ولما وصلوا اليه أخبروه أن القائد العربي في الجبال يطلب وقف الحرب وأنه مستعد لاجراء المفاوضات ، فوافق على ذلك ، إلا أن المفاوضات لم يعودوا .

أثار ذلك جنون البوكيرك فأمر بجلب الأسرى واختار الشبان الأصحاء منهم ليقوموا بنقل كل ما يجدونه في المدينة من طعام ونقود وذهب وماء إلى السفن البرتغالية ، وأن يُستخدموا فيما بعد للتجذيف بالمجاذيف ، أما الشيوخ وبقية الأسرى فقد أمر بجذع أنوفهم وأذانهم وأطلق سراحهم .

وبعد ذلك جاء أحد ضباطه المسمى (نونا فازدي كاستيلو برانكو) ومعه رجل عربي كبير السن تبدو عليه علامات الوجاهة والوقار ، فطلب البوكيرك من الرجل أن يذكر اسمه ومن هو ، فأجابه الشيخ العربي أنه واحد من ثلاثة أمراء هم حكام المنطقة وأن الحاكمين الآخرين قد هربا أما هو فلم يتمكن من ذلك ، ثم سأله البوكيرك عن موقع هرمز فوصف له الشيخ مكان الجزيرة بالتفصيل كما شرح له تاريخ المدينة فأعجب البوكيرك بعلم هذا الشيخ ومعرفته ، كما أن الشيخ أخبره بأنه قد قرأ عن (الاسكندر المقدوني) الذي حكم العالم ، وهو يعتقد أن البرتغاليين سيتمكنون من حكم العالم مثل المقدوني ، فازداد إعجاب البوكيرك بالرجل وطلب منه أن يُحدثه أكثر عن الاسكندر ، ثم قام الشيخ العربي بإهدائه كتاباً مكتوباً باللغة الفارسية ومغلفاً بغلاف من القטיפه وقال له إن هذا هو كتاب الاسكندر ، فأخذه البوكيرك منه ، وطلب الاحتفاظ بالشيخ ليكون مستشاراً له في رحلته إلى هرمز ، وعندما حل الظلام استغلت بعض سفن منطقة الكجرات الهندية وبعض السفن الإيرانية التي كانت ترسو في خورفكان الفرصة فهربت من الميناء .

وفي صباح اليوم التالي وعندما تأكد البوكيرك من أن المدينة قد نُهبَت تماماً ، أصدر أمراً بحرقها ، فقام الجنود بحرقها وإزالتها من الوجود ، فلما تم لهم ذلك عادوا إلى سفنهم وأقاموا احتفالاً عظيماً بمناسبة ذلك النصر .

كتب البوكيرك في مذكراته واصفاً خورفكان فقال :

« إن خورفكان قرية كبيرة وهي تابعة لمملكة هرمز ، بيوتها واسعة وجميلة ، وأنّها

محصنة تحصيناً جيداً من ناحية البحر ، ويعيش فيها عدد من تجار منطقة (الكجرات) في الهند . والمدينة تحدها الجبال العالية من الخلف أما من ناحية البحر ، فهناك حائط أقامه الأهالي للدفاع عنها علاوة على وجود بعض الجزر القريبة من الساحل والتي تجعل من الصعب على السفن الوصول إليها ، وفي المدينة يوجد عدد من المزارع يُزرع فيها البرتقال والليمون والتين والنخيل والخضروات الأخرى وبها عدد من الآبار ونظام ريها جيد ، وفي تلك الحقول يوجد عدد من إسطبات الخيل وفي الميناء ترسو أعداد من زوارق الصيد التي يستعملها الأهالي ، كما تنتشر شباك الصيد هناك ، أما حكام المدينة فهم بنو جابر (BEN JABAR) .

ثم أبحر الأسطول البرتغالي تاركاً المياه الإقليمية العُمانية ومتجهاً نحو هرمز .

ونود أن نقول هنا إن تفاصيل تلك المذابح والمجازر وأساليب التعذيب والتشويه التي قام بها البرتغاليون تجاه مسلمي إفريقيا وعرب عُمان ، لم يتطرق إليها المؤرخون المسلمون والعُمانيون ، ومن العجيب كما قلنا ، أنه عندما وقعت تلك الحروب الضروس بين العُمانيين والبرتغاليين فإن التاريخ العُماني صمت صمتاً كاملاً عنها ، فهي قد وقعت على عهد الإمام محمد بن اسماعيل ٩٠٦ هـ - ٩٤٢ هـ أو ما يوافق ١٥٠٠م - ١٥٣٥م . وكل ما ذكره المؤرخون العُمانيون عن أيام ذلك الإمام جُملة اجتهادات فقهية ، اجتهد بها علماء الدين من رجال ذلك العصر في مدحه .

توقفت سفن البوكيرك أمام جزيرة هرمز ، ويذكر لنا المؤرخون البرتغاليون أرقاماً مبالغاً فيها عن القوة التي جهزها ملك الجزيرة للدفاع عن جزيرته فذكروا أن القوة المدافعة كانت مكوّنة من عدة سفن حمولة كل واحدة ألف طن أرسلها حاكم منطقة (كامباي) الهندي وعدد آخر من السفن حمولة ستمائة طن أرسلها أمراء المنطقة الهنود علاوة على مائتي سفينة صغيرة كانت موجودة في الميناء ، أما تعداد الجيش المقاتل فيقدر بين خمسة عشر ألفاً إلى عشرين ألف مقاتل .

وكان البوكيرك قد أرسل جاسوساً إلى الجزيرة ، جاء إليه بالمعلومات السابقة ، مما ترك أثراً سيئاً في معنويات الضباط البرتغاليين الذين قدروا أن كثرة المدافعين عن الجزيرة قد يسبب كارثة لهم فظهرت عليهم علامات عدم الاطمئنان عن الوضع العسكري . وتذكر المصادر البرتغالية أيضاً أن أول مرة ظهرت فيها بادرة استنكار من الضباط على الطريقة التي يتعامل بها البوكيرك مع هذه الحرب عندما حاول جوا دي نوكا بعد مذبحة مسقط التفاهم مع البوكيرك حول تلك المجزرة ، إلا أن البوكيرك لم يكثر له وقيل إن دي نوكا حاول الهرب بسفينته إلى الهند ليلتحق بالأسطول البرتغالي هناك .

وافق البوكيرك بصورة مبدئية على أن يرسل موفداً منه إلى ملك هرمز يُخبره بين الحرب والسلام ، فعاد الموفد ومعه موفدٌ من الملك هو (خوجا ابراهيم COJA ABRAHEM) الذي أخبر البوكيرك أن ملك هرمز يريد أن يعرف سبب وجوده وماذا يريد ؟ فأجابه البوكيرك قائلاً : إن ملك البرتغال أرسله إلى هنا ليقوم بخدمة التاج البرتغالي ، وإن على ملك هرمز أن يعلن تبعيته وخضوعه للملك البرتغالي ، ويعكسه فإنه سيقوم بتحطيم الأسطول الهرمزي وتدمير الجزيرة تدميراً كاملاً . فلما سمع الخوجا كلام البوكيرك أقفل عائداً إلى الجزيرة .

أثار رد البوكيرك العنيف هذا حفيظة الضباط البرتغاليين الذين كانوا يرغبون أن يكون كلامه أكثر دبلوماسية . أما ملك هرمز فقد أرسل خوجا ابراهيم ثانية إلى البوكيرك قائلاً إنه يرغب بالسلام ولكنه يريد أن يعرف سبب تدميره للمدن العُمانية التي كانت تحت سيطرته ، وإنه الآن يعقد اجتماعاً مع أعيان الدولة لبحث موضوع السلام .

اعتبر البوكيرك جواب ملك هرمز تحدياً له وطلب اجتماعاً مع قادته الذين اعترضوا عليه قائلين إن احتلال جزيرة هرمز لم يكن من ضمن الخطة البرتغالية للحملة وإنه يجب التفاهم سلمياً مع ملك هرمز ، إلا أن البوكيرك لم يعبأ باعتراض ضباطه ، بل

أرسل إنذاراً نهائياً إلى ملك هرمز قال فيه إنه ومنذ ثلاثة أيام وهو ينتظر جواباً نهائياً بخضوعه لملك البرتغال ، لذلك فإنه سيقوم باحتلال المدينة قسراً .

ثم أصدر أمراً إلى قادة السفن وضباط الوحدات أعلمهم فيه أن الهجوم سيكون غداً صباحاً وشرح لهم الخطة ، وانصرف الضباط إلى سفنهم واقتربوا بها قليلاً من الشاطئ ووضعوها بشكل يساعد على استخدام المدفعية الموجودة فيها لقصف هرمز .

وفي الساعة السابعة من صباح اليوم التالي فتحت السفن البرتغالية نيرانها على تجمعات السفن الموجودة في الميناء وسرعان ما ردت السفن على النيران البرتغالية ، ثم صارت السفن الهرمزية تخرج الواحدة تلو الأخرى لتقاتل البرتغاليين ، إلا أنها سرعان ما تذهب طعماً سهلاً أمام تفوق المدفعية البرتغالية واستمر الاشتباك على هذا النحو إلى الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم تم خلاله تدمير معظم أسطول هرمز ، فامتلاً البحر بالرؤوس البشرية التي تحاول النجاة سباحة ، إلا أن رجال القوارب البرتغالية الخفيفة كانوا لهم بالمرصاد ، ثم أمر البوكيرك سريتين من سراياه بالنزول إلى البر فقامت السريتان بتحطيم المقاومة الأرضية ثم باشرت باشعال النيران في الدور المجاورة لساحل البحر .

وبعد ذلك شاهد البرتغاليون الأعلام البيضاء ترتفع على أسطح المنازل ، فتوقفوا عن القتال ثم جاء وفد من المدينة يطلب مقابلة البوكيرك فقابلهم وهو في سفينته ووافق على عقد معاهدة صلح مع خوجا عطار ملك هرمز (COJA ATAR) تضمنت أن يقوم بدفع أتاوة سنوية لملك البرتغال ، وأن تفتح الجزيرة ميناءها أمام التجارة البرتغالية بدون دفع رسوم جمركية . وقد تم التوقيع على المعاهدة في شهر أيلول / سبتمبر من عام ١٥٠٧م وتمت كتابتها باللغتين العربية والفارسية ، وفي يوم الاثنين

الموافق ١٠ / ١٠ / ١٥٠٧م قامت القوات البرتغالية باستعراض في شوارع المدينة وهي ترفع علمها المصنوع من الحرير الأبيض وقد رُسم عليه الصليب الأحمر ، ثم تم رفع هذا العلم على سارية قصر ملك هرمز دليل خضوعه واستسلامه .

وفي يوم ٢٤ / ١٠ / ١٥٠٧م أمر البوكيرك ببناء قلعة لتكون قاعدة للأسطول البرتغالي الذي سيعمل في الخليج أطلق عليها اسم : (NOSSA SENHORA DA VICTORIA) أي : سيدة النصر ، ثم قام بتعيين المدعو (بيرو فاز دي أورتا) وكيلًا للمركز التجاري المزمع فتحه هناك .

وبينما كان هذا العمل قائماً على قدم وساق ، جاء (الريس نور الدين) وهو من أقطاب حكومة هرمز وقابل البوكيرك وقال له إن موفداً من الشاه إسماعيل الصفوي حاكم إيران قد وصل إلى هرمز ، وأنه يطالب بالضريبة السنوية التي كانت تدفعها الجزيرة له ، فقال له البوكيرك أن ينقل إلى الشاه اسماعيل بأن الجزيرة تعود الآن إلى الملك دون مانويل ملك البرتغال ، وأنه لن يرسل إلى الشاه نقوداً بل سيرميه بطلاقات من مدافعه .

وفي شهر يناير كانون الثاني ١٥٠٨م تم الانتهاء من بناء أبراج القاعدة البرتغالية البحرية في هرمز ، وفي الاجتماع الذي عقده البوكيرك مع قادة الوحدات لمناقشة الموقف وخطة الحركات المقبلة ، ثار نقاش حاد بينه وبين القادة حول جدوى البقاء في هرمز وجدوى بناء قلعة فيها ، حيث اعتقد الضباط بأن الجهود العسكرية التي صُرفت إلى الآن كان يجب أن تكون في الهند لأنها مصدر التجارة الأصلي ، والهدف الرئيسي للحملة . ثم تطور النقاش إلى انسحاب قادة الوحدات إلى سفنهم وهناك اجتمعوا فيما بينهم ووجهوا رسالة إلى البوكيرك حول هذا الموضوع وقعها الجميع ما عدا جواو دي نوبا ولما وصلت الرسالة إلى البوكيرك مزقها ، ثم تطور الأمر إلى ما يشبه العصيان حيث بقي الضباط في سفنهم وأعلن جنود المدفعية في السفن أن البوكيرك حرّمهم من حصصهم من غنائم الحرب لذلك فإنهم لا يطيعون أوامره ، وحاول البوكيرك من

جانبه اقالة فرانسيسكو دي تافورا من منصبه ولكن بدون جدوى .

بلغت أنباء عصيان ضباط البوكيرك إلى مسامع خوجا عطار حاكم هرمز ، فاستغل الفرصة وأصدر أمراً بإيقاف العمل في بناء القلعة البرتغالية ، بل تجرأ أكثر حين وصل إليه أربعة جنود برتغاليين طلبوا اللجوء عنده ، فأرسل موفده ريس نور الدين إلى البوكيرك يبلغه أنه يرغب بأن يغادر الأسطول البرتغالي المياه الإقليمية في هرمز .

عاد البوكيرك فاجتمع بضباطه وبعد نقاش حاد أصر فيه الضباط على عدم جدوى القتال في هرمز ، وأنه يجب الذهاب إلى الهند لتعزيز قوة نائب الملك هناك أو العودة إلى سقطره وقاتل السفن العربية في باب المندب ، إلا أن نهاية النقاش كانت في صالح البوكيرك ، فتم الاتفاق على أن يقوم الأسطول بقصف هرمز .

وفي صباح اليوم التالي فتحت سفن الأسطول البرتغالي نيران مدافعها الثقيلة على المدينة وراحت تهدم الدور وقام البوكيرك بفرض الحصار على المدينة ، ولم يكتف بهذا بل أمر سرية من سراياه أن تنزل إلى الساحل وأن تذهب إلى آبار المياه التي تزود البلدة بالماء وتحصل على أكبر كمية من الماء العذب ثم تقوم بقتل حراس الآبار وإلقاء جثثهم فيها ، فقامت السرية بإنجاز الواجب المذكور . فلما تفاقهم الأمر في هرمز ، بعث خوجا عطار رسالة إلى البوكيرك يطلب إليه أن يجري صلحاً جديداً ، لكن البوكيرك رفض هذا الطلب ورد عليه بالقيام بقصف جديد للمدينة .

وفي شهر شباط اكتشف البوكيرك أن هناك آبار ماء عذب في جزيرة (القسم) المجاورة لهرمز فأرسل سفينة إلى هناك لتجلب الماء العذب ، فشاهدت هذه السفينة أن الجزيرة تحرسها قوات كثيرة ، وأن أهالي هرمز يشربون الماء من آبارها ، فأمر البوكيرك بضباطه (أفونسو لوباز) و(مانويل تالاس) و(أنطونيو دي كومبا) أن يخرجوا بسفنهم لقتال القوة الموجودة في جزيرة القسم . ولكن ما إن خرجت هذه السفن وابتعدت عن أنظار البوكيرك حتى غيرت اتجاهها وهربت نحو الهند .

فلما اكتشف البوكيرك ذلك انفجر غيضاً وقام بإرسال رسالة إلى نائب الملك في الهند بواسطة إحدى السفن التابعة لهرمز يخبره فيها بموضوع الضباط الهاريين من الخدمة ومعجزات الحوادث في هرمز ، ثم قرر بعدها أن يعود إلى سقطره بعد أن لم يبقَ معه من السفن إلا سفيتتا الضابطين فرانسسكو تافورا وجوا دي نوبا ، وعندما وصلت هاتان السفيتتان إلى مدينة صُحار العُمانية اكتشف البوكيرك أن السفينة (فلوردي لامار) التي يقودها جوا دي نوبا قد هربت أيضاً إلى الهند إلا أنه تابع السفر . وفي خليج عدن التقى بسفينة عربية محملة بالبضائع التجارية فأوقفها وقتل ركبائها وأحرقها في البحر ، ثم وصل إلى سقطره حيث قام بطلب النجدة من الوحدات البرتغالية الموجودة في (ملندي) في الساحل الأفريقي ، فأرسلوا قوة إليه وأعاد تنظيم قيادات السفن كما أجرى صيانة عامة عليها وأبحر ثانية من سقطره في ١٥ / ٨ / ١٥٠٨م متجهاً نحو هرمز .

وصلت السفن البرتغالية إلى ميناء قلعات العُمانية ، وهناك اكتشف البوكيرك أن ريس نورالدين وهو أحد أركان نظام هرمز موجود في المدينة ومعه خمسمائة مقاتل مستعدون لقتاله ومنعه من التوقف هناك ، إلا أن البوكيرك لم يترك دقيقة واحدة تمر ، إذ سرعان ما راح يقصف المدينة ثم نزلت قطعاته والتقت بالمدافعين عنها وحدث اشتباك عنيف في أزقتها وانتهت المعركة باندحار العرب ، وقام البوكيرك بتنفيذ التقليد الوحشي لنهاية معاركه وانتصاره بأن قام بقطع أنوف وآذان الأسرى واتجه ثانية نحو هرمز .

وصل البوكيرك إلى هرمز والقى مراسيه على بُعد من المدينة وعلم أن خوجا عطار يواجه مشكلة مع بعض المنشقين عليه ، فعرض عليه معاونته ، إلا أن خوجا عطار أرسل رسالة إلى البوكيرك قائلاً إنه لا يريد معاونته وإنه يجب أن يغادر هرمز فوراً لأنه استلم رسالة من نائب الملك البرتغالي في الهند يعتذر له عما فعله البوكيرك وأنه ليس في نية الحكومة البرتغالية احتلال هرمز .

استلم البوكيرك جواب حاكم هرمز فاستشاط غضباً وأرسل جواباً إلى الحاكم قائلاً له إنه لا يعترف بوجود نائب للملك في الهند ، وإنه يجب عليه وفي خلال ثمانية أيام القيام بدفع خمسة عشر ألف أشرفي ذهب وهي الضريبة السابقة التي وافق على دفعها إلى ملك البرتغال . وبعد ثمانية أيام ولما لم يرد جواب من حاكم هرمز قرر البوكيرك محاصرة الجزيرة .

وخلال الحصار علم البوكيرك أن أسطولاً إيرانياً كبيراً قد أرسله الشاه إسماعيل الصفوي لنجدة هرمز قد وصل إلى جُسلُفار (الإسم القديم لمدينة رأس الخيمة ، الواقعة الآن في إمارة رأس الخيمة في دولة الإمارات العربية المتحدة) إلا أن البوكيرك كان أسرع من الأسطول الإيراني إذ سرعان ما نصب له كميناً في البحر وأوقع به هزيمة كبرى .

وصلت أنباء هزيمة الأسطول الإيراني إلى الشاه الذي كان متورطاً بحرب مع الدولة العثمانية ، فقرر أن يُهاذن البرتغال وأن يتنازل لهم عن هرمز وما يريدون في الخليج العربي لقاء مساعدته في حربه ضد الأتراك ، وعلى هذا الأساس أرسل وفدًا ليقابل ويفاوض البوكيرك الموجود في هرمز ، إلا أن البوكيرك كان قد أمر سفنه بفك الحصار عن هرمز والاقلاع نحو الهند ، حيث وصلها في شهر نوفمبر تشرين الثاني عام ١٥٠٨ م .

ولا بد أن نشير هنا إلى خبر يفيد أن البحرين قد قامت بدور للدفاع عن هرمز ضد البرتغاليين إذ يقول أحد المؤرخين وهو الاستاذ أحمد العناني نقلاً عن مقال الجمعية الملكية الآسيوية ما يلي :

« لقد أرسلت البحرين أسطولاً عليه إمداد من الرجال والمؤن إلى ميدان المعركة في هرمز ، لكن البرتغاليين تحصنوا لهذه القوة وكمنوا لها في جزيرة (القسم) وقد تمكنوا بعد قتال مرير من إغراق السفن البحرينية وعلى الأثر دار قتال بحري عنيف جداً بين المهاجمين والمدافعين عن هرمز وانتصر البرتغاليون رغم قلة عددهم وأمكن التوصل

لنصوص معاهدة بين هرمز والبرتغاليين سمح بموجبها للبرتغاليين بناء قلعة لهم ، ولكن البوكيرك اضطر لمغادرة تلك الأراضي والتوجه عائداً إلى الهند بسبب تمرد ضباطه عليه^(٣) .

وصل البوكيرك إلى مدينة (كنانور) الهندية حيث مقر نائب الملك البرتغالي فرانسيسكو دي الميادا ، وذلك بعد سنتين وثمانية أشهر قضاهم في البحر يقاتل العرب والمسلمين ، وهناك التقى بنائب الملك وكان معه الضباط الذين انشقوا عليه في هرمز وهربوا إلى الهند ، ولم يبدُ على البوكيرك أنه كان مهتماً أو مكترثاً لوجودهم هناك ، لأنه كان معتمداً على وعد الملك مانويل له بأنه سيصبح نائباً للملك في الهند بعد ثلاث سنوات من تركه لشبونه .

وقبل أن ندخل في تفاصيل ما حدث بين نائب الملك والبوكيرك لا بد أن نتطرق إلى ما حدث في الهند عندما انشق ضباط البوكيرك عنه وهربوا إلى الهند ، فعندما وصلوا إلى هناك رفعوا مذكرة إلى نائب الملك شرحوا فيها أسباب تركهم البوكيرك وطلبوا رفعها إلى الملك ، وتتلخص المذكرة في أن البوكيرك قد خالف الأوامر المعطاة إليه باتخاذ جزيرة سقطرة قاعدة للأسطول البرتغالي ليتحكم منها في السيطرة على التجارة العربية واحتلال مكة^(٤) ، إلا أنه خالف تلك الأوامر وترك سقطرة وقضى وقته يقاتل في سواحل عُمان وهرمز ، وأنه لا مبرر لاحتلال هرمز أو بناء قاعدة بحرية هناك ، كما أنه كان من الممكن تفادي الخسائر التي لحقت بالبرتغاليين نتيجة تلك الحروب التي لم يكن مُخططاً لها ، كما اتهم الضباط البوكيرك بأنه تصرف وتلاعب بالأموال التي حصل عليها من هرمز . فقام نائب الملك برفع مذكرة الضباط إلى الملك البرتغالي .

وعندما وصل البوكيرك إلى الهند ، لم يذهب لمقابلة دي الميادا رأساً ، بل أرسل إليه سكرتيره ليخبره بأن البوكيرك موجود الآن في الهند وأنه يحمل أمراً من الملك مانويل

(٣) أحمد العناني - البرتغاليون في البحرين وحولها - مقال منشور في مجلة الوثيقة - العدد الثالث - السنة الثانية - ص ٩٠ .

(٤) إن تعبير احتلال (مكة) ظهر كثيراً في المصنفات البرتغالية وفي كثير من الأحوال يقصدون به (العرب والمسلمين) كهدف عام فهم خلطوا كثيراً بين الأسم الإسلامية التي قاتلتهم فصارت كلمة (مكة) تعني الهدف الأكبر لهم وهو تخطيم أية قوة عربية أو إسلامية .

بتسليم السلطة له فعليه ترك الهند والعودة إلى البرتغال .

صعق الميادا لهذا التصرف الصلف من البوكيرك وطلب الاطلاع على أمر الملك فأطلعه السكرتير عليه ، فأجابه دي الميادا بأنه غير مستعد الآن لترك الهند لسببين : الأول هو أنه قد أكمل استعداداته الحربية لشن حملة على القوة المصرية التي يقودها الأمير حسين الكردي والموجودة في بلدة (ديو) للقضاء عليها ، فهو لم ينسَ بعد مصرع ولده لورنزو ، ولا بد من الانتقام . أما السبب الثاني ، فهو أنه قد أرسل تقريراً إلى الملك يتضمن خمس شكاوى عن تصرفات البوكيرك ، وهو الآن ينتظر جواب الملك ، لذلك فإنه لن ينفذ طلب البوكيرك ولن يغادر الهند .

أما تقريره إلى الملك فقد تضمن الشكاوى التالية :

الشكوى الأولى : إن البوكيرك يتصرف بدون محاسب أو رقيب في الهند وهو لا يقابل نائب الملك وإنه قد استقر في بلدة أخرى .

والشكوى الثانية : إن البوكيرك قد ترك واجبه الرسمي في البقاء في سقطره وقضى كل وقته في هرمز ومدخل الخليج العربي ، وإنه موجود الآن في الهند بدون سبب واضح .

أما الشكوى الثالثة : إنه حاصر هرمز وقتل أهلها في الوقت الذي كان يمكن فيه التفاهم مع (خوجا عطار) سلمياً أو مع شاه إيران الذي يرغب بالتحالف معهم ضد الدولة العثمانية .

والشكوى الرابعة : تأكيداً للشكوى الثالثة بأن البوكيرك لم يقم بواجب التفاهم مع خوجا عطار .

أما الشكوى الخامسة : فقد كانت اتهامات لأبوكيرك بأسر بعض التجار العرب والإيرانيين والدخول معهم في صفقات مالية مشبوهة .

وقد وصلت نسخة من شكوى الميادا إلى البوكيرك فقام هذا بإرسال جواب إلى الملك عن النقاط الخمس التي أثارها دي الميادا طالباً المثول معه أمام الملك لإجراء محاكمة علنية للثنتين .

أما فرانسيسكو دي الميادا فقد كان قد أكمل استعداداته لمنازلة الأسطول المصري المملوكي الموجود بقيادة الأمير حسين الكردي في ميناء (ديو) ، وتشكلت القوة البرتغالية من تسع عشرة مدمرة حربية على ظهرها (١٦٠٠) جندي وبحار منهم (٤٠٠) جندي هندي مالاباري ، وقد أبحر الأسطول ووصل أولاً إلى (انجديفا) ثم إلى (دابول) حيث وصلها في ٣٠ ديسمبر / كانون أول وهاجمها فور وصوله واحتلها ونهبها ثم أمر بحرقها ، وفي يوم ٥ / ١ / ١٥٠٩م غادر المدينة وكلما شاهد سفينة هندية في طريقه استوقفها ليحصل على معلومات عن قوة المسلمين ثم يحرقها إلى أن وصل إلى بلدة (ديو DTU) حيث مقر الأسطول المصري وبقيّة أساطيل الأمراء المسلمين ، وكان ذلك في ٢ / ٢ / ١٥٠٩م .

وفي مدينة (ديو) كان الأمير حسين الكردي قد اجتمع بمالك عزيز حاكم المدينة الهندي ، وكانت تقديرات البرتغاليين أن قوة المسلمين البحرية لا تقل عن مائتي سفينة ، لذلك قرر (الميادا) أن يهاجم في صباح اليوم التالي .

وفي حوالي الساعة التاسعة صباحاً تقدمت السفن البرتغالية نحو المدينة ، فخرج اليها الأمير حسين الكردي ومعه جملة الأسطول المصري المملوكي وحدث اشتباك بين الطرفين بالمدفعية استمر طيلة النهار ، ثم شاهد الميادا أن سفينة الأمير حسين قد اتجهت نحو الشاطئ وعلم بأن الأمير قد أصيب بجرح فأمر وحداته باستثمار الفوز ، وراح يهاجم بشدة وكلما استولى على سفينة مصرية نزح عنها علم السلطان قانصوه الغوري وعلم الأمير حسين وأمر بحرقها .

كان مالك عزيز قد بقي في مدينة (ديو) مع قطعاته لغرض الدفاع عنها إذا ما أصيب

الأسطول المصري بهزيمة ، فتوقف الميادا في مدخل الميناء وأجهز على بقية السفن الموجودة فيه ، ثم أرسل رسالة إلى مالك عزيز يخبره بأنه لا ينوي احتلال المدينة ، وأن الغاية من حملته هذه هي لتحطيم الأسطول المصري الذي قد تحطم الآن بالفعل ، وأنه يرغب بإعادة كافة الأسرى البرتغاليين الموجودين في المدينة ، فوافق مالك عزيز على ذلك وأطلق سراح الأسرى البرتغاليين وعاد الميادا إلى مقره منتصباً في بلدة كوشن في ٨/٣/١٥٠٩ م .

أما القائد المصري المملوكي الأمير حسين الكردي فقد هرب إلى جهة مجهولة ، وهرب كذلك البحارة المصريون الذين نجوا من القتل في المعركة إلى منطقة (بيجابور) وغيرها من مناطق الأمراء المسلمين حيث منحوهم الحماية ووعدوهم بإعادتهم إلى مصر .

وفي شهر صفر/ ربيع الأول وصلت أنباء انكسار الأمير حسين الكردي إلى القاهرة ، فزادت من مشاكل السلطان قانصوه الغوري ومتاعبه حيث كان يصد هجمات على سواحله الشمالية يقوم بها فرسان القديس يوحنا ، كما كان يواجه صعوبات اقتصادية جمة نتيجة للانحيار الاقتصادي الذي تعرضت له مصر بعد انهيار التجارة العربية - الهندية من جهة والتجارة المصرية مع حكومة البندقية وأوروبا من جهة أخرى^(٥) .

وصل الميادا إلى كوشن وقد امتلاً زهواً بانتصاره وقرر مقابلة البوكيرك الذي لم يخرج للقتال ، وإخباره بأنه قرر عدم التنازل له عن منصب نائب الملك ، وقد أدى العناد بين الطرفين إلى أن يصدر الميادا أمراً باعتقال البوكيرك ، كما أصدر البوكيرك أمراً مماثلاً ، باعتقال الميادا وأوشك الموقف في الهند أن يتأزم وأن يدور في غير صالح البرتغاليين ولم ينقذ الوضع هناك إلا وصول (فرناندو كوتينهو) من لشبونة وهو يحمل أمراً ملكياً بإعفاء دي الميادا من منصبه وتعيين أفونسو دي البوكيرك نائباً للملك هناك .

(٥) ابن لياس - المصدر نفسه ص ١٥٦ . وكذلك تحفة الجاهدين - ص ٤١ .

وفي يوم الأحد ٥ / ١١ / ١٥٠٩م أعلن البوكيرك نفسه ويشكل رسمي نائباً للملك دون مانويل وحمل لقب : (CAPTAIN - GENERAL AND GOVERNOR OF INDIA) .

وهكذا صعد هذا القائد الذي قارب السبعين من عمره ، ذو اللحية الحمراء الكثيفة التي تصل إلى معزومه تقريباً إلى هذا المنصب الذي طالما حلم به ، ليُشيدَ أركان الأبراطورية البرتغالية على مبادئ من القوة والدم والنار وقهر الشعوب ، وليحقق حلمه الذي داعبه كونه خليفة الاسكندر المقدوني فاتح الهند . فقام منذ أيامه الأولى بتدمير ما تبقى من الأسطول المصري ، وهاجم جيش الملك السامري في كاليكوت واشتبك معه في معركة كبيرة أسفرت عن مصرع (دون فرناندو كوتنهو) وهو موفد الملك الذي جاء بأمر تعيينه وأصيب البوكيرك بجرح في كتفه وانتهت المعركة بتدمير (كالي كوت) وحرق مساجدها . وفي عام ١٥١٠م انتقل إلى مقره الجديد وهو مدينة (گوا GOA) الهندية على ساحل (المالابار) جنوب الهند واتخذها عاصمة له .

وبذلك فقد أصبحت البرتغال في مقدمة الدول الاستعمارية في العالم ، وتقاسمت هي وإسبانيا العالم ، وعندما ثارت الخلافات بينهما تدخل البابا وقرر تقسيم العالم بينهما حسب معاهدة (TORDESILLAS) .

إلا أن الخلافات ثارت ثانية بين الأمتين الأوربيتين بسبب المنافسة على سواحل بلاد المغرب المطلة على المحيط الأطلسي وسواحله المطلة على البحر الأبيض المتوسط أيضاً ولم ينته النزاع بين الأمتين إلا بعد أن مزقوا المغرب العربي بينهم بالتوقيع على معاهدة (سنترأ SINTRA) عام ١٥٠٩م ، والتي وضعت حداً للنزاع والخلافات على أساس اقتسام مناطق النفوذ في المغرب العربي ، وهو الموضوع الذي ستطرق اليه في الفصل القادم .

الفصل الثامن عشر

- * المغرب على عهد السلطان محمد بن محمد الشيخ الوطاسي المعروف باسم محمد البرتغالي
- * معاهدة (سنترال - SINTRA) عام ١٥٠٩ لانتسار سواحل المغرب والجزائر.
- * تفاقم الوضع السياسي في المغرب وقيام نواة الحركة السعدية في بلاد السوس.
- * اوضاع اقتصادية وسياسية متردية تسود مصر.
- * مصر تنهيا لحملة عسكرية بحرية ثانية تذهب إلى الهند لقتال البرتغاليين.

قلنا في الفصل الرابع عشر إن عام ١٥٠٠ م شهد تولي السلطان محمد بن محمد الشيخ الوطاسي المعروف أيضاً باسم (محمد البرتغالي) و(محمد البرتغالي) كذلك عرش المغرب، وكانت العاصمة (فاس) آنذاك. فقد صعد هذا السلطان إلى سدة الحكم في مملكة تنهش سواحلها كل من اسبانيا والبرتغال، وتنهش جسمها خلافاً سياسية وانقسامات داخلية، وقد تميز حكم هذا السلطان في أيامه الأولى بمحاولات للغزو والجهاد ضد المحتلين خاصة ضد البرتغاليين، فقد ظهر وكأن البلاد مقبلة على عهد جديد، خصوصاً وقد حاول هذا السلطان الحصول على مساعدات من كل من سلطان مصر والسلطان العثماني وذلك لغرض توحيد القوى بين الملوك المسلمين، لكن هذه المحاولات فشلت. ومما زاد الأوضاع سوءاً في البلاد هو أن احتلال البرتغال والاسبان للثغور المغربية ساهم في خنق التجارة المغربية الخارجية والداخلية، إلا أن السلطان لم يتوان عن القيام ببعض أعمال الجهاد رغم الامكانيات القليلة الموجودة لديه^(١).

(١) د. عبدالكريم كريم - المصدر نفسه - ص ٤٨.

فكانت المدن والثغور البحرية التي سقطت بيد الأمتين الأوربيتين كما يلي :

الإسبان : احتلوا مدن (مليله) و(بنيون دي فليس) وتقعان على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وقد حاولوا في عام ١٥٠٥ إحتلال بلدة (ماسا) على المحيط الأطلسي ، كما حاولوا إحتلال (أغادير) أو (أكادير) في العام نفسه ، إلا أن البرتغاليين منعوهم من ذلك بل قاموا بتحريض السكان العرب لقتالهم ، ثم احتلوا مدينة (غصاصه) وبقيت (سانتا كروز) في الجنوب بأيديهم ، ولم يكتفوا بالمغرب بل قاموا في عام ١٥٠٥م بإحتلال مدينة (المرسى الكبير) الجزائرية ، كما قاموا في عام ١٥٠٩م بإحتلال مدينة (وهران) الجزائرية أيضاً ، فقد هاجمها القائد الاسباني (بدر ونفارو) المعروف باسم بطرس النصرى في ١٧ / ٥ / ١٥٠٩م وقتل فيها أربعة آلاف عربي وأسر ثمانية آلاف ، ثم احتلوا مدينة (بجاية) ويعدها (عنابا) وكلها في الجزائر .

أما البرتغاليون ، فكانوا قد احتلوا المدن والموانئ المغربية التالية :

سبته - القصر الصغير - طنجه - أصيلا - العرائش - المعمورة - أنفا - أزموور - مزكان - آسفي - كوز - قصر لوريال - أغادير - ماسا .

وهي مدن وموانئ تقع كلها على ساحل المحيط الأطلسي ، وبعضها تقع مقابل مضيق جبل طارق ، ولا يوجد للإسبان مواقع في أرض المغرب تطل على المحيط الأطلسي إلا مدن سلا وسانتا كروز .

ولم يظهر التقسيم أعلاه واضحاً إلا بعد أن وقَّعت الدولتان معاهدة (سنترا SINTRA) في شهر سبتمبر من عام ١٥٠٩م ، وهي المعاهدة التي أطلقت يد الإسبان في السواحل المغربية الواقعة بين (بادس غماره) حتى (غصاصه) و(مليله) ، مقابل اعترافهم بنفوذ البرتغال من (بادس غماره) حتى رأس (بوجادور) .

وقد جعلت هذه المعاهدة معظم سواحل المغرب الشمالية والغربية تخضع للأمتين الاستعماريتين اللتين تناهبتا العالم يومذاك .

وبالنسبة للبرتغاليين فقد كان يهتمهم بالدرجة الأولى إتمام فرض سيطرتهم على السواحل الغربية والجنوبية للمغرب العربي إذ أن السفن الذاهبة إلى الهند لا بد أن تمر بها ، علاوة على اتخاذها قواعد للانطلاق نحو المناطق الجنوبية الداخلية في بلاد المغرب ، ولهذا فقد توجهوا نحو بلاد (دكالة) و(الشيظما) وما جاورها ، بحيث تمكنوا هُـم والاسبان من وضع أياديهم على تجارة تلك البلدان واستفادوا من خيرات البلاد ببيعها الى بقية الدول الأوروبية .

ومن تلك المراكز أيضاً انطلقت القوات البرتغالية والاسبانية لتستحوذ على البوادي المجاورة ، خاصة حول مدن أسفي وأزمور داخل سهول عبده ودكالة الغنية بالحبوب والمتصلة تجارياً بفاس ومراكش . وكانت المستعمرات البرتغالية على الشواطئ المغربية عبارة عن حصون عسكرية ومراكز تجارية ، وقد أقام البرتغاليون في كل مركز وكالة يستقر بها وكيل وكاتب ، وقام الوكلاء بمهام تجارية وعسكرية بأن واحد ، فكانوا يقومون بتجنيد القوات لتقوية المستعمرات وجمع الذهب والفضة والحاصلات والمؤن لتموين تلك المراكز .

وجبى البرتغاليون الضرائب على محاصيل القمح والشعير والعسل والمواشي والنقود ، واختلفت المقادير المؤداة من قرية إلى أخرى ومن قبيلة لأخرى ، وكان مقدار ما يجبيه البرتغاليون من الضرائب في المنطقة الواقعة ما بين أسفي وأزمور يتجاوز (١٦٠٠٠) حمل جمل من الحبوب سنوياً مما كان يحرم قبائل المنطقة من المواد الأساسية لتغذيتهم ، وفرضت السلطات البرتغالية مكوساً على السلع الداخلة إلى المدن والأسواق التي تراقبها كما تهافت البرتغاليون على العبيد والأسرى وقنص الرجال الأفارقة انطلاقاً من الثغور المحتلة .

ويوضح نص تاريخي مغربي إحدى عمليات النهب البرتغالي في المغرب فيقول :
« انطلقوا ليلاً ليصبحوا بالقرب من أزور (قرية قرب أكادير) واختفوا بصفاف النهر في انتظار طلوع الشمس وخروج قطعان الماشية للرعي بالبادية المجاورة للقرية ، ثم

أسرعوا نحو الأبواب المفتوحة وقتلوا كثيراً من سكان القرية وسيطروا على كل ما فيها فأخذوا معهم كثيراً من الشبان والشابات ومن قطعان الماشية ومن البضائع على اختلاف أنواعها كالزراعي والأثواب المختلفة والأسلحة والخيول المسرجة وحيوانات الجر والبغال وغيرها من الحيوانات الأخرى ومن القمح والشعير والتمر واللوز وعدة أصناف من الفواكة وجدوا بعضها محملاً على ظهور الجمال ، وحول مساحة من الأرض يتسع شعاعها ستة أميال من أكادير ، ولم تبق قرية ولا دار ولا أي مسكن في أعلى الجبل أو أسفله إلا وتعرض للنهب أو تمت السيطرة عليه .^(٢)

كل ذلك زاد في ضعف البلاد ، وقوى الفتن الداخلية واضطربت الحياة الاقتصادية ، وعند بعض القبائل فقد هبطت المعنويات وراحوا يتعاونون مع البرتغاليين في سبيل الحصول على مكاسب وقد أرسل أهالي مدينة (أسفي) رسالة إلى الملك البرتغالي (مانويل الأول) يطلبون منه أن يعين عاملاً جديداً عليهم ويخبرونه بتعسف عامله وبما يقوم به الجنود البرتغاليون من فوضى وتخريب مما أضعف التجارة ، ويختمون رسالتهم بأن يطلبوا من الملك البرتغالي أن يولي عاملاً جديداً يستطيع أن يصلح ذات البين بين سكان أسفي والقبائل المحيطة بها لتزدهر البلاد .

أما أهالي مدينة (ماسه) فقد أرسلوا رسالة إلى الملك مانويل أيضاً مستهلة بالعبارة التالية : « يصل ليد السلطان العادل سلطان البرين وأقاليم الهندي دون مانويل . »

وبعد السلام يخبرونه بالسرور الذي اعتراههم عندما علموا أن الملك البرتغالي سيقم ببلدهم حامية برتغالية ويذكرونه بتفانيهم في طاعته ، ثم يوجهون انتباه الملك البرتغالي إلى أن سفنهم التجارية تتعرض للنهب في البحر مما جعل الناس يضحكون عليهم مع أنهم تحت حماية التاج البرتغالي ويرجونه النظر في أمرهم وأن يرد إليهم حقوقهم التي نُهبَت وأن يأمر البرتغاليين بالكف عن أذيتهم^(٣) .

(٢) تاريخ العصر الحديث - الاحتلال الأجنبي للثغور المغربية - من مطبوعات وزارة التربية الوطنية - المملكة المغربية ص ٩٤ .

(٣) د . عبدالكريم كريم - المصدر نفسه - ص ١٥٠ .

إذن فالوضع السياسية في المغرب قد ضعفت جداً وصار السلطان محمد (البرتغالي) الوطاسي لا يكاد يسيطر إلا بصعوبة على البلاد ، بل إن السلطة الوطاسية لم تكن موجودة بصورة رسمية إلا في القسم الشمالي من البلاد المعروف وقتئذ باسم (مملكة فاس) الممتدة من نهر أم الربيع إلى طنجة ، فانتشرت الفوضى وتجزأ المغرب إلى وحدات سياسية شبه مستقلة ، ولكن شعور الأمة بضرورة الجهاد والقتال ضد البرتغاليين ، دفعت بالملتصين من الدعاة والأئمة على حث الناس وبذل النفس والنفيس للدفاع عن الوطن وإعلاء كلمة الاسلام ، وفي هذا الصدد نورد هنا قصيدة للشيخ محمد بن عبدالرحمن بن يجيش التازي يحرض الناس على قتال البرتغاليين ويصف الأوضاع السياسية هناك قائلاً :

ولم أستطع صبراً وكيف يصح لي	وقد هُتِكت من ديننا كل حُرمة
وشاركنا الأعداء في قطر غربنا	وقد أخذوا جل البلاد البهية
وقد أرعبت تلك السواحل منهم	وصاروا يؤدون الخراج كجزية
فقصة أصيلا عرفتهم جميعاً	وما فعل الأعداء من شر غدره
وأضحت على الاسلام تبكي رسومها	كذي سكن صار في أرض غربة
مساجدها تبكي على فقد أهلها	كأن لم يكن فيها مُرددُ سورة
مجالس أهل العلم يا صاح بُدلت	بتلبيس رهبان وكلام الأقبية
فلو أبصرت عيناك حال خروجهم	بكيت الدما من بعد إنقاذ عبدة
فكيف يطيب العيش بعد لعاقلي	وكيف تلذ النفس بعد لشهوة

وقال الشيخ الإمام الهبطي في أرجوزة:

إن الجهاد أكبر المعين عليه تنبني أمور الدين
كانت تباع النفس دون ريب بلذة عظيمة في القلب^(٤)

لقد كان للدفع الديني الإسلامي وتشكيل الزوايا الدينية خاصة الزوايا الشاذلية والزوايا الجزولية تأثير عظيم على دفع الناس للجهاد ضد البرتغاليين ، فهذه الزوايا الدينية راحت تدعو إلى اصلاح مزدوج للدين والدنيا ما دام الحكم الوطاسي في فاس غير قادر على الدفاع عن الثغور بل وحتى التحالف مع الأعداء ، كما سنرى ذلك في فصول لاحقه ، وكان نواة أهم حركة سياسية دينية دعت إلى الخروج على حكم الوطاسيين هي حركة (السعديين) التي ظهرت في إقليم (السوس) في جنوب البلاد المغربية ، وهو الأقليم الذي كان أكثر أقاليم البلاد تعرضاً للحملة البرتغالية والاسبانية المتتالية والتي انتهت إلى إقامة مراكز نفوذ واحتلال هناك .

فقد أثارت تلك الحملات رد فعل قوي عند أهالي السوس ، خاصة إذا عرفنا أن بلاد السوس كانت المقر الأول للطريقة (الجزولية) التي عمت شهرتها كل بلاد المغرب . لذلك فقد أجمع شيوخ الزوايا وشيوخ القبائل السوسية على ضرورة مبايعة إمام وشيخ ليقوم بأمرها فقاموا بمبايعة الإمام الشيخ محمد بن مبارك فشكّلوا وفدًا ذهب إلى بلاد (أقا) حيث يوجد الشيخ محمد بن مبارك وبايعوه ليقوم بأعمال الجهاد ، إلا أن الشيخ اعتذر عن ذلك ودلهم على زعيم آخر هو المولى محمد بن عبدالرحمن أحد أشرف (تاكما دارات) ببلاد (درعد) المشهور بالتقوى وأعمال الجهاد والمراعاة ، وقام الشيخ محمد بن مبارك بمقابلة الشيخ محمد بن عبدالرحمن ، فلبى محمد بن عبدالرحمن دعوة الوفد واستجاب لرغبتهم ، ودعا إلى اجتماع عام في قرية (تدسي) حيث ألقى هناك خطبة بلسان البربر استعرض فيها أوضاع البلاد وما آل إليه أمر الناس ، ثم تحدث عن المهام التي يجب عليه أن يقوم بها في الداخل والخارج وقال إنه سيعمل على إصلاح القطر وإنصاف المظلوم وقبض واجب الزكاة والعشور ، والذي

(٤) د. عبدالكريم كريمة - المصدر نفسه - ص ٢٨ .

يفضل أن يصرفه على الجهاد . وتذكر مخطوطة قديمة ما يلي :

« لما بايعه الناس من أهل السوس ورأى قلّة ما بيده مع أن المُلْك لا يقوم إلا بالمال ، احتال بأن أمر أهل السوس أن يأتوه ببيضة لكل واحد . فاجتمع منه من ذلك البيض آلاف لا تحصى لأن الناس استهونوا أمر البيضة ، فلما اجتمع عنده البيض أمر أن كُل من أتى بيضة ، يأتي بدلها درهماً ، ففعلوا فاجتمع له من ذلك مال وفير فأصلح به شأنه وقوى به جيشه .»^(٥)

كما اشترط على أن تقوم كل قبيلة من القبائل التي ارتضت بيعته بتقديم عشرة رجال من رجالها مجهزين بكامل السلاح والعتاد لعلمه بأن الأمر لا يتطلب البيعة وجمع المال فقط ، فاجتمع له خمسمائة مقاتل شكل بهم نواة الجيش .

ثم أطلق على نفسه اسم (محمد القائم بأمر الله) ، ويعرف أيضاً باسم (أبو عبد الله القائم) ، إلا أنه لم يعلن نفسه ملكاً بل أعلن البيعة لولده المولى أحمد ، فصار أحمد هذا يُعرف بملك السوس ويُلقَّبُ أيضاً (أحمد الأعرج) . وهكذا اقتسم الوالد مع ولده السلطتين السياسية والدينية ، فصار الوالد المرشد والقائد الروحي للدولة (القائم بأمر الله) وصار ابنه (ملك السوس أحمد الأعرج) المسؤول الذي يقوم بعمليات الجهاد ضد الغزاة .

وهنا يجب أن نذكر أن المؤرخين اختلفوا في ذكر أي الزعامتين كانت أكثر فعالية ، الوالد أم ابنه . إلا أن المهم هو أن هذه الاحداث تمت خلال الأشهر الأخيرة من عام ١٥١٠م وهي السنة التي يجب اتخاذها البداية العملية لتأسيس الدولة السعدية في المغرب .

أما لقب (السعدي) فقد ظهر مؤخراً لأنهم كانوا يُعرفون بالشرفاء والشرفاء السعديون أيضاً ، لأن المغاربة (سعدوا) في عهدهم وأصبحوا ينعمون بالأمن والاطمئنان . علماً بأن محمد بن عبد الرحمن القائم بأمر الله ينتهي نسبه إلى محمد

(٥) تاريخ العصر الحديث - المصدر نفسه - ص ١٠٥ .

(النفس الزكية) بن عبدالله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم جميعاً . وهكذا شهد عام ١٥١٠م انقسام المغرب إلى مملكتين كبيرتين هما :

الأولى : مملكة فاس في الشمال ويحكمها السلطان محمد بن محمد الشيخ الوطاسي الملقب بالبرتغالي وعاصمته فاس ، وهي المملكة التي كانت تمثل السيادة الرسمية في البلاد .

والثانية : مملكة السوس في الجنوب ويحكمها القائم بالله وولده ملك السوس أحمد الملقب أحمد الأعرج .

وبين المملكتين توجد مملكة صغيرة هي مملكة مراكش حيث استولى عليها أمراء (هناته) وكان ملكهم مولاي الناصر أبو علي الهناتي يخضع عملياً لسلطان فاس .

وهناك أيضاً إمارة صغيرة تسمى إمارة (دبدوب) في شرق المغرب ، كان قد التجأ إليها أمير من بقايا دولة بني مرين هو محمد بن أحمد ، وظل حكام المدينة يعرفون باسم (ملوك بني مرين) إلا أنهم كانوا ضعفاء ، إذ تمكنت الدولة السعدية من القضاء عليهم عندما قضت على الدولة الوطاسية فيما بعد^(٦) .

هكذا كان أمر المغرب العربي ، عندما كانت البرتغال تقف في الصف الأول كأعظم امبراطورية في العالم يمتد ملكها من البرازيل في أمريكا إلى أفريقيا ثم آسيا حيث يقف عند حدود الصين تقريباً .

إلا أن نعمة الصبر التي وهبها الله إلى الأفراد والأمم والشعوب ونعمة الإيمان به ، أوجدت في عام ١٥١٠م بوادر قيام الدولة السعدية في المغرب ، وهي الدولة التي سيقدر لها أن تقوم بأخطر دور في تاريخ العالم آنذاك ، إذ ستصطدم بدولة البرتغال العظمى وتقتل ملكها وتسحق جيشها ودولتها وتسقطها من مقام دولة مُستعمرة إلى مقام دولة مُستعمرة ، أي من السيادة إلى العبودية ، كما سنرى ذلك في تفصيلات

(٦) د . عبد الكريم كريم - المصدر نفسه - ص ٣٣ .

* * *

والآن نعود إلى مصر لنرى ماذا كان موقف السلطان قانصوه الغوري بعد هزيمة القائد حسين الكردي في معركة (ديو DIO) عام ١٥٠٩ م .

لقد هزت تلك الهزيمة السلطان المصري فقد رأى أن احتياطه من الأموال والسلاح يتناقص بالتدريج ، في الوقت الذي تزداد فيه قوة البرتغاليين في الهند وتتسع أملاكهم وتنشط تجارتهم ، لذلك لم ير أمامه وسيلة إلا التقدم بطلب العون العسكري من الدول الإسلامية مثل تركيا وإيران . ويورد لنا ابن إياس في مصدره^(٧) أن السلطان الغوري أوفد موفداً إلى حكام الإمارات الإسلامية في الهند هو (الطواشي بشير) يخبرهم بوجوب الصمود بوجه البرتغاليين وكذلك يطلب من الأمير (تمرباي) أمير الأسطول الهندي القيام بمقابلة الشاه اسماعيل الصفوي ، شاه إيران لوضع خطة التعاون ضد البرتغاليين . إلا أنه لا يوجد لدينا خبر عن المفاوضات التي جرت بين تمرباي والشاه الإيراني وفي الأغلب أنها كانت فاشلة ، حيث إن الشاه كان متجهاً للتعاون مع البرتغاليين الذين يحتلون جزءاً من مملكته في الجنوب ، مقابل معاونتهم له في قتاله ضد خصمه العنيد الدولة العثمانية في تركيا .

أما بالنسبة إلى طلب السلطان المصري العون العسكري من الدولة العثمانية فقد كان أقرب إلى المعقول وإلى التنفيذ ، خاصة وأن السلطان العثماني يومذاك وهو (بايزيد الثاني ١٤٨١-١٥١٢) كان منهمكاً في قتال الاسبان في شمال أفريقيا ، ومهاجمة قواعدهم على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وهو الواجب الذي كان يقوم به أمير البحر التركي الشهير خير الدين بارباروس ، كما أن السلطان العثماني كان يعتبر نفسه حامياً للأماكن الإسلامية المقدسة التي أصبح التواجد البرتغالي في البحر الأحمر يهددها الآن ، لذلك فقد وافق على مساعدة مصر ، فأوفد لها ثلاثمائة مدفع وأربعين

(٧) ابن إياس - المصدر نفسه - ص ١٨٤ .

قنطار بارود وثلاثين ألف سهم ، ونحاس وحديد وحبال ومراسي ، كما أرسل لها عدداً من البحارة العثمانيين لتدريب الأسطول المملوكي وإعادة تنظيمه^(٨) . وفي الوقت نفسه قبض السلطان على عدد كبير من تجار البندقية وأرسلهم إلى سجون القاهرة وأوصى الحراس بأن يوحوا إليهم بأن حريتهم مرهونة بدعوة جمهوريتهم لمساعدة السلطان حربياً في الهند ، ولما بلغ البندقية ما حدث أرسلت تبدي استعدادها لمعاونة السلطان حربياً ، بل واستعدادها لمد الهنود بالسلاح لطرد البرتغاليين ، لكن موقفها الحرج في العالم المسيحي منعها من تقديم هذه المعونة سرّاً أو علناً^(٩) . وفي أثناء ذلك حدث ما لم يكن في الحسبان ، فقد وصلت إلى الاسكندرية خمس سفن فرنسية محملة بأثواب الحرير والصوف والسلع الأوربية الأخرى ، وبعد أن انتهى التجار من بيع ما معهم من سلع ، شحنوها بالسلع المصرية لغرض بيعها في أسواق أوروبا إلا أن السفن وقعت في كمين نصبه لها فرسان القديس يوحنا في رودس وأسروها ، وكان من جملة ما غنمه الفرسان أربعين ألف (فوكات) بضاعة مصرية . ولما بلغ السلطان المصري ذلك ، اعتقد أن قباطنة السفن الفرنسية دبروا هذه المؤامرة ، فأمر باللقاء القبض على جميع رعايا فرنسا ووضعهم في سجون القاهرة ، وفي ثورة غضبه اعتقل (فليب دي بترائس) قنصل فرنسا ، كما اعتقل ترجمانه الخاص (تغري بردي) متهماً إياه بالتعاون مع الأعداء في البحر الأبيض المتوسط^(١٠) .

ولم يكد يفرغ من تلك الإجراءات حتى وقع بكارثة أشد وأنكى ذلك أنه كان قد بعث إلى ميناء الإسكندرونه ثمانية عشر سفينة بقيادة الأمير محمد بك لكي تجلب أخشاباً من هناك لبناء أسطول بحري جديد إلا أن سفن الفرسان رصدتها ثم أحاطت بها ودارت بين الطرفين معركة في ١٠/ أغسطس/ ١٥١٠م - ١٤/ ربيع أول/ ٩١٦هـ انتهت بمصرع الأمير محمد بك وغرق عدة سفن وأسر بعضها وتاهت بعضها في البحر ولم تصل إلى الاسكندرية إلا ست سفن خاوية . وكانت هذه الكارثة تفوق طاقة

(٨) ابن إياس - المصدر والصفحة نفسها .

(٩) د . نعيم زكي فهمي - المصدر نفسه - ص ٩٢ .

(١٠) د . نعيم زكي فهمي - المصدر نفسه - ص ٩٣ .

سلطان مصر ، فأمر بإلقاء القبض على رهبان كنيسة القيامة وجلبهم مخفوريين وقال لهم : « اكتبوا إلى ملوك الافرنج أن يردوا ما أخذوا من المراكب ، وإن لم يردوا ذلك فسأهدم كنيسة القيامة وأشنق الرهبان»^(١١) .

وقام كذلك بالتحفظ على جميع السفن الأجنبية في موانئ مصر والشام واعتقل عدداً من التجار الأجانب الذين كان يعتقد أن لهم ضلعاً في نقل المعلومات والتجسس على مصر .

وقد حاول بعد ذلك وبكل الوسائل الدبلوماسية والسياسية أن يوقف مصر على رجليها ثانية في الأوساط المالية والسياسية والاقتصادية ، وذلك ببناء علاقات جديدة مع فرنسا ، وإعادة تنظيم علاقاته مع جمهورية البندقية ، وتشجيع التجار الأوربيين لارتياح أسواق القاهرة والشام ، وكذلك محاولته التفاهم مع فرسان القديس يوحنا في رودس ، إلا أن كل تلك الأمور لم توقف التدهور الذي كانت مصر قد وقعت فيه نتيجة للحصار العسكري الذي فرضه عليها البرتغاليون في الهند وفي باب المندب ، والحصار الذي فرضه عليها فرسان رودس في البحر الأبيض المتوسط ، وانصراف جمهورية البندقية كلياً عنها ، إذ أنها راحت في تلك الأيام تفاوض شاه إيران ، لإحياء الطريق البحري الذي يمر عبر الخليج العربي إلى البحر الأبيض المتوسط ، لذا لم يبق أمام حاكم مصر من وسيلة إلا الحرب ، وتدمير القوات البرتغالية الموجودة في الهند ، وإعادة الوضع على ما كان عليه سابقاً ، فقام بالإعداد لحملة بحرية عسكرية ثانية كي تذهب إلى الهند وتنتهي البرتغاليين حيثما تجدهم .

(١١) د . نعيم زكي فهمي - المصدر نفسه - ص ٩٤ ، وكذلك إين إياس - المصدر نفسه - ص ١٨٥ .

الفصل التاسع عشر

- * قوة مصرية تظهر فجأة وتحتل مدينة (گوا) .
- * القوة المصرية تحاصر البوكيرك لمدة عشرة شهور تقريباً .
- * انهيار القوة المصرية وهروب قائدها .
- * البوكيرك يدخل (گوا) ثانية في ١٥١٠/١١/٢٥ ويرتكب مجزرة بحق المسلمين .
- * البوكيرك ينهي حملة كبرى لاحتلال عدن والحجاز وتدمير مصر .

قلنا في فصل سابق إن أفونسو دي البوكيرك قد أصبح نائباً لملك البرتغال في الهند يوم ١٥٠٩/١١/٥ م ، واتخذ من مدينة (گوا GOA) عاصمة له ، كما قام بتدمير مدينة (كاليكوت) الهندية وأزالها من الوجود تقريباً ، وقد أصيب بجرح خلال تلك المعارك وما أن شُفي منه حتى راح يضع الخطط للدخول إلى البحر الأحمر وقاتل العرب والمسلمين هناك ، ذلك أنه وفي أثناء انشغاله في معاركه في الهند ، وصلتته أنباء عن حدوث اضطرابات في سقطرة وسواحل الخليج العربي لم تذكر عنها المصادر العربية شيئاً ، وقد جاء في المصادر البرتغالية أن ضابطاً اسمه (فاسكو دي سلفيرا) يشغل منصب قائد قاعدة سقطرة واجه موقفاً عصيباً خلال معاركه ضد السفن المصرية واليمانية فأرسل يطلب نجدة من البرتغال . وفي البرتغال طلبوا منه أن يطلب النجدة من (ديورات دي ليموس) القائد البرتغالي المسؤول عن الساحل العربي ، إلا أن (دي ليموس) لم يستطع أن ينجده كما لم يتمكن البوكيرك من نجده أيضاً لانشغاله في حرب (كالي كوت) . ولكن حالما انتهت تلك الحرب فإن البوكيرك أرسل إلى دي

وفيما هم كذلك وصلت معلوماتٌ جديدةٌ أن جيشاً هندياً كبيراً قد وصل إلى المدينة لنجدة (عادل خان) ، فأمر البوكيرك بجلب الأسرى المسلمين فكانوا مائة وخمسين أسيراً وأمر بضرب أعناقهم ، فقتلوا جميعاً ، ثم أمر وحداته بالانسحاب نحو السفن فتحرکوا يوم ٢٠ / ٥ / ١٥١٠ م .

إلا أن الانسحاب لم يتم فقد اكتشف البوكيرك أن طريق الخروج من الميناء إلى البحر ، قد تم سدّه بواسطة الحجارة الضخمة التي تمكن المسلمون من نقلها إلى هناك في الليل عند انشغال الوحدات بالقتال ، ولما اعترض ضباط البوكيرك على استحالة تمكنهم من الخروج ، سخر منهم ، وأمر السفينة (سانت جوا) أن ترفع أشرعتها وتتطلق بأقصى سرعتها خارج الميناء ، فلما فعلت السفينة ذلك ارتطمت بالصخور وتحطمت شر تحطيم ، لكن البرتغاليين تمكنوا من إنقاذ طاقمها ومدافعها ، لذلك فقد أصبح البوكيرك الآن مطوقاً بجيوش المسلمين من البر والبحارة من البحر .

ثم قام بمحاولة أخرى للخروج إلى البحر ، فأمر سرية من سراياه أودع قيادتها إلى الضابط (انطونيو نوروها) أن يبحروا على زوارق صغيرة ليتمكنوا من الخروج ، إلا أن أسطول عادل خان تصدى لتلك القوة وجرت معركة بين الاثنين انتهت بمقتل (نوروها) وانسحاب البرتغاليين إلى السفن ثانية .

ولما طال الحصار ظهر الضجر على الجنود والضباط البرتغاليين ثانية ، واكتشف البوكيرك أن أحد رجاله المسمى (راي دياز) كان على اتصال بالمسلمين ، فأمر بإعدامه على سارية السفينة (فلور دي روسا) ، ولم يبق أمامه حل إلا القيام بهجوم أرضي ثانٍ على (گوا) .

ولغرض التنفيذ أمر سفنه بالوصول إلى قرب مصب النهر الذي يغذي المدينة بالماء ، وهناك لاحظوا أن المصريين قد أقاموا ستائر ترابية وخنادق أخفوا فيها مدافعهم ، فقرر البوكيرك أن يهاجم من تلك المنطقة ، وراح في الوقت نفسه يحرض الأمير الهندي (تيموجا) أن يحشد جيشه برأ .

ولم يتمكن البوكيرك من الهجوم إلا في ٢٥ / ١١ / ١٥١٠ م ، بعد أن وضع خطة عسكرية محكمة وجرت معركة حامية الوطيس بين الطرفين ، كانت نتيجتها في صالح البرتغاليين ، إذ تشتت شمل الجيوش الإسلامية وهرب (عادل خان) ومعه القائد المصري أيضاً .

دخل البوكيرك المدينة فأمر بنهبها أولاً ، ثم جاء بالنساء المسلمات والأولاد المسلمين فأمر بقطع رقابهم جميعاً حيث قرر أن يقطع نسل المسلمين وجيلهم من الهند كلها ، ثم جاء بالرجال المسلمين من الهنود وأمر بوضعهم في مسجد المدينة ثم قام بحرقهم أحياء هناك وحرق المسجد معهم .

وفي يوم ٢٢ / ١٢ / ١٥١٠ م بعث برسالة إلى ملك البرتغال قال فيها : « إن سقوط (كوا) يعتبر انتصاراً كبيراً للبرتغال وإن سفن البرتغال التي كانت محاصرة في (كنانور) قد أفرج عنها وهي الآن في طريقها إلى البرتغال محملة بالتوابل ، وإنه قد تم قتل ثلاثمائة من المصريين في المعركة ، وإن ستة آلاف مسلم هندي قد تم القضاء عليهم ، كما أن أسطولاً كاملاً قد تم القضاء عليه وأسرته ، أما النساء المسلمات الهنديات فقد وزعهن على جنوده إذا رغب أحدهم بالزواج من واحدة منهن ، وأنه بعث إليه بنماذج من المدافع المصرية ، والخيول العربية ، وأن (كوا) سيعاد بناؤها لتكون العاصمة البرتغالية في الهند . »

شكّل سقوط (كوا) انهياراً عاماً في معنويات حكام الهند على الساحل الغربي فاستسلم معظم الحكام والملوك المسلمين هناك ، كما قام البوكيرك بإرسال سفن مسلحة وعتاد إلى القاعدة العسكرية في سقطرة ، كما أرسل سفناً إلى هرمز للحصول على الضريبة والأتاوة التي فرضها على (خوجا عطار) هناك .

وفي (كوا) أقام احتفالاً بمناسبة النصر وذلك بأن جلب الهنود غير المسلمين الذين كانوا يتعاونون مع المسلمين أثناء الحصار ، وأمر بختانهم بصورة علنية باعتبارهم مسلمين وجرى ذلك وسط جو من السخرية والضحك ، ثم وراح يعد العدة لاحتلال

مدينة (ملقا) في الملايو ، حيث علم أن تجارها يتبادلون السلع مع التجار العرب والمسلمين .

وقد تم لأبوكيرك احتلال (ملقا) ، إلا أنه وقع حادث لم يكن في حسبانته ، ذلك أن (عادل خان) حاكم (گوا) حصل على معونة عسكرية جيدة من (بولاد خان) وتمكن من مهاجمة (گوا) وأنزل هزيمة بالقائد البرتغالي (رودريكو رابيلو) وتمكنت قواته من احتلال ضواحي المدينة فأقفل البوكيرك عائداً ووصل إلى (كوشن) والتقى بأسطول برتغالي كان قد وصل حديثاً من البرتغال بقيادة القائدين (كارسيا دي نورونها) و(جورجي ديميلو) ، كما وجد أن المدينة غارقة بالإشاعات عن الاستعدادات الكبيرة التي يقوم بها سلطان مصر لإرسال حملة بحرية عسكرية أخرى لقتال البرتغاليين في الهند ، بل لقد بلغ الأمر أنه استلم معلومات أن الاسطول المصري قد وصل بالفعل إلى المياه الإقليمية في الهند فتحرك يوم ١٠ / ٩ / ١٥١٢م وخرج على رأس القوة الجديدة بجوب بحر الهند ، ولكنه اكتشف أن الأمر كان مجرد إشاعه وأنه لا يوجد أثر للمصريين .^(٢)

لذلك فقد توجه بكل السفن الموجودة لديه نحو (گوا) وحطم القوة التي احتلت ضواحيها ودخلها فاتحاً للمرة الثانية ، وراح يعد العدة للقيام بحملة بحرية يحتل فيها عدن والبحر الأحمر وكتب رسالة إلى ملك البرتغال بتاريخ ٣٠ / ١٠ / ١٥١٢م جاء فيها :

« إنه قد وصلته معلومات من عدن أن سلطان مصر يرسل حاكم عدن لغرض منحه قاعدة بحرية هناك يستخدمها لمهاجمة السفن البرتغالية ، وإن هذه المعلومات وصلت إليه من ثلاثة يهود وصلوا توأ إلى (گوا) من القاهرة كما أن سلطان مصر استلم مساعدات مالية وعدداً كبيراً من السهام والأقواس ، وإن الشعار السائد الآن في

(٢) DANVERS - المصدر نفسه - والكلام مترجم بالتفصيل عن الفصل السابع ، وأهمية هذا الفصل أن معارك بقية القوة المصرية التي اعتقد المؤرخون المصريون أنها أليدت عام ١٥٠٩ ، عادت فظهرت في هذا الفصل وقايلت بالبسالة التي ذكرناها وانتهت باستشهاد كل رجالها ما عدا القائد الذي من المحتمل أن يكون الأمير حسين الكردي نفسه .

القاهرة هو أن هذه السهام ستقتل البوكيرك وسيرسل السلطان معها (حنوط) لتحنيط جثته ، لذلك فإنه يرى ضرورة القيام فوراً باحتلال مضيق باب المندب .

وفي الرسالة الجوابية التي أرسلها الملك إليه ، لم يبين موافقته الفورية على الحملة ، إلا أنه أخبره أن معلومات قد وصلت إليه أيضاً تفيد أن المصريين لازالوا يتاجرون مع الهند وأنهم يستخدمون القوارب الصغيرة التي تدفع بالمجادف لنقل البضائع من الهند إلى مصر .

وعندما كان البوكيرك يتهيأ لحملة البحر الأحمر كما صار اسمها حينذاك وصل الى مدينة (دابول) الهندية السفير (ماتيسوس) ، وهو سفير حبشي أرسلته الأمبراطورة الحبشية (هيلينا) مع رسالة ليقدمها إلى الملك مانويل ملك البرتغال ، وعندما قابله البوكيرك في (گوا) أطلععه السفير على الرسالة التي تريدها الملكة الحبشية أن تصل إلى ملك البرتغال ، كما نقل له رسالة شفوية من الملكة تفيد بأن الحبشة مستعدة لتقديم المعونات العسكرية اللازمة لتهديم بيت مكة (يقصد الكعبة المشرفة) وتخطيم قوات سلطان مصر ، وأن موانئ بلادها مفتوحة لاستخدام الأسطول البرتغالي دائماً ، ثم قدم له الموفد قطعة خشبية قال إنها مأخوذة من خشبة الصليب الأصلي الذي صُلب عليه المسيح وقال إنها هدية إلى ملك البرتغال .

ثم غادر (ماتيسوس) الهند وذهب إلى البرتغال ، فاستقبله الملك هناك استقبال السفراء وأجرى مباحثات معه وعندما غادر البلاد رافقه (رودريكو دي ليما) سفيراً للبرتغال في الحبشة ، بينما عاد ماتيسوس إلى الهند حيث بقي فيها .

وفي آخر رسالة بعثها البوكيرك إلى ملك البرتغال قال فيها :

« إن أكبر الشرور التي تواجهها (گوا) هي الأراجيف والإشاعات المستمرة التي يطلقها الهنود ، بأن الاثراك قادمون ، وإن هذه الإشاعات تسبب قلقاً واضطراباً هنا ، لذلك فإنني التمس موافقة جلالتك ، أن أذهب إلى البحر الأحمر ، لنؤكد لهؤلاء

الناس عدم وجود مخلوقات اسمها روم .^(٣)

وبعد ذلك لم يبق أمام البوكيرك إلا أن يضع الخطط النهائية لحملة الكبرى الثانية ضد البلاد العربية لاحتلال عدن والحجاز ومصر ، خاصة بعد المعلومات التي وصلت إليه عن التعاون الجديد بين سلطان مصر قانصوه الغوري وملك اليمن عامر بن عبد الوهاب وهو التعاون الذي أشار إليه المؤرخون اليمنيون باقتضاب في حوادث عام ٩١٦ هـ عندما أرسل سلطان مصر وفداً برئاسة زين الدين المحتسب والطواشي بشير إلى اليمن فأجرى ملك اليمن استقبالات فخمة لهم وطاف بهم في جميع البلاد^(٤) .

(٣) المقصود بكلمة (روم) هنا أي الأتراك ، ويقصد البوكيرك بهذه اللفظة حكومة المماليك الأتراك التي كانت تحكم مصر آنذاك بزعامة السلطان

الملوكي قانصوه الغوري .

(٤) عبد الرحمن بن علي الديبع - الفضل الزيد على بغية المستفيد - تحقيق يوسف شلحد - ص ٣٢٢ .

الفصل العشرون

- * خطة جهنمية يضعها البوكيرك للسيطرة على العالم الاسلامي .
- * حملة برتغالية لاحتلال عدن والحجاز .
- * أمير عدن مرجان الظافري ينزل هزيمة بالبوكيرك .
- * البوكيرك يتوجه إلى الحجاز لتنفيذ غرضه الخبيث بمهاجمة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم .
- * البوكيرك يهلك في شهر ديسمبر ١٥١٥ .
- * دون لوبو سوريز يصبح نائباً للملك في الهند .

تفتق ذهن أفونسو دي البوكيرك عن خطة جهنمية ينفذ فيها غرضه الخبيث في السيطرة على العالم الإسلامي وذلك بعد السيطرة على عدن ، بأن يدخل بسفنه إلى البحر الأحمر وينزل في ميناء (يَنْبُع) ثم يشُن غارة بفرسانه المدرعين على المدينة المنورة ويدخل إلى الحرم الشريف ويقوم بنش الرفات الطاهر للرسول صلى الله عليه وسلم ونهب ترابه والعودة به إلى السفن ، فإذا تم له هذا قايضه بكنيسة القيامة بالقدس ثم يدعو مليون متطوع أوربي ليأتوا إلى الحبشة . وهناك ومن منابع نهر النيل يقومون بتحويل مجرى النهر ليصب في البحر الأحمر وبذلك تموت مصر والسودان عطشاً وجوعاً^(١) .

وقبل أن يقوم البوكيرك بتحركه نحو هدفه قام بتعيين (بيرو ماسكارينا) حاكماً

(١) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٢٧١ .

(لڳوا) ونائباً عنه وعيّن (جورجي دي البوكيرك) حاكماً (لكوشن) . أما الحملة فقد تكونت من عشرين سفينة حربية ، وكان أمراء وقادة الوحدات والسفن كل من :

كارسيا دي نورونها ، بيرو دي البوكيرك ، لوبوفازي دي سامبوي ، كارسيا دي سوزا ، جوافيدالكو ، جورج دي سلفيرا ، جوا دي ليما ، مانويل دي لاكاردا ، ديبكو فرنادس دي بيجا ، سيمو دي أندريا ، آيرس دي سلفا ، دورات دي ميلو ، كونزالا بيريرا ، فيرنا كومز دي ليموس ، بيرو دي كاسترو ، روي كاتوفا ، جيرونيمو دي سوزا ، سيمو فالهو ، انطونيواربوسو ، جوا كومز .

وقد بلغ تعداد القوة (١٧٠٠) جندي برتغالي و(٨٣٠) جندي هندي مالاباري وكوشيني .

وقبل أن يتحرك الأسطول اجتمع البوكيرك بالقادة وأخبرهم بأن الهدف الأول سيكون احتلال (عدن) ، وبعدها يتم تنفيذ بقية الخطط بالتتابع ، ثم أصدر أوامره بالحركة أولاً إلى الرأس الأفريقي في الصومال . وفي يوم ٨/٢/١٥١٣م أطلع الأسطول البرتغالي متجهاً نحو بلاد العرب ، وقد فرض البوكيرك الكتمان والسرية التامة لحركته حتى أنه أمر بإيقاف حركة السفن التجارية ، لكي لا ينكشف أمر حركة الأسطول ويفقد عنصر المباغته .

وصل الأسطول إلى القرن الأفريقي ، وبعد أن تزود بالماء والطعام اتجه نحو جزيرة سقطره واستقبله سكانها المسيحيون ، فقدم لهم هدايا ، ثم أمر وحدة من وحداته أن تدخل المدينة وتهدم بيوت العرب فيها ، وقد صادفته رياح شديدة أخرت حركته بضعة أيام ، وأخيراً غادر سقطره ، ووصل إلى عدن مساء يوم ٢٤/٣/١٥١٣م ، حيث ألقت سفنه مراسيها خارج الميناء .

كان أهل عدن قد علموا بوصول الأسطول البرتغالي ، إذ تذكر المصادر اليمانية أن أهل وادي (أبيسن) وهو وادٍ يقع إلى الشرق من عدن على ساحل البحر العربي

شاهدوا الأسطول البرتغالي فهالهم المنظر وعلموا أن البرتغاليين سيهاجمون عدن فجهازوا زورقاً سريعاً أوفدوا فيه جماعة من عندهم تمكنوا من الوصول إلى عدن في منتصف الليل ، وتوجهوا إلى الأمير مرجان الظافري حاكم المدينة وأخبروه بأمر القوة البرتغالية المتوجهة إليه ، وقال هؤلاء المؤرخون إن ذلك كان بتاريخ ١٦ / محرم / ٩١٩ هـ^(٢) .

وعندما علم الناس بذلك ساد الفزع والاضطراب في المدينة وهرع ربانة السفن يلتمسون من الأمير أن يسمح لهم بإفراغ حمولة سفنهم والهرب من عدن ، لكن الأمير منعهم من ذلك ، وكانت خطته الإبقاء على السفن التجارية راسية في الميناء لتشكل حاجزاً يعيق تقدم السفن البرتغالية واقتربها من ساحل المدينة . وقد لاحظ البوكيرك عندما وصل إلى عدن ليلاً ، أن الأهالي قد أوقدوا النيران على قمم التلال والجبال المحيطة بالمدينة لكي يشاهدوا تحركات العدو .

وفي الصباح شاهد أهل مدينة (عدن) السفن البرتغالية وقالوا إنها كانت ثمانى عشرة سفينة ، وقد حاول الأمير مرجان الظافري أول الأمر أن يأخذ المبادرة بيده فيشن هجوماً على العدو ، لكن بعض أعوانه لم يوافقوا على ذلك ، لذلك فقد أصدر أوامره بعدم الحركة وعدم إطلاق نيران المدافع عليهم لحين انجلاء الموقف ، ولما كان ذلك اليوم يوم الجمعة ، فقد قام الخطباء في المساجد بدعوة الناس إلى الصبر والقيام بتحصين المدينة والجهاد^(٣) .

وقد انصرم يوم الجمعة كله بدون أن يقوم البوكيرك بالهجوم لأنه كان منهمكاً في استطلاع المدينة وخطوطها الدفاعية والسفن الموجودة في الميناء ، وفي صباح السبت أصدر أوامره إلى إحدى سفنه أن تدخل الميناء وتستطلع السفن الموجودة هناك ، فتقدمت السفينة ودخلت الميناء بحذر وتأكدت أن السفن اليمنية الموجودة فيه خالية

(٢) المؤرخ اليمني بامخرمه - مخطوطة قلادة النحر - تحقيق الدكتور محمد عبدالعال أحمد في كتابه - البحر الأحمر والمحارلات البرتغالية للسيطرة عليه - ص ١١١ ، وعدد آخر من الكتب علماً بأن عام ٩١٩ هـ يوافق عام ١٥١٣ م .

(٣) ابن الديبع - المصدر نفسه - ص ٣٤٥ .

من البحارة ، فاشارت إلى بقية السفن بالتقدم نحو المدينة ، فاقتربت السفن أكثر .
ويذكر المؤرخون اليمانيون أن الأسطول البرتغالي قام بإطلاق نيران مدافعه على
المدينة ، مما أجبر الأمير مرجان الظافري أن يرسل وفداً يحمل هدايا إلى البوكيرك وأن
يسأله عن سبب وجوده في عدن^(٤) .

وتذكر المصادر البرتغالية أن الوفد حينما وصل إلى البوكيرك وقابله سأله عن سبب
وجوده في عدن وماذا يريد . . ؟ فأجابهم البوكيرك بأنه قائد جيوش الملك مانويل ،
وأنه في طريقه إلى جده لمقاتلة المصريين ، فإذا لم يجدهم فإنه سيتوجه إلى السويس
لتحطيم الأسطول المصري هناك ، وأنه لا يقبل هدايا الحاكم إلا بعد توقيع معاهدة
سلام ، وأن على الأمير مرجان أن يقبل بالخضوع إلى ملك البرتغال ، وأن يصدر أوامره
بفتح أبواب سور عدن ليدخلها الجنود البرتغاليون ويستعرضون فيها وأعلامهم ترفرف
فوق رؤوسهم ، وبعبكسه فسوف يقوم بتحطيم السفن الموجودة في الميناء ويقتحم
المدينة قسراً^(٥) .

استلم الأمير مرجان الظافري تلك الرسالة المتغطرسة من البوكيرك ، وأيقن أنه لا مفر
من الحرب ، فأراد أن يكسب الوقت لتنظيم قواته ، فأمر بإعادة ترتيب وضع المدافع
والمنجنيقات ، بحيث تصب قذائفها على طرق التقرب المحتملة للعدو ، وأرسل وفداً
ثانياً إلى البوكيرك يخبره بأنه والي المدينة التي تعود إلى ملك البلاد ، وأنه بدون موافقة
الملك لا يستطيع أن يفتح أبواب المدينة ، واقترح أيضاً أن يقابله على الساحل للتفاوض
شخصياً معه ، إلا أن البوكيرك رفض هذا العرض وأصر على أن تفتح المدينة أبوابها .
ولما لم يسمع جواباً من الأمير مرجان ، قرر مهاجمة المدينة ، فأرسل أولاً قوة سيطرت
على كل الزوارق من نوع (السنبوك والزعايم) الموجودة في الميناء وسحبها إلى
السفن البرتغالية ليستخدمها الجنود الغزاة كقوارب إنزال تصل بهم إلى الشاطئ .

وفي فجر يوم السبت الموافق ٢٦/٣/١٥١٣م باشرت قوات البوكيرك بالنزول إلى

(٤) بامخرمة - المصدر نفسه - ص ١١٤ .

(٥) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٢٦٦ وكذلك بامخرمة - المصدر نفسه - ص ١١٤ .

الشاطيء على أن يكون الهجوم على ثلاثة محاور بثلاثة أرتال ، واهدافها هي مناطق (شرشره) و(الشيخ) و(قمعان)^(٦) . ورغم أن الانزال جرى أولاً بالقوارب الخفيفة ، إلا أن تلك القوارب اضطرت إلى الوقوف على بعد رمية سهم من الشاطيء وترجل منها الجنود ، وابتل بارود مدافع الهاون الصغيرة التي كانت معهم ، وكان أكبر الأرتال المهاجمة هو رتل الضابط (كارسيا دي نورونها) حيث كان قوام قواته من المشاة المدرعين ، وكان عليه أن يهاجم أسوار المدينة من جناحها الأيسر ، حيث توجد أقوى الدفاعات هناك ، كما توجد فيها بوابة المدينة الرئيسية ، ففتح البرتغاليون نيران مدافعهم على الباب ، لكنهم فوجئوا بأن المدافعين قد بنوا حائطاً حجرياً خلفها يمنع تحطيمها ، فقام الجنود بوضع الأدراج الخشبية المخصصة لتسلق الأسوار للصعود إلى أعلى السور ، وتمكنوا بعد قتال مع المدافعين من تسلق السور ووصلوا إلى سطحه ورفعوا العلم البرتغالي هناك^(٧) .

أما الرتل الثاني فقد كان بقيادة (البوكيرك) نفسه وكان واجبه الهجوم من جهة اليمين ، واندفع جنود هذا الرتل وبأيديهم سلاالم التسلق ووضعوها على جدار السور وراحوا يتسلقونها إلا أن الأدراج لم تتحمل ثقلهم فتحطمت تحت أرجلهم ، فجلبوا الأدراج التي استعملها الرتل الأول في الصعود ليصعدوا عليها ، إلا أن هذه الأدراج تكسرت أيضاً ، وفي تلك الأثناء وعندما كان القائد (كارسيا دي نورونها) في أعلى سور المدينة يقاتل هناك ، أصيب بجرح ، ولكن بعض جنوده تمكنوا من الوصول إلى أسفل السور من ناحية المدينة ، إلا أن المدافعين اليمانيين أطلقوا عليهم السهام والحجارة وأجبروهم على العودة من حيث أتوا .

أما رتل الهجوم البرتغالي الثالث الذي كان بقيادة (جوا فيدالكو) فقد صار في موقع متوسط بين رتلي دي نورونها والبوكيرك وكانت قوة الرتل الثالث هذا مجهزة بسلاالم تستطيع حمل ستة رجال مرة واحدة ، ولكن هذه السلاالم لم تستطع أيضاً تحمل الثقل

(٦) المصادر السابقة والصفحات نفسها .

(٧) ابن الديبع - ص ٣٤٥ .

فتكسرت تحت أقدام الجنود ، وهكذا بقي رتل (دي نورونها) وحده فوق السور ، أما الرتلان الآخران فقد بقيا على الأرض وراح قسم من هذه القوة يهاجم قوة يمانية موجودة في حصن الخضراء وهو حصن على قمة جبل ، لكن المدافعين اليمانيين أمطروهم بوابل من قذائف المنجنيقات وصدوهم .

وهنا أصدر (دي نورونها) أوامره إلى وحدته الموجودة فوق السور بالنزول إلى الطرف الآخر منه أي إلى المدينة ، فاندفعت حشود الجنود البرتغاليين إلى أدراج السور ونزلوا إلى الأرض واندفعوا بشكل جنوني خلال الأزقة والدروب متجهين نحو سوق المدينة الذي يقع في وسطها ، وقد حاولت قوات الأمير مرجان صدّهم إلا أنها فشلت في ذلك فراح تترجع إلى الخلف ، واضطر الأمير مرجان أن ينقل مركز قيادته إلى قلعة دار السعادة ، وهي قلعة عسكرية حصينة بناها السلاطين الأيوبيون عندما حكموا اليمن في العهد الأيوبي هناك ، أما السكان فقد سادهم الرعب والفرع فتركوا دورهم ، وازدحمت الطرق بالسابلة الهارين أمام الجنود البرتغاليين .

وفي قلعة السعادة اجتمع الأمير مرجان برجاله ، وأبلغهم بخطورة الموقف واحتمال انسحابه إلى خارج المدينة والاعتصام بالجبال ، إلا أن اثنين من رجاله وهما ابن مافرس وابن المهيري اعترضوا على ذلك ، وأصروا على أن يقوم الأمير بهجوم معاكس يطرد به القوات البرتغالية خارج أسوار المدينة . فقام الأمير وتقلد سلاحه وامتنطى فرسه وخرج على رأس مقاتليه لقتال البرتغاليين الموجودين داخل مدينة عدن ، فشاهدته جموع الشعب الفارة من المدينة وهدأ روعهم والتحقوا بركبه وقد عادت اليهم معنوياتهم وحماسهم . وبالقرب من سور المدينة التقى الأمير وجيشه بالجيش البرتغالي والتحم بهم واشتد الضرب والطعن وراح فلول المعتدين تترجع في الشوارع والأزقة وقتل الضابط البرتغالي (جورجي دي سلفيرا) وتزاحم الجند البرتغاليون بالقرب من السور فتكدست جموعهم واليمانيون وراءهم ، واعتلى قسم من البرتغاليين السور ثانية وألقوا بأنفسهم من أعلاه إلى الأرض وعليهم دروعهم وزرودهم الحديدية فهلكوا ، ثم

إن مجموعة منهم حوصرت بين سورين متجاورين من أسوار المدينة ، فأمر الأمير أن يؤتى بقصب وأخشاب ألقيت عليهم ثم رموهم بالنيران فهلكوا حرقاً . وهنا أصدر البوكيرك أوامره بانسحاب كل القوة الموجودة في داخل المدينة ، فانسحبت وكانت آخر السرايا هي سرية الضابط (غارسيا دي سوزا) التي هاجمها اليمانيون وقتلوا الضابط وأبادوا السرية .

وفي خارج أسوار البلدة تكدس البرتغاليون قرب الساحل حيث توجد الزوارق ليستقلوها عائدين إلى سفنهم ، إلا أن مدفعية الأمير مرجان التي كانت موجودة على قمة جبل الصيرة باشرت بإطلاق قذائفها عليهم وأهلكت عدداً آخر منهم ، ثم انسحب البوكيرك عائداً بجيشه المنكسر إلى السفن ثانية .

وفي اليوم الثاني أصدر البوكيرك أوامره إلى رتل (كارسيا دي نورونها) أن ينزل إلى الساحل ويهاجم المدافع التي كانت موجودة على جبل الصيرة في القلعة هناك ، فأنزل دي نورونها مدفعية السفن الثقيلة معه ، واشتبك مع مدفعية الصيرة بقتال وتمكن من تدمير القلعة وقتل عدد من اليمانيين الموجودين فيها ، ولما أيقن البوكيرك أنه غير قادر على اقتحام المدينة ، أمر دي نورونها الموجود في الساحل أن يفتح نيران مدافعه الثقيلة على داخل المدينة ، واستمر القصف البرتغالي لعدن مدة يومين ، فيما راحت مدفعية السفن البرتغالية تفتك وتدمر السفن العربية الراسية في الميناء ، ثم قام البرتغاليون بإشعال النار فيها وأحرقوها ، وبعدها أمر البوكيرك قطعاته بالكف عن إطلاق النيران والعودة إلى السفن لدخول البحر الأحمر لتنفيذ الخطة الإجرامية الشيطانية الثانية^(٨) .

تحرك البوكيرك متوجهاً بسفنه نحو باب المندب ، وقبل أن يلج من المضيق ، أرسل سفينة استطلاع على متنها عشرون برتغالياً و مترجماً يهودياً لتكشف له طريق الولوج إلى داخل البحر ، وعندما أتمت السفينة مهمتها عادت إليه ، فأمر سفنه بالتوجه نحو

(٨) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٢٦٨ وكذلك (بامخرمه) المصدر نفسه - ص ١٢٠ ، وابن الديبع - المصدر نفسه - ص ٣٤٥ ، وينقل لنا الدكتور محمد عبدالعال أحمد ، خبراً منقولاً عن كتاب يماني اسمه تاريخ النور السافر أن القائد البرتغالي (مين البقر) أي البوكيرك قد قتل في تلك المعركة .

باب المندب . وعندما اجتاز الباب وعلم بأنه دخل في مياه البحر الأحمر أمر برفع كافة الأعلام وأن تطلق كل السفن طلقة مدفع احتفالاً بدخول أول برتغالي إلى البحر الأحمر ، ثم توقف برهة على ساحل اليمن الشمالي .

وفي صباح اليوم الثاني وبدلالة دليل عربي ألقوا القبض عليه رفعت السفن أشرعتها متجهة شمالاً إلى أن حل الظلام فأمر البوكيرك بالجنوح إلى الساحل اليمني لقضاء الليل ، وهناك اكتشف وجود أربع سفن صومالية محملة ببضائع إلى جدة ومكة فأمر بحجزها ، وتمكن بعض بحارتها من القفز إلى الماء والهرب ، أما من لم يسعفه الحظ ووقع بيده فقد أمر بقطع أيديهم وأذانهم وأنوفهم وأنزلهم على هذه الصورة إلى الساحل .

ويذكر المؤرخون اليمنيون أن سفن البرتغاليين مرت بموانيء (مخا) و(المتينه) و(الحديدة) ، ولم ينزلوا في تلك المدن إذ كان أهلها وعسكر سلطان اليمن عامرين عبد الوهاب الطاهري مستعدين لهم .

وأخيراً وصل البوكيرك بسفنه إلى جزيرة (كَمَرَان) . وهي جزيرة تقع إلى الشمال من مدينة الحديدة ولا تبعد كثيراً عن البر اليمني ، وبعد أن ألقى مراسيه هناك دخلها وقام بإعدام زعيمين من زعماء القبائل هما الشريف محمد بن عبدالعزيز بن سفيان وعبدالله بن محمد العصين ، ثم قام بقتل عدد آخر من الأسرى العرب^(٩) .

وفي جزيرة كَمَرَان راح يضعُ اللمسات النهائية لخطته الجهنمية ، وهي التوجه أولاً إلى ميناء (ينبع) في الحجاز والإغارة من هناك على قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الواجب الأول ، ويعدّه يقوم بتنفيذ الواجب الثاني وهو مقايضة كنيسة القيامة ، وتحويل مجرى نهر النيل .

وفي كمران وعند وصول الأسطول الغازي إليها ابتدأ الجو يتغير فتكاثفت في السماء

(٩) بامخرمة - المصدر نفسه - ص ١٢١ ، وكذلك ابن الديبع - المصدر نفسه - ص ٣٤٥ .

الغيوم ، وراحت الرياح تهب عاصفةً بوجه السفن المعتدية ، ومثلما فعل ربك بأصحاب الفيل ، فقد فعل هذه المرة بالبوكيرك وجيشه إذ كلما رفعوا أشرعتهم للتوجه بسفنهم نحو تنفيذ غرضهم الخبيث ، كلما هبت ريح صرصر عاتية بوجوههم دفعتهم وأعادتهم ثانية إلى الجزيرة خائبين . واستمرت هذه الحالة مدة كانت فيها الرياح والعواصف تقاتل البوكيرك وتدفع بسفنه بعيداً عن منزل الوحي وقبلة المسلمين .

وفي ليلة اشتدت عواصفها ظهرت معجزة إذ شاهد البوكيرك وجنوده ناراً في السماء تحول شكلها إلى شكل الصليب ، ثم سار هذا اللهب فوق السفن البرتغالية وتوقف فوق الساحل الأفريقي باتجاه موقع الحبشة ، فتصايح الضباط والقادة من الدهشة وأيقنوا أنها معجزة من السماء ، وأن السماء ستحرقهم بالنار إن هم توجهوا نحو تنفيذ غرضهم الأثيم ، وأن السماء تنصحهم بالتوجه نحو بلد مسيحي هو الحبشة . وقد أيقن البوكيرك بهذا أيضاً لأن الأيام الأخيرة لبقائه في الجزيرة شاهدت مصرع وهلاك عدد كبير من جنوده بحمي وأمراض خبيثة أنزلها الله بهم ، فأيقن أنه وجنوده هالكون لا محالة ، فأصدر أوامره بعودة السفن إلى خارج باب المندب وإلغاء الفكرة الجهنمية المحرمة التي كانت تدور في خلده^(١٠) .

وفي يوم ١٥ / ٧ / ١٥١٣م غادر البوكيرك جزيرة كمران وكان يقف بين الفينة والأخرى في سواحل اليمن الشمالية وجزرها لغرض الاستطلاع وجمع المعلومات وكان ينصب صليباً ضخماً على الأرض ويكتب عليه (جزيرة الصليب المؤمن) (ILHA DA VERA CRUZE) حيثما يحل وينزل . كما كان يقوم بارسال بعض سفنه إلى

(١٠) هذه القصة وهذه المعجزة السماوية في الدفاع عن المقدسات الإسلامية والتي تكررت عام ١٥١٣م بعد أن كانت قبلها حادثة عام الفيل التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، ذكرها البرتغاليون والإنجليز في المصادر التالية :

(أ) كتاب برتغالي عنوانه AFONSO DE ALBUQUERQUE OSONHO DA INDIA

وال مؤلف Dr. JOSE FRANCISCO DOS SANTOS : ص ٢٧٨ .

(ب) كتاب إنجليزي اسمه HISTORY OF DISCOVERY AND CONQUEST OF INDIA

لمؤلف إسباني اسمه مانويل دي فارسياسوسا وترجمه للإنجليزية الكابتن جون ستيفانز عام ١٦٩٥ القسم الثاني - الصفحات ١٩٠ إلى ١٩٤ .

الساحل الأفريقي للاستطلاع . وقد أرسل سفيتتين بقيادة الضباط (روي كاتوفا) و(جوا كومز) إلى ميناء (زيلع) الصومالي حيث قابلا حاكم المدينة وطلبا منه أن يتعاون مع البرتغاليين فلما رفض قاموا بقصف المدينة وحرقها . كما كان البوكيرك يقوم بين الفينة والفينة بإرسال رسائل إلى سلطان اليمن بواسطة الأسرى الذين يقبض عليهم في الموانئ التي يقف فيها وهو يتوعده فيها بالويل والثبور . ويذكر لنا المؤرخون اليمانيون أن أهل اليمن الشمالي كانوا متحمسين لقتال البرتغاليين ومنازلتهم في البحر ، وأنهم كانوا يطلبون أن يأذن لهم السلطان عامر بالهجوم عليهم ، خاصة عندما كانوا في (كمران) ، إلا أن السلطان لم يكن راغباً بذلك . فيقول (بامخرمة) في مصدره : « فأقاموا في جزيرة كمران من أوائل صفر إلى نصف جمادي الأولى ، والناس تأكل بعضها بعضاً من الغيظ ، يريدون من السلطان الإذن في قتالهم فلم يساعدهم على ذلك . »

ويذكر بامخرمة أيضاً أن امتناع السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهري عن مقاتلة البرتغاليين قد سبب نقمة عليه ستظهر آثارها فيما بعد ، أي في الحملة المصرية الثانية التي ستأتي إلى اليمن في عام ١٥١٥-١٥١٦ م ، كما سنرى ذلك في التفاصيل^(١١)

وهكذا خرج البوكيرك من مضيق باب المندب وهو يحترق ألماً لفشله في تحقيق خطته الخبيثة ، وكذلك لانكساره العسكري في عدن ، فقرر أن يهاجم عدن ثانية ويحتلها مهما كلف الأمر ، وفي يوم الجمعة ١٨ / جمادي الأول / ٩١٩ هـ أي ٢٢ / ٧ / ١٥١٣ م كانت سفن البوكيرك تقف ثانية في البحر مقابل المدينة .

وفي عدن كان الأمير مرجان الظافري حاكم المدينة قد اتخذ كل تحوطات الأمان والاستعدادات اللازمة لمنازلة البوكيرك وجيشه ثانية ، وقد لاحظ البوكيرك أن هناك عدداً من السفن الضخمة تقف في ميناء المدينة لحراستها ، كما لاحظ أن قلعة الصيرة قد تم تحصينها جيداً وأن هناك أعداداً من المقاتلين قد اعتصموا فيها .

(١١) بامخرمة - المصدر نفسه - ص ١٢٣ .

أمر البوكيرك القائد (كارسيا دي نورونها) أن يجهز وحدته وأن ينزل إلى الشاطئ لمهاجمة حصن الصيرة المنيع ، وعندما باشر هذا بالهجوم أمر البوكيرك مدفعية السفن أن تصب نيرانها على داخل المدينة ، فأصاب طلقات المدافع سوق المدينة وبعض دورها وهدمتها ، أما سرية نورونها الموجودة على الساحل فقد تصدى لها المدافعون العرب وأنزلوا بها هزيمة أجبرتها على التراجع إلى السفن . وتذكر المصادر اليمانية أن عدد السفن المهاجمة كانت ست عشرة سفينة ، وأنه لم يكتمل النصاب إلا بعد عودة السفينتين اللتين هاجمتا (زيلع) في الصومال وحينذاك فرح المهاجمون وراحوا يطلقون نيران مدافعهم ابتهاجاً حيث قاموا بالهجوم بعدها .

وتذكر المصادر البرتغالية أنه بعد فشل سرية (دي نورونها) في تحقيق نصرها في قلعة الصيرة وهزيمتها على الساحل أمام المدافعين اليمانيين ، فإن البوكيرك جمع ضباطه ليناقد خطة هجوم جديدة على المدينة ، فبين له الضباط أن المدينة محصنة تحصيناً جيداً ، وأن المدافع والمنجنيقات المنصوبة على قلعة الصيرة والجبال سوف تفتك بهم فتكاً ذريعاً ، لذلك فإنهم يرون أنه لا موجب للخسائر الفادحة التي يمكن أن تلحق بهم ، فأخبرهم البوكيرك بأنه في حالة عدم التمكن من تحقيق نصر باحتلال عدن ، فعلى الأقل يجب حرق السفن الموجودة في الميناء ، ولما لم يجد صدىً وحامساً لكلامه عند الضباط ، أمر بتجهيز سرية مكونة من مائة جندي ليقودها بنفسه ويقوم بحرق السفن اليمانية الموجودة في الميناء ، وبالفعل فقد تم له ذلك وقام بتدمير السفن هناك^(١٢) .

ويؤيد ذلك القول المؤرخون اليمانيون ويخالفونه في نتائجه إذ ورد في كتاب الفضل المزيد ما يلي :

« ولما وصل أصحابهم من (زيلع) استعدوا للحرب وأحرقوا ما جاورهم من المراكب التي بالساحل ، وكانت قدر عشرين مركباً ، نزلوا ليلاً في السنايق والبحر حيثئذ عار ،

(١٢) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٢٧٦ .

وقد استعد لهم أهل عدن بسلاحهم ورتبوه في الساحل ، فنزلوا من سنايقهم إلى العراء رجال ، مستعدون للحرب بالسلاح وغيره ، وقد كان أهل جبل صيرة ، لما رأوهم متأهبين للنزول أعلموا أهل عدن بذلك فلما نزلوا إلى الساحل ثار عليهم المسلمون من كل جانب ، وضربت المدافع من البلد ومن مراكبهم وكانت ضجة عظيمة وفتنة قوية فنصر الله المسلمين وقُتل مقدمهم الكبير وسبعة رجال منهم ، وجرح منهم جمعٌ وأمسك المسلمون عن لحاقهم إلى البحر خوفاً من امتلاء البحر بعد أن حازوا ثلاثة من قتلى الإفرنج فجزوا رؤوسهم وأخذوا سلبهم ورجع الإفرنج بالجرحى منهم إلى مراكبهم فمات أكثرهم .

فلما كان اليوم الثاني ألزمهم مقدمهم بالنزول فلم يفعلوا ، فخوفهم من (البردغان) فلم يؤثر فيهم ذلك وانقطع رجائهم عن المدينة وعن تحريق باقي الخشب الذي في الساحل ، وكانت مدافع المسلمين كل يوم تتلف لهم (برشتين) أو ثلاثة ، فارتفعوا بعد ذلك إلى حيث لا تصلهم مدافع المسلمين ، وضربت عليهم العرادة من الصيرة فأضرت بهم ضرراً عظيماً وأخرجتهم من البندر كرهاً فأقاموا بعد ذلك ثلاثة أيام في عيد لهم كما قيل ثم توجهوا إلى طريق الهند مكسورين مخذولين مذمومين مدحورين ، أول يومٍ من جمادي الآخرة ، لا قابلهم الله بخير ولا كتب لهم سلامة .^(١٣)

أما المصادر البرتغالية فتقول إنه بعد وصول السفيتتين البرتغاليتين من (زيلع) إلى أسطول البوكيرك ، فإنه ولسبب غير معروف قرر صرف النظر عن احتلال عدن وأمر أسطوله بالتحرك نحو الهند ، فغادر الأسطول يوم ٤/٨/١٥١٣م المياه العدنية متجهاً نحو الهند^(١٤) ، وهكذا أصيب البوكيرك بخيبة أمل ثانية لانكساره أمام عرب اليمن في عدن وعاد إلى الهند وهو يجر أذيال الهزيمة ، إلا أن الفائدة الوحيدة التي حصل عليها من جراء مغامرته تلك هو أن حصل على أكبر قدر من المعلومات عن البحر الأحمر .

(١٣) ابن الديبع - المصدر نفسه - ص ٣٤٨ .

(١٤) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٢٧٦ .

كان أول ما فعله عند وصوله إلى الهند هو أنه أمر بتشييد وإقامة قلاع عسكرية حصينة لتكون قواعد بحرية وبرية لجيوش البرتغال ، تتمكن بواسطتها من صد وقاتل أية قوة مصرية أو إسلامية تحاول أن تنال من سيادة البرتغال أو سلطتها في مستعمراتها .

وفي يوم ٣٠ / ١١ / ١٥١٣ م ، أرسل البوكيرك رسالة إلى الملك البرتغالي يقول له فيها إنه وبعد الانتهاء من تشييد قلعتي كاليكوت وديو ، فإنه ينوي الذهاب إلى البحر الأحمر ثانية والبقاء هناك طيلة مدة هبوب الرياح الموسمية لغرض تدمير كل السفن العربية التي تمر من باب المندب ، وإنه إذا ما أتم هذا فسوف يأمر ثلاثة سفن بالرسو بشكل دائم في أحد الموانئ هناك لتقوم بواجب تدمير أية سفينة جديدة قد تظهر ، وقال أيضاً إن احتلال عدن يجب أن يتم ، وإنه لا بد من بناء قاعدة بحرية وقلعة في ميناء (مصوّع) وإنه لا يمكن أن تدخل السفن البرتغالية إلى داخل البحر الأحمر للقيام بعمليات عسكرية هناك إلا بعد أن يتم بناء القلعتين .

وفي مدينة (كنانور) الهندية حيث كان البوكيرك قد اتخذها مقراً له فإن معلومات جديدة وصلت إليه عن نشاطات العرب والمسلمين ، إذ أرسل له حاكم (ديو) البرتغالي خبراً عن وصول (قاضي القاهرة) موفداً من سلطان مصر للتنسيق مع عادل خان ، كما وصلت إليه أنباء عن تواجد مصري في عدن ثانية ، كما وصلت إليه معلومات من جزيرة هرمز مفادها أن (خوجا عطار) قد توفي وهو الرجل الذي كان يمانع التسليم للبرتغاليين . فكان ما فعله البوكيرك هو أنه أصدر أمره إلى ابن أخيه الضابط (بيرو دي البوكيرك PERO DE ALBUQUERQUE) أن يجهز أربع سفن حربية يتوجه بها إلى القرن الأفريقي (رأس كردفان) ومنها إلى عدن للحصول على أكبر قدر من المعلومات عما يجري في اليمن ، وبعد ذلك عليه أن يذهب إلى هرمز ليرى ماذا يحدث هناك ويحصل على الضريبة المفروضة على ملكها ، ثم يحاول أن يتوغل قليلاً في داخل مياه الخليج العربي للحصول على معلومات عن المنطقة ثم العودة إلى الهند

ثانية .

وبينما كانت الاستعدادات تجري لتلك الحملة ، أرسل البوكيرك رسالة ثانية إلى الملك البرتغالي يخبره فيها بالألأ يصدق التقارير الكاذبة والإشاعات المغرضة التي يرسلها إليه خصومه والتي تتحدث عن إخفاقه في احتلال عدن والتوغل في البحر الأحمر .

وبصورة عامة فإن رسالته هذه كانت تبريراً لفشله العسكري ومحاولة إسكات الأصوات المعتدلة في البلاط البرتغالي التي كانت ترى في مغامراته العسكرية خسارة للبرتغال في الأخلاق على الأقل .

وفي تلك الأثناء طرق سمع البوكيرك أن موفداً من الشاه إسماعيل الصفوي قد وصل إلى الهند ، وأنه موجود عند عادل خان وأن الغرض من وجوده هو مقابلة البوكيرك لكي يرسل معه رسولاً يفاوض الشاه ، كما علم بأن هذا الموفد كان قد قابل عدداً من حكام المقاطعات الهندية لكي يدخل معهم في حلفٍ واحدٍ يقوي به مركزه أمام خصم إيران ، الدولة العثمانية .

اختار البوكيرك موفده لمقابلة الشاه وهو (ميكيل فيريرا MIGUEL FERREIRA) وأرسل معه صورة له بالحجم الطبيعي وهدايا إلى الشاه ، والتقى (فيريرا) بالشاه في العاصمة تبريز ، حيث أعد الشاه استقبلاً فخماً للموفد البرتغالي ، وكان مع موفد البوكيرك موفداً آخر هو رسول لعادل خان الذي لم يعرفه أحدٌ من الناس هناك اهتماماً ، وقد عقد الشاه عدة اجتماعات مع (فيريرا) ، إذ كان متلهفاً لمعرفة الكثير عن مملكة البرتغال ، وكذلك عن مستعمراتهم الموجودة في الهند وعن قوة الأسطول البرتغالي الموجود هناك ، وهي الأمور التي طالما سمع بها ونقلها إليه الزوار الذين زاروا الهند ، وأعرب الشاه للموفد بأنه مستعد للتعاون مع البرتغاليين لتحطيم وتدمير كلٍ من السلطان الأعظم ومكة^(١٥) .

(١٥) هذا التعبير ورد عند DANVERS في المصدر نفسه ص ٢٨٩ بالصيغة الانجليزية التالية :

ALL THIS INTERESTED SHEIKH ISMAEL WHO EXPRESSED TO MIGUEL FERREIRA HIS GREAT DESIRE FOR THE DESTRUCTION OF THE CRAND SOLDAN AND THE HOUSE OF MECCA, EVEN =OFF ERING TO DEVOTE HIS OWN PERSON AND ESTATE TOWARDS THE ACCOMPLISMENT OF THIS PURPOSE .

ومن البديهي أن الشاه اسماعيل يقصد بالتعبير أعلاه وحسبما نقله على تلك الصيغة فيريرا إلى البوكيرك ، أنه مستعد للتعاون مع البرتغاليين لحرب قوات السلطان المصري المملوكي قانصوه الغوري وانتزاع سلطته الموجودة في الحجاز والبحر الأحمر ومكة المكرمة .

وعندما عاد فيريرا إلى الهند أرسل الشاه إسماعيل معه هدايا من الحرير الفاخر والملابس والخيول ، ولما وصل إلى هرمز استقبله هناك ملك هرمز ووزيره ريس نور الدين ، وعندما كان في هرمز في انتظار الرياح المناسبة التي ستأخذ سفينته إلى الهند فوجيء الجميع بوصول أفونسو البوكيرك إلى هناك .

وقبل أن نتطرق بالبحث عما فعله البوكيرك في هرمز ، يجب أن نعود قليلاً إلى الوراء عندما ترك (بيرو البوكيرك) الهند متجهاً نحو سقطره للحصول على معلومات عن تحركات الجيش والبحرية المصرية في عدن . ففي خلال رحلته البحرية التقى عدة مرات بسفن عربية قام بإيقافها وإحراقها أو تدميرها ، ثم اتجه نحو القاعدة البرتغالية الموجودة في سقطره حيث راح يقوم من هناك باصطياد السفن العربية وإحراقها أو تدميرها ، وهي الحوادث التي أرخ لها المؤرخون اليمانيون باقتضاب .

وفي حوالي شهر مايو - مايس من عام ١٥١٤م ترك سقطره واتجه نحو هرمز ووصلها فكان في استقباله الملك توران شاه ووزير اسمه حكيم علي ، وفي اليوم التالي أرسل بيرو وفدًا يمثله ومعهم مترجم يهودي وبيده رسالة من عمه البوكيرك ، يقول فيها إنه علم بموت الملك سيف الدين الذي هو شقيق الملك الحالي توران شاه ، وأنه يرغب أن يجدد الملك الجديد الاتفاقيات والمعاهدة التي عقدها سلفه مع البوكيرك ، وأن البوكيرك يطالب بالجزية والضريبة السنوية التي لم تدفع منذ سنتين ، وأنه يتوقع أن تفتح مخازن القلعة البرتغالية أبوابها ثانية للبضائع البرتغالية ، وأن يتمتع البرتغاليون الموجودون في هرمز بالأمان والحماية .

فأجابه الملك توران شاه أن وضع القلعة البرتغالية داخل المدينة يُثير الناس ، ويود لو

قاموا ببناء مستودعات قرب البحر ، كما أخبره بأنه أرسل إلى ملك البرتغال لؤلؤاً وهدايا ، وادعى أنه لا يملك نقوداً تكفي لدفع الضريبة المتأخرة ويطلب إعفاءه منها . أما بالنسبة لموضوع تجديد المعاهدة فإنه موافق على ذلك . وبعد مناقشات طلب بيرو إعطاءه مستشفى المدينة أو مسجدًا ليكون مخزنًا للبضائع ، فلما اعترض الملك على ذلك احتل بيرو عدداً من البيوت وحوّلها إلى مخازن ودائرة جمارك ، وأصر على أن يقوم ملك هرمز بدفع الضريبة . وفي يوم ٧/ تموز/ ١٥١٤م ألقع بسفنه من هرمزاً ماراً بالمضيق ومتجهاً نحو البحرين .

كانت الغاية من إبحار (بيرو البوكيرك) إلى البحرين استطلاعية واستكشافية للساحل العربي من الخليج ، أي ضبط مواقع الجزر والموانئ والمدن المهمة والبلدان التي تقع على ذلك الساحل إلى نقطة أو منطقة اسمها (LULUTEM) ولعل المقصود بهذا الاسم مناطق اللؤلؤ المحيطة بالبحرين ، لأنه لم يتعد البحرين في رحلته الاستكشافية هذه ، وعندما وصل إلى البحرين ، بقي فيها مدة قصيرة ثم غادرها إلى منطقة أخرى هي أحد الرؤوس البحرية التي لم يذكر اسمها واضحاً ، وهناك التقى بأسطول فارسي يقوده قائد اسمه (الأمير بوزاك MIRBUZACA) وكان هذا القائد قد القى القبض على عشرين سفينة وقارب خفيف (طراد TERRADES) تعود إلى مملكة هرمز وحجزها فأمره بيرو أن يطلق سراحها وعاد بها إلى هرمز ووصلها في ٦/ ٨/ ١٥١٤م وأعاد القوارب إلى ملكها الذي فرح بعودتها .

وفي هرمز أصر بيرو على أن يقوم ملكها بدفع الضريبة المالية مهما كلف الأمر وبدت في لهجته علامات التهديد ، فقام ملك هرمز بدفع عشرة آلاف (أشرفي XERAPHINS) وهو نقد وعملة تعادل بالذهب عيار ٢٣٢٥ قيراطاً ووزنها ٢٥٦ ر أو ٢٥٧ قيراطاً . معتذراً بعدم إمكانه دفع أكثر من هذا المبلغ إذ أن تجارته أصيبت بالضمور نتيجة عدم خروج التجار من الجزيرة خوفاً من السفن البرتغالية . ثم أصدر بيرو أمراً إلى ملك هرمز محذراً إياه من التعاون مع الشاه إسماعيل الصفوي الذي لا بد

وأنه يرغب بإعادة هرمز إلى سلطته ومحذراً إياه أيضاً من استقبال أية قوات مسلحة إيرانية وعدم السماح بمرور أية تجارة عربية إلى الهند ما عدا تجارة الخيول التي يجب أن ترسل فوراً إلى (كوا). وهكذا غادر بيرو هرمز عائداً إلى (كوا) فوصلها يوم ٢٨ / ٩ / ١٥١٤ م. وهناك التقى بعمه فأخبره بما حدث قائلاً له إن الجزيرة كانت حتماً موالية للشاه اسماعيل وإنه أعادها إلى طاعته الآن ، ثم سلمه النقود التي حصل عليها ففرح بها البوكيرك كثيراً ذلك أن خزانته كانت قد أفلست إثر عملياته الفاشلة ضد العرب .

وبعد ذلك قرر البوكيرك أن يذهب بنفسه إلى هرمز لتوطيد أركان السيطرة البرتغالية هناك والقضاء على أي نفوذ محتمل للشاه اسماعيل ، وبعدها يقوم مرة ثانية بمهاجمة (مضيق مكة) أي البحر الأحمر لينفذ الغرض الخبيث السابق ، فقام أولاً بتثبيت أوضاعه في المنطقة وذلك بإجبار الحكام المسلمين أمثال (عادل خان) على تثبيت أسس معاهدة السلام التي أجبرهم على توقيعها ، وقام بجمع الأموال من الحكام الهندوس الموالين له ، ثم أمر باستدعاء بعض قطع الأسطول البرتغالي المنتشرة في الساحل الهندي لتنضم إلى أسطوله في (كوا) علاوة على أن تقوم كل قاعدة بحرية برتغالية بإرسال عدد من جنودها إلى هناك أيضاً ، ثم قام بإجراء تعيينات جديدة للمناطق البرتغالية في مالاقا وكوشن وكوا ، وفي يوم ٢٠ / ١٠ / ١٥١٤ أرسل رسالة إلى الملك مانويل يخبره عن الأوضاع في البحر الأحمر ويقول فيها :

« إن عدن يجب أن نحتلها ونسلمها لرجال قواتنا المسلحة ، ففي المدينة يوجد ميناء جيد ، يمكن استخدامه بصورة جيدة من قبل سفننا ، ولعل الماء قليل فيها ، لكن هناك آبار مياه عذبة في منطقة قريبة من المدينة وسنقوم باحتلالها ، ولكي يتم احتلال عدن فإنني احتاج إلى ٤٠٠٠ أو ٥٠٠٠ جندي . إن جزيرة (الصيرة) تشكل هدفاً تعبويًا مهمًا ، وإن احتلالها يعني سقوط عدن ، وسأقوم بالهجوم أولاً على ميناء يقع خلف الصيرة وأهاجم من هناك المدينة . إن آخر الأبناء التي وصلتني من عدن تفيد بأن أسوار

المدينة قد تمت تعليتها وتقويتها وأنهم استلموا أعداداً كثيرة من المدافع الهندية من (مالك عزيز) حاكم بلدة (ديو) الهندية ، الذي يُظهر لي المودة ويعتقد أنه يخدعني وأنني لا أعرف بتحركاته . أما بالنسبة لبناء قلعة وقاعدة بحرية في مدخل البحر الأحمر ، فهذا أمر لا يمكن تنفيذه ، لعدم وجود المياه العذبة هناك ، علماً بأن عدن تقع على مسافة ثلاثة أيام من مدخل البحر الأحمر ، لذلك يمكن استخدامها قاعدة لذلك الغرض . وبالنسبة لمناطق (بربره) و(زيلع) فإنني اقترح على جلالتك أن لا توقعوا معاهدات تجارية معهم ، بل يجب احتلالها وإجبار حكامها الخضوع لجلالتكم ودفع الضريبة السنوية ، أما بالنسبة لجزيرة كمران فقد وصل إلى علمي أن سلطان القاهرة أو حاكم عدن قد أقاما قلعة وقاعدة بحرية هناك ، إلا أن هذا لا يهم حيث يوجد إلى الشمال من كمران جزيرة اسمها (فَرَسَان) وهي أقرب إلى جدة من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الماء العذب متوفر فيها بكثرة وفيها موانئ طبيعية أيضاً ، كما توجد منطقة أخرى قريبة (دهلك) يوجد بها ماء عذب . إنني سوف أتوقف أولاً في (مصوّع) لغرض إعادة التنظيم إذ إنها ميناء تجاري كبير يعود إلى الحبشة فإذا تم لي إعادة التنظيم والتحشد هناك فسأقوم بمهاجمة جدة ثم مكة ثم السويس ، وبما أنه يوجد في الحبشة خيول جيدة فسأقوم بتنظيم وحدة فرسان مكونة من خمسمائة فارس برتغالي أقودهم بنفسي وأهاجم جدة ، ثم أهاجم مكة وأحرقها وأجعلها رماداً .»

وفي يوم ٢٥ / ١٠ / ١٥١٤م أرسل رسالة ثانية جاء فيها :

« إن السلاح الذي وصلني من لشبونه لم يكن جيداً ، مما دفع ببعض الضباط البرتغاليين إلى أن يتاجروا به ويبيعوه إلى الجنود ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنني وبعد أن أصل إلى (مصوّع) في الحبشة فسأقوم فوراً باحتلال جزيرة دهلك لأرى كيف أعالج موضوع الهجوم على جدة ، هذا ما لم يستوقفني أمر معالجة تجارة هرمز ، ولكنني أود أن أؤكد لجلالتكم أن حملة البحر الأحمر مريحة حتماً آخذين بنظر الاعتبار أنه لا زالت هناك تجارة توابل قائمة بين الهند ومصر ، أما بعد تقوية العلاقات

مع الحبشة وتدمير مكة فإنني سأتوجه إلى السويس لتدمير أسطول سلطان مصر ، إن خطتي للعمليات العسكرية بصورة عامة تتلخص بأنني سأرسل مقدمة القوة من أسطولي العامل في الهند من سُنَّ (الكرافيل) و(الكالي) لتوقف في جزر كوريا موريا ومنطقة ظفار (في دولة عُمان في يومنا هذا) لتبقى هناك انتظاراً لتحول الرياح باتجاه عدن وكذلك لاصطياد السفن العربية التي قد تمر من هناك ، ثم بعون الله تتوجه هذه السفن إلى عدن وتبقى في انتظاري هناك في عرض البحر ، أما أنا فسأتوجه أولاً إلى سقطره لغرض التموين والإعداد ، ثم ألحق بالسفن الموجودة في مياه عدن حيث سأرى ما يمكن عمله هناك حتى ولو اقتصر الأمر على حرق السفن العربية كلها .»

إلا أن البوكيرك سرعان ما غيّر رأيه بالنسبة لحملة البحر الأحمر وقرر احتلال هرمز احتلالاً كاملاً كمرحلة أولى من مراحل تحركاته العسكرية وأرسل إلى ملك البرتغال رسالة بتاريخ ٢٧ / ١١ / ١٥١٤م هذا نصها :

« لقد استجدت أمور جديدة في الهند تتطلب معالجة جديدة وحذرة ، لذلك فإنني سأذكر لك باختصار الأسباب التي دفعني لتغيير خططي بالنسبة لحملة البحر الأحمر . ذلك أن قلة البضائع المخزونة الآن في مستودعات جلالتك في الهند ، واحتمال أن الحملة ستحتاج إلى استهلاك كميات كبيرة منها ، علاوة على أن الحملة قد تستغرق موسم الشتاء كله ، آخذين بنظر الاعتبار احتمال عدم دفع الرواتب لأفرادها ، كل هذا جعلني أفكر بالذهاب إلى هرمز لغرض التزود بالطعام والمؤن الكافية ، وإنني بعون الله متمكن من احتلالها بشكل تام ، ناهيك عن ظهور التجارة الجديدة التي تتاجر بها هرمز وهي تجارة الخيول التي لا يمكن إغفالها ، فإذا تم احتلالها كلياً استطعنا احتكار هذه التجارة أيضاً . وأود أن ألفت انتباه جلالتك إلى أن تجارة التوابل لا زالت إلى الآن قائمة بين هرمز والعرب ، ولا زالت كميات كبيرة منها تذهب إلى البحر الأحمر ، لذلك أرجو أن تسمح لي بالقيام باحتلال هرمز أولاً ، وبعد ذلك سوف أتمكن وبعدد قليل من السفن من احتلال البحر الأحمر . لقد لاحظتُ أن

جلالتكم لا ترغبون بتدمير مدن الهند وأود أن أؤكد لجلالتكم بأن هذا الأمر لم يكن في نيتي أبداً .^(١٦)

وقبل أن يتحرك البوكيرك نحو أهدافه فإنه ناقش موضوع أي الهدفين يجب احتلاله أولاً ، أهو عدن أم هرمز . ؟ إذ كان من رأي الملك البرتغالي أنه يجب احتلال عدن وإقامة قلعة برتغالية هناك أولاً . وقد شارك في المناقشات ، المدعو (نيكولا دي فيريرا) السفير البرتغالي في هرمز ، وكان قد عاد لتوه من لشبونة ، وقد أوضح هذا السفير أن حاكم هرمز رجلٌ من أصل فارسي وله سبعة أو ثمانية أقرباء من ذوي النفوذ هناك وإنهم مستعدون لتنفيذ أي أمر يصدره هذا الحاكم ولو كان اغتيال ملك هرمز نفسه ، كما حدث للملك السابق سلفه وأن هذا الرجل يمكن أن يُسلمَ هرمز إلى شاه إيران ، فإذا حصل هذا فلسوف يكون من الصعب استعادتها ثانية .

وهكذا فقد رسخ قرار البوكيرك بوجوب احتلال هرمز أولاً . ولعله في هذا القرار قد استراح نسبياً حيث إن هزيمته في العام الماضي أمام دفاعات عدن المحيطة ، واخفاقه في البحر الأحمر لا زالتا ماثلتين أمام عينيه . وعلى كل حال فقد أُلقيَ متجهاً نحو هرمز بتاريخ ٢١/٢/١٥١٥ م .

تألفت الحملة من ست وعشرين سفينة على ظهرها ألف وخمسمائة جندي برتغالي وسبعمائة جندي هندي ، وكان عدد القادة الذين يقودون الوحدات المقاتلة خمسة وعشرين قائداً .

وفي يوم ٢٥/٣/١٥١٥ م وصل إلى بلدة (قريات) العُمانية ، ثم أبحر إلى (مسقط) حيث ألقى مراسيه هناك لغرض إعادة تموين سفنه بالماء والطعام وللإستماع إلى الأنباء والحصول على معلومات عما يجري في هرمز .

كانت الأنباء التي وصلت اليه من هرمز تفيد أن المدعو (ريس حميد) وهو فارسي

(١٦) DANVERS - المصدر نفسه - الصفحات ٣٠٥ إلى ٣٠٩ .

وقريب للريس نور الدين الوزير الهرمزي قد تمكن من احتلال القلعة البرتغالية وتمكن من اعتقال الملك والريس نور الدين ، وإنه يسيطر على المدينة بخمسمائة مقاتل فارسي ، لذلك فقد قرر البوكيرك التوجه فوراً نحو هرمز ، فأرسل قسماً من سفنه لتحوط الجزيرة من الخلف لكي تقطع الإمدادات عنها من البر الفارسي ، وعندما وصلها أمر سفنه بفتح نيران مدافعها كلها مرة واحدة على المدينة ، مما أدى إلى انهيار مقاومة (ريس حميد) فقام باطلاق سراح ملك هرمز والريس نور الدين وأعلن استسلامه ، ثم ارتفع العلم البرتغالي ثانية على قصر الملك فيما فتحت السفن البرتغالية أفواه مدافعها تحية لهذا الانتصار السهل وكان ذلك يوم ١٥١٥ / ٤ / ١ م .

ثم قام البوكيرك باتخاذ القلعة مقراً له ، وأمر بجلب كل المشتغلين في البلاط وجعلهم يقسمون عین الولاء والطاعة للملك الهرمزي ومعاونته الريس نور الدين . وعندما كان على تلك الحال وصل موفدٌ من الشاه اسماعيل الصفوي يحمل رسالة إليه ، فأجرى له البوكيرك استقبالاً مربعاً حيث عرض أمامه كل وحداته العسكرية وسط قرع الطبول وإطلاق نيران المدافع ، وقد استمرت المحادثات بين البوكيرك وموفد الشاه يومين ، أعرب فيهما الموفد عن رغبة الشاه في إقامة حلف صداقة وتعاون مع ملك البرتغال ، وأنه مستعد لمنح البوكيرك أية مقاطعة في إيران ليحكمها ، ثم قام الموفد الإيراني بطرح أربع نقاط اقترحها الشاه وهي :

١: إن الضرائب المفروضة على التجار الفرس الذين يبيعون بضائعهم في هرمز، يجب أن يتسلمها الشاه .

٢: أن يسمح لسفن رعاياه بالتنقل إلى السواحل العربية في مناطق البحرين والقطيف .

٣: أن يقوم البوكيرك بمساعدة قوات الشاه باحتلال ميناء (جواهر) الذي تحت سلطة (ملك مكران) وأن يعيده إلى سلطة الشاه .

٤: أن يسمح للشاه بفتح مركز تجاري فارسي في الهند، وكذلك مركز تجاري في

هرمز أيضاً .

وقد أجاب البوكيرك قائلاً إن النقاط الأربع لا يمكن البت فيها فوراً لخطورتها ، وإنه سيرد عليها بعد حين^(١٧) .

وبعد ذلك قرر أن ينهي الثائر الرئيس حميد فاستدرجه إلى لقاء معه ثم أمر باغتياله فقتله (بيرو البوكيرك) وزمرة معه ، ثم قام ملك هرمز الضعيف بإعلان خضوعه وولائه للملك البرتغال . وقد حدثت محاولة مقاومة من أنصار الثائر المقتول إلا أن البوكيرك قام بإحباطها فوراً ، كما أمر بمنع أي إيراني أو هرمزي من حمل السلاح عدا حراس الملك ، كما قام بإعادة تنظيم تجارة هرمز مع الهند وضبطها على أسس جديدة .

ومن الجدير بالذكر أن أسطولاً فارسياً يعود إلى الشاه بقيادة (ابراهيم بيك) كان موجوداً طيلة تلك المدة في هرمز وكان يعاون البوكيرك في إتمام سيطرته على الجزيرة ، فلما تم للبوكيرك السيطرة التامة عليها ، انسحب (ابراهيم بيك) بأسطوله نحو السواحل الإيرانية .

أما البوكيرك فقد أشرف على إتمام بناء القلعة والقاعدة البحرية حيث وصلت إليه معلومات أكيدة عن تحركات بحرية مصرية تتجه نحو الهند لقتاله . كما وصلت تلك المعلومات إلى مسامع موفد شاه إيران الذي كان في هرمز إلى ذلك الوقت ، فطلب من البوكيرك أن يسرع بالرد على مقترحات الشاه ليأخذها إليه ، إذ إن الموقف خطير ، فقام البوكيرك بإرسال جواب إلى الشاه جاء فيه أنه يأسف لعدم موافقته على دفع عوائد هرمز الجمركية ، لأن هذه العوائد سيقوم ملك هرمز بدفعها إلى ملك البرتغال وذلك لتقوية دفاعات الجزيرة .

أما بالنسبة للنقطة الثانية فقد وافق البوكيرك على طلب الشاه بنقل رعاياه إلى الساحل العربي ، بشرط أن يقوم الشاه بإعطاء الضمانات الكافية للملك هرمز بعدم

(١٧) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٣١٤ .

ارتكاب رعاياه جرائم أو مخالفات في هرمز أو في جزيرة البحرين .

أما بالنسبة للنقطة الثالثة ، أي المساعدة العسكرية البرتغالية للشاه ضد ملك مكران البلوشي فإنه يوافق عليها بشرط أن لا يتخذ من ميناء (جوادر) مركزاً تجارياً للبضائع الفارسية المخصصة لهرمز ، وبالنسبة للنقطة الرابعة ، وهي فتح مركز تجاري إيراني في الهند وهرمز فإنه يوافق على ذلك شريطة أن يكون هذا المركز في (كّوا) في الهند ، كما يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار أن أية بضاعة فارسية توجد في أي ميناء في الهند عدا المركز التجاري المزمع فتحه في (كّوا) فسوف يتم حجزها ومصادرتها .

حمل جواب البوكيرك موقفه المدعو (فيرنا كومز دي لوماس) وحمل معه هدايا ثمينة إلى الشاه ، كما أخذ معه الرسالة التالية :

إلى الشيخ اسماعيل أقوى ملوك المسلمين

أنا أفونسو دي البوكيرك حاكم الهند والقائد العام والنائب عن ملك البرتغال ، أرجو أن تعلم بأنني عندما قمت باحتلال (كّوا) فإنني وجدت هناك سفيراً لك ، وقد رحبتُ به وعاملته معاملة تليق بسفير ملك عظيم مثلك ، وحسب علمي فإن ملك البرتغال سيسره أن يرتبط بمعاهدة صداقة مع جلالتك . لقد أرسلت لكم السفير (دي لوماس) الذي سيشرح لجلالتكم أسس وأساليب القتال التي نتبعها في حروبنا ، مما يظهر لك قوة مملكتنا في البر والبحر وكيف تمكنا من قهر المسلمين في أي مكان وأي زمان التقينا بهم . وسوف تعرف أيضاً كيف تمكنا من الاستيلاء على هرمز تنفيذاً لأوامر سيدي جلالة الملك ، وإنني حينما تستتب الأمور هناك فسأقوم بزيارة لموانيء مملكة جلالتك . إن قوتي التي أستمدّها من جلالة الملك قد مكنتني من تدمير أسطول السلطان ، لقد قهرت أمير البحر وأسطوله في (ديو) ولقد قمت بمصادرة الأسطول ، أما البحارة فلقد أمرت باعدامهم فيما بعد في (كّوا) ، كما سيخبرك عن ذلك بالتفصيل السفير الذي أرسلته إليكم .

لقد علمت أن السلطان عدوكم وأنه يشن حرباً ضدكم فإذا رغبتكم جلالتكم بمساعدتنا فسوف أنفذ لكم هذا الطلب وأقهر خصمكم أينما كان ومتى ما كان ، فإن أردتم مهاجمة السلطان برأ فإنني أستطيع أن أساعدكم بحراً ، وتأكد أنه سوف يمكن الاستيلاء على القاهرة والقطر كله بجهود قليلة ، فإذا وافقتم جلالتكم على الدخول في حلف معي ووافقتم على حشد جيوشكم وسوقها لاحتلال القاهرة ، فإن جلالته ملك البرتغال سوف يسوق كل قطعاته ويحشد لها لتحرير القدس والأراضي المجاورة لها ، وبهذا فإن قوات السلطان سوف تقاتل بجبهتين وتضعف في كليهما . لذلك أرجو من جلالتكم إخباري عن المكان الذي ترغبون فيه أن يتحشد الأسطول البرتغالي لتنفيذ الخطة أعلاه .» (١٨)

هنا يجب أن نتوقف قليلاً مع رسالة البوكيرك إلى الشاه إسماعيل الصفوي ، إذ إن البوكيرك قد خلط فيها ما بين (سلطان تركيا) الذي كان يضمم العداء للشاه الفارسي و(سلطان مصر) الذي كان يهمله كسب جانب الشاه الفارسي لأنه كان مهدداً من سلطان تركيا بالقضاء على مملكة المماليك في مصر ، وهو الأمر الذي سيظهر لنا بجلاء في صفحات الفصول القادمة . لذلك فإن البوكيرك قد حسب أن (السلطان) هو سلطان مصر ، وأن (الترك) هم مماليك مصر . والمماليك لا عداوة لهم مع الشاه ، الذي كان آنذاك يواجه قوات السلطنة العثمانية الجبارة التي تنازعه على السلطة الدينية والسياسية خاصة في العراق ، كما كانت تنازع سلطان مصر قانصوه الغوري السلطة السياسية في مصر والشام والحجاز وبقية ممتلكات دولة المماليك البحرية في مصر .

وفي يوم ١٠ / ٨ / ١٥١٥ م ، غادر موفد البوكيرك هرمنز حاملاً الرسالة إلى الشاه الصفوي فوصل أولاً إلى ميناء (كامبرون) أي بندر عباس فاستقبله (ابراهيم بيك) قائد الأسطول الفارسي هناك وسافر معه برأ لمقابلة شاه العجم .

(١٨) DANVERS - المصدر نفسه - من ٣١٩ إلى ٣٢١ .

وفي يوم ٢٢/٩/١٥١٥م أرسل البوكيرك رسالة إلى الملك البرتغالي شرح له فيها ما فعله في هرمز ، وكيف ولماذا غير خطته في احتلال هرمز قبل عدن ، قائلاً إن هرمز لازالت تشكل مركزاً مهماً لتجارة التوابل التي تنقل من الهند إلى هرمز ثم إلى البصرة ومنها إلى دمشق ، أو بواسطة الطريق البري عبر فارس ، فلذلك تكون أهميتها أكبر من عدن .

وقال أيضاً إنه يريد مساعدة عسكرية برتغالية تصل اليه لمهاجمة عدن واحتلالها ، فإذا لم تصل اليه فسوف يضطر للبقاء في هرمز وإرسال سفنه إلى سقطره لاصطياد السفن العربية هناك وتدميرها ، وقال إنه وصلته عدة وفود من أمراء المقاطعات الفارسية يعرضون له الولاء والطاعة ، وإنه يوجد الآن اسطول فارسي في منطقة (رأس الـ RAXEL) وهذا الاسطول يقوم بمساعدة هرمز بتقديم الحاصلات الزراعية والخيول لها ، وإنه على علاقة طيبة معه ، وإن القائد الفارسي يطلب مساعدته لاحتلال جزر ومناطق مجاورة . لذلك قرر البقاء في هرمز لحين وصول النجدة العسكرية البرتغالية له ليقوم بالهجوم على عدن في موسم الربيع القادم .

وهنا ابتداء البوكيرك يحس بأعراض مرض شديد يأكل جسمه ، حتى وجد نفسه غير قادر على مغادرة داره ومسكنه في هرمز ، مما دفعه إلى الاعتقاد بأنه هالك لا محالة ، ففي يوم ٢٢/١٠ دعا إلى اجتماع القادة العسكريين في منزله وأخبرهم بما يشعر به من مرض كما جعلهم يقسمون بعدم الخيانة وبإطاعة من سيكون خلفاً له ، ثم قام بتعيين قريبه (بيرو البوكيرك) حاكماً على هرمز .

وفي يوم الخميس ٨/١١/١٥١٥م غادر هرمز على ظهر السفينة (فلور دي روسا) وهو في أشد حالات المرض ، وعندما وصلت سفينته إلى ميناء قلعات العُماني التقى بمركب جاء من الهند وهو يحمل أسلحة ومعدات للقوات البرتغالية في هرمز ، وكان مع القبطان رسالة موجهة إليه فلما فتحها وجد أن فيها تعليمات من لشبونه بوصول اثني عشر سفينة حربية بقيادة (لوبيو سوريز LOPO SOARES) الذي

سيستلم منصب قائد القوات المسلحة في الهند ، ومعه عدد آخر من الضباط بمنصب أمراء وقادة القلاع والقواعد العسكرية هناك ، كما وجد أن هناك رسالة خاصة له من سفير الشاه يعرض عليه أن يدخل في خدمة الشاه بصفة شخصية ، ووجد رسالة ثالثة أرسلها (لوبو سوريز) إلى قائد قلعة هرمز يخبره فيها باستلامه السلطة العسكرية .

وهنا شعر البوكيرك بخيبة أمل عظيمة أضافت آلاماً على آلامه السابقة في إخفاقه في احتلال عدن ، إذ كان يعتبر عدن واحدة من ثلاثة أهداف كبرى يجب احتلالها وهي (مالاكا) و(هرمز) و(عدن) ، ولقد تمكن من احتلال الهدفين الأول والثاني أما الثالث فقد فشل في تحقيقه .

وكانت الطامة الكبرى عليه يوم علم أن (لوبو سوريز) موجود في الهند ليتسلم منصب نائب الملك بدلاً منه وعلم أن أعداءه في البلاط البرتغالي نجحوا في إثارة الملك ضده . وفي ساعة من ساعات اليأس رفع يديه إلى السماء وهتف صائحاً : «يا للسمعة السيئة للرجال المحيطين بالملك ويا للسمعة السيئة للملك المحاط بهؤلاء الرجال» . وفي المركب كتب وصيته وطلب فيها أن يدفن في كتدرائية (كوا) وأن تُنقل عظامه بعد أن يبلى لحم جسده إلى البرتغال .

وفي يوم ١٢ / ٦ / ١٥١٥ م كتب الرسالة النهائية إلى ملك البرتغال جاء فيها :

« إن هذه الرسالة ستصل إلى جلالتكم وهي مكتوبة بيد غير يدي ، لأنني حينما أكتب ينتابني الشهاق الذي هو علامة الموت ، يوجد معي ابن لي سيرث مني إرثي القليل ، إن الوقائع التي وقعت في الهند ستحدث عن نفسها وكذلك ستحدث عني أنا . إنني سأترك مقام الرئاسة في الهند بأمر جلالتكم ، والأمر الوحيد الذي يجب تنفيذه بعدي هو إغلاق المضيق (يقصد باب المندب) . إنني ابتهل إلى جلالتكم أن تذكروا كل ما فعلته إلى الهند ، وأن تجعلوا ولدي فخوراً بي . »

وصل البوكيرك إلى (كوا) يوم ١٥ / ١٢ / ١٥١٥ م ، حيث اجتمع بنائب الملك

الجديد وفي فجر يوم الأحد وقبل الشروق بساعة واحدة اشتد عليه المرض بشكل خطير فأسلم الروح لبارئها وهلك عن عمرٍ يقدر بثلاثة وسبعين عاماً^(١٩) .

ويعترف كل من كتب عن هذا الرجل من المؤرخين أن البوكيرك (العظيم) فتح البلدان والممالك ونظم تجارة الهند واحتكرها وجعل من البرتغال دولة كبرى تتصدر الزعامة الاستعمارية في العالم وأنه قد تأثر بكتاب حصل عليه حينما احتل (خورفكان) ، وكان ذلك الكتاب مكتوباً بالفارسية وفيه قصة الإسكندر المقدوني في الشرق ، وقد قرأه وتأثر بالإسكندر وحاول أن يكون مثله ، إلا أن أسوأ ما فيه كان معاملته الوحشية القاسية للعرب والمسلمين . لقد كان البوكيرك مسيحياً متعصباً لمسيحيته ، فصب جام غضبه على العرب والمسلمين بقتلهم وتخريب ديارهم ، كما قامت فلسفته على أن القوة والعنف والمظاهر العسكرية العنيفة هي السبيل الوحيد للسيطرة على العرب والمسلمين .

تلك كانت قصة البوكيرك مع العرب والمسلمين وهي مأخوذة في أغلب وقائعها من المصادر الغربية التي تنفرد بالحديث المفصل الدقيق عن سائر وقائع الغزو البرتغالي الذي وفد إلى بلاد العرب كما يفد الطاعون ، ولم يكن حديثهم عن الدين والانتصار للصليب إلا ورقة التوت الساترة لعورات الطمع والنهب والسلب عندهم . أما بالنسبة لأحداثٍ هُرمز فإنه مما لا مجال للشك فيه هو أن الشاه الصفوي كان يتخذ من هُرمز ورقة رابحة للتفاوض مع البرتغاليين لرفع مستوى الحلف فيما بينهم ضد الأتراك وضد العرب في البحرين وساحل القطيف وغيرهم من سكان المنطقة ، وذلك في وقت كان فيه البوكيرك يتحرق غيظاً لتحقيق نتائج رنانة يمكن أن يُرضي بها لشبونه ويسكت هناك حجج المنتقدين لسياسته .

كما أنه ومع الأسف البالغ أن وقوع تلك الجرائم البربرية في مدن وأقطار المسلمين لم

(١٩) DANVERS - المصدر نفسه الصفحات ٣٢٢ إلى ٣٢٦ .

يكن رادعاً لردع المتهاربين على زعامات تلك المدن والمناطق والمقاطعات ، فإن سكوت الإمامة في عُمان عن كل ما حصل في خورفكان ومسقط وغيرها ناتج عن اليأس من إمكان المواجهة مع البرتغاليين ، فكان السكوت عن جرائمهم تعبيراً عن حالة التدهور والانحلال ، وهي أحوال ظلت تأخذ أبعادها إلى أن أفضت إلى قيام دولة اليعاربة هناك في بداية القرن التالي وهي الدولة التي سيقدر لها أن تحطم الاستعمار البرتغالي في الخليج العربي كما سنرى ذلك في الفصول اللاحقة^(٢٠) .

كما أن حالة التدهور والانحلال شملت اليمن ومصر . وتقاتلت الدولتان المسلمتان تركيا وإيران تنازعا على النفوذ . وفي المغرب العربي حيث تركناها في فصل سابق بقيت مقسمة إلى مملكتين كبيرتين ومملكتين صغيرتين يُعشعشُ الاستعمار البرتغالي عليهم جميعاً ، إلى أن قدر الله للمغرب أن تقوم فيه الدولة السعدية وهي الدولة التي سيكتب لها أن تحطم الاستعمار البرتغالي وتقضي عليه قضاءً نهائياً .
وتلك الأحداث سنفصلها في مكانها في فصول قادمة إن شاء الله .

(٢٠) مقتطفات من مقال - البرتغاليون في البحرين وما حولها - للأستاذ أحمد المعناني - مجلة الوثيقة البحرانية - العدد الثالث - السنة الثانية .

الفصل الحادي والعشرون

- * الأمير حسين الكردي يصل مصر ويتسلم منصب قائد الحملة المصرية الثانية .
- * ٢٤/أغسطس/١٥١٤ معركة (جالدران) وسقوط العاصمة الإيرانية تبريز بيد السلطان العثماني سليم ياوز .
- * الحملة المصرية الثانية تصل إلى اليمن وتخرج عن واجبها لقتال البرتغاليين وتدخل في معارك دامية مع سلطان اليمن .
- * ٢٤/أغسطس/١٥١٦، معركة (مرج دابق) بين السلطان سليم ياوز و سلطان مصر قانصوه الغوري ومصرع الأخير في المعركة .
- * حملة نائب الملك البرتغالي (الويو سوريزا) إلى عدن وعقد معاهدة سلام مع حاكم المدينة الأمير مرجان الظافري .

توقفنا في الفصل الثامن عشر من هذا الكتاب عند موضوع التهيؤ للحملة البحرية المصرية الثانية التي كان يعد لها سلطان مصر قانصوه الغوري ، لتذهب لقتال البرتغاليين في قواعدهم في البلاد العربية والهند .

وقد اكتملت فكرة الإعداد للحملة عندما وصل إلى مصر فجأة الأمير حسين الكردي القائد العام للحملة المصرية الأولى التي اندحرت في ديو عام ١٥٠٩ م ، وما أعقبها من معارك ضد قوات البوكيرك ، وكان معه موفد من الشريف بركات بن محمد الحسيني شريف مكة وأمير الحجاز ، الذي شرح للسلطان أخبار الفعاليات

العسكرية البرتغالية في البحر الأحمر ومحاولتهم الوصول إلى الأماكن المقدسة والسويس وغيرها ، فساد القلق والهلع أوساط الناس وألقى قاضي القضاة الشافعي الإمام كمال الدين الطويل خطبة في جموع المصلين يوم الجمعة شرح لهم أبعاد نكبة وصول البرتغاليين بالقرب من الأراضي المقدسة واحتلالهم لبعض الأراضي العربية وحث الناس على الجهاد .

أما إجراءات السلطان الغوري فقد أصدر أوامره بإعداد الحملة ، ووضع الأمير حسين الكردي قائداً عاماً لها .

وفي الاجتماع الذي عقده السلطان مع أركان حربه تقرر ما يلي :

١ : أن يذهب الأمير حسين الكردي إلى جدة لتنظيم وترتيب أمور الدفاع هناك ومشغلة القوات البرتغالية المهاجمة لحين الانتهاء من إعداد الحملة الثانية .

٢ : أن ترافق الأمير حسين قوة بحرية بقيادة أمير البحر (خشقدم شاد النون) ، وتكون مهمة هذه القوة التوغل في البحر الأحمر والوصول إلى السواحل اليمنية لمراقبة تحركات البرتغاليين والإخبار عنهم .

٣ : تشكيل وفد برئاسة زين الدين المحتسب والطواشي بشير لمقابلة سلطان اليمن والتنسيق معه .

٤ : المباشرة بإعداد الحملة الثانية التي ستكون من أربع فرق عسكرية محمولة بحراً .

لكن الأقدار شاءت أن يحل الطاعون في مصر ذلك العام بحيث شل نشاط وقدرة السلطان لمدة سنة كاملة تقريباً وبسبب ذلك تأخر الإعداد للحملة^(١) .

أما الأمير حسين الكردي فقد توجه إلى جدة وأمر ببناء سور ضخيم محصن حولها ، وأصدر أوامره لكافة أبناء الشعب بالعمل ليلاً نهاراً في بناء السور ، ولما احتاج إلى المال

(١) ابن إياس - المصدر نفسه - ص ٣٠٨ .

لإتمام البناء قام بحجز أموال الأغنياء وتصرف بها ، كما طلب المعونة من أمراء الهند المسلمين فأرسلوا له ثلاث سفن محملة بالتوابل بقيادة قبطان عربي اسمه (خليفة) ، فلما وصل هذا إلى جدة أخبر حسين الكردي أن هذه الحملة قد خرجت بموافقة البرتغاليين من كاليكوت لأنهم لم يعرفوا اتجاهها ، كما أخبره عن الموقف العام في الهند ، مما جعل الأمير يتوجس خيفة من الملاح ويعتقد أنه جاء للتعسس عليه لحساب البرتغاليين ، ولكي يقطع الشك باليقين حجزه وبحارته وأشرعهم في بناء السور^(٢) ، إلا أنه عندما أجبر الناس على العمل ليلاً نهاراً وقام بحجز أموال الأغنياء فإنه خلق موجة كراهية وبغض له بين أوساط الشعب هناك .

أما الموقف في مصر فلم يطرأ عليه تغيير بسبب الطاعون إذ أن الحملة الثانية ظلت مشلولة فيما كان السلطان قانصوه الغوري قد التقى بوفد من شاه إيران اسماعيل الصفوي يعرض عليه الدخول في حلف ضد الأتراك الذين أخذوا يهددون الممتلكات المصرية في الشام ، إلا أن الموقف الذي وقفه الشاه بالتعاون مع البرتغاليين جعل السلطان المصري يحجم عن عقد معاهدة كهذه .

وعلى كل حال فقد أصدر السلطان الغوري أوامره بأن يبقى الأمير حسين الكردي حاكماً في جدة ، أما الحملة الثانية فقد أوكّلها إلى قائد جديد يعرف باسم (سلمان العثماني) و(سليمان الرومي) ، كما ورد اسمه (سلمان) أيضاً . وسليمان هذا ضابط تركي الأصل جاء مع المساعدات العسكرية التي أرسلها السلطان العثماني بايزيد إلى مصر عام ١٥١٠م ، وبقي في مصر طوال تلك المدة قام خلالها بتدريب البحرية والأسطول المصري . فلما أكمل هذا الضابط إعداد الحملة تم تعيينه قائداً للأسطول ونائباً للقائد العام الأمير حسين الكردي الموجود آنذاك في جدة ينتظر قدوم الحملة الثانية .

وفي شهر محرم ٩٢١هـ - ١٥١٥م قام السلطان الغوري بتفتيش الحملة ، وألقى

(٢) د . نعيم زكي فهمي - المصدر نفسه - ص ١٠٩ .

كلمة في جنودها حثهم على قتال البرتغاليين وقال لهم إن هدفهم هو تحطيم البرتغاليين في الهند ووزع عليهم النقود والهدايا .

وفي شهر جمادى الأول قام السلطان بتثبيت أمراء الوحدات وهم كل من القائد (يشبك) والقائد (دمرداش الأقریطشي) الذي وصفه ابن إياس وصفاً عجبياً إذ قال عنه : « وكان أصله افرنجياً يبيع النبيذ الأقریطشي فاشتهر بذلك فأنعم عليه السلطان وجعله باش العسكر ، فكان ذلك من غلطات الزمان . »

وقد بلغ تعداد القوة قبل رحيلها ستة آلاف مقاتل يتألفون من قوميات وجنسيات مختلفة منها المماليك الشراكسة الأصليون ، وأتراك عثمانيون ومماليك قراصنة وهؤلاء يحتمل أن يكونوا أسرى الحروب المصرية - الأوربية وجنود من المغرب العربي ، وهناك وحدات عسكرية عرفت باسم (أولاد ناس) الذين يحتمل أن يكونوا من العرب المصريين ، كما كانت هناك وحدات باسم (عسكر الطبقة الخامسة) وهي وحدات عسكرية خاصة .

وفي يوم الاثنين العاشر من رجب ٩١٢ هـ - ٢٠ / أغسطس ١٥١٥ م صعد السلطان على منصة الاستعراض ووقفت أمامه القوة كلها بسلاحها الجديد (البندقية) التي ظهرت لأول مرة في ميدان الأسلحة المتطورة الحديثة ، وسلاح آخر اسمه (المكحلة) وهي نوع من قاذفات اللهب والنار تشتغل بالزيت والمحروقات . وبعد مراسيم التفتيش المعتادة خلع السلطان على القائد سليمان العثماني بزة عسكرية من المخمل الأحمر ، ثم قرأ الكل سورة الفاتحة ، ثم عزفت الموسيقى ، فخرج العسكر من الميدان إلى شوارع القاهرة وسط حماس شعبي كبير ، ثم اتجه الموكب نحو البحر حيث كان في انتظارهم عشرون مركباً كبيراً لنقلهم إلى جدة ليلتحق بهم هناك القائد العام للحملة ، الأمير حسين الكردي^(٣) .

* * *

(٣) ابن إياس - المصدر نفسه - الصفحات ٤٣٦ ، ٤٥٨ ، إلى ٤٦١ .

قبل أن نواصل الحديث عن مسار الحملة الثانية هذه لابد من الحديث عن الأوضاع الأخرى التي سادت العالم العربي والإسلامي في تلك الفترة .

فبالنسبة إلى العلاقات الفارسية - العثمانية المتأزمة ، فإنها دفعت بشاه إيران إلى التنازل للبرتغاليين عما يريدون بل إلى عقد حلف معهم في سبيل دعمه في حربه ضد العثمانيين ، ودفعت به أيضاً إلى التوسل بسultan مصر لعقد حلف بينهما ضد نفوذ الدولة العثمانية السنية المذهب الذي أخذ يتصاعد بشدة يومذاك ويهدد كل الزعامات المسلمة في العالم الإسلامي بأنها ستنتطوي إن عاجلاً أو آجلاً تحت الزعامة العثمانية الجديدة .

ففي عام ١٥١١م حدث انقلاب في تركيا العثمانية أطاح بالسultan بايزيد ، وهو الذي كان متحمساً لمساعدة الدولة المملوكية في مصر في حربها ضد البرتغاليين ، وقد قام بالانقلاب ابنه المسمى (سليم) والذي لَقَّبَ نفسه فيما بعد (ياووز سلطان) أي السلطان المهيول ، وكان هذا الشاب ذا نزعة عسكرية وميول واضحة للتسلط وقد حاول أن يطيح بحكم والده عدة مرات سابقاً إلا أنه فشل ، ولكنه وفي أواخر ذلك العام ظهر فجأة مع جيش من أنصاره أمام أبواب استانبول ، فانحازت اليه حامية المدينة واستسلم الحرس الخاص لقصر والده فدخله وأكره أباه على التنازل .

لم يرق هذا الأمر للسultan قانصوه الغوري الذي كان يتوقع إمدادات عسكرية مستعجلة من تركيا ، علاوة على قلقه من ميول السلطان العثماني الجديد التي تبدو وكأنه يريد أن يمد نفوذه على كافة الأقطار الإسلامية ومن ضمنها عرش قانصوه الغوري نفسه في مصر ، إلا أن السلطان سليم لم يكن مهتماً بمصر والممتلكات المملوكية في الشام ، بل كان جل اهتمامه منصباً على تحطيم الشاه اسماعيل الصفوي الذي يمثل عدواً سياسياً وعسكرياً ودينياً مذهبياً له . ففي الثاني من رجب ٩٢٠هـ - ٢٤ / أغسطس / ١٥١٤م ، وفي شمال إيران وعلى سفوح سهل (جالدران) التقت خيالة الفرس بقيادة الشاه اسماعيل نفسه بالجيش العثماني الإنكشاري القادم من

تركيا ، فأنزلت المدفعية التركية المتفوقة هزيمة ساحقة بالجيش الفارسي ، ثم اجتاحت جنود الإنكشارية العثمانيون شمال إيران كله ، ودخلوا العراق ووصلوا مدينة الموصل ، ثم لم يلبثوا أن دخلوا العاصمة الإيرانية (تبريز) .

وقد أدى سقوط العاصمة الإيرانية بيد القوات العثمانية إلى هروب الشاه إلى داخل إيران ، وإلى تشتت شمل جيشه ووقوع الكثير من قادته أسرى بيد السلطان العثماني ، كما وقعت إحدى زوجات الشاه أسيرة بيده أيضاً ، وفتحت مدينة (تبريز) أبوابها ودخلها السلطان العثماني منتصراً يوم ٤ / ٩ / ١٥١٤ م ، واستولى على خزان الشاه وأرسلها إلى القسطنطينية^(٤) .

وبعد ذلك اندفعت الجحافل التركية لتستولي على ماردين وأورفة وهي مدن تقع قرب الحدود السورية ، ثم استولت على الرقة وهي بلدة سورية وبذلك فقد وصلت إلى حدود السلطان قانصوه الغوري سلطان مصر ، فقرر هذا أن يعيد النظر في أمر علاقاته مع شاه إيران الذي فقد عاصمته ، ودخل الاثنان في مفاوضات انتهت إلى نوع من التحالف لم تكتب بنوده ، وفي الوقت نفسه كان الشاه اسماعيل قد أرسل موفداً لمقابلة البوكيرك في الهند ، كما بينا ذلك في الفصل السابق وأرسل سفراء إلى لشبونة لمقابلة الملك مانويل ملك البرتغال ، وقد أثمرت فعالياته بعقد الحلف الذي مر ذكره في الفصل السابق ، لكن موقف الشاه بقي متأزماً في بلاده بسبب ثورة قام بها (البلوش) في منطقة (مكران) الجنوبية فكانت الاستعانة بالبرتغاليين لإخمادها أحد شروط المعاهدة ، كما أن ثورة أخرى نشبت ضده في البحرين وساحل القطيف ، لم يترك لنا المؤرخون تفاصيلها ، وهذا ما دفعه لوضع مادة في المعاهدة الإيرانية - البرتغالية تنص على أن يساعده البرتغاليون هناك أيضاً .

* * *

نعود الآن إلى الحملة البحرية المصرية الثانية بقيادة الأمير حسين الكردي ، فقد

محمد فريد وجدي - تاريخ الدولة العلية العثمانية - ص ١٥٠ .

غادرت هذه الحملة مدينة جدة متجهة نحو اليمن للقيام بالتنسيق هناك مع اليمنيين وتعزيز مواقعهم وحمايتهم من هجمات البرتغاليين واتخاذ عدن وبقية الموانئ اليمنية قواعد حربية يستفيد منها الأسطول المصري لمقاتلة السفن البرتغالية الموجودة في سقطرة وشرقي أفريقيا والتي تعيثُ فساداً في البحار العربية وتمنع السفن العربية من الإبحار فيها .

وقد تم أول اتصال بين الحملة المملوكية المصرية وبين سلطان اليمن عامر بن عبدالوهاب الطاهري بعد وصول الحملة إلى (جيزان) أول الموانئ اليمنية الشمالية ، فقد أرسل حسين الكردي رسولاً إلى سلطان اليمن يخبره بوصول الحملة لمحاربة البرتغاليين ويطلب منه مساعدته ومده بالمعونة من المال والطعام ، لكن السلطان لم يلب طلباته فوراً ولم يرسل له جواباً على رسالته .

وكرر حسين الكردي الاتصال بالسلطان عندما وصل إلى جزيرة (كَمَران) في ١٧ / من ذي القعدة / ٩٢١ هـ أي ٢٣ / ١٢ / ١٥١٥ م فأرسل الرُّسلَ والهدايا إليه كما أرسل هدايا إلى ابنه الأمير عبدالوهاب وهو ولي العهد المقيم بمدينة (زبيد) ، ثم طلب الكردي ثانية من السلطان مساعدته ومده بما تحتاجه الحملة مُدلاً عليه بما سبق له من المكاتبات إلى السلطان الغوري في طلب النجدة ، إلا أن سلطان اليمن عامر بن عبدالوهاب الطاهري غير رأيه فجأة وامتنع عن التعاون مع الحملة المصرية فَجَرَّ الكارثة والنكبة لنفسه وبلاده .

فماذا حصل . ؟ ولماذا غير السلطان سياسته وتراجع عن الوفاء بالتزاماته في مساعدة الحملة فانقلب ضدها وقتلها فيما بعد بحيث نسيت الحملة هدفها الرئيسي وهو قتال البرتغاليين وانصرفت لقتال اليمنيين والدخول والتورط بمشاكلهم الداخلية وانتهى الأمر بالقضاء على الدولة الطاهرية هناك ، فكان عام ١٥١٦ م بداية الكوارث والنكبات على اليمن .

يقول المؤرخون اليمنيون أمثال بامخرمة وابن الديبع والكبسي (صاحب مخطوطة

الألطاف السنية) إن أساس المشكلة كان بسبب انتهازية بعض العناصر اليمنية الساخطة أو الطامعة الطموحة لتحقيق مصالحها الخاصة ، وكان على رأس تلك العناصر اليمنية الإمام شرف الدين يحيى الزيدي زعيم الطائفة الدينية السياسية اليمنية المنشقة ، ويفسرون الأمر بأنه لما وصل الجهاز المصري (أي الحملة) إلى كمران ، لم يعلم بهم السلطان عامر إلا وهم بجيزان ، أي أن السلطان بوغت بدخول قوات مصرية إلى بلاده ، وأنهم كتبوا إليه وأرسلوا الهدايا له ولولده ولي العهد يشرحون غرضهم وهو الجهاد ضد الأفرنج ويريدون المساعدة منه ، فأراد السلطان مساعدتهم بالمال والزاد ، فاستشار أحد مستشاريه وهو الأمير محمد علي البعداني فيما يجب عمله مع الحملة التي بوغت بوصولها المفاجيء ، فأشار عليه البعداني أن يعطيهم من الزاد ما يكفيهم فقط وأن لا يتعاون معهم أكثر من ذلك وأن يكتفي شرهم وأن لا يظهر لهم القبول وأنهم لا يسوون شيئاً وأن يتركهم في البحر لا يتجاوزونه . فتبع السلطان المشورة وأعرض عن القاصد المصري ، وكتب إلى ولده ولي العهد الأمير عبدالوهاب حاكم مدينة زبيد يأمره بعدم مساعدة المصريين وأن يأخذ جانب الحذر منهم وأن لا يترك مدينته^(٥) .

أما المؤرخ اليمني الكبسي صاحب مخطوطة (اللطائف السنية) فيشرح لنا سر معارضة المستشار البعداني للتعاون مع الحملة المصرية ويعزو ذلك إلى العلاقة التي ارتبط بها قائد الحملة حسين الكردي والإمام المنشق شرف الدين يحيى الزيدي فيقول ما مفاده :

« ولما علم الإمام الأعظم شرف الدين يحيى بن شمس الدين الزيدي بخروج عساكر الغورية تيقن أن مُلك السلطان عامر بن عبدالوهاب قد أشرف على النهاية والخراب ، فبث دعائه في البلاد ورجح رأيه السديد أن يكتب إلى رئيس الأجناد المصرية الأمير حسين يستصرخه على السلطان عامر ويحثه على النهوض عليه ويذكره بما فعله مع

(٥) بامخرمة - مخطوطة قلادة النحر - حسبما وردت في كتاب البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه - ص ١٣٣ .

الأئمة الزيدين قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من تفريقهم في البلاد وقتلهم بالسموم ، وقد استهل كتابه بقصيدة جاء فيها :

أتتنا غارة من أهل مصر رعت لنا نسباً وصهرا
بتمكين أهل البيت ممن نكبهم جهرة قتلاً وأسرا
وتطريداً وتشريداً وهوناً كأنهم أتوا فحشاً ونكرا
وأعظم ذاك شيبة آل طه وأكثر نسلهم نسباً وقدر
تمكن عامر منه فأضحى يحاول قتله سرّاً وجهراً

وأرسل الكتاب بيد الفقيه صلاح بن سراج إلى زعيم العساكر المصرية ، فاطّل زعيم العساكر على الكتاب وعرضه على أركان حربه ومستشاريه واستمدهم الرأي فيما يكون الجواب على كتاب الامام ، فأشار عليه أحد مستشاريه قائلاً :

« آخر جواب الإمام ، وأكرم رسوله ما أقام ، ووجّه رسولا إلى هذا السلطان الذي نُسب إليه الظلم والطغيان ، واستمد منه الإعانة على الإفرنج الغادرين ، فإن أجاب لهذا المطلب فهو عادل وناصح ، وعلمنا أن هذا الإمام منافس له في دنياه ومعارض له في حكمه ، أما إذا تلكأ عن هذا المقصد فإنه من الفجار وما نسبه إليه الإمام حق لا ريب فيه . »

فأخذ الأمير حسين برأي المستشار واختار رجلين من عقلاء عسكره وكتب كتاباً إلى السلطان عامر أرسله بيدهما ، فلما وصل الرجلان إلى بلاط السلطان عامر أكرمهما ، ثم اجتمع مع أركان دولته وشرح لهم ما في كتاب القائد المصري من طلب المعونة العسكرية لقتال البرتغاليين ، فأشار عليه الفقيه محمد علي النطاري قائلاً : « الرأي السديد إسعافهما بهذا المطلوب ، فهو عمل مرغوب ، وأنت في سعة من سلطانتك ، وكثرة من أعوانك ، وما دعوا إلا للخير وفي ذلك استبعاد لشركهم وقطع عذرهم . »

أما المستشار الآخر هو الأمير محمد علي البعداني فقد طلب منه السلطان المشورة

فأشار بغير الصواب قائلاً : « أنا القائم بالخطاب ، والنائب في رد الجواب . » ثم طلب الرسولين وقال لهما : « أمير كما ممن يجهل حق السلطان الملك الظافر صلاح الدين (يقصد عامر) حتى يرسلكما بهذه الرسالة ، كأنه بعض عماله ، والله لولا أن قتل الرسول حرام لأعرضتكما على الحسام . »

فخرجوا من حضرته مرعوبين ما لهما غير النجاة بأنفسهما من السيف ، ورجعا إلى الأمير حسين وأخبراه بما جرى ، لذلك فقد استجاب أمير العساكر المصريه إلى مطالب الإمام الزيدي المنشق بما يشفي العليل وفي الغليل^(٦) .

أما الدكتور محمد عبدالعال أحمد فيحلل ما حصل في حاشية كتابه (البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية للسيطرة عليه) بما يلي :

لقد فوجئت الحملة المملوكية الثانية بتغير سياسة الطاهريين منها نتيجة لاقتناع السلطان عامر بن عبدالوهاب بنصيحة غير المخلصين من مستشاريه الذين خوفوه من المطامع المملوكية فأخذ برأيهم بوقف ما التزم به من مساعدات وتسهيلات للاستطول حتى لا تكون عادة يتمسك بها المماليك إلى ما بعد زوال الأسباب التي دعت إليها مما يترتب عليه أن يصبح السلطان الطاهري تابعاً للمماليك ، لذلك أصدر أوامره بعدم السماح للحملة المملوكية باستخدام الموانئ اليمنية ، كما أبدى استعدادده للتصدي لها إذا ما حاولت ذلك ، لذلك فإن الزيدية بإمامة الإمام شرف الدين قد اهتموا بأمر حملة حسين الكردي الثانية ، واستغلوا موقف السلطان المعادي للجراكسة المماليك ، فعملوا على كسب ود قائدهم .

أما الدكتور السيد مصطفى سالم فيقول في كتابه (الفتح العثماني الأول لليمن ١٥٣٨-١٦٣٥) ما يلي :

« إن حجة المستشار اليمني للسلطان في عدم مساعدة الحملة ، هي الخوف من أن

(٦) المؤرخ اليمني الكبسي - مخطوطة اللطائف السنية - كما وردت في كتاب البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية للسيطرة عليه - ص ١٤٢-١٤٣

تكون مطالب الممالك نوعاً من فرض السيادة السياسية أو السيطرة العسكرية على اليمن ، أو أن يتحول طلب الممالك إلى جزية سنوية يُطالبُ بها اليمن باسم محاربة البرتغاليين ، وما لا شك فيه أن شخصية القائد حسين الكردي وسوء تصرفاته في جدة أثناء إقامته فيها وسوقه الناس جبراً للعمل والسخرة علاوة على قيامه بوضع يده على أموال الناس هناك والدكتاتورية التي أشاد عليها نظام حكمه قد وصلت إلى مسامع أهل اليمن ، فوجدوا أنه من المحتمل أن يقوم في اليمن بمثل ما قام به في جدة لذلك فقد اضطر السلطان اليماني إلى التعامل معه بحذر شديد .»

وعلى كل حال فقد عاد الوفد المملوكي خائباً ، وشرح للأمير حسين الكردي الموقف المعادي الذي اتخذته السلطان من الحملة ، فقام الأمير حسين ببناء سور يحيط ببعض أجزاء جزيرة كمران وقرر البقاء فيها إلى أن ينجلي الموقف أكثر ، بينما كان الإمام الزيدي شرف الدين يحث القائد المصري على نزول قواته إلى الشاطيء وأرسل اليه ضابط ارتباط لينسق معه وهو السيد عز الدين بن أحمد بن دريب ، كما قام بعض سكان منطقة تهامة التي تعارض حكم السلطان عامر بن عبد الوهاب باعلان ترحيبهم بالحملة واستعدادهم للتعاون معها في سبيل إسقاط نظام الحكم في اليمن .

وقد انفجر الموقف المتأزم مرة واحدة واختلطت الأوراق وضاعت الحسابات عندما قام الأمير حسين الكردي بإرسال ثلاث من سفنه للتسوق وشراء الطعام من أسواق مدينة الحديدة ، وفي خبر آخر أن ثلاث سفن محملة بالمؤن والطعام الخاصة بالقوة المصرية خرجت من ميناء (زيلع) في الصومال وتوقفت في ميناء الحديدة في طريقها إلى المعسكر المصري في كمران ، وهناك قام الحاكم محمد بن نوح بحجزها ومنعها من مغادرة الميناء ، ثم إنه كتب إلى ولي العهد الأمير عبد الوهاب بن عامر بن عبد الوهاب في مدينة تعز يخبره بما حدث فوافق ولي العهد على ذلك وأرسل قوة عسكرية لحماية ميناء الحديدة . فلما وصلت أنباء حجز السفن الثلاث إلى مسامع الأمير حسين الكردي استشاط غضباً وأرسل ثلاث سفن حربية إلى الحديدة أُنذرت

الحاكم بالإفراج عن السفن ، فلما امتنع الحاكم ، فتحت السفن المصرية النار على المدينة ، ثم دخلها الجنود ونهبوا كل ما كان موجوداً على رصيف الميناء من بضاعة ، بينما هرب الحاكم إلى بلدة تسمى (الحيا) تقع على قمة جبل هناك ، وقام الجنود بتخريب الميناء وقفلوا راجعين إلى قواعدهم في كمران . وهكذا انطلقت شرارة الحرب بين الحملة المصرية المملوكية وبين الدولة الطاهرية في اليمن^(٧) .

استغل تلك الحادثة أعداء السلطان عامر بن عبدالوهاب ، وعلى رأسهم الإمام الزيدي الذي اتخذ من صنعاء عاصمة له وأيده جملة من حكام وأشراف منطقة تهامة وهي منطقة السهل الساحلي الواقع شمال وشمال شرقي اليمن الشمالية في يومنا هذا وفيها مدن جيزان واللحية وتشكلان مراكز مهمة للجبهة السياسية المعارضة للسلطان عامر ، وكما بينا سابقاً فإن الشريف عز الدين بن أحمد دريب شقيق حاكم جيزان قد اشتغل ضابط ارتباط بين القوات الموالية للإمام الزيدي وبين الأمير حسين الكردي ، كما أن الفقيه أبو بكر المقبول الزيلعي حاكم مدينة اللحية الموالية للإمام الزيدي ، كان متحمساً جداً للانضمام إلى الحملة المصرية لإسقاط نظام الحكم في اليمن .

أما سلطان اليمن فقد كان في عاصمته (المقرنة) عندما بلغه نبأ اجتياح جنود الحملة المصرية لمدينة الحديدة ونهبها وتخريبها ، فقام بعقد اجتماع مع أركان دولته ، اتخذ فيه قراراً بإعلان الحرب على الحملة وطردها من أرض اليمن ، فسلم قيادة الجيش إلى أخيه الأمير عبدالملك بن عبدالوهاب وأوعز إلى القائد عبدالحق محمد النظاري أحد حكام مناطق اليمن الجبلية بتجهيز قوة من المقاتلين الأشداء والانضمام إلى قوات ولي العهد الأمير عبدالوهاب بن عامر المرابطة في مدينة زبيد الاستراتيجية المهمة ، وبعد أن كملت التحضيرات اندفع الجيش اليماني بقيادة الأمير عبدالملك بن عبدالوهاب واحتل مدينة المرجف واتخذها قاعدة لمهاجمة القوة المصرية الموجودة في جزيرة كمران .

(٧) بامخومة - المصدر نفسه - ص ١٣٦ ، وكذلك ابن الديبع - المصدر نفسه - ص ٣٥٩ .

أما الموقف على الجبهة الزيدية المعارضة ، فإنها حينما رأت استعدادات الحكومة للقتال ، سارع زعمائها الى الانضمام إلى الحملة المصرية . ففي مدينة (الليحية) قام حاكمها (الفقيه الزيلعي) بتقديم الولاء والطاعة للقائد المصري ، فطلب منه ذلك القائد أن يخطب في المنابر لسلطان مصر ، ففعل ذلك ، وجهز جيشاً توجه به إلى حيث انضم إلى قوات الأمير الكردي التي نزلت على سواحل اليمن الشمالية ، فيما تقدمت قوات جيزان بقيادة الشريف عز الدين بن أحمد والتحقت أيضاً بقوات الأمير الكردي ، وسار الجمع كله باتجاه معسكر القوات السلطانية في (المرجف) لقتالها هناك .

قرر القائد العام الأمير حسين الكردي أن يهاجم على محورين ، محور بقيادته ومعه قوات حاكم الليحية ، ومحور ثان لقوات جيزان ومعها بعض الكتائب المملوكية وعندما وصلت قوات المحور الأول إلى مدينة (مور) خرج حاكمها الأمير محمد بن سلمان للدفاع عنها ، إلا أن مشاة المماليك استخدموا السلاح الفتاك الجديد (البندقية) وفتحوا نيران بنادقهم فحصدوا الجيش السلطاني حصداً ، ثم اجتاحت القوة مدينة (الضحى) أيضاً ، وبعدها تم احتلال منطقة تهامة كلها ، وهناك توقف الأمير حسين الكردي حيث التحق به قائد البحرية المملوكية الضابط سليمان العثماني أو (سلمان الرومي) ومعه ألف من جنود البحرية .

أما قوات جيزان ، أي قوات المحور الثاني بقيادة الشريف عز الدين ، فقد شنت هجوماً على معسكر الأمير عبد الملك بن عبد الوهاب في (المرجف) فحدثت معركة عظيمة بين الطرفين ، استخدمت القوات المملوكية فيها سلاح البندقية الذي زرع الموت والرعب في صفوف القوات السلطانية فانهمزمت مما أجبر الأمير عبد الملك على أن ينسحب بقواته إلى بلدة (جيبيل) وهناك انضم إلى قوات مدينة (زيد) التي يقودها ابن أخيه ولي العهد الأمير عبد الوهاب بن عامر .

أما الأمير حسين الكردي ، فقد ارتفع صيته بين القبائل الزيدية التي راحت تنضم إليه

أكثر فأكثر ، وإزاء ذلك قام بتقسيم القوة إلى ثلاثة جحافل :

١ : القوة المملوكية المصرية بقيادته .

٢ : القوة الزيدية اليمانية بقيادة الشريف عز الدين بن أحمد .

٣ : القوة البحرية بقيادة سليمان العثماني .

وكانت خطة الحركات أن تتحرك القوتان المملوكية والزيدية فتطبقان على مدينة زيد ، على أن يتقدم الأسطول بحراً ، ثم يترجل جنود البحرية وينضمون إلى القوة المهاجمة . وهكذا تقدمت تلك الجحافل واحتلت مدن بيت الفقيه والمره والقرشيه وتحيتا ، وفي منطقة وادي نخل زيد التحق جنود البحرية بالقوة ، وفي يوم ١٩ / جمادى الأول / ٩٢٢هـ - ٢١ / حزيران / ١٥١٦م وقف الحشد أمام مدينة زيد التي أغلقت أبواب أسوارها .

أصدر الأمير حسين الكردي أوامره بأن يقوم الجحفل الزيدي بالهجوم على أحد أبواب المدينة المسمى (باب النخل) ويسمى (باب الخلافة) أيضاً ، على أن يقوم الجحفل المملوكي بالهجوم على (باب الشبارق) . أما في داخل مدينة زيد فقد كان الأميران عبد الملك وعبد الوهاب يضعان خطط مواجهة العدو ، فقرر أن يقوموا بأخذ المبادرة بأيديهما وذلك بالهجوم على الفيلق الزيدي ، ففتحا باب الخلافة واندفعا على رأس قواتهما واشتبكا بالعدو ، وبعد معركة عنيفة اضطر الأميران إلى الانسحاب بعد أن فتكت بنادق مشاة المماليك وأسلحتهم النارية بجنودهم ، وأثناء الانسحاب أصيب ولي العهد الأمير عبد الوهاب بطلق ناري فسقط أرضاً فقام عمه بنقله جريحاً إلى داخل المدينة وأغلق أبواب سورها ، ثم لما اشتدت وطأة الهجوم في الخارج قرر الأمير عبد الملك أن يهرب من المدينة ، فأخذ معه ولي العهد الجريح وأركبه على فرسه ، ثم أمر سرية من فرسانه الشجعان أن يستعدوا للخروج من باب الشبارق ، فلما فُتح الباب شاهد عبد الملك أمامه صفوف الجنود المماليك تقف بطواير متناسقة ، فأصدر أوامره

إلى الفرسان اليمانيين بالقيام باختراق الصفوف وكسر الحاجز ، وبمهاره عسكرية فائقة استطاع الأمير عبدالملك أن ينجو بنفسه ومعه ابن أخيه ولي العهد فوصلا إلى مدينة تعز لكن ولي العهد أسلم الروح هناك متأثراً بجراحه^(٨) .

أما الماليك فقد قاموا باستباحة مدينة زبيد لمدة ثلاثة أيام وقام الأمير حسين الكردي باعتقال تجار المدينة ومصادرة أموالهم وربطهم بالسلاسل الحديدية ، ثم قام بتعيين القائد (برسبائي) أحد أمراء الكتائب المملوكية حاكماً على المدينة على أن يعاونه الشريف عز الدين أحمد قائد الجحفل الزيدي .

وفي مقر قيادة الأسطول المصري المملوكي اجتمع القائد العام للحملة بقائد الاسطول وقررا مهاجمة مدينة عدن المدينة الساحلية المهمة للدولة الطاهرية ، وقبل الهجوم ذهبا إلى أفريقيا وأخذوا حاجتهما من طعام ومؤونة من بلدة (زيلع) ، ومن هناك أقلعا بواحد وعشرين مركباً متجهين نحو عدن حيث وصلها في ١٢/ أغسطس/ ١٥١٦ م .

ومن مكانه في وسط البحر ، أوقف الأسطول المملوكي مجموعة سفن يمانية بقيادة سفينة السلطان واسمها (الهاشمي) كانت في طريقها إلى الهند ، حيث أرسل الأمير حسين الكردي خطاباً بيدهم موجهاً إلى حكام الهند المسلمين يخبرهم فيه أن اليمن قد سقطت بيد الماليك وأن الدولة الطاهرية في اليمن قد انهارت وحل محلها الجيش المملوكي المصري الذي سيتقدم فيما بعد لمحاربة البرتغاليين في الهند وسحقهم .

ثم قرر الهجوم على عدن فترجل المشاة بقيادته إلى زوارق الإنزال ، ولما وصلوا الساحل حيث كان حاكم عدن الأمير مرجان الظافري في انتظارهم دارت معركة ضارية تفقهق فيها الكردي عائداً إلى الأسطول ثانية ، ثم شن قائد الأسطول الضابط سليمان العثماني هجوماً تمكن فيه من احتلال قلعة (الصيرة) الاستراتيجية المهمة المسيطرة على الميناء والمدينة ، ومن هناك راح يقصف بمدافعه وسط مدينة عدن فتهدم

(٨) بامخرمة - المصدر نفسه - ص ١٥٤ . وكذلك ابن الديبع - المصدر نفسه - ص ٣٦٣ .

قسم من سورها ، إلا أن أهالي عدن سارعوا إلى ترميم الجزء المتهدم ، ثم قام جنود البحرية بشن هجوم على الأسوار وتمكنوا من الصعود إلى أعلاها وحدثت معركة شديدة انكسر فيها جنود البحرية وعادوا إلى أسطولهم متقهقرين ، وفي اليوم التالي وصلت نجدة إلى عدن بقيادة الأمير عبد الملك بن عبد الوهاب الذي أحكم السيطرة على مصادر المياه في المدينة وقتل كل الجنود المماليك ، وإزاء الفشل الذي أصاب الأمير الكردي باقتحام عدن فقد قرر صرف النظر عن الأمر أصدر أوامره بحركة الأسطول شمالاً نحو (زبيد) فغادر الأسطول المدينة يوم ٢١/ رجب/ ٩٢٢ هـ أي ١٩/ أغسطس/ ١٥١٦ م ، ووصل إلى هناك واجتمع الكردي بالقائد (برسبائي) ، وبينما هما كذلك إذ وصلت إليهما أنباء مفجعة من مصر مفادها أن السلطان قانصوه الغوري قد قتل في معركة ضد الجيش العثماني في (مرج دابق) في سوريا ، وأن الوضع خطير جداً في مصر والأحوال مضطربة والجيش العثماني يهدد باكتساح مصر كلها^(٩) .

* * *

فماذا حدث في مصر ، وأية كارثة حلت بها ، وهل ستؤثر في الحملة المصرية الموجودة في اليمن والتي من المفروض أن يكون واجبها مقاتلة البرتغاليين . ؟ .

في ربيع عام ١٥١٦ بلغت الأزمة السياسية أشدها بين السلطان العثماني (ياووز سليم) الذي حشد قواته في شمال العراق وسوريا ، وبين الشاه اسماعيل الصفوي شاه إيران المتحالف مع السلطان قانصوه الغوري سلطان مصر ، لذلك فقد قرر سلطان مصر أن ينجد حليفه اسماعيل الصفوي ، لشعوره بالخطر من اقتراب قوات السلطان سليم من حدود مملكته واحتمال قيامه باحتلال مصر إن عاجلاً أو آجلاً ، فجهز جيشاً قاده بنفسه وسار به إلى سوريا وأخذ معه محمد المتوكل على الله آخر ذرية بني العباس الذين لجأوا إلى مصر بعد سقوط بغداد بيد هولاكو ، وعندما وصل إلى حلب ، أرسل

(٩) بامخرمة - المصدر نفسه - ص ١٦٠ ، وابن الدبيع - المصدر نفسه - ص ٣٦٥ .

وفداً لمقابلة السلطان العثماني يعرض عليه التوسط بينه وبين العجم لعقد صلح بينهم ، إلا أن السلطان العثماني كان يشعر بأن وجود سلطان مصر في سوريا معناه رغبته في مساعدة شاه العجم ، وأن رغبته التوسط للمصلح ما هي إلا خدعة ، فقام بإلقاء القبض على أفراد الوفد المصري ، وأمسك برئيسهم وحلق له شاربته ولحيته وأركبه على بغل وأرسل معه كتاباً إلى الغوري يعلن عليه الحرب ، ثم قام بإعدام بقية أعضاء الوفد .

وفي يوم الأحد ٢٥/ رجب/ ٩٢٢هـ - ٢٤/ أغسطس/ ١٥١٦م التقى الجيش العثماني بالجيش المصري المملوكي في واد قرب حلب يقال له (مرج دابق) ودارت معركة شديدة بين الطرفين تشتت فيها شمل الجيش المصري بسبب خيانة حاكم مدينة حلب المملوكي واسمه (خير بك) أو (خاير بك) الذي كان يحمي مسيرة الجيش المصري ، وكان (خير بك) هذا قد اتفق مسبقاً مع السلطان العثماني على عدم القتال والتسليم له ، وعندما اشتد وطيس المعركة كان السلطان الغوري البالغ من العمر خمسة وسبعين عاماً يصول ويجول على فرسه ويحث جنوده على الصمود عندما سقط من على ظهر جواده فجأة ثم تبين أنه مات بالسكتة القلبية ، وتراجعت بعد ذلك فلول الجيش المصري منهزمة نحو القاهرة ، فقام المماليك بانتخاب سلطان جديد هو السلطان (طوماي بك) ويسمى (الأشرف طومان باي) أيضاً ، فيما كان السلطان العثماني سليم ياوز يستثمر الفوز باحتلال مدن سوريا الرئيسية مثل دمشق وحمص وحماة وتهيئاً للتقدم لغزو مصر واحتلالها^(١٠) .

وهكذا مات سلطان مصر السلطان الأشرف أبو النصر سيف الدين قانصوه الغوري الطاهري الأشرفي ، فاختلفت الأوراق ثانية وراحت مصر تتخبط في متاهات سياسية لاقرار لها ونسي حاكمها الجديد (طوماي بك) ومعه أركان حكومته والشعب المصري قصة حملة الهند الكبرى والقتال ضد البرتغاليين وإنقاذ المقدسات وغيرها من

(١٠) محمد فريد وجدي - تاريخ الدولة العلية العثمانية - ص ١٩٢ - ١٩٣ .

الشعارات السابقة ، لأنهم كانوا مهتمين بأمر الزحف العثماني نحو مصر لإسقاط نظام الحكم فيها .

* * *

لأندري ماذا كانت تداعيات الموقف عندما وصل نبأ وفاة السلطان قانصوه الغوري إلى مسامع القائد العام للحملة المصرية في اليمن . ذلك أن الشهور الأخيرة من عام ١٥١٦م قضاه الأمير حسين متجولاً بين مدينة زبيد ومدينة المخا وكانت خطته تأجيل الذهاب إلى الهند دون ضمان حماية البحر الأحمر لذلك فقد قرر اتخاذ سواحل تهامة اليمن خط الدفاع الأول عن البحر الأحمر على أن تكون جدة خط الدفاع الثاني ، ثم أوكل قيادة القوات البرية إلى القائد برسباي ، أما القوة البحرية فقد أبقى على قيادتها سليمان العثماني أو (سلمان الرومي) ، وقد أثارت أفعاله تلك قلقاً في الهند التي كانت تنتظر قدومه على أحر من الجمر مما دفع بالمؤرخين الهنود إلى اعتبار أن الأمير حسين اهتم بحرب اليمن ونهب بلدانها فقط^(١١) .

أما هو فقد غادر اليمن وذهب إلى مقره في جدة ليكون على مقربة من الأحداث المفجعة التي كانت تحدث آنذاك في مصر . وإلى نهاية عام ١٥١٦م فإن المشاكل لم تهدأ في اليمن إذ قام القائد برسباي بهجمات متعددة على مدن (حيس) و(موزع) علاوة على تخطيطه لاحتلال عدن ، كما أن السلطان اليماني عامر بن عبد الوهاب قام بعدة محاولات لاسترجاع مدينة زبيد ، فدارت معارك طاحنة بين الطرفين استمرت إلى نهاية العام بدون أن يحقق أحد من الطرفين نصراً حاسماً على الآخر .

* * *

وهكذا مر عام ١٥١٦م وكله حرب وقتال بين المسلمين ، طمعاً في العرش أو الجاه بينما تقف الدولة الاستعمارية الطامعة الكبرى يومذاك وهي البرتغال

(١١) الفقيه الشيخ زين الدين - تحفة الجاهدين - ص ٤٦ .

متفرجة ضاحكة على ما يفعله أعداؤها . لكن أخطر أحداث ذلك العام كانت معاهدة الصلح التي عقدها حاكم عدن الأمير مرجان الظافري مع نائب الملك البرتغالي في الهند (لوبيو سوريز دي الباركاريا LOPO SOARES DE ALBERGARIA) . وتفاصيل الحادث أنه عندما استلم (لوبيو سوريز) منصب نائب الملك في الهند ، كانت الأوامر المعطاة إليه من قبل الملك مانويل هي أنه يوجد أسطول مصري كبير في عدن والبحر الأحمر ، وأنه يجب تدمير ذلك الأسطول ، وأن على (البوكيرك) عدم العودة إلى لشبونة بل عليه قيادة العمليات العسكرية في عدن والبحر الأحمر من جديد ، لكن وفاة البوكيرك تركت مهمة تدمير الحملة المصرية الثانية على عاتق لوبيو سوريز نفسه ، لذلك فقد أقلع من (گوا) يوم ٨ / ٢ / ١٥١٦ م ، بسبع وعشرين سفينة حربية من مختلف الأصناف والأحجام عليها (١٢٠٠) جندي برتغالي و (٨٠٠) جندي هندي ملباري و (٨٠٠) بحار ملباري أيضاً ، وأخذ معه المدعو ماثيوس سفير الحبشة هناك وعامله معاملة قاسية في الطريق ، يكشف عنها في رسالته التي سَـطـلـعُ القارىء عليها في الفصل القادم .

وصلت هذه الحملة إلى عدن عندما كانت اليمن غارقة بمشاكل الحرب مع المصريين ، مما أجبر حاكم المدينة الأمير مرجان الظافري على أن يفتح أبواب أسوار المدينة أمام الأسطول بعد مشاورة مستشارية لعلاج المآسي والدماء التي تغطي أرض اليمن ، أو على حد قول المؤرخين اليمنيين : « وعلى الحملة فإن شرح الحال يطول ويذهل العقول في وصف ما جرى من هذه الفرقة الغورية والعصابة المصرية » . وقد قام الأمير بتقديم مفاتيح المدينة إلى (لوبيو سوريز) ، إلا أن سوريز لم يدخل المدينة أو يقوم باحتلالها بل كان همه الدخول إلى البحر الأحمر لتخطيط الأسطول المصري واحتلال جدة ، خاصة بعد مقتل سلطان مصر ، والتهديد الذي تواجهه مصر أمام قوات السلطنة العثمانية .

أمر لوبيو سوريز اسطوله بترك عدن والتوجه نحو البحر الأحمر ، وكانت قوات

المقدمة بقيادة القائد (الفارو دي كاسترو) ، إلا أن هذه القوة فوجئت بقطع حرية
مصرية يقودها (سليمان العثماني) تخرج إليها وتدمرها وتغرقها مع قائدها
البرتغالي ، غير أن هذا لم يفت من عزيمة (لوبيو سوريز) إذ اندفع ببقية الأسطول نحو
جدة ، وما إن وصلها حتى فتحت مدفعية الساحل نيرانها الحامية على الأسطول
البرتغالي الذي كان على بعد فرسخ واحد من أسوار المدينة ورغم ذلك فقد أوقعت
إصابات جسيمة فيه . ثم وصلت إلى لوبيو سوريز رسالة من سليمان العثماني يدعوه
للخروج وحده إلى عرض البحر واللقاء به في مبارزة ومعرفة بينهما ، إلا أن سوريز لم
يفعل ذلك . وبعد يومين من بقاءه في البحر وإزاء عجزه عن مقاتلة الأسطول المصري
انسحب نحو كمران ثم هاجم من هناك مدينة (زيلع) الصومالية وأحرقها ثم وصل
إلى عدن ، إلا أنه لاحظ أن المدينة قد أغلقت أبواب أسوارها وعلم أن الأمير مرجان لا
يرغب في الكلام معه . ولخوفه من حدوث خسائر لا مبرر لها أمام محاولته الهجوم
على عدن قرر صرف النظر عن الموضوع والذهاب إلى (زيلع) الصومالية التي أحرقها
ليتخذها مقراً له ليسد به باب المنذب ، إلا أن يد الله كانت له بالمرصاد أيضاً إذ هبت
عليه عواصف هائلة حطمت عدداً من سفنه وأوقعت الأمراض والأسقام في جنوده
ففقد ثمانمائة جندي وضابط ، ولم يبق أمامه إزاء فشله إلا أن يعود خائباً إلى الهند
فوصل إلى (گوا) في شهر سبتمبر / من عام ١٥١٦م^(١٢) .

(١٢) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .

الفصل الثاني والعشرون

- * السلطان العثماني سليم ياورز يدخل القاهرة فاتحاً وينفذ حكم الإعدام بسلطانها طوماي باي
- * قيام الحكم العثماني في مصر ١٥١٢/٤/١٤ .
- * ثورة في الحجاز ضد المماليك، وإعدام الأمير حسين الكردي في جدة .
- * مصرع سلطان اليمن عامر بن عبد الوهاب الطاهري بيد جنود الحملة المصرية .
- * نظرة إلى أحوال المغرب العربي واتسامه إلى أربع ممالك .

لم يكن عام ٩٢٣هـ الموافق لعام ١٥١٧م أحسن حالاً من العام الذي سبقه وذلك بالنسبة للجهة العربية الإسلامية التي تقف في وجه البرتغاليين ومطامعهم في الشرق ، إذ إن الصراعات الداخلية بين الدول الإسلامية أدت في كثير من الأحيان إلى نسيان صراعهم مع البرتغاليين ، بل وحتى التنازل لهم بعقد معاهدات صلح معهم ، كما كانت الحال عند الشاه اسماعيل الصفوي الذي خسر نصف مملكته يومذاك ، ومشاكل مصر المهددة بالاجتياح العثماني والفوضى القائمة في اليمن الممزقة ، هذا علاوة على تردي الأحوال في المغرب العربي .

ففي مصر وقعت الطامة الكبرى على دولة المماليك الحاكمة هناك إذ سرعان ما وصل السلطان العثماني سليم ياورز بجيشه إلى مشارف القاهرة ، بعد أن حطم الدفاعات المملوكية في غزة ، فخرج اليه حاكمها الجديد طومان باي بأربعين ألف مقاتل ، إلا أن المدفعية العثمانية أنزلت به هزيمة فادحة فانكسر وهربت فلوله ودخل

السلطان سليم القاهرة فاتحاً ونفذ حكم الإعدام بطومان باي يوم ١٤ / ٤ / ١٥١٧ م .
وبذلك فقد سقطت دولة المماليك البرجية في مصر ، وقامت الدولة العثمانية محلها ،
وخطب خطباء الجوامع في مصر باسم السلطان العثماني قائلين : « انصر اللهم
السلطان ابن السلطان مالك البرين والبحرين وكاسر الجيشين وسلطان العراقيين
وخادم الحرمين الشريفين الملك المظفر سليم شاه » . كما قام السلطان بوضع يده على
كل شعارات الخلافة العباسية بما فيها بردة الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث تنازل
له آخر مدع عباسي للخلافة عما يدعيه .

فماذا كانت انعكاسات ذلك الحادث على الحملة المملوكية - المصرية المتواجدة
يومذاك في اليمن والبحر الأحمر والحجاز . . ؟

في الحجاز قامت ثورة ضد السلطة المملوكية التي يمثلها الأمير حسين الكردي ، فقد
قام أشرف مكة بالدخول فوراً تحت راية السلطنة العثمانية وأعلنوا الولاء والطاعة
لهم . وفي جدة قام الأهالي بثورة اقتحموا فيها قصر الأمير حسين الكردي وألقوا
القبض عليه وأخذوه إلى رصيف الميناء ، وهناك وأمام حشد كبير من الناس ربطوه
بحجر ضخيم ثم ألغوه في اليم فابتلعت الأمواج ومات غرقاً^(١) .

ويعزو المؤرخون سبب نقمة سكان جدة على الأمير حسين الكردي وقيامهم
بإعدامه بتلك الصورة المؤلمة ، أنها كانت انتقاماً من أعماله القاسية أثناء ولايته لجدة ،
وقد قام أمير مكة الشريف بركات بن محمد الحسني باستلام زمام الأمور هناك لفترة
من الزمن يساعده الضابط البحري سليمان العثماني الذي أبقى الأهالي على حياته
لأنه تركي عثماني الأصل ولدفاعه المجيد عن جدة في العام الماضي .

وفي اليمن فإن القائد العام للقوات المملوكية (برسباي) أصيب بالذهول عما حدث
في مصر وجدة ، فوجد أن أحسن طريقة له هي أن يحتل اليمن ويتخذها مقراً ومستقراً
له بعد أن يئس من إمكانية العودة إلى مصر في ظل النظام الجديد ، لذلك فقد قام

(١) الدكتور السيد مصطفى سالم - المصدر نفسه - ص ٨٨ .

بالهجوم على مدينة تعز وأجلى عنها قوات السلطان وعين القائد (اقباي) حاكماً للمدينة ، ثم اتجه نحو العاصمة (المقرانه) التي كان السلطان فيها ، فانسحب السلطان وقواته منها ودخلتها الكتائب المملوكية فنهبتها ، ثم دخلها برسباي فاتحاً ، إلا أن القدر كان له بالمرصاد هناك إذ دبر له جماعة من قبيلة آل عمار مؤامرة محبوكة ، فوفدوا اليه بجمع كبير وبايعوه وطلبوا منه أن يدخل إلى أراضيهم فاتحاً ، وبعد أن اطمأن إليهم ، ركب معهم وبمعيته كوكبة من حرسه الخاص ، وفي منتصف الطريق وعند وصول الركب إلى منطقة منعزلة ، انقض أبناؤ آل عمار ومقاتلوهم عليه وعلى حرسه الخاص وقتلوهم عن بكرة أبيهم . فلما وصل خبر مصرعه إلى مقر قيادة الجيش المملوكي اجتمع القادة واختاروا رجلاً منهم اسمه (اسكندر) ويعرف أيضاً باسم (أسكندر المخضرم) قائداً جديداً .

علم القائد الجديد أن سلطان اليمن موجود في مدينة (آب) ، وأنه سيتوجه إلى مدينة صنعاء التي يحكمها الأمير محمد علي البعداني ، المعروف بعدائه الشديد للمماليك ، فتوجه نحو (آب) لمقاتلة جيش السلطان والتقى به في موقعة (غفر) وهناك أوشك الجيش المملوكي على أن يخسر المعركة لولا خيانة أحد قادة جيش السلطان ، ثم قرر السلطان التوجه نحو صنعاء ، إلا أن أخاه الأمير عبد الملك نصحه بعدم الذهاب إلى هناك ، لأن صنعاء تقع في مناطق نفوذ أعدائه الزيدية ، لكن السلطان لم يستمع إلى النصيحة بل توجه بجيشه إلى هناك ، وكان القائد أسكندر أسرع منه في التوجه إلى صنعاء ، لأنه حالما وصلها جيش السلطان كان الجيش المملوكي قد كمن له وهاجمه ، فجرت معركة تراجعت فيها قوات السلطان إلى حصن يسمى (حصن ذمرمر) إلا أن القوات المملوكية اقتحمت الحصن واشتبكت بمعركة هناك وقع السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهري فيها أسيراً بيد القوات المملوكية كما وقع ولده أبو بكر بن عامر وأخوه الأمير عبد الملك بن عبد الوهاب وابنه عامر بن عبد الملك في الأسر أيضاً فقام القائد أسكندر بقطع رأس السلطان وأخيه ، واستسلم الأمير البعداني حاكم صنعاء

وفتح لهم أبواب المدينة ، وكان مقتل السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهري وأخيه
يوم الجمعة ٢٣ / ربيع الأول / ٩٢٣ هـ الموافق ١٥ / مايو / ١٥١٧ م^(٢) .

وقد رثاه ابن الديبع قائلاً :

أخلاي ضاع الدين من بعد عامر وبعد أخيه أعدل الناس في الناس
فمنذ فُقدوا لله والله إننا في الأمر والسلوان في غاية اليأس

وهكذا اختلطت الأوراق من جديد وسادت الفوضى أرجاء اليمن ، وتمزقت الدولة
وضاع الناس والمقياس وشهدت اليمن طويلاً وعرضاً صدامات ومعارك على جميع
الجبهات . فلما بلغت الأحوال تلك الدرجة من السوء وانقلبت الحملة المصرية
الملوكية إلى مجموعة عصابات وقطاع طرق ، فإن الإمام الزيدي المنشق المتوكل على
الله شرف الدين الزيدي قرر أن يُعيد النظر بتحالفه مع المماليك وأن يتحرك لإنقاذ
صنعاء التي استباحوها وهي تحت حكمهم ، فطلب إجراء مفاوضات مع أسكندر ،
وعلى الرغم من عدم وضوح طبيعة المفاوضات إلا أن إسكندر أعلن للناس أن الدولة
الملوكية في مصر قد سقطت وقامت مكانها الدولة العثمانية ، وخطب للسلطان
سليم وأعلن أنه دخل في طاعته ، وأنه من الآن فصاعداً أصبح يمثل الدولة العثمانية في
اليمن ، فأطلق عليه الناس لقب (أسكندر الخضر) لأنه عاصر الدولة الملوكية ثم
العثمانية في مصر .

وعلى كل يمكن أن نلخص الموقف العام في الجبهة العربية الإسلامية التي تصارع
البرتغاليين يومذاك كما يلي :

في مصر : قامت الدولة العلية العثمانية وتم تعيين خير الدين بك والياً عثمانياً تركياً
على مصر .

في الحجاز : أوفدت الحكومة العثمانية الأمير حسين بك الرومي حاكماً على

(٢) بامخرمه - المصدر نفسه - ص ٢٠٣ ، وكذلك ابن الديبع - المصدر نفسه - ص ٣٧٠ .

المنطقة على أن يكون مقره جدة ، فيما استمر سليمان العثماني بمنصبه قائداً للأسطول هناك ، يعاون الكل الشريف بركات أمير مكة .

في اليمن : كانت هناك ثلاث قوى تتصارع على السيادة والحكم :

أ) بقايا الدولة الطاهرية في اليمن الجنوبية حيث قام الشعب هناك بإعلان سلطنة الأمير أحمد بن عامر بن عبد الوهاب ، لكن هذا الأمير توفي بعد فترة وجيزة ، فأعلنت سلطنة الأمير عامر بن عبد الملك بن عبد الوهاب الطاهري .

ب) في اليمن الشمالية كان النفوذ والسلطة العليا بيد الإمام الزيدي المتوكل على الله شرف الدين الذي استقل عن اليمن الجنوبية استقلالاً شبه تام تقريباً .

ج) القوة المملوكية المصرية بقيادة الإسكندر الخضرم ومقر قيادته في مدينة زيد .

أما الموقف في ميناء عدن الاستراتيجي المهم الذي يشكل مفتاح السيطرة على البحر الأحمر بل مفتاح السيطرة على الحجاز ومصر والذي أخفق البرتغاليون والأتراك في اقتحامه ، فقد قام الحاكم شبه المستقل هناك الأمير مرجان الظافري بطل الدفاع وكاسر جيش البوكيرك ، والذي دفعته ظروف المحنة التي مرت بها اليمن إلى مهادنة البرتغاليين ، قام بكتابة رسالة على لسان السلطان القليل عامر بن عبد الوهاب الطاهري أرسلها إلى السلطان العثماني ياووز سليم شرح له فيها الأوضاع المتردية في اليمن وما فعله قادة الحملة المملوكية ، وكيف أنهم انقلبوا إلى غزاة خربوا اليمن وكيف انقسمت اليمن على نفسها واعتذر عن مصالحته مع البرتغاليين ومساعدتهم ، وأرسل الخطاب مع رسولين ، كما أرسل معهما كتاباً إلى أمير مكة الشريف بركات حول الموضوع نفسه ، وتمكن الرسولان من الوصول إلى استانبول حيث علما بأن السلطان سليم ياووز قد انتقل إلى رحمة الله وأن ابنه السلطان سليمان القانوني قد تسلم الحكم^(٣) .

أما موقف الصفويين في إيران ، فمن الواضح أن الشاه اسماعيل وجد في تقدم

(٣) باخرمه - المصدر نفسه - ص ٢٠٤ .

العثمانيين قرب حدود دولته الشمالية واستيلائهم على مصر والشام والسمعة الممتازة التي يتمتعون بها في قتالهم ضد الأوربيين في شمال أفريقيا وداخل أوروبا ، ما أصابه بالاحباط علماً بأنه لم يكن يملك قوة بحرية كافية مثل العثمانيين ، كما أن البرتغاليين قلبوا له ظهر المحن في هرمز فاستولوا عليها استيلاءً كاملاً واكتفوا بالوعود بأن يساعدوه ضد العثمانيين ، كل ذلك دفع به إلى محاولة الإبقاء على نفوذه في بعض أقطار الخليج العربي مثل البحرين والأحساء ومحاولة انتزاع السلطة من الحكام (الجبور) هناك^(٤) .

وفي عُمان المبتلية بالقواعد العسكرية البرتغالية ، فإلى ذلك التاريخ لم نجد خبراً في صفحات تاريخها يشفي الغليل عما كان يدور هناك من أحداثٍ في عالمٍ غامضٍ مملوء بالفتن والحروب الأهلية .

أما تأثير الفتح العثماني لمصر في دولة البندقية التي كانت لا تزال تحلم باحتمال عودة مصر إلى مركز القوة ثانية وتحطيمها للنفوذ البرتغالي في الهند واحتمال ازدهار تجارتها مرة أخرى ، فإنها وجدت في دخول السلطان العثماني إلى القاهرة احتمالاً لتنفيذ هذا الحلم ، أي حلم القضاء على الاحتكار البرتغالي لتجارة الهند ، لذلك فقد أوفدت قنصلها في الشام ومصر لمقابلة السلطان في الإسكندرية حيث قدما له طلباً لاقرار الامتيازات التي كانت للبنادقة في عهد المماليك ، وفي خلال المقابلة أثار السلطان موضوع مساعدة البنادقة للمماليك ضده ووصول سفنهم خلال الحرب إلى الإسكندرية حاملة الفضة والذهب ، فأجاب القنصلان بأن دولة البندقية تعمل دائماً على توسيع نطاق تجارتها من السلع الشرقية للوقوف أمام فيض السلع الواردة عن طريق البرتغاليين . ويبدو أن السلطان العثماني اقتنع بهذا الاعتذار فلم يعارض طلباتهم وأقر معاهداتهم السابقة وضمّن ذلك كله في معاهدة جديدة بتاريخ ٨/ سبتمبر أيلول/ ١٥١٧ م ، كما استقبل قنصل الفرنسيين والقطلانة في الإسكندرية

(٤) العناني - المصدر نفسه - ص ٩٦ .

وطلب تجديد اتفاقياتهم التي كانت أيام المماليك ومنحهم حمايته وأصدر أوامره بمراعاتهم في مصر والشام .

وهكذا فإن سيطرة العثمانيين على مصر والشام والحجاز أدت بهم إلى أن يرثوا من المماليك واجب قتال البرتغاليين واستعادة السيطرة على التجارة الشرقية ، ولكنهم لم يتحركوا جدياً ، إلا بعد أن تم لهم الاستيلاء على عدن وبغداد وبعض سواحل الأحساء في تاريخ لاحق فأرسلوا أساطيلهم لقتال البرتغاليين ، وهم وإن كانوا في تلك المعارك قد حققوا أحياناً نصراً حاسماً على البرتغاليين إلا أنه لم يكن نصراً دائماً .

* * *

تلك كانت الصورة السياسية للقوى العربية والإسلامية التي تصارع البرتغاليين في المشرق العربي ، فكيف كانت الصورة والوضعية السياسية في المغرب العربي . . ؟ وماذا حل في تلك البلاد منذ أن توقفنا عن أخبارها في عام ١٥١٠م ؟ وما هي طبيعة العلاقات بين البرتغال التي تستعمر شواطئ المغرب الغربية وبين المغرب المنقسم على نفسه هناك أيضاً . . ؟

قلنا في الفصل الثامن عشر من هذا الكتاب إن المغرب انقسم سياسياً عام ١٥١٠م إلى الممالك التالية :

١ : مملكة (فاس) في الشمال يحكمها السلطان محمد بن محمد الشيخ الوطاسي ويلقب بمحمد البرتغالي ، وهي المملكة التي كانت تمثل السيادة في البلاد .

٢ : مملكة (السوس) في الجنوب ويحكمها القائم بالله إلا أن الإدارة الفعلية لولده أحمد الأعرج وتعرف هذه المملكة باسم الإمارة السعدية أيضاً لذلك يلقب حاكمها باسم أحمد الأعرج السعدي .

٣ : مملكة صغيرة جداً هي مملكة (مراكش) لا تتعدى حدودها مدينة مراكش نفسها يحكمها ملك مراكش مولاي الناصر أبو علي الهناتي ، وهو من قبيلة المصامدة

٤ : إمارة صغيرة أخرى تقع في شرقي المغرب تعرف باسم (إمارة دبدوب) يحكمها أمير من بقايا دولة بني مرين وهو الأمير محمد بن أحمد .

وقد اتسم العهد الأول من حكم أحمد الأعرج السعدي ملك السوس بظاهرتين ، الأولى التهيؤ لأعمال الجهاد ضد القوتين الأوربيتين اللتين كانتا تحتلان سواحل المغرب ، أي اسبانيا والبرتغال ، والثانية الطموح للسيطرة على البلاد وإنهاء حكم الوطاسيين وتوحيد المغرب .

وقد قام في عام ١٥١١م بتشكيل نواة جيشه من خمسمائة مقاتل كما قام باحتكار تجارة السكر التي كان السكان يتاجرون بها مع اسبانيا وذلك لغرض وضع ميزانية لدولته وتمويل جيشه . وفي ١٨ / ٨ / ١٥١١م ، قام باستطلاع أعقبه هجوم سريع لغرض اختبار قوة الحامية البرتغالية في (سانتا كروز) . ويعتبر هذا التاريخ بداية للحركة السعدية المنطلقة من السوس لتحرير المغرب خاصة بعد أن نجح البرتغاليون في بسط نفوذهم السياسي بين بعض القبائل في منطقة السوس ، ودانت لهم قبيلة (أولاد مطاع) التي كانت تقطن قرب (مراكش) بعد أن فقد هؤلاء الأمل في إمكانية قيام ملوك مراكش بحمايتهم ، علاوة على أن البرتغاليين لم يكونوا يعيرون أهمية للملك مدينة مراكش .

إلا أن الصورة تغيرت في عام ١٥١٢م عندما تحرك ملك فاس الوطاسي ليقوم بأعمال عسكرية ترد له بعض اعتباره أمام الدعاية الكاسحة والتأييد الشعبي للملك السوس السعدي ، لذلك قام بحملة عسكرية ضد مدينة أصيلا ، وكان بجعبته حكام مدن شقشاون والقصر الكبير وتطوان ، وساعده ملك مراكش بحرب ضد قبائل عبده ودكاله اللتين كانتا تتعاونان مع البرتغاليين ، إلا أن تلك الحملات فشلت في تحقيق هدفها ، اللهم إلا في رفع الروح المعنوية عند الشعب .

لكن عام ١٥١٣م شهد أول عملية غادرة صدرت عن حاكم وطاسي ، اعتبرها الشعب آنذاك خيانة عظمى . وهي عندما قام المدعو (مولاي زيان الوطاسي) حاكم

مدينة (أزمور) بالتعاون مع البرتغاليين مما ساعدهم على احتلال المدينة . والواقع أن مدينة أزمور نفسها لم تكن قد سقطت بيد البرتغاليين إلى ذلك التاريخ إنما كانت الحكومة الوطاسية قد وافقت في عام ١٥١٠م على أن يقوم البرتغاليون ببناء حصن ومعسكر لهم خارج المدينة ، إلا أن اختلاف مولاي زيان مع السلطان محمد البرتغالي الوطاسي جعله لا يهتم بأمر الدفاع عنها ، لذلك فقد قام يهود المدينة بالاتصال بالحامية البرتغالية لمدينة أسفي واتفقوا معهم وفتحوا لهم أبواب المدينة على حين غرة ، ومن أزمور توصل البرتغاليون للسيطرة على مدينة (مازكان) وإحكام قبضتهم عليها .

وقد أدى سقوط أزمور إلى استبشار عظيم عند الملك البرتغالي فأرسل رسالة إلى البابا يبشره بالفتح الجديد ، فيما أدى ذلك بين أوساط الشعب المغربي إلى النظر بعين الشك إلى الحكم الوطاسي في شمالي البلاد^(٥) .

كما دفع ذلك الفوز إلى أن يقوم الملك البرتغالي بالتفكير في احتلال المغرب كله مرة واحدة ، لذلك فقد حاول التقرب من ملك مراكش مولاي الناصر أبو علي الهناتي . ففي عام ١٥١٤م أرسل مندوباً عنه هو (فيرنو دياز FERNÃO DIAS) ليعرض على الملك عقد معاهدة يدخل فيها الملك تابعاً للبرتغال والسماح للبرتغاليين بإقامة معسكرين لهم في مراكش ، إلا أن ملك مراكش رفض ذلك ، لذلك فقد أصدر الملك البرتغالي أوامره إلى حاميتي (أسفي) و(أزمور) لتقوموا باحتلال مدينة مراكش ، فقام القائد (دييجو لوباز DIEGO LOPES) قائد منطقة أسفي بالهجوم على المدينة وتشكلت القوة المهاجمة من خمسمائة جندي برتغالي من الفرسان تساندها قوة تقدر بألفين وأربعمائة من قبائل عبده ودكاله الموالية للبرتغاليين ، فيما تقدمت قوات برتغالية أخرى من منطقة أسفي والتقت بقوة أزمور ثم قامت بحصار مدينة مراكش .

أثار حصار مراكش همة الملكين المغربيين المتنازعين وهما الوطاسي والسعدي للدفاع

(٥) عبد الكريم كريمة - المصدر نفسه - ص ٤٠ .

عنها وكان رد الفعل عند السلطان محمد الوطاسي أكبر خاصة وأن ملك مراکش حليفه ، فجهز حملة بقيادة أخيه هاجمت أولاً القبائل المتعاونة مع البرتغاليين والتي كان يقودها يحيى بن تعففت بن عافوت أحد زعماء عبده ، وأنزلت بهم خسائر فادحة ، كما قامت القوات الوطاسية التي يقودها مولاي الناصر شقيق السلطان الوطاسي بصد حملة عسكرية برتغالية محمولة بحرأ نزلت في منطقة المعمورة وحاولت التقدم رأساً نحو فاس لاحتلالها والقضاء على المقاومة الوطاسية ، إلا أن مولاي الناصر الوطاسي صدها وأجبرها على الانسحاب ، ولقد كان لنجاح الوطاسيين في دفع البرتغاليين عن مراکش وفاس أن أعاد لهم اعتبارهم وشجعهم على الاستمرار بغزو المراكز البرتغالية .

أما السلطان أحمد الأعرج السعدي ملك السوس فقد هاجم حامية منطقة (تافتا) البرتغالية وهزمها واحتل المنطقة التي كانت تشرف على طريق المواصلات البري مع حصن سانتا كروز مما دفع قائد الحصن الى أن يكتب للملك البرتغالي قائلاً إن نفوذ أحمد السعدي في تعاظم وإنه يجد صعوبة في التعاون مع الأهالي الذين صاروا يخافون بطشه إن هم تعاونوا مع البرتغاليين ، وإنه لم يبق ممن كانوا يتعاونون معهم إلا الشيخ مالك بن داود زعيم قبائل أزرار^(٦) . لذلك فقد قام الملك البرتغالي بانتهاج سياسة التقرب والتودد من بعض زعماء القبائل ومحاولة رشوتهم بالمال والمناصب لكي يخرجوا عن طاعة الملكين المغربيين ، فأصدر مرسوماً بتعيين (يحيى أو تعففت) حاكماً على (دكالة) على أن يستلم أوامره من الحكام العسكريين البرتغاليين لأسفي وأزمور ، وفي رواية أن يحيى هذا أصبح نصرانياً فصار يسافر إلى لشبونة للاتصال بالملك البرتغالي وحاشيته ، كما صار يقدم لهم التقارير الدورية عن الواقع المغربي والصراعات الموجودة فيه ليساعدهم على ترسيخ حكمهم في المناطق التي يحتلونها وإخضاع القبائل الثائرة عليهم ، كما ظهرت طبقة أخرى من الخونة من مشايخ قبائل

(٦) عبد الكريم كريم - المصدر نفسه - ص ٤٣ . وكذلك إبراهيم شحاته حسن - المصدر نفسه - ص ١٠٩ .

الشرقية مثل حمو أمر كاس ويحيى بلصباغ وعبدالرحمن بن حدو والشيخ سعيد^(٧) .
إلا أن تلك السياسة لم تفت في عضد السلطان أحمد السعدي لأنه لم يلبث أن هاجم واستولى على بلدة (تاركوكو) و(تارودانت) و(ماسا) وقام بحرق بيوت المتعاونين مع البرتغاليين ، مما دفع الشيخ سعيد الى أن يعث رسالة إلى الملك مانويل مؤرخة في شهر مايو ١٥١٧م يقول له فيها إنه منذ ثلاث سنوات ومعه قبيلته يقومون بخدمة البرتغاليين في سانتا كروز إلا أن المولى أحمد السعدي جاء بقوات جراحة وانتصر على قبيلته ففر بعضهم وخضع له الباقي ، وأن حصن سانتا كروز يعتبر مطوقاً الآن لأن قوات المولى أحمد تحرس كل الطرق المؤدية إليه^(٨) .

وقد حاول قائد حصن سانتا كروز أن يفك الحصار البري عن نفسه فقام في يوم ١٥ / ٥ / ١٥١٨م بهجوم على قوات السلطان السعدي ، لكنها فشلت واندرحت فراح يطلب النجدة من لشبونة ، كما شهد عام ١٥١٨م عملية أخرى رفعت من معنويات الناس عندما قامت عناصر موالية للسعديين باغتيال العميل يحيى أو تعففت .

أما موقف السلطان محمد الوطاسي ملك فاس وشمال المغرب فقد استمر على مقاتلة القبائل الموالية للبرتغاليين ، إلا أنه وبصورة عامة فإن التعاون بين الملكين الوطاسي والسعدي أخذ في الإضمحلال والضمور حيث يفهم من بعض الرسائل البرتغالية أن التعاون قد انعدم بين الملكين خوفاً من أن يؤدي نزعم أحدهم لحركة الجهاد ضد البرتغاليين إلى زيادة نفوذه بصورة عامة على البلاد . لذلك فإن الخلاف اشتد بين الوطاسيين والسعديين ، وحسب رسالة استلمها حاكم أسفي البرتغالي من ملك البرتغال مؤرخة في يونيو ١٥٢٣م يفهم منها أن الملك طلب معلومات مفصلة عن النزاع القائم بين الملكين المغربيين ، لذلك فقد حاولت السلطات البرتغالية التقرب إلى الفريقين المتنازعين ليعرضوا عليهما هدنة وسلاماً أو تعاوناً ضد الفريق الآخر . فقد

(٧) تاريخ العصر الحديث - وزارة التربية الوطنية - المملكة المغربية - ص ٩٩ .

(٨) عبدالكريم كريم - المصدر نفسه - ص ٤٧ .

توجه وفد مفاوض في عام ١٥٢٣م إلى السلطان أحمد السعدي يعرض عليه هدنة وتبادلاً للأسرى ، فوافق السلطان على هدنة أمدها ثلاثة شهور ، وفي الوقت نفسه كانت هناك مفاوضات بين البرتغاليين والسلطان محمد الوطاسي . لكن إتجاه الرأي العام المغربي عاد فاتحه نحو فقد الثقة بالوطاسيين بسبب الضرائب الثقيلة التي فرضوها على الناس ، بالإضافة إلى أن الكوارث الطبيعية ساهمت في المزيد من الفقر والجوع والفتك بالناس فقد عم الجفاف البوادي المغربية وانتشرت المجاعة وارتفعت أسعار المواد الغذائية ، ورافقت المجاعة عدة أمراض كان أوسعها انتشاراً مرض الطاعون الذي خلف (١٢٠٠) ضحية في مدينة أصيلا عام ١٥٢٢م . وفي خضم تلك الأحداث ثارت إشاعات مفادها أن الوطاسيين مستعدون للتحالف مع البرتغاليين ضد السعديين . وقد عبّر عبدالرحمن المجذوب وهو أحد أبناء منطقة دكالة عن الوضعية الحرجة لمن التجأ من الدكاليين إلى الوطاسيين فراراً من المحتل البرتغالي في قصيدة شعبية قال فيها :

هربت من دولة الرومي	وجيت إلى خويا المسلم
ضربني وحقرنني	وزور علي بلاما نظلم

كل ذلك دفع بملك السوس أحمد الأعرج السعدي إلى أن يتقدم بقوات ضخمة على حين غرة ويفاجيء مدينة مراكش في شهر يناير من عام ١٥٢٥م ويحتلها ويلقي القبض على ملكها محمد الهناتي الملقب (بوشنتوف) ويقضي عليه بالسم ويعلن أن مراكش هي حاضرة وعاصمة الإمارة الشريفة السعدية ، فنقل مقره إليها بينما أبقى أخاه محمد حاكماً على السوس . ومن البديهي أن يثير هذا العمل حفيظة الملك الوطاسي الذي وجد أن السعديين أصبحوا قرييين من حدود مملكته . لكن السلطان السعدي كان أكثر حذقاً وذكاءً من أن يدخل في معركة مع الوطاسيين ، فكتب إلى السلطان محمد الوطاسي عارضاً عليه المحبة والصداقة كما عرض عليه أن يدفع له ما كان يدفعه له ملك مراكش مضاعفاً ، كما كتب إلى ملك البرتغال (دون جوان

الثالث) ، رسالة في شهر ديسمبر من عام ١٥٢٥م يطلب فيها تجديد وتمديد الهدنة التي عقدها معه ويخبره عن كسر جنوده لشروط الهدنة ، وقد فعل كل ذلك لكي يوطد أقدامه في مراكش وجنوب البلاد أولاً .

إلا أن عام ١٥٢٦م شهد تحولاً جديداً في العلاقات بين الوطاسيين والسعديين وكذلك في تحديد معالم المستقبل في المغرب وذلك عندما انتقل إلى رحمة الله الملك محمد بن محمد الشيخ الوطاسي ملك فاس وشمال المغرب وترك الحكم لأخيه المعروف باسم (أبو حسون علي) الذي لم يحكم إلا خمسة أشهر إذ عزله ابن أخيه المولى أحمد وتولى السلطة في شهر سبتمبر من عام ١٥٢٥م ، فصار اسمه السلطان المولى أحمد بن محمد الوطاسي ويعرف أيضاً باسم أبو العباس أحمد^(٩) .

(٩) عبد الكريم - المصدر نفسه - ص ٥١ .

الفصل الثالث والعشرون

ستتفرغ في هذا الفصل لنشر ما يتوفر لدينا من رسائل تبادلها الحكام الذين وقعوا بقبضة البرتغاليين مع ملوك البرتغال والحكام العسكريين في المناطق التي احتلوها ، وهذه الرسائل تعتبر وثائق مهمة في تثبيت وقائع الغزو البرتغالي لسواحل المغرب العربي والبحر الأحمر والخليج العربي ، وهي رسائل مأخوذة من الأرشيفات البرتغالية والأوربية ، إذ إنه مما يؤسف له أن الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كان يعيشها العالم العربي والإسلامي آنذاك لم تكن تساعد على كتابة التاريخ بشكل دقيق ، ومعظم ما كتب في وقتها عن تلك الفترة كان منصباً على المشاكل الداخلية التي تعاني منها تلك البلدان التي وقعت بقبضة البرتغاليين ، لذلك فإنهم مروا مروراً سريعاً على وقائع الغزو البرتغالي فصارت تلك المصادر تفتقر إلى العمق المطلوب . وبهذا يصبح اللجوء إلى الوثائق والمصادر الأوربية ضرورياً لكونها تمكننا من دراسة المد البرتغالي واكتساحه للأراضي الإسلامية .

وقد قام الباحث الدكتور أحمد بوشرب ، الأستاذ المساعد بقسم كلية الآداب في فاس بنشر مقال في مجلة الوثيقة البحرينية بعنوان (مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب العربي والبحر الأحمر والخليج العربي) عرض فيه عناوين تلك الرسائل وتاريخها ، وهي رسائل تتعامل في فترة الغزو البرتغالي

للوطن العربي^(١) .

وقد تمكنا من جانبنا وخلال إحدى سفراتنا إلى البرتغال من الحصول على كتاب

DOCUMENTOS ARABICOS PARA A HISTORIA PORTUGUEZA: مهم اسمه

(وثائق عربية تساهم في كتابة التاريخ البرتغالي) تأليف الأب جوازي سوزا ومطبوع عام ١٧٩٠م في لشبونة ، وهو كتاب يحتوي على مجموعة جيدة من الرسائل مكتوبة باللغة العربية بعثها الحكام الهنود والفرس والأفارقة والعرب إلى ملوك وحكام البرتغال .

ومن الملاحظ عند دراسة صيغ تلك الرسائل أن الحكام كانوا في حالة متدهورة من سائر النواحي الاجتماعية والنفسية ، وحسب المرء أن يقرأ في الرسائل الموجهة من حكام هرمز أو أفريقيا أو الهند وفيها من التعظيم والتفخيم لملك البرتغال ما تسمثر منه النفس وتعافه^(٢) .

لكن الرسائل القليلة التي وصلت إلينا ، والتي تبادلها بعض حكام المغرب العربي لم تكن على تلك الشاكلة أبداً ، بل كانوا يكلمون ملوك البرتغال بشكل النند للنند .

وعلى كل حال ولغرض التوثيق العلمي فإننا نعرض في هذا الفصل بعضاً من تلك الرسائل التي حصلنا عليها وهي تغطي الحقبة التاريخية التي وصلنا إليها في فصول هذا الكتاب ، وقد أبقيناها على الشكل الذي وردت فيه بالكتاب البرتغالي آنف الذكر بالصيغ اللغوية الركيكة البعيدة عن قواعد الفصحى .

والرسائل كما يلي :

أولاً : رسالة السلطان أحمد السعدي الأعرج سلطان السوس إلى ملك البرتغال جان الثالث مؤرخة في ديسمبر ١٥٢٥ يقول فيها :

« من عبد الله المعتمد على الله الشريف لطف الله به إلى عظيم الروم سلطان برتغال

(١) د . أحمد بوشرب - مجلة الوثيقة - العدد العاشر - السنة الخامسة - ص ١٤٤ .

(٢) أحمد العناني - المصدر نفسه - ص ٨٥ .

أما بعد فإنني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على رسول الله عليه وسلم فالذي وجب به إعلامنا لكم أننا عملنا (العافية)^(٣) مع خدامكم قبطن أسفي وقبطن أزموور بأمركم في العام الماضي على يد النصراني خديمكم مشاط واليهودي ابراهيم الحزان وفي تلك العافية أخذوا أهل أزموور زوج مسلمين من خدامنا وطلعوهم لذلك البر متعكم ، وكل يوم نطلبهم ولا رأينا خبر ، وأهل أسفي أيضاً بعثوا سراقهم سرقوا البقر من بلادنا وباعوهم في أزموور وظهروا فيها عيانا ، وفي هذه العافية الأخيرة التي كانت بيننا على يد اليهودي ابراهيم بن زمير أخذوا أهل أزموور قافلة عليها الشمع وردوا الناس وأكلوا الشمع والبهايم ولا ردوا إلا الناس برؤوسهم خاصة ، وأيضاً رسل قبطان أسفي الحناشة والتقوا مع قافلة من خدامنا وأخذوها وقتلوهم كلهم كي يأكلوا القافلة وقتلوا جميع أهلها لكي لا تظهر عليهم وظهرت عليهم وأيضاً أخذوا زوج مسلمين وطلعوا لذلك البر متعكم والقافلة الذين ماتوا أهلها ردوا من بهائمها والذي عليها نحو من ثلثين وبقي الثلث وحاصل الأمر فإن كانت هذه العافية بأمركم ترسلوا لنا من ينصف لنا في جميع مالنا عند خدامكم فلا نرضى لكم يعملون خدامكم هذا في عافيتكم تبعثوا من يقف حتى يرجع جميع ما ذكرت لكم ويأخذ الحق من الذين عملوا هذا الفعل القبيح لأننا لا نصبر على ذلك أبداً إلا واجب علينا نعرفكم بذلك فالله الله ثم الله في الجواب في القرب دخول الكتاب خروج الجواب وأنا ما ننتظر إلا ما عندكم فإن أنصفتكم لنا في حقنا وعملتكم عمل الحق والشريعة للذين عملوا هذا الفعل القبيح فالحمد لله والعافية تبقى على حالها وإلا فنحن ما نصبر على ما جرافنا ومن يوم عملنا مع خدامكم العافية ما انصدر منا عيب قط وإذا رسلتم شرعكم فظهر له جميع ذلك ونحن نحب منكم تبعثوا قاضياً يكون قاعداً في أسفي أبداً جميع ما كان يظهر له ولكن بعد أن تأخذ جميع حقنا وتكون العافية والفعل والسلام على من اتبع الهدى ، رابع وعشرين من صفر عام ٩٣٢ .

ثانياً : هذه رسالة أخرى لأحمد الأعرج إلى حاكم (أسفي) في سنة ١٥٢٦ بشأن

(٣) لفظة (العافية) تعني المعاهدة ، ومصدر هذه الرسالة د . ابراهيم شحاته - المصدر نفسه - ص ١١٣ .

تجديد الهدنة معه : « من عبد الله المعتمد على الله الشريف الحسني لطف الله به إلى قبطان أسفي غرسي . أما بعد فقد كنا عملنا العافية مع القبطان الذي كان هناك قبلك بمشورة ضيفه وضيئك وشرطنا فيها شروط يخبرك بهم ابراهيم بن زمير اليهودي . فإن أنت باق على ما كان عليه الكلام فيه ونعم وإلا فاعمل ما ظهر لك والذي عندك أعلمنا به في القرب والسلام على من اتبع الهدى . ثالث ذي حجة عام ٩٣٢ عرفنا الله خير »

ثالثاً : رسالة ملكة الحبشة التي بعثتها بيد (مائيوس) إلى ملك البرتغال :

« بسم الله . . غفران الله وتوفيقه لعمانويل . . مالك البحر وقاهر المسلمين القساة الكافرين . جاء الينا رسولان احدهما اسمه يوحنا ويدعى الآخر يوحنا مثله ويلقب باسم جومز COMEZ وطلبنا منا سفنا وجندا ولذلك أرسلت رسولي الراهب ماثيو بعد أن منحه البطريك ماركوس أجازة ، وماركوس هو الذي يمنحنا البركات فأصغى باهتمام الى ما يقوله قائدكم العظيم الذي يحارب في الهند ، ونحن على أتم استعداد لمده بما هو في حاجة اليه ، ولا يفوتنا أن نلفت نظركم الى أن حاكم القاهرة قد جهز جيشاً ضخماً للهجوم عليكم وليأثر من المصير السيء الذي سببه له قوادك في الهند ، ولذلك فنحن على أتم استعداد لامدادكم بقوات تسيطر على مداخل البحر لقطع الطريق الى مكة بأن تعسكر في باب المندوب أو في الطور . ان كل ما يقوله لكم ماثيو كأنه قيل على لساننا تماماً لأنه احدى الشخصيات الهامة في بلادنا ، ومعه أرسلنا اليكم صليبا ، ومن جهة أخرى فاننا نرجو ان نزداد صلة بكم عن طريق زواج ابنائنا من بناتكم أو أبنائكم من بناتنا ، ولا شك أن هذا شيء مفيد للطرفين ، فاذا تم لنا أن نتحد فسوف تتوفر لنا القوة الكافية لتحطيم أعداء عقيدتنا المقدسة ، وحيث أن مملكتنا بعيدة عن ساحل البحر إلى الداخل فقد أصبح تحالفنا شيئاً محتملاً حتى نتمكن من القيام بحرب بحرية ، وفي استطاعتنا نحن أن نمدكم بكل التموينات اللازمة »^(٤) .

(٤) دكتور محمد عبد اللطيف بحراري - فتح العثمانيين لمعدن نقلاً عن مؤلف اسمه :

LA MER ROUGE في كتابه (R. M.A. DAMMERE) .

رابعاً : رسالة من الملك مانويل ملك البرتغال إلى أهالي أزموور

المغربية مؤرخة في ١٥٠٤/١/٢٢ م .

إلى شيوخ الغضاء والروساء
الأمراء والبحهاء
والعامّة وجميع من هو من
أهل أزموور نحن دون
مانويل بغضاً لله
ورحمته سلطان
البرتغال والغربي وصاحب
كنائس ومستغاثا لليم
الغربية وأمسار وجزر
وبندر والاثا ليم الهندية
والفارسية سلام برافع
سلامكم وبعد فإن وصلنا
كتابكم وفهمنا جميع
ما تضمنه من كتابكم
وخطابكم وقد ذكرتم لنا
أنكم ندمتم على ما صدر
في موستكم في النازلت
التي حدثت عندكم وإن
قلوبكم مولقة ووجهه
ولكم واحدة واحدة
وظلبتوا منا العفو والتجاء
فما صار منكم وأصغى
عليه وإن تنموا على
صلحنا وعهدنا معكم
واعتزفتوا بذلك كنهم
وظلبتوا مني القبول
وأذكهم تذكرونا على

النحمد والصدقت وقلتم
أنكم تودون كلمة
اتخذ لنا هناك وإلى
رجائنا في موستكم
وبلادكم في قوارينا التي
أنفدت عنكم ورجائنا
وتجارنا واشترتم بكتابكم
بكل الماحية وأنصحة البنا
ومعها أنكم ما حمدتم
الله وشكركم موه على ما
منح لكم وأعطاكم من
صلحنا معكم بأن
كنتم تحت رعبتنا
وحكمنا وحملكم نظركم
الفاقد على هتك العهد
والميثاق الذي كان
بيننا وبينكم ومددتم
أباديكم في من ليس
بواجب عليكم بل
كان مني الأمر الواجب
أنني أذككم لرعي مسالينا
وخدمتنا وإلى استعفاظها
فنازلتكم وأقحتكم أولاً
للتأديب وبعده للتعزيز
إلى العفو والصفح لأن
عادة الملوك أمثالنا
في العفو كما قاتم
وتدبتم قبل هذا وما

وفلما كنتم جراب فسبب
 ذلك هو كان الحزن الذي
 لحقنا من حيثكم ومن
 فعلكم الذي أدركنا من
 نعوذكم وقتنا عاملين
 على أديكم وتعزيركم لا
 شك فيه وإن نجاريتكم
 عليه ونترككم مثلاً
 وموضعاً لمن ينقض عيده
 ولن يأتي بعدكم ولا نلکم
 بحجر أبداً فهذا كان
 مقصودنا ولا كن كمن
 كتبتموا إلي من هو أقرب
 وأحب إلينا الساطع
 وتوسلتم بها واعتزقتم
 بذنبكم وطلبتم منا
 العفو بشأنها العزيز علينا
 فنحن عفونا عنكم
 وسمحنا لكم بها مضي
 وما وقع منكم وذلك
 إذا وفيتكم بها قلتم في
 كتابكم يرد جميع ما
 أخذتم إلينا وأرجالنا
 إذا وفيتكم بها قلتم فلکم
 الأمان التام وقبول
 العام وتكونوا تحت
 حفظنا ورعتنا كما

كتتم في زمان الماضي
 وواجب عليكم الشكر
 إلينا وتجديد الحمد لله
 الذي سمحنا لكم
 ورضينا بقبولكم وهذا
 الأمر فأت ولا كن
 ما يكون فأت إذا
 من اليوم لقابل
 علامة شيء لعدم الصدق
 والوفاء لخدمتنا ولو
 عرفتكم الخبر الشام
 والامن الذي يحصل لكم
 لخدمتم الله وإذا علمتم علي
 تأكيد المراتب واجاب
 المحاسنات تنالوا
 المسرات وعلي ما قلتم
 ان كانت عندكم
 هدية تصرفونها إلينا
 مع رجاء من
 أخبركم وباتون
 بها لعندنا فاعملوا بذلك
 ما يسركم ويعجبكم
 لأن الذي يعجبكم ويسركم
 يسرنا ويعجبنا بلا شك
 أن جميع من يأتينا
 من عندكم نفرحوا به
 فاعملوا ذلك وما بقي من
 وطننا وجزيرة التي خلت
 في هذه السنين ثبوا عليه

وواجب عليكم خدمتنا
كما هو مضمون منكم
حسب ما ذكرتم والتزمتم

لعلوا الجماعة انكم لنا
اصدقاء ونريد منكم ان
تجتهدون وتسمعون في
خروج الفين كفين قم
لباتون به كما كان
لبنظروا اعدايبكم
وينكبوا بذلك وتعلموا

على جيرانكم وتكون اعيننا
اليكم دايما ناطرة
واسماعنا واعية وحواسكم
كلها متقضية بنفوس رضية
وتأدبر اليكم اميننا ونارس
دارنا ويشنسون تايارس
بجوابنا هذا فجميع ما
يقول لكم عنا فصدقوه به
تصدقوا شافيا وعاملوه
بحملا في قضاء حوايجكم
اعلوا حسب بقولكم
وان تغتم على ما يقول
لكم واتي من عندكم مع
من تتكلموا نفرحوا بذلك
وان اوفيتكم بما قلتم
وكتبتم نصرى لهنالك وكيلنا
وتاجرنا وفياورنا بجميع ما
تحتاجون وبصلكم كما
طالبتم وان نظرتكم هذا
بنظر كحج وسالم يكن
لكم فيه منفعة عظيمة

كتبه خديكم عبد
الله الرعيني في حضرة
اجبوه في 22 من شهر
1504 عام

خامساً : رسالة جوابية من سكان مدينة (أسفي)
المغربية مؤرخة في ١٥٠٩/٧/٢ م .

ومستنظرين من الله ومنك
الفرج والعدل على شكوتنا
فأول ما تعرض علي
جلهكم الشريف بأن ما
كرهنا عبد الرحمان الا
في حق الذي عصاك ولم
يدخل تحت طاعتك
وامرك ولا رجعنا الا حتي
قتلناه وحمدنا الله تعالى
وقلنا قد خرجنا من
العذاب ودخلنا الي الجنة في
طاعتنا لك وعهدنا معك
فيبعد هذا بعثنا الي عاملك
دبوكو دارمبوجه وادخلناه
المدينه وخرجوا لالتقاء به كل
سكان اسفي وقبيلوه
باحسن القبول وفرح
عظيم ولما دخل المدينة
كانت قصبه بيده وخصن
من الحبث بغمه وادخلناه
الي دارك ونحن بامولانا
كنا قادربين نسلم حكم
هذه البلاد الي سلطان
مراكش أو الي مولاي زيان
حاكم ازموور وكان باسفي
رجالا اهالا للشيشاخ
دون هولاي وقبلنا

الحمد لله وحده
والهبة يرجع الامر كله ولا بد
من لغايه ولا ينج منه احد
واذا ساققت منه كان
الفرج الي مولانا وسيدنا
السلطان دون منوبك
حفظه الله من خدامك
وعبيدك سكان اسفي
الذين تحست علامك
وطاعة الله وطاعتك بقبولون
أياديك والارض تحست
قدميك ونعلمك بامولانا
ن ولو كنا تحت حماية
الله وحمايتك جازت علينا
شدائد وجوع وخوف وغياين
من المسلمين ومن
النصارى وكل هذا احتملناه
حتي كتبنا لك به
واعلمناك بما جري لنا وكتبنا
لك جملة من المكاتب
واخبرناك بالحال الشقي
الذي نحن به ولا اتانا
جواب من عندك ولا نعرف
انكار وصلوك امر لا لهذا
كتبنا لك هذا الكتاب
وشرحنا به جميع ما
ذكرنا لك في الاولين

محبتك علي محبتهم
 وظهر لنا عاملك في اول
 الايام انه رجل عاقل
 وعادل وطلبنا منه
 بعض رجلا من اكابر
 مسلمين المدينة ليكون
 قنطرة بين المسلمين
 والنصارى وتكون بينهم
 المودة والاتفاق
 وبأخذوا الجميع منفعة
 واحدة وتكون المصلحة
 واحدة لان الغنم من غير
 راعي يهلك فتكلمت معه
 اكابر اسقي علي هذا
 وكان الاتفاق بينهم
 بان يكون الحاكم
 يحيى بن تغوفة لانه
 مستحق هذه الوكالة
 بسبب انه رجل عاقل
 وكامل وما فيه عيب
 ولا طمع وهو لا قبل
 هذه الوكالة ولا يكون بعد
 ما غلبت عليه العامة
 قبلها ويوم الثاني اعطاه
 عاملك ومشايخ في المدينة
 وفرحت الناس به ولما
 عرفت العربان اتوا من

كل مكان بجوابهم وجري
 البيع والشراء في هذه المدينة
 وكل من كان هارب رجع
 اليها بعد موت عبد
 الرحمن وجابون
 اعينهم الله وماله
 واستامنوا وخصوصا لما
 رآوا اعلامك منشورا في
 المدينة ورقد كل واحد
 منا رقاد بلا شرف
 وبقينا علي هذا الحال
 مدة قليلة مع عاملك
 هوكو دازمبوجه لانه
 بعد مدة ايام اراد يفتح
 باب البر فقال له
 يحيى بن تغوفة ما يصلح
 ولا يكون عاملك ما
 قبل كلامه فعاد له
 يحيى لازم ان نعلم السلطان
 بهذا فان امر بفتحه
 فنفتحه لان البلاد ما
 هي عامرة فاتفقوا علي ذلك
 وكتبوا لك مع عبد الله
 يحيى ويحيى وزنزع وبعد

ما سافروا امر عاملك
 يفتح الباب من غير علم
 احد وما استنظر جوابك
 ولا كن تكلم مع علي بن
 وشان ومع قبيلة سراق
 وبين ماجر وادخلهم الي
 المدينة فلما دخلوا بدوا
 يسرقوا بيوتنا وحوايجنا
 ويفسدوا مع نساء بنا
 وبناتنا ولا سمحوا لكبير
 وصغير ويتيم وغني وفقير
 وشيخ وعجوز وعملوا معنا
 الذي الله وحده يعرفه
 ونحن بامولنا نري
 متاعنا ببيدهم وحوايجنا
 لا يسبونها ونحن ننظر
 اليها وما نقدر على شيء
 وعاملك ديوكو
 دازمبوجه بري كل هذا
 ويسمح به من غير ان
 يعاقب احد من فاعلين
 هذه القبائح لانه بعشرة
 من رجاله يقدر يمنع هذا
 كله وسمح ايضا بتهيب
 القيسارية التي كانوا نازلين
 بها التجار بحوايجهم وهذه
 كانت كثيرة وهذه اول
 غدره التي فعلها معنا

ديوكو دازمبوجه وبعد
 ذلك كانوا زوج نصاري
 ساكنين في صومعه في
 الخلائق بناحية اسفي
 وبخزنون بها الذي
 يسرقوه ويخدون النساء
 مع من كانوا يفسدون
 قوقعوا عليهم رجالين من
 اهل دوكالت وقتلوه
 فلما عرف عاملك بذلك
 من غير حق علي ذلك الامر
 امر الي ناسه ليدخلوا
 عليهما كمثل السباع
 وقتلوا منا سبعة انفس
 وبهذا الحال اخلعوا
 النساء واسقطوا اليتيم
 الذين كانوا حاملين
 يارحامهن فلما كانت
 عشية ذلك اليوم اتاه
 الخيم بسان اهل
 دكالت هم الذين قتلوا
 النصاري وما منع ولا عاقب
 احد على فعل الشرور التي
 فعلوها وغدره اخبره فعمل
 ديوكو دازمبوجه مع التجار
 الساكنين في هذه المدينة
 وجرا الامر بان خرجت
 من هذه البلدة جملت من

الناس مسلمين ويهود
وحملو عليهم في الطريق
بعض فرسان من
الغربيين وسرقوهم وضربوهم
ولما عرف عاملك بذلك
قبض على الذين كانوا
يتسببوا في المدينة واتوا
ببيعوا ويشتروا وخلوا

تحت كلمته وامانه لنفع
المدينة وربط البعض منهم
رباع منهم ستة انفس الى
قبطان جزيرة الخشب
والقايد المذكور طلب منه
براءة وشهادة انه اشتراهم
وهو امرالي كاتبه روكي
دالمبده باعطائها وهذا
بنفسه يخبرك بصحة الكلام
وعن الامر الذي امره
لفرسانك ورجالك بان كل
من وجد منهم وقبضة
يقدر يبيعه ويشتريه وبهذا
الامر بامولانا بدوا البرتقيز
يسرقوا اولاد العرب واناس
الكبار والذين باتون
لبيع حوايجهم وحتى الذين
ساكنين في المدينة
ولهذا قامت ناس سراقين

مسلمين ويهود وانتقوا مع
رجالك وقهروا هذه البلاد
والبر وكل واحد كان
يقبض من اصابه وكثير من
الذين قبضوهم فباعوهم
الي جزيرة الخشب من
غير ان ديوكو دازمبوجه
يمنع هذه الافعال ولم
يقاصرنا علين هذه الضرورة
الا واحد مسلم رجع نصراي
وصابوا عنده بعض اولاد
كان يفعل بهم الحرام نامر
بصلبه والعرب والمصامدة

لما راءوا ذلك هربوا بالخفاء
وتركوا البلدة خاوية ومن
غير قوت من خوفهم على
وسهم واولادهم ان
ياخذوهم بسوء واعلم
يا مولانا ان كل الذين
هربوا لا يريدون يرجعوا
بعد ما تحقق عندهم
ان زمبوجه امر يهدم
ديارهم وحرق خشبها
وبهذا الامر بدوا رجالك
يهدموا جوامعنا ويسرقوا
خضوعهم ودنوسهم فهدموا
الجامع جدا القبور قريب

فيه حجير على حجير
وكذلك زاوية يقال لها
زاوية سبدي بو على وجامع
الكبير وسرقوا حصورة
ودفاته وكانوا ايضا
حشاك يغبظوا ويبولوا به
وزاوية جامع الكبير المسجدة
زاوية الشعب اخدها
عاملك دبوكو دازمبوجه
مع جناتها وزوج ابيار
كانت حدها التي كانت
للعامد ويتوضون بماءها
وتشرب منها وضرب عليها
حيط من دابر لمنع الناس
عن الدخول اليها وكذلك
جامع اخر بباب اوربر
سرقوا حصورة ودفاته وبعض
جنان وخوانبت كانت
تخصصه ومن غير هذه
الانعال عملوا ضرر ماله
وصف وبعد كل هذا
يامولانا زادوا رجالك
ظلمهم وقهرهم ومدوا
ايديهم الي نساءنا
وبنائنا وتضخوهم غصبا
وعاملك دبوكو
دازمبوجه لا منع ولا

عاقب احد على هذه
الانعال القبيحة حين
كان يقدر على امتناعه
وهذه الانعال وغيرها
سببت ان تهرب الناس
من هذه المدينة وان كان
عاملهم بالخير ورفع عنهم
الظلم ما كانت هربت
ونحن يامولانا احتملنا
وصبرنا على هذه الاحوال
حتى ياتينا جوابك
وحققت عندنا انك
تكره هذه الانعال
وانك ما امرت ولا
تأمر بها لاننا
متاملين نعبش
بالامان وقلة الظلم
والقدر ولما سمعنا انك
تريد ترسل على بن
تغوفه ليجكم فينا
فرحنا غاية الفرح
وشكرنا الله الخالق
كان الرحمة نزلت من
السماء على هذا
الشعب وكل الذين كانوا
هربوا لما شاع هذا
الخبر بدوا يرجعوا الي

منزالهم واعلم ان
ديوكو دازمبوجه كره
يجي عبد الله الجباني
من مدينتك ولا سها
لما تحقق عنده انه
فهمك باحوال هذه
المدينة وقال لك الحق
والصدق على ما
احتمناه وبعد ذلك من
غير سبب ولا جرمة
نقاء من المدينة
ونسب لنا افعالا
بمنفعاتها وزاد عليها
قنا زوج انتساري
الذين قتلوهم اهل
دكالت لمارن ما
مات الا واحد شلدات
قتله صاحب متي كان
سكاران في دار مسلمة
وان كنا فعلنا
تنب ببينة لنا ولاكن
ما عنده ما يقول
علينا ولا بلومنا به
نحن هم المغدورين
والمشتكين منه ومن بن
وشان وقبيلة بن
يجار الذي ادخله
علينا وغدرونا وسرقونا

وفضحوا نساءنا
وبناتنا وقتلوا بعض
انفار من ناسنا وهذا
بن وشان بنفسه هو
الذي غدر عبد الرحمان
بعد ما كان ضيفه
واكل خبزته وما هلك
ناسك ورجالك بسبب
انه ما قدر على ذلك
لان لما راي اننا
متفقين مع رجالك
ونحن كلك اصدقاء مضي
تكلم مع سلطان
مراكش ومع زيان
صاحب ازموور ومشايخ
قبائل العرب ونفق
ماله على هذا الامر وبعد
ما قطع رجاء من تلك
لناحية اتفق مع
عاملك ديوكو دازمبوجه
وغره بكلامه لانه زمبوجه
كان عارف بما
سلك منه واعماله مشهورة
وكل اهل المدينة خافه
بعد ما رأت انه قامه
حاكم في هذه المدينة
واكثر الناس علت على
الهروب منها لاجل ظلمه

وقهره وكل يوم يزيد غدره
 علي يوم واهل عبده
 يربدوا يهربوا لان
 ما لنا ما نمان
 ان اننا بسكن مع
 النار في مكان واحد
 وهكذا ما نقدر
 نسكن مع اعدائنا
 والدين اكلوا حوائجنا
 وقضونا وانت يامولانا
 تقدر تحترق رجل
 يكون علينا شبح من
 القبائل التي تحت طاعتك
 من قبيلة جرافة ووتانه
 ومساز وعبده ودكالت لانهم
 يجمعوا عشرة الف فارس
 كلهم جيديين وعلى حال
 وراي واحد عدوهم واحد
 وصدوقهم واحد وكما ان
 قبيلة بن ماجر هي
 عدوتهم فهكذا كلهم
 اعداءها واعلم ان ديوكو
 دازمبوجه يغشك وكتب
 لك انه قبض هذه المدينة
 يدراعه ونحن يامولانا
 الذي سلنا هاله وادخلناه
 اليها كما ذكرنا
 لك في اول هذا الكتاب
 وانه ما اتفق مع قبيلة

بن ماجر الا حتي بهلكنا
 وكل هذا جرا لنا قبل ما
 وصل اليها قنايدك وكل
 البلاد فرحت بهجبه
 وقبلناه وعرضنا عليه
 شكوتنا واحوالنا وكل ما
 سرقوه لنا ولملونا وهدمهم
 لجوامعنا وصوامعنا ولاكن
 يامولانا رد لنا جواب بانه
 ما جاب امر ليعاقب احد
 ولاكن امرنا ان نكتب لك
 وانه يرسل كتابنا الي عالي
 مقامك ونحن هكذا فعلنا
 واعلم يامولانا بان قبطان
 مثل هذا يصلح الي اسفي
 لانه ملج وعافل ويعرق
 ظبع البلاد واخبرنا يامولانا
 ان كان تريد عهدنا ونكون
 لك خدام واعداء نامر
 بخروج قبيلة بن ماجر
 وسراق وبن وشان لان
 ما يصلحوا الا الي خراب
 البلاد وتضجر شانك وامر
 ايضا بطلوق المسلمين
 المحبوسين في هذه المدينة
 وارسل رجلا ليعحكم علينا
 ويكون قنطرة بين المسلمين
 والنماري ويكون البيع
 والشراء والحرث كما كان

حصار جند وبسبر من
 الذين سرقوهم لنا
 والسلام كتب في اسفي
 في ثاني يوليو عام 1509
 من خدامك
 حسن برجيل
 معتمد .. هسيس
 منصور بن برجيل
 علي بن سعد .. الله
 عبد الله بن حط

في زمان القديم وتكون لك
 المنفعة وتستفيد منها علي
 الخطا وهذه باسدي فلا
 تحصل الا بالامان الذي
 هو راس كل شي وتحقق
 كل ما ذكرنا لك يخبر ونك
 به خدامك روكي دالمپده
 ودين غراسيا وانطوني
 دازمپده وغيرهم من عدا
 انريكي جوزة لان ديوكو
 دازمپده ارشاه واعطاه

سادساً : رسالة من عملاء وجواسيس البرتغال إلى

ملك البرتغال في عام ١٥١٠ م .

البهر كتابك وفهموا
 كل ما فيه ويريدوا من
 فلك ان تعمل لهم
 غرضهم وغرضك بما
 يطلبونك فيه ويكتفوا
 لك مطيعين وامسا الرجال
 الذي بعثته لهم ما
 جاء علي خاطرهم وخبر
 عليك كتبوا ما لا
 تقدر تصلحه وانه ما
 هو بخير مع التصاري

الحمد لله وحده
 لا رب غيره ولا معبود
 سواه الي امير قومه
 وسلطان بلاده دوان
 منسوب سلطان
 البرتغال والغريس مولا
 غناوة والذهباني وغيرها
 امسا بعد يقبلون
 اباديك اجواد الشرقيه
 ومنهم سالم بن عر
 وتالي بن عيسي واولاد
 داوود ويعلمونك بان ورد

ولا مع المسلمين ولا مع
اليهود وما يعمل إلا
برأيه ولا يسمع لمن ينهيه
وينصحه ونحن أهل
البلاد نقول له أعمال
الذي يصلح للسلطان
والناس وأبنا ابن
باخذ بكلامنا واشتغل
يشتري المسلمين ونحن
نخاف عليه من المستن
ابن يقتلوه ويتجى عارك
علينا أما هو ما
علينا منه واذت هو

السلطان فان اردت
ابن حوايجك تنقضي من
بلادنا ونكون خدامك
ابعد لنا رجل اخر
يكون بحال انطوني

مرتبة لانه عاقل
وعارف او مثلك ردركو
او جوان بشكو هذا
الرجل لا يحبنا ابدا
وفي اول مركب الذي
يأتي ارسل واحد من
الرجال المطلوبين
وارسل لنا الجواب في
الوقت وكل حاجة تكون
لك في بلادنا نحن
خدامك فيها هذا ما
عندنا والسلام عليكم
وعلى من هو متعلق بكم
كتب في رابع عشر جمادي
عام 916 للهجرة
من خدامك
سالم بن عمر شيخ الشرق
وباقهم

سابعاً : رسالة أهل مدينة (ماسة) المغربية لملك البرتغال
مؤرخة في ٢٨/ربيع أول/٩١٦هـ أي عام ١٥١٠م .

الحمد لله وحده
بسم الله الرحمن الرحيم
من اهل ماسه كافة
وعامة شيوخ وكهول
وعبيان الي مولاهم

السلطان دن منويل
ملك البربر والبحرين
وما فتح الله علي يده من
الاتاليم والبلدان فالحمد
الله علي ما من عليه به
ادام الله في العز تكريمه
اما بعد فكون في
شريف عليكم بان
ورد علينا كتابكم
مع شيخنا خديكمكم
وفهمنا ما فيه وقامر
عندنا مقامكم
العلي وغاية ما
سرننا فيه من جهة
الخمسين فارس الذي
دكرتم انهم يكونوا
عندنا في داركم

وتكون لنا بهم . هيبه
وحضوه ونفتخر بهم ببر
قبائيلنا فذلك هو
غاييت مرادنا لان
البلاد علي دمت الله
ودمتك معروفة وبهذا
وقعت المعركة بيننا
وجرت الاقلام
بالرسومة وحلفتنا
لخدمتك ورقعنا روسنا
وكل من اتانا من
رجالك نكرم ونعزة
وماله عندنا الا الخير
والمحبة الشاملة فبعد
هذه المهزلة سيقنت

لدينا هزيمة عظامه
وهبات قبيها من
اخبارنا وشيوخنا
نحو خمسة وعشرين من
اخبارنا وفي غير وقت
اكثر من هولاي واتخذ
بعضهم اساري وما عز
عندنا الحال وتمكننا

ابلج في حقك وهذا شيء
 قليل على خدمتك
 لاننا امننا بكتابك
 وعلامك الذي عندنا
 وامننا من شرك وشر
 قسابلك ومشبنا في
 البلاد ونزعنا الخرق
 من روسنا واما جاءوا
 بعثنا من اسني في هذا
 الوقت بالبحر في قارب
 دميان دموطه مع
 سلعتهم فوقعوا عليهم
 النصارى واخذوهم
 بحوايجهم وصرنا بهم الي
 اسني وكان معهم علامك
 لاجل امانتهم فبعد
 هذا اشتكوا الي عبد
 الرحمن لانه كان في
 تلك الوقت في اسني فتوكل
 في امرهم ليرد لهم
 متاعهم ولاكن
 بسبب حبيته مع
 القيساليه متاع اسني
 قسم القيساليه على ثلاثة
 ساء واحده له
 وواحدة الي دموطه والاخره
 الي مولاة المتاع فرجعوا

الناس واشتروا سلعة اخرى
 مع التي ردوا اليه وركبوا
 ابشبا في قارب دموطه
 المذكور وفي سفرهم
 التقوا مع اخريين واخذوهم
 وكتبنا لك على ذلك
 بعض براوات وما وصلنا
 جواب ولاكن سمعنا
 ان قلت بان عبد
 الرحمن ودميان
 دموطه ماتوا ناعلم
 ياسيدنا بان صرنا

فحكم بين جيراننا
 وبين المسلمين وبقولوا هولاء
 ضنوا انهم يعيشتوا بامان
 تحت حمايت النصارى
 ولاكن الحمد لله فرجعوا
 كما رايتهم من غير
 امان ولا جاه ولا
 متاع وبهذه المصيبة بقوا
 اعدائنا شمامتي
 وفرحاني بشقائنا
 وبالحق ان ناسنا
 ما ذوب قلوبهم على
 سفرهم في البحر الا
 بامان عبيدك

وعلامك الذي عندنا
ثان وفيت بالمعهد
والموتوق بيننا وامنتنا

على نفوسنا واموالنا
فكون لك دايماً
خدامين كالاول نأظر في
رسومك وقرطاسك الذي
رسلته لنا وخذ حقنا
كما انه كان لك لارن
اخذناك لنا وكبلا
وسلمنا امورنا بين يدي
الله ويديك فانظر ياسيدنا
ثان اذا ما اخذت
حقنا ما احد يخلصك
في هذه الدنيا ولا في
الآخرة من يدي التقدير
على كل شيء ولا لك ما
تلموننا لان ناسنا
ما سافروا الي اسفي الا
يسامر خدمك فونو
دفريتاس الذي كان
عندنا في تلك الوقت
وانت حاشاك ياسيدنا
ان تخالف قواعده
ووعده السلاطين العادلين
واعلم ياسيدنا ان
بسبب خدمك افسو

ذيوكو صار بيننا وبين
اهل دار جدار معركة
عظيمة وبها مات من
ناسنا في تلك المعركة
ما اوفي اجله واخرين
اتخذوا يسري الي اليوم
واخترنا صحتك وخدمتك
حتى جانباً جوان لويس

دسكيرة بكتايك والكرمنا
واتفقنا معه على ما
يكون لخدمتك فلماذا
السبب قامت علينا
المساكين على جهة البناء
وما رادوا بينوا في ذلك
الموضع قد دخلنا معهم
بالمعاطفة والرشا حتى
ابوا بالبناء في كل
موضع وصارت لنا عداوة
بين اهل هكسمه
وبين العرب الذي في
الخلاء وهؤلاء يعبروننا
ويحملون علينا ويأخذون
اولادنا ويبيعوهم الي
حمار لويس فرسلنا
لسبب ذلك شيخنا مع
بعض فرسان وطلبنا
منه ان لا يشتري اهل

ماسه نابا عن ذلك
 وخدمتك صرنا محكمه
 بين جيراننا وبين
 المسلمين وهذه هي
 الفايده التي حملناها
 من خدمتك وصارينا
 منك قط شيء ننتفعنا
 ونفخر به وكتبنا لك
 مرة ثانيه على دعوتنا
 ولما اتى الرسول قال
 لنا انك صرفت الي
 جوان لويس ووصيته
 فينا لتكون عنده
 بعلة مفر وبشر في
 امورنا ففرحنا بهذه
 الخبر غابت ثم بعد
 هذا الامان سرقوا لنا
 عبدا في الخلاء والعبد
 بعد كامر يوم ظهر في
 دار جوان لويس فكتبنا
 له كتابا بخط النصاري
 من واحد من خدامكم
 اسمه جوان رديكو فرد
 لنا جواب قايلا ما ارد
 ولو اعطيتهم به الف
 مثقال وارسله الي
 ماديبرا فرسلنا له تانيا

كتابك لبقراء وينظر ما
 فيه ولاكن ما اخذ
 بكلامك ولا في كتابك
 وفي وقت اخر مضى واحد
 يهودي من متقدمين
 ماسه مع رجل مسلم الي
 بني تامر فقبضهم
 خدامك وقتلوا المسلم
 واخذوا اليهودي الي دار
 جوان لويس فرسلنا لكي
 يطلقه لانه تحت امان
 سلطان البرتغال
 وجاهد نابا ان يسرحه
 وبعد ذلك ركب منا عشر
 فرسان من اعيان البلاد
 واخذوا معهم علامك
 ودخلوا به دار جوان لويس
 ودفعوا له كتابك فبعد
 ما قرأ وراء فيه خط يدك
 الشريفه فخرج من الدار
 وترك الناس مع اليهودي
 نفسه الله الذي اسمه بين
 زمرة فقار وحلف بدينه
 ان ما يزوج معهم ولا
 تقضاء لهم حاجه واراجاء
 السلطان بنفسه وقال
 انه هو موضع جوان

لويس وناسنا بقوا ثلاثة
 ايام في دار جوان
 بعد انهم يستنظروا
 الجواب حتي ايسوا ورجعوا
 بلا شي ولا كان في اسفي
 من بعد شهر ولا من يتكلم
 منهم فان كانت هذه
 افعال ناسك اخايانا معنا
 فكيف يكون حالنا
 مع الغريب ولا سها بعد
 ما ناس الخير بين
 المسلمين والنصارى ان دار
 لويس ما لها مقدار
 للسلطان ولا كلمته مقبولة
 بل في ملجاء لمخالفين
 السلطان فنحن
 نادمين وحاشمين بعد
 خدمتنا لك ونعلمك بان
 بلادك ومفاتج دارك التي
 هي في بلادنا تصلك مع
 اخرنا بو عزو نافع بهم
 ما تريد لان العار جاء
 علينا من كل جانب حتي

ان اليهود يبهدلونا لان
 اليهودي بن زمر حلف
 بانه يقبض بو عزو او حمو
 بن براد او واحد من
 اولاده ليرا ان كان
 سلطانهم يفكرهم وان

كان قال هذا واحد من
 اخيار فرسانك كنا اخدنا
 الصبر عليه ولاكن واحد
 كلب يحلف فينا
 ويحكم علينا ويقول في
 خدامك ما هو اهله فما
 له احتمال فان اردت
 خدمتنا فانظر بما شكونا
 به وكيف يصلح علينا
 فاجعل علينا نظرك
 وان تركتنا وسدبت
 علينا باب حلك فنحمد
 الله على اننا افترقنا بلا
 عيب ولدار التي لك عندنا
 فادفعها لمن تحب او
 بيعها لانها مالك ومملك
 فاحيرا اصفع لنا بهذا
 القول واعدنا لان الذي
 جرا لنا حرق افودنا ولا
 سها بعد ما كنا تحت
 نظرك وبخدمتك
 ودخلنا تحت مملكتك
 بخاطرنا والي طاعتك
 والكلام طويل ولاكن
 بو عزو قادر البكر
 وهو حامل هذه وكل ما
 قاله لك وفعالته معه من
 الخيبر هو جايز وعلمك من
 اليهودي الملعون الذي
 دغونا والسلام

ثامناً : رسالة من وزير هرمز راشد ركن مؤرخة

في عام ٩٢٧هـ ١٥٢١م .

عند يـ من الشام ومن
يوم خروجهم الي تاريخ
هذا له ثلاثة اشهر وخبرونا
عن سلطان الروم انه
مضي لمحاربة الفرنج
بعسكره الي نواحي
سويس وكان عدده خمسة
وعشرين الف رجلا
مستعين غراب وبعد ما
خلع لمحاربة الفرنج
حلف عليه قصور في
المحاربة واخذوا الموضع
ريج فبعد ذلك عين
سلطان باشا امير مصر
بكون باش على العسكر
يسير به الي نواحي الهند
بالغرائب وامير سليمان
قبل على نفسه هذه
الخدمة وهذا خير محقق
من هو معتمد عليه
وايضاً عام الاول سار
عسكر الشاه علي ديار
بشرو وكسروا عسكر الروم
وشروهم حتي انهم
تركوا خيامهم

السلطان الاعظم دوان
منوب سلطان
يرتكاب اعطى خدمات
تعطى من نسائها
مشام الروحاني
وتلتقى بالغايف الصدق
وتحفظ في حزب الخلاص
وتهدي الي من خصه الله
بالي بالسعادة الكاملة
السلطان الاعظم
والجائز الانحر مالك
والبحر حامي
العرب والعجم اعدا ملوك
الاكتاف واشتجع ولات
المخرف مستدر الاقلام
الاطوال خلد الله
سبحانه في بسط الارض
ملكه وسلطانه وبه
يملك كاذب البرايا
وبعد تقبيل الاقدام
الشريفة الخادم يعرض
للولي ما هو لازم اولاً
عن اخبار الشام وهو
ان جاءنا رجال من

واسلحتهم واموالهم
 وركبوا الخيل بغير سروج
 وكان ملك الروم غايب
 في حرب الفرنج فبعد
 ما وعل قبض باشين
 واحد حاكم حلب والاخر
 حاكم حميد وقتلهم
 وعين ابراهيم باشا
 يقبض ديار بكر ويقابل
 الشاه وانما رسلت رجلا
 من طريق البحر ليقبضوا
 عن الخيل ويصلوا الي
 سويس والذين ارسلتهم
 ما قدروا بدلوهم وزود
 الطونان من بندر قسن
 وكانوا طالبيين جدة
 وايضا ارسلت الجواسيس
 الي كل ناحية ليقبضوا امور
 العدو وانما ليس متغافل
 عن فحص الاخبار
 المقيمة لخدمة سبدي
 واما اخبار امور البحر
 فهي كما كانت ومن جهة
 امير الارمن من مدة
 ثلاث سنين كل سنة يرسل
 شردمة من عسكره الي
 نواحي هرموز وهذه السنة

ارسل عسكر الي استان
 وخربوا سواحلها وحرقوا
 بعض امكان وبومر
 تاريخ هذه جانا
 خبر ان الامير راشد اتي
 بالقبض قواس ومر بهم
 علي قلعة تزرع ويريد
 باخذ البلاد وهذا غير
 بخفي عن سبدي فان
 قبض حوالي هرموز
 ومستغان وباتي
 حوايلها بمنع دخول
 التمر والسمن واللحم
 والفواكي للذين هم
 عمدة معاشهم وتضيق
 الرعية ويقل محصول
 هرموز وان من مدة سنين
 ما لها محصول لسبب
 قلة بضاعة جوزرات لان
 مدخل هرموز هو من
 جوزرات والقنابل
 الذين ياتون بالحرب
 والقوة والقماش وغيره
 وهذه السنين امتنعوا عن
 حجة الجهارات الي
 هرموز والرعية في ضيقه
 شديدة لسبب ذلك ومن

قلعة محصول البندر
السلطان ايضا مستخيف
وانا خدامك من قلعة
المدخل ذلك
قاله مامول من مولانا
ان لا يثقل عن مملكة
هرموز لان خرجنا كثير
ولا يقوم الملك الا بالخرج
فان لم يكن له
مدخل ويكفي الخرج
يقع خلال في الملك وانا
ياسيدي لي اربع سنين في
خدمتك بامر القبطان
موروجاني وحظي في وكالت
الوزارة وقت بها بالجهد
والخلاص كما شاهدوا
خدامك حضرتك من غير
ضجع لان الوزر المتقدمه
كانت لهم محاصيل كثيرة علي
قدر طمعهم وانا خرجي انتز
من مدخلي وهذا ما
يتخني عن حضرتك وقيل
مني كان رأي من شران
يخزن مدخل البحرين
وجالار ومستان وبيرونات
وكان يحصل له ستين الف
اشرفي ولا يعطي الا اربعين

الف او خمسة واربعين والباقي
يحداها في كبسه ولا تخرج
بقوته من الديوان الا باخذ
علمها خمسة الاف طرقات
والغرايم باخذها من التجار
والرعيه وانا ياسيدي بدي
قصيرة عن هذه الاعمال ولا
اريد شيء الا الذي يرضي
الله ومولاي وفي زمان
حكومي رفعت هذا البدع
والظلم والعوايد القديمة
والجديده ولهذا ياسيدي
مدخلي ما يسد خرجي
افتكر بخديبك لانه
مستوب علي مولاه وان
تبطان هرموز انطونبو
مسيريرا وقبطان لويس
وباتي الرعيه يشهدون
منحة عريضتي لان جميعهم
يعرفون حال سيرتي
والسلام

في ٢٤ من جمادي سنة
١٠١٨ الهجرية

من خديمكم

راشد ركن وزير هرموز

تاسعاً : رسالتان من سلطان (فاس) السلطان
محمد الوطاسي إلى ملك البرتغال .

إلى الجزائر ومن هناك
لتونس فنريد منكم
تأمرؤا أن خدامكم
لا يتعدوا عليه برا وبحرا
حيث ظهر من بلاد
المشرقية هذا غرضنا
واكد دوابنا عندكم
فأتونا بالجواب مع
خديكم وخديمننا
الواعد اليكم * السلام
علي من اتبع الهدي

كتب في 23 من
جادي عام 920
للهجرة

من شريف محمد
سلطان فاس

الحمد لله وحده
السلطان كبير الحكم
والعظيم في قومه ودولته
والعالم في زمانه المكرم
الانجيد سلطان البرتغال
وما أنصاف اليه من
البلاد والوطن هداة الله
ورفته بهما بحبه
وبرضاه * السلام علي من
اتبع الهدي ورحمة الله
أما بعد فنحن علي ما
تعلوننه من الصفا وحسن
الاعتقاد وغرضنا
بان تكون
الكتابية بيننا مترددة
والحواييج متأكدة
وان ساءلتم عنا فإنا
عندنا إلا ما يسركم
وبرضايكم كما
يعرفكم خديكم
سبستبان ومما نعرفكم
به ان عزمنا علي
ارسال جن من
اجفاننا بان يسافر

الحمد لله وحده
إلى السلطان الكبير في
قومه ودوائه والعالم في
زمانه وأهل أمثاله
المكرم الأنجلو دون
منوبك سلطان
برتغال وما انضاف
إليها من البلاد
والأوطان هداه الله لما
يحبه ووفقه لما يرضاه
سلام على من اتبع الهدى

فندحن على ما تعلمونه من
انفساء وحسن
الاعتقاد ومرادنا ان
تكون المكاتبه بيننا
متزده وقضاء الحوايج
متاكده وان سالتهم
عنا فما عندنا الا
ما يسركم ويرضكم
كما يعرفكم خدبكم
سيستبان روبركو
وما نعرفكم به بان
مرادنا نرسل مركب
من مراكبنا الى
الجزاير ومن هناك تنون
فمرادنا ان توهون

خددامكم ان لا
يتعدون عليه برا وبحرا
متي التقوا به او ظهر من
بلاد المشرقيه هذا هو غرضنا
واكد حوايجنا عندكم
فارسلوا لنا الجواب مع
خدبنا الواصل اليكم
السلام على من اتبع الهدى

كتب في 28 من ذلحده
عام 920 للهجرة

من الشريف مولاي محمد
سلطان فاس

عاشراً : رسالة أرسلها المدعو (ماتثيوس) وهو سفير الحبشة

بسم الله الحي الازلي
من عبيدكم ماتثيوس
بشدور برست جوان الي
مولانا السلطان دون
منويل نصره الله واعطاه

الفقر سلطان الدنيا
وانصر كل السلاطين فاعلمناك
ياسيدي بما عمل
بي قبطان المور الذي
جيت معه لان من
يوم الذي فارقتك انا
في عذاب شديد من
القبطان لوبو سوارس لانه
ريد قتلي ولاكن الله
ما سمح ومنع عني
الكومانيه والاكل والشرب
لاجل ذلك بعث
حواججي حتي اكل واشرب
وما بقي عندي شيء
واخذني الي جده الي بحر
القلمز وما اعطاني شيء
من الماكل وبعد هذا
علمي في مركب سان
بدرو الذي ريسه دون
جوان دسالمويرة وكان

مربوط معنا في بندر
جده مركب اسمه زنكي
وعلي باب جده معنا
من باقي المراكب
وغرق الزنكي وماتوا
الناس من الجوع والعطش
والبلوط ما عرف لي
يروح واراد يرمي بالمراكب
علي البر فلاكن انا
يامولانا اخدتهم الي
دشك واريتهم الطريق اي
بر الحبشة وقلت الي
دون جوان قبطان
المركب انه يمضي الي بندر
نك الحبشة وهو مشي
نصف نهارق قال ما
اريد اخدم سلطان
ايتر نكال انا خديم
قبطان مور لوبو سوارس
وبعد ما بقينا اربعة
وعشرين يوما دخلنا
دهلك ولوقت بعث
القبطان ناسه للبر ونهبوا
بقرها وغنمها وقتلوا
واحد من اهلها فقلت
له لماذا تفعل هذا لان

سلطان دهلك بعرفني اني
أخو البطرك وبلومني علي
هذا الفعل ولاكن ما
سمع كلامي وما أخذ
بما قلت له وفي مدة
الأربعة وعشرين يوما
الذي كنا هناك ما
أخذنا أخبار باقي
الراكب وبعد ما فاتت
تلك الأيام وصلوا
لعدنا قاريين مرسلين
من قبطان مور في واحد
منهم اتي لورنسو دكارمو
صبي السلطان فساءلتهم
لماذا جئتموا فقالوا
نحن مرسلين من
قبطان مور الي دهلك
وجاء مع صبي السلطان

واحد كلربكو وواحد يسبر
ويهودي وقالوا لي احي
معنا لتورينا الطريق
فانا ما كان لي خاطر
امضي معهم لاجل الغمال
الذي دون جوان امر
بها والسرقة التي جرت
منهم في دهلك وانا
فصحتهم بان صاحب
دهلك حرامي وكل يوم

يسرق الحبشيين ويبيعهم
وما يصلح ان يتزلوا
في تلك البلاد وأخبر البهم
ان همضون الي خرقون
بندر من بنادر الحبشة
وفيهم نصاري وقسوس
ورهبان وناس يعرفون
فقالوا لي قل هذا الي
دون جوان وقلت له
هذا ولاكن ما قبل
كلامي ولا صدقتي وامرني
ان امضي معهم وحلف
لي انه يستنظري ولاكن
يجب له اخبار البلاد
وبعد ما رحنا سافر
بمركبه الي كمران وبقوا
حواليجي في المركب
ويسبري ولما وصلنا الي
دهلك اتكلموا مع صاحب
البلاد وقال لهم ما تريدوا
واني صاحبكم فقالوا له
نريد ندخل الي بلاد
الحبشة ولو كان هذا
الرجل معنا ويقول
انه بشدور برست جوان
ولا لنا به حاجة فعرض
لهم مركب وناس من
عنده ليعملهم الي عند
ننحجي نيكاش واحد من

سلاطين الحبشة وحلف
لهم بالامان فانما نهبتهم
بان لا باءمنوا فيه ولا
يصدقوه بما حلف ولا
يقبلوا منه المركب الذي
عرضه لهم وما قبلوا
مشورتي واعطاه تمشاش
يسوي مائة اشرفي ذهب
وبعد ذلك رجعوا الى

الغوارب وتاني يوم بعث
يقول لهم انه يريد يلتقي
معهم في الساحل ولاكن
متي يصلون لا يحببون
معهم سيف ولا حربة
وانا قلت لهم لا تفعلون
هذا لانه يريد يقتلكم
فردوا على اسكت لانه
صاحبنا وحلف لنا انه
يؤمنا الى بلاد الحبش
ونزلوا الى البر من غير سلاح
قايلين انهم ما يفعلوا
الا الذي امرهم به
قبطان مور فقتلوه
وانا مع الذين بقوا
هرينا ومضينا الى

كمران فين كان قبطان
مور من غير ثلاثة انفس التي

قتلوه في ذلك فبعد
ما وصلنا قلت
للقبطان ان اروح
بالمركب الي بندر سلطان
الحبشة لانه كان قريب
قال لي امضي انت الي
ابن تريد قلت له اني
ما اروح الا للمكان الذي
رسلني السلطان دون
منويل لخدمته وابعت
له جواب من عند سلطان
الحبشة وما سمع مني
وظهر له ان كلامي
كذب وما راى يمضي الي
ذاك البندر الذي دليته
عليه محببه في انفسه
والبوكر وقرناندو بيرس
وفرنسيسكو دتاورا
وكذب النوايج التي
جاءوني لحضرتك لاجل
ذلك ياسيدي انت صانطو
وتعرف كل شيء فلا تسمع
كلام لوبو سوارس لانه يريد
قتلي ولاكن الله ما
سمع وكأما بعث يقول
لك هو كذب والمتجنون
ما عليه حراج الله يديم
لنا بقاءك ويحفظك في *

٢٧ من شباط سنة ١٥١٧

الفصل الرابع والعشرون

- * ديبكو لوبيز دي سكويرا يتسنى منصب حاكم الهند في ١٥١٨/١٢/٢٠ .
- * حملة دي سكويرا على البحرين والأحساء وعدن .
- * القائد أنطونيو كوربا يهاجم البحرين بجيش من هرمز .
- * مصرع الأمير مقرن بن أجود .
- * وفاة ملك البرتغال مانويل وولاية ابنه دون جوان الثالث. ثورات في هرمز وعمان والبحرين .
- * اضطرابات جديدة في اليمن وحملة برتغالية تهاجم مدينة الشحر .
- * القائد البرتغالي هايتور دي سلفيرا يعقد مصالحة مع حاكم عدن ويدمر ظفار .

على صعيد الأوضاع البرتغالية في الهند فإن ثمة تغييرات حصلت في المناصب القيادية فقد غيّر الملك البرتغالي نائبه هناك وهو (لوبيز سوريز) ووضع بدله المدعو (ديبكو لوبيز دي سكويرا DIOGO LOPES DE SEQUEIRA) وذلك بعد أن وصلت إلى الملك أخبار عن تلاعبات مالية قام بها الحاكم السابق (لوبيز سوريز) ، وقد استلم (دي سكويرا) المنصب الجديد بتاريخ ١٥١٨/١٢/٢٠م ، فقام بإجراء تعديلات في المناصب القيادية الحاكمة في المستعمرات البرتغالية في الهند والملايو وغيرها من مناطق الشرق الأقصى الممتدة إلى سواحل الصين ، ثم أوكل مهمة الاشراف والسيطرة على السواحل العربية إلى القائد (أنطونيو دي سالدانا ANTONIO DE SALDANHA)^(١)

(١) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٣٤٣ .

وكان أول ما فعله دي سكويرا أنه أرسل خطاباً كان مُرسلاً إليه من القائد العسكري لمنطقة كوشن ومؤرخاً في ٢٢/١٢/١٥١٨ م ، إلى الملك مانويل يخبره عن أنباء التحركات المصرية في البحر الأحمر ، ويقول له إنه علم بوصول إحدى وعشرين سفينة من السواحل العربية إلى السواحل الهندية ، وإن هذه السفن قد اختفت في موانئ الهند ، وستقوم بمساعدة الأسطول المصري الذي سيأتي لمحاربة البرتغاليين ، وأنه علم أيضاً أن الأسطول المصري الموجود في جدة قد انسحب إلى منطقة الطور (يقصد سيناء والسويس) لغرض الصيانة وإعادة التنظيم . وهذه المعلومات قد تم الحصول عليها بواسطة الضابط (الفارو باريتو) الذي تمكن من أسر سفينة عربية في باب المندب .

لم ينتظر دي سكويرا جواب الملك على رسالته بل قام بتجهيز حملة عسكرية قادها بنفسه لتذهب إلى هرمز والسواحل العربية وباب المندب والسواحل الأفريقية . وفي يوم ١٣/٢/١٥٢٠م أقلع من ميناء (كوا) بأربع وعشرين سفينة حربية وقيل بست وعشرين أيضاً ، عليها ألف وثمانمائة جندي برتغالي ومثل هذا العدد من الجنود الهنود ، وتوجه أولاً إلى هرمز ، حيث التقى هناك بملكها ، الذي كان قد تأخر عن دفع مستحقاته من الضريبة المفروضة عليه ، فلما طلب دي سكويرا إيضاحاً منه عن سبب التأخير في دفع الضريبة أجابه ملك هرمز بأن السبب يعود إلى رفض حاكم الأحساء والبحرين (الأمير مقرن) دفع ما عليه من ضريبة إلى هرمز . لذلك فقد اتفق دي سكويرا مع حاكم هرمز على تجهيز حملة عسكرية لمحاربة الأمير مقرن واحتلال البحرين .

فتم إعداد مائتي سفينة هرمزية عليها ثلاثة آلاف جندي من جنود هرمز بقيادة (ريس زرافو) أو الرئيس شرف الدين رافقتها حملة أخرى من أربعمائة جندي برتغالي ، وقد عهدت قيادة الحملة بكاملها إلى القائد البرتغالي (أنطونيو كوريا - AN-TONIO CORREA)^(٧) .

* * *

(٧) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٣٥٠ ، أما (ريس زرافو) هذا فقد ذكر المؤرخون المعاصرون أن اسمه شرف الدين .

قبل أن ندخل في تفاصيل تلك الحملة على البحرين والأحساء ، والتي لم ترد إلا في المصادر البرتغالية ، وهو أمر يؤسف له حقاً ، فقد رأينا أن نقف برهة لنطلع على الأوضاع السياسية التي كانت عليها منطقة الأحساء والبحرين في تلك الحقبة التاريخية ، ومن هو الأمير مقرن هذا الذي سيقاّله البرتغاليون وقد أوردوا اسمه عندهم على (MOCRIM) ، وأي المناطق كان يحكمها . ؟

هو الأمير مقرن بن أجود بن زامل الجبري ، المنسوب إلى الحكام من قبيلة (الجبور) (أو آل جُبر) الذين شيدوا دولة في الأحساء والبحرين قامت على أنقاض دولة بني عصفور التي انتهت حكمها للأحساء والبحرين في حوالي منتصف القرن الثالث عشر الميلادي . فشهدت دولة الجبور مجموعة من الحكام الذين قامت على أكتافهم عملية تأسيس الدولة والتي دامت قرناً ونصف قرن على وجه التقريب ، وقيل إن مؤسسها هو الأمير جبر بن حسين بن ناصر بن عقيل ، وإن زامل بن جبر هو أول حاكم قاتل الدواسر في واديهم عام ٨٥٢هـ - ١٤٤٨م ثم خلفه ابنه سيف بن زامل ، وهو الذي أخذ عُمان بالسيف من سليمان بن نبهان ، وذلك حسب رواية ظهرت في مخطوطات أحمد بن ماجد وإن المتتبع لأخبار أجود يخرج بنتيجة هي أنه يعتبر أعظم حكام الجبور . وفي حوالي عام ٩١٢هـ - ١٥٠٧م تنازل أجود عن الحكم لولده محمد ، فأطلق المؤرخون اسم سلطان البحرين على محمد بن أجود الجبري ، ولعل محمداً هذا هو الذي كان يسيطر على سواحل عُمان ولعله أيضاً هو الذي قاتل البوكيرك في مسقط عام ١٥٠٩م وهو الحاكم الذي قال عنه البوكيرك إنه من (بني جابر) ، وهو أيضاً الذي أنجد شريف مكة ضد بعض العصاة في عام ١٥٠٧م . وفي عام ١٥١١م أي عندما استولى البرتغاليون على هرمز كانت هناك اتفاقية أن تدفع البحرين أتاوة إلى هرمز وهي اتفاقية قديمة جرت لقاء تفاهم بين حاكم هرمز والأمير أجود ، لكن ظروفاً معينة أجبرت محمداً على نقض الاتفاقية فنشبت الحرب بينه وبين الخوجا عطار حاكم هرمز وقاد الأمير مقرن ، شقيق الأمير محمد جيوش الأحساء

وكاد أن ينزل هزيمة بجيوش خوجا عطار لولا مساعدة البرتغاليين له ، وهكذا إلى السلطة الأمير مقرن بن أجود بن زامل الجبيري ، الذي وصفه ابن اياس قائلاً « كان أميراً جليلاً معظماً مبجلاً في سعة من المال مالكي المذهب سيد عرباً على الإطلاق »^(٣) .

وفي رواية أن الشريف بركات حاكم مكة قد زوج ابنته للأمير مقرن ، كم مقرن تزوجت من شيخ قبيلة بني خالد^(٤) .

* * *

وبالنسبة لحملة أنطونيو كوريا والقائد الهرمزي شرف الدين ، فقد تحرك ا. ١٥٢١ / ٦ / ١٥ متجهاً نحو البحرين لقتال الأمير مقرن ، وقد تبين أن العرب قد أحكموا استعداداتهم وبنوا سدوداً عميقة حسبما يتطلب الحال الساحل ، وكان من بين المدافعين ثلاثمائة فارس وحوالي أربعمائة من ر. وجيش من المشاة مجهزين بأنواع الأسلحة ، وكان سور المدينة مصنوعاً وجذوع النخيل وفيه فتحتان أو ثلاث تؤدي إلى البحر ، وقد قسم الحائط أقسام ووضع كل قسم تحت إمرة قائد ومعه وحدة مدافع .

وفي يوم ٦ / ٢٧ بدأ البرتغاليون الهجوم وكان على رأس القوة المتقدم كوريا نفسه ومعه مائة وسبعون من رجاله ومن خلفه أخوه على رأس خمسين أما القائد الهرمزي فكان متحياً جانباً كاحتياطي للقوة البرتغالية ، ثم تم التشكيلات البرتغالية من تسلق الحائط تحت صيحات (كوريا) الذي كان ي. البرتغالي بيده مشجعاً جنوده على القتال ، فانسحبت قوات الأمير مقرن . لذا ظن البرتغاليون أنهم انتصروا فأسرعوا بالدخول إلى المدينة لمطاردة الع. يكن انسحاب الأمير مقرن إلا خدعة إذ قامت قواته بهجوم مضاد و. البرتغاليين بين المدينة والسور الخارجي ودار قتال عنيف بين القوتين ف.

(٣) الدكتور علي أبا حسين - الجبور عرب البحرين أو عربان الشرق - مجلة الوثيقة العدد الثالث - السنة الثانية .

(٤) صفحات من تاريخ النفوذ البرتغالي في البحرين - مجلة الوثيقة - العدد الأول - السنة الأولى .

البرتغاليين حرجاً إذ بدا وكأنهم وقعوا في كمامة ، إلى أن أجبر الحر الشديد والتعب الجانين على وقف القتال .

انتهاز الجيشان هذه الفرصة لإعادة تنظيمهما من جديد فرتب جنود هرمز جماعة من ٢٠٠ قناص من رماة السهام مهمتهم رمي القادة العرب فقط فقتلوا عدداً منهم ، ثم قام الفرسان العرب بقيادة الأمير مقرن بهجوم راكب إلا أن حملة السهام صدوهم أيضاً وأصيب الأمير مقرن بطلق ناري في ساقه مما أدى إلى سحبه إلى الخلف ، فانهارت معنويات الجيش البحريني الأمر الذي أحبط عزيمة رجاله بحيث بدأوا يهربون ويستسلمون بعد أن قُتل منهم جمعٌ غفير ، ثم لم يلبث أن لفظ الأمير مقرن أنفاسه وانتقل إلى رحمة الله بعد ثلاثة أيام من إصابته .

وبوفاة هذا القائد انهارت المعنويات تماماً ، خاصة عندما استغل القائد الهرمزي هذه الفرصة فهاجم الجسد المسجى واحتز رأسه وأخذه معه إلى هرمز ليريه إلى الحاكم هناك ، ثم أن انطونيو كوريا اعتبر نصره هذا نصراً عظيماً فصار اسمه (انطونيو كوريا البحرين) ، أي أنه أضاف اسم البحرين إلى اسمه ، كما قام برسم صورة رأس الأمير مقرن مقطوعاً وممسوكاً بيد مدرعة بالحديد باعتبارها يده وجعل هذا الرسم شعاراً للدرع الذي يتدرع به^(٥) .

ولما وصل إلى هرمز رفع تقريراً عن فعالياته في البحرين إلى (دي سكويرا) وقام الأخير بتثبيت موظفي جمارك جدد في البحرين وعمان بحيث تُهيمن هذه المراكز على السياسات التجارية في الخليج وتسيطر سيطرة تامة على الشؤون الاقتصادية التي كانت موضع اهتمامه الأول وقد أدى فعله هذا إلى سحق عام عليه من قبل العرب في تلك المناطق .

وبعد أن تم لدي سكويرا كل ذلك أمر سفنه بالإقلاع نحو عدن ومضيق باب

(٥) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٣٥١ ، وكذلك أحمد العناني - المصدر نفسه - وهو مقال مترجم عن مقال الجمعية الملكية لآسيا الوسطى ، وكذلك مقال (نونوبي سلفا) المنشور في مجلة الوثيقة - العدد الثامن - السنة الرابعة - وصورة هذا الدرع موجودة الآن في متحف البحرين .

المنذب ، وعندما وصل إلى قرب ساحل عدن اصطدمت إحدى سفنه بالصخور وغرقت لذلك فقد توقف في منطقة اسمها (العارة) ثم أفلح من هناك متجهاً نحو (مصوص) في ارتيريا حيث أمر بانزال (ماثيوس) السفير الحبشي الذي كان في الهند ، وأنزل معه (رودريكو دي ليما) ليقابلا ملك الحبشة بشأن التعاون بين البلدين ، ثم اتجه نحو (دهلك) وهي جزيرة تقع أمام الساحل الارتيري وأمر بحرق مدينتها ثم أقفل عائداً نحو الهند ، وتوقف لفترة في ميناء قلعات العُمانى والتقى هناك بقوة برتغالية كانت قد وصلت حديثاً من البرتغال بقيادة (جورجي دي البوكيرك) ، فذهب الإثنين إلى مسقط حيث أمر دي سكويرا جورجي البوكيرك أن يبقى هناك فيما قفل هو راجعاً إلى الهند^(٦) . وينفرد مصدر عُماني في ذكر أخبار هذه الحملة ، فيقول إن الحملة البرتغالية بقيادة (دي سكويرا) لم تستطع الوصول إلى عدن بسبب دفع الرياح ، كما أنها لم تجرؤ على مهاجمة جدة رغم دخولها البحر الأحمر ، إذ إن نبأ وصولها قد بلغ علم القائد العثماني حسين بك ومعاونيه الضابط البحري سليمان العثماني ، فخرجا للقاء البرتغاليين الذين ما إن سمعوا بهذا البناء حتى تراجعوا نحو (مصوص) و(دهلك) . وقيل أيضاً إن ريحاً عاتية هبت بوجه الأسطول البرتغالي أبعدته عن جدة ودفعته إلى سواحل الحبشة والصومال ثم عاد خائباً إلى الهند^(٧) .

وهناك وبالقرب من سواحل الهند ، تصدى لاسطول الأمير مالك عزيز الهندي ، وتمكن من إغراق إحدى سفنه ، لكن دي سكويرا تمكن من أسر إحدى السفن الهندية وأمر بنقل بحارتها إلى السفينة التي كان يقودها (انطونيو كوريا) فصعد البحارة الهنود الأسرى إلى تلك السفينة وأقفلت بهم متجهة نحو الشاطئ ، لكن الله تعالى كان لهؤلاء البرتغاليين بالمرصاد ، إذ قام الأسرى بإشعال النار في السفينة البرتغالية ، وسرعان ما وصلت النيران إلى مخزن البارود والعتاد الموجود فيها ، فانفجر وانفجرت معه السفينة فهلك انطونيو كوريا وهلك معه جميع من كانوا في السفينة^(٨) .

* * *

(٦) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٣٥١ .

(٧) THE PORTUGUES OF THE SOUTH ARABI - R.B.SARJENT (وهو كتب مترجم عن تاريخ الشجري - أحداث عام ٩٢٦هـ)

(٨) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٣٥١ .

وفي يوم ٢٢ / ١ / ١٥٢٢م وصل قادماً من لشبونة حاكم البرتغالي جديد على الهند وهو المدعو (دون دورات دي منزيس DOM DUARTE DE MENEZES) الذي استلم من سلفه دي سكويرا ، ويعترف المؤرخون بأنه خلال مدة حكم دي سكويرا فإن البرتغاليين قد اكتسبوا سمعة سيئة جداً في أوساط السكان المواطنين ، بسبب سيطرتهم التامة على الأمور المعيشية والتجارية للسكان والقيام بالسلب عن طريق فرض الضرائب وجباية الأموال غصباً من الناس ، مما دفع الهنود إلى إرسال شكاوى إلى ملك البرتغال فقام هذا باستبداله بحاكم جديد . وعلى كل حال فعندما وصل الحاكم الجديد إلى الهند كانت أول مشكلة صادفته هي مشكلة الثورة ضد السلطات البرتغالية التي كانت قائمة آنذاك في كل من هرمز والبحرين ومسقط وقريات وصحار .

كان ملك البرتغال دون مانويل قد توفي في شهر ديسمبر من عام ١٥٢١م فخلفه في الحكم ابنه (دون جوان الثالث) ويلفظ الاسم (دون خوان) وكذلك (دوم جواو DOM JOAO III) ، الذي كان كأبيه متلهفاً وطامعاً في أموال الشعوب وإخضاعها ، لذلك فقد كان على حاكم الهند الجديد (دورات دي منزيس) الإسراع في إخضاع المناطق الثائرة ضد سلطة سلفه ، لذلك فقد أمر بتجهيز حملة بحرية تذهب إلى هرمز والساحل العربي للقضاء على الثورة هناك ووضع على رأسها أخاه المدعو (لويس دي منزيس) على أن يتجه أولاً إلى هرمز حيث وصلت إليه معلومات تفيد أن الثورة تم إعلانها ، إذ اتفق العرب والهرمزيون على الحركة في يوم واحد ، وهاجموا في ليلة واحدة مراكز الجمارك البرتغالية والحاميات التي كانت تحميها وقتلوا عدداً من أفرادها ، كما أن القائد البرتغالي لقلعة هرمز وهو (غارسيا كوتينهو) كان محاصراً في قلعته إلا أنه تمكن من فك الحصار عن نفسه بمساعدة قوة عسكرية برتغالية محملة على سفيتين وصلت إليه من القاعدة العسكرية في مسقط مما دفع الملك الثائر في هرمز إلى أن يهرب إلى جزيرة القسم حيث اغتيل هناك ، وتم اختيار ابنه الصبي البالغ من العمر

ثلاثة عشر عاماً والمسمى محمد شاه ملكاً على هرمز .

وصل أسطول (لويس دي منزيس) أولاً إلى مدينة صحار العُمانية ، وفتح نيران مدافعه عليها ودمرها تدميراً كاملاً ، واختار عميلاً من عملائه اسمه (الشيخ حسين SHEIKH HOZEM) حسبما ورد اسمه في المصادر البرتغالية ليكون حاكماً للمدينة^(٩) .

ثم توجه نحو جزيرة القسم حيث التقى بالملك الصبي محمد شاه وأخضعه إلى معاهدة جديدة فيها عبودية لملك البرتغال ، وكان من أهم نصوصها هو عدم التعاون مع السفن العربية المتجهة الى البحر الأحمر ، كما زاد عليه الضريبة السنوية فجعلها (٦٠٠ ر) أشهر في فضة ، كما نصت المعاهدة على منع المسلمين من حمل السلاح في الجزيرة وأنه إذا ما تعاون أي مسيحي من هرمز مع المسلمين ، فيجب تسليمه إلى الحاكم العسكري البرتغالي كما يجب تسليم مستودعات السلاح الهرمزية إلى الحاكم البرتغالي ، وأن يتم تسريح الجيش الهرمزي . ثم قام (لويس دي منزيس) بزيارة لهرمز وأمر بإجراء تحقيق لمعرفة أسباب وبواعت الثورة .

وعلى العكس مما حصل في هرمز وصحار ، فقد نجحت الثورة في البحرين ، وقد قادها الشيخ حسين بن سعيد فكانت مفاجأة تامة للبرتغاليين ، إذ تم القبض على حاكم الجزيرة البرتغالي وشنق على نخلة ، ولكن وبعد فترة هدأت فيها الأحوال تم ترتيب اتفاق مع البرتغاليين أقروا بموجبه صفة الشيخ حسين كحاكم عربي على البحرين مع وجود مستشار برتغالي له ، أي أن البرتغاليين استردوا سيادتهم على البحرين ولكن بأسلوب سلمي .

وعلى كل حال فإن حاكم الهند (دي منزيس) لم يكن أحسن حالاً من سلفه (دي سكويرا) من الناحيتين الأخلاقية والإدارية . وهذا نص منقول حرفياً عن مصدر برتغالي يقول فيه :

(٩) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٣٥٤ .

« إن أساليب دي منزيس وطريقة حكمه كانت غير مرضية أبداً ، إذ لقد بدا أن غرضه الرئيسي من وجوده على رأس السلطة هناك كان لجمع الأموال لنفسه فقط ، وقد نجح في هذا المسلك مما أدى إلى انحلال الضبط في المعسكرات والقلاع العسكرية كما أن نظام المحاكم والعدالة أصيبا بالفساد والخراب ، وقد وصفه فاسكو دي غاما قائلاً : إن دي منزيس أضحى فضيحة البرتغال »^(١٠) .

لذلك فقد قام ملك البرتغال باختيار حاكم جديد للهند فوقع اختياره على (فاسكو دي غاما DOM VASCO DE CAMA) حيث وصلها في ٢٤ / ٩ / ١٥٢٤ م ومعه ولده (استفانو دي غاما) و(باولو دي غاما) أما دي منزيس ، فلم يرجع إلى لشبونة بل استقر مؤقتاً في هرمز وراح يتعامل بالتجارة هناك ، وفي إحدى المرات ذهب إلى الهند فاعتقل هناك ، ثم أرسل مخفوراً إلى لشبونة حيث تم تقديمه للمحاكمة وصدر الحكم عليه بالسجن^(١١) .

* * *

وإذا عدنا بالحديث عن الأوضاع في اليمن في تلك الأعوام ، فقد عاد إليها عدم الاستقرار ثانية ، إذ إن الرسالة التي بعثها حاكم عدن الأمير مرجان الظافري إلى السلطان سليم ياووز والتي أشرنا إليها في الفصل الثاني والعشرين يطلب فيها مساعدته لإنقاذ اليمن من الورطة التي وقع فيها ، لم يكن لها صدى مسموع عند ولده السلطان سليمان القانوني الذي تولى الحكم بعده ، فقد كان هذا السلطان منهمكاً في قتال الدول الأوربية وتمكن في عام ١٥٢٤ م من دخول بلغراد ، كما راحت أساطيله العاملة في شمال أفريقيا تطارد فلول فرسان رودس ، لذلك لم يعر اليمن الاهتمام الكافي .

وازدادت المشاكل الداخلية في اليمن عندما قام أحد أمراء الكتائب التابعين للحملة

(١٠) أحمد العثاني - المصدر نفسه ، وقد أشار توتوبي سلفا في نفس مصدره إلى أن البرتغاليين لم يتمكنوا من السيطرة على البحرين إلا في عام

١٥٢٣ م .

(١١) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٣٥٩ .

المملوكية المصرية واسمه كمال علي بك بإلقاء القبض على قائد القوة أسكندر المخضرم وأعدمه بحجة عدم التعاون مع القوة العثمانية الموجودة في جدة ، ويعتقد بعض المؤرخين أن اغتيال أسكندر المخضرم قد تم بدافع من حاكم جدة العثماني الأمير حسين الرومي الذي تأمر مع كمال علي بك وهو ضابط من أصل عثماني على قتل أسكندر المخضرم الذي هو من أصل شركسي ، وعلى كل حال فإن نتائج هذه الفعلة كانت خطيرة إذ انقسمت القوة المملوكية المصرية الموجودة في اليمن إلى قسمين ، قسم موال للأتراك وقسم موال للشراكسة ، مما دفع الشراكسة أعوان المخضرم إلى اغتيال كمال علي بك .

وقد أدى ذلك الفعل إلى تفرق السرايا في طول البلاد وعرضها ، فظهرت لنا أسماء عدد من الضباط المتنازعين على السلطة والسيادة يقتتلون فيما بينهم . ومع اختلاط الأسماء وكثرة الأحداث وتشابك الروايات ، يبدو من سير الأحداث أن حاكم جدة الأمير حسين بك كان في مصر عندما علم بتدهور الأوضاع في اليمن ، فرجع مُسرِعاً إلى جدة وجهاز حملة بحرية قادها ومعه سليمان العثماني ودخل إلى اليمن وقتل فيها من قتل إلا أنه لم يستطع أن يكبح جماح الوحدات المنقسمة على نفسها ، فعاد إلى جدة ومن هناك أرسل القائد سليمان العثماني إلى القاهرة ، حيث واجه رئيس وزراء تركيا الذي كان موجوداً هناك وهو الصدر الأعظم إبراهيم باشا وشرح له الأوضاع المتردية في اليمن والخطر البرتغالي الذي يهدد البلاد وطلب نجدة عسكرية لاحتلالها وإقرار النظام فيها ، فوافق الصدر الأعظم على أن يقوم ببحث الموضوع مع السلطان سليمان القانوني .

وقد ازداد الطين بكرة في اليمن عندما انتقل إلى رحمة الله حاكم عدن الأمير مرجان الظافري ، فتولى الأمر بعده الأمير عبد الملك بن محمد بن عبد الملك بن داود الظافري ، وتفاقم الأمر أكثر حينما ظهر زعيم زيدي شاب هو الإمام مطهر بن الإمام شرف الدين الذي انتزع السلطة من والده واتخذ من مدينة (عمران) قاعدة لتحركاته

النشطة والفعالة في سبيل تحقيق نشر المذهب الزيدي في اليمن الشمالي وتحقيق الانفصال التام عن اليمن الجنوبي الشافعي المذهب^(١٢) .

وكان مما وقع في اليمن آنذاك من الفواجع والجرائم التي ارتكبتها البرتغاليون ولم يذكروها في مصنفاتهم التاريخية هو ما أوقعوه في مدينة الشحر ، وهي سلطنة شبه مستقلة ولكنها مرتبطة سياسياً باليمن الجنوبية بحكمها السلطان بدر بوطويرق الذي تولى أمرها عام ٩٢٧هـ - ١٥٢٠م عندما تنازل له أخوه محمد عبدالله الكثيري عن الحكم وتولى الأخ أمر منطقة ظفار التي كانت جزءاً من السلطنة الكثيرة آنذاك ، وقد عُرف عن السلطان بدر بوطويرق أنه كان مصاباً بجنون العظمة كثير النزوات والقلق ، وعلى عهده هاجمت سفن إحدى الحملات البرتغالية المدينة وكان ذلك في يوم الخميس ٩/ ربيع الثاني / ٩٢٩هـ الموافق ٢٧/ فبراير / ١٥٢٣م أي أثناء مرور حملة (دي سكويرا) إلى البحر الأحمر فبعد أن أنهت مهمتها في البحرين مرت بمنطقة اسمها (ظفار الحامي) وهناك أحرقت خمس سفن يمانية ، ثم توقفت في ميناء الشحر ، ولم يكن السلطان بدر يومذاك موجوداً إنما كان هناك نائبه مطران بن منصور وبعد ساعتين من وصول الأسطول البرتغالي ، نزل منه ثلاثة برتغاليين توجهوا نحو المدينة حيث مقر النائب وسلموه رسالة فحواها أن تاجراً برتغالياً اسمه (الفونس دي فيجا) مات في الشحر منذ خمسة أشهر ، وأن السلطان بدر قد استولى على أمواله ، وأن قائد الأسطول يطلب تسليم تلك الأموال إليه دون تأخير ، فأبلغهم مطران أنه لا يعرف شيئاً عن الموضوع وأن السلطان بدر موجود خارج المدينة وعودته متوقعة خلال أيام قلائل ، ثم أرسل معهم هدايا إلى قائد الأسطول ، وفي اليوم نفسه أمر برحيل النساء والأطفال والشيوخ من المدينة ثم أرسل له القائد البرتغالي رسالة ثانية طالب فيها إعادة أموال المتوفى كما أعاد الهدايا التي أرسلها له ، فقام مطران بعقد اجتماع مع أعيان المدينة ووضعوا خطة للدفاع عنها في حالة الهجوم كما أرسلوا وفداً لمفاوضة القائد البرتغالي . إلا أن البرتغاليين قاموا بالهجوم في صبيحة اليوم التالي فأحرقوا

(١٢) محمد عبدالقادر بامطرف - الشهداء السبعة - ص ٧٧ .

سفناً كانت في الميناء ثم اشتبكوا مع الأهالي وتوغلوا في مناطق تقع في قلب المدينة في أحياء (بازيب) و(حافة بالحاج) و(حافة المحضار) ، ودارت معركة دامية في ساحة (القبان) قتل فيها سبعة وثلاثون برتغالياً وهندياً وما يقارب من ثمانين رجلاً من أهالي الشحر بينهم سبعة من أبناء الجالية الهندوكية الذين اشتركوا في المعركة إلى جانب الأهالي ، وقتل من أعيان المدينة الفقيه يعقوب الحريضي والشيخ حسين العيدروس والشيخ فضل بن رضوان بأفضل والشيخ أحمد بن عبدالله بالحاج ، وانسحب البرتغاليون عند منتصف الليل بعد أن قطعوا الماء عن المدينة ، وفي فجر يوم السبت عاودوا الهجوم حيث ركزوا على حارة (الخور) وأضرمو النار فيها وقتلوا الفقيه أحمد بن رضوان بأفضل ومثلوا بجثته ، وقاموا بعد ذلك بصب الزيت على المناطق المجاورة لمسجد المدينة وأحرقوها ثم اتجهوا نحو ميدان المدينة لحرقة فتصدى لهم الأمير مطران لكن رصاصة طائشة أصابته في جبينه فخر شهيداً ثم قام البرتغاليون وكالعادة بنهب المدينة الجريحة وانسحبوا إلى سفنهم .

قام الأهالي بدفن جثث الشهداء ، أما جثث القادة فإن ستاً منها من ضمنها جثة الأمير مطران دفنوها في قبر واحد ، وهو القبر الذي أطلق عليه اسم (قبر السبعة) ، إذ إن جثة الشهيد السابع وهو الشيخ أحمد بن عبدالله بالحاج بأفضل دُفنت قريباً منهم ، ثم قام أهل المدينة بإحصاء القتلى فوجدوهم سبعمائة وأحد عشر قتيلاً بينهم ثمانية وخمسون من الصومال والهندوكيين ، وكان عدد المنازل التي تخربت ثلاثمائة وعشرين داراً وكوخاً ، وسبعمائة وأربعين دكاناً واثنين وثلاثين معصرة زيت^(١٣) .

لذلك وأمام كل تلك المصائب التي حلت باليمن لم يبق خيار عند حاكم عدن الجديد ، إلا أن يوقع على معاهدة سلام مع البرتغاليين ، وقد وقع هذا الحادث عندما أوفد حاكم الهند الجديد (فاسكو دي غاما) القائد البرتغالي (هايتور دي سلفيرا HEYTOR DE SILEVEIRA) على رأس حملة لمقاتلة السفن العربية في البحر الأحمر

(١٣) محمد عبدالقادر بامطرف - الشهداء السبعة - ص ٩٣ إلى ١٠٤ . وكذلك SERJENT - المصدر نفسه - نقلًا عن تاريخ الشحري - ص ٥٢

واليمن ، فغادرها ومعه سبعمائة جندي برتغالي في الشهر الأول من عام ١٥٢٤م ووصل إلى عدن ، وهناك التقى بحاكم المدينة الجريشة بل اليمن الجريح كله من سوء تصرفات المدافعين عنه أو دعاة الدفاع عن عرويته وإسلامه ، والذين جروه إلى كل تلك المذابح والقتول ، بحيث لم يبق أمام حاكم عدن الأمير عبدالملك بن محمد الطاهري من خيار وهو يراقب الأسطول البرتغالي وقد وجه مدافعه نحو المدينة إلا أن يفتح أبوابها ويعقد معاهدة صلح مع (دي سلفيرا)^(١٤) .

وكان من جملة شروط المعاهدة أن يقوم حاكم عدن بدفع ضريبة للتاج البرتغالي مقدارها ألفا أشرفي ذهب ، وأن يفتح ميناء المدينة للسفن البرتغالية ، وأن يقيم في البلدة ممثل برتغالي بصورة دائمة .

وبعد أن تم توقيع المعاهدة بين الطرفين غادر (دي سلفيرا) المدينة متجهاً نحو مصوع فوصلها في شهر آذار ثم عاد إلى عدن فوصلها في شهر إبريل ثم رجع إلى الهند وقابل فاسكو دي غاما وسلمه نسخة من المعاهدة التي عقدها مع حاكم عدن ، إلا أن دي غاما لم يكن راضياً عن تلك المعاهدة إذ قال عنها إنه يعتقد أن حاكم عدن قد خدعه بتلك المعاهدة حيث إنه وقعها لغرض عدم قيام البرتغاليين بحرق سفنه في الميناء وأن حاكم عدن سوف لن يكف عن التحرش بالسفن البرتغالية أو توابعها متى ما سنحت له الفرصة .

وبالفعل فقد وصلت اليهم أخبار فيما بعد أن سفينة هندية من سيلان على ظهرها بحارة يعملون لحساب البرتغاليين قد تم حجزها في ميناء عدن . وبقيت الأمور علي تلك الشاكلة إلى أن مات فاسكو دي غاما يوم ٢٤ / ١٢ / ١٥٢٤م فخلفه مؤقتاً المدعو (لوبيو فاز دي سامبايو LOPO VAZ DE SAMPAYO) وقد سببت وفاة دي غاما نشاطاً عند الحكام الهنود المسلمين الذي تحركوا لضرب البرتغاليين إلا أن لوبيو فاز كان أسرع منهم حيث جهز حملة لقتالهم . وفي تلك الأثناء أصدر ملك البرتغال أمره بإعادة

(١٤) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٣٦٩ .

تعيين (دوم هنريك دي منزيس DOM HENRIQUE DE MENEZES) حاكماً على الهند ، فأصدر هذا أوامره إلى القائد (هايتور سلفيرا) الذي وقع معاهدة الصلح مع حاكم عدن ، أن يتجه إلى هرمز ومنها إلى منطقة (ظفار) ليقوم بتدميرها ، لأن ثورة قامت فيها ، فقام سلفيرا بالواجب ودمر المدينة .

علماً بأن مؤرخي عُمان لم يتطرقوا إلى هذا الحادث . أما مؤرخو اليمن فقد ذكروا في حوادث جمادى الأولى ٩٣١هـ - ١٥٢٤م أن (الفرنج) أي البرتغاليين هاجموا مدينة قصيعر وأحرقوا عدداً من سفن الأهالي الراسية هناك وأسروا بعض بحارتها ، ثم ذهب (سلفيرا) إلى مصوع ودهلك ، واستلم ضريبة أهلها ، ثم التقى بالمدعو (دي ليما) وهو البرتغالي الذي كان يفاوض ملك الحبشة وعاد به إلى الهند ، وفي الهند مات نائب الملك (دوم هنريك دي منزيس) بتاريخ ٢١/٢/١٥٢٦م ، فتم تعيين (لوبيو فاز دي سامبايو) حاكماً هناك^(١٥) .

* * *

أما عن الأحوال في العلاقات الحبشية - البرتغالية آنذاك فقد كانت هناك محادثات (دي ليما) الذي رافق ماثيوس السفير الحبشي إلى الحبشة في حملة (لوبيو سوريز) عام ١٥١٦م . ففي الاجتماع الذي تم عقده عام ١٥٢٠ بين (دي ليما) البرتغالي والملك الحبشي (LEBNA DON GEL) ويسمى أيضاً (داود الثاني DAVID II) ، وكان ملك الحبشة يلبس تاجاً من الذهب وبيده صليب من الفضة ، فحمد الله لأنه استطاع أن يحقق ما عجز عنه أسلافه ، وألح في أن يسارع ملك البرتغال في بناء قلاع في (مصوّع) و(سواكن) و(زيلع) ، وأبدى تخوفه من نشاط العثمانيين في البحر الأحمر خاصة بعد سقوط مصر بيدهم ، وأكد بالحاح على أن يقوم ملك البرتغال باحتلال مدينة (زيلع) الصومالية قائلاً إنها أفضل مكان لتموين الأساطيل البرتغالية وإنها تمون الساحل الشرقي للبحر الأحمر من عدن حتى جدة ثم مكة وإن بناء هذه القلاع سوف يهدد مراكز العثمانيين في البحر وكذلك يهدد المراكز الإسلامية

(١٥) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٣٧٦ - ٣٧٨ .

المقدسة ، كما اقترح أن تقوم فرنسا أو اسبانيا باحتلال مدينة (سواكن) السودانية ، وكأن الملك الحبشي يريد جعل المسألة مشكلة دولية أو إثارة حرب صليبية في البحر الأحمر ، لذلك فقد بادر بالكتابة إلى البابا يحثه على أن يبارك هذا التحالف المسيحي ضد الدول الإسلامية^(١٦) .

أما على صعيد الوضع السياسي في إيران فقد توفي الشاه إسماعيل الصفوي مؤسس الدولة الصفوية عام ١٥٢٤م فخلفه ابنه الشاه طهماسب الأول ، وكان صبياً في العاشرة من عمره ، فلم يتمكن وهو في هذه السن من السيطرة على البلاد ، ف وقعت إيران في سلسلة من المنازعات السياسية على الحكم ، مما أضعفها جداً ، فصار التواجد البرتغالي في هرمز وجنوب إيران أمراً راسخاً ، بحيث عزز سيطرتهم على الأجزاء العربية من الخليج خاصة عُمان ، لذلك لم يبق في الميدان إلا العثمانيون الذين استولوا على مصر والشام وشمال العراق وصاروا يتمتعون بسيادة عسكرية بحرية لا منافس لها داخل البحر الأحمر ، إلا أنه ولحد ذلك التاريخ فإنهم كانوا ضعفاء تجاه القدرات والإمكانات البحرية المتوفرة للبرتغاليين في الخليج العربي ، لكن المواجهة بين الطرفين كانت الحل الوحيد الذي يعقد عليه أهل اليمن وأهل الخليج العربي آمالهم في انقاذهم من قبضة البرتغاليين التي تفاقمت جداً آنذاك .

(١٦) د . محمد عبد اللطيف البحراوي - فتح العثمانيين لعدن - ص ٦٩ .

الفصل الخامس والعشرون

- * حاكم الهند (لوبو فاز دي سامبايو) يدمر مدينتي مسقط وقلعات العُمانيتين .
- * ثورة جديدة في البحرين عام ١٥٢٩ ومصرع قائد الحملة البرتغالية .
- * (نانودي كونها) يصبح حاكماً عاماً على الهند .
- * معاهدة جديدة بين حاكم عدن والبرتغاليين .
- * السلطان العثماني سليمان القانوني يصدر أمراً إلى والي مصر سليمان باشا الخادم بتهينة حملة لاحتلال اليمن ثم الذهاب إلى الهند لقتال البرتغاليين .

تَسَنَّمَ (لوبو فاز دي سامبايو LOPO VAZ DE SAMPAYO) منصب حاكم الهند في ١٥٢٦م / ٢ / ٢١ كما بينا ذلك في الفصل السابق ، فقام بإجراء تغييرات في المناصب القيادية في المدن والقواعد العسكرية البرتغالية الموجودة في الهند ، ولما اطمأن إلى استقرار الأوضاع هناك وفي بقية المستعمرات البرتغالية الموجودة في الملايو وسومطرة والصين جهز حملة قادها بنفسه للقضاء على ثورة عريية قامت ضد البرتغاليين في عُمان .

وكالعادة فإن مصادر التاريخ العُماني لا تذكر شيئاً بالمرّة عن حدوث ثورة كهذه ؛ لذلك فلا مصدر لدينا عنها إلا المصادر البرتغالية التي نستقي منها هذه الأخبار .

أبحر (لوبو فاز) بخمس سفن عليها ثلاثمائة جندي متوجهاً نحو هرمز ، وقبل أن يصل إلى هناك ، توقف أمام مدينتي قلعات ومسقط العُمانيتين وقام بتدميرهما جزاءً

لأهلها الذين قاموا بثورة ضد سلطة الحاكم البرتغالي في هرمز وهو (دييكو دي ميلو DIOGO DE MELLO) الذي فرض ضرائب باهضة على أهل عُمان فثاروا ضده .

ولما تم له تدمير المدينتين توجه نحو هرمز ، وهناك علم بأن سبب ثورة أهل عُمان كان سوء تصرف المدعو (ريس شرفو أو رضا شرفو RAEZ XARAF) والذي يبدو من اسمه أنه هرمزي يمثل سلطة الحاكم البرتغالي في عُمان . فقام بجمع الإثنيين ، البرتغالي والإيراني وسوّى الخلاف الذي نشب بينهما بشأن تحديد المسؤولية في سبب ثورة أهل عُمان . وفي هرمز أيضاً التقى بالمدعو دي ليما وهو السفير البرتغالي الذي كان يفاوض ملك الحبشة ، فأخبره هذا بموضوع النشاطات العسكرية العثمانية في البحر الأحمر واليمن ، وقرر الإثنان أن يبحثا هذا الموضوع عند عودتهما إلى الهند .

وفي الهند عقد لوبو فاز اجتماعات مكثفة مع دي ليما وحصل منه على معلومات أدق عن الأسطول التركي داخل البحر الأحمر ، كما أن دي ليما أخبره أن ملك الحبشة يرغب في التعاون لأقصى الحدود وأنه بعث بيده رسالة إلى الملك دون جوان ورسالة ثانية إلى البابا كليمنت الذي بارك تلك الجهود ، كما أعلمه أن القاعدة البحرية للأسطول التركي في البحر الأحمر تقع في جزيرة كَمَرَان اليمانية . فقرر لوبو فاز تجهيز حملة عسكرية تذهب إلى هناك لتدمير الأسطول والقاعدة العثمانية . كما قرر أن يكون عام ١٥٢٨ م ، عاماً يدمر فيه كل القوى الإسلامية التي تقف بوجهه سواء في بلاد الهند أو في بلاد العرب^(١) .

وعلى هذا الأساس فقد قام في شهر يناير (كانون الثاني) ١٥٢٨م بتجهيز حملة أودع قيادتها إلى (أنطونيو دي ميراندا دي أزييفيدو ANTONIO DE MIRANDA DE AZEVEDO) لتذهب لقتال الأسطول العثماني في جزيرة كمران في البحر الأحمر . وتكونت الحملة من عشرين سفينة حربية على متنها ألف جندي ، إلا أنها فشلت في الوصول إلى كمران بسبب هبوب الرياح

(١) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٣٨٠ - ٣٨١ .

المعاكسة عليها ، لذلك فقد راح قائدها يتصيد السفن العربية خارج المضيق ويقضي عليها هناك .

هنا يجب أن نتوقف قليلاً أمام هذه النقطة وهي نقطة الادعاءات البرتغالية عن قصة الرياح التي تمنعهم من التوغل إلى داخل البحر الأحمر ، وهو ادعاء قد يكون حقيقياً إلا أنه لا يمكن أن يحدث كل مرة ، فيكون على الأغلب هو أن هؤلاء القادة الذين يحاولون الدخول إلى البحر يصيبهم الرعب والخوف من الولوج في متاهاته وأن اقترابهم من المقدسات الإسلامية قد يثير عليهم العالم الإسلامي كله ، فيتخذون من قصة العواصف البحرية ذريعة يتذرعون بها لتغطية فشلهم .

لذلك فإنهم يقومون بصب نقيمتهم على السفن المدنية المسالمة خاصة سفن أهل اليمن ، فيوقفونها ويسلبونها ويقتلون أهلها ثم يحرقونها . إذ يذكر لنا المؤرخون اليمانيون أنه في عام ٩٣٢هـ - ١٥٢٥م ، اعترض البرتغاليون خمس سفن وأحرقوها ، وفي العام التالي هاجموا السفن الموجودة في (المكلا) وأحرقوها وفي عام ١٥٢٧م أحرقوا أربع عشرة سفينة لأهل (الحامي) وفي عام ١٥٢٨م هاجموا سفن الشحر ثانية^(٢) .

وعندما كانت تلك الأحداث تدور فقد حدث تغيير في القيادة السياسية في الهند . ففي شهر نوفمبر من عام ١٥٢٩م وصلها نائبٌ جديدٌ للملك البرتغال وهو (نانودي كونها NUNO DA CUNHA) فكان أول ما فعله هو أنه قام باعتقال الحاكم السابق (لوبيو فاز) ووجه إليه تهمة التلاعب بأموال الدولة واستخدامها لمصلحته الخاصة ثم أرسله مخفوقاً إلى لشبونة .

لكن قصة هذا الحاكم الجديد ووصوله المفاجئ إلى الهند واعتقاله سلفه لم تحدث هكذا صدفةً ، بل إن أولياتها بدأت في هرمز ، ذلك أنه غادر لشبونة في إبريل في عام ١٥٢٨م وتوقف في السواحل الأفريقية واشتبك مع حاكم عباسه الذي رفض أن

(٢) بامطرف - المصدر نفسه - ص ١٠١ وكذلك SERJENT - المصدر نفسه - ص ٥٥ .

يستقبله ، ثم وصل في شهر مايو من عام ١٥٢٩م إلى هرمز ودخل المدينة وأعلن للناس أنه موجود للاستماع إلى الشكاوي التي لديهم ضد السلطات البرتغالية ، وقام باعتقال (رضا شرفو) أو (ريس شرفو) ووجه إليه تهمة سلب أموال الناس وقتلهم وأرسله مخفوراً إلى لشبونة . وفي خلال وجوده علم أن ثورة قد قامت في البحرين ، وفي تلك الآونة أيضاً وصلت إلى هرمز قوة برتغالية بقيادة (تافاريز دي سوزا BELCHIOR TAVAREZ DE SOUSA) وكانت قد عادت من البصرة حيث قامت بمعاونة حاكم البصرة ضد خصمه حاكم الجزيرة ، فطلب (دي كونها) الاجتماع بالقائد (دي سوزا) لمعرفة الأوضاع في كل من البحرين والبصرة فقام (دي سوزا) بشرح الموقف هناك^(٣) .

ومن المفيد أن نقوم بإيضاح الموقف في البحرين والبصرة ببعض الإسهاب لفائدة القارئ عما كان يحدث يومذاك من أمور خطيرة هناك .

ففي البحرين وبعد مصرع الأمير مقرن بن أجود بن زامل عام ١٥٢١م ، فإن أمر ساحل القطيف آل إلى الأمير ناصر بن محمد بن أجود بن زامل الجبري ، فملك هذا نحو ثلاث سنين ، وتنازل بعدها للأمير قطن بن علي بن هلال بن زامل ، وحكم هذا نحو سنة ثم مات ليخلفه ابنه الذي تنازل عن الحكم لقضيبي بن زامل بن هلال فحكم هذا نحو سبعة أشهر ، حين اندلعت الحرب بينه وبين الأمير راشد بن مغامس أمير البصرة ، فانتهز راشد وزال حكم الجبور من البحرين والقطيف والأحساء^(٤) .

أما البصرة ، فتقول عنها المصادر القليلة والشحيحة التي لدينا إن أمرها آل إلى الأمير راشد بن مغامس المسمى سلطان الشرق ، وقيل إن اسمه الكامل راشد بن مغامس بن صقر بن سلطان ، وهو أمير من أمراء آل عليان في المنتفق في العراق ، وكان هذا على نزاع مع إمارة صغيرة تقع إلى شرق البصرة هي إمارة آل مشعشع التي يمتد ملكها إلى الأحواز وعربستان في إيران ، وفي شمالي البصرة تقع إمارة آل عليان التي منها الأمير

(٣) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٣٩٧ .

(٤) الدكتور علي أبا حنين - الجبور عرب البحرين - المصدر نفسه - ص ٩٨ . وكذلك محمد سعيد المسلم - ساحل الذهب الأسود - ص ١٧٠ .

راشد بن مغامس . ومن الطبيعي أن تكون البصرة قد شهدت انحساراً في تجارتها بعد أن سيطر البرتغاليون على مدخل الخليج العربي وجنوب فارس ، واشتد الأمر عندما تقدم النفوذ العثماني في العراق ، لذا اقتضت مصلحة الصفويين في فارس أن يتحالفوا مع البرتغاليين لمجابهة العثمانيين ، فقام العثمانيون بملاحقة التجار الذين يتعاملون مع العراق الصفوي ، فانهضت التجارة بين العراق وفارس ، وصارت البصرة مدينة مقفرة^(٥) ، وعلى كل حال فإن المطلع على الوضعية السياسية التي كانت تحيط بالبصرة لا بد وأن يصل إلى نتيجة وهي أن الأمير راشد بن مغامس كان محاطاً بثلاث قوى دولية ، وكان عليه أن يختار التحالف مع أحدها ، فالعثمانيون الذين دوخوا أوربا بانتصاراتهم موجودون في شمالي العراق وهم قادرون على دخول بغداد متى شاؤوا ، إلا أنهم ولحد التاريخ الذي نحن بصددده لم يدخلوها ، وإلى جوارها تقع مملكة الصفويين الفارسية المتعاونة مع البرتغاليين . أما البرتغاليون الذين أصبحوا كما وصفوا أنفسهم « قد زرعوا البحار بغابات من سفنهم » فإنهم صاروا سادة يتحكمون في الخليج العربي ، لذلك فإن راشد بن مغامس هادنهم ، بل تعاون معهم في سبيل القضاء على خصومه المجاورين^(٦) .

وبالتأكيد فإن سلطة ابن مغامس هذا ، لم تكن واردة على جزيرة البحرين أو حتى على سواحل القطيف والأحساء ، لأن هذه المناطق كانت تحت سيطرة حكومة هرمز التي كانت بدورها تحت سيطرة البرتغاليين ، لذلك فإن وجود الضابط البرتغالي (تافاريز دي سوزا) وقوته البحرية في البصرة كان لمساعدة ملكها أي راشد بن مغامس ضد حاكم الجزيرة ، وذلك حسبما ذكرته المصادر البرتغالية ، وقد زامن وجود القوة البرتغالية في البصرة ، حدوث ثورة في البحرين ، ونحن لا نرى إن كانت هناك علاقة بين ما كان يجري في البصرة وما كان يجري في البحرين ، فثورة البحرين وكما يبدو من ملامحها ، ثورة عربية ضد السلطات الهرمزية المتعاونة مع البرتغاليين .

(٥) عماد أحمد الجواهري - الدور التاريخي للبصرة على الخليج العربي - مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية - العدد ١٣ .

(٦) جعفر خياط - صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة - ص ٣٣ .

واستمراراً للقصة البرتغالية بمساعدة (ملك البصرة) ضد خصومه ، فإن تقرير القائد البرتغالي قال إنه شاهد عدداً من السفن التركية هناك وقام بحرق اثنتين منها .

وفي رواية أخرى عن التدخل البرتغالي في أمور البصرة تقول إن الأمير راشد بن مغامس كان حاكماً على المدينة وتابعاً تبعية اسمية إلى شاه إيران ، وقد وقف ضده زعيم قبلي عراقي آخر ذكرته المصادر البرتغالية باسم (رئيس الجزائر) ، والجزائر منطقة تقع حوالي مدينة القرنه حيث يلتقي دجلة بالفرات ، فطلب راشد النجدة من حاكم هرمز البرتغالي فأرسل له هذا سفينتين وأربعين جندياً يقودهم (تافاريز دي سوزا) ، فقام دي سوزا هذا بإنهاء الخصومة بين راشد وحاكم الجزائر ، وطلب من راشد أن يسلمه ست سفن من نوع (فستا) مسلحة تسليحاً جيداً ومعها خمسون جندياً (رومياً) ، وعندما رفض راشد تلبية الطلب أحرق الضابط البرتغالي المستوطنات الواقعة على الساحل وانسحب إلى هرمز^(٧) .

أما ماذا حدث في البحرين ولماذا كانت الثورة ومن هو قائدها . ؟ فهذا ما لم تحدثنا عنه المصادر العربية ، كما أن المصادر البرتغالية مرت عليه مروراً سريعاً ، فقد قالوا إن سبب الثورة هو أن حاكم البحرين الذي تسميه الوثائق البرتغالية (ريس برباردين) ولعل الاسم الصحيح هو (بدر الدين) قد امتنع عن دفع الضريبة ذلك العام ، حيث إن (شرف الدين) حاكم هرمز قد رفعها من عشرة آلاف أشرفي إلى ستين ألفاً . وبناءً على تلك الأوضاع ، فقد أمر (دي كونها) بتجهيز حملة مكونة من خمس سفن حربية عليها أربعمائة جندي وضع على قيادتها أخاه المدعو (سيمو دي كونها SIMAO DE CONHA) ، لتذهب لقتال أهل البحرين أما قوة أهل البحرين فقد قيل إنها كانت ثمانمائة مقاتل^(٨) .

وعندما وصل دي كونها أمام الجزيرة ، فتح نيران مدافعه على القلعة التي كان يعتصم بها الثوار ، وظل يرميها بالمدافع إلى أن استهلك نصف مخزونه من البارود ،

(٧) صالح أوزيران - الأتراك العثمانيون في الخليج العربي - ص ٢٤ .

(٨) نونو بي سلفا - صفحات من الغزو البرتغالي للبحرين - المصدر نفسه - ص ١٢٨ .

ثم أمر جنوده بالنزول إلى الشاطئ وأُنزل معه مدافعه وراح يُصلي القلعة بنيرانه الحامية حتى أوشك البارود أن ينفذ عنده وحينذاك اجتمع مع قاداته ليقرروا ما إذا كانوا سيهجمون ويقتحمون القلعة بتسلق جدرانها أم يرسلون في طلب النجدة من هرمز ، واتفقوا على عدم الهجوم بل إرسال سفينة إلى هرمز لتأتي لهم بمدد من هناك ، لكن المدد لم يصلهم إلا بعد ستة عشر يوماً ، أنزل الله وباء وحمى بالقوة المهاجمة قتلت كل جنودها ما عدا خمسين جندياً ، إلى أن وصلت سفينة النجدة والإمداد . وبناءً على ذلك فقد قرر سيمودي كونها العودة بما كان يتيسر له من قوة إلى هرمز فرفع أشرعة سفنه متجهاً نحو هرمز ، إلا أن الأقدار كانت له بالمرصاد أيضاً إذ سرعان ما هبت عواصف عليه دفعت بسفنه إلى عرض الخليج وانقلبت سفينته وابتلعت الأمواج ، ولم ينجُ من سفن الحملة إلا سفينة واحدة وصلت إلى هرمز لتنقل لهم نبأ الفاجعة التي حلت بالقوة البرتغالية المهاجمة^(٩) .

وبعدها غادر نانو دي كونها هرمز ووصل إلى الهند لاستلام منصبه كحاكم عام للهند ، وكان ذلك في شهر نوفمبر ١٥٢٩ م ، وبعد أن استقر به المقام ، وعلى عادة كل الحكام البرتغاليين ، فقد أمر بتجهيز ثلاثة أساطيل تخرج إلى ثلاثة أماكن مختلفة لغرض فرض السيطرة البرتغالية وجباية الضرائب فكانت عدن من نصيب (هايتور دي سلفيرا HEYTOR DE SILVERA ، الذي وصل بسفنه أمامها في شهر شباط ١٥٣٠ م ، وعندما شعر حاكم عدن وقد كان يومذاك السلطان عامر بن داوود الطاهري ، بأن هناك سفناً برتغالية في الميناء ، فإنه أرسل وفداً يحمل علماً أبيض للترحيب بهم ، ولما قابل الوفد دي سلفيرا ، أخبرهم هذا بأنه لا يقبل صداقة الحاكم لأن الحاكم السابق قد نقض المعاهدة التي وقعها معه .

ولما اجتمع السلطان عامر بدي سلفيرا أجبره هذا على التوقيع على معاهدة جديدة كرر فيها السلطان خضوعه للملك البرتغال ، كما وافق على دفع مبلغ عشرة آلاف

(٩) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٣٩٧ . وكذلك أحمد العناني - المصدر نفسه - ص ٩٩ .

أشرفي ذهب كضريبة سنوية ، على أن يقوم بدفع ألف وخمسمائة منها نقداً وفوراً لغرض صنع التاج الذهبي المزمع تقديمه للملك البرتغال بمناسبة عيد جلوسه ، كما وافق (دي سلفيرا) للسفن اليمانية أن تتجول في البحر بشرط ألا تدخل إلى البحر الأحمر ومنعها من الذهاب إلى مكة كما قام هذا بتوقيع معاهدة مماثلة مع حاكم الشحر^(١٠) .

* * *

ولكي نعرف الدوافع التي دفعت بحاكم عدن الجديد للتوقيع على المعاهدة مع البرتغاليين لابد أن نعود قليلاً إلى الوراء أيضاً لنرى ماذا كان يجري في الساحة السياسية الداخلية في اليمن المضطرب آنذاك .

ذكرنا في الفصل السابق أن حاكم جدة الأمير حسين بك قد جهز حملة بحرية قادها بنفسه ومعه (سليمان العثماني) أو (سلمان ريس) وهو اسم قائد الأسطول العثماني في جدة وذهب ليقرا النظام في اليمن ولكن بدون جدوى ، مما حدا بحسين بك أن يرسل سليمان العثماني إلى القاهرة يطلب النجدة من رئيس وزراء تركيا الذي كان موجوداً هناك آنذاك ، ثم إنه عاد فأرسل سليمان العثماني إلى اليمن ثانية ليقر النظام فيها وكان ذلك في عام ١٥٢٧ .

ويبدو أن سليمان العثماني أو سلمان ريس كما يُدكرُ اسمه أحياناً عندما وصل إلى اليمن ثانية اصطدم بأحد أمراء الكتائب المنشقين واسمه مصطفى الرومي ، فانصرم عام ١٥٢٧م كله في قتال بين الكتائب المؤيدة لسليمان العثماني والكتائب المؤيدة لمصطفى الرومي ، وقد تمكن سليمان من القضاء على مصطفى الرومي فانفرد بالسلطة في اليمن ، وصادف أثناء ذلك أن وافق الصدر الأعظم التركي على أن يوفد حملة عسكرية جديدة إلى اليمن لإقرار النظام هناك ولقاتلة البرتغاليين ، فأمر بتجهيز حملة مكونة من عشرين سفينة حربية على ظهرها أربعة آلاف جندي بقيادة القائد التركي الأمير خير الدين حمزة بك ، ولما وصلت هذه الحملة إلى اليمن فإن قائدها

(١٠) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٤٠٠ .

الأمير خير الدين حمزة اصطدم بسليمان الذي كان يتمتع آنذاك بسلطة مطلقة في اليمن ، وأدى عدم التفاهم بين الرجلين لأن يقوم خير الدين حمزه بك بالتآمر على سليمان فاغتاله في أواخر عام ١٥٢٨ م - ٩٣٤ هـ . إلا أن مقتل سليمان لم يُنه التسبب والفوضى في اليمن ، ذلك أن أحد قواد الكتائب واسمه (مصطفى بيرام) الذي كان يمت بصلة القرابة إلى القائد سلمان ريس قرر أن يثار له ، ففي أواسط عام ١٥٢٩ م أعلن مصطفى بيرام العصيان ضد سلطة خير الدين بك ، وانضم إلى صفوف الثائر قائد الاسطول المسمى (خواجه صفر) ، وفي الصدام المسلح الذي وقع بين الطرفين تمكن مصطفى بيرام من قتل خير الدين بك ، فلما تم له ذلك قرر أن يهرب من اليمن خوفاً من انتقام السلطان العثماني ، فسَلَّم قيادة القوة إلى أحد الضباط واسمه (علي الرومي) ، أما هو فقد أخذ معه الخواجة صفر وبعض خاصة سليمان وحرسه الخاص ، وتوجه إلى جزيرة كمران وادعى بأنه ينوي الإقامة هناك ، إلا أنه شحن سفنه هناك بما يكفيه من مؤونه وزاد وهرب ومعه الخواجة صفر إلى الهند ، حيث لجأ عند السلطان (بهادر شاه) حاكم منطقة (كجرات) الذي استقبله وأكرم وفادته . لكن مسلسل الانقلابات العسكرية والاغتيالات الشخصية التي عمت القوات المملوكية أو العثمانية القادمة من مصر ، لم تنته ، ذلك أن قيادة علي الرومي للوحدات العسكرية لم تطل كثيراً إذ قام أحد ضباط جيشه واسمه (اسكندر موز) بانقلاب أطاح به وألقى القبض عليه ، وأعدمه وتولى قيادة القوة الممزقة هناك^(١١) .

تلك كانت الحالة داخل اليمن المضطرب ، فلا غرابة إذن أن يضطر حاكم عدن إلى تجديد المعاهدة مع البرتغاليين .

* * *

ولم تكن الأحوال في الهند آنذاك أحسن منها في البلاد العربية ، إذ قام بعض ملوك المقاطعات الإسلامية بمصالحة ومهادنة البرتغاليين وبدا وكأن الوحدة الإسلامية هناك قد أصيبت بضربة ، ولم يبقَ من حكام الهند من كان متحمساً لقتال البرتغاليين إلا

(١١) قطب الدين النهر والي - البرق اليمني في الفتح العُماني - ص ٥٥ . وكذلك الدكتور سيد مصطفى سالم - المصدر نفسه - ص ١٣٣ .

السلطان (بهادر شاه) حاكم منطقة (كجرات) . لكن هذا الحاكم كان يواجه خطرين وهما الخطر البرتغالي من البحر والخطر المغولي من البر ، لذا بدأ أمام (بهادر شاه) أن الإنقاذ لا يتحقق إلا بمساعدة من الدولة الإسلامية العظمى وهي السلطنة العثمانية التي كان على رأسها السلطان سليمان القانوني .

لذلك فقد أرسل مبعوثاً من عنده قابل السلطان العثماني في أدرنه وشرح له الأوضاع العامة في الهند وبحر العرب والبلاد العربية التي وقعت تحت سيطرة البرتغاليين ، فوعده السلطان خيراً . وعندما كان الموفد الهندي يقابل السلطان العثماني ، حدثت أحداث غامضة في الهند ، إذ إن الضابطين مصطفى بيرم وخواجه صفر انحازا إلى البرتغاليين وقيل أيضاً إنهما انحازا إلى المغول الذين كانوا يهاجمون مملكة الكجرات ، وانتهى الأمر بأن اكتشف البرتغاليون أسرار الاتصالات التي أجراها بهادر شاه مع السلطان العثماني فتمكنوا من قتله غدرًا في أوائل رمضان ٩٤٣ هـ - ١٥٣٧ م .

كان السلطان العثماني سليمان القانوني رجلاً قوياً وفاتحاً عظيماً ، شديد الحماسة للإسلام ، وشديد الرغبة في نشر لواء المذهب السني وشديد الحرص على سيادة العثمانيين على أوروبا وكانت روحه العالية تجعله في حالة إقدام مستمر ، سار إلى المجر وفتح بلغراد عام ١٥٢١ وفي أكتوبر ١٥٣٠ حاول الدخول إلى فينا ، وأستأنف القتال ضد فارس فاحتل بغداد عام ١٥٣٤ ، وكانت جيوشه تقاتل في ميادين مختلفة في أوروبا وفارس وشمال أفريقيا علاوة على ميدان البحر الأحمر واليمن ، ولا شك أن فتح العثمانيين لبغداد عام ١٥٣٤ أدى إلى ازدياد اهتمام السلطان بالمعركة الدائرة مع البرتغاليين ، لأن فتح بغداد يعني أنه سيمتد بنفوذه حتماً إلى البصرة وسواحل الخليج العربي الشمالية ، فيصبح بذلك وجهاً لوجه أمام البرتغاليين هناك ، كما أنه سيواجه الحكام الفرس المتعاونين مع البرتغاليين في تلك المنطقة أيضاً .

وفي رواية أن راشد بن مغامس حاكم البصرة أرسل ابنه مانع ومعه مفتاح البصرة إلى

السلطان وكان بمعية الابن وفد مكون من مشايخ الأحواز والقطيف والبحرين ليرحبوا بالفاتح العثماني عندما دخل بغداد .

هذا إلى جانب أن الاستحواذ على زعامة العالم الإسلامي كان شيئاً مقررأ في سياسة العثمانيين ، وكانت هذه الزعامة قد آلت إليهم في الشام والعراق ومصر والحجاز وشمال أفريقيا ، لذلك فقد أصبح فتح اليمن شيئاً ضرورياً لتحقيق الهيمنة الإسلامية التامة كما أصبح احتلال عدن يعتبر حجر الأساس للسياسة العثمانية في ذلك الجزء من الجزيرة العربية ، وقد هال العثمانيين وأقضى مضجعهم ازدياد التحالف بين الأحباش والبرتغاليين ، وتدخلات البابوات لإثارة حرب صليبية هناك بغية الاستيلاء بالكامل على تجارة الشرق وتهديد الأماكن المقدسة الإسلامية وبالتالي إحداث انهيار في التوازن الدولي ، هذا إلى جانب أن تجارة مصر التي صارت بيد العثمانيين يومذاك كانت تقف على حافة الفقر المدقع ، لذلك ومع صيحات المسلمين في الهند وفي غيرها من الأماكن ، فقد رأى العثمانيون أن مساعدة تلك الدول يحقق غرضين مزدوجين ، فإلى جانب تحقيق زعامتهم على العالم الإسلامي فإنه سيساعدهم على القضاء على نفوذ البرتغاليين وانقاذ تجارة الشرق الغنية .

وعلى هذا الأساس أصدر السلطان سليمان القانوني أوامره إلى والي مصر سليمان باشا الخادم بتهئية حملة عسكرية تذهب إلى عدن لاحتلالها وتسيطر على اليمن سيطرة تامة تُنهى التمزق السائد فيه ، ثم تخرج بعدها إلى الهند لقتال البرتغاليين هناك .

الفصل السادس والعشرون

- * إعداد وتنظيم الحملة العثمانية - المصرية إلى الهند بقيادة سليمان باشا الخادم.
- * الحملة يقوم باحتلال عدن وإعدام السلطان عامر بن داود الطاهري . وبداية الاحتلال العثماني لليمن عام ٩٤٥هـ - ١٥٣٨م.
- * الحملة العثمانية - المصرية تهاجم مدينة (ديو) الهندية وتحاصرها .
- * وصول نائب الملك البرتغالي الجديد (دون غارسيا دي نورونا) .
- * القلعة البرتغالية في (ديو) توشك على السقوط، إلا أن سليمان باشا الخادم ينسحب فجأة من الهند .

في محرم سنة ٩٤٥هـ - يونية ١٥٣٨م تم تشكيل الحملة العثمانية - المصرية وأصبحت جاهزة للحركة ، وكان قوامها سبعين سفينة كبيرة وثلاثين سفينة أصغر حجماً وقيل أكثر أيضاً ، وكان عدد مقاتليها نحواً من عشرين ألف جندي من عرب مصر والشام بينهم سبعة آلاف جندي انكشاري ، وقد ذكرت المصادر البرتغالية تعداد سفن الحملة بالضبط كما جاء في المصادر العربية أما عدد جنودها فقدره بسبعة آلاف مقاتل^(١) .

وكانت السفن الكبيرة مجهزة بالمدفعية الثقيلة التي اشتهر بها الجيش التركي كما كانت السفن الأخرى مجهزة بالمكاحل أي قاذفات اللهب ، كما ضمت الحملة نخبة

(١) قطب الدين النهروالي - المصدر نفسه - ص ٧١ . وكذلك الدكتور السيد مصطفى سالم - المصدر نفسه - ص ١٤١ . وكذلك الدكتور محمد عبد اللطيف البحراوي - المصدر نفسه - ص ١٥١ . وكذلك DANVERS - المصدر نفسه - ص ٤٢٦ .

جيدة من ضباط الأسطول والبحارة الذين اشتغلوا لفترة مع أمير البحر التركي الشهير خير الدين بارباروس في شمالي أفريقيا والبحر الأبيض المتوسط . وكان قائد الحملة هو والي مصر نفسه المعروف باسم سليمان باشا الخادم ويعرف أيضاً باسم (سليمان الخصي) وكان طاعناً في السن وقيل إنه قارب الثمانين بديناً إلى درجة أنه يحتاج إلى مساعدة أربعة رجال ليتمكن من النهوض ، وكان فتاكاً يميل إلى معالجة الأمور بالعنف حتى اتهمه البعض بقلة العقل ، وقد قام بقتل أحد الأمراء الذين خالفوه في الرأي وهو الأمير جانم الحمزاوي وولده يوسف ومثّل بهما شراً تمثيل ، وتذكر المصادر البرتغالية أنه أعدم مئتي عسكري ممن كانوا لا يطيعون الأوامر أو يقصرون في تنفيذها وذلك أثناء فترة التدريب والإعداد للحملة .

وفي أثناء الإعداد للحملة أرسل موفداً منه هو (الصوباشي فرحات) إلى حكام اليمن ليخبرهم بأمر الحملة التي ستأتي إليهم ويطلب منهم الدخول في طاعة السلطنة العثمانية ، وعندما وصل الصوباشي فرحات إلى عدن استقبله السلطان عامر بن داود الطاهري ، إلا أن نتائج الاجتماع بين الرجلين لم تكن مشجعة إذ إن السلطان الذي اكتوى سابقاً بنار الحملات المصرية كان يريد ضمانات وإيضاحات أكثر عن طبيعة العلاقات المستقبلية بين اليمن والسلطة العثمانية ، فغادر الصوباشي عدن وهو غير راض عن السلطان . ثم ذهب إلى منطقة الشحر وقابل الأمير بدر الطويرق فأحسن هذا استقباله وأمر بعقد اجتماع كبير في المسجد ، ثم أمر الفقهاء بقراءة رسالة سليمان باشا الخادم ، ووقف الجميع إجلالاً وإكباراً عندما كانت الرسالة تُتلى ، ثم قام الصوباشي بإلباس الأمير بدر البزة العسكرية التي أهداها له سليمان باشا ، ويعدّها أمر بدر أن يُخطب في المساجد للسلطان سليمان القانوني .

ثم عاد الصوباشي إلى القاهرة ليلفّ سليمان باشا عن نتائج رحلته .

ومن الجدير بالذكر أن استسلام أمير الشحر بدر الطويرق للعثمانيين بسرعة ، كان نتيجة لمهادنته البرتغاليين بشكلٍ مطلق إذ كان واقعاً تحت عقدة الشعور بالعجز

أمامهم ، فكان يجاملهم ويسكت على تصرفاتهم ويتفادى شرهم ، كان البرتغاليون يترددون كثيراً إلى ميناء الشحر لغرض المتاجرة ، وكانوا أيضاً وفي مرات عديدة يقومون بقتل من يعترضهم من الأهالي هناك ، لذلك فقد ارتفعت أصوات النقد لمواقفه المخزية وصار الشعراء يهجون له لتخاذله أمام البرتغاليين بقصائد شعبية تقتطف منها ما يلي :

وين بتسودي الوجه والحربية حولك صفف وخزائنك مليانه

إلا أن الحالة تغيرت بعد وصول الصوياشي إلى الشحر ، فإن بدر الطويرق قام بإغلاق المتاجر البرتغالية وألقى بعمالها في السجن وجمع سفنهم وباعها في السوق ووزع أثمانها على المتضررين من الناس^(٢) .

غادرت الحملة العثمانية - المصرية ميناء السويس ومرت بميناء جدة ثم توقفت في جزيرة كمران للتزود بالماء ، وفي خلال توقفها قام كل من السلطان عامر بن داود الطاهري والإمام المنافس له مطهر بن شرف الدين الزيدي بالاتصال بسليمان باشا الخادم يطلب معاونته ضد الآخر ، فقد قيل إن الطاهري أرسل إلى سليمان باشا يستنصره على الإمام الزيدي ، كما قيل إن الزيدي اتصل بسليمان باشا لإثارته ضد الطاهري للتخلص منه بحجة أنه يساعد البرتغاليين .

ثم واصلت الحملة سيرها إلى عدن فوصلتها في ٧/ ربيع الأول/ ٩٤٥هـ أغسطس/ ١٥٣٨م ، وقام الحاكم السلطان عامر بإقامة الزينات ابتهاجاً بقدمها وهو يمني نفسه بلقاء قائدها والدخول معه في مفاوضات واتفاقيات تحدد للطرفين مجال العمل سوية ، وأمر بفتح أبواب المدينة وذلك عندما ألقت السفن مراسيها في الميناء ، كما كان السلطان ومعه ستة من كبار أتباعه يقفون في الميناء ثم تقدموا نحو سفينة القيادة وطلبوا الصعود إليها للترحيب بالبasha فسمح لهم بذلك ، وبينما كانوا يصعدون إلى السفينة لاحظوا أن أعداداً من الجنود المدججين بالسلاح بقيادة

(٢) محمد عبدالقادر بامطرف - المصدر نفسه - ص ١٢٠ .

الصوباشي فرحات قد دخلوا إلى المدينة ، وعندما التقى السلطان عامر بسليمان باشا قام هذا الأخير بالترحيب به ، وبينما كان الحديث دائراً بين الاثنين سمع السلطان أصوات طلقات نارية تأتي من جانب المدينة ، ثم لم تلبث أن تعالت أصوات الصراخ والهرج والمرج ، فعلم بأن سليمان باشا قد أوعز إلى الصوباشي أن يقوم باحتلال عدن ، وقبل أن يفيق السلطان عامر ومرافقوه الستة من دهشتهم كانوا قد رُبطوا بالحبال ، ثم وضعت الحبال في أعناقهم وأمر سليمان باشا بشنقهم على سارية سفينته ، وتم تنفيذ حكم الإعدام فيهم بهذه الصورة وبقيت جثثهم معلقة على سارية سفينة سليمان باشا الخادم لمدة ثلاثة أيام^(٣) .

ثم قام سليمان باشا بإعلان سقوط الدولة الطاهرية في اليمن وقيام عهد جديد هو عهد الحكم العثماني هناك ، وأصدر أمراً أيضاً بتعيين القائد (بهرام بك) حاكماً عاماً على اليمن وترك معه كتيبة مكونة من خمسمائة جندي . وعلى إثر ذلك قام حاكم الشحر بإرسال أخيه إلى الباشا يعرض عليه الخضوع لحكمه ، أما مصير بقايا القوة المملوكية المصرية التي كان مقرها بلدة زيد في اليمن الشمالية فقد انتهت إلى التمزق ولم يبق منها إلا ضابط واحد اسمه أحمد الناخوذة . ولما تم لسليمان باشا كل ذلك أمر سفنه بترك المياه اليمنية والتوجه إلى الهند لقتال البرتغاليين ، فأبحرت سفنه وسط موجة عارمة من الغضب والكراهية التي عمت أهل اليمن فقد كان لغدر سليمان باشا بعامر بن داوود أثر كبير في موقف مسلمي الهند من هذه الحملة كما سنرى ذلك فيما بعد .

وفي الهند وصلت أنباء تحرك الحملة العثمانية - المصرية إلى مسامع الخوجا صفر ، وهو الضابط المملوكي المصري الذي هرب من اليمن عام ١٥٢٩م إثر الاضطرابات التي سادت القطر آنذاك ولجأ عند بهادور شاه في الهند ، وعندما قُتل بهادور شاه هرب الخوجا إلى جهة مجهولة ، ثم لم يلبث أن قام باتصالات مع حاكم الهند العام

(٣) قطب الدين التهرتالي - المصدر نفسه - ص ٨٠ . وكذلك الدكتور السيد مصطفى سالم - المصدر نفسه - ص ١٤٥ . وكذلك الدكتور محمد عبد اللطيف البحرأوي - المصدر نفسه - ص ١٥٤ . كما أن المصادر البرتغالية تشير إلى هذه الحادثة أيضاً .

(نونا دي كونها) وأظهر رغبة في التعاون مع البرتغاليين فوافق دي كونها على ذلك ، إلا أنه عاد فانقلب على البرتغاليين عندما علم بقرب وصول سليمان باشا ، وذهب إلى ملك منطقة كامباي الهندية وعرض عليه خدماته وأقنعه بضرورة العمل سوية للتعاون مع الحملة القادمة والتي ستتمكن من طرد البرتغاليين من الهند فوافق ملك كامباي على عرض الخوجا صفر وأمر بتجهيز وإعداد جيشٍ قَدَّرَتْهُ المصادر البرتغالية بخمسة آلاف فارس وعشرة آلاف راجل .

كان حاكم ميناء (ديو) القائد البرتغالي (أنطونيو دي سلفيرا) قد وصلته معلومات عن قرب وصول الحملة العثمانية وكذلك عن النشاط الذي يقوم به الخوجا صفر وملك كامباي وكذلك السلطان محمود شاه حاكم منطقة الكجرات ، لذلك فقد أمر جنوده الموجودين في المدينة بالانسحاب والاعتصام بقلعة ديو ، أما هو فقد ذهب إلى (كوا) وقابل الحاكم العام وشرح له الأوضاع وطلب مساعدة عاجلة لمعالجة الموقف . وخلال وجوده هناك فإن الخوجا صفر ومحمود شاه داهما المدينة واحتلاها وحاصرا القوة البرتغالية الموجودة في الحصن .

وصل سليمان باشا إلى ميناء (ديو) وهناك أرسى سفنه لغرض الاستطلاع ودراسة الموقف فقام الخوجا صفر ومحمود شاه بإرسال الهدايا له وأخبراه بأنهما مستعدان لمعاونته في الهجوم على الحصن البرتغالي ، وقد حاول الخوجا صفر أن يذهب بنفسه لمقابلة الباشا إلا أن خاصته نصحوه بعدم الذهاب خوفاً من أن يقوم الباشا بإعدامه كما فعل بحاكم اليمن بتهمة التعاون مع البرتغاليين ، لذلك فقد قام محمود شاه بإرسال رئيس أركان جيشه المسمى (شودار) أي (حافظ شقي المملكة) لمقابلة سليمان باشا وإبلاغه تحياته واستعداده للتعاون معه ، ولما قابل سليمان باشا هذا القائد احتقره ولم يأذن له بالجلوس فخرج القائد غاضباً وعاد إلى محمود شاه وأخبره بما جرى له مع الباشا^(٤) .

(٤) النهر والي - المصدر نفسه - ص ١٤ .

وبعد ذلك أمر الباشا كتيبة مكونة من ستمائة جندي انكشاري بالنزول إلى الشاطئ ومهاجمة القلعة البرتغالية ، فقامت الكتيبة بالهجوم إلا أنها جوبهت بمقاومة عنيفة من المدافعين البرتغاليين وفقدت خمسين جندياً من جنودها مما أجبرها على العودة إلى السفن ، وعندما كان سليمان باشا يضع خطة جديدة لمهاجمة القلعة فإن رياحاً شديدة هبت على سفنه وأبعدت قسماً منها خارج الميناء كما أنها جعلت أمر الإنزال أو استعمال مدفعية السفن صعباً لذلك فقد أصدر أوامره إلى أسطوله بالحركة إلى ميناء يسمى (ماهاو) وهو قريب من (ديو) للتحشد هناك لحين سكون العاصفة .

استغل القائد البرتغالي (أنطونيو دي سلفيرا) تلك الظروف وتمكن من الوصول ومعه نجدة عسكرية إلى المدينة حيث شق طريقه إلى داخل الحصن المحاصر كما قام بإجراء تعزيزات دفاعية جديدة حول القلعة ، وعندما هدأت العاصفة شن الباشا هجوماً بمدفعية السفن على القلعة في ٢٨ / ٩ / ١٥٣٨ م ، وأحدثت قذائفه أضراراً في القسم الذي كان يدافع عنه الضابط (فرانسيسكو باجيكو) بينما غرقت له سفينة واحدة نتيجة القصف المقابل البرتغالي وعندما شدد الباشا هجومه على ذلك الجزء أرسل المدافعون طلباً إليه بأنهم سيخلون هذا الجزء ويتركون أسلحتهم فيه ويخرجون رافعي الأيدي بشرط أن يسمح لهم باللجوء إلى مبنى القلعة الرئيسية ، إلا أن سليمان باشا لم يوافق على ذلك بل أمرهم بالخروج ولما خرجوا اعتقلهم وسجنهم في سفنه ، ثم أرسل رسالة إلى دي سلفيرا ينصحه بالاستسلام ، إلا أن دي سلفيرا لم يوافق على ذلك فقام الباشا بصب نيران أكثف على القلعة وأوقع خسائر فادحة بالمدافعين البرتغاليين ، وإلى يوم ٦ / ١٠ / ١٥٣٨ م كان القصف العثماني مستمراً على القلعة ، فيما راحت السفن تقترب أكثر من جدرانها . إلا أن الموقف تغير لصالح البرتغاليين عندما وصلت في اليوم الثاني سفيتان برتغاليتان حربيّتان استطاعتا أن تبعدا بنيرانهم الأسطول التركي قليلاً ، غير أن الباشا عاود الهجوم بمدفعه بكثافة أشد من السابق مستخدماً قنابل زنة الواحدة ٩٠ باوند ، وكان عدد المدافع التي تقوم بالقصف (١٣٠) مدفعاً ، واستمر القصف لمدة عشرين يوماً متتالية بينما راح المشاة العثمانيون يهاجمون

القلعة ويوقعون خسائر فادحة بالمدافعين ، وانتشرت الأمراض بين البرتغاليين ، كما أن محاولات حاكم الهند لإرسال نجدات لهم كانت تفشل بسبب مقاومة العثمانيين لها ، ولما فشلت طلقات مدفعية الأتراك في إحداث ثغرات في جدران القلعة ، أمر الباشا قواته بحفر خنادق تحت حيطان القلعة ووضع البارود تحتها وتهديمها ، وخلال ذلك حاولت قوة بحرية برتغالية بقيادة (كاسبار دي سوزا) مهاجمة الاسطول العثماني إلا أنها فشلت وقتل قائدها .

أما موقف حاكم الهند (نونا دي كونها) من تلك الأحداث فقد هاله ما سمع من أنباء حصار (ديو) فأمر بحشد أسطول كبير للإبحار إلى (ديو) ومقاتلة العثمانيين هناك ، إلا أن الأمر تأخر بسبب وصول حاكم جديد للهند هو (دون غارسيا دي نورونها DOM GARCIA DE NORONHA) وتسمنه منصب نائب الملك هناك ، لكن هذا النائب الجديد لم ينفذ إجراءات (دي كونها) لاتخاذ الحامية المحصورة في (ديو) والتي تناقص عدد جنودها إلى (٢٥٠) مقاتلاً فقط ، لأنه علم أن جدران القلعة وحيطانها صمدت أمام مدفعية الباشا كما أن الباشا نفسه أصبح يدرك أن اقتحام القلعة أمر صعب لذلك فقد أمر بإنزال (١٥٠٠) مقاتلاً سراً إلى البر للصعود إلى جدران القلعة بدون إسناد مدفعي منه بل إنه استخدم الخدعة فأمر سفنه بالانسحاب نحو البحر ليوحي للمدافعين بأنه غير عازم على محاربتهم ، لكن الخطة فشلت أيضاً ولم يتمكن المشاة العثمانيون من اقتحام القلعة ، إلا أنهم فتكوا بعدد كبير من البرتغاليين إذ تناقص عددهم إلى أربعين برتغالياً فقط وأوشك البارود على النفاذ وصار أمر الدفاع عنها مستحيلاً وبات سقوطها متوقفاً بين لحظة وأخرى .

لكن أمراً لم يكن في الحسبان قد حدث ، ذلك أن الباشا أمر قواته بالكف عن إطلاق النار والعودة إلى السفن ، ثم لم يلبث أن أصدر أوامره بالانسحاب والعودة إلى مصر ، فأقلعت السفن عائدة بتاريخ ٥ / ١١ / ١٥٣٨ م .

فماذا حدث ؟ . ولماذا اتخذ الباشا هذا القرار ؟ .

اتفقت آراء المؤرخين البرتغاليين والعرب على أن الخوجا صفر الذي كان هو والأمرء الهنود يراقبون تلك المعارك ، قد قدروا بأن انتصار العثمانيين ودخولهم إلى الهند بقيادة سليمان باشا سيكون كارثة عليهم أشد وألعن من كارثة البرتغاليين ، لذلك فقد قام خوجا صفر بتزوير رسالة وكأنها مُرسلة من نائب الملك البرتغالي إلى قائد القلعة البرتغالية في ديو يخبره فيها بأنه قادم لتجديده بأسطول عظيم وجيش أعظم ، ثم قام بارسالها إلى سليمان باشا مدعياً بأن رسول نائب الملك البرتغالي وقع أسيراً بيده وأنه يرسل هذا الكتاب له للمعلومية ، لذلك فقد قرر الباشا أنه لا قبل له بمقاتلة هذا الحشد البرتغالي الجديد فانسحب عائداً إلى اليمن^(٥) .

وهكذا انتهت الحملة التركية - المصرية وعاد الباشا إلى عدن وهناك أعلن أن اليمن جزء لا يتجزأ من السلطة العثمانية وقام بتعيين مصطفى النشار باشا حاكماً عسكرياً عاماً على اليمن ، وقيل إنه سُمي بالنشار لأنه كان ينشر اللصوص وقطاع الطرق بالمنشار إلى نصفين عقاباً لهم . كما قام بتثبيت سلطة الأمير بدر الطويرق لتشمل منطقة الشحر ومنطقة ظفار ، وألقى القبض على الضابط أحمد الناخوذة وهو آخر ضباط الحملة المملوكية وأعدمه ، ثم غادر اليمن ووصل إلى جدة وهناك أخرج الأسرى البرتغاليين وغيرهم وأمر بإعدامهم ، ثم أخذ معه الرؤوس وتوجه إلى استانبول لمقابلة السلطان سليمان القانوني حتى يؤكد له أنه أدى واجبه في الهند .

وهكذا ورغم الاتهامات التي وجهت إلى سليمان باشا الخادم بأنه فشل في تحقيق الهدف الرئيسي من الحملة وهو تخطيط الجهاز العسكري البرتغالي في الهند بصورة نهائية ، إلا أن احتلاله لعدن أصبح سبباً للمحافظة على البحر الأحمر من احتمال اقتحام البرتغاليين له ، لكن هذا الاحتلال لم يؤثر في التواجد البرتغالي في عُمان والبحرين وبقية أجزاء الخليج العربي ، كما أن احتلال العثمانيين لبغداد واقترابهم من

(٥) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٤٢٩ . ويقول النهر والي بهذا الصدد : لقد زود (خداوند خان) كتاباً بخط الأفرخي من عند كبيرهم (ورندور) إلى كبير الأفرخي في (ديو) أنه قادم إليه بثلاثمائة سفينة غراب وخمسين سفينة برشه وأرسله إلى سليمان باشا وكان هذا خواراً خوفاً لم يعهد منه شجاعة وإقدام وإنما كان يفتك بمن يقع بيده مأسوراً ، فركبه من ذلك خوف عظيم وتفرقت عساكره وترك المدافع الكبار وركب اشرعته وعاد إلى اليمن .

البصرة كان يجب أن يضع المراكز البرتغالية بين فكي كماشة تقضي عليهم ، لكن هذا الأمر لم يحدث أيضاً إذ إن كل ما فعله الأتراك في الأعوام التي تلت احتلال اليمن والعراق هو أنهم أرسلوا حملتين عسكريتين إلى الخليج لم تستطعا إنقاذ مسقط والبحرين من يد البرتغاليين ، هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن تواجد قواتهم بكثافة في البحر الأبيض المتوسط واحتلالهم الجزائر لم يؤدي أيضاً إلى تحرير المغرب من البرتغاليين ، إلا أنه وعلى العموم فإن وجود قوة إسلامية كبرى كالقوة العثمانية كان رادعاً كبيراً لكل من تسوّل له نفسه من الدول الأوروبية التماذي في غيها وغرورها .

وقبل أن نستمر بالحديث عن مجريات الأمور بين العرب والمسلمين وبين البرتغاليين في المحيط الهندي والخليج العربي ، لا بد أن نعود إلى الوضع بين العرب والبرتغاليين في المغرب العربي لنرى ماذا كان يحدث هناك .

الفصل السابع والعشرون

- * تولى السلطان أحمد بن محمد الوطاسي الحكم في مملكة فاس عام ١٥٢٦.
- * ظهور المنافسة بينه وبين السلطان أحمد الأعرج السعدي ملك السوس .
- * معاهدة صلح بين البرتغاليين والوطاسيين لمدة أحد عشر عاماً .
- * معاهدة صلح بين البرتغاليين والسعديين لمدة ثلاث سنوات .
- * السلطان أحمد السعدي يعلن الحرب على البرتغاليين إثر انتهاء مدة المعاهدة .
- * الأمير المولى محمد ينتزع السلطة من أخيه السلطان أحمد السعدي في يونيو ١٥٤٤ ويتلقب بالسلطان محمد الشيخ السعدي الملهدي .
- * السلطان محمد الشيخ السعدي يحتل مدينة فاس في يناير ١٥٤٩ .
- * مقتل السلطان أحمد الوطاسي وسقوط الدولة الوطاسية وقيام المغرب الموحد بقيادة الدولة السعدية .

ذكرنا في الفصل الثاني والعشرين من هذا الكتاب ، أن عام ١٥٢٦م شهد تحولاً جديداً في العلاقات بين الوطاسيين والسعديين ، وهما المملكتان اللتان كانتا تتنازعان على السلطة في المغرب العربي ، يوم كانت سواحل المغرب الغربية ومعظم موانئه المطلة على المحيط بيد البرتغاليين . فعندما توفي الملك محمد (البرتغالي) الوطاسي ملك فاس وشمال المغرب ، ترك الحكم لأخيه المعروف باسم أبو حسن علي ، الذي لم يحكم إلا خمسة أشهر إذ عزله ابن أخيه المولى أحمد وتولى زمام السلطة في سبتمبر من عام ١٥٢٦م وصار اسمه السلطان المولى أحمد الوطاسي ، ويعرف على

قلة باسم أبو العباس أحمد أيضاً .

إلا أن صعود السلطان أحمد الوطاسي إلى سدة الحكم في فاس مملكة الشمال ، لم يُنه الخلاف بينه وبين السلطان أحمد السعدي ملك السوس في الجنوب ، بل راح الاثنان ولغرض الحصول على مكاسب على حساب الآخر يتقربان من السلطات البرتغالية التي كانت تحتل أراضيها ، فقد عرض السلطان أحمد الوطاسي على حاكم (أسفي) البرتغالي بأنه إذا تلقى مساعدات من طرف البرتغال قصد الاستيلاء على مراکش فإنه يتخلى لهم عن كل مناطق عبده وشياظمه^(١) ، أما غريمه أحمد السعدي فراح يقوي جانبه أيضاً في تعزيز مركزه مع البرتغاليين ، لذلك أصبح على البرتغاليين أن يختاروا إما التعاون مع الوطاسيين في الشمال أو السعديين في الجنوب .

ويبدو من دراسة الرسائل التي تبادلها السلطان أحمد السعدي مع السلطات البرتغالية أن البرتغاليين كانوا أميل إلى مساعدة الوطاسيين ، بدليل أن الحكام البرتغاليين لمناطق (سانتا كروز) و(أسفي) و(أزمور) أظهروا عداءً للعرب هناك ، وحدثت مناوشات بين الطرفين مما دفع الملك السعدي إلى أن يوجه رسائل إلى ملك البرتغال وإلى حاكم أسفي يذكرهم بمعاهدة الصلح المعقودة بينه وبينهم .

استغل السلطان أحمد الوطاسي الجفوة التي حدثت بين البرتغاليين وخصمه السلطان أحمد السعدي فقرر في عام ١٥٢٨م أن يهاجم مراکش وينتزعها من يد السعديين ، ومع أن المؤرخين لم يعطونا دليلاً على مساعدة البرتغاليين للسلطان الوطاسي في هذا الهجوم ، إلا أنه يُفهم من رسالة وجهها حاكم مدينة أسفي البرتغالي إلى حكومته يفيد فيها أن الوطاسيين يقومون بحصار مراکش حصاراً شديداً وأن خسائر فادحة قد وقعت في صفوف السعديين ، لذلك فإن قوات برتغالية توجهت من أزموور وأسفي لمقاتلة قبائل بني عمير الموالية للسعديين والتي دأبت على عدم إطاعة البرتغاليين .

(١) تاريخ العصر الحديدي - المملكة المغربية - وزارة التربية الوطنية - ص ٩٦ . كذلك الدكتور عبدالكريم كرم - المصدر نفسه - ص ٥٣ .

لكن حصار الوطاسيين لم يدم طويلاً ، إذ إن محاولة انقلاب ضد السلطان أحمد الوطاسي حدثت في مكناس عندما أعلن ابن عمه واسمه مسعود عبدالناصر نفسه ملكاً هناك ، مما أجبر الوطاسي على فك الحصار عن مراكش والعودة بسرعة إلى مكناس للقضاء على الثورة هناك .

أما السعديون فقد تجلّى رد الفعل عندهم بالهجمات المتواصلة ضد المراكز البرتغالية في السواحل الجنوبية ، إذ حوصرت (سانتا كروز) وتمكن أحد المغاربة من اغتيال حاكمها ، كما ألحقوا أضراراً بالعرب المتعاونين مع البرتغاليين وقام السلطان أحمد السعدي بمنع التجار البرتغاليين واليهود من الدخول إلى أراضيه ومعاقبة من يخالف ذلك بمصادرة بضائعه وإعدامه ، كما أنهم قاموا بالانتقام من الوطاسيين الذين هاجمواهم في مراكش ، إذ شهد عام ١٥٢٩م قتالاً شديداً بين المملكتين المغربيتين إلى أن تدخل الفقهاء والعلماء للصلح بين السعدي والوطاسي وإنهاء القتال والتهالك على السلطة .

ويبدو أن فترة المصالحة بين الملكين المغربيين أدت مفعولها في جعل السلطان أحمد الوطاسي يتفرغ إلى تقوية مركزه خارجياً وأن يوجد علاقات جديدة بينه وبين السلطنة العثمانية . ففي عام ١٥٣١م كان القائد التركي خير الدين بارباروس في الجزائر ، فاتفق الوطاسي معه وهاجم الاثنان مدينتي غصاصه ومليله ، بل تمكنوا من انتزاع غصاصة من يد الاسبان وبذلك اقترب الأتراك أكثر من المواقع البرتغالية في المغرب ، كما قام الوطاسي بتوطيد علاقاته مع الملك (فرانسو الأول) ملك فرنسا المعروف بعداوته للإمبراطور الاسباني (شارلكان) وتبادل معه الرسائل الودية ، كما وافق على أن يكون هناك تبادل تجاري بين فاس وفرنسا ، وقد أدت تلك التصرفات إلى حنق البرتغاليين عليه ، لذلك فإنهم راحوا يساعدون عناصر المعارضة التي كان يتزعمها عم السلطان المعروف باسم أبو حسون ضد ابن أخيه .

كما ساعدت فترة الصلح هذه السلطان أحمد السعدي فراح يشدد الخناق ضد

المراكز البرتغالية ، وفي شهر سبتمبر من عام ١٥٣٤م تأكد للملك البرتغالي أن هناك تعاوناً حقيقياً بين الأتراك والسعديين والوطاسيين ، مما دفعه لأن يرسل منشوراً إلى النبلاء والأساقفة يستشيرهم في موضوع الجلاء عن بعض مراكز الاحتلال البرتغالي مثل مدن أسفي وأزمور ، ويخبرهم أنه لن يستطيع إدامة إمداد هذه المراكز بالرجال والسلاح لأن جل عنايته موجه نحو الهند والبرازيل ، كما أنه اقترح أن تقوم البرتغال باحتلال المغرب احتلالاً كاملاً . وقد اختلفت الأجوبة التي تلقاها الملك بالنسبة للشطر الثاني من الاقتراح أي موضوع الاحتلال الكامل للمغرب بين مؤيد ومتريث ، أما قضية الجلاء عن المراكز البرتغالية فلم يوافقها على هذا الرأي أحد^(٢) .

إلا أن هذه الصورة تغيرت في عام ١٥٣٥م عندما تمكن الأسبان من احتلال تونس فقبضوا بذلك على المملكة الحفصية هناك واستباحوا المدينة لمدة ثلاثة أيام وقتلوا أكثر من سبعين ألف نسمة فيها ، مما دفع القيادة البحرية العثمانية الموجودة في شمال أفريقيا إلى أن تسحب قواتها المتمركزة في حوض البحر الأبيض المتوسط وتوجهها لقتال الأسبان ، وبذلك ضعف العقد الإسلامي الذي تحالف ضد البرتغاليين . والأدهى أن عام ١٥٣٦م شهد تجدد المعارك بين الوطاسيين والسعديين ، ففي يوم ١٥٣٦ / ٧ / ٢٤م وقعت معركة (بوعقبة) قرب وادي العبيد انتهت بهزيمة الملك الوطاسي ، ثم قام الفقهاء بالتدخل وإجراء مصالحة انتهت بإعادة تقسيم مناطق النفوذ بين الطرفين نال فيها السعديون نصيباً أكبر من الأراضي مما دفع بالملك الوطاسي إلى أن يتقرب ثانية من البرتغاليين فكلف وزيره مولاي ابراهيم بالسعي لدى هؤلاء لعقد معاهدة سلم على أساس العمل المشترك ضد السعديين ، وقد استجاب البرتغاليون الذين أفرغتهم انتصارات أحمد السعدي فوافقوا على ذلك .

ويبدو من دراسة فحوى رسالة بعثها ملك البرتغال إلى ملك الاسبان ، أن البرتغاليين كانوا يعتبرون الحركة السعدية في الجنوب مصدر خطرٍ عليهم أكثر من الوطاسيين في

(٢) عبد الكريم كريم - المصدر نفسه - ص ٥٨ .

الشمال . فبعد أن تطرق الملك البرتغالي في رسالته إلى المصروفات الباهضة التي تتحملها خزينته للدفاع عن الهند ضد الأتراك ، أشار إلى سياسة البرتغال تجاه السعديين والوطاسيين في المغرب وذكر أنه يبذل جهوداً متواصلة من أجل عدم احتلال فاس عاصمة الوطاسيين من قبل السعديين لأن ذلك سيكون خطراً على الأمتين المسيحيتين ، ولم يخف ملك البرتغال شعوره عندما قارن بين أحداث الهند والمغرب فهو يرى أن أعماله في المغرب أكثر أهمية وأن على الأباطور الأسباني مساعدته هناك لدرء الخطر العثماني ، وأخيراً أكد أن أحمد السعدي حاكم ذكي وغني وله اتصالات مع الأتراك وأن الخطر كل الخطر إذا ما احتل فاس أو المراكز البرتغالية في المغرب .

إذن فالخطر الذي أصبحت البرتغال تشعر به في المغرب يومذاك هو قيام تعاون حقيقي بين الأتراك والمغاربة ، وصار عليها أن تتبع سياسة التقرب من الوطاسيين والسعديين في آن واحد تحقيقاً لمنع التعاون العربي - التركي ، لذلك فقد تم توقيع هدنة بين البرتغاليين والسعديين يوم ٢٥ / ٤ / ١٥٣٧ م لمدة ثلاث سنوات ، كما وقعت معاهدة بين البرتغاليين والوطاسيين يوم ٢٤ / ٦ / ١٥٣٨ م لمدة أحد عشر عاماً .^(٣)

وإذا كان الوطاسيون قد فرحوا لمعاهدة السلم التي عقدها لمدة أحد عشر عاماً إلا أن السلطان السعدي فاجأ البرتغاليين بإعلان الحرب عليهم حال انتهاء المعاهدة . ففي ١٢ / ٣ / ١٥٤١ م شنت القوات السعدية بقيادة الأمير مولاي محمد أخي السلطان أحمد هجوماً كاسحاً على قاعدة (سانتا كروز) البرتغالية في جنوب البلاد واقتحموها وأسقطوها . وما إن سمع ملك البرتغال بسقوط سانتا كروز حتى أمر حاميات مدن أسفي وأزمور بالجلاء فوراً عن هاتين القاعدتين للالتحاق بقاعدة مازكان وتحصينها . وفي رسالة أرسلها ملك البرتغال إلى ملك اسبانيا في ٢٢ / ١٢ / ١٥٤١ م ذكر فيها

(٣) عبد الكريم كريمة - المصدر نفسه - ص ٦٢ .

أن السبب الذي دفعه للجلاء عن قاعدتي أسفي وأزمور هو حرج موقفه هناك وتزايد قوة السعديين بفضل مساعدة العثمانيين لهم ، مما جعل الاحتفاظ بهذين المركزين أمراً شاقاً وصعباً فقرر إخلاءهما ، وأكد له أن الجلاء عن أسفي وأزمور ليس معناه التخلي عن المغرب بالمرّة ، حيث إن قاعدة مازكان العسكرية يمكنها القيام بالمحافظة على الاستقرار العسكري هناك .

لقد أظهرت تلك التطورات السعديين في المغرب كقادة وأبطال محررين للسواحل المغربية من الاحتلال البرتغالي ، وأنهم هم القادرون على تحرير كل البلاد ، فازدادت شعبيتهم وأصبح الجميع يتطلع اليهم لإنقاذ البلاد من الأوضاع الفاسدة في الداخل والخارج ، وقامت الثورات ضد الوطاسيين المتهاذنين مع البرتغاليين ، فثارت مدينة (دبدو) بقيادة المولى عمر ، وثار (شفشاون) بقيادة المولى محمد بن علي وثار (تطوان) أيضاً ، مما شجع السعديين على مواصلة كفاحهم لتوحيد البلاد وللوقوف بالمغاربة صفاً واحداً ضد الأعداء المحتلين^(٤) .

إلا أن فرحة ذلك النصر السعدي لم تدم طويلاً ، إذ سرعان ما دب الخلاف بين السلطان أحمد السعدي وأخيه الأمير محمد حاكم (تارودانت) وبطل معركة تحرير سانتا كروز . وعند البحث عن أسباب الخلاف بين الأخوين نجد أن الأمير محمد بدا وكأنه أكثر شعبية من أخيه أحمد وأجدر منه بحمل لقب (المحرر) ، لاسيما وأن السلطان أحمد انتقل إلى مراكش في الشمال واستقر بها وابتعد عن مناطق الاحتلال الأجنبي وساحات المعارك وأصبح بذلك أكثر اعتدالاً في معاملاته مع البرتغاليين المحتلين وكذلك مع الوطاسيين ، كما اختلف الأخوان حول قضية توزيع غنائم سانتا كروز وكذلك على موضوع ولاية العهد التي كان السلطان أحمد قد عهد بها إلى ولده بينما كان محمد يرى أنه أحق منه بها ، هذا إلى جانب أن الأمير محمد سيطر سيطرة تامة على حركة التجارة والأموال في الجنوب . ولما اشتد الخلاف بين الأخوين حاول

(٤) عبد الكريم كريم - المصدر نفسه - ص ٦٤ .

الفقهاء والعلماء إجراء الصلح بينهما ، لكن هذا الصلح لم يدم طويلاً إذ سرعان ما قام الاثنان بتجهيز جيوشهما واشتبكا في معركة (وادي الكاهرا) في شهر يونيو من عام ١٥٤٤م حيث دارت الدوائر على جيش السلطان أحمد ، فانكسر وفر وتمزق جيشه ، ودخل الأمير محمد مدينة مراكش ظافراً وجعلها عاصمة لدولته ، وصار اسمه محمد الشيخ واتخذ لقباً هو (المهدي) ونادى بالجهاد وتحرير الوطن وإنقاذ البلاد من الفوضى الداخلية والعودة بالناس إلى مبادئ الدين الصحيح .^(٥)

أثر فوز السلطان السعدي الجديد محمد الشيخ المهدي السعدي ، واستقراره بمراكش في موقف السلطان أحمد الوطاسي ملك فاس وشمال المغرب ، فأصبح في موقف متهرىء تماماً وأصبح أشد حرصاً من أي وقت مضى على المحافظة على السلم مع البرتغال والاسبان ، وكادت جهوده تنجح بقيام معاهدة بينه وبين البرتغاليين والاسبان لمقاتلة السعدي إلا أن السلطان محمد الشيخ السعدي كان أسرع منه ، إذ جهز حملة عسكرية توجه بها نحو مناطق السلطان الوطاسي والتقى به في سبتمبر من عام ١٥٤٥م في منطقة (درنه) بمعركة انتهت بهزيمة الجيش الوطاسي ، وسقط السلطان الوطاسي أسيراً بيد السلطان السعدي .

إلا أن السعدي لم يستثمر الفوز بالإسراع في الانتقضا ض على مدينة (فاس) عاصمة الوطاسيين وإنهاء مملكتهم بل اكتفى بأسر ملكهم ، ولعله لم يكن بوضع عسكري يمكنه من ذلك ، لذلك فقد قام الوطاسيون باختيار حاكم جديد لهم ، فكان محمد القصري بن أحمد الوطاسي ، كما أصبح أبو حسون عم والده وزيراً له وراحوا يجمعون الأنصار والأعوان ، فكان ممن اتصلوا به السلطان السعدي السابق أحمد الأعرج الذي أظهر ميلاً للتعاون معهم ضد أخيه .

بقيت الأوضاع متأزمة بين الطرفين لمدة سنتين تقريباً ، إلى أن كسر طوق الجمود السلطان محمد الشيخ السعدي عندما أمر بإطلاق سراح أسيره السلطان الوطاسي ،

(٤) عبدالكريم كريم - المصدر نفسه - ص ٦٧ .

بل إنه ارتبط معه بمعاهدة عندما قام بتزويج ابنه عبد القادر من ابنة السلطان الوطاسي ، إلا أن هذا الأمر لم يرق لزعماء الوطاسيين فراحوا يعملون على عجل بجمع جيش كبير كي يهزموا به السعدي ، وتمكنوا من ذلك عندما استطاع جيش يقوده الأمير زيدان بن أحمد السعدي من مشاركة الوطاسيين في القتال ضد عمه فالتقى الطرفان في (وادي سيو) قرب فاس بتاريخ ١٥ / ٥ / ١٥٤٨م ودارت معركة بين الطرفين انتهت بانكسار محمد الشيخ السعدي وتراجع قواته متقهقرة .

إلا أنه وفي مطلع العام التالي أعاد السلطان محمد الشيخ السعدي تنظيم قواته وقرر إنهاء الوجود الوطاسي بصورة نهائية في البلاد فهاجم العاصمة فاس وحاصرها ، فسقطت ضاحية فاس البالي بيده يوم ١٨ / ١ / ١٥٤٩م ، وبعد أقل من شهر سقطت المدينة كلها بيده ، واستطاع الوزير أبو حسون الهرب ، أما السلطان أحمد الوطاسي فقد وقع أسيراً للمرة الثانية بيد السلطان محمد الشيخ السعدي ، فأرسله معه أربعون من رجاله وحاشيته إلى مراكش حيث أعدموا جميعاً بالسم .

وما إن تم له ذلك حتى أرسل شيوخ القبائل وحكام المدن البيعة له ، فدانت له البلاد حتى إن مسلمي غرناطة بعثوا له يطلبون مساعدته في الثورة ضد الاسبان ، أما البرتغاليون والاسبان فقد أرسلوا النجادات المستعجلة إلى مراكز الاحتلال بالمغرب وأخذوا يترقبون تعاون السعديين والأثراك ضد مراكزهم في شمالي أفريقيا .

لذلك فقد قام الاسبان والبرتغاليون بإصدار مرسوم مؤرخ في ٢٩ / ٣ / ١٥٤٩م بتحريم التجارة مع الموانئ التي يسيطر عليها السعديون ، إلا أن ذلك لم يفت في عضد السعديين إذ إنهم عززوا قواتهم في مدن المعمورة وسلا وأسفي مما أجبر الملك البرتغالي على التخلي عن مركزين تجاريين مغربيين مهمين هما أصيلا والقصر الصغير وأن يركز قواته في سبته وطنجه ومازكان .

وعلى الرغم من سقوط الدولة الوطاسية بشكل رسمي عام ١٥٤٩م إلا أن بعض

المنافسين لحكم محمد الشيخ السعدي كانوا لا يزالون يشكلون انتقاصاً من سيادته فأخوه السلطان السابق أحمد الأعرج استقر بالصحراء الجنوبية أما أبو حسون الوطاسي والمولى عمر حاكم دبدو فقد ذهبوا إلى الإسبان والبرتغاليين .

وهكذا دخل المغرب في عهد جديد هو المغرب الموحد في ظل الدولة السعدية وهي الدولة التي سيقدر لها أن تحطم أسطورة الاستعمار البرتغالي وتقضي على دولة البرتغال .

الفصل الثامن والعشرون

- * دون كارسيا دي نورونها يصبح نائباً للملك، ودون استفانو دي غاما يصبح حاكماً عاماً على الهند
- * اختلاف الإخوة الأئمة الزيدية في اليمن .
- * ثورة إسلامية في الحبشة بقيادة أحمد كران .
- * استفانو دي غاما يجهز حملة للدخول إلى البحر الأحمر .
- * مصرع كريستوفر دي غاما شقيق حاكم الهند بيد الثائر أحمد كران .
- * مقترحات برتغالية لعقد سلام مع السلطنة العثمانية .
- * مارينر أفونسو دي سوزا يصبح حاكماً عاماً للهند عام ١٥٤٢ .
- * دون جوان دي كاسترو يتسلم السلطة من دي سوزا في العام نفسه .
- * اضطراب الأمن في البصرة وجنوب العراق، والسلطنة العثمانية تخضع المنطقة لسلطانها .

قلنا في الفصل السادس والعشرين ، إن نائباً جديداً للملك البرتغال قد وصل إلى الهند وهو (دون كارسيا دي نورونها DOM GARCIA DE NORONHA) وذلك عندما كان سليمان باشا الخادم يطوق (ديو) ، وقد قام هذا الحاكم بتجهيز حملة عسكرية قوية لفك الحصار عن المدينة ، إلا أن نبأ انسحاب الباشا المفاجيء جعله يصرف النظر عن تلك الحملة . وقام بعد ذلك بإجراء تحقيق مع سلفه (نونا دي كونها) الذي شغل منصب حاكم الهند لمدة عشر سنوات ، فوجد أن هناك تلاعبات في الأمور المالية قام بها ذلك الحاكم ، فأمر بحجزه ثم أجبره على العودة إلى لشبونة على ظهر سفينة نقل عادية وبصفة راكب برتغالي عادي ، ويبدو أن الإهانة التي لحقت

بدي كونها وخوفه من مواجهة المحاكم البرتغالية قد قضت عليه إذ هلك وهو في طريق العودة ومات في منطقة رأس الرجاء الصالح . وفي شهر إبريل من عام ١٥٤٠م قامت الحكومة البرتغالية بتعيين (استافو دي غاما DOM ESTEVAO DA GAMA) وهو ابن دي غاما مكتشف الهند ، بمنصب حاكم الهند ، وهو منصب يعادل منصب رئيس الوزراء ، لذا فقد صار التنظيم الجديد للحكومة البرتغالية في الهند يومذاك هو أن يكون هناك نائب للملك يمثل ملك البرتغال ، يعاونه حاكم للهند يمثل رئيس الوزراء ، وقام (ستافو دي غاما) بتعيين أخيه (كريستوفر دي غاما) بمنصب قائد الأسطول البرتغالي في الهند . وكان أول ما فعله (دي غاما) بعد أن استقر في الهند ، هو أنه باشر الإعداد لحملة عسكرية تدخل إلى البحر الأحمر لمقاتلة العثمانيين هناك انتقاماً لحملة الباشا حاكم مصر ، وكذلك لمساعدة ملك الحبشة ضد ثورة إسلامية قامت في بلاده بقيادة الإمام أحمد قران ويعرف أيضاً باسم أحمد قران .

* * *

قبل أن نخوض في تفاصيل الحملة البرتغالية الجديدة إلى البحر الأحمر نقف قليلاً لنبحث موضوع ثورة أحمد قران والأوضاع في اليمن .

ففي اليمن الشمالي حيث تقوم الإمارة الزيدية الشبه مستقلة ، كان الإمام الزيدي الطاعن في السن شرف الدين يحيى بن شمس الدين قد زاحمه ولده المطهر على القيادة ، لذا فقد قرر في عام ١٥٤٠م التنازل عن الزعامة والإمامة . وكان لشرف الدين ثلاثة أولاد ، الأكبر هو المطهر والثاني علي والثالث شمس الدين ، ولم يكن الوالد يرغب بالتنازل للمطهر الذي طالما أقلقه لذلك اختار التنازل لعلي ، لكن المطهر لم يقبل بذلك فتكتل مع زمرة كبيرة من معاونيه ومريديه وشهر السلاح بوجه علي فيما قام الأخ شمس الدين بإعلان الولاء لعلي ، وهكذا ظهر نزاع جديد في اليمن هو نزاع وصراع الإخوة الأئمة الزيدية على السلطة هناك .

لكن أنباء ذلك الخلاف لم تشر اهتمام الوالي العثماني في عدن مصطفى باشا

النشار ، فلقد شد اهتمامه نبأ قيام ثورة إسلامية في الحبشة يقودها الإمام أحمد بن ابراهيم المعروف باسم أحمد بن قران كما يسمى أحمد قران المجاهد أيضاً .

فلقد تمكن أحمد قران وخلال فترة قصيرة من الاستيلاء على أجزاء كبيرة من البلاد وطرد القوات الحبشية من إقليم الهرر ، كما استطاع أن يأسر ابن النجاشي ملك الحبشة ، وكان هذا التأثير على اتصال دائم بالحاكم العثماني في عدن ، وتقول بعض المصادر إن ملك الحبشة أرسل في طلب النجدة من رئيس أساقفة الكنائس في الهند ، وإن القس المذكور طلب التعجيل في ذهاب الحملة البرتغالية الجديدة إلى البحر الأحمر . لذلك ففي الشهر الأول من عام ٩٤٨هـ - ١٥٤١م أقلع حاكم الهند (استافو دي غاما) يساعده أخوه (كريستوفر دي غاما) على رأس حملة بحرية عسكرية كبيرة متجهاً نحو السواحل العربية^(١) .

وصل الإنذار الأول لعدن بتحريك القوة تجاهها عندما وصلت ثلاث سفن عربية كانت موجودة في ميناء (سورات) وأخبرتهم بحركة الأسطول ، ولما وصل الأسطول البرتغالي أمام عدن فتحت بعض سفنه نيرانها على المدينة ثم حاولوا الاستيلاء على سفينة عربية ، إلا أن قبطانها تمكن من الهرب بها ، ولم يستطع مصطفى باشا النشار الخروج لمقاتلتهم حيث لم تيسر له إلا تسع سفن فقط^(٢) . ثم وصلت السفن البرتغالية إلى جزيرة سقطرة حيث التقت هناك بقوة برتغالية يقودها (فاسكو نيكولو VASCO NCELLOS) ومعه عدد من الأدلاء لقيادة السفن البرتغالية إلى داخل البحر الأحمر .

قام دي غاما بتقسيم قوته إلى قسمين . القسم الأول بقيادته وهو القسم الأكبر من الحملة ويكون واجبه التوغل في البحر الأحمر إلى أقصى حد ومقاتلة الأسطول العثماني - المصري هناك ، أما القسم الثاني فيقوده أخوه كريستوفر ومعه قوة مكونة من خمسمائة جندي وعشر سفن ويكون واجبه مساعدة ملك الحبشة ضد أحمد قران .

(١) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٤٤٧ .

(٢) SARJENT - المصدر نفسه - ص ٩٨ و ١٠١ .

غادر القسم الأول من القوة بحوالي سبعين سفينة حربية وسار متجهاً نحو باب المندب فدخلها وهو قريب من ساحلها الغربي الحبشي أي بعيداً عن السواحل اليمنية الشمالية ، ووصل إلى ميناء مصوَّع (في أريتريا اليوم) فوجد أن أهله قد هجروه ، وفي يوم ٢٢ / شباط / ١٥٤١م وصل إلى مدينة (سواكن) السودانية ، فوجد بها مدينة عامرة وعلم بأن حاكمها يدفع ضريبة إلى السلطات العثمانية في مصر وقدرها ثلاثة آلاف أشرفي سنوياً ، فقام بانزال وقد بقيادة الضابط (أنطونيو بيريرا) قابل حاكم المدينة ، وطلب منه تزويدهم بأدلاء بحريين لأخذهم إلى حيث يوجد الاسطول العثماني - المصري . لكن الحاكم السوداني رفض ذلك ، وفي رواية أن الحاكم السوداني بعث بإنذار إلى مصر عن حركة الاسطول البرتغالي . فلما شعر دي غاما بذلك ، قام في يوم ٨ / ٣ / ١٥٤١م بإنزال عسكري في المدينة احتلها لمدة يومين ونهبها نهباً كاملاً ، ثم أمر بحرقها وغادرها يوم ١٠ / ٣ / ١٥٤١م .

وفي يوم ١٤ / ٤ / ١٥٤١م وصل إلى (TORO) أي طور سيناء ولم يجرؤ على الدخول إلى الخليج حيث مقر الأسطول العثماني - المصري هناك ، رغم أنه كان يتظاهر بأنه كان يفتش عن الأسطول لكنه بقي في سيناء حيث شاهد هناك مزارع للحنطة والشعير فقام بنهب مخازن الغلال وتمكن من الاستيلاء على سفينة كبيرة وحاول حسب ادعائه الولوج إلى إلا أنه عاد إلى (الطور) وبقي هناك إلى ٢٢ / ٤ / ١٥٤١م .

وهنا شعرت به الحكومة في مصر فأوفدت قوة لمقاتلته . والملاحظ أن سبب تأخر السلطة عن إرسال القوة هو أن استافو عندما دخل باب المندب كان يسير بجوار الساحل الاريتيري الحبشي ، وابتعد عن القيام بعملية عسكرية في الحجاز ، كما أنه لم يغامر بالدخول إلى خليج سيناء بل اكتفى بالوقوف خارجه ، لذلك فإن جزءاً من الأسطول المصري لم يستطع اللحاق به إلا يوم ٢٨ / ٤ ، حيث اشتبك معه ، لكن استافو استطاع أن يهرب بعد معركة معه وتمكن بعد جهد من الحصول على ما يحتاجه

من ماء ثم أُلْقِعَ عائداً إلى باب المندب ، وتوقف برهة في ميناء مدينة سواكن السودانية والتقى بالضابط (تريستودي آتيديا) الذي أخبره بأن المعلومات التي لديه تفيد أن حكومة مصر أوفدت أسطولاً كبيراً لمقاتلته ، لذلك فقد أسرع استافو باسطوله واتجه نحو (مصوّع) الأثيوبية واستفسر عن مصير القوة التي يقودها أخوه (كريستوفر) فعلم بأنهم لا يعرفون عنها سوى أن أخاه مشتبكٌ بقوات المسلمين التي يقودها أحمد کران في مكان ما من الحبشة ، ولم يقم استافو بالبحث عن أخيه أو محاولة مساعدته بل اتجه نحو عدن فمر بها يوم ٢٥ / ٥ ، ولم يتوقف هناك خوفاً من تدميره بل اتجه نحو عاصمته (كّوا) في الهند حيث وصلها ليقدم تقريراً عن حملته العسكرية الفاشلة وليضع خطة لإنقاذ قوات أخيه الموجودة في أفريقيا^(٣) .

أما بالنسبة لقوات القسم الثاني التي كانت بقيادة (كريستوفر دي غاما) فإنها علمت بأن قوات أحمد کران موجودة قرب جزيرة دهلك الأثيوبية فاتجهت نحوها وهناك خرج لها أحمد کران واشتبك معها بمعركة ، لكن تفوق المدفعية البرتغالية أجبرته على الانسحاب إلى داخل البر الأثيوبي فاتخذ دفاعاته في الحافة الشرقية للهضبة الحبشية وراح من هناك يرسل في طلب النجدة من مصطفى باشا النشار الحاكم التركي في اليمن ، ولما علم النشار أن البرتغاليين يحاصرون أحمد کران أرسل قوة تركية نزلت في منطقة (ولفا) في الحبشة وتمكنت من إجراء تماس مع قوات أحمد کران وشن الإثنان هجوماً مشتركاً على القوة البرتغالية فحاصروها ودارت معركة فاصلة بين الاثنین انتهت بهزيمة البرتغاليين ووقوع كريستوفر أسيراً بيد أحمد کران فقام بإعدامه^(٤) .

وعندما لم يسمع حاكم الهند استافو دي غاما خبراً من أخيه كريستوفر ، فقد أمر بتجهيز حملة من خمس سفن بقيادة (هنريكو منديس دي فاسكو نسييلو) لتذهب إلى أفريقيا ثانية لنجدة أخيه ، وعندما وصلت الحملة إلى سقطرة أخبرها الحاكم العسكري البرتغالي هناك بعدم التورط بالدخول إلى البحر الأحمر وأنه لا يعلم شيئاً

(٣) DANVERS - المصدر نفسه - من ٤٤٧ إلى ٤٥٠ .

(٤) SARJENT - المصدر نفسه - ص ٩٩ ، وكذلك كتاب السيد رجب حراز - ارتيريا الحديثة - ص ٢٩ .

عن مصير كريستوفر ، إلا أن هنريكو تورط بالدخول إلى البحر الأحمر وادعى بأنه وصل إلى (جدة) وأنه عندما كان هناك علم بأن اسطولاً عثمانياً قد خرج إليه ، فهرب عائداً إلى (كوا) حيث أخبر الحاكم أن أخاه كريستوفر قد قُتل .

وعندما كانت تلك الأحداث تدور ، فإن حكومة البرتغال فكرت في عقد تسوية مع الأتراك لحل الخلافات القائمة بينهما وعقد معاهدة صلح أمدها عشر سنوات ، لذلك فقد قامت بتكليف المدعو (ديورات كاتانهو DUARTE CATANHO) وهو برتغالي كان يشتغل بالتجسس والمخابرات بأن يذهب إلى الأتراك ويقدم لهم مقترحات السلام التالية :

١ : توافق الحكومة البرتغالية على تزويد السلطنة العثمانية بـ (٢٥٠٠) حمل من البهار والتوابل الهندية كل سنة وإيصالها إلى البصرة ، مقابل أن تقوم السلطات التركية في البصرة بتزويد القوات البرتغالية بما يعادل عشرين ألف حمل من الحنطة ولمدة عشر سنوات .

٢ : لا يمكن تصديق الاتفاق آنف الذكر ما لم يتعهد السلطان العثماني بعدم القيام باستيراد أية كمية من التوابل من أي مصدر آخر عدا ما يقدمه إليه البرتغاليون كما يمتنع عن إعادة التصدير أو المتاجرة بالتوابل التي يجهزها له البرتغاليون

٣ : كما يجب عليه السماح للسفن البرتغالية بالإبحار والدخول إلى مضيق مكة (يقصدون باب المندب والبحر الأحمر) وعدم التعرض لها ، كما يجب عدم السماح للأسطول العثماني بالتجول في البحر الأحمر ، وعلى الأتراك أن يخففوا أو يسحبوا قواتهم الموجودة في عدن ، كما يجب السماح للسفن البرتغالية بالرسو في عدن وزيد وجدة وغيرها من الموانئ العربية وقيام التجار البرتغاليين ببيع بضائعهم هناك خاصة في جدة والبصرة .

٤ : أنه وفي خلال فترة السلم هذه يجب على الأتراك التوقف عن صناعة الأسلحة

وصناعة السفن الحربية وكل ما يهدد الحكومة البرتغالية في الهند .

٥ : كما يجب على السلطات التركية غلق موانئها أمام السفن التي لا تحمل رخصة تجارية مصدقة من السلطات البرتغالية وعدم التعامل معها وحتى حجزها ووضع اليد على البضائع الموجودة فيها .

٦ : وأخيراً فإن على الحكومة التركية أن تقوم ومتى ما طلبت الحكومة البرتغالية منها بتزويد الجهات البرتغالية بعشرة آلاف حمل من الخنطة بسعر يعادل سعر اليوم الذي تطلب فيه الحكومة البرتغالية الخنطة .

وقد قام الموفد البرتغالي بنقلها يوم ١٠ / ٢ / ١٥٤١ م ، لكن ومن البديهي أن تقوم الحكومة التركية برفض تلك المقترحات بل إن السلطان سليمان القانوني قام بتمزيق رسالة الموفد البرتغالي وطرده من البلاط^(٥) .

أما بالنسبة لموقف حكومة لشبونة من فشل حملة حاكم الهند استافو دي غاما في البحر الأحمر والمشاكل الأخرى في الهند ، فقد قررت استبداله بحاكم جديد في عام ١٥٤٢ م فعينت المدعو (مارتيم أفونسو دي سوزا MARTIM AFFONSO DE SOUSA) بمنصب الحاكم العام ، كما عينت (القس فرانسيس كازفير) بمنصب رئيس اساقفة الكنائس في الهند ، أما استافو دي غاما فقد عاد إلى لشبونة ومات هناك وطلب أن يكتب على قبره (هنا يرقد فارس جبل سيناء)^(٦) .

كان أول ما فعله الحاكم الجديد هو أنه جهز حملة عسكرية طاف بها على حكام الإمارات الهندية الخاضعة له وأجبرهم على دفع الضرائب التي لم تدفع ، ثم ذهب إلى هرمز إذ إن حاكمها قد بلغت عليه دفعات متراكمة قيمتها مئة ألف دوكات ، ولما تيقن لدى سوزا عدم قدرة الحاكم على دفع المبلغ المذكور تنازل له عن ذلك مقابل

(٥) DANVERS - المصدر نفسه ، حيث يعترف المؤلف أن مطالب كهذه لا يمكن أن تقبلها إلا دولة خاسرة في الحرب ولم تكن تركيا كذلك يومذاك - ص ٤٥١ .

(٦) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٤٥٩ .

السيطرة الكاملة على كل إيرادات جمارك الجزيرة كما جعل الضريبة المفروضة عليه مبلغ ١٨٠٠ أشرفي ذهب وعدد آخر من العملات الذهبية ، وقد وافق حاكم هرمز على ذلك خاصة وأن أمل الحصول على مساعدة من شاه إيران الضعيف طهماسب بن اسماعيل الصفوي (١٥٢٤ - ١٥٧٦ م) أصبح مستحيلاً بسبب فتور همة هذا الشاه المنصرف إلى اللهو واللعب والحروب الداخلية والمشاكل السياسية والعسكرية مع السلطنة العثمانية .

لكن الحاكم البرتغالي الجديد لم يبق في الحكم طويلاً إذ قامت الحكومة البرتغالية باستبداله بحاكم آخر هو (دون جوان دي كاسترو DOM JOAO DE CASTRO) وكان ذلك بتاريخ ١ / ٩ / ١٥٤٥ م .

* * *

أما المشكلات التي واجهت الحكم العثماني في كل من العراق واليمن وهما الدولتان الاستراتيجيتان المهمتان جداً في قصة النزاع البرتغالي ، العثماني فقد كانت كثيرة .

ففي العراق ، بدأ أن السنوات العشر التي تلت سقوط بغداد بيد العثمانيين كانت مليئة بأحداث الساحة الأوربية وهي التي شغلتهم وجعلتهم غير مكثرين بولايات العراق النائية ومنها ولاية البصرة ، التي كانت كما أشرنا سابقاً حكومة محلية بزعامة الشيخ راشد بن مغامس آل عليان ، الذي أعلن الولاء للسلطان العثماني . إلا أن العثمانيين ورغم أهمية البصرة بالنسبة لعدوهم المتحالفين وهما الدولة الفارسية الصفوية والدولة البرتغالية وما أدى ذلك التحالف إلى أن يقع مدخل الخليج بقبضة البرتغاليين ، لكن الدولة العثمانية لم تضع الثقل الواجب عليها وضعه في البصرة ، بل اكتفت بالاعتراف بسلطة راشد بن مغامس كحاكم هناك بشرط أن يقوم بسك النقود التركية وأن يخطب في الجوامع للسلطان العثماني ، لذا لم يكن ارتباطه الإداري أو المالي بوالي بغداد إلا شكلياً .

وعليه فإن شيوخ العشائر المتنفة في منطقة البصرة استخفوا بحكومة السلطان العثماني في بغداد ، وعمدوا إلى قطع العلاقة معها واتباع وسائلهم القبلية في معالجة ظروفهم ، بأسلوب السيطرة على مصادر الثروة في المنطقة ، لذا فإن البصرة أصبحت مركزاً للشيوخ العصابة وماوى للخارجين على القانون . وفي رواية أخرى ، أن سوء الأوضاع في البصرة وجنوب العراق كان سببه أن الشيخ مانع بن راشد بن مغامس الذي استلم السلطة بعد وفاة والده ، اضطر إلى التنازل عن الحكم ، فسادت الفوضى في المنطقة وبرز اسم لزعامه جديدة هناك هي زعامه آل قشعم الذي كان شيخهم يسمى (شيخ العراقيين) أي شيخ الكوفة والبصرة والذي تحالف مع عدد من الشيوخ ضد السلطة العثمانية في بغداد^(٧) .

فلما بلغت الدولة العثمانية أبناء اضطراب الأمن في البصرة ، قرر أياس باشا والي بغداد تجريد حملة لإقرار النظام هناك . فخرجت الحملة عام ١٥٤٦م وأخضعت القبائل المنتشرة بين بغداد والبصرة ونجحت في إلحاق هزيمة بشيوخ العراقيين في منطقة الجزائر ودخل إياس باشا البصرة . وفي عام ١٥٤٩م حاول علي آل عليان كبير مشايخ منطقة الجزائر الثورة إلا أن والي بغداد (تمرد علي باشا) ، أرسل جيشاً أنكشارياً بقيادة محمد باشا البلطجي تمكن من القضاء عليها .

وكان من نتيجة تلك الأحداث أن السلطات التركية ، اكتشفت أهمية الدور الذي يمكن أن تلعبه البصرة وجنوب العراق من الناحيتين الحربية والتجارية وأن إحكام سيطرتهم وسلطتهم هناك تمكنهم من ضرب مصالح الحليفين البرتغالي والصفوي المتمركزين عند مداخل الخليج العربي^(٨) .

أما الموقف العثماني في اليمن ، فإنه لم يكن أحسن حالاً من العراق بل لعله أسوأ بكثير منه ، فالصراع بين أولاد الإمام الزيدي شرف الدين كان على أشده في عام ٩٢٥هـ - ١٥٤٦م ، وقد قامت الحكومة التركية باستبدال الوالي مصطفى باشا النشار

(٧) عماد أحمد الجوهري - المصدر نفسه - ص ٨٧ .

(٨) العراق في التاريخ - منشورات وزارة الاعلام العراقية - الفصل الأول - ص ٥٧٦ .

بوال جديد هو أويس باشا الذي أظهر رغبة في التعاون مع الإمام مطهر بن شرف الدين ضد إخوته ، إلا أن ذلك التعاون لم يستمر طويلاً إذ أغتيل أويس باشا بيد عناصر موالية للإمام مطهر فأوفدت الحكومة التركية والياً جديداً على اليمن هو أوزدمير باشا الذي قام بالاستيلاء على صنعاء مما دفع بالمطهر لأن يتصل بقائد مملوكي سابق من بقايا الحملة المملوكية المصرية الأولى اسمه حسن بهلوان ويتفق معه على مقاتلة أوزدمير باشا ، لكن الباشا التقى بالمطهر في أبواب صنعاء وأنزل به هزيمة فهرب المطهر إلى الجبال .

وعندما كان أوزدمير باشا منشغلاً بمقاتلة المطهر ، فإن ثورة قامت في حضرموت قادها الأمير علي بن حسين الطوالقي وولده محمد ، وتمكن الطوالقي من دخول عدن وطرده الأتراك منها وكان ذلك بتاريخ ٩٥٣هـ - ١٥٤٧م ، كما أرسل كتاباً إلى حاكم هرمز البرتغالي يطلب منه معاونته ضد الأتراك^(٩) .

تلك كانت الأوضاع الداخلية في كل من العراق واليمن إلى حوالي عام ١٥٥٠م تقريباً ، وهي أوضاع لم تكن خافية على السلطات البرتغالية ، ويمكن لنا معرفة دقة معلومات المخابرات البرتغالية التي كانت تقوم برصد الخلافات الداخلية والمشاكل التي تواجهها الدولة العثمانية ، من خلال الرسالة التالية التي أرسلها (دون مانويل دي ليما) حاكم هرمز إلى (دون جوان كاسترو) حاكم الهند ، مؤرخة في ٢٣ حزيران ١٥٤٧م ، وهي رسالة دقيقة تكشف عن الكثير من الأوضاع التي كانت سائدة في البصرة واليمن وموقف البرتغاليين من تلك الأحداث^(١٠) :

سيدي

لقد وصلت إلى هذا الحصن في هرمز يوم ١٨ مايس لكنني لم أتسلم المسؤولية لمدة شهر ، ذلك لأن (لويس فالكاو) رغب أن يستكمل فترة حكمه كحاكم ، لذا فقد

(٩) الدكتور السيد مصطفى سالم - المصدر نفسه - ص ١٨٠ . وكذلك الدكتور محمد عيسى صالحية - التدخل العثماني في اليمن - مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية - العدد ٢٤ ص ٩١ .
(١٠) الدكتور صالح أوزيوان - الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي (١٥٢٤-١٥٨١) ص ٦١ .

تسلمت المسؤولية في الحصن بتاريخ ١٩ / حزيران ، فوجدت أن المكان غير مريح جداً ولا يوجد أثر لتجارة التوابل أو أية تجارة أخرى والصناعة معدومة وأن كل من جاء للعمل في هرمز يُدهش لمثل هذه الحالة ، وفوق كل هذا فإن قائداً لحاكم جزيرة (لارا) موجود ومعه عسكر كثير وقد سيطر على آبار المياه التي تعتمد عليها هرمز ، وأن أهالي (موغستان) يخافونهم ، لذلك التجأوا إلى هذه المدينة ، ومن هنا تمر القوافل فيوقفها أهالي (لارا) الأمر الذي أدى بهم إلى أن يمتنعوا عن دفع الضرائب إلى الملك .

أما فيما يتعلق بالبصرة فانكم أعلم بأمرها ، فضلاً عن أنني سوف أخبركم عن اوضاعها بشكل اكثر . كان لويس فالكوا قد سمح لسفن معينة بالذهاب بتجارها إلى البصرة ، ومنذ وصولي إلى هرمز فإنه أيضاً سمح لبعض الأهالي أن يذهبوا بتسع سفن ، وقد علمت أن (بيلربي البصرة) واسمه محمد باشا مزع على ارسال رسول لي ، وقد وصل ذلك الرسول في ٩ / تموز حاملاً رسالة ، وهو تاجر عربي اسمه حاج فياض ، وهو رجل محترم كثيراً ومعروف بين البرتغاليين وأنا في سوف ارسل لكم ترجمة للرسالة التي كتبها (بيلربي) البصرة فيما بعد .

ومن جانبي فلقد تحدثت مع الحاج فياض في عدة مناسبات قال لي خلالها بأنني يجب أن أثق بأقواله وكان يقسم بالمصطفى بأن ما يقوله هو الصحيح ، ثم طلبت بواسطة (كريشنا دي ينها) مترجم الحصن أن يقسم عيناً عظيماً أمامي فأدى اليمين وقال بعد ذلك إن السبب الرئيسي لمحبيته إلى هنا هو ليكون صديقاً مخلصاً للبرتغاليين ثم حكى عن جميع الأمور التي يعرفها عن إياس باشا قائلاً إنه هو الرئيس الذي احتل البصرة ، وتحدث أيضاً عن محمد باشا الذي كان (بيلربي) البصرة كما أدلى بمعلومات مفيدة عن كافة المناطق ، وقال إن إياس باشا حاكم العراق يريد أن يجعل من البصرة بلداً تجارياً مزدهراً لأنها ستدر ريعاً عظيماً للسلطان العثماني ، إلا أن رستم باشا الصدر الأعظم لم يكن يرى ذلك لأنه يعتبر أن البصرة لا أهمية لها وأنها خربة ، لذلك فقد وقع الاختلاف بين إياس باشا ورستم باشا وأن إياس باشا يعمل جاهداً الآن كي

يثبت صدق قوله إن البصرة يمكن أن تكون مركزاً تجارياً مهماً للسلطنة العثمانية .

ولقد استفسرت من الحاج فياض عن حصن البصرة العسكري ، فقال لي إنه لم يحدث عليه تغيير وإن عدد جنود الحصن خمسمائة جندي مسلحون بالبنادق وهم في حالة استنفار دائم ولا يغادرون الحصن وفي خارج الحصن ، يوجد ألف جندي فارس وسبعمائة من المشاة وكلهم مسلحون بالبنادق ، كما يتوفر لديهم عشرة مدافع صغار أما في داخل الحصن فيوجد عدد من المدافع التي استولى عليها الأتراك عندما فتحوا الحصن وكان فيه أصلاً (٢٩٠) مدفعاً ، ستون منها برونزية وهناك حوالي (٢٥٠) باون بارود . وقد ترك إياس باشا بعد استيلائه على الحصن مائة مدفع صغير وثلاثة مدافع حصار كبيرة كان قد جلبها معه وأخذ البقية وعاد بها إلى بغداد .

وعندما استفسرتُ منه عن وضعية الاسطول التركي في السويس ، قال لي إن هناك (٤٤) سفينة من نوع (GALLEY) بعضها قد أتى من (ديو) عندما كان سليمان باشا الخادم هناك وهي جميعاً بحالة جيدة ، ثم سألته عن نوع السفن الموجودة في (مخا) ولماذا ذهبت إلى هناك ؟ . فقال لي إنها (١٤) سفينة بقيادة أويس باشا الذي ذهب إلى هناك لمقاتلة الإمام الزيدي ، غير أنه (أي الحاج فياض) لا يعرف أبداً ، كما أن أحداً في البصرة لا يعرف إذا كانت هذه السفن سوف تقلع إلى الهند .

ثم سألته عن نوايا إياس باشا ومحمد باشا وفيما إذا كانا ينويان عمل شيء ضد هرمز . فأجاب بأنه لا يعلم شيئاً عن مقاصدهما ، غير أن الأتراك يرغبون بإنعاش تجارة البصرة ، وأن الأتراك استدعوه كثيراً لمناقشته في هذا الصدد ، ولكنه لم يسمع منهم أنهم عازمون على مهاجمة هرمز وأنهم إذا أرادوا الهجوم على هرمز فإنهم في إمكانهم بناء سفنهم في نهر الفرات وذلك لوجود غابات عظيمة بالقرب من مدينة (بيره جيک) التي تبعد سبعة أيام عن البصرة ، ومن هذه الغابات يجلب الكثير من الخشب الجيد وهي تبعد يومين عن حلب أيضاً ، وقال إن هناك طريقتين من مدينة (بيره جيک) إلى البصرة ، أحدهما يسير عبر مدينة اسمها (الحله) ، والآخر يسير عبر بغداد .

والطريق الأخير يعتبر طريقاً مباشراً أحسن من الأول ، إلا أنه يتعرض إلى صعوبة عند جفاف مياه النهر ، عندئذ يصبح من الأفضل استخدام السفن الشراعية التي تسير عبر الحلة .

وقال لي الحاج فياض أيضاً إنه خلال هذه المدة قدم إلى البصرة رسول من السلطان العثماني حاملاً رسالة إلى محمد باشا وقد استغرق وصوله (٤٢) يوماً ، وقد أقسم لي الحاج فياض بأنه سيرسل لي من البصرة كل الأخبار التي يحصل عليها ، كما طلب مني أن أعطيه إشارات ورموزاً يمكن عن طريقها معرفة أخبار الأتراك في البصرة ، وأنه سيرسل لي المعلومات بيد أحد أولاده ، علماً بأن الحاج فياض هذا وابنه يزوران كل سنة حلب والاسكندرية ومناطق أخرى كثيرة ، لذلك فانهما يعرفان بالتأكد معلومات عن السلطان العثماني ، وقد قال لي بأنني يجب أن أثق بالمعلومات التي يزودني بها لأنه نفسه ينتسب إلى طائفة من الأتراك ولكنه من اتباع عقيدة مختلفة وأنه تاجر وقد أكد لي بأن محمد باشا يرغب بنوع من الصداقة معي وأن الأتراك ينظرون بلهفة إلى يوم وصولي إلى هرمز ، ثم أخبرني أن محمد باشا قام خلال فترة (لويس فاكوا) بالاستيلاء على منطقة الحسا وهو موضع على ساحل الجزيرة العربية ليس بعيداً عن البصرة ووضع عليه حاكماً عربياً .

وقد استفسرت من الحاج فياض فيما إذا كان ينصح أن أرسل موفداً أو ممثلاً عني إلى البصرة ، فقال لي أن هذا هو مطلب محمد باشا الرئيسي وقد أوفدني إليك لأجل هذا الغرض ، كما أن وجود ممثل عني في البصرة سيجعل أمر حركة القوافل التجارية ميسوراً ، لذلك فقد قُمتُ باستشارة عدد من وجهاء هرمز فجمعت ثلاثين رجلاً منهم وطلبت إليهم أن يقسموا بالكتاب المقدس أولاً ثم استشرتهم فيما إذا كان من مصلحة جلالة الملك أن يذهب ممثل برتغالي إلى البصرة ، أو أن نوفد أسطولاً إلى هناك ، وقد أشار لي هؤلاء بضرورة إرسال ممثل برتغالي ومعه عدد من السفن المحاربة إلى البصرة ، ليكون هذا الموفد على تماسٍ مع الأحداث ويمكنه أن يبلغني عن الأوضاع هناك أولاً

بأول . هذا علاوة على أنه يمكنه أن يزودني بالمعلومات عما يحدث في جبهة السويس أيضاً . ذلك أن البصرة مقصد التجار من القاهرة ودمشق وبيره جيک وحلب ، وعليه فإنه لا يوجد مكان أحسن منها لمعرفة نوايا الأتراك وما يقومون به ، هذا إضافة إلى أن عرب البصرة سيزودوني بالأخبار لأنهم أعداء للأتراك .

لذلك فقد قررت أن أبعث (دومنكوس باربودا) ومعه رسالة إلى الباشا رداً على رسالته . إن رسالتي ستكون منمقة الكلام ولا ألزم نفسي فيها بأية اتفاقيات أو التزامات وإنني سأقف ويدي على قبضة سيفي في انتظار ما يكتبه الباشا رداً على رسالتي ، إن (دومنكوس باربودا) هذا من هرمرز وذو سمعة جيدة وله مركز اجتماعي معروف بين التجار العرب وأهالي البصرة وله خبرة كبيرة في أحوال تلك البلاد ، إنني سأوفده على أن يبقى هناك مدة لا تزيد على ثلاثة أشهر ، رغم أن الأشخاص الذين استشرتهم يرغبون ببقائه مدة أطول هناك ، وفي خلال الأشهر الثلاثة هذه سوف يتسقط الأخبار من التجار القادمين من الاسكندرية والمناطق الأخرى ، لذلك فإنني اعتقد أنه الشخص الملائم لخدمتكم في البصرة .

لقد أخبرني شيوخ هذه البلاد أنه يأتي اليهم من البصرة سنوياً من ٦٠٠ - ٨٠٠ رأس خيل وهذه تذهب إلى (كوا) ، أما عن التوابل التي وردت هذه السنة من الهند ، فكانت قليلة جداً ، وأعتقد أنه يمكن تحريك تجارة التوابل ببيعها إلى تجار البصرة حيث إنهم يرغبون بالتجارة بها :

لقد طلب مني الحاج فياض أن أبلغكم بأن ثلاثة من أولاد أخيه هم جابر وشاكر وعباس كانوا قد سافروا إلى الهند ووقعوا بأسر (أنطونيو مويز) ، وهو يطلب مرحلة جلالة الملك باطلاق سراحهم وهو مستعد لقاء ذلك الاستمرار بتزويدنا بكل المعلومات التي يحصل عليها عن نشاط حكومة السلطان العثماني .

هذا وقد وردتني معلومات من مدينة قلعات العُمانية وبعض المصادر الأخرى ، بأن رجلاً اسمه عبدالله وصل من عدن وأخبرهم بأن قائداً تركياً ومعه اسطول مكون من

عشرين سفينة عليها ثلاثمائة جندي قد وصلوا إلى (مخا) ومعهم أوامر بالاستيلاء على اليمن والقضاء على الإمام الزيدي ، وكان ابن الإمام الزيدي قد قاد جميع جنود والده قبل مجيء الأتراك ، وكان هذا الابن على خلاف مع والده ، فعندما وصل الأتراك هاجموا قلعة مدينة تعز ، كما أنهم تمكنوا من السيطرة على خمسة موانئ أخرى ، إلا أن الابن عاد فاتفق مع والده وهاجم الأتراك فقتل أربعمائة من فرسانهم ، وقد أخبرهم عبدالله أيضاً أن عدداً من السفن التركية من نوع (FUSTAS) قد تمكنت من الوصول إلى قلعات ومسقط ، وأنه يوجد في عدن ثلاث سفن تركية ضخمة مسلحة تسليحاً جيداً ، لقد استطاع حاكم قلعات في مناسبات سابقة أن يمنع السفن التركية من الوصول إلى المدينة إلا أنه وفي حالة قيام الأتراك بهجوم بإثني عشر سفينة فإنه يجب إرسال النجدة لمساعدة حاكم قلعات ، كما يجب التعاون مع المسلمين المتحالفين معنا هناك ، إن الأخبار تقول إن الأتراك قادمون بعد مدة لا تزيد عن شهرين ونصف ولقد وصلتني معلومات أخرى عن (مخا) في اليمن نقلها إلي أحد تجار هرمز ، فقال إنه عندما كان هناك شاهد سبع أو ثمان سفن حربية تركية رست هناك لمدة ثلاثة أيام ، ولعلها هي السفن التي قدمت إلى قلعات ومسقط في السنة الماضية .

إنني اعتقد بأن هذه المعلومات قد تكون صحيحة لذلك فقد أمرت باعداد تسع سفن حربية موجودة في هرمز للتهيؤ للحركة إلى مسقط في نهاية هذا الشهر تموز لترسو هناك في انتظار وصول السفن التركية ، ولقد قمت بالكتابة إلى قادة المناطق هناك بتهيئة ما لديهم من سفن خفيفة التي بإمكانها أن تسع لـ (١٠) أو (١٢) برتغالياً ، كما يمكن وضع عدد من حملة الأقواس والنشاب فيها ، ولقد علمت أيضاً أن هناك (٤٠) أو (٥٠) جندياً برتغالياً في مسقط وصلوا إليها مؤخراً ، ويعد هذا أمراً جيداً إذ إن بإمكان هؤلاء الجنود أن يحاربوا بعون الرب السفن التركية إذا ما قدمت إلى مسقط وإن الله سيمنحنا النصر التام على السفن التركية .

ويبدو لي أنه من صالح خدمة جلالة الملك أن تبقى تلك السفن في مسقط وذلك

لحماية السفن التي تبخر من هرمز إلى الهند والتي يكون على ظهرها تاجران برتغاليان أو ثلاثة تجار وهم يحملون نقوداً كثيرة ، ولعل الأتراك يختطفونها إلى مخا إذا ما اكتشفوا النقود التي تحملها هذه السفن ، فإن هذا سيغريهم بالإغارة على مسقط كل سنة .

لقد أوكلت قيادة أسطول هرمز إلى (دوم بايو) ، ولسوف أرسل إلى منطقة رأس الحد في عُمان سفينتين حرييتين لرصد تحركات الأسطول العثماني ، فإذا علموا بقدومه من جهة اليمن ، أسرعوا بإبلاغ الأمر إلى الأسطول البرتغالي في مسقط . هذا من جهة ومن جهة أخرى فحتى لو لم يصل الأتراك فإن واجب السفينتين في رأس الحد هو مكافحة ما يقوم به (النواخذة)^(١١) ضد السفن البرتغالية ، فلقد تحطمت سفينة برتغالية محملة بالبضائع التجارية الفاخرة عندما كانت في طريقها من جزيرة مصيره إلى هرمز فهاجمها النواخذه وقتلوا البرتغاليين الذين كانوا على ظهرها ولم يتركوا أحداً ما عدا (اندرية كورتس) وزوجته وإحدى بناته إذ أفلحوا بالهرب رغم أن أندريه كان مصاباً بثمان سهام كما أن النواخذه هاجموا طراداً مسلماً حاول نجدة البرتغاليين ، ولهذا السبب يجب أن يقوم الأسطول البرتغالي بغزو ونهب ساحل النواخذة وحرق أكبر عدد من سفنهم . إن الأسطول الذي سأرسله سيقوم بواجبين في آن واحد ، الأول مقاتلة الأتراك والثاني الإبحار إلى أي مكان يحدث فيه خطر .

سوف أكتب لجلالتكم عما يستجد من أحداث في هذه البلاد ، أقبل أيادي جلالتيكم متمنياً الرخاء لحياة مولانا الملك وازدهار أحواله .

من هرمز : في ٢٣ - حزيران - ١٥٤٧ . دون مانويل دي ليما . «

(١١) النواخذه . . جمع (نوخذه) أي القبطان ، وهي لفظة فارسية مستعملة عند عرب الخليج وجنوب الجزيرة العربية بنفس معناها الفارسي . . ويقصد الكاتب بهم عرب اليمن من أهالي الشحر الذين دأبوا على مهاجمة السفن البرتغالية .

الفصل التاسع والعشرون

- * مصادمات بين الدولة السعدية والسلطات العثمانية في الجزائر عام ١٥٥٠ .
- * العثمانيون يساعدون أبا حسون الوطاسي على احتلال فاس ثم ينقلبون عليه .
- * السلطان محمد الشيخ السعدي يهزم أبا حسون ويدخل فاس ثانية .
- * السلطان السعدي يعقد حلفاً مع اسبانيا والبرتغال لقتال العثمانيين .
- * مصرع السلطان السعدي عام ١٥٥٧ ومبايعة ابنه عبد الله الغالب بالله سلطاناً على الدولة السعدية .
- * ولادة الأمير دون سيباستيان ولي عهد البرتغال في ١٥٥٤/٧/٢٠ .
- * وفاة ملك البرتغال دون جوان الثالث في ١٥٥٧/٦/١١ .
- * السلطان عبد الله الغالب بالله ينزل هزيمة بالعثمانيين ويعقد معاهدة صداقة مع فرنسا .
- * ثورة مسلمي غرناطة عام ١٥٦٨ .
- * وفاة السلطان عبد الله الغالب بالله عام ١٥٧٤ وولاية ابنه محمد المتوكل .
- * الملك دون سيباستيان يضع الخطط العسكرية لمهاجمة معقل الاسلام وتدمير الدولة السعدية المغربية .

ذكرنا في الفصل السابع والعشرين من هذا الكتاب أن الأمر في المغرب العربي استقر للدولة السعدية بقيادة السلطان محمد الشيخ السعدي ، وكان ذلك في عام ١٥٤٩م تقريباً .

وقد تمكن السلطان السعدي من السيطرة على معظم بلاد الريف والمغرب الشرقي المجاور للجزائر والتي كان الأتراك العثمانيون قد بسطوا سيطرتهم على منطقة (تلمسان) الحدودية المجاورة لمناطق السعديين هناك ، مما أدخل الرعب في قلوب الأسبان والبرتغال وجعلهم يترقبون قيام تعاون بين القوتين الإسلاميتين ضد مراكز الاحتلال في كل من الجزائر والمغرب . ويبدو ذلك واضحاً من الكتب التي بعثها السلطان السعدي إلى باشا الجزائر يقترح عليه القيام بعمليات عسكرية مشتركة لفتح وهران والمرسى الكبير . لكن الأتراك العثمانيين كانوا يرون أن ضم المغرب إلى ممتلكاتهم هو هدف مهمٌ بدعوى توحيد القوى الإسلامية في شمالي أفريقيا ضد الأخطار الإسبانية والبرتغالية ، لذلك فإنهم دفعوا بقواتهم داخل المغرب ووصلوا إلى مدن (دبدو) و(وجدو) .

لم ترق تلك الأوضاع للسلطان محمد الشيخ السعدي الذي كان حريصاً على تقوية المنطقة الشرقية للمغرب لاستراتيجيتها ، ولم يستطع أهل المغرب التسليم بالوجود العثماني بذلك الشكل ، لذلك فإن السلطان السعدي لم يتوان عن نجدة الأمير أحمد بن عبد الله الزياني حاكم مدينة (تلمسان) الجزائرية التي أخرجه منها الأتراك ، فاستقبل وفداً من المدينة يحثه على انتزاعها من يد العثمانيين . لذلك قام بتجهيز حملة عسكرية من ثلاثين ألف مقاتل أودع قيادتها إلى ولديه محمد الحمران وعبد الرحمن . وفي شهر ابريل من عام ١٥٤٩م انطلقت القوات المغربية نحو شرقي البلاد ، ولم تلق مقاومة تذكر لذلك فقد تمكنت من احتلال تلمسان في ٩/٦/١٥٥٠م ، إلا أن رد الفعل التركي على سقوط المدينة كان قوياً ، إذ سرعان ما بعث والي الجزائر العثماني حسن باشا حملة عسكرية كبيرة بقيادة القائد حسن كورسو التقت في معركة مع السعديين في شهر شباط من عام ١٥٥١م في تلمسان ذاتها وأنزلت هزيمة بالجيش المغربي انتهت بمقتل الأمير عبد الرحمن وقطع يد أخيه بعد أسره^(١) .

(١) الدكتور عبد الكريم كرم - المصدر نفسه - ص ٧٧ . وكذلك الدكتور إبراهيم شحاته حسن - المصدر نفسه - ص ١٠١ .

وهكذا وبدلاً من أن يجري تنسيق واتحاد بين القوى الإسلامية الممثلة بالدولة العثمانية في الجزائر والدولة السعدية الناشئة في المغرب ، فإن حرباً وقعت بين الطرفين . وقد استغل أعداء الدولة السعدية ذلك العداء فقد ثار السلطان السعدي السابق أحمد الأعرج ضد أخيه محمد الشيخ . كما أن أبا حسون وهو الزعيم الوطاسي السابق الذي كان قابلاً في جزيرة اسمها باديس ، وهي جزيرة صغيرة تقع أمام شاطئ المغرب الشمالي وتقع قرب مدينة باديس ، راح يكتب إلى ملوك الأسبان والبرتغال في طلب النجدة لقاء التعاون معهم . لكن السلطان السعدي لم يفت في عضده انهزام قواته أمام العثمانيين وسرعان ما جرد حملة ضد أخيه السلطان السابق هزمه فيها ، ثم جرد حملة ضد (دبدو) التي حاول المولى عمر الاستقلال فيها . وشهد عام ١٥٥٢م أحداثاً جديدة في المنطقة عندما وافق الملك البرتغالي (دون جوان الثالث) أن ينجد الثائر أبو حسون ، فأرسل في أوائل شهر سبتمبر من ذلك العام قوات بحرية نزلت في (جسيمة) غير أن الأسطول العثماني سرعان ما أسر السفن البرتغالية بعد معركة جرت بين الطرفين وسبق الجميع أسرى إلى الجزائر .

فتحت تلك الحادثة عين السلطنة العثمانية في استانبول وقررت إجراء مصالحة مع السلطان السعدي ، فبعث السلطان سليمان القانوني برسالة إلى السلطان السعدي مؤرخة في أول رجب ٩٥٩هـ أي كانون الثاني ١٥٥٢م يخبره فيها بعزل حسن باشا عن ولاية الجزائر وتعيين صالح ريس باشا حاكماً هناك ، وقد جاء في تلك الرسالة ما يلي : « بلغ إلى سمعنا الشريف أن أمير الأمراء بولاية الجزائر سابقاً حسن باشا لم يحسن المجاورة مع جيرانه ومال إلى جانب العنف والاعتساف ونبذ وراء ظهره طرق الوفاق والائتلاف وسد باب الائتلاف مع المجاهدين حماة الدين ، لذلك بدلناه بغيره ، فأنعمنا بولاية الجزائر على مملوك حضرنا العلية صالح باشا ، وأمرناه أن ينظر إلى أحوال المسلمين بكمال العدالة وحسن المكارم ، وأن يكون مع أهالي الإسلام على أكمل اتحاد وأجمل اتفاق لقمع الكفره الفجره المتمردين »^(٢) .

(٢) المصدران السابقان نفسهما - ص ٧٩ و ١٠٤ .

لكن الأمور لم تَجَر حسبما ذكرها السلطان العثماني برسالته إذ ما إن وصل صالح باشا إلى الجزائر في إبريل ١٥٥٢م حتى دخل في مفاوضات سرية مع أبي حسون الوطاسي والمولى عمر والي (دبدو) السابق ، وقبل أن ينتهي عام ١٥٥٣م احتلت القوات التركية مدينة (تازة) المغربية واشتبكت مع السعديين بمعارك مستمرة حتى احتلت العاصمة (فاس) يوم ٨ / ١ / ١٥٥٤م ، فهرب السلطان محمد الشيخ ، بينما دخلها أبو حسون الوطاسي وأعلن عن عودة الحكم الوطاسي إلى البلاد . وباستقرار أبو حسون بفاس والمولى عمر بدبدو ، ساد النفوذ التركي في شرقي المغرب ومناطقة الوسطى ، فازداد فرع الاسبان والبرتغاليين من ذلك وأرسل ملك البرتغال رسالة إلى الأمبراطور الاسباني (شارلكان) يحثه على التدخل في المغرب للحيلولة دون توطيد الأتراك لأقدامهم في تلك البلاد .

إلا أن الأتراك لم يكونوا مهتمين آنذاك بقتال الوحدات البرتغالية والاسبانية المعشعة في المغرب ، بل فعلوا مثلما فعلوا باليمن فلم يوفوا بالعهد مع أبي حسون الوطاسي واغتنموا الفرصة للإطاحة به وإعلان البيعة للسلطان سليمان القانوني ، فهاجموا مدينة فاس بغية قتل أبا حسون ، لكن أبو حسون استطاع أن يصمد أمام الهجوم بل إنه أنزل بهم هزيمة وراح يطارد فلولهم وتعقبهم إلى الحدود حيث عادوا إلى قواعدهم في الجزائر . وهكذا انتهت فتنة التدخل العثماني في المغرب .

وبجلاء القوات التركية من فاس ورجوعها إلى الجزائر أصبح أبو حسون يواجه خصمه السلطان محمد الشيخ السعدي الذي جمع قوات هائلة لاستعادة فاس فالتقى الجمعان في ٢٣ / سبتمبر / ١٥٥٤م ودارت الدوائر على أبي حسون الوطاسي ، فقتل في المعركة وانهزم جيشه ، وبعد ذلك التفت السلطان السعدي إلى أخيه الثائر أحمد الأعرج وأنزل به هزيمة أخرى واعتقله ، وبمقتل أبي حسون الوطاسي وأسر السلطان السابق أحمد الأعرج ، استقرت الأوضاع الداخلية نسبياً للسلطان محمد الشيخ السعدي (٣) .

(٣) الدكتور عبد الكريم كريمة - المصدر نفسه - ص ٨٢ .

شكّلت حادثة عودة السلطان السعدي إلى فاس نقطة تحول في تاريخ الدولة السعدية الناشئة ، فلقد ظهر كخصم عنيد للأتراك ولسياستهم التوسعية ، بل الأكثر من ذلك أنه أعلن إثر دخوله فاس منتصراً بأنه عازم على الذهاب إلى الجزائر لمنازلة الأتراك هناك ، وتمادى في عدائه للعثمانيين إلى الحد الذي جعله يكتب إلى قائد حامية بلدة (مازكان) البرتغالي (الفارو دي كارفالهو ALVARO DE CARVALHO) يطلب منه مساعدة ملك البرتغال لقتال الأتراك .

وقد أرسل ملك البرتغال رسالة جوابية إلى السلطان السعدي يوافق فيها على مساعدته مقابل تسليم بعض المراكز المغربية مثل بادس وبنيون والعرائش ، وتموين القوات التي سيرسلها لمساعدته ، ويؤكد على ضرورة إخبار الأمبراطور الإسباني بذلك . ونتيجة لهذا التقارب فقد عقدت هدنة بين السعديين والبرتغال لمدة ستة أشهر وكان ذلك في مطلع سنة ١٥٥٥ م ، كما قام موفد من السلطان اسمه المزوار المنصور أبو غانم بمقابلة حاكم (وهران) الإسباني في الجزائر ، ووافقت اسبانيا على مساعدة السعدي فأرسلت وفداً إلى فاس اجتمع بالسلطان ويوفد برتغالي لوضع خطه لتهيئة حملة مشتركة ضد الأتراك^(٤) .

وصلت أنباء التقارب السعدي - البرتغالي - الإسباني إلى مسامع الأتراك فقرر هؤلاء استعمال الحكمة في معالجة الأمر وأرسلو للسعدي وفداً يفاوضه على الصلح ويعدّه بمساعدة السلطان سليمان القانوني لمحاربة الأوربيين بشرط أن يعترف بالسلطة العثمانية وأن يضع اسم السلطان العثماني في سكتته . إلا أن السعدي لم يوافق على ذلك بل صرف الموفد قائلاً له : « اذهب وسلّم على أمير القوارب سلطانك ، وقل له إن سلطان المغرب لا بدّ أن ينازعك على محمل مصر ، ويكون قتاله معك عليه إن شاء الله ويأتيك إلى مصر ، والسلام » .

وقد أكد هذا الجواب للسلطان العثماني صحة تواطؤ السعديين مع الأسبان والبرتغاليين ، الأمر الذي جعله يعزز قواته في الجزائر من جهه ومن جهة ثانية راح

(٤) الدكتور عبد الكريم كريم - المصدر نفسه - ص ٨٨ . ود . يراهيم حسن شحاته - المصدر نفسه ص ١٢٥ .

يضع خطة لاغتيال السلطان السعدي ، وقد نجحت خطة السلطان العثماني في اغتياله وذلك بسبب وجود حرس خاص من الأتراك عند السلطان السعدي ، وكان هؤلاء الأتراك موجودين في قاس عندما اقتحمها السلطان السعدي ، فأظهر هؤلاء الولاء والطاعة له ، فجمعهم وضمهم إلى عسكره وكانوا نحو الأربعمئة وقائدهم (صالح آغا) وأنعم عليهم وجعلهم الحرس السلطاني الخاص به ، إلا أن السلطان العثماني استطاع التأثير على مجموعة من هؤلاء الحرس فدبروا مؤامرة لاغتيال السلطان محمد الشيخ السعدي ، ونجحوا في قتله وكان ذلك في يوم الأربعاء ٢٧/ ذي الحجة / ٩٦٤ هـ - أي ٢٣/ أكتوبر / ١٥٥٧ م . وبويع من بعده ولده المولى عبدالله ، فصار اسمه السلطان عبدالله الغالب بالله ، كما يعرف أيضاً باسم الشريف السعدي وهي التسمية التي صارت تُطلق على ملوك الدولة السعدية بصورة عامة^(٥) .

* * *

ومن المفيد أن نتوقف هنا برهة عن ذكر أخبار المغرب العربي لنلتفت الفتاة سريعة إلى أخبار البرتغال في تلك الاعوام ففي ٢٠/ يوليو / ١٥٥٤ م ، ولد في القصر الملكي البرتغالي (دون سيباستيان) ابن الأمير جان ابن الملك جوان الثالث ملك البرتغال ، وكان والد سيباستيان قد توفى وأمه حاملاً به ، أما أمه فهي الأميرة دونا جوانا أخت الملك فيليب ابن الملك شارل كان ملك اسبانيا . إذن فولد البرتغال الجديد هو ابن أخت ملك اسبانيا فيليب وهو أيضاً وريث عرش سلالة أفيز البرتغالية الحاكمة ، وعند إعلان نبأ المولود الجديد احتفل البلاطان البرتغالي والاسباني بهذا الحدث . وعندما توفى ملك البرتغال دون جوان الثالث في يوم ١١/ ٦ / ١٥٥٧ م ، كان الحفيد الأمير سيباستيان لم يتجاوز الثالثة من عمره ، فقد آل العرش البرتغالي إلى أمه الاسبانية الأميرة جوانا ، لكن هذه كانت ضعيفة القوى وتعيش على ذكرى زوجها ، فقررت أن تتنازل عن العرش لمصلحة أرملة الملك دون جوان الثالث وهي الملكة دونا كاترينا وهذه أيضاً من أصل اسباني ، فهي أخت الملك شارل كان ملك اسبانيا السابق .

(٥) المصدران السابقان والصفحتان نفسيهما .

وهكذا قررت العاهلة الجديدة للبرتغال أن تقوم أولاً بإدارة شؤون المملكة والأمبراطورية البرتغالية على أحسن وجه ، وثانياً وهو الأهم ، السهر على تنشئة وتربية ولي العهد لكي يصبح الملك الجديد الذي يحمل لقب أجداده أسرة أفيز . فكتبت لأخيها شارل كان ملك اسبانيا السابق وابنه الملك فيليب وهو خال سياستيان ألايخالا عليها بالمساعدة والنصائح ، ومن جهة أخرى كتبت إلى البابا تطلب منه إرسال مربين أكفاء إلى لشبونة من أجل السهر على تربية الوريث الفتى (دون سياستيان) .

لكن هذا الوريث الجديد كان يحمل نبوءة قديمة قيلت للملك ألفونس مؤسس مملكة البرتغال وقد تناقلتها الأجيال البرتغالية على كل شفة ولسان وتقول هذه النبوءة : « إن الله كان قد وعده بضممان نسله ، بحيث لا يفقد قط على الأرض ، غير أن محناً وشدائد سوف تحل بمججيء نسله السادس عشر » أي الوليد الجديد دوم سياستيان .

وهي النبوءة سوف تتحقق عام ١٥٧٨ م كما سنرى في تفاصيل الأحداث في الفصول القادمة^(٦) .



أما بالنسبة لأحداث المغرب العربي فإن السلطان عبدالله بن محمد الشيخ (الغالب بالله) قد بويع بفاس عندما بلغه خبر مقتل والده وكان عليه ولكي تستقر الأحوال الداخلية أن يأخذ بثأر أبيه من قتلته الأتراك ، فقصد مراكش وانتقم من الأتراك الذين دبروا المؤامرة . إلا أن حكمه سجل بداية لأزمات سياسية طويلة أدت إلى تضارب عنيف بين أفراد الأسرة السعدية المالكة ، في الوقت الذي استمرت الأخطار الخارجية تأتي من دول البرتغال واسبانيا والسلطنة العثمانية .

ابتدأ الغالب بالله حكمه بمذبحة راح ضحيتها عدد كبير من خصومه السياسيين واعوانهم ، وقد قام بها عامل مراكش علي بن أبي بكر أزنالك ، وأعقب تلك المذبحة ثورات انفصالية قام بها إخوته وبعض حكام الإمارات المؤيدة لهم ، وبدأ أن سبب

(٦) يونس نكروف - معركة وادي المخازن - ترجمة د . وفاء فارس وحسين حيدر - ص ٨ .

ثورات الإخوة كانت بسبب ولاية العهد ، إذ يبدو أن نظام تسلسل الخلافة المقرر عند السلالة السعدية ، هو أن يؤول حق وراثة العرش للفرد الأكبر سناً في العائلة ، إلا أن السلطان عبدالله الغالب خالف هذه القاعدة المتفق عليها ، وأعلن ابنه الصغير المولى محمد وريثاً للعرش ، فكان هذا القرار مجحفاً بحق أعمام الوريث الجديد وإخوته الأكبر منه أيضاً .

فشهد عام ١٥٥٨م ثلاث ثورات في آن واحد إثنان قام بها إخوته وهم المولى عثمان الذي ثار في منطقة السوس ، والمولى عبدالمؤمن الذي ثار في مراكش ، إلا أن الغالب بالله تمكن من إحباط تلك الثورات وأنزل هزائم بأخوته ، مما دفع باثنين من أعمامه وهما عبدالمالك وأحمد أن يهربا إلى الجزائر وهناك التحق بهم الأخ عبدالمؤمن أيضاً وطلبوا اللجوء السياسي عند السلطات العثمانية في مدينة (تلمسان) في الجزائر .

أما حاكم منطقة (دبدو) السابق وهو المولى عمر فقد هرب إلى الجزائر وتمكن من اقناع الوالي التركي بمساعدته ، فقام الوالي بتجهيز جيش تقدم به نحو المغرب ، فتصدى له الغالب والتقى الطرفان في يوم السبت ٢ / ٤ / ١٥٥٨م في مكان قرب (وادي اللبن) حيث دارت الدوائر على القوات العثمانية فانهزمت وتراجع والي الجزائر التركي وحاكم دبديو نحو مدينة بادس . ويذكر المؤرخون أن النصر المغربي تم بالتعاون والتنسيق ما بين قوات الغالب المغربية والقوات الاسبانية الموجودة في الجزائر ، ويؤيدون قولهم هذا بأنه وبعد هزيمة الأتراك فإن حاكم مدينة وهران الاسباني حاول اغتنام الفرصة لكسب نصر عسكري في الجزائر ، فقام بهجوم مفاجيء ، إلا أنه مني بهزيمة أمام العثمانيين .

وعلى كل حال فقد خرجت صورة عبدالله الغالب بلامح تتصف بالعنف والميل إلى سفك الدماء ضد أفراد عائلته وضد معارضيه ، كما تبين أن سياسته الخارجية كانت ترمي إلى مقاومة التوسع العثماني في المغرب بالاستعانة بأعدائهم الاسبان والبرتغال وذلك عن طريق مهادنتهم والمحافظة على السلم معهم والاستجابة إلى

مطالب الدول الأوربية ، ومنها عقدهُ معاهدة مع فرنسا في شهر يوليو ١٥٥٩م تقتضي بتنازله عن ميناء (المرسى الصغير) للفرنسيين مقابل مده بالأسلحة والعتاد الحربي وإرسال وحدة عسكرية فرنسية تكون بمثابة الحرس الخاص له ، كما تنظم المعاهدة التجارة بين البلدين وتقر حالة السلم بينهما^(٧) .

إلا أن الأحوال تغيرت عام ١٥٦٢م إذ شهد صداماً مسلحاً بين القوات المغربية التي كان يقودها الأمير محمد بن الغالب بالله والقوات البرتغالية الموجودة في مدينة (مازكان) وتمكن الأمير من إحكام الحصار حولها لمدة شهرين وأوشك المجلس الملكي البرتغالي أن يصدر أمراً بإخلاء المدينة ، لولا أن السلطان الغالب بالله أصدر أمراً بفك الحصار عنها ، بل وافق على أن تبقى بيد البرتغاليين كما أطلق يد الاسبان في احتلال جزيرة بادس خوفاً من أن يتخذها الأتراك قاعدة لعملياتهم العسكرية ضد المغرب لذا فقد قام الاسبان بمساعدة البرتغاليين باحتلال بادس عام ١٥٦٤م .

ويجب التأكيد هنا على أن أقوال المؤرخين الذين أرخوا لأيام الغالب كانت غير منسقة وغير واضحة إلا أنه يغلب عليها القول إن الغالب هادن الدول الأوربية بدافع الخوف من الخطر العثماني ، لأن المعارضين لحكمه ذهبوا إلى العثمانيين الموجودين في الجزائر ، خاصة عبد الملك الذي تلقب بلقب (المتعصم بالله) وراح يدعو إلى إسقاط حكم أخيه متهماً إياه بالتعاون مع الدول المسيحية ، وتبذيره أموال الدولة في بناء المباني والقصور الفخمة وانغماسه في الترف والملذات . ويوجه المؤرخون إتهاماً آخر إلى الغالب بالله وهو تقاعسه عن نجدة الأندلسيين في ثورتهم بغرناطة عام ١٥٦٨م ، فقد ثار المسلمون هناك عندما أصدر الملك فليب ملك اسبانيا قوانين جائرة بحقهم ، فهدم حماماتهم وجوامعهم وأتلف ثيابهم وأمر برفع الحجاب عن وجوه النساء وعدم التحدث بالعربية وترك أبواب منازلهم مشرعة ليلاً نهاراً لمدة ثلاثة أيام . فقام المسلمون بثورة بقيادة (دون فرناندو دوفالور) الذي استرجع اسمه العربي الأصلي محمد بن أميه ، وأطلق على ثورته اسم (البشارات AL-PUCHARRAS) ،

(٧) د . عبد الكريم - ص ٥٧ . ود . ابراهيم شحاته - ص ١٤٣ .

وسجل رجال الثورة نجاحات باهرة إلا أن فيليب الثاني تمكن منهم وسحق ثورتهم .

وقد ثبت فيما بعد أن هؤلاء المسلمين حاولوا نيل المساعدة من الغالب بالله ومن الأتراك فلم يقم أحدٌ من هؤلاء بنجدتهم ، لذلك فلقد كانت النكبة التي حلت بهم عظيمة إذ إن من نجا منهم من عقاب الملك فيليب فقد انتهى هائماً علي وجهه في المناطق الجبلية الوعرة والوديان السحيقة إلى أن مات^(٨) .

لكن أهم ما حدث بالنسبة لتلك الثورة الإسلامية في اسبانيا هو أنها قامت في السنة التي بلغ فيها (دون سيباستيان) سن الرشد وتم تتويجه ملكاً على عرش البرتغال الملك (دون سيباستيان الأول ملك الأمبراطورية البرتغالية) ، وكان في الرابعة عشرة من عمره ، ولم يكن بعيداً عن أخبار ثورة المسلمين في غرناطة فقد تتبع سير العصيان المسلح وتحركه بحذافيره ولاحق الأعمال العسكرية التي مارستها القوات الاسبانية للتخلص من المسلمين ، وعلى الرغم من ثبوت عدم تورط السلطان المغربي الغالب بالله بمساعدة مسلمي غرناطة ، لكن الملك سيباستيان كتب إلى خاله ملك اسبانيا يعلمه فيه بأن لديه معلومات تفيد بأن الغالب بالله وابنه محمد كانا يرغبان في الاستفادة من عصيان غرناطة وقال له إنه يعد الآن ثمانية آلاف فارس لمهاجمة مدينتي سبته وطنجه ، وإنه مع رأي الكنيسة الاسبانية بأن الحل الوحيد للتخلص من هؤلاء الكفار ، أعداء المسيح هو قتلهم وإفناءهم بشكل نهائي . وعندما قام بزيارة لأرجاء مملكته بعد تتويجه التقي بمجموعة من الرهبان وجنود هيكل الرب وأمضى عدة خلوات عندهم ، وأجرى معهم الأحاديث والمناقشات حول الانقسامات والضعف الذي أصاب المسيحية والهجمات التي يقوم بها المسلمون من كل حذب وصوب ، وفي ختام الحديث سألهم سيباستيان مستفسراً : « هل أنتم مستعدون للموت في حب يسوع . ؟ » .

(٨) عادل سعيد بشتاوي - الأندلسيون المواركة - ص ١٥٠ .

فأجابه المجتمعون : «قسماً بالله إننا مستعدون دائماً أيها الملك ، في سبيل
الانقضاء على الحيوان الكافر وإبادته » .

وفي أثناء طريق العودة إلى لشبونه ، كان يتمتم بشيء أثار فضول أحد الرهبان
فسأله : « يا صاحب الجلالة أية صلاة تتلو . . ؟ » .

فأجابه : « لا ، هذه ليست صلاة ، إنها أقوال المسيح الواردة في الإنجيل القديس حنا ،
هذه الأقوال هي بالنسبة لي بمثابة القرار والأمر ! » .

ثم أخذ يستظهر بصوت خافت : « أنا الدالية وأنتم عودها ، ومن لا يكون في
داخلي سيرمى به خارجاً كمثّل عيدان الكرمة ويجف ثم تجمع هذه العيدان ويرمى بها
في النار فتحرق . »

وتابع يهمس : « أجل بالنار والحديد ، بنار المدافع والبنادق ويحد السيف . »^(٩)

وهكذا قرر هذا الملك الصغير أن يكون القائد الذي يدفع بجيوشه ضد معاقل
الإسلام لتهديمها ، كما قرر أن يكون عام ١٥٧٠م بداية لتشكيل حملة كبرى يكون
هدفها الأول هو سحق وتحطيم أول ممالك المسلمين ، وهي المملكة المغربية . وعندما
كان يقوم بالإعداد لتلك الحملة التي ستقلب وجه التاريخ البرتغالي فإن السلطان
عبدالله الغالب بالله انتقل إلى رحمة الله في شهر يناير من عام ١٥٧٤م ، فآل العرش
إلى ابنه مولاي محمد حاكم فاس فصار سلطاناً على المغرب ، وتلقب بلقب محمد
المتوكل^(١٠) .

(٩) يونس نكروف - المصدر نفسه - ص ٤٠ إلى ٤٧ .

(١٠) الدكتور عبدالكريم - المصدر نفسه - ص ٩٥ .

الفصل الثلاثون

- * فشل ثورة الطوالت في اليمن ضد الأتراك .
- * تعيين دون افونسو دي نورونها نائباً لملك البرتغال في الهند عام ١٥٥٠م .
- * أهالي (ظفار) ينزلون هزيمة بقوة برتغالية ويقتلون قائدها .
- * حملة دي نورونها إلى الخليج العربي تهزم الأتراك وتصل إلى البصرة .
- * حملة بيري بيك ريس إلى الخليج عام ١٥٥٢ .
- * بيري بيك يطوق هرمز ثم ينسحب إلى البصرة ومنها إلى مصر حيث قرع أعلامه هناك بتهمة الخيانة العظمى .
- * سيدي علي ريس يخفق في اقتاذ الأسطول العثماني المحاصر في البصرة .
- * دون بيرو دي ماسكرينهاس يصبح نائباً للملك في عام ١٥٥٤ .
- * دون قسطنطين دي بارغاترا يصبح نائباً للملك في عام ١٥٥٨ ومصرع القائد دون جوان دي نورونها .
- * الإمام المطهر شرف الدين الزيدي يحتل عدن عام ١٥٦٢ ويوحد اليمن ويتعاون مع البرتغاليين .
- * وقته سريعة على الأحوال السياسية داخل عمان .

قلنا في صفحات الفصل الثامن والعشرين إن أوضاع الأتراك لم تكن مستقرة في البلدين اللذين يمكن أن يتخذاهما كأحسن فكي كماشه لتطويق البرتغاليين والقضاء على نشاطهم في الخليج العربي وبحر العرب . وهما العراق وحضرموت ، أو بصورة

أدق البصرة في العراق وعدن في حضرموت .

لكن سوء الإدارة التركية في البلدين دفعت بزعميين من زعمائها كل إلى الثورة في بلده ضدهم والتعاون وطلب النجدة من البرتغاليين . ففي عام ١٥٤٧م قام أحد زعماء قبيلة الطوالق في اليمن وهو الأمير علي بن حسين الطوالقي بثورة ضد الأتراك ، ، وتمكن من احتلال عدن وطردهم منها ، ومن هناك أرسل إلى السلطات البرتغالية كتاباً يطلب منهم مساعدته .

وفي البصرة قام شيخ متنفذ آخر ، لم تذكر لنا صفحات التاريخ اسمه ، بالثورة ضد الأتراك أيضاً وأرسل إلى البرتغاليين كتاباً يطلب النجدة ويعددهم بالتحالف والموافقة على إقامة قاعدة حربية برتغالية في البصرة وتجنيد عدة آلاف من أنصاره لمساعدتهم عسكرياً إن هم ناصروه .

وقد وافقت الحكومة البرتغالية على نجدة الطوالقي أولاً ، فأوعزت إلى حاكم هرمز أن يقوم بذلك ، فأرسلت سلطات هرمز قوة بحرية بقيادة القائد (دون بايو دي نورونها DOM PAYO DE NORONHA) ، بلغ تعدادها ثلاث سفن حربية ، ولما وصلت تلك القوة إلى مشارف عدن ، علم (دي نورونها) بأن ثورة الطوالقي قد فشلت ، وأن فرهاد باشا حاكم اليمن العثماني الجديد ، تمكن من اقتحام عدن وإلقاء القبض على الطوالقي وإعدامه ، وحاول (دي نورونها) أن يقوم بإيجاد موطيء قدم له على أرض اليمن فأنزل قوة صغيرة لتكون رأس جسر له لقتال الأتراك ، إلا أن الأتراك كانوا أسرع منه ، فهاجموا تلك القوة وأنزلوا بها هزيمة دفعت بالقائد البرتغالي إلى الهرب عائداً إلى هرمز^(١) .

وفي عام ١٥٥٠م تم تعيين نائب جديد للملك البرتغال هو (دون أفونسو دي نورونها DOM AFFONSO DE NORANHA) الذي ما إن استقر في (كوا) حتي أمر بتشكيل حملتين ، واحدة تذهب إلى البحر الأحمر لقتال الأتراك الذين هزموا قوة (دون بايو) ،

(١) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٤١٢ . وكذلك SARJENT - المصدر نفسه ص ١٠١ .

والثانية إلى الخليج العربي لمعالجة الأوضاع هناك ونصرة شيخ البصرة .

تشكلت قوة البحر الأحمر بقيادة القائد (لويس فيغارو LUIZ FIGUIRA) الذي غادر الهند ووصل إلى هرمز ومنها توجه الى الساحل العُماني ، وما إن وصل إلى سواحل (ظفار) حتى خرجت له قوة لم تذكر المصادر البرتغالية جنسيتها فيما إذا كانت تركية أم عربية ، والأغلب أنها لأهل (ظفار) تصدت له واشتبكت معه في معركة قُتل على أثرها (لويس فيغارو) وتشتت شمل أسطوله حتى أن نائبه (كاسبار نونا) خاف من مغبة تلك الهزيمة فقرر أن يهرب من الخدمة العسكرية وفر بسفينته إلى الحبشة واختفي هناك . أما بقية القوة فقد عادت أدراجها مكسورة إلى الهند^(٢) .

أما حملة الخليج العربي فقد أودعت قيادتها إلى (دون أنطونيو دي نورونها DOM ANTONIO DE NORONHA) وهو ابن أخ حاكم الهند ، وتشكلت الحملة من (١٩) سفينة مقاتلة على ظهرها (١٢٠٠) جندي برتغالي وكانت أهدافها مقاتلة القوات التركية التي تحتل بعض أجزاء ساحل القطيف ثم التقدم نحو البصرة لمساعدة (الشيخ الثائر) ضد السلطات التركية العثمانية هناك . ولما وصلت الحملة إلى هرمز تم إضافة (٣٠٠٠) مقاتل هرمزي إليها .

كانت الحامية التركية الموجودة في القطيف لا تتجاوز الـ (٤٠٠) مقاتل عندما وصلها البرتغاليون ، وقد قاتل الأتراك ببسالة وتمكنوا من قتل اربعين برتغالياً ، إلا أنهم استسلموا في اليوم التالي ، وتقول بعض المصادر إنهم استسلموا بعد ثمانية أيام ، فدخل البرتغاليون والهرمزيون إلى الحصن ودكوه دكاً وأهلكوا كل من كان فيه ، ما عدا قائد الحامية (مراد بك) الذي تمكن من الهرب إلى العراق ، ثم أصدر القائد البرتغالي أوامره لأسطوله بالتوجه نحو البصرة ، ولما وصلها وجد أن (باشا البصرة) لم يتخذ استعدادات عسكرية لمقاتلته ، بل بالعكس فقد طلب الاجتماع به ومفاوضته سلمياً ، وقد انتهت المباحثات بين القائدين بموافقة (نورونها) على عدم القتال والانسحاب من البصرة .

(٢) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٤٩٢ .

أما ماذا دار بين القائدين من حديث ؟ وما هو سبب انسحاب البرتغاليين ؟ . فتقول المصادر البرتغالية إن باشا البصرة الماكر خدع نورونها بأن أبلغه أنه موجود في البصرة لغرض الاتفاق مع الشيخ الثائر على مساعدته في الحصول على السلطة هناك ، وأن القوات التركية تفاوضه على هذا الموضوع وأنه سينسحب وقواته من البصرة بعد ذلك ، ولهذا عاد (نورونها) إلى هرمز ، ولم يكتشف خدعة القائد التركي إلا عندما وصل إلى هناك .

أما المصادر التركية فتقول ، إن (بيلربي البصرة) قد طبق خطة ذكية لتفادي هجوم البرتغاليين بحيث جعل القائد يعتقد أن الأتراك والعرب قد شكلوا حلفاً ضد البرتغاليين ، الأمر الذي جعل (نورونها) يقرر الانسحاب إلى هرمز^(٣) .

وبعد تلك الاحداث فإن قيادتي القوات البرتغالية والعثمانية راحتا تعملان لترسيخ أقدامهما أكثر في الخليج العربي ، فقد قامت السلطات البرتغالية بتقوية دفاعات مدينة مسقط ، فجددت بناء قلعتي (أدميرال) و(سانت جوا)^(٤) وحصنت جلفار (رأس الخيمة) وغيرها من الأماكن . أما رد الفعل العثماني فقد أصدر الباب العالي أوامره إلى (قبودان مصر) أي قبطان مصر وهو قائد القوات التركية البحرية العاملة هناك (بيري بك) ويعرف أيضاً باسم (بيري بك ريس) بالتوجه نحو الخليج العربي ومقاتلة البرتغاليين . وفي أوائل عام ١٥٥٢م أقطع (بيري بك ريس) من مصر ومعه خمس وعشرون سفينة مدمرة كبيرة وأربع سفن من نوع (غالون) وسفينة نقل ضخمة ، أما عدد أفراد القوة المقاتلة فقد كان ألفاً وستمئة مقاتل . وفي ٦/ تشرين الثاني/ ١٥٥٢م ، أرسلت القيادة التركية خبراً إلى (بيلربي البصرة) واسمه (قباد باشا) مفاده أن بيري بك سيقوم باحتلال هرمز ثم البحرين مما يؤمن حماية البصرة مستقبلاً . وصلت أنباء حركة الأسطول العثماني إلى مسامع (الفارودي نورونها) الحاكم العسكري البرتغالي في هرمز ، فقرر أن يتصدى له في عرض البحر قبل وصوله إلى

(٣) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٤٩٢ . وكذلك الدكتور صالح أوزيران - المصدر نفسه - ص ٣٨ .

(٤) صار اسمهما (الميراني) و(الجلالي) بعد تحرير مسقط من البرتغاليين .

هرمز ، فأوعز إلى القائد (سايمو دي كوستا SIMAO DA COSTA) أن يخرج بأسطوله للتفتيش عن الأسطول التركي وصدد تقدمه ، ولما التقى الأسطولان تمكن بيرى بك من تحطيم الأسطول البرتغالي واغراقه ، فأصبح الطريق مفتوحاً أمامه إلى مسقط ، وعندما وصل إلى هناك وقفت سفنه أمام المدينة وأمر بتوجيه مدافعها نحو قلعتي المدينة وحصونها ، واستمر القصف لمدة ثمانية عشر يوماً إلى أن استسلم قائد موقع مسقط وهو (جوا دي ليزبوا JOAO DE LIZBOA) فأخذه بيرى بك ومعه ستون أسيراً برتغالياً ، ثم غادر مسقط بدون أن يترك فيها حامية تركية ، أو أن يستثمر الفوز بتسليمها إلى أمراء عُمان العرب ، بل اكتفى بأخذ مدافع القلعتين وعتادهما ثم توجه نحو هرمز لمقاتلة البرتغاليين هناك .

كان القائد البرتغالي لهرمز يمتلك حامية برتغالية يبلغ تعدادها (٩٠٠) رجل وقد تحصنوا تحصيناً جيداً في قاعدتهم العسكرية ، فلما وصل بيرى بك إلى الجزيرة أمر جنوده بالنزول إلى البر في منطقة بعيدة عن القاعدة البرتغالية ، ثم أمر بإنزال مدافع السفن وسحبها قريباً من القاعدة والحصن ثم قامت قواته بتطويق المنطقة وأحكمت حصار القاعدة ، واندلعت نيران المعارك بين المهاجمين الأتراك والمدافعين البرتغاليين ، واستمر الحصار مدة شهر بدون أن يتمكن بيرى بك من اقتحام القاعدة ، لذلك فقد قرر أن يفك الحصار عنها وينسحب إلى جزيرة القسم حيث راح يتصل من هناك بتجار هرمز ليجمع منهم النقود والأثاثات ثم أبحر إلى البصرة .

وعندما كانت تلك الأحداث دائرة فإن حاكم الهند (أفونسو دي نورونها) قرر الإسراع لنجدة حامية هرمز ، وعندما وصل إلى مدينة (ديو) الهندية في شهر سبتمبر من عام ١٥٥٢م وردت إليه معلومات تفيد بأن بيرى بك قد فك الحصار عن هرمز وأنه ارتحل إلى البصرة ، فقرر عدم الذهاب بنفسه بل أوكل المهمة إلى (أنطونيو دي نورونها) الذي أسرع إلى هرمز باثنتي عشرة سفينة ضخمة وثمان وعشرين مدمرة خفيفة .

وفي البصرة التقى بيرى بك ريس بالوالي التركي (قباد باشا) ووقع خلاف بين الرجلين بسبب ما أشيع عن استيلاء الأول على أموال تجار هرمز ومقايضته الأسرى البرتغاليين بمبالغ كبيرة من المال ، لذلك فقد ترك بيرى بك البصرة عائداً بثلاث سفن إلى مصر غرقت احدهما قرب البحرين ، وعندما وصل إلى مقر قيادته هناك وجد ثلة من الجنود في انتظاره ، وتم اعتقاله ووجهت اليه تهمة التلاعب بأموال الدولة وعدم تنفيذ الواجبات العسكرية التي عهدت اليه بصورة جيدة ، وتم اعدامه في استانبول عام ١٥٥٣م^(٥) .

لم تكن تلك الحادثة نهاية لمحاولة العثمانيين السيطرة على الخليج العربي ، إلا أن جهودهم حتى تلك الفترة لم تتجاوز سيطرتهم على الساحل الممتد من البصرة إلى القطيف تقريباً ، لذلك فقد صدرت أوامر الباب العالي إلى القائد مراد بك الموجود في مصر وهو القائد التركي الذي خسر معركة القطيف عام ١٥٥٠م ضد أنطونيودي نورونها ، بالتوجه إلى البصرة ومحاولة الخروج بسفن (بيرى بك) التي تركها هناك والعودة بها إلى مصر ، وعندما وصل مراد بك إلى البصرة برأ كان متلهفاً لمقاتلة البرتغاليين ثانية انتقاماً لفشله في عام ١٥٥٠م ، وكان الاسطول العثماني الموجود في البصرة مكوناً من خمس عشرة سفينة خرج بهم من البصرة إلى مياه الخليج ، إلا أن السلطات البرتغالية شعرت به فأرسلت القائد (دون ديكو دي نورونها) لمقاتلته ، فالتقى الاسطولان قرب السواحل الفارسية واشتبكا بمعركة عنيفة ، وخلال قتالهما هبت عاصفة بحرية شتتت شمل الأسطول البرتغالي ، وأوشكت إحدى سفنه أن تقع فريسة للقوات العثمانية ، لذلك فقد قرر القائدان العثماني والبرتغالي العودة إلى قواعدهما .

وصلت إلى مسامع الباب العالي أنباء إخفاق مراد بك بانزال هزيمة بالبرتغاليين والخروج بالاسطول التركي المحاصر في البصرة ، لذلك فقد قرر اسناد المهمة إلى

(٥) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٤٩٩ . وكذلك الدكتور سعاد ماهر - البحرية المصرية - ص ١٤٠ . وكذلك الدكتور عبدالعزيز سالم - المصدر نفسه - ص ٤٠٩ .

(سيدي علي ريس) ويسمى أيضاً (سيدي علي شلبي) واسمه الأصلي هو علي بن حسين وهو أحد أبطال البحرية التركية من ضباط القائد الشهير (باربروس خير الدين) ، وقد اشتهر عندما ألحق هزائم بفرسان القديس يوحنا الذين كانوا قد اتخذوا من جزيرة (رودس) قواعد لمقاتلة الأسطول التركي في المتوسط .

كانت أوامر الباب العالي تنص على أن يذهب سيدي علي إلى البصرة عن طريق البر وأن يقوم بقيادة الأسطول المحاصر هناك والخروج به من الخليج العربي وإعادته إلى مصر . ويبدو من سير المعارك التي حدثت فيما بعد أن أوامر الباب العالي كانت تنص على عدم التعرض للقواعد العسكرية البرتغالية في الخليج أو مهاجمة هرمز ، أو الاصطدام بالأسطول البرتغالي ، بل انقاذ الأسطول فقط .

وصل القائد الجديد إلى البصرة في شهر شباط عام ١٥٥٣م وكان والي البصرة مصطفى باشا يعاني من مشاكل وثورات داخلية يقودها شيوخ آل مشعشع وآل عليان ، فساعده على استتباب الأمن ، ثم أجرى صيانة عامة للأسطول ، وفي حوالي شهر تموز من العام نفسه تمكن من الخروج من البصرة إلى مياه الخليج العربي متفادياً الاصطدام بالبرتغاليين ، ثم تمكن من التسلل من فم الخليج^(٦) . إلا أن السلطات البرتغالية شعرت به عندما كان أسطول هرمز بقيادة (دون فرناندو دي نورونها) في منطقة (ظفار) العمانية للقضاء على ثورة كانت قائمة هناك ، فترك مواقعه واتجه نحو الخليج . وفي يوم ٢٥ / ٨ / ١٥٥٣م التقى الأسطولان قرب مسقط ، ودارت معركة شديدة بين الطرفين ، حيث هاجم أسطول هرمز المكون من (٣٢) سفينة السفن التركية واستطاع تحطيم ست منها مما أجبر سيدي علي الهرب بسفنه نحو السواحل اليمنية ، إلا أن جبهة جديدة انفتحت أمامه ، فقد بدأت معركته مع الطبيعة القاسية ، فقد هبت عليه رياح صرصر عاتية راحت تدفع بسفنه بعيداً عن الشاطئ إلى البحر الهائج ، وفقد الربانة والبحارة سيطرتهم على سفنهم وتمزقت الأشعة وانكسرت

(٦) جعفر الحياط - تاريخ العراق في العصور المظلمة - ص ٣٥ .

القلوع ، ووجد الأسطول نفسه يقاتل طبيعة قاسية لمدة عشرة أيام ، وبعدها بان البر فوجد سيدي علي نفسه أمام ساحل (سورات) الفارسي وهناك كان يكمن له أسطول برتغالي أجهز على البقية الباقية من الاسطول العثماني ، ولم ينجُ إلا سيدي علي وخمسون مقاتلاً هرب بهم بسفينة واحدة إلى الهند ، وهناك طلب حماية حاكم ساحل (الكجرات) الهندي ، ثم غادر البلاد على ظهور الخيل ومر بمعظم بلاد الهند ثم فارس ثم بغداد ولم يصل إلى استانبول إلا في عام ١٥٥٧م^(٧) . ومن الجدير بالذكر أن علي شلبي هذا أو علي بن حسين هو الذي ترجم اراجيز أحمد بن ماجد في كتابه المسمى (المحيط) ، ولعله هو نفسه علي شلبي الذي وقع أسيراً بيد البرتغاليين عام ١٥٨٨م عندما كان يقاتلهم في ممباسه وهو ما سنذكره في وقته .

أما بالنسبة للقيادة السياسية البرتغالية في الهند فإن نائباً جديداً للملك قد تم تعيينه وهو (دون بيرو دي ماسكرينهااس DOM PERO DE MASCARENHAS) واستلم منصبه هناك في ٢٣ / سبتمبر / ١٥٥٤م ، وكان أول ما فعله هو أنه أصدر أوامره إلى القائد (مانويل دي فاسكو نيكولوس MANOEL DE VASCONCELLOS) أن يتهاى للذهاب إلى (ظفار) للقضاء على الثورة هناك ، ثم الذهاب إلى البحر الأحمر . ولا تفاصيل لدينا عن هذه الحملة سوى ادعاء نيكولوس بأنه تمكن من الوصول إلى جبل سيناء ، ثم عاد إلى الهند بدون أن يحقق فائدة تذكر .

وقد شهد عام ١٥٥٧م تطوراً سياسياً جديداً في البرتغال بوفاة ملكها (دون جوان الثالث) فخلفه حفيده الطفل (سيباستيان) ، ثم قامت جدته الملكة (دونا كاترينا) بالوصاية على عرشه ، كما بينا ذلك في الفصل السابق . كما أن نائباً جديداً لملك البرتغال تم تعيينه في الهند هو (دون قسطنطين دي بارغانزا DOM CUSTANTINO DE BRAGANZA) فراح هذا يحاول أن يقوي علاقاته بالحبشة بمحاولة ربط الكنيسة الحبشية بالكنيسة البرتغالية ، إلا أن تلك المحاولات لم تنجح بل بالعكس

(٧) الدكتور أوزيران - المصدر نفسه - ص ٥١ . DANVERS - المصدر نفسه - ص ٥٠٣ . الدكتور مصطفى سالم - المصدر نفسه - ص ٤١٢

فإنها أوجدت بعض الحساسيات المذهبية بين الأحباش والبرتغاليين إلى الحد الذي اتهمت فيه الكنيسة البرتغالية أتباع الكنيسة الحبشية بالكفر وجرت محاولات قام بها السفير البرتغالي هناك للإطاحة بالحكم في الحبشة^(٨) .

كما قام دي بارغانزا بإجراء تغييرات إدارية في المناصب القيادية العسكرية والإدارية في الهند ، وكانت من جملة خططه تقوية وحداته العاملة في الخليج وبحر العرب .

ويبدو أن ثورة (ظفار) العُمانية كانت لازالت قائمة إلى حوالي عام ١٥٥٩م وهي الثورة التي لا تفصيل يشفي الغليل لدينا عنها ، اللهم إلا في المصادر البرتغالية التي ذكرت أن القيادة الجديدة في الهند ، أصدرت تعليماتها إلى القائد (دون الفارو دي سلفيرا DOM ALVARO DE SILVEIRA) بتجهيز حملة ضد منطقة ظفار واخماد الثورة هناك ثم الذهاب إلى مدخل البحر الأحمر لمساعدة سفن القواعد البحرية البرتغالية المتواجدة على الساحل الأفريقي ضد السفن التركية العاملة هناك . وقد تكونت الحملة من عشرين سفينة مقاتلة إلا أنها واجهت عواصف شديدة في المحيط الهندي أجبرتها على العودة إلى موانئ الهند بشكلٍ مبكر ، ففشلت^(٩) .

كما أن عام ١٥٥٩م شهد تحركاً عثمانياً عسكرياً جديداً في الخليج ، إذ قام كلٌ من حاكم الأحساء و(بكلريي البصرة) مصطفى باشا بإعداد حملة عسكرية هاجما حاكم البحرين المدعو (ريس مراد) ، ويسود الغموض تفسير الدافع الرئيسي لهذه الحملة بين قائل إنها كانت رغبة شخصية من مصطفى باشا لتوسيع نفوذه إلى البحرين ، وبين قائل آخر إنها قامت لنجدة أهالي البحرين من تعسف ريس مراد أو مراد ريس ، كما تختلط التعريفات في شخصية (مراد ريس) ، أهو ممثل حكومة هرمز البرتغالية ، أم هو فارسي ، أم وال تركي ؟ .

إن المصادر البرتغالية تقول إنه فارسي ويمثل حكومة هرمز في البحرين ، بينما تقول

(٨) د .رجب حزار - المصدر نفسه - ص ٢٨ .

(٩) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٥١٢ .

المصادر التركية إنه والي الأثرأك على البحرين واسمه (الأمير جلال الدين مراد خان) ويسمى أيضاً (مراد شاه) ، وإن سبب الحملة العثمانية ضده كانت بدافع شخصي من مصطفى باشا وبدون موافقة الباب العالي .

وعلى كل حال فقد تشكلت الحملة من سفيتين مدمرتين كبيرتين وعدد آخر من سفن نقل الجنود والمدمرات الخفيفة عليها (١٢٠٠) جندي ، وتقول المصادر التركية إن الحملة وصلت أمام قلعة البحرين في ١٣ / رمضان / ٩٦٦ هـ وحاصرتها ، كما تقول المصادر البرتغالية إن (الريس مراد) أرسل نداءً مستعجلاً إلى (أنطونيو دي نورونها) الحاكم العسكري البرتغالي في هرمز يخبره بأمر محاصرته من قبل قوات مصطفى باشا ، فقام دي نورونها بتجهيز حملة بقيادة أخيه (جوا دي نورونها) مكونة من عشر سفن هرع بها إلى البحرين ، إلا أن البحرية التركية تصدت له في مشارف الجزيرة وقاقلته وأجبرته على الانسحاب إلى الشاطيء المقابل والاختفاء في الأخوار المائية هناك ، ثم لم يلبث حاكم هرمز أن أوفد حملة أخرى بقيادة (الفارو دي سلفيرا) ومعه عدد من السفن بحيث بلغ تعداد الحملتين (٢٢) سفينة ، وتمكن الاثنان من دحر المقاومة التركية وتوجهها نحو سواحل البحرين التي كانت مطوقة ببقية الأسطول التركي .

اشبتك الطرفان بالحرب وقام محمد بك وهو قائد سنجق الأحساء بقيادة عدد من الفرسان الانكشارية جيء بهم من بغداد ، فهاجم يشده من حاول النزول برأ من البرتغاليين ، أما مصطفى باشا فقد كان يدير المعركة من منطقة المنامة ، وبعد سلسلة من المعارك شارك فيها مراد ريس بثلاثمائة جندي إيراني لنجدة البرتغاليين يعاونه قائد محلي عرف باسم (ابن رحال) فإن البرتغاليين أوشكوا على الانكسار ، وقد قتل في إحدى المعارك جوا دي نورونها وهو الأمير الذي لم يشعر به العثمانيون لأنه غير موجود في تقاريرهم ، لذلك فقد قام حاكم هرمز بإيفاد القائد (بيرو بيتشو) ليحل محله ، ثم لم يلبث أن تبعه بنفسه ، وبذلك فقد تم تطويق القوة العثمانية بين دفاعات

البحرين الأرضية والأسطول البرتغالي ، كما أن مصطفى باشا قتل أثناء المعارك فانهارت معنويات الجيش العثماني ودبت المجاعة بين صفوفه ، لذلك فقد قرر قادة الجيش إجراء مفاوضات مع البرتغاليين لانسحاب إلى البصرة . وعليه فقد جرت المفاوضات التي اشترك فيها محمد بك وسليمان علي بك قائد موقع القطيف ، وانتهت بأن أعاد الأتراك الأسرى البرتغاليين ومعهم غنائم الحرب التي كسبوها ، كما دفعوا مبلغ مائة ألف (دوكات) أو (أقجة) وانسحبوا إلى البصرة . وبلغ عدد قتلى البرتغاليين حسب ادعائهم أكثر من سبعين قتيلًا ، أما الأتراك الذين عادوا إلى البصرة فكانوا (٢٠٠) من أصل (١٢٠٠) ، وقد استمرت تلك المعارك مدة ستة أشهر تقريباً^(١٠) .

وعلى كل حال فإن ما حدث بعد ذلك من أمور بين العثمانيين والبرتغاليين في الخليج العربي يسودها الغموض الشديد ، لأن أخبار الفعاليات التركية في الخليج تعوزها المصادر الموثقة الجيدة ، إلا أنه وكما بدا واضحاً فإن روح الارتجال وعدم وجود تكتيك عسكري وسياسي جيد كان يسود التحركات العثمانية منذ بداية أمرها في الخليج العربي ، وعموماً يمكن القول إنه منذ الاحتلال العثماني للبصرة عام ١٥٤٦م إلى تاريخ المعركة التي كنا بصدها فإن الخليج العربي انقسم بين النفوذ العثماني الممتد من البصرة إلى سواحل القطيف ، ونفوذ البرتغاليين الذين سيطروا على هرمز وعمان ، وكانت البحرين تشكل الحدود التي تفصل بين مناطق نفوذ البلدين .

كما بدا أيضاً أن كلا الطرفين أدرك استحالة تحقيق نصر حاسم على الطرف الآخر وأن نتائج الصدام تكون في غير صالح أحدهما ، لذلك وانطلاقاً من الفوائد الكثيرة في تشجيع التجارة بين الهند وتركيا عبر الخليج والعراق فقد قام والي البصرة بمفاتيحة حاكم هرمز البرتغالي على وضع أسس لصلح دائم وعلاقات تجارية بين البلدين ،

(١٠) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٥١٤-٥١٥ . وكذلك تقرير حول الحملة العثمانية على البحرين عام ١٥٥٩م - البروفسور أورهيلو - منشور في مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية - العدد ٢٤ . وكذلك مقال (صفحات من تاريخ النفوذ البرتغالي في البحرين) منشور في مجلة الوثيقة العدد الأول السنة الأولى .

وفي عام ١٥٦٦ قام حاكم هرمز بارسال موفد هو (أنطونيو تاكسيرا) الذي قابل الباب العالي عارضاً عليه مقترحات هرمز ، إلا أن الباب العالي رفض الحديث معه باعتباره ممثلاً لهرمز فقط ، وطلب مقابلة شخصية تمثل البلاط الملكي البرتغالي .

لذلك يمكن القول إن اهتمام الأتراك بالخليج العربي لم يكن بالدرجة الكافية أي ليس بقدر اهتمامهم بمناطق العالم الأخرى التي كانوا فيها ، ولم تكن لديهم خطة لجمع قوى موارد الثغور الإسلامية البحرية وتنسيق جهودها في عمل عسكري فعال لضرب البرتغاليين ضربة قاضية ، خاصة وأنهم كانوا يسيطرون على فكي الكماشة اللتين تشكلان قواعد عسكرية مثالية للإطباق على البرتغاليين ، وهما البصرة في العراق وعدن في اليمن .

لكن أمور العثمانيين في اليمن لم تكن مستقرة أيضاً ، ذلك أن الثورة الزيدية في اليمن الشمالية كانت على أشدها خاصة عندما تمكن الإمام الزيدي المطهر بن شرف الدين من إنزال ضربة قاصمة بالقوات العثمانية عام ١٥٦٧م وأعلن أن اليمن الشمالية دولة مستقلة لا نفوذ ولا سيادة للعثمانيين عليها وأن عاصمتها هي صنعاء . ولم يكتف المطهر بما حققه من نصر في اليمن الشمالية ، بل أراد أن يمد نفوذه إلى اليمن الجنوبية لتخليصها من الفوضى والفقر والاضطراب الذي سببه سوء إدارة الولاة الأتراك هناك ، فأوفد حملة بقيادة القائد علي بن الشويح لاحتلال عدن ، وكانت في عدن حامية عسكرية تركية قليلة ، لكن أهالي اليمن الجنوبية لم يكونوا يميلون إلى حكم الزيدية ، فاليمن الشمالية شيعية زيدية واليمن الجنوبية شافعية ، ولما تقدم جيش اليمن الشمالي وقام بتطويق عدن ، هال ذلك الفعل أحد زعماء منطقة الشحر وهو السلطان بدر فاتصل بالأتراك المحاصرين واعدأ إياهم بالمساعدة ، لكن الشويح تمكن من فتح المدينة وقام بتنصيب أخيه قاسم بن الشويح حاكماً عليها وياشر باقامة الشعائر الدينية الزيدية في الجوامع ، وبذلك خضعت اليمن كلها للزيدية ما عدا مدينة زيد^(١١) .

(١١) النهروالي - المصدر نفسه - ص ٢٤٩ ، وكذلك الدكتور محمد عبداللطيف البحراوي - المصدر نفسه - ص ١٧١ .

وصل نبأ سقوط اليمن بيد الإمام المطهر الزيدي إلى تركيا فأصدر الباب العالي أمراً
سلطانياً عام ١٥٦٨م بتعيين (سنان باشا) حاكماً على اليمن ، كما أوْعز إلى أعظم
قواده العسكريين البحريين وهو الأمير (بارباروس خير الدين) بالذهاب إلى اليمن
والقضاء على المطهر .

كانت القوة الزيدية في عدن مكونة من كتيبة من ألف مقاتل ، منهم أربعمئة من
حملة الحراب وستمئة من حملة البنادق ، وما إن علم والي المدينة قاسم بن الشويح أن
جيشاً عثمانياً برياً بقيادة (الأمير محي) يتوجه نحوه وأن أسطولاً بحرياً بقيادة خير الدين
بارباروس يتوجه نحوه أيضاً ، فقد أرسل إلى الإمام المطهر يقترح طلب النجدة من
البرتغاليين . فوافق المطهر على ذلك ، وتذكر المصادر اليمانية أن البرتغاليين أرسلوا
سفينة واحدة فيها عشرون ضابطاً تمكنوا من الدخول إلى عدن واجتمعوا بقاسم الذي
اطلعهم على قلعة المدينة ووسائل الدفاع المتيسرة لديه ، وتم الاتفاق على أن تقوم
البحرية البرتغالية بقتال العثمانيين بحراً ، بينما يقوم قاسم بالدفاع عن المدينة ومقاتلة
الأتراك برأ ، ثم عاد الوفد البرتغالي إلى مسقط وفي تقديره أنه بحاجة إلى عشرين
سفينة حربية لمقاتلة الأتراك في عدن ومن هناك أرسلوا في طلب النجدة من الهند ، إلا
أن العثمانيين كانوا أسرع من البرتغاليين إذ استطاعوا الوصول إلى عدن وأطبقوا
عليها ، وتمكنوا من اقتحامها من ناحية قلعة شمسان فاستسلم قاسم بن شويح ، وتم
فتح المدينة في ذي القعدة ٩٧٦هـ - ١٥٦٨م .^(١٢)

* * *

وقبل أن نختم صفحات هذا الفصل ، لابد من وقفة قصيرة في أخبار دولة عُمان .
فيذكر المؤرخون العُمانيون أن عام ٩٦٧هـ الموافق لعام ١٥٦٠م شهد نهاية الإمام
بركات بن محمد بن اسماعيل ، وهو ابن الإمام محمد بن اسماعيل الذي وقع على
زمانه الغزو البرتغالي لعُمان كما بينا ذلك في الفصول السابقة ، إلا أن أيام بركات هذا

(١٢) المصدران السابقان نفسهما .

لم تخلُ من منافسين سياسيين له فكثرت الحروب والمنازعات الداخلية بينهم ، بحيث لم يذكر أحد من مؤرخي عُمان أن هناك برتغاليين يعيشون في موانئهم . ولما مات بركات تنازع على الحكم من ذكرهم المؤرخون العُمانيون باسم (ملوك بني نبهان المتأخرون) فكان أولهم سلطان بن محسن بن سليمان بن نبهان ، ثم ابنه مظفر ، ومَلِك من بعده سليمان بن مظفر ، ثم تعود الاسماء فتختلط وتكثر الفتن والقلاقل ويظهر اسم (بني هناة) وكأنهم القبيلة المعارضة الأولى لسليمان بن مظفر ، ثم يموت سليمان بن مظفر عام ١٠١٩هـ - ١٦١٠م ، وتقوم الفتن وتعد ، ولا يظهر اسم البرتغاليين أو (النصارى) على صفحات التاريخ العُماني إلا بعد عام ١٦١٠م ، أي بعد سقوط الدولة البرتغالية ، وهو الموضوع الذي سنحاول أن نفصله في فصولنا القادمة إن شاء الله (١٣) .

(١٣) السالمي - تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان - ص ٢٧٦ .

الفصل الحادي والثلاثون

في هذا الفصل ننشر جملة من الرسائل المتبادلة بين مختلف الأطراف التي ظهرت أسماؤها في الحقبة التي أعقبت الرسائل التي وردت في الفصل الثالث والعشرين ، وهي مأخوذة من عدة مصادر أهمها كتاب :

(DOCUMENTOS ARABICOS PARA AHISTORIY PORTUCUEZA)

أولاً : رسالة من الرئيس ركن الدين ، وزير هرمز إلى الرئيس شرف وزير هرمز المعزول ، حول محاولات ملك الإحساء السيطرة على البحرين والقطيف والبصرة .
بعد ديباجة قصيرة ،

« . . لقد فهمت يا سيدي كل ما كتبتم لي ، وكلنا نرفع أيدينا متوسلين إلى الله أن ينعم عليكم بالصحة وأن يحقق أمانكم لان رعاية الله وخوارقه كبيرة ، وأتمنى أن يجمعنا كما كنا من قبل وكما نتمنى جميعا ، كما نرجو منه أن يطيل عمرنا حتى نلعم بتلك الفرحة التي نتمناها جميعا ، لقد علمت من رسالتكم التي بعثتموها لي انكم تتمنون الحبيء في اول اسطول ياتي ، اتمنى أن يتم ذلك . . »

وبعد هذا اخبركم أن كل المناطق هادئة ، وأن اخبار واحوال هرمز لاتستدعي الكتابة اما ما أمرتموني به من خدمة ملك هرمز ، فإن الله يعلم كيف خدمته ونصحته ، وذلك بحب كبير ، إلا أن طبعه يحول دون إعتبار نصائحي ونصائح غيري إذ لا يعمل إلا برأيه الخاص . ويبدولي أنه لن يتفاهم ابدا مع أي احد . ومع ذلك ، فانتم تعلمون أنه يتحمل مسؤولية ذلك ، وارجو من الله أن يتم قدومكم كما ذكرتم في رسالتكم ، وأن

تقفوا (بكوا) على أخباره وأموره وأحواله .

إنني منذ سنتين ونصف في خدمة ابنه الذي ينوب عنه اليوم ، وأحمد الله على إنني لحد الساعة لم اختلف معه .

إعلموا بعد هذا أن الملك محمد ، حاكم البحرين ، في صحة جيدة ، وأن ملك الاحساء الشيخ (ماننج بن رشيد MANING BEN RASHID)^(١) مقبل على القطيف وعازم على الاستيلاء على البحرين وأنه تم تبادل عدة رسائل بينهما حتى أن سعيد بن عبد الله ، وهو من سكان الأحساء توسط بينهما فأمضيا هدنة ، إلا أن ملك الاحساء جمع عددا كبيرا من المحاريين وعاد للاستقرار بالقطيف داخل قلعة جديدة أمر ببنائها بعد أن أمر بهدم القلعة القديمة ، وما إن علم رجاله وباقى مرافقيه من سكان المنطقة بنواياه الرامية إلى محاربة مسلمي البحرين حتى فر عنه أغلبهم بصحبة أبنائهم وزوجاتهم ، وكان أول هؤلاء الفارين محمد بن رحال CAIN BEN RAAL وذوية الذين رحلوا جميعا مع آخرين لوضع انفسهم تحت حماية والي البحرين ، كما أن احد اعيان المسلمين المسمى الشيخ محمد بن مسلم MAHAMED BEN MACALAM قدم بدوره إلى البحرين صحبة قومه ، وذلك رغم أنه من الأحساء .

ولما رأى الملك ذلك انتقل إلى البصرة ، وبينما كان مخيما بجوانبها ، انقض عليه سكانها في أعداد كثيرة وهزموه وقتلوا له عددا كبيرا من المحاريين بينما تمكن هو من الفرار على ظهر فرسه ، وذلك بعد أن تعرض لجروح بليغة ، وفي الاحساء التي عاد اليها استطاع جمع عدد كبير من الرجال من ضمنهم أعراب كثيرون ، وحينذاك وصله خبر موت ملك البصرة الذي كان أحد اقاربه ، والذي كان يدين للأثراك بالولاء ، وقد خلفه صبي بايعه سكان البصرة ملكا على مدينتهم ، وما إن علم ملك الاحساء بذلك حتى توجه مع رجاله نحو البصرة ، واستغل حاكم البحرين ، الرئيس محمد ، ذلك وجمع عددا كبيرا من الفرس والعرب وهاجم القطيف حيث أحرق له مائة وخمسين

(١) لعله مانع بن راشد بن منماس .

مركباً ما بين كبير وصغير كانت من قبل في ملكية عاهل هرمز قبل أن تخونه وتصبح في حوزة ملك الاحساء .

ولما وصل ملك الاحساء إلى البصرة فتح له أعيان المدينة الابواب ويايعوه ملكاً . وفور تلك البيعة بالبصرة علم باحراق حاكم البحرين لمراكبه ، فأمر بمصادرة كل مراكب تجار البحرين الموجودة بالبصرة والاستيلاء على سلعهم ، غير أن أعيان المدينة استاءوا من ذلك وطرده من مدينتهم ويايعوا عوضاً عنه أحد أقاربه المسمى الشيخ يحيى ، وأعادوا السفن والسلع لمسلمي البحرين ، وعوضوا لهم كل ما فقدوه .

والشيخ يحيى هذا رجل فاضل يرغب كثيراً في الحصول على صداقة البرتغاليين ، أما ملك البصرة المذكور الذي طرده السكان منها ، فانه عاد إلى الاحساء ، وهو لا يزال يحلم بالاستيلاء على البحرين ، ويعد بالقيام بذلك في اقرب الآجال ، ولن يصعب عليه ذلك لشدة قوته وكثرة جنوده .

ولما علمت بهذه الأحداث التحقت بالقبطان (مرتين افونصو دو ميلو) لاشعاره بها ، وكذا الكاتب وأعيان البرتغاليين وقلت لهم إن عليهم إرسال أسطول لحماية البحرين أو بناء قلعة بالقطيف لضمان أمن البحرين ، إلا أن القبطان أجابني منذ ثلاثة أيام أن مولانا الملك يتحمل مصاريف ضخمة بالهند وبهرمز الأمر الذي يحول دون إرسال أسطول إلى البحرين ، واقترح أن يجمع حاكم البحرين كل محاربيه وأقاربه وأن يستولي لمدة سنة على الجبايات التي قد تكون هناك للفرس وذلك قصد تجهيز أسطول يمكنه من الاستيلاء على القطيف . لذا بعث إليه القبطان برسالة موقعه من طرفه وكذلك من لدن الكاتب يخبرانه فيها أن العمل باقتراحهما يمثل خدمة للملك البرتغال ، وأنه في حالة استيلائه على القطيف ، فانه سيحتفظ بها لنفسه دون أن ينازعه في ملكيتها احد ، واكد له أن ملك هرمز موافق بدوره على ذلك . وبعث له ملك هرمز بدوره خطاباً آخر ، إلا أن الحاكم لم ينفذ الاقتراح بعد .

ولقد تطوع محمد بن رحال ومحمد بن مسلمة بالمساهمة في نفقات تجهيز ذلك

الاسطول ، أخبركم أن الشيخ أحمد ، ابن الشيخ اسماعيل ، ذهب إلى (GULILAO) لمحاربة بعض السكان الثائرين ، كما أذكركم بخدمتي الصادرة التي لا تختلف عن خدمتي لملك البرتغال ، وأن أول دليل على ذلك هو أنني أبعث على نفقتي ، وعلى رأس كل سنة ، اشخاصاً إلى القاهرة وإلى عدن ولأماكن أخرى للاطلاع على أحوال وأخبار السلطان التركي وضباطه ، ولحد الساعة لم أتوصل إلى أي خبر يرتبط بما كاتبتموني في شأنه ، وسأسرع بإبلاغ قبطان الحصن بكل ما سيصلني من أخبار . أرجوكم أن تثقوا بي إذا ما قلت لكم أنني مسرور لخدمة ربي وخدمة ملك البرتغالي واطن أن سعادتكم تعلم ذلك . . أتمنى أن يطيل الله عمركم وأن يضمن لكم الرفاهية كما نرجو ذلك جميعاً» (٢) .

ثانياً : رسالة كريستوف دي مندوسا عام ١٥٢٩ عن حملة برتغالية ضد البحرين وبعض البلدان العربية :

« مولاي :

لقد أخبرت جلالتيكم بواسطة (منويل دو مسيدو MANUEL DE MACEDO) عن بعض أحوال مملكة هرمز هذه ، وبما أنه بعد ذهاب الوالي من هنا ، التحق (سيماو كونيا SIMAO CUNHA) بالبحرين ، فاني سأخبر جلالتيكم بما حدث هناك .

لقد سبق للملك هرمز أن عين الرئيس بدر الدين - أحد أقارب الوزير شرف - عاملاً على البحرين ، ولما أمرت جلالتيكم باعتقال الرئيس شرف ، أراد الوالي عزل الرئيس بدر الدين ، وإبعاده عن البحرين لما كان يلحقه بالبلاد من أضرار ، وهكذا أوفد (بلشور دو سوزا BELCHIOR DE SOUSA) قبطان البحر إلى ذلك الساحل على رأس ثلاثة أو أربعة مراكب مرفوقا بوزير مسلم ومعه رسائل وظهائر ملكية موجهة إلى الرئيس بدر الدين تأمره بتسليم الحصن إلى الوزير الذي أوفده إلى هناك ، كما أمر

(٢) هذا النص هو ترجمة برتغالية لرسالة حررت على ما يبدو بالفارسية وأرسلت ترجمتها إلى الملك البرتغالي ليطلع عليها ، من مقال الاستاذ أحمد العناني في مجلة (الوثيقة) .

الوالي (بلشور دو سوزا) بإلقاء القبض عليه والإتيان به أسيراً ، وبما أن (بلشور دو سوزا) علم باكتشاف امره من لدن بدر الدين فانه ما إن وصل حتى سلمه الرسائل غير أنه رفض تسليم الحصن واحتاط منه كثيراً ، فأخبر (دو سوزا) الوالي بذلك . فقرر الوالي قبل ذهابه بخمسة عشر يوماً إرسال (سيماو كونها) لاحتلال الحصن وأسر بدر الدين إن أمكنه ذلك ، فاصطحب معه ٤٥٠ محارباً كان ضمنهم كل الفرسان الذين نجوا في ممباسه واخرن وجدوا آنذاك هنا بهرمز .

ولما نزل (سيماو كونها) إلى الأرض لاحظ أن الحصن منيع جداً ، وذلك بخلاف ما بلغه عنه إذ ذكر له أنه عبارة عن ركام ، ولما نزل المحاربون ، نصبوا مدفعيتهم التي سرعان ما شرعت في اطلاق النار وذلك إلى أن نفذ البارود ، فأرسل إليّ يطلب المزيد منه ، ولما وصله كان جل مرافقيه مرضى ، وما إن طلع اليوم التالي حتى تفاحش المرض وانعدم من يقوى على حمل المدفعية إلى المراكب واكثر من هذا لم يعودوا قادرين حتى على المشي لركوبها الأمر الذي حتم إرسال مراكب كثيرة ومحاربين من هنا لإرجاع المراكب لأنه من مجموع ٤٥٠ أو ٤٥٥ شخصاً ذهبوا إلى هناك ، لم يبق على قيد الحياة شخص لم يصبه الوباء . لقد توفي منهم ما يقرب المائتين ، وما يقرب هذا العدد في طريق الموت . لقد مات من الحمى (سيماو كونها) وكذا (منويل دو مندونس) وكثير من الفرسان واعتباراً لعدد من عادوا مرضى يبدو لي أنه إذا ما فلتت منهم مائة ، فإن ذلك سيمثل بدون شك معجزة .

أما ما يتعلق بهذا الحصن وهذه المدينة فاعتقد أن جلالتك قد اطلع على أحوالها بواسطة (منويل دو مسيدو) فبعد ذهابه تم اعتقال (خوجا ابراهيم COJA BRAHEM) كما كتبت لكم ذلك ، إن بهذه المدينة عدداً من الرجال قدم ملك هرمز بشأنهم طلباً إلى الوالي لاعتقالهم ، ويقول الملك إن الوالي أمر أن تقدم في شأن ذلك عرائض . من الأكيد يا سيدي ، أن الهدف من اعتقال هؤلاء الاشخاص هو قطع رؤوسهم وليس الإستيلاء على أموالهم كما يعتقدون لان ذلك هو ما كان يفعل من

قبل .

لقد ذهب (ديو غو دو ميلو) من هنا رفقة الوالي دون أن يدفع أي شيء مما يدين به للملك ، وكذلك فعل باقي الأشخاص كما سبق لي أن كتبت لجلالتكم ولقد قمت في هذا الأمر بما ادين به لربي و لجلالتكم قصد نشر العدالة والأمن ، ولقد سبق لي أن اخبرت جلالتكم بواسطة اشخاص ذهبوا من هنا بالأضرار التي ألحقها بمصالح جلالتكم ونقلوا لجلالتكم نسخة من حكم أصدرته في حقه لصالح ملك هرمز ، ولا أدري ما إذا كانت ستصلكم دون أن تزور وأتمنى أن أحملها إلى جلالتكم حينما التحق بكم ، وإن ذلك سيتطلب مجهودا كبيرا وربما كان الاداء من قبيل المستحيل ، لان البحرين التي تعد أهم منطقة بالمملكة توجد الآن في حالة عصيان ، وبما أنها لا تؤدي له لحد الساعة أي شيء ، فإن احتلالها ودفعها إلى الاداء كما هي ملزمة بذلك سيخفف من ثقل أداءاته .

إن الشيخ رشيد (KEQUE PAXAT) يقوم بمهمة الوزير كما هو في علم جلالتكم ، وهو رجل طيب ، وفي نظري شديد الاخلاص ، إلا أنه ضعيف الشخصية بالنسبة لمسألة في مثل خطورة هرمز ، لانه يا سيدي إذا ما استثنينا كون إخلاص الرئيس شرف الدين (REX XARAFO) لكم ، هو دون اخلاص الشيخ رشيد ، فإن مثل هذا المسلم لم يولد بهذه الربوع ليحكم المملكة ، ذلك أنه شديد الخجل والخوف وليس بهذا الضعف ستؤدي الضرائب كما يجب .

وفور مغادرة الوالي لهذه المدينة ، وصلتني أخبار عن الروم ، فلقد أخبرني مسلم كان هناك وقت قتل الملك سليمان عن اندلاع خلاف حاد بينهم بسبب ذلك ، انتهى بمعركة عنيفة ، غير أنهم عادوا إلى التصالح وانتخبوا (مير حسين) الذي كان واليا على جزر القمر رئيسا أكبر لهم ، وانطلقوا بعد ذلك لمحاصرة عدن التي استولوا لها على خزان الماء اعتمادا على عدد كبير من المحاربين وعلى هجمات شاركت فيها (الغليوبات) والمشاة ، ويقال إن عدد المحاربين بلغ ألفا وخمسمائة . وعدد السفن

ثلاث عشرة ما بين كبيرة وصغيرة ، غير أن جل محاربيهم قد تفرقوا وذلك بعد معارك حادة مع المدافعين عن عدن الذين بعد فقدانهم لخزان الماء وللميناء ، شنوا عدة هجمات استطاع العرب خلالها قتل البعض منهم والحاق اضرار بليغة بهم ، الامر الذي ارغمهم على الانسحاب والالتجاء إلى مكان قريب من عدن تتوفر فيه مياه عذبة وكثيرة يسمى (AGUFF) وهم إلى الآن هناك دون أن يعملوا على إعادة جمع المتفرقين منهم ، وقبل أن يصلني هذا الخبر ، وصلني خبر آخر مفاده أن رئيس الروم (مير حسين) استولى على عدن وأنه استولى على كل المراكب وحال دون مغادرتها الميناء لكي لا نشعرنا بذلك ، وأن أربعة غليطوات وصلت إلى ظفار قصد حراستها ، إن عددا كبيرا من سكان هذه الجهات يعتبرون عدن في ايدي الروم ، إلا أن ما اقله لجلالتكم هو الواقع لان هذا المسلم اكد لي أن غيره كاذب لانه كان بعين المكان وعاین كل ما حدث بعدن . انني ابعث على رأس كل سنة من يطلع على احوال الروم ، وأرجو من الله أن يقولوا على ما هم عليه . وللحصول على تلك الاخبار بعثت إلى المكان الذي يوجدون به مركبا ليطلع على أحوالهم ، ويعرف حقيقة الأمر وسأكتب والي الهند فور عودته .

أما عن البصرة فإنني لحد الساعة في حرب معها لرفض سكانها تسليمي المراكب التي يحوزون عليها ، ولو كان الولاة السابقون لهذا الحصن فعلوا معهم مثلما افعله لالزمهم ذلك بتسليمها منذ مدة ، ولكننا الآن في حالة سلم ، ولن أسألمهم أبدا طالما بقيت بهذه البلاد وذلك إلى أن يسلموني المراكب التي تضر كثيرا بمصالح جلالتك .

أما عن الشيخ اسماعيل ، فإنه لم يتوفر لحد الساعة أي خبر عنه عدا كونه في حالة سلم .

أما عن هذه القلعة ، فقد أصلحها الولاة السابقون إصلاحا سيئا حسب ما سبق أن كتبت لجلالتكم ، إنني الآن لا أملك إلا أربعة أو خمسة براميل من البارود ومدفعية قليلة جدا وذلك رغم أنه من اللازم أن تتوفر لهذه القلعة أكثر مما تتوفر عليه (رودس)

لأن جلالتم تعلم أن أقواما مختلفة تفد عليه من كل بقاع العالم ، جنويون وبنادقة وأتراك ويهود وأرمينيون ومن شعوب أخرى ، وأن أول ما يقومون به فور وصولهم هو التعبير عن رغبتهم في زيارة القلعة ، وطبعاً لا يمكن لأحد السماح لهم بذلك لأن داخلها لا يختلف عن مخزن التبغ .

إن أهم ما يجب علي أن أقوله لجلالتم هو أنه إذا كان للروم أن يستولوا في هذه السنة على منطقة ما ، فستكون لا قدر الله هذه هي الأولى لكونها شديدة القرب من المضيق ، ولكونها كذلك أهم ما بيد جلالتم بهذه الربوع ، والتي تستفيدون منها إستفادة عظيمة ، لذا يجب عليكم تزويدها بما هي في حاجة إليه وليس ذلك إلا بأمر الولاة بصراحة بما يجب عليهم القيام به .

لقد أتممت نصف (CHAPA) إلا أن الوالي لامني كثيراً على عدم إتمامها ، إنه يريد توسيع القلعة دون أن يخصص لها أكثر من اربعمئة محارب ، واعتقد أنه لا داعي إلى ذلك ما دام يرفض زيادة حاميتها لأن قلعة كبيرة وحامية قليلة تمثل ضعفاً كبيراً .

لقد سبق لي إشعار جلالتم بالضرر الذي ينتج عن مجيء الولاة إلى هنا ، فمنعتم ذلك عنهم ، ولم تسمحوا بمجيئهم لهرمز إلا في حالة الضرورة ، لذا فهم يأتون إليها جميعاً . أعود مرة أخرى لتذكير جلالتم أنه لا يوجد أي شيء أخطر على مصالح جلالتم من ذلك لأن مجيئهم هذا يؤدي إلى إفراغ هرمز من جل سكانها لأنهم يستولون على الدور التي ما أن يدخلوها حتى يحرقوا أبوابها ويخربوها وكلما تحطم شيء ما لا يهتمون قط بإصلاحه ، هذا فضلاً عما يلحقونه بالمسلمين من أضرار وأذى الأمر الذي ينبذه كل الأجانب ، إلا أن أي أحد لا يقدر على معاقبتهم لكثرتهم . أرجو من جلالتم التأكيد من أنني بصفتي قبطان هذه القلعة ، يؤمني مجيء الوالي إليها ، لقد أنهيت المدة التي أنعمت بها علي جلالتم ، ولا يضرني في شيء مجيئه مستقبلاً ، واعتقد أن الوالي (نونو كونها) الذي جاء إلى هنا مؤخراً قد عرف مدى خدمتي لكم . وذلك رغم أنه يؤمله كثيراً إخباركم بذلك لكونه يجد أكثر أعمال (ديوغو دوميلو) ،

وستعرف جلالتم كل هذا بتفصيل فور وصولي ، أقول هذا لاعتقادي أن فيه خدمة جلالتم .

إن من الواجب أن يكون مترجمو هذه القلعة رجالاً أكفاء وعقلاء وذلك نظراً لخطورة هذا المنصب ، فحين مجيء (نونو كونها) كان يقوم بمهمة الترجمان (انطونيو دولورونيا) الذي التحق بجلالتم وحل بدله شاب لا يعرف لا الفارسية ولا أية لغة أخرى ، هذا فضلاً عن كونه لصاً كبيراً .

لقد اشتكى مني هنا إلى الوالي (ديوغو دو ميلو) الذي ادعى أنني أتوخى من إصدار أحكام في حقه إلحاق الضرر به وقدم لذلك طعوناً في أحكامي عارضتها بما أتوفر عليه من براهين ، لقد أمر الوالي بالقيام بتحقيق سري وتسجيل الشهادات وإرسالها إلى جلالتم وبما أنني أعتقد أن الوالي نفسه غير محايد في هذه القضية لكون الكاتب لا يغادر قط بيت (ديوغو دو ميلو) خلال الليل كله ، وبما أن الوالي قال إن (لوبوفاز LOPO VAZ) أخطأ بتكليفه بالقضايا عوضاً عنه ، فإني أرجو من جلالتم أن تتحقق من هذه الأمور وأن تعلم أنني لا أملك أي مبرر لظلم (ديوغو دو ميلو) لأنه كما هو معروف قريبي وأن ما الزمنى بالقيام بذلك هي الرسالة الشديدة اللهجة التي بعثتها جلالتم للولاء حول المظالم والأضرار التي تلحق بسكان هرمز والتي ما تزال في حوزتي والتي اطبقتها حرفياً في كل الأمور ، وكذا تأكدي من أن خدمة الإله وخدمة جلالتم تلزماني بالقيام بالعدل دون إعتبار أي عامل آخر ، إن ما قمت به لم تُمله عليّ غير رغبتني في خدمة جلالتم التي أعتبرها فوق كل الاعتبارات الأخرى ، لذا أرجو من جلالتم أن تفهم هذا جيداً .

وحرر في هرمز في ١٨ نونبر ١٥٢٩ ،

أقبل الأيدي الملكية لجلالتم .

كريستوفر دي مندوسا^(٣)

(٣) الأستاذ أحمد العناني - المصدر نفسه .

ثالثاً : رسالة من برنالدو دوسوزا إلى الملك البرتغالي حول هجوم برتغالي على الخليج عام ١٥٤٥ م :

« سبق لي أن أطلعتُ جلالتك عدة مرات على خدماتي التي قدمتها لكم هنا ، وطلبت منكم في كل رسائلي أن تقوموا بتجريات لمعرفة مدى صدق ما أدعيه إذ بالرغم من أن خدمات الذين يعملون هنا تبدو مخالفة لبعضها البعض عبر الرسائل والطلبات ، فإنني أعلم أننا جميعاً سواء ، ولكنني حينما ألح في هذا الطلب فإن ذلك يعود إلي تأكيد من أن جلالتك لا تسعى إلا إلى إعطاء كل واحد منا ما يستحقه من رعاية وكرم .

ورغم أنني علمت بواسطة أخي (ديوغو لويس DIOGO LOPES) انكم لم تمنحوني أي عطاء كما فعلتم مع غيري خلال هذه السنة ، وأن ما منعك من ذلك هو أن مصلحتكم اقتضت أن لا تنعموا علي بآية قلعة من القلاع التي طلبتها منكم ، فإنني لم أياس من أن أرى جلالتك تنعم علي بذلك لكوني متاكداً منذ عدة سنوات من أن أي أحد لم يقدم ما قدمته هنا من خدمات ، وبالتالي لا يستحق ذلك مثل استحقاقي له .

علم الوالي (مرتاييم افونسو MARTIM AFONSO)^(٤) بعد عودة المراكب خلال السنة الفارطة بقرب قدوم الأتراك إلي هرمز وذلك بواسطة بندقي وصل من القاهرة خصيصاً لاشعارنا بذلك ، مع العلم أنه لم يات إلي هنا إلا من أجل اقتراض الأموال وأداء رواتب الجدافين الموجهين إلى مصر ، ونظراً لكون الوالي كان بدوره على علم بذلك بواسطة ثلاثة أسرى فروا من مصر ، فإنه صدق الخبر ، خصوصاً وأن (لويس فلكاو LUIS FALCAO)^(٥) كتب اليه يشعره أنه علم بذلك بطرق أخرى ، وطلب منه ارسال امدادات للقلعة لقلّة من كان بها من المحاربين .

ولما تبين للوالي شدة احتياج (فلكاو) لأولئك المحاربين ، استدعاني وقال لي إن

(٤) هو دون أفونسو دي نورونها .

(٥) هو لويس فيخارو .

خدمة جلالتم تفتضي الذهاب رفقة أخي (جورج دو سوزا) لكون وصول الأثراك يحول دون إمدادها بالآقوات والرجال الذين هي في أمس الحاجة إليهم ، وذلك قبل شهر نوفمبر الذي يأتي بعد ثمانية أشهر من ذهابي ، وبما أنه بعثني في مهمة في مثل هذه الخطورة تعود عليكم بالمنفعة ، فإني انطلقت مغتبطاً واعتبرت ذلك شرفاً لي ، وذلك رغم أن العملية تكلفني مصاريف باهظة نظراً لكثرة الذين رافقوني ، ولكون الأثمان بالبلاد أعلى من أي مكان آخر هنا ، ورغم أنني لم أكن يا سيدي قادراً على تحمل تلك المصاريف فإن الرغبة في خدمة جلالتم الزمتني بالالتجاء إلى أصدقائي قصد تسديد بعض ما أدين لكم به من فضل ، لاعتقادي أنه بدون ذلك فلن أتمكن من خدمة جلالتم خدمة جيدة . وبعد الوصول إلى هرمز ، بسبعة أو ثمانية أيام وصلنا خبر يؤكد أن الأثراك لن يأتوا خلال هذا الشتاء وأن البحارة الذين اطلعونا على هذا الخبر أكدوا لنا أن الاستعدادات تمت فعلاً وأنه تم تجهيز ٢٥ أو ٣٠ غليوناً ابحرت من مصر إلى AXEBIBI لانقاذها بعد أن حاصرها ملك المنطقة . وبعد مغادرتنا لهرمز وصلنا بعد أيام قليلة إلى البحرين حيث مكثت أياماً قليلة لانتهي جمع قطع الاسطول ولتوفير بعض الأشياء اللازمة للحصار لكوننا لم نكن إلا على بعد تسعة لغوات (LE-GUOAS من القطيف .

وفور جمع كل ما كان ضرورياً ، انطلقت من جديد ، وفي اليوم التالي اقتحمنا الميناء الذي دخلناه خلال الليل ، ووطئت أقدامنا الأرض قبل الفجر ، فكان في انتظارنا ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف محارب كانوا بالمدينة قتلوا لنا حوالي ثلاثين أو اربعين فارسياً من فرقتي وبرتغاليين اثنين ، وقتلنا لهم بدورنا عدداً أكبر مما ارغمهم على الابتعاد عن المدينة التي كان باقي سكانها قد فروا عنها ، وبما أن اليابسة اصبحت آمنة ، فإننا أنزلنا المدفعية التي شرعت فور ذلك في قصف الأسوار في قسم لم يكن يتوفر على خندق ، وهكذا قصفنا خلال اربعة أيام ، أكثر ما يمكن للمدفعية أن تتحمله ، وبما أننا لم نتمكن إلا من إسقاط قسماً منه على علو يسمح باستعمال

السلالم ، فإنني قررت اقتحام المدينة قبل إسقاط قسم أكبر لمناعة تلك الاسوار ، ولكون ذلك يتطلب أياماً أخرى ، خصوصاً بعد أن علمت أن الملك نفسه قادم للدفاع عنها لكونه كان بالاحساء التي تبعد عن القطيف مسيرة ثلاثة أيام ، وأنه كان على رأس ١٤٠٠٠ أو ١٥٠٠٠ محارب وعدد كبير من الفرسان وضاربي البنادق ، هذا فضلاً عما سببته لنا مدفعية وبنادق القلعة من متاعب ، وكذا حالات الاستنفار التي كانت تعلن باستمرار بسبب هجمات اولئك المدافعين الذين اصطدمنا معهم وقت إنزال جنودنا ، الأمر الذي اتعب كثيراً محاربينا وخصوصاً الفرس الذين لم يكونوا متعودين على مثل هذا المجهود .

ورغم ما يثله دخول المدينة اعتماداً على السلالم من خطورة ، فإنني فضلت كثيراً على البقاء في انتظار هجمات أخرى ، إلا أنهم ما إن علموا باستعدادنا لنصب تلك السلالم حتي شرعوا ابتداء من منتصف الليل في اخلائها ، واعترف لجلالتكم إن ذلك أحدث فرحاً كبيراً عند رجال الحملة . . ولكي يحول البرتغاليون دون فرار أكثرهم ، تسلقوا الأسوار خلال الليل وقتلوا بعضهم وأسروا أعداداً أكبر ، الأمر الذي أدهش المسلمين المرافقين لنا أكثر مما أدهش الاعداء الخائفين لكونهم لم يكونوا متعودين على اقتحام القلاع في مثل ذلك الظلام .

وفور ذلك علمت خلال اليوم التالي أن الشيخ مانع وصل إلى محل يبعد عن القلعة ٢ (لغوات) على رأس الجيش الذي جهزه للدفاع عن المدينة ، وإنه ، حسب ما قيل لي ما إن علم بسقوطها حتى عاد من حيث أتى ولم يصلنا منه أي أذى ، وبعد تحطيم ما استعطت تحطيمه من القلعة سلمتها للرئيس نور الدين على الشكل الذي سلمت لهم باقي قلاع مملكة هرمز ، وتوجهت نحو هرمز لقرب الوقت الذي يجب علي فيه الالتحاق بالهند .

وبما أن كل الذين رافقوني عادوا سالمين عدا اثنين قتلا وآخر توفي بسبب المرض ، فإن عناية الاله احاطتنا لأن أرض البحرين غير صحية كما سبق لجلالتكم معرفة ذلك

من خلال موت الجنود الذين رافقوا (سيماو كونها) ، ولأن البحرين لا توفر للقطيف في هذا الباب أي إمتياز ولو شدة الخضرة وكثافة الغطاء النباتي لأنه لا يمكن رسم مكان أحسن من هذا في العالم كله .

ساهم إلى جانبي في هذه الاعمال (جورج دوسوزا) وقدم لجلالتكم فيها خدماته ، وكونه أخي لا يمنعني من القول إنه صالح جداً لخدمة جلالته في كل الأعمال والمخاطر ، وعلى جلالته أن تصدقني في هذا لأنه أخي ولو كان بالنسبة لي أكثر من أخ ، فإني ، وفي حالة ما إذا لم أكن متأكداً من كونه كذلك فلن أقول عنه هذا لأن المرء غير ملزم به أزاء أبيه أو أمه .

وبعد ١٢ يوماً من وصولي إلى هرمز ، توجهت إلى الهند حيث وجدت (دون جوان دو كاسترو DON JOAO DE CASTRO) والياً عليها فبقيت في رفقته . (. .)
أتمنى أن يطيل الله عمر جلالته كما نتمنى جميعاً . وحرر في (كو) في ٢٠ نوفمبر ١٥٤٥ .

برنال دو سوزا

رابعاً : ترجمة الصفحة الأولى من الرسالة العثمانية إلى مراد شاه :

استنبول - بازبكانيليل أرشيفي (الأرشيف الرسمي)

دفاتر الشؤون العامة ، المجلد ٣ - ص ١٣٩

أمر سلطاني إلى مراد شاه حاكم البحرين :

إنك أرسلت اشخاصاً مرات عديدة إلى بلاطنا السامي وعرضت علينا طاعتك لنا

ومنحنا لك شهادة اثباتاً بأننا اعطيناك البحرين كولاية وأخطرنا بذلك جميع المحافظين
المجاورين وسمعنا الآن بأن مصطفى باشا محافظ الأحساء قام بغزو البحرين دون إذن
منا وإنك اتخذت بعض الاجراءات ضده وكذلك حجز البرتغاليون بعض السفن
العثمانية وقد طردنا مصطفى باشا من منصبه بسبب هذه الاعتداءات وعينا محافظاً
جديداً يحل محله . وعليك أن ترد الجنود إلى المحافظ في الأراضي العثمانية وتعاقبهم
بما يستحقونه وهكذا يكون محافظونا وموظفونا في الأحساء والاقاليم الأخرى
مجمعين على تنفيذ ارادتنا حتى لا يتمكن العدو (البرتغاليون) من إلحاق أضرار بتلك
الاقاليم .

(٢٨ ذي الحجة ٩٦٦هـ)^(٦) .

(٦) عن مجلة الوثيقة - العدد الأول - السنة الأولى .

خامساً : رسالة من رجل اسمه (بابا عبد الله) من أهالي هرمز
مؤرخة في ٧/ صفر/ ٩٢٢ هـ - ٩/ ١٢/ ١٥١٨ م .

الحمد لله وحده . حيث
من بابا عبد الله واحد
من مساهرين هرمز
وخدمته فاعلم ياسيدي
ان بعد ما وصلت من
الديب . الي كوشين
التقيت مع قبطان
المور المسمى افنصو
دالبوكرك متي رجع من

ملاقات والباشادور
قبض بيدي وقدمني الي
قبطان مور وقال له
ان كان تريد تسبح
اخيار بندر الديب
لسالك بابا عبد الله وشي
يجبرك عن جميع
ضريفات وخيرك وبعد
هذا ياسيدي توافعت
مع القبطان مور وخبرته
على كل امور الديب
ومدخلها وكل اخبار
التي اراد يعرفها وبعد
ما تحدثت له كل شيء
قال لي انت يا بابا
عبد الله تكون مواظبة
في الصلح وترجمان بيني

وبين سلطان الديب
وبعد تمام الصلح تكون
وزير علي هذا اتفقنا
واعطاني كلمته وسأني شروط
صلح الديب وحط عليهم
خط يده وقامت له ان
اهل البلاد هم ناس
ضعفاء وما يحتاجون
محاربة ولا مخاصمة
ويقدر يلزمهم باعطاء
نفك محصول البلاد
وتكون الذابذة الي
سلطان البر تكال لان
هذا المقدار كانوا يعطوه
الي مام علي ملهباري وان
قبطان المور لازمه ان
يمنع مام علي عن قبض
المال ويقول له ان
من اليوم لنأكل يخص
الي سلطان البر تكال
وبعد هذا خرجنا من
كوشين الي كوه ومن هناك
الي تننور وفيه بولاء تنب
لمام علي وهو حفر
للحال الي مجاس
قبطان مور وقال له
ان من ذلك اليوم
لغالب لا يغيب عن شيء

من تحول الدببة لانه
 يخص سلطان البر تكال
 ومسام علي قبيل
 كلامه واعطا كلمته الي
 قبطان مور وجرت الكتبة
 علي هذا الاتفاق
 وخطوا عليها خط يدهم
 وخط الذبهن كانوا
 حافرين في مجامس
 قبطان مور وهم فكر
 حسين ما ياري وكوجي
 يغني والنزير متاع كفتور
 ودون غراسها مع باقي
 فواخر برتكال بان
 نغف مال الدببة الذي
 كان يقبضه مام علي كل
 سنة فهو الان الي
 سلطان البر تكال
 وبعد ما تموا هذا الاتفاق

سافر قبطان المور الي
 كوه واخذني معه السي
 بنستري وقال لي بعد
 ما انشد بنستري اعطيتك
 غراب وتمت زيارتك الي
 الدببة وبعد ما قدس
 بنستري طلبت منه الغراب
 والعسكر الذي وعدني به
 حتي اسافر الي الدببة

فقال لي ان ادوة
 اوراق من برتكال وامر
 ليخترج الي بندر عدن
 ولهذا يبحث اج الغراب
 والعسكر ولا كرن بعد ما
 يرجع من عدن بحالني
 الغراب والعسكر وزاد
 قابلا انت الان
 تروح الي عادل خان
 وتوصله مكتوبي وماني ترجع
 من هناك نمضي معي الي
 الدببة وانا ياسيدي عملت
 ما امرني به وسأرت الي
 بلاد عادل خان وسأته
 كتوب قبطان مور
 واخبرته بذلك ما
 قال لي قبطان مور
 وبعد ما رجعت من
 هناك طلبت منه الموعود
 فمال لي ان وصل
 بأشور من برتكال
 وجاب له امرحتي ببني
 حصن في هرموز وانه

مسافر لتلك البندر لحضر
 علي بناء الحصن وانا
 بقيت وحدي وبعد كالم
 يوم سافرت الي الدببة في
 سبعة عشر مائا علي

وحدثت معي مكاتيب
 قبطان مور الي
 سلطان الديبة والي
 وزيره علي جهات المال
 انني كان يعطيه لمامر
 علي وذكر له ان لا يعطيه
 له ويخذه عنده لانه
 يخص الي سلطان
 البرتغال وقال
 لي ان اجلس في الديبة
 حتي يرجع من هرموز وبعد
 ما قيات كلامه
 سافرت كها
 ذكرت ومع وحدائي
 فعلت ما امرني وسالت
 المكاتب لكل واحد الذي
 يخذه ويرت حق يرجع

وفي تلك الوقت جاءوا
 انصاراً من عند مامر
 علي يطالبون من
 السطان محصول
 البلاد فقال لهم انه
 قد غش اوراق من قبطان
 مور وامره ان يزبلم
 الي مامر علي نبي من
 المال لانه يخص الي
 سلطان البرتغال

ان كان يريدوا يقبضوه
 ياتونه بامر من قبطان
 مور فقالوا له ان
 قبطان مور البوكرك قد
 مات في الطريق حتي
 رجع من هرموز
 والقبطان الثاني
 المسمي لويس سوارس
 ومامر علي اتفقوا بهتم
 بان المدخل
 المنخر من السنين
 الماضية يعطي الي مامر
 علي وبعد هذا قبضوا
 المال المناخر يعني
 نصف محصول الديبة
 وعملوا اتفاقا ثاني
 مع سلطان الديبة
 بدخول دوان جوان
 قبطان مور سبلان
 الذي كان الي الديبة
 وقال للسلطان
 ارسل اثنان من وزرك
 الي بقدر كوشين لينفقوا
 مع قبطان مور تلك
 البلاد علي المحصول الذي
 له يعطي كل سنة الي
 سلطان البرتغال وبعد
 ذلك ارسل سلطان الديبة
 اثني من وزيره وانامضت

معهم وبعد ما وصلنا
الي كوشين تلاقينا مع
قبطان مور واتقنا

سافرت معهم من كوشين
الي الديبه واعلم ياسيدي
ان مام علي قابض نصف
بلاد الديبه وهو يخرج
محموله ولازم ان تكتب الي
قبطان مور انه يخرج مام
علي من تلك البلاد لكي
تكون اهلها مستريحة
وخالصة من التشويش ويكون
كل محصول البلاد الي برتكال
من غير هذا مام علي قلبه
يابس ولا يقتش الا على خراب
البلاد لسبب انه ما هو
بعت حكمه وان اموت
يخرب في بلاد كوشين
ممكنه تكون مسريحة
وخالصة من شدة ويكون
معلومك بامولاي ان
سلطان البلاد ووزر والرعية
كلهم راضين بحكمك
وظالبيين منك اربعة غرابات
لتكون دايماً في بندرهم
لخضعتهم وحض بلادهم لانه
بلاد متحجر كبير وتاتي اليه

المراكب من كل البنادر كما
هم ملاقات وينتجلا
ورطبان وببكو وفهور والهند
وهرموز والمليبار ومن الببع
والشرا تحصل فائدة كثيرة
ولاكن اهل البلاد تحتاج
امر ولازم ان تهتد به
وهو ان تامر لناسك ابن لا

يفلون ولا يغصبون اهل
لان ولو كانوا ضعفاء
وعاجزين اذا صار ايم ظلم
فيتركون البلاد ويرحلون
منه والمراكب يمتنعوا عن
المحبي اليه والغريباء
الساكين به يفعلوا هكذا
وهم ناس كثيرين
وبخلاف ذلك اذا وجدوا به
امان وطمان يعطون
فائدة للبلاد في بيعهم
واشتراهم واعلم ياسيدي
ان البضاعة التي يحصل
منها مدخل البندر اولها
التنبر وهي الاحبال
والكود والنجف وزيمور
والقماش وكذلك الصيد وهو
متحجر كبير في هذا
البندر الي بندر شحطرة

والبها يوسقون المراكب على
 قدر كبرهم لان ولو كانت
 الناس ضعفاء هم يصلحوا
 للتجارة ومن بيعهم
 وشراهم يعطون قيادة
 لسبدي ولاكن يحتاجون
 الامان وان لا احد يظلمهم
 وكذلك الغرباء والتجار اهل
 البلاد واخيرا باسبدي ان
 مملوك لي سبعة سنين في
 خدمتك وتركت بلادي
 واهلي وعيالي وكل منفعة
 واخترت خدمتك قلاج

فان احلم علي بشي معلوم
 للعاش وقوة العيال واذا
 اجاء قبطان مور اعطاه
 اسمي بعني بابا عيد الله
 حتى اقبض منه فذاك وهو
 يكون على والسلام *

في ٧ من سفر سنة ٩٢٤ هـ

7 de Safar de 924. Correspond-
 is 9 de Dezembro de 1518.

سادساً : رسالة من (شمس الدين) في هرمز

٢٨/جمادي/٩٢٥ هـ - ٣٠/١١/١٥١٩ م

الي حضرة دون منويل
 سلطان برتكال
 المخصوص بالمراتب
 العالية رجب العالم
 الذي ملكه الله بساط
 الارض شرقاً وغرباً اوجاً
 وافقاً ثم يعرض علي
 حفرتكم العالية المحب
 القديم والاخ الصديق علي

احوال وامور البلاد الذي
 هم بعبود الله علي
 الخاطر والرعية ببركة
 الري الكريم حاصلين
 علي كل خير ولا صاير لهم
 الا فضل واحسان
 وقبيل هذه الايام
 وصلنا كتابكم الشريف
 علي يد انفساركم وفهمنا

معناه وما فعلنا
 الا الواجب كما امركم
 الشريف فلهذا السبب
 وقعت بيننا وبين اهل
 كلكوت بعض خصومات
 وكان سببها الظلم
 الذي فعلوه مع انفساركم
 ويكون معلومكم بان
 باقي السلاطين وناس
 بنادي العرب والعجم
 والروم كلهم صاروا
 اعداي لاجل محبتكم وانا
 ما على بالي منهم ولا اخذ
 بعداوتهم وانا ما
 اقتش ولا اريد الا
 محبتكم واتفاقكم
 وهذا شيء مشهور في كل
 الدنيا وبين السلاطين
 والكبار والصغار ان
 الري دون منويك
 وكولتري شيء واحد وهذا
 ما فيه شك ولا يظهر مني
 تغبير ابدا ولا اريد الا محبتكم
 لان لا اريد غير محبتكم
 ولو كانوا كلهم لي اعداء
 وعري ما راءيت من
 نياك وعساكرك الا

الخبر ولاكن عن
 قريب خرجوا من بندر
 هرموز مراكب تخص
 لرعيبي وساكنين في
 ايندركم هذا وكانوا
 مسافرين الي بندر آخر
 في الساحل ولاجل
 الامان وايمان من
 ناس مراكبكم
 اعطيتهم خط يدي لكي
 يعرفوا انهم رعيبي وبعد

ما خرجوا من ايندر
 المذكور التقوا مع مراكبي
 اخذوهم واتوا بهم الي
 كوة واشل المال
 جاءوا يشتكون لي ولا موني
 بذلك قايلين انهم ما
 خرجوا من البندر الا
 تحت اماني الذي
 اعطيتهم وبسبب الوقعة
 التي صارت لهم وشكاوتهم
 عرضت عليكم هذه
 العريضة وانا ياسيدي ما
 اريد الا اعمار البلاد وزيادة
 المتاجر فيه وان كانت
 هذه محبتكم لي وعهدك

معني فاعلمي بخاطرك
 لان بعد هذه المصيبة
 تركوا التجار بندري ولا
 يخل اليه احد وانما كل
 جهدي في عمارة البلاد
 وقبول الناس فيه ورفع
 الظلم والجور عن الرعية ولو
 ما كان هذا اعتباري
 لكسنت خربت البلاد
 فلاجل ذلك والحصرة التي
 اخذتها نفسي كتبت لك
 هذا الكتاب لتعلم الظلم
 الذي فعلوه ناسك مع
 انفاري وخدامك وهذا
 البلاد بلادك فان سمحت
 ان تفعل به افعالي
 قبيحة مثل هذه لا بد
 ان يخرب ويتغير خاطر
 الجميع لان هذا شيء
 يجلب العيب عليتنا
 وانت عالم ولا تخفي
 عليك افعال المكروهة التي
 فعلوها ناسك قبل
 هذه وانما ساكت في
 حالي حتي ياتيني جوابك
 لان اعدائي يضحكون علي
 قسائي بلهذه سوائف
 حجة الري دون منوي

لكولتري وانما مستحي
 منهم ومنكم اكثر لاني
 خديمك ومسا اريد الا
 بباض وجهك ورفع جاشك
 وان كان ناسك
 يستطيعون في بندري في
 افعال مثل هذه فقد
 تمت محبتنا واخيرا لا
 استريح ولا اكل ولا اشرب
 الا مني ياتيني جوابك
 واعرف بخاطرك والسلام *

في ٢٨ من جمادي سنة
 ٩٢٥ للهجرة

الخديم المقر ك بالعبادة
 شمس الدين كتبه
 باسم واهر كولتري

A 28 de Jumadi de 925. Corres-
 ponde aos 30 de Novembro de 1519.

Do Servidor, que vos rende summa
 escravidão, Xamfeedin Secretario
 de Cotelery, com cuja ordem, e no-
 me escreveo esta.

سابعاً : رسالة من السلطان علي ملك بلدة (ملندي)

بسم الله الرحمن الرحيم
 الي السيد دون منويك
 سلطان البرتكال والتريين
 صاحب غناوة والمعدنين
 مالك جزر بحر العربية
 والعجمية واقاليم وامصار
 ومدن صاحب مدبنة
 مباركة مامونة متحفوفة
 وبحرسة السلطان المعروف
 بعلوم مقامه والمشهور في
 وقاره والممدوح بافضاله

المجتهد بعجود دين
 النجاري الذي اطاعه
 البعيد والقريب سلطان
 لا عيب فيه وجهه اخضر
 من البدر اذا نهي الذي
 يخرج منه حسن الجواب
 ويدرك من كلامه كل
 الصواب من طلب منه
 نال مقاصده وممن
 اجتنب عنه ابتلي
 بالمعائب اذ امر الله عزه
 وبعده ياسيدي فانه
 سادبكم علي سلطان
 ملينده بن علي سلطان
 تلك البلد اسلم عليك
 جزيل السلام واقبال

بشاش وجهك واترتي فضلك
 وطامع بالحسانك وانهي
 لعلمك بان منويك
 قد نذوق بطان مور ملينده
 قبلك كل الناس التي جاءت
 من الدييه وطلبت منه
 ما ذكرت لك عنه من قبل
 فاعطاني ببركتك الحمد
 لله كثير وكل احل ملينده
 يعزوك اكثر من كل العباد
 لان خيرك علي وعليهم
 ما له حد ناله يطول
 بقاءك امن * وعبيد بن
 قاسم كاتب هذه
 بيلغكم جزيل
 السلام

ثامناً : رسالة من (زين الدين) إلى الكابتن دييكلوليان DIOGOLPES

٥/شعبان/٩٢٦هـ - ١٥٢٠/٦/٧م، وهي توضح المظالم التي كان

يرتكبها الولاة والقادة البرتغاليون في الهند .

من هذين الدينين القايم
بامور رب العالمين اني
كفتان موردهو ولوبس
الذي في حصن
سلطان البرتغال الذي
متعلق فيه حكم البلاد
يهدي لك زود المحبة
والسلام ويعلمك بان
الورقة المبعوثه لي من
جنايبك مع جوان
وصلتني وفرح بها قلبي
لتجديد المحبة التي
بيننا ومتي اجاء احد
من ناس البرتغال الي
بلادنا نكرمهم ونقدم
له ما كان في بلادنا
لحفض المحبة والمودة وبعد
هذا جاء الينا مذكور
فلكون وهو اشر الناس
بافعاله واول فعل الذي
صدر منه كان مع طراد
حاء من تديا الي

شمطاره واحد من كل واحد
من ناسه ثلاثين دينار
ذهب بالغصب وقتل
بعنهو وبساع بعثهم
وتاني فعل كان مع
طراد جاء من بنجلا
واحد منه اثنتان
وعشرين طرزيات فشه
وامه وبعث الطراد الي شهوره
ومن هناك الي ملاقات
كان فيه مال كثير
الي احد شمطاره والثلث
مع متخلف شهوره اسمه
بيرانكو فتيهك حرمته
وقتل له ارجه من ناسه
واثنان من احد مرقس
والرابع الظلم الذي فعله
معي ورا د ان اعطاه مائة
وعشرين طرزيات وعشرين
اصاحبه والثلث امس
ذائب خمسين عبداً او
امته من شمطاره واخذهم
بالغصب وبعثهم الي ملاقات
والسادس يريد مني

ولا السلطان يعرف
 افعال متوبك فلتن
 وغسير ما غلبس لان
 حقت عندنا ان
 السلطان ولا انتم ترضوا
 ان تفعل هذه الافعال
 مع الرعية ولا كن
 بتدركا هو بتدركم
 ويلزمكم حفظه والسلام
 * في ٥ من شعبان
 سنة ٩٢٤ للهجرة

fo, e de vós depende a sua con-
 servação.

A 5 de Xabau de 946. Corref-
 ponde aos 7 de Junho de 1520.

فانك وغيره يبار وبعد
 هذا جاء اليه شير
 من الناس وهذا كانت اشر
 واقبح من الاخر فاول
 فعل الذي فعله كان مع
 طراد جاء من ديو واخذ
 منه مائتان طربيات
 بالغصب والتاني كان
 مع طراداتي من كميابه
 وعاصيه ملك تلك البلاد
 اسمه علي ناخوزة واخذ
 منه مائة طربيات
 والثالث اخذ مائة
 طربيات من طراد اجاء
 من عليكات وفيه اموال
 اهل شمره والرابع احد
 من طراداتي من بروس
 مائة وعشرون طربيات
 وكان يخص الي ملك
 بنجلا والخاص الغصب
 والقهر الذي فعله مع
 اهل شمره ومع
 القاضي والوزير لاجل
 ذلك نشك في لك لتراء
 احوالنا لان هذا شيء
 ماله احتمال ولا سيما
 بانه فعلهم من غير امر
 السلطان ومن غير امرك

تاسعاً : كتاب من (الأمير أبو النصر شاه)، وهو أحد أولاد شرف الدين في
 هرمز إلى الملك (دون جوان) يعرض عليه مشاكله مع الحكام البرتغاليين وجورهم
 وطمعهم، كما يذكر فيه أخبار البحرين وجلفار والكتاب مؤرخ في ٢/شوال/٩٢٩هـ -
 ١٥٢٣/٨/٨ م .

إلى السلطان دون جوان
 فالوجب أن نعرض كل
 ما يستوي في بلادنا
 على سلطان الأعظم
 والممول من احسانه
 أن يرد لي جواب
 لاتشرف به فاول ما
 اعرض على جنابك
 السامي بان لما جاني
 اخبار الحصار الآخر
 عملت برج علي باب
 كلكوت لاجل حفظ
 البلاد وخرجت علي عمارته
 مبلغ كثير وفي زمان
 ابي واخي تعيدهم الله
 بوجته ارادوا اكبر الانرج
 باخذوا بيت السلطنة
 من عندهم ليهدموه وقالوا
 للوارثين ان يعطوهم
 بيت غيره لانه مضر علي
 حصار السلطان فالوارثين
 قالوا لير لا نعطيه لكم
 لان هذا بيت ابانا

جماة يتيا منه مع المال
 الذي صرقت على عمار
 الموح وخرجت عليه مرة
 كثيرة فطلبنا منه يوم
 الذي اتي لعندي وحضرته
 عابها قدام الحاضرين
 وكانوا قرتندو وديوكو
 دمسكبة افلاك خرج
 من داري وما اخذ بكلامي
 فبعد ما خرج اختبروني
 بان السلطان قتل
 وزيره فلما سمعوا الذين
 كانوا حاضرين بعثوا
 واخبروا مرتينوا انفسو
 ولما عرف جاء للوقت
 الي بيمني مع اكبر الفرنج
 وعمل معي اعمال
 القبيحة وقلد وقاري
 وهتك حرمتي كما
 يشبهون جميع الفرنج
 وبعد هذا سلم حكم
 هرموز وباني بنادرة الي
 اقرباء وحكم جلفار
 اعطاء الي اخوه علي ثلاثة
 سفن ضد عادة بلادنا

لان كل حاكم يحكم
 سنة وحكم بحارين
 اعطاه لريس محمد
 واخوه نسيم ريس شراف
 وكل هذا لمنفعته وعلى هذا
 الحال تراني قلبك
 الحزم بين اكابر الفرنج
 وبعد ما اعطاه
 حكر بحرين الى
 ريس محمد اعداه غابة
 العدة واقرن ما يقدر احد
 ياخذها من يده لان
 فيها برج عظيم والوزير
 الجديد في هذا الوقت
 كل معاشه من القوانل
 التي تاتي الي هرموز
 يستنفع منها كثيرا ويبيع
 بعض القماش الي بيته وبعض
 الي البتكسال ومن هناك
 يشترى مع القبطان الذي
 والفبطور بالتمن الذي
 يريد به وهم كلهم متفقين
 على ذلك وعوايد القديمة
 في هذه البلاد ولا سبها علي
 زمان سلطان المتوفي
 كانت ان القبطان
 ما له الا حان وسيف
 وبرطاف من ذهب

وخلعة. وفي هذا الوقت
 ياخذ مني الف اشرة
 دراهم ولا يترك في طويلتي
 من الخيل الجهد ولا راس
 ومن حد هرموز الي قلعات
 كلما راءوا حصان ملج
 ياخذوه بالتمن الذي
 يريدوه ولا ياخذون بصباح
 احبابهم وبعد هذا هم
 يقبضون الرشوة
 والبرطاف وبهذا الفعل
 يخذ القون امدون بدرو
 وقامم الفرنج و...
 دون بدرو الي هرموز في
 القبطانية حساب لي
 مكدوب من انكر نادور
 طالعني الي قوه وانسا
 لاجاب طاعني لامرك
 العالي ما ابنت بذلك
 وارفعني من الله منكم
 الف مغفرة من المذكور
 والسلام *
 في ٢ من شوال سنة ٩٢٩
 لايجرة *
 من مهاباد نصير شاه

عاشراً : رسالة من (محمد شاه) حاكم هرمز إلى الملك دون جوان يخبره فيها بأن أعداءه استطاعوا التغلب عليه وأخرجوه من هرمز ونفوه إلى (كوا)، والرسالة مؤرخة في ٩/شعبان/٩٣٢هـ - ١١/٦/١٥٢٧م.

إلى السلطان دون
جوان استوجب العرض
على عالي حضرتك الملوكة
والعالم من عظم
الضائق بأن تتفضل
وتقرأ كل ما سطرناه
في هذا الكتاب وتعلم
علمنا برد الجواب لأن
الواجب على جميع الدنيا
أن يشار البلاد وحقق
البيعة تخص السلطان
وتعظم السلطان يجب
على الرعية لأن البلدان
والرعية لا تستقيم إلا
بقوة السلطان وحمله
وعدله وسبب تخريب هذه
المقدمة هو أعلام حضرتك
العالية بأن أباك كان
يعلم أن سلطنة هرموز
سل بعد سل وبطن
بعد بطن وسلطنة
كلهم كانوا من هذا البيت
وسلاطين هرموز هم أهلها
وإنا تحقق هذا

عندكم امرئ يرجع
السلطنة إلى هذا المختص
وإنا قمنا دأبنا
بخدمتكم ولا بد أن
طاعتنا لجانبتكم بلغنا
لحضرتكم العالمة وفي تلك
المدة أقمت بواجب
شروط العدل والمراعات
كما يجب ورفعنا
الظلم والتعدي عن الرعية
ومع ذلك تسلطوا على
الأعداء غاية التسلط
وأخرجوني من السلطنة
والبلاد ويعتوني إلى كوا
واليوم جميع البلاد والممالك
في يدهم وكل الذين
علمت معهم الخير راعيتهم
في زمان الأول فسعوا
في بعدي لأجل طمعهم
في الحكمة وإيذا أبعدوا
هذا المختص من السلطنة
ومن الكبر والوقار وما رضوا
بالحكم فقط ولا كان
أدوني في نفسي وسبوا
حرمتي ووقاري جباراً
وإنا يأسدي أعرض على

في ٩ من شعبان سنة
٩٣٢ هـ
من محمد شاه سلطان
هرمز

A 9 de Xabán de 932. Correspon-
de aos 11 de Junho de 1517.

عدك الشامل اثمهم
ومبساتيم واذن من
بيد شهر المجد الذي تهمهم
به الفرامين والمكاتب فاذا
كتبوا مكتوب باسمي
علي يد مام علي ومهدوه
بمهدوي فلا تراء من به
لان بقدرنا بكتبوه
كثرت ببقونه وهذه
الناس ما فعلوا هذا
الا بمعونة مرتين انفسو
وميلوا لافه من جانبهم
المطلوب من حضرتك
العلية ان متي وقفت
على المكتوب وقراءته
وتحقق لك ما ذكرنا
فبعه تاسمان بخرجون
هذه الناس من هرمز
وامر ايضا الي قبطان
المور الذي بجي ان لا
يسمع كلام اعدائي ولا
يعمل افعال مثل
الذي فعلوها هؤلاء ولا
ترسل جواب مكتوبي
اليهم لان ما يريدون
لي خيرا والسلام *

حادي عشر : رسالة أخرى من (محمد شاه) حاكم هرمز،

إلى أعظم السلاطين وأخضر
الملوك دون جوان
سلطان البرتغال
ومستفتح أقاليم وبلدان
الشرقية والغربية قاهر
الملوك القوية خلد الله
ملكه ودام عزه أما بعد
بأمرائي كما لا تخفي
عليك طاعتي وخدمتي ما
كان له سبب أن
تجري لي المصائب التي
عرشتها عليك فأعلم أن
لما أتى إلى هنا
القبطان ديوكو دمبلو
طلبني بالمال المحصول
كتب ما قبضه
للحال حبسني وفي تلك
الحدة ما حصل من
المال غير عشرة دنانير
والباقي صرفه كبقية شاء
وذا عبدكم في سنة في
الحبس والمحبول
محسوب علي وأنا أعطي
عليه جواب وهذا أيشهد به

وتكتب إلى قبطان المور
أن لا يهلك معي هذه
الأنفال لأن إذا كانت
المالاد في دمتي وضبط
المال بيدي فامره أن
لا يتعدي علي ولا يتعارض
في حكمي وأمر بالادي
وأنما مستني الجراب
وأظهر أرحامكم معي
وأن كل ما كتب
لك قبطان المور فهو
بشر صدق وكله هداوة لي
كما يشهد بذلك القبطور
وغامما وبعد ما مدية
هذه الأحوال سافر
القبطان المور إلى كنوة
لخدمة الأمير ادور وزير
الدين محمد شاه وبعد
مدة حان ما خبار مع
الفارسان وبشارة
مراحمكم مع محمد شاه

القبطور منويك فالملوك
منك أن تنظر إلى أحوالي
ينظر الحالم والرحمة

بنا انكم خفتكم عند
مهلكنا من حصول بلادنا
فالموجو من فضلكم ان
تكتب علينا بخط
يدكم الشريعة تخفف
الحصول على لان عيالي
كثيرة ومدخلي قليل
وحاصل الكلام ان

كل ملوك الهند بمواسطة
عننايك ومواهبك كلهم
شرب ومطعمين تنعت
ظلال شرفك وامسا
محمد شاه اخذ من
ساير الملوك لعنايك
وفذلك لان محسوب
بمقابل اخذك وفي
زمان التدبير كل
سلطان العرب والعجم
كانوا محتاجين الي
انعام سلطاني هرموز
والان محمد شاه
يحتاج اليهم وليس هذا
من استهمالكم ولاكن من
ظلم ديوكو دهبلو وهو
سبب هدم البلاد وقله
متجرها فلهذا
محتاجين ان تخفف

عنا جزو من محصول
البلاد والامر به ياتينا
مع القبطان الاتي وتوصيه
لحفظ مالكم وعيارة البلاد
وان ما جعلت نظرك
الشريف علي فلما اقدر علي
الاقامة في خدمتك لان
بعد ما حبسني ديوكو
دهبلو واخذ المال
الحصول نقاني الي
مبلبار وابعدني عن
عيالي وولادي الذين
كانوا في خدمة سلطين
فاغاب من فضلك ان
ترسل لي امر بخطك
الشريف بسان من
البرور لقابل لا
بتعاروان علي القابطين
ولا النبطية ولا يغصبوني
بشيء ولا بتصرفون بعالي
ولا يطلبون مني ومن
الرعية شيء حتي اقدر
اقوم بمقام خدمتك
بفرغة البال وباتي
الرعية كذلك

من خديمر بابكم
العالي محمد شاه
سلطان هرموز

ثاني عشر : رسالة من رجل اسمه (راشد بن أحمد المسقطي)، إلى الملك دون جوان. ويقول النص البرتغالي في أسفل الرسالة إن راشد هذا هو ابن (ريس شرفو) حاكم هرمز، وإن الرسالة بعثت على أيام (أنطونيو كوريا) الذي غزا البحرين .

جارية علي نهـ
الاستقامة المراد وأن هذا
المملوك وأقل الخدام قايم
علي سائق الطاعة وانعبودية
وستشعر الساعد في الخلاص
وقد اشتهر بين الانعام
وظهر اسمه عند الخاص
والعوام بأنه من جملة
خدامك الخالص ويؤتي
علي الجميع بالخدمة والخلص
إلي تلك الحضرة العالمة عرعا
الله بدوام دولتك وأن
بعد ما تفرغ له حكم
هرموز زاده ينتج قلهات
وكل نواحيها كما يري
في تاريخ القديم وحياة
المال ودفعه وهذا المفعول
الآن قد قلب من البلاد
وخاب فني ومأمولي ولم

يكن للمملوك أمل ولا
رجاء إلا بعناية القامله
والمراعاة اكامله من عليا
الحضرة العالمة ومن
مملوكيتك التي شملت

إلي السلطان الأعظم دون
جوان سلطان برتغال
يقوم التراب تحت
موطي اقدام حضرتك
أقل خدامك ويعرض إلي
حضرت العالمة والسادة
السامية السلطان بن
السلطان نخضر المملوك
ومولاء امارة العرب
والعجم موبد قواعده
الحكم قانع بلبات الجور
والظلم والقهر محل المجد
والتعظيم ومركز النخ
وعظم مراتب السلطنة
اعظم سلماطين الفرنج في
الزمان الذي شرف الله
بلادنا بحكمه اذ سواه الله
سلطاننا ملك
البرتغال وما يحواه
بقم الادب والفصاحة
وشفاة الاجل والتكريم
والفاظ العبودية ينهي
إلي حضرتك بأن
امور حكم هرموز باهتمامك

ووصلت لكل الناس لكي
تتخفف عني بجزو من
الذخيرة ونطلب ايضاً
العفو من اساءة وقلت طاعة
ابي وما فعله ضد حذرتك
العالية وباقي الاعلام عن
احوالنا فهم ياتوك على
لسان قبطور هرموز وعلى

لباقي السابرين معه ومنهم
يتخفف لحضرتك خدمة
هذا الذليلوك واخذ لخاصه
الطالب سنتهم ان لا
تغفل عن مطلوبه ولا
ترفع عنه نضر الرحمة لان

اغصان شجرة السلطنة
ما زالت مخففة بماء الخلود
الي يوم الموعود ولا يتخفي
عليكم بان حكم
هرموز خدوتنا ولايت
قلبيات قد وقع عليها
الخراب والوار وليهذا السبب
قال منها الماحول
وكيف الباد في بالادكم
اقتدرون بها كما
بوجب عارثها
وحفظها والسلام
معكم

من اقل المماليك
وخديمك راشدين اجمل
مستطلي

*Do minimo escravo, e servidor vosso,
Raxeban Ahmed Mofscate.*

Nota.

Raxeban Ahmed Mofscate era o Guazil de Ormuz, filho de Rics Xarafa, e isto mesmo se dá a conhecer no perdão, que na sua Carta pede a ElRei da desobediencia, e mal que seu pai tinha commettido. O Feitor de quem se falla nesta Carta era Antonio Corrêa. V. Chron. delRei D. João III. Part. IV. pag. 72.

ثالث عشر : رسالة من أحد حكام المقاطعات الهندية تبين الفضائع التي يرتكبها الحكام البرتغاليون .

بعد عرض العبوديات
النافيات والخدمات
الوافيات التي حذرة السلطان
الاعظم قديم الاختيار
اكبر السلاطين والحكام
وانتخار الخواطين
السلطانان دون جوان
خلد الله ملكه وبعده نعلم
جنايبكم العالي بان بلادنا
كما لا يتخني عليكم
بلاد العجز والمسكنه
وانت سلطاننا اكرم
الملوك والسلاطين ونحن
بحقامة ولادكم وانما كل
الانبياء والحكما متفقون

على شريعا وراي واحد
ان بقاء الملك والسلطنة
هو بالعدل والانصاف
والعدل فضل الله عليكم
به ولا تتبين عدلك ما وعد
الينا كما سلطاننا الحليم
ونحن في مقام الخدمة
والخائن وصرفنا اكثر ما
لنا في خدمتكم كما

يشهدون قوايبكم
وناسكم وانتم تعرفون كل
هذا وعسكركم كثير في هذه
البلاد ولا يسمع اوامر
امركم وناس عسكركم
يسلمون البلاد ويسفكون
دمائنا ويقطعون سبلنا
وينزلون بيوتنا ويخرجون
اصلنا واولادنا حتي هارت
بيوتنا خاليت واهلها
هارت ولا يخفي عليكم
ان مراكبكم متي جاءوا
ياخذون مال الناس برسم
الاشتراء وعلى الغالب لا
يعطون ثمنها او يعطون
نصف الثمن وايضا
رسم بلادنا من قديم
الزمان ان الناس من
اول الليل الي الفجر
يترددون في الطريق
ولاكن متي يسجي
قبطان موز مع عسكرة
لا يقدر احد يخرج
من داره لان ينهاون
له ثيابا وبخدين

الماء التي يجيبوننا الي
ديارهم لان الماء
لاستعمالنا ليس في
المدينة بل يجيبوننا
من الخارج وفي تلك
الاورقات ناس العسكر
يمنعون اهل البلاد من
مشتراء الماء وهم يشتروننا
بنصف التمن وياخذوننا
الي يهوثير وسنغير ولا
يعطون ما يوجب
وبسبب ذلك الناس
بالرسان كنيانهم ونحن
علي هذا الحال لا نستطيع
علي الاقامة لاننا ناس
عجزون غير مقاومة وايضا
وقعت علينا الدقة وانت
سلطاننا وحاكمنا وعدلك
بلغ الي جميع الناس
ولاكن البناس ما
عل ولا يلحق علي
عظمتك وعلو شانك البتة
لكونك اعظم الملوك ان
رعبتك تكون بهذه
المشقة ونرجو من حاكمك
العظيم بان تمنع كل
قبطان مور الدخول الي
بلادنا واذا جاءوا مامورين

منك ان لا يجيبون
معهم عسكر كثير ولا

يجيبون وبغلاذين الرعية
ابدا لانك انت اتار
المراجه والعناية ونطلب
احيرا ان نعطي حكم
هذه القبطانية الي جوان
ردريكو لانه رجل عاقل
وعادل ويعرف احوالنا
واحوال البلاد وان ما
عمرت هذه البلاد الا
بعده وانصانه فلهذا
اعطيه حكمه علي مدة عشر
سنتين حتي نستطيع
بحكمه ونشتعل في
الدعاء الي الله بدوام
حكمكم ودولتكم وتخدم
سلطنتكم بحفظ الله
وسلامته

رابع عشر : رسالة عبدالرحمن بن حدود المزطراذي إلى الملك (دوم مانويل)
مؤرخه في ٤/رجب/٩٢٣هـ - ٦/٥/١٥١٧م، والمزطراذي هذا هو أحد حكام
المقاطعات المغربية الموالية للبرتغاليين .

الحمد لله وحده الذي
السلطان دون منوب
سلطان البرتغال
ودعالت والهند ادام الله
عزه ونصره من خديمه
المقر باحسنك الراغب
الذي نظرو وجهك والطالب
من الله دوائر عافيتك
وطول عرك الخديم عيد
الرحمن المعروف بابن
حدو المزطراذي بقبول
ايداي حضرتك وبعادت
باني لما كنت في
بلادك كنت مفاد
المسلمين على مدة ثلاثة
سنيين وبعد هذا خرجت
منه بامررك ولخدمتك
وجيت تسعت كلمتك
وعلامك اخذت ثلاثين دوار
بمالها وناسها
وجريتها ليهن يديك
وطاعتك وقرحت بذلك

غاية الفرح وكتبت لك
لنعم لك بهذاك ونبشرك
ولا ننسى هذا الوقت
ما جانا منك جواب
ولهذا السبب صارت لنا
غيبه وحصره كعبه ولا
سببا لما اتى اخونا

الفارس من غير جواب لان
ما ظهر منا نقص
بخدمتك ابدا واعلم
ان متي خرجت من
بلادك لخدمتك ماتوا في
الطريق الاكثر من ناسي
من الكجوع والعاشش
ودخلت الي ازموور بالق
نارس بمالهم وخيامهم
وعمالهم واحتملنا هذا
كله لاجل خدمتك وتراني
في هذا الوقت في ضيقة
عظيمة وناسي كذلك
وما يمنعهم عن
الخروج من البلاد غير
كتابك الشريف متي
وصل ليهدي وانسا
ياسيدي ما جيت
لبادتك وحكمك الا حتي
تعبني وتكبرني والار
تراني صرت شمتت لكل
المسلمين واعلم ايضا ان
ما استوبح الا متي باتيني
كتابك وما لي صبر
واحتمال على الذي جرا

لنا وانت سلطان ذلك
البر وهذا ايضا وما
تحتاج لمن يفهمك علي
حفضه والسلام

خامس عشر : رسالة من بعض عملاء ملك البرتغال من المغاربة مؤرخة في
٨/رمضان/٩١٨هـ - ٨/٧/١٥١٢م .

الذين جاءوا الي هذه
البلاد كانوا مثله فما
كانت البلاد تكون
حائلة ولاكن تكون
عامرة قدر ما في مرة
اخرى ونطاب من فضل
سيدنا ان يكتب له
وبوصيه فينا لانه رجل
جيد ومطيع ومرحبا
فينا واخيرا نطلب من
هلك ان ترد لنا
الاجواب وانسلام *

في 8 رمضان عام 918
للهجرة هـ

الحمد لله وحده لا معبود
غيره ولا مرئي سواه الي
مولانا دون منوب
سلطان البرتغال
والغريس من شيخ وكبار
الشرقية وهم سالر بن
عمر ودعيجو وغابا ونصر
بن حلوا واحمد بن
عمر وسعيد بن يعلوك
وولاد يعقوب وولاد
ابراهيم وولاد سويط
وبني مزهو ومريا وكل
بني الغريجي وطابان
وجو يقبلون اياديكم
ويعلموك بان لما مستنا
غزوة شياتا عبرنا على
ازمور وتلاقينا مع
قيطانها واهلها ومع
باقي سكانها واعطونا
الامان وعاملونا بخير
واكرام وان كل القباطين

سادس عشر : رسالة من أهالي (أورد) إلى ملك البرتغال .

الحمد لله وحده إلى
السلطان دون جوان
عيشه الله من خدامك
مسلمين ازور يقبلون
أقدامك وينهون أعز
حلمك بأن ما
دخلنا إلى بلادك
وخدمناك إلا بأمان أبوك
وكانت نعمته علينا عاصمة
وموافاته كثيرة ولا قط
لحقنا في زمان حكمه
مضادة ولا غبن وكذلك
بعد جلوسك على مرتبة
السلطنة ما رأينا
في أول الزمان إلا الخير
وبهذا الخبر اتوا إلي
عندنا خمسة عشر عيلة
من جيراننا المسلمين
هاريين وسكنوا معنا
ولاكن بعد ما أرسلت
لنا جرجي دياس انتلفت
البلاد وكسر رأيك وقلد
قدرك وجلالك الذي كان
مثل زمان أبوك

واكثر ولو كان حلمك
دام علينا كالأول لكانوا

جاءوا بأن أهل تلك
البلاد ونكونوا كلنا غارة
قوة في بلادك ولاكون
أفعال جرجي دياس سميت
كل هذا وكيف ما كان
عندك أخبار أفعاله احتملنا
كل شيء حتى عرفناك بهم
وبعت لنا الكريبيدور
لأخذ حقنا وفي مجبه
فرحنا وقلنا أن قد زال
عنا العار والظلم

وأنصبه ولما عرف
الكريبيدور أمورنا
ودعوتنا قضي لنا شرعنا
ولاكن جرجي دياس
ما قبل شرعه فبعث
وحبس بعضنا من ناسنا
ولما عرف الكريبيدور
بذلك قال لنا اكتبوا
للسلطان وأنا ابعت
له كتابكم وهذا فعلنا
وأخيراً رسلنا لك كتابنا
مع المسلمين الذين مضوا
به إلى حضرتك وحسينا
أن بعد ما تقري
كتابنا وتسمع كلامهم
تعمل لنا الحق

وبستريح قلبنا ولاكن
يا ربنا رجعوا ناسنا
بحجـوابك ظهر لنا ان
الباطل والغش كله منك
الله ياخذ حقنا منك
وبجعل دنوبنا في رقبته
فاعلمنا ان كان
اساءنا بشيء في بلادك
فاعلم اننا ضعنا في
بلادك وغافنا الجوع
وقلة الامان فيه كانه بلاد
المسلمين زرعنا اكله الشريف
وتركنا ميتين بالجوع ولا

نقدر على شيء ومتاعنا
وولادنا اخذهم جـرجي
دياس ومع هذا ما تريد
تعمل لنا الحق فـالله
يطلب منك حساب هذا
لان ولو كنت سلطان
واقدر منا فاعلم ان
السلطان الكبير اقدر
منك فـاوفي لان ما
توفي الا عن نفسك اما
انت احسب باننا
ماضيين من بلادك
والسلام

سابع عشر : رسالة (الشريف أحمد) السلطان أحمد في ٢٤/رجب/٩٣٠هـ -
٢٦/٣/١٥٢٤م .

الحمد لله وحده من عبد
الله الناصر لدين الله
المتعمد على الله امير المؤمنين
وناصر الدين المجاهد في
سبيل رب العالمين مولاي
احمد الشريف ايده الله
ونصره الي السلطان الكبير
في قومه والمشهور في ملته
الرفيع في منزله سلطان
البر تكال المسمي دون
جوان ابن السلطان دون
منوبل اكرمه الله بتقواه

وبعد فعليكم بان بلغنا
كتاب بن عمنا بابا احمد
حفظه الله وخبرنا بما
فعلتم معه ومع خدامه
من الخير والاحسان الله
بكم خيركم وبزيد
احسانكم لان كل ما
فعلتموه معه فعلتموه معنا
وهذا هو المعروف منكم مع
كل الناس والمنقول ما يصدر
الا من الدم الشريف والملوك
آكبار مثلكم ونريد منكم
ان يكون نظركم عليه

والسلام عليكم وعلي من
اتسبع الهدي *

في 24 من رجب عام 930
للهجرة *

حقي باقي البنا على
خير كما قبلتوه وكل من
حاجة تكن لكم في هذا
البلاد عرفونا بها لتصلكم
بعون الله علي الميراد

ثامن عشر : رسالة من محمد بن حسون زنبق كاتب السلطان أحمد مؤرخة
في ١/ محرم/ ٩٣٠هـ - ١١/ ٣/ ١٥٢٤م .

نعطيك كل امان وطمان
من عندهم كما تحب
والله يكون شهيدا على
ما اقول لك وما وعدتك
به وما رسلت لك بعض
كلام مع الشيخ يحيى
غير مكتوب في هذه
البراءة فيكون عليك
عليه واوكد عليك بان
تجتهد وتفتش علي بسير
هروب من محلة السلطان
وسرق لجامعين واحد من
ذهب والاخر من الفضة
واراد منك ان متي
وعلى لعندكم تقبضهم
منه وترسلهم لي لاني
اعطيت كلمتي للسلطان
بانهم ياتونني علي يدي
وارتجعي من تحتك ان
ترفع راسي بهذا الامر
اكتب لي عليها لتاتيكم
على الرأس والعين وباقي
والسلام *

في اول محرم عام 930
للهجرة *

من كاتب الشريف نصره
أحمد بن حسون
زنبق

الحمد لله وحده الي
الناس النجيد المعظم
الاصم انطوي لبني
قبطان مدينة ازموور من
محبك ومقبل اياديك
محمد بن حسون زنبق
كاتب مولانا احمد نصره
الله فنعلمك بان وصليتي
كتابك حجة الشيخ
يحيى بسى الدبيب
وقد تمت معناه وما
ذكرت لي عن الصلح
الذي طلبته علي ثلاثين
يوما قاننا وقفت معه
وعنته حتي نالته
ويكن يعلمك بان
بداء عليا من يوم وصول
يحيى المذكور وانت
اهل هذا ذلك وما

ذكرت لي عن امور العرب
اهل القرية وان
نوءمك منهم فتدبر

تاسع عشر : رسالة (بابا أحمد) عم سلطان فاس وهو (أبو حسون) م
في ٢٤/ربيع الآخر/٩٣٠هـ - ٢٧/٥/١٥٢٤م .

أحمد لله وحده إلى ملك
الملكوك وأ عظمهم مالك
البرين والبحر ببتهم
السلطان دون جوان
أدام الله إمامه من عند
خديمك والمقر باحسانك
وببوس إيمانك وينهي
خلكه يناني يامولاي
وصلت إلى تافلات
وتلاقيت مع حكامها
وكبارها وقيلوني بفرح
وعلموا معي كل خير وأكرام
وهذا كله لجاهك وأكرام
لوجهك والخير الذي وجدت
في كل موضع هو صادر
من جلال ذكره
المرهوب وأعلم ياسيدي
أن بعد ما وصلت
إلى تافلات حسببت
أن أجد قوارب سفائلك
حاضرين حتى أسافر بهم
ولكن كيف الأرمادة
سافرت مضوا معها وبقيت
مختار ولا عندي ما أخرج
علي نفسي وخدامي وخيلي
لأن ملحق ولبي أربعة
وثلاثين يوماً في السفر
من يوم الذي فارقنت
وجهك لأجل ذلك قصدت
فضلك في هذا الوقت كما
قصدتك أول مرة وعلمت
معي الخير الذي ما فعله

أحمد لله في نفسي
لأنه لو أتى أي موضع
يامري سيدي ندفعها
وها تصالكم مع كاتب
علي قبائلي ورقة بعلامي
لمكتب سيدي فوقها وكل
ما يامر به ويكمنه
فأنا راضي به على كل
حال وأطلب من مولاي
لا يواخذي ويعدني لأن
لو كان لي ما أعرف
في آخر سفرني فما كنت
طلبته هذه المرسد ولا
لحسبها يامولاي إلا أنك
بعت هذه الدراهم إلى
نغر طنجة أو إلى غير
مدينة وإن شاء الله
معي وصلت إلى فاس
أرحلها للحال إلى أين
قامري والسلام *

في 24 من ربيع الآخر
عام 930 للهجرة *
من بابا أحمد بن عم
الشريف سلطان فاس هـ

عشرون : رسالة السلطان محمد الوطاسي (البرتغالي) إلى الملك دون جوان
مؤرخه في ٢٠/رجب/٩٣١هـ - ٢٢/٥/١٥٢٥م .

بسم الله الرحمن الرحيم
من عبد الله الغالب بالله
المتوكل على الله الناصر
لدين الله أمير المؤمنين
وناصر الدين
المجاهد في سبيله
رب العالمين محمد
الشريف أبده الله إلى
السلطان العظيم المشهور
في دولته والكبير بين قومه
وأهل برة دون جوان
سلطان البرتغال الكرم
الله بتقواه ووفقه وهداه
سلام يراجع سلامكم
وبعده فيكون في علمكم
بأن وصلنا كتابكم
حبة ابن عمنا وأقرب
الناس إلينا بابا احمد
بو حسون وكان وصوله
إلينا أعز وأوفر القدوس
وقبلناه بمسرة وأكرام
وقعلنا معه ما يليق
بجانبنا من المودة
والمراعاة وأمرنا له بكل

ما يحتاج أكراماً
لكم ولقدومه من عندكم
ومن بلادكم وأوطانكم
وقص لنا جميع ما
فعلتموه معه من الخير
وتكوناك بذلك ولو ما
كنت في السعادة بين
كبراء النصارى والمسلمين
وما ذكرت لنا أن
تقف معه على ما كتبنا
لكم ونوفي كلامنا فنحن
الحمد لله أهل الوفاء معه
ومع غيره ولا سيما مع
ابن عمنا ولحمنا ودمنا
وإن شاء الله ما يصير له
ألا ما يسركم ويره بكم
وكونوا على علم ذلك
والسلام على من أتبع
الهدى *

في 20 من رجب عام
931 للهجرة

إحدى وعشرون : رسالة أبو حسون إلى ملك البرتغال مؤرخه في
٢٤/رجب/٩٣١هـ - ٢٤/١١/١٥٢٥م .

أتيت معي إلى مدينة ناس
وكان مراده يرجع من
تأفلات ولاكن أنا
وكادت عليه وأزمته
أن يرافقتي وعلى معي
الخبر الواجب عليه وعلى
خدمتك وهو وأما
البكم في هذا الوقت
ونريد منكم أن تفعلوا
معه الخبر الذي هو معروف
منكم لأن هذا هو
مرادنا والله يوفقكم على
الخبر والسلام *

في 24 من رجب عام
٩31 *

من خدمه شتم وتحدث
فكلهم بابا احمد بو
حسون بن عمر
الشريف *

الحمد لله وحده إلى
السلطان الكبير في قومه
والشهير في أشك ماته
والمشكور بين رعية الله
سلطان البركة المسمي
دن جوان اكرمه الله ومن
عليه بما يدينه ويغنيه
من الماسم عليك والمقصر
بأحسنائك والشاكر فذاك
وتشرقته عليك وزعمك
يا مولاي باني قد وصات
إلى مدينة ناس حفاتنا
الله وتقدمت إلى بين
إبدي ابن عتق المساء
نصرة الله وتبليتي بالتمام
والاحلام ونصحت المحدث لله
اليوم تفتح كنف الله
وكنفك ولا ازال مع
بأحسنائك التي فعلتها معي
وقري لا أنساها وجميع ما
تكن كرم في هذه
البلاد من الحوايج والأشراش
نريتها لكم سيلة التراس
والعتي وتعلم يا مولاي أن
خدمتك فيلس قرن قدس قد

اثنان وعشرون : رسالة ملك البرتغال إلى السلطان أحمد (لعله أحمد
الوطاسي) مؤرخه في ٢٩/١/١٥٢٦ م .

بسم الله وباقى السلاطين
الذين سيجي في هذه
السلطنة هكذا كانوا يفعلوا
وفرحنا كثيرا لما جئنا
ننا مقعدا مثل هذه
الواحدة والمنعوتة مع من
هو اقرب اليكم ولا عندنا
شيء ان هذا القدر يسر
وملوح قلبكم وخاطركم
كما شرحت لنا في
كتابكم واما كتبنا
لنا على طيبة خاطركم
معنا فنحن نكون
فانهم به والله بكثير
خيركم ومن جنة الاشياء
التي ذكرنا ذكرت عنها
بكتابك اعطينا جوابها
لنا يعقوب رشاش وهو
يعلمكم بباي الامر
الذي الجليل والعظيم
به من امة المسلمين مولاي
محمد الشريف سلطان
فاس الله يورثكم عاريف
الحب .

وتتبعه فهايس فرزندو في
٢٩ من شهر سنة ١٥٢٦ هـ

الي كثير الاكرام وكثير
الاعظام بين امة المسلمين
الشريف مولاي احمد
سلطان فاس من دون
جوان بفضل الله تعالى
سلطان البورتغال والغريس
من هنا وهناك وبحر
بينهم ملاء غناوة وبلاد
المعدني وانا اذينا مفتوح
اقاليم الهند واوطان من
جدة العرب والعجم
والبرقي نعلمك بان
قبولنا الي ابن عثم
بابا احمد والذين
جاءوا معه فعلنا
بالتمليل انه ابن ذاك
الاب والدمر الكبر
والنسب الشريف
وبهتجنا اكثر ما
فعلنا معه وكل من
قصد منا سلطنةنا
وجاء اليها ففعل
هكذا لان هذا هو فعل
الملوك مع ضيوفهم وابي

ثلاثة وعشرون : رسالة السلطان أحمد إلى ملك البرتغال مؤرخه في
 ٢٧/شعبان/٩٣١هـ - ٢٩/٥/١٥٢٦م .

الحمد لله وحده من عبده
 الله تعالى أمير المؤمنين
 وناصر الدين المجاهد في
 سبيل رب العالمين مولاي
 أحمد سلطان فاس
 ومراكش وسوس ودرعت
 وتركوان وواد نون وما
 قاربها أبده الله الي سلطان
 البرتغال المسمى دون
 جوان حفظه الله ومن عليه
 باكرام هذه الدنيا والآخرة
 أما بعد حمد كل التوحيد
 يكون في علمكم بأن
 قد ورد علينا كتابكم
 الشريف وتهمنا ما
 ذكرتم لنا فيه على امر
 المسلم بن بشقا ابه من
 فارس ونحن على شهادتكم
 ان المسلم المذكور
 دخل بخناطرة في دين
 التصاري فلا شك عندنا
 بذلك ولا تهمناكم
 بانكم غصبتوه لبيدك
 دينه ولاكن شرعنا يامر

ان لازمه يخرج من
 بلادكم وتحت حكمكم
 وباني بامازنا وبيني عشرة
 او خمسة عشر يوما مع

والله وأمله ليقدر في
 تلك المدة في الدين
 ان الذي يختاره وبعد ذلك
 بغض الدين الذي
 يريد لان هذا هو المأمور
 في ديننا والابتدأ ان
 يفعل ومن جهة قبطان
 اسني فرنسيسكو لويس لو
 ان ما كان صدر
 القدر قبل هذا الوقت
 من نحو فرنسا دميلا
 فما كان حرا بيننا وبينه
 الا الخبر والذي يصلح الي
 الجمع ولاكن كيف ما
 صدر منه عيب ولا شيء
 ننقص قيمته عمل الخبر هو
 ملحق ومشكور وكل الخبر
 الذي تعلموه معه فهو محله
 وقراره والله سبحانه يوفقنا
 على ما فيه صلاح الدنيا
 والدين ونفع الرعية *

في 27 من شعبان عام
 931 للهجرة هـ

أربعة وعشرون : رسالة السلطان أحمد إلى ملك البرتغال في ٢٠/صفر/٩٣١
- ٢٢/١٢/١٥٢٦ م.

الحمد لله وحده من عبد
الله المعتمد على الله مولاي
أحمد الشريف لاطفه الله
إلى عظمير الروم دون
جوان سلطان البرتغال
حفظه الله أما بعد
فإني أحمد الله الخالق
الذي لا إله إلا هو وعالي
على رسوله نعمت باني
علمنا العاقبة بامرك مع
خداصك قبطان اسني
وقبطان ازموور على يد
حداصكم النصراني
واليهودي ابراهيم خزان
وبعد هذا اخذوا اهل
ازموور زوج مسلمين وبعثوهم
إلى بلادك وبعثنا نطالبهم
مرة بعض مرة وحدي جدا
الوقت ما رأينا لهم
خبر وأعلم اسني بعثوا
مرافقهم ومروا بقر بلادنا
وباعوهم عيانا في ازموور
ول هذه العاقبة الاخرة
انهم كانت تلي يد اليهودي
ابراهيم بن زميرا اخذوا
اهل ازموور قافلة غنم
وجمال وعلقوا الرعاء
واناس وبعد ذلك بعث
قبطان اسني الحناشة

وانتفوا مع قافلة تخص
لخدمتنا فخذوها
وقتلوا ناسنا لكي لا
ينهر نعلم وقبضوا ارضا
زوج مسلمين وبعثوهم إلى
بركم ومن القافلة التي
مروا ردوا ثلاثين رأس
فقط وألقوا البسائي
والجسم ان كان
هذه الفعال ففعلت
من شهر امورك وتريد
حجبتنا واتداليا ارسا
لنا من ينصف لنا ويرد
كل ما اخذوه خدامك
بالتسلم وبالتدليل
ما لنا اجمال في
ما فعلوه معنا ولا
نرغم ابدنا بذلك ولا
نستعمله ونريد منك ان
توصل من عندك احد
ينصف لنا ونقف حتى
يردوا لنا خدامك كل
ما هو لنا ويقاصر
الذين فعلوا هذا القدر
وفي وعول هذا الكتاب
اليك فستنظر جوابه منك
والانصاف المطلوب به
وان عملت لنا الحق
بعد ما يتحقق لك

صحة كلامنا تبقي عانمتنا
 وصحتنا على حالها والا
 فتحن ما نصبر على هذه
 الامور ولا نحتماجا ابدا
 لان من اول يوم الذي
 قررت العاقبة بيننا ما
 ظهر مننا نقص ولا عيب
 وان كان المسلمون
 يحققون العهد والكافة
 لاي سبب انصاري لا
 يحتسونه واخيرا ابعد

لنا قاضي عارنا وتاييد
 باموركم ليعحص عن
 امورنا باجتهاد وان
 قحص يظهر له تحققت
 شكوتنا وان عانت
 لنا المطلوب منك فانشاء
 الله تكون العاقبة على
 حالها وتحفظ بالقول
 والفعل والسلام *

في 20 من شهر عام
 931 هـ

الفصل الثاني والثلاثون

- * السلطان محمد المتوكل السعدي يعتلي عرش المغرب عام ١٥٧٤ وظهور معارضة أعمامه عبدالمالك المعتصم وأحمد المنصور .
- * الملك سياستيان يقوم بمناورة عسكرية في طنجة .
- * سقوط محمد المتوكل وإعلان سلطنة عبدالمالك المعتصم بالله عام ١٥٧٦ .
- * عبدالمالك المعتصم واستراتيجية التعامل مع السلطات العثمانية ودولة اسبانيا والبرتغال .
- * تفاصيل الاستعدادات للحملة البرتغالية الكبرى .
- * الملك سياستيان يبحر من لشبونة على رأس حملته الكبرى ويصل إلى طنجة في الساحل المغربي يوم ١٥٧٨/٧/٩ م .

توقفنا في أخبار الفصل التاسع والعشرين من هذا الكتاب عندما انتقل إلى رحمة الله سلطان المغرب عبدالله الغالب في عام ١٥٧٤ م ، وتولى ابنه محمد المتوكل مقاليد الحكم هناك .

إلا أن محمد المتوكل هذا لم يكن يحظى بمحبة أفراد الشعب ، لأنه كان مغروراً ولا يحترم أحداً ، وقد ذاع صيته منذ عهد أبيه بحياة اللهو والمجون ، هذا علاوة على أن اعتلاءه العرش ، لم يكن مما يقره أعمامه عبدالمالك وأحمد اللذان كانا لاجئين سياسيين عند الأتراك في الجزائر ، وكان العم عبدالمالك يقوم بإعداد الوسائل والسبل التي تمكنه من استرجاع حقوقه في وراثة عرش المغرب ، لذلك فإن السلطان السعدي

الجديد واجهته مشكلتان في آن واحد منذ أول أيامه .

الأولى : نشاط المعارضة السياسية لأعمامه عبدالمالك وأحمد . والثانية : قيام الملك البرتغالي سيباستيان بزيارة إلى مدينة (سبته) التي كانت بيد البرتغاليين آنذاك .

وعموماً ، فإن تولي محمد المتوكل الحكم في المغرب أثار الأثراك والأسبان والبرتغاليين ، فالأثراك لم يخفوا مطامعهم في المغرب ، وعليه فإن السلطان العثماني سليم الثاني استقبل العم الثائر عبدالمالك وزوجته التركية ابنة القائد التركي البحري (ريس مراد) وتمكن عبدالمالك من إقناع السلطان بحقه في عرش المغرب ، لذا فإن السلطان فاتح باشواته وقادة جيشه بموضوع الاستيلاء على شمال المغرب ، باعتباره الامتداد الطبيعي للاحتلال التركي للجزائر وكذلك الحصول على مرفأ (العرائش) وانتزاعه من يد أعدائه الاسبان ليسهل مهاجمتهم من هناك .

كما أن ملك اسبانيا فيليب الثاني الذي كان قد التقى بمناسبة سابقة مع عبدالمالك عندما كان هارباً من حكم أخيه السلطان عبدالله الغالب ، فإنه أي فيليب كان يرى ضرورة احتواء نشاط عبدالمالك لمصلحة اسبانيا ، وكان يرى أيضاً أن الاتقضاض على الأثراك وأخذهم على عجلة من أمرهم هو أحسن الطرق لإبعادهم نهائياً عن المغرب العربي . وكان هذا الرأي مما أسال لعاب الملك البرتغالي الجديد المتلهف لقتال العرب والمسلمين لأن يقوم بمغامرة في المغرب ، خاصة بعد أن استلم تقارير وتعليقات من الحكام البرتغاليين لمدين (سبته) و(طنجة) ، الذين كانوا يضحمون له الأخبار ، ويكثرون من تفاصيل شروح الخلافات السياسية الموجودة في المغرب بين السلطان محمد المتوكل وأنصار عمه عبدالمالك ، ويوحون له أن (المملكة الشريفة السعدية) سوف تثور على حاكمها ، وهي على حافة الفوضى .

وبناءً على تلك الأخبار تهلل دون سيباستيان فرحاً ، فقرر القيام بغارة ضد المغرب وسكانها (الكُفَّار) حسبما كان يسميهم ، انطلاقاً من سبته أو طنجة ، على أن تكون

٩٤

هذه الغارة عبارة عن مناورة استطلاعية ومقدمة يختبر فيها قوته وقوة خصمه تمهيداً لحملة الكبرى التي يزمع القيام بها لاحتلال المغرب . وعليه فقد عبر على رأس قوة مكونة من ألف ومئتي جندي من المشاة في شهر آب من عام ١٥٧٤م ونزل في طنجة حيث استقبله قريبه (دون انطونيو) حاكم المدينة وأركان حربه بحفاوة .

وتصمت المصادر المغربية عن ذكر رد فعل السلطان محمد المتوكل على زيارة الملك البرتغالي لقواعده العسكرية الموجودة في المغرب ، لكن مصدراً برتغالياً يقول إن السلطان محمد المتوكل قرر الرد على المناورة البرتغالية ، فأوفد إلى طنجة جيشاً من فرسان قبيلة (الغومار) الريفية . إلا أن سياستيان قاد هجوماً متهوراً ضد الفرسان المغاربة ففشل في تحقيق فوز عليهم مما دفع دون أنطونيو حاكم طنجة أن يتوسل إليه للتراجع إلى المدينة ، فعاد مغروراً بنفسه ومتهوراً أكثر من السابق . وفي مساء اليوم ذاته اجتمع بقادته على مائدة العشاء وأعلن لهم عن عزمه الثابت على القيام بجيشه الصغير الباسل بالاستيلاء التدريجي على المغرب ، حيث ستتحقق الانتصارات على يده ، وحيث سيتدفق المحاربون الفتيان المتحمسون بفارغ الصبر للمعركة من جميع الجهات لئلا تتحاق به لحمل راية انتصار المسيح والبرتغال عاليه وإلى الأمام دائماً ، ثم عاد إلى لشبونة^(١) .

أما المشكلة التي لم يستطع السلطان محمد المتوكل علاجها ، فقد كانت في المعارضة التي يمثلها أعمامه عبدالمالك المعتصم ، وأحمد المنصور الموجودان في الجزائر والذين يقومان بمحاولة القضاء عليه بواسطة جيش تركي يساعدهم على ذلك .

كان عبدالمالك شخصاً مرغوباً شعبياً أكثر من ابن أخيه السلطان وكانت عبارات المديح تنهال عليه باستمرار كونه شاعراً بارعاً ، يجيد الأسبانية والإيطالية ويتحدث التركية بطلاقة ويتقن اللعب على عدة آلات موسيقية مختلفة ، وهو جندي مقدام وباسل ومواظب على متابعة أمور التسليح والجندي ، وكان على علم تام بالعادات

(١) يونس نكروف - المصدر نفسه - ص ٧٥ .

والعلاقات العالمية والدبلوماسية والأحداث العالمية وطرق ادارة الدول ، تساعده أمه (لالا سحايه الرحمانية) ذات النصائح القيمة وزوجته التركية التي علمته العادات التركية وساعدته على نيل محبة وعطف الحكومة التركية ، كما كان يُساعده في كل هذا أخوه الأمير أحمد المنصور . إلا أن خطته في انتزاع السلطة من ابن اخيه كانت تقوم على ضرورة اعتماده على الأتراك الموجودين في الجزائر ، على الرغم من أنهم الذين قتلوا والده عندما حاولوا التدخل في شؤون المغرب ، وكان على يقين بأنهم يرغبون الحصول على مرفأ أو مرفأين مغربيين على المتوسط أو الأطلسي ، يخدمانهم كميناء أو مركز لتموين مراكبهم العاملة في تلك النواحي . لذلك فقد قرر أن يناور الأتراك ، فبعد أن يستغني كلياً عن خدماتهم يستطيع أن يردهم إلى بلادهم عن طريق إمدادهم بالمال الوافر ، فهو يتقن لغتهم ويعرف نفسيتهم .

وقد سنحت له الفرصة لبحث موضوع إمداده بالمعونة العسكرية التركية عندما أنزل السلطان العثماني مراد الثالث هزيمة بالاسبان في تونس وطردهم بشكل نهائي منها في أواخر عام ١٥٧٥ م ، وأصبحت تونس تابعة للجزائر كولاية تركية خاضعة مباشرة للسلطان العثماني ، لذا فقد شهد عام ١٥٧٦ م تحركاً سياسياً وعسكرياً كثيفاً لعبدالمالك إذ تمكن من إقناع السلطات التركية بمده بقوة مسلحة ، فأصدرت أوامرها إلى رمضان باشا حاكم الجزائر بمده بقوة قدرتها المصادر المغربية بأربعة آلاف مقاتل أو أقل ، وقدرتها المصادر الاسبانية بستة آلاف مع أربعة آلاف فارس عربي وعشرين مدفعاً وعشر سفن .

وقد التقى عبدالمالك بقوات ابن اخيه السلطان محمد المتوكل في معركة (خندق الريحان) التي وقعت في شهر يوليو ١٥٧٦ م ، استمرت لمدة ثلاثة أيام ، ثم لم يلبث أن التقى الطرفان في معركة ثانية اسمها (الركن) وقيل أيضاً إن اسمها (الروكان) ، حيث واجه السلطان محمد المتوكل عمه عبدالمالك المعتصم بقوة قدرت بأكثر من ستين ألف فارس وخمسين ألف من المشاة مع أكثر من مائة وخمسين مدفعاً ، أما قوات العم

فكانت اثني عشر ألفاً من المشاة وحوالي ثمانية وعشرين ألفاً من الفرسان وأربعة وستين مدفعاً وعدداً من الكتائب العسكرية التركية ، وانتهت المعركة بهزيمة لقوات السلطان محمد المتوكل راح ضحيتها حوالي خمسة عشر ألف قتيل ، في مقدمتهم البارزون من قواده فضلاً عن فقدته جميع مدافعه ومعداته الثقيلة .

وهكذا انتصر عبدالمالك انتصاراً ساحقاً ودخل العاصمة فاس منتصراً وأعلن نفسه سلطاناً للمغرب باسم السلطان مولاي عبدالمالك المعتصم بالله ، وعين أخاه مولاي أحمد المنصور وريثاً وولياً للعهد بعده طبقاً لقانون وراثة العرش ، أما السلطان السابق محمد المتوكل فقد هرب من المعركة واختفى في مكان ما في جبال السوس في المغرب^(٢) .

صعد السلطان عبدالمالك المعتصم إلى العرش السعودي المغربي وكان عليه أن يواجه عدة مشاكل وهي :

١ : مشكلة تحديد علاقته السياسية بالسلطة العثمانية التي ساعدته في الوصول إلى سدة الحكم .

٢ : مشكلة تحديد علاقته السياسية بالملك فيليب الثاني ملك اسبانيا الذي كان يرغب في قرارة نفسه أن يتحالف معه ليضمن جانبه وينتزع من يد الأتراك ، ولكنه في الوقت نفسه قد هاله دخول الأتراك إلى المغرب ، خاصة بعد أن انهالت عليه الشكاوى من الملك سيباستيان ملك البرتغال الذي استغل هذا الحدث ليبرهن لخاله ملك اسبانيا بأن المغرب قد صار قاعدة تركية ولا بد من القيام بحملة عسكرية كبرى لمحوه من الوجود .

٣ : مشكلة تحديد علاقاته السياسية مع الدول الأوروبية الأخرى مثل إنجلترا وفرنسا .

(٢) د . ابراهيم شحاته حسن - المصدر نفسه - ص ١٦٧ . وكذلك د . عبدالكريم كريم - المصدر نفسه - ص ٩٩ . وكذلك يونس نكروف - المصدر نفسه - ص ٩٦ .

٤ : القضاء على تحركات ابن اخيه السلطان السابق محمد المتوكل الذي راح يحاول تجنيد بعض الفرق لصالحه .

٥ : مشكلة الحملة العسكرية البرتغالية الكبرى التي تستهدف إنهاء المغرب كلياً والتي يعدّها الملك سيباستيان .

بالنسبة للمشكلة الأولى وهي تحديد علاقته بالعثمانيين ، تقول المصادر المغربية : «بعد أن دخل المولى عبدالمالك فاس طالبه الترك أن يردهم إلى بلادهم وأن يعطيهم المال الذي اتفق معهم عليه وهم يسمونه بلغتهم البقشيش ، فبذل لكل واحد منهم أربعمائة أوقية ، واستلف المال من تجار فاس حتى يتسع حاله فكان جملة ما أعطى الترك خمسمائة ألف ، وأعطاهم عشرة من الأتقاى وركب لوداعهم بنفسه ، ثم رجع إلى فاس» .

أما من رغب منهم البقاء في المغرب ، فقد وافق السلطان على بقاء ألف (زواوي) وعدد من ضباط المدفعية لتدريب جيشه . ويدهي أن قصة (البقشيش) هذه يمكن تفسيرها بالرفض المغربي للدور العثماني في مستقبل علاقاته الدولية ، لذلك فإن حكمة هذا الحاكم المغربي الجديد ظهرت واضحة بالطريقة التي تعامل فيها لحل مشكلة وجود قوات عثمانية في بلاده ، فما إن خرج الجيش التركي عائداً إلى الجزائر حتى تنفس الصعداء وراح يكرس نفسه لمهامه الكبيرة الأخرى .

ويسبب معرفته بالوضع العالمي آنذاك وبلعبة موازين القوى فقد قام بمعالجة حكيمة لعلاقاته الدبلوماسية باسبانيا ، بأن كتب أربع رسائل باللغة الأسبانية إلى عدد من أصدقائه هناك ، ورسالة إلى ملك اسبانيا فيليب الثاني يعرض عليه نسيان فترات العداوة وسوء التفاهم الماضية بين اسبانيا والمغرب ، كما عرض عليه إرسال سفراء ومبعوثين من أجل توسيع الصداقة والتعاون بين الطرفين ، واقترح أن يقوم بهذه المهمة صديقه (الأخوان أندريه وجاسبار كورسو) ، إلا أن فيليب الثاني كان يضع أمامه ثلاثة

مشاكل تقف عقبات أمام علاقته بملك المغرب ، الأولى خوفه من أن عبدالمالك سوف يبقى مديناً للعثمانيين الذين ساعدوه في نيل السلطة وأن الرابطة الإسلامية التي تربطه بالأتراك سوف تدفعه دوماً إلى أن يفضل التحالف معهم ضد أية قوة أوربية أخرى .

أما الثانية فهي عقدة ابن اخته ملك البرتغال الذي يعيش في حلم تخطيط دولة المغرب . فهو لا يريد أن يخلده ، لذلك فقد وافق مبدئياً على فكرة الحملة ، كما وافق على تجهيزه ببعض الوحدات الاسبانية المقاتلة والمعدات اللازمة ، إلا أنه خالف ابن اخته في الأسلوب والتوقيت والتعبئة .

وكانت المشكلة الثالثة هي التي جعلته يؤمن بوجود إضعاف المغرب ، وتتعلق بقضية علاقة عبدالمالك بالملكة اليزابث ملكة بريطانيا وعدوة اسبانيا . وهي علاقة ابتدأت أصولها عندما اعتلت الملكة البريطانية الشابه (اليزابث) عرش المملكة بعد أن انتزعت من اختها (ماري) وهذه زوجة سابقة للملك فيليب ملك اسبانيا . فإنها أي الملكة الجديدة سرعان ما نهجت نهجين يخالفان اسبانيا والبرتغال . الأول هو النهج المذهبي ، إذ أعلنت أن بريطانيا (بروتستانتية) المذهب فهي لذلك ضد المذهب (الكاثوليكي) السائد في اسبانيا والبرتغال ، أما النهج الثاني ، فقد كان نهجاً اقتصادياً بحثاً ألا وهو تطلعها إلى مصادر الثروة في العالم ، ومنها ثروة الشرق التي تسيطر عليها البرتغال ، ومحاولة انتزاعها منهم وذلك بالتعاون مع اعداء البرتغال من العرب والمسلمين .

لذلك فقد شهد عهد عبدالمالك المعتمد علاقات مغربية - بريطانية جيدة ، إذ عمل البلدان على تشجيع التبادل التجاري بينهما ، ونجح التجار وأصحاب السفن الانجليزية بإقامة علاقات مريحة بين انجلترا والمغرب ، وكانت أهم بضاعة ومادة يخافها البرتغاليون هي سبائك القصدير والحديد التي كانت تنقل إلى بريطانيا وفرنسا لتصنع هناك مدافع وقذائف للقوات المسلحة المغربية .

لذلك فإن لشبونة ولندن تبادلتا الاتهام والشتائم ، واعتمد البرتغاليون على مساندة

الفاتيكان لمنع هذا النوع من المواد ، مدعين الحق بايقاف الانجليز من ممارسة كل العمليات التجارية غير المشروعة مع المرافىء المغربية ، وبالتالي ادعوا بحقوقهم في مهاجمة ومصادرة كل السفن الانجليزية المضبوطة بجرم هذا (التهريب الإجرامي) ، ولكن هذا الالحاح لم يكن له إلاردة فعل عكسية ، دفعت بالملكة البريطانية إلى الالتفاف على الغطرسه الاسبانية والبرتغالية بأن حافظت على التبادل التجاري المربح مع المغرب ، الأمر الذي صار مصدر مباحة لرجالها . ولهذا كان عليها تمكين أواصر الصداقة مع الحاكم المغربي الجديد^(٣) .

بقيت المشكلة الرئيسية التي واجهها السلطان عبدالمالك المعتصم ، هي مشكلة ابن أخيه السلطان السابق محمد المتوكل ، فقد حاول المتوكل استعادة عرشه من عمه فراح يبذل الجهود المتواصلة في سبيل ذلك ، وقيل إن عشرين معركة وقعت بين الطرفين ، خسرها المتوكل كلها ، لذلك لم يبق أمامه إلا اللجوء إلى الاسبان أو البرتغال وطلب العون العسكري منهم لاعادته إلى عرشه . ففي الحادي والعشرين من تشرين الثاني ١٥٧٧ م ، وصل محمد المتوكل إلى قاعدة عسكرية اسبانية قريبة من مدينة (بادس) ، وهي قاعدة (تاران دو فيليه) ومعه عائلته وجيشه المكون من ألف رجل ، وطلب اللجوء السياسي من ملك اسبانيا ، إلا أن الملك الاسباني ، لم يوافق على منحه وجنوده هذا الحق ، بل وافق على منحه وعائلته فقط ، واكتفى بأن وعده بالحماية اللازمة إن هو عاد إلى منطقة الجبال في المغرب . لذلك لم يبق أمام محمد المتوكل إلا أن يطلب العون من ملك البرتغال الذي كان يعد العدة لغزو المغرب ، فكتب إلى حاكم (سبته) البرتغالي (دون فيلا ريال) برغبته في ذلك ، وكتب الحاكم إلى لشبونه عارضاً طلب المتوكل ، فوافق ملك البرتغال على ذلك قائلاً أنه يجب معاملته معاملة ملك فقد عرشه ، وهكذا استقبل حاكم (طنجه) البرتغالي (دورات دي منزيس) ، محمد المتوكل بالأبهة والأصول الملكية السعدية الشريفة ، وبالمقابل فقد قام المتوكل

(٣) المصادر الثلاثة السابقة نفسها .

بالإيعاز إلى أحد أعوانه وهو صهره القائد سيدي عبد الكريم بن توده المؤيد له الذي كان لا يزال يحكم بلدة (أريزلا) بالتنازل عن البلدة إلى السلطات البرتغالية ، ففعل ذلك . وبالتجاء محمد المتوكل إلى طنجه عند البرتغال ، فقد أعطى مبرراً قوياً لملك البرتغال لتحقيق هدفه من الحملة ، فكتب إليه الملك مرحباً به قائلاً له أن ينتظر وصول الجيش البرتغالي إلى المغرب لإعادته إلى عرشه .

كان (سيباستيان) فتىً في السادسة عشرة من عمره سنة تنفيذ الحملة البرتغالية على المغرب والتي كان يعد لها منذ عام ١٥٧٠م ، وكان قد تربى وسط أخلاقيات مثالية تهفو إلى نشر التعاليم الجزويتية التي ترى في الجندية المثل الأعلى للحياة ، وأن نشر العقيدة الكاثوليكية في مقدمة الأهداف ، كما كان يرى بأن حل المشكلات الاقتصادية التي أصبحت تعاني منها البرتغال بسبب مزاحمة الانجليز وغيرهم من الدول الأوربية لا تنتهي إلا بالعبور إلى أفريقيا وخوض الحرب المقدسة بشخصه ضد (الكفار) المسلمين وسحق دولة المغرب العربي أولاً^(٤) .

إلا أن فكرة مغامرته هذه لم تجد من يؤيدها أول الأمر ، فقد وصلت إليه رسائل من (الكردينال هنري) وهو عم والده ، ينصحه فيها بعدم القيام بهذه المغامرة ويقول له : «إن النتائج المتوخاة من هذا العمل لا تعادل المخاطر التي سوف نتعرض لها» . وأرسل له الأب (لويس دو غونزالس) كبير الأساقفة وعرافه الخاص قائلاً : «إذا كنتم يا سيدي تتكلمون معي بصفاء ذهن وليس بخفة ، أقول لكم إن هناك ثلاثة أشياء مهمة يجب أن توجد مجتمعة لكي يكون بإمكانكم التفكير بالقيام بالحرب في أفريقيا : أولاً أن يرى شعبكم أربعة أو خمسة أطفال ذكور على سلم العرش ، ثانياً أن لا يتعرض البرتغال في حال غيابكم لأي خطر أو لأي اضطراب ، ثالثاً : أن يكون لديك من أجل القيام بالحرب الاستعدادات الوافرة من الفرق والمال والمؤن على جميع أنواعها ، والتي للحصول عليها ، لا داع لتحقير واضطهاد شعبكم» .

(٤) إبراهيم شحاته حسن - المصدر نفسه - ص ٢٠١ .

لكن تلك الآراء زادت في ازعاج الملك الفتى فلم يتمعن في قراءتها ، بل سخر منها مع جلسائه والمداهنين له وبالتالي لم يكن لها إلا تأثير عكسي تماماً ، دفعت به أكثر وأكثر للذويان في أحلامه والتشبث بمشروعه في احتلال المغرب ، فمنذ مناورته في (طنجة) عام ١٥٧٤ م ، أخذ علماً بنقص احتياطه من الرجال والأسلحة والمؤن والمال ، فلم يتوقف عن التفكير في وضع الخطط والبرامج لمعالجة ذلك ، ومنها استمالة خاله القوي فيليب الثاني ملك اسبانيا ، وإرسال طلبات القروض إلى ممولين أوريبيين والشروع بحملات لكسب متطوعين من أوربا علاوة على القيام بإعداد جيش حديث قوي ومدرب للقيام بالمهمة المذكورة^(٥) .

فبالنسبة لقيامه بالإعداد للجيش المدرب القوي للحملة ، فإنه أمر بتشكيل نخبة مكونة من أربعة ضباط برتبة عقيد ليقوموا بتجنيد وتدريب وتهيئة إثني عشر ألف جندي برتغالي هم عماد الحملة ، أما حصوله على مساعدات ملوك أوربا والمتطوعين ، فقد قام بها أمين سره المدعو (نونو الفاز بيريرا) ، الذي تمكن من الحصول على موافقة أمير أورانج (غليوم دوناسو) بتجنيد أربعة آلاف عسكري لصالح البرتغال تحت قيادة (مارتن البورغوندي) ، كما قام (فرديناند الأول) دوق توسكانيا وهي إحدى المقاطعات الإيطالية بارسال حوالي أربعة آلاف جندي ، كما قام نبيل الإنجليزي يدعى (توماس ستوكلي) كان قد حصل على موافقة البابا لقيادة جيش من المتطوعين الكاثوليك لقتال قريبته ملكة بريطانيا ، وعندما وصل هذا النبيل إلى لشبونة فإنه توقف هناك وقابل الملك سيباستيان وتمكن هذا من اقناعه بعدم الذهاب لقتال الزابث بل الالتحاق به في حملته ضد المغرب ، فوافق النبيل الانجليزي على ذلك . أما قضية مساعدة اسبانيا للبرتغال ، فيمكن القول إن الملك فيليب الثاني بقي متحفظاً لفترة طويلة ضد المشروع ، بحيث أن سيباستيان كان كثيراً ما يحرق على خاله ويتهمه بالكبر والخرف والجبن ، ودفع حذر الملك فيليب إلى أن يقوم بارسال جواسيس لاستطلاع

(٥) يونس نكروف - المصدر نفسه - ص ٧٧ .

قوة المغرب العسكرية فكان رأي هؤلاء أن المغرب قوي ومستعد عسكرياً . إلا أنه وتحت ضغط والجاح ابن اخته وافق على أن يمده بخمسة عشر ألف مقاتل منهم خمسة آلاف اسبان والبقية مرتزقة بشرط أن تتحمل البرتغال ثلثي نفقات هؤلاء الجنود وتتحمل أسبانيا الثلث الباقي ، كما تساهم اسبانيا بـ (١٥٠٠) كنتال بارود وخمسين سفينة . أما المعدات العسكرية التي وصلت من أوروبا إلى البرتغال فكانت (١٢٥) ألف كنتال من البارود ، و (١٢) ألف قطعة مدفعية مختلفة وألفي قنبلة مدفع من الحديد الصلب و (٣٠٠٠) بندقية و (٤٠٠٠) مسدس و (١٢) ألف فليل مدفع وستة آلاف برمبل طحين وثلاثة آلاف كنتال من الأجبان وأربعة آلاف وخمسمائة كنتال من اللحم المملح .

وعندما اعترض وزير المالية البرتغالي (دون بيدرو دي الكاسوفا) بأن الحالة المالية في المملكة لا تسمح بمواجهة نفقات الحملة ، قام الملك بفرض ضرائب على الشعب بمعدل ٢٠٪ من انتاجهم ، فحقق له هذا (٢٠٠٠ر ٢٠٠ر) أوقية ذهب ، ودفع له رجال الدين (١٢٥٠٠٠) أوقية ذهب ثم صدر أمر بتعيين (لويس دي أتايديه DOM LOIS DE ATAIDE) قائداً للحملة ، وتعيين (دييكونو دي سوزا DIEGO DE SOUSA) قائداً عاماً لأسطول سفن الحملة ، أما النبلاء فقد أصابهم نوع من الحماس المحموم للاشتراك بالمعركة ، فكانوا يشترون الخبال ليقيدوا بها أسراهم ، ويبيعون أراضيهم ليشتروا بها عدة الحرب .

وفي أوائل شهر حزيران/ يونيو ١٥٧٨م كانت التدايير التحضيرية للحملة قد أشرفت على الانتهاء ، وفي يوم ١٤ / حزيران ذهب الملك سيباستيان إلى كاتدرائية لشبونة ، حيث ترأس هناك صلاة جماعية تم خلالها مباركة الحملة ، وفي يوم ١٧ / حزيران ركب سفينة القيادة ، ولكنه لم يقلع مباشرة بل بقي ثمانية أيام في الميناء للإشراف على عمليات الشحن ولانتظار حلول عيد القديس جون شفيع البرتغال تيمناً به لنجاح الحملة ، وفي يوم ٢٥ / حزيران تحرك الأسطول المقاتل باتجاه المغرب

وكان يحوي ضمن ما يحويه على خمس سفن حربية كبيرة و(١٢) سفينة متوسطة لنقل النبلاء و(٦٠) سفينة نقل للجنود و(٤٧٨) سفينة لنقل العتاد والطعام والمدفعية والدواب . . الخ . وفي يوم ٢/ تموز/ ١٥٧٨م وصلت الحملة إلى ميناء (قادس) الاسباني حيث تم التحاق كتيبتين اسبانيتين بها ، وفي يوم ٩/ تموز/ ١٥٧٨م وصل الملك سيباستيان وحملته الرهينة إلى مرفأ مدينة (طنجه) المغربية التي كانت تحتلها البرتغال^(٦) .

(٦) يونس نكروف - المصدر نفسه - ص ١٦١ . وكذلك مقال للدكتور احسان هندي بعنوان معركة وادي المخازن - منشور في مجلة (درع الوطن) التي تصدرها وزارة الدفاع في الإمارات العربية المتحدة .

الفصل الثالث والثلاثون

- * تنظيم وتعداد الجيش المغربي .
- * السلطان السابق محمد المتوكل يلتحق بقوات سيباستيان .
- * في يوم ١٥٧٨/٨/٣ الملك سيباستيان يتخذ قراراً بعبور نهر المخازن لملاقاة السلطان عبد الملك .
- * في يوم ١٥٧٨/٨/٤ وقوع معركة وادي المخازن وتسمى أيضاً معركة القصر الكبير وكذلك معركة الملوك الثلاثة .
- * وفاة السلطان عبد الملك في أرض المعركة . مصرع السلطان السابق المتوكل غرقاً في وادي نهر المخازن . مصرع الملك سيباستيان بسيوف الجيش المغربي وتشتت شمل جيشه .
- * عرش المغرب يؤول إلى السلطان أحمد المنتصور السعدي .

لم يكن السلطان عبد الملك المعتصم السعدي بغافل عما يقوم به الملك سيباستيان ، فإنه كان يعلم ويفضل براعته واستخباراته كل ما كان يجري في لشبونة منذ عدة أشهر ويطلع على وقائع وتحركات عدوه الملك المتهور ، لذلك لم يكف عن بذل الجهود لجمع وتحشيد جيش يقارع به الجيش البرتغالي - الأوربي القادم نحوه .

وقد اختلفت التقديرات في تعداد وتنظيم وتسليح الجيش المغربي ، إلا أن أقرب الأرقام أنه تكوّن من أربعة عشر ألف فارس وألفين وخمسمائة من المشاه المسلحين بالبنادق هذا بالإضافة إلى جيش أخيه المنصور حاكم مدينة فاس المكون من (٢٢) ألف فارس و (٥٠٠٠) جندي مشاه مسلح بالبنادق . وقد ذكر أيضاً أن (٨٠) فارساً

و(٦٠٠٠) جندي مشاة تركي و(٢٠٠٠) محارب زواوي مع اثني عشر مدفعاً قد انضموا إلى قوات السلطان .

وكان هذا الجيش قد احتشد عندما نادى المعتصم في جميع أرجاء البلاد بالجهاد لمواجهة الخطر الخارجي . ويقول أحد المؤرخين : « ولما سمعت جنود الله وأنصاره وحماة دينه من العرب والعجم ، حملتهم الغيرة الإسلامية والحماية الإيمانية وتجدد لهم نور الإيمان وأشرق عليهم شعاع لا يقاس ، فعقدت الراية المنصورة بالله وسط جامع المنصور بعد أن ختم عليها حملة القرآن مائة ختمة وصحيح البخاري وضجوا عند ذلك بالتهليل والتكبير والصلاة والسلام على البشير النذير والدعاء له وللإسلام بالنصر والتمكين »^(١) .

كان أول ما فعله عبدالمالك هو أنه خرج بقواته من مدينة مراکش يوم ٣ / ٧ / ١٥٧٨ م متجهاً نحو الشمال ، أي حدود المملكة الشمالية التي يحتمل أن يتم الانزال فيها في أي مكان ، وفي يوم ٦ / ٧ وصل إلى مدينة اسمها (تامسينا) على مقربة من الساحل الأطلسي ، وفي يوم ٤ / ٧ وصل إلى مدينة (سلا) ، وهناك علم بأن الملك سياستيان وجيشه قد وصلوا إلى مدينة (أصيلا) ويسمى البرتغاليون (أرزىلا ARZILA) الواقعة جنوب طنجة على ساحل الأطلسي .

وهناك حدث ما لم يكن في الحسبان ، إذ أصيب عبدالمالك بقيء مستمر وإسهال وارتفاع شديد في درجة الحرارة ، ودارت إشاعة مفادها أن عبدالمالك قد أصيب بالتسمم ، وأن سماً قد دُسَّ له بطعامه ، وأشارت أصابع الاتهام إلى أن الأتراك هم الذين دسوا له السم ، فيقول بعض المؤرخين : « إن قائد الأتراك الذي كان معه واسمه رضوان العلج بعث لبعض قواده أن يلقاهاهم بكعك مسموم هدية لعبدالمالك وقت جوازهم عليه ، وقصد بذلك قتله بعد أخذه به مدينة فاس ليثبت الملك لهم فيها »^(٢)

(١) عبدالكريم كريم - المصدر نفسه - ص ١٠٥ .

(٢) المصدر والصفحة نفسهما .

وفي مدينة (أصيلا) حيث توقفت الحملة البرتغالية الأوربية ، انضم إليها السلطان السابق محمد المتوكل قادماً من سبته ، وهناك أعلن المتوكل للمرة الثانية بأنه سيتنازل تنازلاً تاماً للبرتغاليين عن مواقعهم المتواجدين فيها على التراب المغربي وعن ثلاثة عشر ميلاً تحيط بكل منها ، كما وافق على وضع ابنه الفتى الذي يبلغ الثانية عشرة رهينة عند البرتغاليين ضماناً لولائه ووفائه بالعهد .

وبقي سياستيان في (أصيلا) لغرض اكمال التحشد ورسم الخطط ومراقبة مكان تجمع الجيش المغربي ، فيما اندفعت الجحافل المغربية بقيادة الأخوين السلطان عبدالمالك المعتصم وأخيه أحمد المنصور فالتقيا يوم ٧ / ٢٤ في منطقة سوق الخميس على بعد ستة أميال من مدينة القصر الكبير ، وكانت هذه المدينة محمية طبيعياً بثلاثة أنهار تمر بوديان تسمى باسمها وهي نهر وادي (اللوكوس) ويسمى (اللقس) أيضاً ، ونهر وادي (الوارور) ونهر وادي (المخازن) وهو الوادي الذي سُميت المعركة باسمه ، أي أن قوات الجيش المغربي كانت تحتمي وراء هذه الأنهار ، كما أن موقعها المتقدم كان على سفح هضبة في محل يدعى (برقين على كدي) بحيث تطل على سهول مدينة القصر الكبير ، وسهول وادي المخازن ، وكان محل تجمع الجيش المغربي أقرب إلى مدينة العرائش منه إلى مدينة أصيلا حيث يتجمع جيش العدو ، إلا أن السلطان عبدالمالك المعتصم كان قد وصل بجيشه إلى ذلك المكان وقد اشتد به المرض ولم يعد يقوى على تمالك نفسه على ظهر جواده فكان يتقدم محمولاً في الفراش .

وعندما كان سياستيان في أصيلا فإن مناوشة جرت مع القوات المغربية ، حيث هاجمت مجموعات مسلحة من الفرسان المغاربة ثلاث مرات المعسكر الذي يعسكر فيه جنود السلطان السابق وقتلوا عدداً منهم مما أثار حماس الملك البرتغالي فخرج لقتالهم وتمكن من صدهم فجن فرحاً ولم يذهب ذلك المساء إلى السرير إلا بعد أن كتب بنفسه رسالة إلي ولاته السبعة في المملكة يعلمهم فيها برد الهجوم المغربي كنصر كبير للبرتغاليين .

ثم قام بإرسال جواسيسه ووكلائه لجمع المعلومات عن الجيش المغربي المعسكر خلف الأنهار وقرب مدينة القصر الكبير ، فكان أن وصله يهودي أخبره بأن جيش المغرب مكونٌ من (٧٠) ألف مقاتل ، وقيل أيضاً إنه كان يحمل رسالة تحذير من عبدالمالك إلى الملك سيياستيان ، وبعدها وصل جاسوس فرنسي أعلم الملك بأن الجيش المغربي يعسكر على بعد ٨ كيلو مترات من القصر الكبير بقوة تقدر بسبعة عشر ألف مقاتل وأربعة وثلاثين مدفعاً .

لقد اتفقت آراء المؤرخين على أنه وفي تلك الفترة أي عندما كان سيياستيان لا يزال في أصيلا فإن السلطان عبدالمالك المعتصم أرسل له رسالة يطلب فيها منه أن يكف عن الحرب وأن ينزع للسلام ، ويعرض عليه موافقته على بقاء مدن الساحل المغربية بيد البرتغال ، ويحذره من التعامل مع محمد المتوكل باعتباره شخصاً غير مرغوب فيه في المغرب ، ولم تغفل رسالته من التلميح بأن السلطان العثماني قد وافقه على مقاومة المعتصم . إلا أن سيياستيان لم يكتثر بالرسالة ، وزاد من غروره وطيشه أن نجدة إسبانية جديدة وصلت إليه ، إذ بعث له خاله فيليب ملك اسبانيا جيشاً مكوناً من (٥٠٠) فارس قشتالي من النخبة الممتازة ، وأرسل له خوذة وسيف والده الملك (شارلكان) اللذين كان يرتديهما عندما دخل تونس منتصراً عام ١٥٣٥ م ، وذلك لكي يرتديهما سيياستيان عندما يدخل ظافراً فاس ومراكش^(٣)

وهكذا فإن كلا الطرفين أصبح على علم بموقع ومكان تحشد الطرف الآخر ، وكان الجيش المغربي في وضع المدافع ، أما الجيش البرتغالي - الأوربي فكان في وضع المهاجم ، ولغرض مناقشة خطة التقرب من مواضع الجيش المغربي ، وخطة مسير وحركة الجيش البرتغالي ، فإن الملك سيياستيان دعا أركان حربه لوضع تقدير موقف صائب للحركة وخطة المعركة ، وفي يوم ٧/٢٥ اجتمع المجلس حيث شارك فيه قادة الوحدات والأساقفة والخوارج ومعهم السلطان السابق محمد المتوكل ، وكانت الخطة

(٣) يوسف نكروف - المصدر نفسه ص ١٦٩ .

التي ناقشوها كما يلي :

١ : هل تعود القطعات إلى السفن ثانية وتبحر إلى مدينة العرائش القريبة من المواقع المغربية ، ثم يترجل جنود الحملة ، هناك ويسIRON برأ إلى أن يصلوا إلى المواقع المغربية بحيث لا يجتازون خلالها إلأنهر اللوكوس ؟ . .

٢ : أم تتقدم الوحدات برأ سالكة أميالاً من الطرق الجبلية الوعرة تعبر خلالها نهري وادي المخازن ووادي الوارور لتصل إلى مواقع الجيش المغربي وتهاجمه هناك . .

إن المنطق العسكري السليم يفترض الأخذ بالرأي الأول والذي تحمس له معظم الضباط ، كما تحمس له محمد المتوكل أيضاً ، إلأن الغرور والتكبر دفعاً بالكونت البرتغالي (دون فوميسو) إلى أن يقول متفاخراً : «إن الجيش البرتغالي جيد التدريب ولا يخاف الموت ، وإن المغربي أقل قدراً من البرتغالي وإن الجيش البرتغالي إذا لم يظهر بمظهر القوي ، فإن جيش قشتاله الأسباني سيسخر منه»^(٤) . وفجأة وضع الملك سيباستيان حداً للمناقشة وقرر أن يأخذ بالرأي والمسلك الأكثر خطراً ، وهو الرأي الثاني بالتقدم بجيشه برأ نحو مواقع الجيش المغربي قرب القصر الكبير . وهكذا تحرك الجيش في صمت لا تُمزقه إلأصرخات سائقي العربات وهم يهيجون حيواناتهم لتسير وتبعد بصعوبة الهضاب الوعرة في موكب ثقيل وطويل وبطيء نظراً لعدم معرفة الأرض ولأن كل جندي كان يحمل ثقلاً كبيراً من التموين والذخائر فوق ظهره ، وكان الجيش يتقدم بغير انتظام ، ولم يبادر أحد من القادة بإرسال المستطلعين ، وكان الخوف من الهجوم المباغت يسيطر على أذهان الجميع في كل لحظة ، وفي يوم ٧/٢٩ وصل الجيش إلى (وادي الرحا) عند التقائه بنهر (وادي الحلو) حيث عسكر هناك .

وهنا وصلت إلى سيباستيان رسالة أخرى من عبدالمالك المعتصم يقول له فيها : «إن

(٤) يوسف نكروف المصدر والصفحة نفسها .

سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك وجوازك البحر فإن ثبت إليّ أن تقدم عليّ فأنت نصراني شجاع وإلا فأنت كلب بن كلب ، إني رحلت إليك ستة عشر مرحلة أما ترحل إلى واحدة»^(٥) .

وقيل إن سياستيان عندما استلم هذا الكتاب استشاط غضباً وأمر جيشه بالتوجه نحو وادي المخازن ، وهو المكان الذي كان المعتصم يتلهف أن يلاقه فيه ليحصره بين الأنهار وبين قوة جيشه ، وهكذا وقع سياستيان في الفخ . وفي يوم ٧/٣٠ ، تقدم سياستيان بجيشه نحو الجنوب إلى أن وصل إلى موقع اسمه (المنارة) ، فخيم فيه وهناك تم دمج الكتيبة الاسبانية الخاصة التي أرسلها خاله له بالوحدات وأعطيت لها الواجبات ، وفي يوم ٧/٣١ تعرضت قوات الحملة إلى مناوشة مع طليعة مغربية مكونة من عدد من الفرسان ، حيث استطاع هؤلاء الفرسان قوة العدو وعادوا من حيث أتوا .

وفي يوم ١/٨/٥٧٨ م ، أصدر سياستيان أوامره بحركة الجيش وكان هو نفسه في حالة توتر شديد وهيجان وعدم استقرار عصبي ثم سارت الحملة وهو في مقدمتها وقطعت جبلاً اسمه جبل (كايسا) باتجاه موقع (ثلاثاء ريسانة) وباتت هناك .

وفي يوم ٨/٢ ، تابع تقدمه عبر الهضاب التي تشرف على الضفة اليمنى لنهر وادي المخازن ، وخيم في موقع يدعى (برقين علي كدي) ، ومن هناك قام يعاونه محمد المتوكل وأركان حربه باستطلاع المنطقة فوجدوا أن عرض النهر يبلغ خمسين متراً ، فأمر بنصب خيام المعسكر في غابة من شجر الفلين لا تبعد كثيراً من التقاء نهر المخازن بنهر اللوكوس ، ومن هناك استطاع وأركان حربه مشاهدة طلائع جيش المسلمين متجهة نحوهم وهي تغطي بسائط المنطقة المحيطة بمدينة القصر الكبير ، بين وادي اللوكس ووادي المخازن ووادي الوارور .

وهناك عقد سياستيان اجتماعاً نهائياً مع أركان حربه الذين نصحوه بعدم عبور نهر

(٥) إبراهيم شحاته حسن - المصدر نفسه - ص ٢١٨ .

وادي المخازن بل التحصن خلفه وجر جيوش المسلمين اليه ، إلا أنه لم يكثرث لنصائح قواد جيشه ، لأنه كان يعيش كل لحظات حياته وراء حلمه بأن يكون الراهب الفارس الذي يضرب أعداء المسيح وإبادة الإسلام^(٦) .

وفي يوم الأحد ٨/٣ أصدر أوامره باجتياز نهر وادي المخازن ، وبذلك دق آخر مسمار في نعشه ونعش جيوشه ، فقامت جيوشه بعبور النهر ، ثم عبروا نهر الوارور أيضاً وبذلك أصبحوا وجهاً لوجه أمام الجيش المغربي ، ولما كان الوقت ليلاً فقد امتنع المغاربة من الهجوم ، فيما كان سياستيان يصول ويجول بين جنوده حاثاً إياهم على التهيؤ للقتال غداً وأمرهم باتخاذ التشكيل الحربي الذي سيكون عليه شكل الوحدات عند القتال وذلك بوضع الأمتعة والخدم والعبيد ورجال الدين وقسم الخدمات والميرة في الوسط وكان عددهم أكثر من عشرة آلاف وفي مقدمتهم طليعة الجيش المكونة من ثلاثة كراديس ، كردوس الاسبان والايطاليين في الجناح الأيسر وكردوس الألمان في الجناح الأيمن وفي القلب الكتيبة الاسبانية الخاصة وجنود طنجه ومغاويرها أما الكتائب البرتغالية فقد أحاطت بالمجموعة كلها على شكل مربع تتقدمه وحدات المدفعية وعربات النقل وكانت وحدات الفرسان قد توزعت بين كافة القطعات ، أما وحدات السلطان السابق محمد المتوكل بجيشه المكون من خمسمائة فارس وستمائة جندي مشاة فقد كانت مع وحدات الفرسان ، وقد اتخذ سياستيان مقره في شمالي القطعات وكان معه ألف فارس . وهكذا اتخذت الوحدات أماكنها القتالية ، ثم ألقى سياستيان خطبة مطولة على جنوده حاثاً إياهم على القتال بشجاعة من أجل تمجيد الإيمان المقدس والدين المسيحي ، فيما كان المطارنة والأساقفة ومندوبو البابا يحملون الصليب ويتجولون بين الكتائب والسرايا يشجعونهم على الموت ويغدون عليهم التبريكات والدعاء لطهارة نفوسهم .

أما على جبهة الجيش المغربي الذي كان يقف بمواجهة هذا الحشد فقد اشتد المرض

(٦) يوسف نكروف - المصدر نفسه - ص ١٧٩ .

بالسلطان عبدالمالك وتناوب الاستفراغ والزيادة في الحمى عليه في أزمنة متقاربة تتركانه خائر القوى ، ومع ذلك ففي أشد لحظات الألم كان يبذل الجهد للسيطرة على مرضه ووضع الخطط المناسبة ومناقشة تنفيذها . وكانت خطته أن يتحشد الجيش على شكل هلال ، بحيث يكون حملة البنادق في الوسط ، والفرسان بقيادة أخيه أحمد المنصور ومحمد زاركو على الاجنحة ، أما المدفعية فقد كانت موجهة إلى قلب وحدات العدو . وفي الليل ، نهض عبدالمالك من فراشه وهو في حالة من الشحوب والهزال وارتدى بزة مهيبية ، وطلب جواداً أبيض وتوجه إلى وحدات جيشه ليزورها ويلقي كلماته التشجيعية هناك ، وعندما كانت الهتافات تتعالى بنداء الله أكبر والعزة للإسلام ، عاد إلى خيمته وهو في حالة إعياء شديد^(٧) .

وفي صباح اليوم التالي ، يوم المعركة الفاصلة ، الاثنين ٣٠ جمادي الأول ٩٨٦هـ الموافق ١٥٧٨م / ٨ / ٤ ، استيقظ الكل مبكرين وسادت وقفة صمت طويلة ، فيما كان سياستيان لا يستقر في مكان واحد ، وكان حليفه السلطان المخلوع قد نصحه بعدم الهجوم إلا بعد الظهر ، ولكن وإلى حوالي العاشرة صباحاً لم يعد سياستيان قادراً على تحمل منظر الجيش المغربي وهو يقف على أهبة الاستعداد للقتال .

ففي الجناح الأيمن للجيش المغربي كان الأمير مولاي محمد بن المعتصم مع ألف فارس مسلحين بالبنادق وعشرة آلاف آخرين مسلحين بأسلحة أخرى ، وهو بمكانه هناك كان يواجه الوحدات التي يقودها القاده (دورات دي منزيس) و(دون آفيرو) ، أما القائد المغربي محمد زاركو فقد كان على رأس ألفي فارس مسلحين بالبنادق وعشرة آلاف آخرين من المشاة ويقف في الجناح الأيمن حيث يقف بمواجهة القطاعات التي كان الملك سياستيان يقودها بنفسه ، أما الكتائب المغربية من حملة الرماح فقد كانت في الوسط ، كما كانت كتائب الفرسان المغربية تكمن في الجبال المحيطة ، حيث إن أوامر عبدالمالك إليها كانت عدم التورط بالقتال في مراحل الأولى بل جلب العدو

(٧) يوسف تكروف - المصدر نفسه - ص ١٨٥ .

إلى داخل الهلال ثم الإطباق عليه .

كانت الساعة قد قاربت الحادية عشر صباحاً ، وبجهد جهيد اضطر عبدالمالك الذي أوْشك أن يتهاوى من الضعف الجسدي أن يلقي نظرة على التنظيم القتالي وأمر بنقل مقره إلى الوسط .

وفي تلك الساعة رفع سياستيان سيفه ونادى : «ها بنا يا أولادي . . هيا أيها الفرسان . . سانتياغو . . لنهاجمهم فليس هناك إلا الرُعاع» . وهكذا بهذه الكلمات بدأت معركة وادي المخازن أو معركة القصر الكبير أو معركة الملوك الثلاثة عند ظهر نهار الاثنين ٤/آب/ ١٥٧٨ م^(٨) .

هاجم سياستيان على رأس فرسانه قوات الأمير محمد وعلى إثر ذلك قامت المدفعية المغربية بصب قذائفها على وحدات العدو فأحدثت ارتباكاً عندهم ، واثناء ذلك هاجم (دورات دي منزيس) و(دون أفيرو) ووحدات محمد المتوكل ، الوحدات المغربية التي يقودها محمد زاركو حيث أنزلوا بها خسائر فادحة أجبرتها على الانسحاب ، وفقد محمد زاركو اثنين من الأعلام الخمسة للجيش المغربي كما أظهر الإيطاليون والاسبان تقدماً ملموساً ، فيما لجأت بعض الوحدات المغربية إلى الفرار في الوقت الذي دفع سياستيان بجنود آخرين إلى المقدمة . ولما لاحظ السلطان عبدالمالك الذي كان يتمايل من الإعياء ذلك الانكسار هرع إلى جواده ليقود هجوماً معاكساً وصعد إلى ظهر الحصان وقد أخذته رجفة متشنجة ، واندفع في حمية وسط الفارين ، إيماناً بأن وجوده بينهم سيوقف تقهقرهم ، وعندما عاد كان في الرمتق والنزع الأخير ، خائنه قدماء وذراعه وهو يحاول النزول من الفرس ورفع رأسه وهو يعاني الغصة وتطلع إلى السماء رافعاً نحوها اصبعه السبابة وتمتم بشهادة الإيمان ، ثم نظر إلى من كان حوله نظرة الوداع ، وأشار اليهم إشارة يفهم منها أنه منتقل إلى رحمة الله ويشير لهم بكتمان موته عن الجيش ، ثم تشاهد ثانية ، وأغمض عينيه وانتقل إلى رحمة

(٨) يوسف تكروفي - المصدر نفسه - ص ١٨٨ .

«وهكذا مات عبدالمالك وهو وسط المعركة وذلك عندما اقتدح زناد الحرب فكان موته ساعته وأحزاب الطاغوت فاعرة الأفواه لالتهام أنصار الملة الإسلامية»^(٩) .

لم يُصب قادة جيش عبدالمالك ومرافقوه بصدمة عند وفاته ، بل تصرفوا وكأنه لا زال على قيد الحياة ، إذ إن ظهوره قبل وفاته على ظهر فرسه رفع معنويات الكتائب المغربية ، فهاجم الفرسان الموجودون في الجبال مؤخرة القوات البرتغالية وأوقعوا بها هزيمة نكراء واستولوا على مدافعها ، ثم لم تلبث قوات محمد زاركو أن قامت بهجوم معاكس ، وفي الوقت نفسه اجتمعت هيئة أركان حرب الجيش المغربي بأخيه الأمير المولى أحمد المنصور فبايعوه سلطاناً على البلاد وقائد للجيش المغربي المشتبك في معركة الحياة أو الموت ، واندفع الفرسان المغاربة يلاحقون البرتغاليين والألمان فحصرهم بين حاجز العربات ووادي اللوكوس فأنزلوا هزيمة بالألمان ، أما البرتغاليون فقد قاتل اللواء الملكي بشدة وحدثت مجزرة كبرى راح ضحيتها ألفي مغربي ، لكن نتيجتها كانت في صالح المغاربة إذ قُتل (دون أفيرو) واستسلم (دورات دي منزيس) .

أما السلطان السابق محمد المتوكل فقد أصيبت قواته بنكسة عظيمة عندما هاجمهم الجيش المغربي ، فهرب المتوكل على ظهر حصانه باتجاه أصيللا محاولاً النجاة وعندما وصل إلى نهر وادي المخازن الممتليء بالوحد سقط من ظهر حصانه وهو وسط الأوحال والمياه الشديدة الجريان ولم يكن يعرف السباحة فغرق في الوحد ومات^(١٠) .

وفي قلب أرض المعركة كان المغاربة يتابعون تقدمهم فيما راح البرتغاليون ومن معهم يتراجعون ، بينما كان الملك سيباستيان يقاتل تجاه عشرة آلاف فارس مغربي بقيادة السلطان الجديد أحمد المنصور ، ثم لم يلبث الفرسان العرب الذين كانوا على

(٩) عبدالكريم كريم - المصدر نفسه - ص ١٠٦ . وكذلك إبراهيم شحاته حين - المصدر نفسه - ص ٢١٩ .

(١٠) المصدران السابقان والصفحتان نفسهما .

المرتفعات أن هجموا على شكل حلقة طوقوا بها القطعات التي كان سياستيان معها ، فتكدست الوحدات البرتغالية على بعضها بدون تنظيم وقد نالها الهلع والرعب ، وقتلت ثلاثة أحصنة تحت سياستيان الذي ظل يقاتل وهو يحاول أن يجمع شتات جيشه الذي بدا واضحاً أنه يوشك أن يهرب من الميدان ، فقد ركض النبلاء الأسبان والفرسان البرتغاليون وتركوا خيولهم ولجأوا إلى العربات يحتمون بها ولما حاولوا الهرب لحقتهم الخيول العربية وأفتتهم سيوف الفرسان ، بينما استمر سياستيان يقاتل وحيداً تقريباً . وأخيراً أحاط به الفرسان العرب وأوقعوه من حصانه وانهالوا عليه بسيوفهم وأهلكوه^(١١) .

كان مقتل سياستيان بداية الكارثة التي حلت بالجيش البرتغالي وأحلافه ، فقد قُطعت أمامهم طرق الانسحاب بسبب المد الذي ظهر على نهري اللوكوس والمخازن وأصبحا غير قابلين للاجتياز فانحصروا من جميع الجهات مما أدى بهم إلى التشتت والهرب ، فوقعت حالات عديدة من الاختناق والدهس تحت الاقدام وتحت الأحصنة والعربات ، وأطبق الفرسان والمشاة المغاربة من كل الجهات على تلك الأكوام البشرية وأخذوا يصفون الجيوب الأخيرة للمقاومة ، وعند مغيب الشمس لم يكن قد بقي أحد من جيش سياستيان .

وهكذا انتهت معركة الملوك الثلاثة ، حيث مات فيها ثلاثة ملوك الأول ميتة طبيعية والثاني غرقاً بالماء والثالث بالسيف .

ويذكر المؤرخون أن خسائر البرتغاليين قُدرت بـ (١٤) ألف قتيل و (٢٠) ألف أسير . وفي اليوم التالي أمر السلطان المغربي الجديد أحمد المنصور بارسال جثة أخيه المعتصم إلى فاس في موكب مهيب لتدفن هناك ، أما جثة الجائن محمد المتوكل فقد التقطت من الوحل والطين فأمر المنصور بسلخ جلده وحشوه تبناً وأرسله إلى مراكش ، فطيف به ليعاينه الناس ويعتبرون به فصار اسمه يعرف (بمحمد المسلوخ) ، ثم جمع المنصور

(١١) يوسف نكروف - المصدر نفسه - ص ١٩٢ .

نبلاء وقادة الجيش البرتغالي واستجوبهم حول مصير ملكهم فأجابوا أنهم لا يعرفون شيئاً عنه ، وبعد الظهر حضر نبيل شاب يدعى (سيباستيان دي ريزند) وأكد أن سيده قُتل ، وقال إنه يعرف مكان الجثة ، فقدم له المنصور بغلاً وحراساً وذهبوا إلى مكان الجثة فوجدوا ملك البرتغال مسجى بدون حراك ، فجيء بها أمام خيمة السلطان ، وهناك وضعت على حصير مصنوع من القصب .

كان في رأسه خمسة جروح اثنان منها عميقان فوق العين اليمنى ، لكن جسمه لم يصب بأية جروح بسبب الدرع الذي كان يرتديه ، وطلب السلطان أحمد من قادة الجيش والنبلاء الإقرار بأن الجثة لملكهم لكي يعمل على دفنها ، فشهد الجميع أنها فعلاً لسيباستيان ، وبعد ذلك حُطَّ الجسم ونُقل إلى مدينة القصر الكبير برفقة أحد النبلاء ليسهر على مراسيم الشرف التي أمر السلطان بإقامتها عند دفن الجثة ، وفي يوم ١١ / ٤ / ١٥٧٨ م ، نُقل التابوت إلى مدينة (سبته) حيث حفظ في كنيسة الثالث المقدس حتى عام ١٥٨٢ م^(١٢) .

ومن المفيد أن نستطرد قليلاً في قصة (الملك سيباستيان) ومصرعه الدرامي هذا والطريقة اللاهوتية المسيحية التي أحاط بها حركته ونفسه والنهاية المذهلة التي أريد بها بسيف الإسلام . فإن هذا الفتى رغم طيشه واندفاعه ، فقد كان في نظر الكثير من البرتغاليين والمتطرفين المسيحيين ، يمثل (الفارس الراهب) ، لذلك فإن مصرعه المثير في المغرب أثار هيجاناً كبيراً في البرتغال ، رغم أن قصة تدميره وجيشه كانت مبهمة والتفاصيل قليلة ، ولم يصدق الكثير من الناس أنه مات ، بل سرت إشاعات كثيرة أنه نجح في الإفلات ، وقد صارت قصة إفلاته من الموت ، وأنه حي يرزق في العالم ، أسطورة كانت لها نتائج مثيرة ومهيجة إلى يومنا هذا تقريباً . فقد تقمص شخصيته عدد من المغامرين الذين راحوا يتاجرون بها سياسياً ودينياً . إذ بعد ليلة من مصرعه وإياداة الجيش البرتغالي ، جاء ثلاثة ناجين يدقون أبواب أسوار مدينة أصيلا ، ويطلبون

(١٢) يوسف تكروف - المصدر نفسه - ١٩٣ . وكذلك DANVERS الجزء الثاني - ص ٢٢ .

الاستعجال لأن احدهم كان الملك . فآثار ذلك هياجاً وسط رجال الحامية هناك ، وكذلك وسط رجال الاسطول ، ثم اكتشف ضباط الحامية أن الرجل يكذب ، فأرسلوه مخفوراً إلى لشبونة ، وما كادوا ينزلونه في لشبونة حتى انتشر الخبر بأن الملك حي فعلاً ، وأنه مختف وخجول من الهزيمة والندم ، ولكنه سيأخذ مكانه على العرش بعد فترة قصيرة ، فشكل ذلك الحدث بدايات ما يمكن تسميته (السياسيانية) .

وعندما خسرت البرتغال استقلالها باستيلاء اسبانيا عليها عام ١٥٨١م وبقيت تحت رحمتها إلى عام ١٦٤٠م تقريباً ، (كما سنرى تفاصيل ذلك في الفصل القادم) ، فإن الشعب البرتغالي حمل غيظاً كبيراً على الاسبان والتأسف على الاستقلال المفقود ، مما ساعد على نشر الاشاعات بوجود (سياسياني) ، لذلك فقد ظهر أربعة أفراد منذ عام ١٥٨٣م وعلى امتداد ثلاثة عشر عاماً أنتحل كل منهم اسم سياسياني ، وأوصلت هذه المحاولات أكثر من أربعين شخصاً إلى المقصلة ، ودفعت إلى الموت عدداً من المؤيدين وهُدرت الدماء وأصبحت خرافة (السياسيانية) أكثر تزمناً ، فقد ظهرت جماعات كثيرة انضمت تحت ألوية كهنوتيه سياسييه ، يعيشون في أحلام أن ملكهم لا بد أن يعود بحكم قوة التنبؤات والرؤى الصوفية ، وأدت هذه الرؤى والتنبؤات إلى نشوء كثير من التفسيرات والتعليقات والكتابات حتى تكون أدب (سياسياني) هام كانت تجمعه المكتبة الوطنية في (لشبونة) تحت اسم (البابوية السياسيانية) . لذلك راحت هذه (السياسيانية) تنفذ شيئاً فشيئاً في البرازيل في أمريكا الجنوبية وخاصة في الطبقات الفقيرة من الشعب ، وهناك تبنى بعض القادة هذه الأحلام وأعلنوا أنفسهم موفدين من قبل الملك (سياسياني) ووجهوا مؤيديهم إلى مغامرات ومواجهات دموية مع قوات الحكومة .

ففي حوالي عام ١٨٣٦م ، وفي شمال شرقي البرازيل أدى انتظار عودة سياسياني إلى جنون جماعي ومجزرة ، عندما قام كاهن من أصل هندي أحمر بجمع حشود من الفقراء والكهنة حول بحيرة (فيلاديك) داعياً إلى الثورة ضد الأغنياء واعداء إياهم

بمستقبل سعيد على الأرض الخالية من الشر ، وذلك عندما يخرج الملك سياستيان من
مياه البحيرة محاطاً بحاشيته من الأبطال ومتحرراً من السحر ، ليسير في الأرض
الخالية من الشر على رأس مؤيديه .

وفي الليل كان الجميع يسكرون في شراب خمر قصب السكر ، فإذا انتشوا غنوا
قائلين :

إن عالماً رائعاً سيظهر

ويستعيد المريض صحته

ويغتنى الفقير

ويعود الشيخ إلى صباه

ويصبح الأسود أبيض البشرة

ويدخل الجميع في مرحلة الخلود

ويأتي هذا العالم الرائع عندما يظهر الملك سياستيان

الأرض . . الدم . . الأرض عطشى للدماء

فلتشرب الأرض شرايين الدماء

ولتتحرر الأرض المشبعة بدم الملك سياستيان

فالأرض ستفتح ليخرج منها الملك الطيب سياستيان

وهكذا اجتمع الألو من الفقراء والمشعوذين ، وساروا في انفعال واهتياج متجهين
نحو صخرة عظيمة قيل إن سياستيان موجود فيها ، ثم انقلبت المسيرة إلى فوضى
فشغب ، مما دفع بالحكومة إلى أن ترسل قواتها إلى المنطقة ، فقامت القوة بإطلاق النار
على الجموع الهائجة وواقعت فيهم مجزرة .

وحدث مثل هذا الشيء عام ١٨٩٣ م ، عندما ظهر (نبي آخر) يدعي السياستيان
في البرازيل قاد الجياع إلى ثورات متلاحقة ضد الاغنياء ، إلى أن أدى به الأمر إلى
الاتحام بقوات الجيش التي أطلقت عليه النار وقتلته ، وردد المشيعون الذين حملوا

جنازته نشيدهم القائل :

ستتحول المياه دماء

وستمطر وتمطر

كثيراً من النجوم

وتكون نهاية العالم

ومن أمواج البحر

سيخرج دون سياستيان

مع كامل جيشه

سيخرج دون سياستيان

واستمرت الثورات الجائعة المقنعة بقناع السببية السياسية في البرازيل ، ففي شهر اكتوبر من عام ١٩٣٠م حدثت ثورة في قلب (ريو دي جانيرو) قادها الشيوعيون وهم يهيجون الجماهير لنهب مخازن الغلال والطعام الحكومية بقولهم : إن دون سياستيان سيظهر ثانية ويحقق الرخاء . وفي عام ١٩٦٢م ظهرت حادثة جديدة في البرازيل ، في منطقة في شمالي شرقي البلاد ، وهي منطقة الجفاف والجوع ، فقد مر يوم من السلب والنهب والعنف المفرط وهتف المتظاهرون الذين كانوا يحملون الهروات والقضبان الحديدية والسكاكين :

الجوع .. دائماً الجوع .. كل سنة هي سنة الجوع .. إن الله وقديسه لم يريدوا ذلك .. إننا ندفن أحياء .. دون سياستيان سيعود .. سيخلصنا دون سياستيان .. ونخلصه نحن ..

ثم قامت السلطات البرازيلية بفتح نيرانها عليهم ، وانقلبت المظاهرة إلى مأساة كمأساة يوم الاثنين ٤ / ٨ / ١٩٦٨م ، في معركة وادي المخازن أو معركة القصر الكبير ، أو معركة الملوك الثلاثة^(١٢) .

(١٢) يوسف تكروف - المصدر نفسه - ص ١٩٥ وما تلاها .

الفصل الرابع والثلاثون

- * السلطان المولى أحمد بن محمد الشيخ السعدي الملقب (المنصور) يعتلي عرش المغرب .
- * وفاة ملك البرتغال الكاردينال هنري عام ١٥٨٠ واستفحال أزمة ولاية العهد .
- * ملك اسبانيا فيليب الثاني يدخل لشبونة في ١٦/٤/١٥٨١ ويوحد العرشين الاسباني والبرتغالي تحت عرشه .
- * هزيمة الاسطول الاسباني أمام الاسطول البريطاني في معركة (الارمادا) عام ١٥٨٨ .
- * علاقات بريطانية مغربية والمنصور يستغل فرصة قتال الاسبان والانجليز لصالحه .
- * وفاة السلطان أحمد المنصور في ٢٤/٨/١٦٠٣ .

اعتلى عرش المغرب السلطان المولى أحمد بن محمد الشيخ السعدي الملقب (المنصور) وقُدِّرَ لهذا السلطان أن يكون أعظم ملوك المغرب ، فيبني امبراطورية تمتد إلى السودان وتدين بطاعته بلاد واسعة من شمالي غربي أفريقيا فتسيطر على سواحل تمتد مئات الكيلو مترات على ضفاف المحيط الأطلسي مما ساعد على تكوين اسطول مغربي جيد ، وعلى عهده شاع الغنى والتجارة في المغرب وفتحت مجالات العمل خاصة بعد احتلال السودان ، وقويت شوكة جيشه وارتفعت معنويات شعبه بعد انتصاره في معركة وادي المخازن .

كما أثبت المنصور بأنه سياسي من الطراز الأول ، إذ استطاع بعد أن أنهى أسطورة جيش البرتغال الذي لا يُقهر ، أن يلعب بموازن القوى الدولية بشكل دبلوماسي

رائع ، خاصة في علاقته بالأثراك الذين شاركوا بمعركة النصر في وادي المخازن والإشاعة التي تقول بأنهم هم الذين دسوا السم لأخيه عبدالمالك وقتلوه في أرض المعركة ، وعلاقته باسبانيا العدو التقليدية للعرب ومشاعر ملكها فيليب تجاه مصرع ابن اخته ملك البرتغال ، وكذلك علاقته بالنظام الجديد في البرتغال المهزوز على مقتل ملكه الشاب ، أما أحسن وتر سياسي لعب عليه فهو علاقته بالقوة الأوربية النامية الجديدة التي كانت تريد أن تحل محل اسبانيا والبرتغال في مستعمراتهما في العالم ، وكانت تلك القوة بريطانية التي تحكمها الملكة الطموحة اليزابث الأولى .

فبالنسبة لعلاقاته بالأثراك ، فإن أول أزمة حدثت بينه وبينهم كانت في أرض معركة وادي المخازن ، إذ تذكر المصادر المغربية أنه لما تمت البيعة لأحمد المنصور فإن القادة الأثراك ارتبكوا للمفاجأة ونادوا بأحقية المولى اسماعيل بن عبدالمالك في العرش المغربي مما اضطر أحمد المنصور إلى الحذر خوفاً من أن يقتلوه ، إلا أن المغاربة أصروا على بيعته والتمسك بها فلم يجد الأثراك بداً من القبول بالأمر الواقع . وقد سجلت هذه الحادثة الخطيرة بين أحمد المنصور والأثراك بداية لعلاقات مترججة بين الطرفين ، إلا أن المنصور عاجلها بدهاء إذ بعث برسائل ودية إلى السلطان التركي في استانبول يخبره بانتصاره العظيم كما أرسل رسالة إلى والي الجزائر التركي حسن باشا البندقي يعرض عليه صداقته .

ولعل تلك البداية السيئة مع الأثراك ، وظهور منافس له على السلطة هو الأمير داوود بن عبدالمؤمن أضاعت على المنصور فرصة استغلال انهزام البرتغال لتحرير ما تبقى لهم من قواعد في الشواطئ المغربية . لذلك فعندما قامت اسبانيا باحتلال البرتغال عام ١٥٨٠م ، فإن السلطان مراد الثالث أرسل رسالة إلى المنصور يقول له فيها :

«لقد وصل إلى سمعنا الشريف خبر طاغية قشتاله وأنه احتوى على سلطنة البرتغال وأنه جعل أهلها في الأغلال والاصفاد وأنه لكم جار وعدو مضر ، لذلك نوجه لكم

ثلاثمائة غراب (سفينه) سلطانية وجيش عز ونصر لكي نستفتح بها إن شاء الله بلاد الأندلس»^(١) .

إلا أن المنصور تردد في الجواب لعدم ثقته بالأتراك من جهة ولأنه كان يسعى إلى تجنب كل ما من شأنه أن يثير النزاع مع إحدى القوتين الرئيسيتين في المنطقة وهما الأتراك والاسبان ، وقد أدرك كل من السلطان التركي مراد الثالث والملك الاسباني فيليب الثاني هذا الجانب من سياسة المنصور ، وأرغما تحت وطأة المشاكل الداخلية والخارجية المتزايدة لكل منهما على قبول الأمر الواقع ، فأصبح المغرب بلداً محايداً بين الامبراطوريتين الكبيرتين العثمانية والاسبانية .

وعلى هذا الأساس الدقيق عالج المنصور علاقته باسبانيا ، بظروف اتسمت بصعوبة أكثر من تسوية علاقاته مع الأتراك ، إذ إن توليه العرش المغربي جاء على أشلاء الجيش البرتغالي - الأوربي ، وتمزيق الحملة التي كان فيليب الثاني متوجساً منها ولكنه شارك فيها بكتيبة من أحسن كتائبه إرضاءً لغرور ابن اخته ، إلا أن المنصور عالج ذلك الأمر بحكمة ودهاء ، فحينما كتب إليه الملك فيليب يطالب بجثة ابن أخته الملك سيباستيان ، فإنه قام بتسليمها له بحفاوة كبرى ، كما أنه قام بإطلاق سراح السفير الاسباني في لشبونة الذي تم أسره في معركة وادي المخازن وبذلك فتح صفحة جديدة في العلاقات المغربية الاسبانية البرتغالية اتسمت بال صداقة حتى أن المؤرخين المغاربة نقلوا لنا صوراً عن وفود اسبانية وبرتغالية زارت بلاط المنصور وقدمت له هدايا من الذهب والفضة . إلا أن تلك العلاقة لم يلبث أن شابها نوع من الفتور والجمود وذلك بسبب حادثين مهمين :

الأول : هو استيلاء اسبانيا على البرتغال ، وما أعقب ذلك من لجوء الأمير البرتغالي دون أنطونيو المطالب بعرش البرتغال إلى بلاط المنصور .

والثاني : هو العلاقات المغربية الانجليزية من جهة والنزاع الانجليزي الاسباني من

(١) عبدالكريم كرم - المصدر نفسه - ص ١١١ .

جهة أخرى .

فبالنسبة للحادث الأول ، فقد كان من نتائج معركة وادي المخازن ومصرع الملك البرتغالي أن كارثة قد حلت في البرتغال ، فأوكلت الأمور إلى الكاردينال دون هنريك وهو أخو جد سيباستيان وكان عجوزاً طاعناً في السن لم يجرؤ أن يصارح الشعب الذي لم يصدق أن سيباستيان قد مات ، لذلك فقد تم تعيينه وصياً على العرش أولاً ، ولم يتم تثبيته ملكاً إلا في ٢٩ / أغسطس / ١٥٧٨ م^(٢) .

وقد شهدت أيام هذا الملك البرتغالي العجز بؤادر الانهيار العسكري والسياسي والاقتصادي للبرتغال ، وهو الضعف الذي كان قد بدأ يدب فيها منذ أيام سيباستيان ، خاصة بالنسبة إلى خطل السياسة البرتغالية في المستعمرات التابعة لها بسبب الممارسات الخاطئة والبيروقراطية الحاكمة التي عُرِفَتْ بغطرستها وتعاليتها على الشعوب التي تحكمها وفسادها الاجتماعي ، وكثرة التلاعبات بأموال الدولة والدخول في صفقات مشبوهة والإثراء على حساب الخزينة البرتغالية وشدة التعصب الديني وعدم المرونة مع الأديان الأخرى الخ من مظاهر الفساد السياسي والاجتماعي مما أدى بالتالي إلى إخفاق التجارة البرتغالية التي كانت تحتكر المنتوجات الهندية ، فقد تناقصت كميات التوابل التي حملتها السفن البرتغالية ، وهي السلعة الرئيسية والمصدر الأساسي للدخل القومي في البرتغال حتى أن أعوام ما بعد ١٥٦٠ م شهدت تفوقاً عربياً في تجارة التوابل الهندية ، إذ أن كميات التوابل التي وصلت إلى ميناء الاسكندرية محملة على ظهور السفن العربية ، كانت أكثر من تلك التي حملها البرتغاليون عبر رأس الرجاء الصالح .

لذلك فعندما مات الملك الكاردينال هنري في شهر شباط من عام ١٥٨٠ م استفحلت بموته أزمة جديدة في البرتغال ألا وهي وراثة العرش البرتغالي ، ذلك أن الكاردينال هنري ترك وصية قبل وفاته أن يؤول عرش البرتغال بعد موته إلى الملك

(٢) DANVERS - المصدر نفسه - الجزء الثاني من الكتاب ص ٢٤ .

فيليب الثاني ملك اسبانيا ، وقد لاقى هذا الأمر اعتراضاً من أفراد الأسرة الحاكمة ، فظهر ثائر منشق هو الأمير (دون انطونيو) ، لذلك فإن ملك اسبانيا عاجل البرتغال بارسال جيش اسباني بقيادة (دوق الفا DUKE OF ALVA) ودخل إلى لشبونة فاتحاً يوم ١٦ / ٤ / ١٥٨١ م ، وأعلن انضمام عرش البرتغال إلى عرش اسبانيا .^(٣)

إلا أن فيليب وإن كان قد أعلن للشعب البرتغالي أنه لم يأت اليهم فاتحاً بل موحداً الدولتين ، وأن البرتغال ستبقى محافظة على شكلها المستقل ، إلا أن شعور الرأي العام البرتغالي هو أن البرتغال قد سقطت وصارت دولةً مُستعمَرةً بدلاً من كونها مُستعمَرةً ، لذلك فقد قرر الأمير البرتغالي (دون أنطونيو) والقائد (دوق أوف باركانزا) القيام بمقاومة مسلحة لهذا الغزو ، خاصة بعد وصول اسطول اسباني بقيادة (ماركوس دي سانتا كروز) حاصر لشبونة من البحر كما احتل معظم الموانئ البرتغالية ، لذلك فقد قام أنطونيو بحشد جيشه في منطقة الغرب في جنوب البرتغال متخذاً من نهر التاج مانعاً يتحصن خلفه ، فيما أعلنت مدن (شنترين) و(كامبيرا) العصيان ضد الاحتلال الاسباني ، إلا أن مقاومة أنطونيو فشلت فهرب إلى خارج البلاد وذهب أولاً إلى بريطانيا وطلب اللجوء السياسي والعون من الملكة اليزابث ، ثم لم يلبث أن ذهب إلى المغرب وقابل السلطان المنصور وطلب منه أن يمنحه اللجوء والأمان ، فوعده المنصور خيراً وقبله لاجئاً في المغرب .

وهكذا صار سقوط البرتغال بيد أسبانيا الإسفين الثاني الذي دُق في نعش الامبراطورية البرتغالية ، بعد الاسفين الأول وهو معركة وادي المخازن .

أما الإسفين الثالث ، فكان ظهور انجليتره على مسرح الأحداث وما أبدته الملكة اليزابث من رغبة في أن تحل محل اسبانيا والبرتغال في الاحتواء على ممتلكاتهم ومستعمراتهم في العالم ومنها العالم العربي والاسلامي ، وهي السياسة التي قدر لها فيما بعد أن تنتهي بنجاح وأن تحل بريطانيا محل البرتغال في ممتلكاتها في الشرق

(٣) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٢٥ .

والغرب . فبالنسبة إلى المغرب فإن الملكة اليزابث وافقت على تسليح الجيش المغربي لكي يستطيع الوقوف أمام اسبانيا والبرتغال ، كما وافقت على عقد معاهدة تعاون اقتصادي ، بحيث تم تأسيس (الشركة البربرية) لتنظيم شؤون التجارة بين بريطانيا والمغرب كما قامت بالتدخل لدى المنصور للعمل لصالح الأمير البرتغالي دون أنطونيو .

وقد أدت سياسة الملكة اليزابث إلى حرب بين إنجلترا واسبانيا ، انتهت بمعركة (الارمادا) عام ١٥٨٨ م ، التي تشتت فيها شمل الاسطول الاسباني ، وكانت نتائجها أن ثورات عديدة ثارت ضد الاسبان ، ودخل المنصور في مفاوضات مع الانجليز لتنظيم تعاون عسكري ضدهم ، وقد هاجمت القوات المغربية القاعدة الاسبانية في (سبته) يوم ١١ / ديسمبر / ١٥٨٨ م إلا أنها اضطرت إلى الانسحاب لأسباب سياسية ، كما قامت قوات الإنجليزية بالهجوم على لشبونة عام ١٥٨٩ م .

وعلى كل حال فيمكن أن نجمل سياسة السلطان المنصور على أنه كان يلعب بالأوتار السياسية لدفع تلك الدول للقتال مع بعضها البعض على أمل أن يحصل على مكاسب سياسية ويتمكن من تخليص ما تبقى من مدن وموانئ مغربية لازالت واقعة تحت سيطرة الاسبان أو البرتغال . لذا فقد استطاع هذا الملك العظيم أن يمد نفوذ دولته إلى وسط افريقيا وشرقها وأن يفتح السودان في عام ٩٩٨ هـ ، وأن يؤسس الامبراطورية المغربية . غير أن الأيام لم تمهله طويلاً ، إذ داهمه المرض وشعر بدنو أجله كما يبدو من آخر رسالة وجهها إلى ابنه ونائبه في مراكش بتاريخ ٤ / ربيع الأول / ١٠١٢ هـ قائلاً له :

«والله سبحانه وتعالى يرعاكم ويتولى حفظكم انتم وأولادكم وقد استودعناكم ونسأل الله الذي لا تضيع ودائعهم والله سبحانه وتعالى أن يعافيكم ويعافي البلاد بمنه وفضله» .

وقد دفن المنصور في فاس يوم الاثنين ١٦ / ربيع الأول / ١٠١٢ هـ الموافق

٢٤/٨/١٦٠٣ م ، ثم نقل جثمانه إلى مراكش فيما بعد ودفن في مقبرة الشرفاء
السعديين وقد كتبت الأبيات التالية على قبره :

هَذَا ضَرِيحٌ مِنْ غَدَتِ	بِهِ الْمَعَالِي تَفْتَخِرُ
أَحْمَدُ مِنْ صُورِ اللُّوَا	لِكُلِّ مَجْدٍ مَبْتَكِرُ
يَا رَحْمَةَ اللَّهِ اسْرِعِي	بِكُلِّ نَهْرٍ تَسْتَمِرُ
وَيَا كَرِ الْمَرْمَسِ بِهَا	إِنْ رَضَاهُ مِنْهُمْ مَرُ
وَطَيِّبِي ثَرَاهُ مِنْ	نَدٍّ كَذَكَرِهِ الْعَطَرُ
وَأَفِيقِ تَارِيخَ الْوَفَاةِ	(دُونَ تَعَسَّرِ) ذَكَرُ
مَقْعَدٍ صَدَقَ دَاخِلًا	عِنْدَ مَلِيكَ مَقْتَدَرُ ^(٤)

وبوفاته فإن قصة النفوذ البرتغالي - الاسباني في المغرب قد أصبحت هزيلة ولا تكاد
تثير الاهتمام وهي معرضة للنهاية في أية لحظة ، كما أن النفوذ البرتغالي أصبح معرضاً
للزوال والانهيار في المشرق العربي ، وهو الأمر الذي سنبحثه في الفصول القادمة .

(٤) عبدالكريم كريم - المصدر نفسه - ص ٢٢٥ .

الفصل الخامس والثلاثون

- * دون فرانسيسكو ماسكرينهاص يصبح نائباً لملك أسبانيا والبرتغال في الهند .
- * حملة علي بك شلبي على مستط عام ١٥٨١ .
- * دون دورات دي منزيص يصبح نائباً للملك عام ١٥٨٤ .
- * أهالي مدينة (نخيلو) الفارسية ينزلون هزيمة بقوة برتغالية .
- * استسلام علي بك شلبي للبرتغاليين في ممباسة عام ١٥٨٨ .
- * وفاة الملك فيليب الثاني . وملكة بريطانيا توفع مرسوماً بتأسيس شركة الهند الشرقية في ١٦٠٠/١٢/٣١ .
- * اعتلاء الشاه عباس الصفوي عرش ايران عام ١٥٨٨ .
- * الشاه عباس ينزل هزيمة بالبرتغاليين في البحرين ويستردها منهر عام ١٦٠١ .
- * أحداث غامضة تقع في مدينة (صحارا) العمانية وورود أول خبر عن البرتغاليين على صفحات التاريخ العماني .
- * سقوط هرمز وتخريبها بشكل تام من يد البرتغاليين عام ١٦٢٢ .

ذكرنا في الفصل السابق كيف سقطت البرتغال تحت حكم أسبانيا وكيف تم تتويج الملك فيليب الثاني ملك أسبانيا ليصبح ملكاً لاسبانيا والبرتغال يوم ١٦/٤/١٥٨١م وما إن تسنم الحكم حتى أقسم على أن يحافظ على المستعمرات البرتغالية في العالم وأن يحافظ على تجارة الهند والقواعد البرتغالية الموجودة فيها وفي هرمز والسواحل العربية في الخليج العربي .

لذلك فقد قام بإجراء تغييرات في المناصب القيادية في المستعمرات فقد تم تعيين (دون فرانسيسكو ماسكرينهاس كوندي دي فيللا DOM FRANCISCO MASCARENHAS CONDO DA VILLA) بمنصب نائب الملك في الهند ، كما تم تعيين (دون كونا لا دي منيزس DOM GONZALA DE MENEZES) حاكماً على هرمز ومسؤولاً عن القاعدة العسكرية في مسقط وبقية القواعد المنتشرة في عُمان والخليج العربي . وعندما وصل نائب الملك إلى مدينة (كوا) قام بتجهيز حملة عسكرية هاجم بها مدن وقرى الهنود منزلاً بهم أنواعاً من القتل والحرق والتدمير^(١) ، فكان هذا الاستهلال الدموي للعهد الأسباني - البرتغالي المشترك في حكم الهند وهرمز والسواحل العربية ، انعكاساً للخوف ولانهيار المعنويات الذي أصاب الوحدات والقواعد العسكرية هناك ، وهو خوف وانهيار كان قد سبقه علامات انحلال وأقول ظهرت على السياسة البرتغالية في الشرق بصورة عامة منذ عهد الملك سيباستيان ، كظهور الطبقة البرجوازية البرتغالية التي استغلت تجارة الشرق ، ولم تستطع أن تحافظ على طبقة الرواد الأوائل الذين كانوا يتلفون على القيام بأي مغامرة للحصول على الربح ، كما أن تفشي الرشوة بين الحكام وظهور طبقة من السياسيين التجار الذين يهتمون بتجاريتهم الخاصة مستغلين مناصبهم الحكومية أدت إلى تهالك أولئك القادة على الظفر بوظيفة حاكم هرمز ، لأن دخل الحاكم الخاص من جراء وظيفته كحاكم هناك كان مرتفعاً جداً ، حتى إن هذه الوظيفة صارت تباع وتشترى بعلم المسؤولين أنفسهم ، هذا علاوة على التعالي والغطرسة والقسوة التي اتسم بها هؤلاء السياسيون والقادة ضد الشعوب التي قهروها . وقد أدى التراخي العسكري البرتغالي إلى أن تهمل السفن البرتغالية في كثير من الأحيان قتال السفن الأخرى التي تحمل تجارة الهند ، لذلك فقد هبطت تجارة البرتغال بشكل ملحوظ^(٢) .

ويبدو أن أنباء الوضع السياسي والعسكري في الخليج العربي قد وصلت إلى أسماع

(١) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٤١ .

(٢) مصطفى عقيل الخطيب - التناقض الدولي في الخليج العربي - ص ٥٥ .

السلطات التركية الموجودة في اليمن ، حيث كان قائد الأسطول التركي هناك القائد (علي بك شلبي) قد نشر سفنه في معظم الموانئ العربية في البحر الأحمر وسواحل اليمن خاصة في ميناء (مخا) اليماني الذي يقع على البحر الأحمر . علماً بأن علي بك شلبي قد يكون هو القائد نفسه الذي تحطمت سفنه في الخليج العربي عام ١٥٥٤م . وتذكر لنا المصادر البرتغالية أن علي بك شلبي هاجم مسقط واحتلها لفترة قصيرة في عام ١٥٨١م ، بينما لا نجد ذكراً لهذه الحملة في المراجع العربية ، فتذكر تلك المصادر قائلة إنه على الرغم من أن تحركات القائد علي بك شلبي على الساحل الأفريقي كانت معروفة للقيادة البرتغالية في الهند قبل سنة من هجومه على مسقط ، ولكنه عندما وصل إلى مسقط فإن البرتغاليين فوجئوا به ، فتركوا القلعة العسكرية منهزمين مذعورين إلى داخل البلاد ، ودخلوا مدينة (BRUXEL) التي من المحتمل أن تكون مدينة (بركا) العُمانية ، وإن حاكمها كان الشيخ (CATANI) ولعل هذا الاسم هو قطن أو (الشيخ قطن) وهو من الأسماء الشائعة في عُمان آنذاك وقد بقيت مدينة مسقط بيد قوات علي بك شلبي عدة أيام ثم جلا عنها بدون حرب . وتستطرد الرواية البرتغالية قائلة إنه عندما وصلت أنباء سقوط مسقط بيد الأتراك إلى حاكم هرمز (دون كورنالا دي منزيس) فإنه جهز حملة بقيادة الضابط (لويس دي الميادا) وعندما وصل هذا إلى مسقط وجدها خالية من الأتراك وقد نُهبت .

وهكذا أعطت هذه الحملة التركية التي كانت الأخيرة من نوعها إلى مسقط والخليج العربي ، إضافة جديدة في عدم جدية السلطنة العثمانية في مواجهة البرتغاليين بشكل حاسم هناك فما كانت حملة (علي بك شلبي) هذه بأحسن من مثيلتها حملة (بيري بك ريس) التي جرت عام ١٥٥٢م .

إلا أن منطقة الخليج العربي شهدت في عام ١٥٨٣م هزة سياسية أخرى عندما قرر حاكم مدينة (لارا) الفارسية التي كانت تخضع لحكم هرمز وبالتالي للبرتغاليين ، الثورة ضد التسلط الهرمزي على منطقته ، فثار وامتدت الثورة إلى جزيرة (القسم

XAMEL) ووصلت إلى مدينة (بستانة) على الساحل الفارسي ، ولم يتمكن حاكم هرمز من إخمادها أول الأمر إلا بعد أن جهز جيشاً مكوناً من (٣٨٠٠) مقاتل هرمزي يسانده جيش برتغالي من (٨٠٠) مقاتل ، ورغم ذلك فإن هذه القوة لم تتمكن من إخمادها إلا بعد وفاة حاكم (لارا) واختلاف ولديه على الحكم^(٣) .

وعلى كل فإن فترة السنوات العشر الأولى منذ أن احتلت أسبانيا البرتغال ، شهدت ثلاثة أحداث مهمة وهي :

١ : اشتداد المعارك بين الأسطولين العثماني والبرتغالي على طول الساحل الأفريقي .

٢ : ظهور الانجليز والهولنديون على مسرح الأحداث في الخليج العربي .

٣ : ظهور الشاه عباس الصفوي ملكاً على إيران ، وما أعقب ذلك من تحرير هرمز والقضاء على البرتغاليين بشكل نهائي في السواحل الفارسية .

فبالنسبة للنشاطات العثمانية في السيطرة على ساحل أفريقيا الشرقي ، فإن أمير البحر (علي بك شلبي) الذي هاجم مسقط ، اتخذ من مدينة مباسة قاعدة لتحرركاته الحربية واستطاع جذب اهتمام القادة الأفارقة إليه ، بحيث أثار موجة من الكراهية ضد البرتغاليين ، مما دفع بالنائب الجديد للملك في الهند (دون دورات دي منزيس) أن يوفد القائد (روي كانكالفز) ومعه (٢٤) سفينة مقاتلة إلى منطقة البحر الأحمر ، وتمكنت هذه الحملة من الوصول إلى بلدة (مخا) اليمانية ، وتوقفت هناك وأمر قائدها جنوده بالنزول إلى الشاطيء ، لكن القوات التركية شعرت بوصول هذا الأسطول وراحت تترصد حركاته ، فلما نزلت القطعات البرتغالية من السفن ، فوجئوا بهجوم تركي شنته قوات من الفرسان والمشاة عليهم أجبرتهم على الهرب مسرعين إلى سفنهم كما أجبروا السفن البرتغالية أن تعود أدراجها إلى هرمز . وعندما وصلت السفن البرتغالية إلى هرمز ، علم قائدها أن بلدة (نخيلو) الفارسية تائرة ضد حكم

(٣) DANVERS - المصدر نفسه - الجزء الثاني - ص ٤٥ .

هرمز ، فأصدر أوامره إلى الضابط (بدر بيريرا) أن يجهز حملة من (٦٠٠) جندي وعشرين سفينة وأن يتوجه نحو المدينة لإخضاعها ، إلا أن أهالي (نخيلو) كانوا قد استعدوا لصدها هذا الهجوم فأنزلوا هزيمة بالبرتغاليين وقتلوا (٢٥) منهم بينما فر الباقون عائدين إلى هرمز^(٤) .

أما بالنسبة لنشاطات (علي بك شلبي) في شرقي أفريقيا ، فقد كانت أخباره تصل إلى السلطات البرتغالية بواسطة حاكم بلدة (ملندي) الموالي لهم ، لذلك فقد قام نائب الملك في الهند بتجهيز حملة جديدة مكونة من (١٨) سفينة بقيادة أمير البحر (أفونسو دي ميليو بومبيرو) ، تحركت من الهند عام ١٥٨٦م واشتبكت مع الأساطيل والقواعد الحربية التركية الموجودة في أفريقيا ودمرت قسمًا منها^(٥) .

وشهد عام ١٥٨٨م معارك عثمانية برتغالية أكثر عنفاً ، حيث هاجم علي بك شلبي القاعدة البرتغالية في بلدة (ملندي) ، إلا أن أسطولاً برتغالياً عظيماً كان له بالمرصاد فهاجمه ودحره وحاصره في مدينة (مباسه) . وبينما كان القتال محتدماً بين الطرفين من جهة البحر ، امتلأ البر خلف علي بك بالألوف من القبائل الزنجية المتوحشة من أكلة لحوم البشر ، فوقعت القوة التركية بين نارين ، فإما الوقوع فريسة بيد أكلة لحوم البشر أو الاستسلام للبرتغاليين ، وفضل علي بك الحل الثاني فاستسلم للبرتغاليين . وتقول المصادر البرتغالية إنه أرسل أسيراً إلى لشبونة وأنه اعتنق المسيحية هناك ومات فيها^(٦) .

وكما ذكرنا سابقاً فلعل علي بك شلبي هذا ، هو نفسه علي شلبي أو علي بن حسين الذي ظهر اسمه عام ١٥٥٤م في قضية محاولته إنقاذ الأسطول التركي المحصور في البصرة ، أو هو شخص آخر يحمل الاسم نفسه .

وبعد ذلك عاد البرتغاليون لتثبيت مواقعهم في الخليج فقاموا في عام ١٥٨٦م ببناء

(٤) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٦١ .

(٥) السير آرنبولد ولسون - الخليج العربي - ص ٤٢٥ .

(٦) الدكتور سيد مصطفى سالم - المصدر نفسه - ص ٤٢٥ .

قلعة ثانية في مسقط انتهوا منها عام ١٥٨٨ وكتبوا عليها :

«على عهد صاحب الجلالة والعظمة فيليب صاحب الاسم الأول ملكنا المفدى ، وفي السنة الثامنة بعد اعتلائه العرش البرتغالي ، فلقد أمر (دون دورات دي منزيس) وبعد انتصاره في الهند أن يقوم ببناء هذه القلعة ، والتي كان قد سبقه في بنائها (الفارنر) الكابتن الأول المؤسس»^(٧) .

وقد أطلق البرتغاليون اسم (الميرانتي ALMIRANTIE) أي الأدميرال أو أمير الحرب على القلعة الأولى و(سان جون SANT JOAO) على القلعة الثانية ، وعندما حرر العرب العُثمانيون مسقط عام ١٦٤٠م وسقطت القلعتان بيدهم أطلقوا على الأولى اسم (الميراني) والثانية (الجلالي) ولا زالت القلعتان قائمتان إلى يومنا هذا .

أما الحدث الثاني الذي أثر على وضعية الاسبان والبرتغاليين في الخليج فهو ظهور الهولنديين والانجليز على مسرح الأحداث هناك ، ففي عام ١٨٥٣م أرسلت الملكة اليزابيث ملكة بريطانيا وفداً مكوناً من أربعة أشخاص إلى الهند والصين للتعرف على وضعية الأسواق العالمية هناك ومصادر التجارة والرياح ، فهذه الملكة التي كانت على علاقة طيبة مع السلطان المنصور المغربي قد حصلت منه ومن غيره على الكثير من المعلومات عن ثروة الشرق وعن سر الاختكارات الأسبانية - البرتغالية لتلك الثروة ، مما فتح شهيتها لأن تتزعمها من أياديهم خاصة وهم اعداؤها التقليديون سياسياً ومذهبياً .

وكان الوفد قد مر أولاً بطرابلس في لبنان ، ثم البصرة في العراق ، ومنها إلى البحرين ، ثم مر بهرمز ، وقيل إنهم اعتقلوا هناك ، وفي نبالهم التقوا بالشاه طهماسب شاه إيران الذي لم يهتم كثيراً بهم ، إلا أنهم عندما عادوا إلى إنجلترا قدموا تقارير جيدة عن مكامن ثروة الشرق . وبعدها توافد المستكشفون والمغامرون والتجار الانجليز إلى الهند ، ثم لم يلبث أن قام الهولنديون بتحريك أيضاً فأوفدوا الجواسيس

(٧) SARJENT - المصدر نفسه - ص ١٦٤ .

والعيون تترصده تجارة الشرق في محاولة منهم لانتزاعها من أيدي الأسبان والبرتغاليين ، إلا أن ردود الفعل البرتغالية عن تلك التحركات كانت ضعيفة ، لأنهم كانوا مشغولين بقتال الهنود المسلمين الذين لم ينفكوا عن الثورة ضدهم منذ أول يوم لوصولهم إلى الهند .

وفي عام ١٥٨٨م انهارت معنويات الاسبان بصورة كبيرة بعد هزيمة الأسطول الاسباني أمام الأسطول الانجليزي في معركة (الارمادا) ، وتفاقم الأمر أكثر عندما مات الملك (فيليب) ملك أسبانيا والبرتغال عام ١٦٠٠م ، ثم لم تلبث الملكة اليزابث أن وقعت في يوم ٣١/١٢/١٦٠٠م على براءة ملكية بتشكيل شركة لها صفة حكومية هي (شركة الهند الشرقية) ، تكون مهمتها الرئيسية التجارة وتبادل البضائع بين إنجلترا والهند علاوة على فتح مراكز تجارية في الهند وغيرها من الاماكن ، ومن الجدير بالذكر أن هذا العمل الذي ابتدأ تجارياً في مراحله الأولى ، لم يلبث أن غدا سياسياً وعسكرياً في مراحله النهائية ، إذ أصبح لشركة الهند الشرقية فيما بعد أسطول حربي يدافع عن مصالحها التجارية والسياسية في الهند والخليج مما كان له أثره في مساعدة شاه إيران الجديد عباس الصفوي على انتزاع هرمز من يد البرتغاليين وإنهاء وجودهم هناك .

ففي العاشر من ذي القعدة عام ٩٩٦هـ - ١٥٨٨م اعتلى الشاه عباس بن محمد خدا بند بن طهماسب بن اسماعيل الصفوي العرش في فارس منتزعا إياه من والده الحاكم الضعيف ، وما إن تولى الحكم حتى وضع نصب عينيه ضرورة العودة بالبلاد إلى سابق مجدها واستقرارها إيان حكم جده اسماعيل الصفوي ، فقام بالتخلص من منافسيه على العرش فسجن والده وإخوته وبعض أسرته وسمل عيونهم كما تخلص من (قلي خان) وصيه ومساعدته الذي ساعده في الحصول على العرش واستطاع أيضاً التخلص من نفوذ طوائف (القرزلباش) الذين كانوا يشكلون طبقة إقطاعية في البلاد ويشرفون على الجيش والإدارة فتمكن من الإيقاع بهم ، وأعاد تنظيم جيشه بشكل جيشين نظاميين ، الأول من الأرمن والشركس والكرج التابعين لسلطانته ، والثاني

جيش خاص باسم (شاهسون) أي مُحبي الملك ، ثم أدخل الأسلحة الحديثة فأنشأ مصانع أسلحة مما مكنه أن يبني جيشاً قوياً استطاع أن يحقق به انتصارات على الدولة العثمانية وأن ينتزع بغداد منهم عام ١٦٢٣ م . أما قواته البحرية فقد كانت ضعيفة ، لذلك فقد بقيت هرمز وبعض موانيه البحرية المطلة على الخليج العربي بيد البرتغاليين^(٨) .

وكان أهم ما يلفت النظر في عصر هذا الشاه هو الانفتاح السياسي الواسع على العديد من الدول الأوروبية خاصة انجلترا وهولندا ، حيث أدرك أنه لن يستطيع مناهضة الدولة العثمانية إلا بالتعاون مع أعدائها الأوربيين ، وكان الملك فيليب قد أدرك هذه الحقيقة فأرسل له بعثة اسبانية يرأسها قسيسان برتغاليان أحدهما قسيس الكنيسة البرتغالية في هرمز وأبلغاه تهاني ملك أسبانيا على انتصاراته التي حققها ضد الأتراك وطلباً إليه حماية المسيحيين في إيران .

أما أهم البعثات التي استقبلها الشاه فهي بعثة الأخوين السير أنطوني والسير روبرت شيرلي ، وهما نيبيلان بريطانيان من أسرة رفيعة ومن ذوي المكانة العسكرية ، زارا الشاه عام ١٠٠٧ هـ - ١٥٩٩ م وكان معهما خمسة وعشرون من أتباعهما من الفرسان والعسكريين ، وكانت الغاية من زيارتهما دعوته للاتحاد مع ملوك أوروبا ضد الأتراك وكذلك الحصول على امتيازات وتسهيلات تجارية للتجار البريطانيين الراغبين في التعامل مع فارس أو مع تجارة الشرق . وعلى حد قول (إيرل أوف ايسكس) الذي كان وراء هذه الرحلة للإخوة شيرلي : «باسم مجد الإله ذي العقل اللامع ، لقد اختارني الله لتحقيق هذا الهدف العظيم وأن أستفيد من تجربة رؤية الأقطار التي يتحكم بها ملك أسبانيا ، والعناية بمصالح تجار جلالة الملكة في تركيا وموسكو وبعض الأجزاء المناسبة في الملاحة الهندية ، والتي ابتدأ فيها الآن الهولنديون ، والتي يتهامس بها الناس الآن في انجلترا»^(٩) .

(٨) الدكتور بديع محمد جمعه - الشاه عباس الكبير - ص ٤٠ إلى ٨١ .

(٩) السير أرتولد ولسون - المصدر نفسه - ص ٢٢٨ . وكذلك مصطفى عقيل الخطيب - المصدر نفسه - ص ٢٤٩ .

وقد انتهى أمر الأخوين الانجليزين ، بأن صار السير أنطوني شيرلي سفيراً متجولاً للشاه بين عواصم أوروبا خاصة أسبانيا داعياً له ومتحدثاً باسمه ، أما السير روبرت شيرلي فقد صار مدرباً للجيش الفارسي ، فأعاد تنظيم وحداته وأحسن تدريبه فأصبح الجيش مكوناً من ستين ألف جندي مدرب ومسلح بالبنادق الحديثة علاوة على سلاح مدفعية مكون من خمسمائة مدفع .

وفي عام ١٦٠١م حدث أول صدام عسكري بين فارس والبرتغاليين عندما تمكن الشاه من فتح البحرين وطرد البرتغاليين منها ، ولا تفيدنا كل المصادر المتيسرة لدينا بأخبار عن أوضاع البحرين منذ تركناها بعد حملة والي البصرة مصطفى باشا عليها في عام ١٥٥٩م ، ولا عن كيفية وقوعها بيد البرتغاليين ثانية ، إلا أن المصادر الفارسية تقول إنه في عام ١٠١٠هـ توفي (فرخ شاه) حاكم جزيرة هرمز تولى مكانه ابنه فيروز شاه الذي استوزر شرف الدين لطف الله ، فقام هذا الوزير بتعيين أخيه ركن الدين مسعود حاكماً على البحرين ، وبعد أن تسلم الحاكم الجديد زمام الأمور شعر بأن القوات البرتغالية ، والتجار البرتغاليين هناك يتدخلون في كل الأمور ففكر في التخلص منهم والاستقلال بحكم البحرين ، فأوفد موفداً اسمه معين الدين ليجري اتصالاً مع حاكم منطقة فارس لهور دي خان ليساعده في قتاله ضد البرتغاليين . وقد وافق هذا الحاكم على مساعدته بعد استشارة الشاه ، الذي وافق بدوره بشرط أن تُضم الجزيرة بعد تحريرها إلى المملكة الصفوية . ثم تقدمت الجيوش الفارسية وباغتت الجزيرة وتمكنت من إيقاع هزيمة بالقوة البرتغالية هناك ، فدخلها (لهور دي خان) واستقبله الحاكم ركن الدين مسعود الذي كان يطمح أن يتوج ملكاً على الجزيرة ، إلا أن القائد الفارسي ألقى القبض عليه وقطع عنقه وأعلن أن البحرين أصبحت ملكاً للشاه . وعندما حاول قائد هرمز البرتغالي التقدم بسفنه لاستعادة البحرين قام الشاه بهجوم على القاعدة العسكرية البرتغالية الموجودة في ميناء (كمبرون) مما جعل البرتغاليين يهرعون إلى هناك ويتركون البحرين التي لم تعد إلى سلطتهم بعد هذا .

أما ميناء (كمبرون) فقد تم تطويقه ولم تستطع قوات الشاه انتزاعه من البرتغاليين إلا في عام ١٦١٣م حيث سقط بيدهم وتم تهديم القلعة البرتغالية هناك ، كما قام الشاه ببناء ميناء جديد عرف باسم (بندر عباس) تيمناً بطرد البرتغاليين من الميناء القديم فيما هربت حامية المدينة إلى القلعة البرتغالية في مسقط^(١٠) .

وقد حاول ملك أسبانيا الجديد (فيليب الثالث) أن يسترجع البحرين بصورة سلمية من الشاه إلا أن الشاه رفض ذلك لأنه كان يخطط للقضاء على الأسبان والبرتغاليين معاً في هرمز ، وعلى كل حال ، فإن سقوط البحرين بيد الفرس عام ١٦٠١م أوجد انهياراً جديداً في معنويات الحاميات البرتغالية في الخليج ، خاصة في هرمز التي أصبحت تتوقع هجوماً فارسياً في أية لحظة ، كما أنه دفع بالقيادة البرتغالية لأن تفكر في جعل مسقط مقراً عاماً لها في الخليج فيما إذا سقطت هرمز .

ومما يجب أن لا يخفى عن البال أن شركة الهند الشرقية البريطانية ، كانت تراقب تلك الأوضاع في الخليج خاصة العلاقات الفارسية مع البرتغاليين والأسبان المتسمة بالتوتر وقرب الانفجار ، وكانت تأمل أن تكون الوريثة الوحيدة لممتلكات البرتغاليين الذين قربت نهايتهم ، فكانت فرصتها الذهبية عندما ساعدت الشاه على تحرير هرمز وانتزاعها من يد البرتغاليين عام ١٦٢٢م .

ويمكن تلخيص الأحداث والفعاليات التي قامت بها الشركة وذلك ، بالعودة إلى عام ١٦١٢م ففي تلك السنة وصل اسطول بريطاني يقوده الكابتن (السير هنري ميدلتون) إلى ميناء سورات وحاول الاقتراب من الساحل ، إلا أنه فوجيء بسفن برتغالية تقترب منه وتفتح النار عليه ، فاشتبك الطرفان في معركة أدت إلى أن يخرج الأسطول البريطاني من الخليج ، وقد صاحب تلك العملية انتشار الشائعات في البلاط الأسباني أن الانجليز والهولنديين يتعاونون لكي يحلّوا محلهم في الخليج ، مما دفع بالملك الأسباني لأن يرسل عدة بعثات إلى شاه إيران يطلب منه إعادة البحرين إلى

(١٠) مصطفى عقيل الخطيب - المصدر نفسه - ص ٢٣٠ .

سلطته ، إلا أن الشاه لم يعر تلك الرسائل اهتماماً يذكر مما حدا بالملك على أن يكتب إلى (دون لويس دي غاما) حاكم هرمز يطلب إليه مراقبة نشاطات الانجليز وتسقط أخبار الإخوين شيرلي الموجودين في إيران . ثم أن عام ١٦١٤ م شهد تحركاً تجارياً وسياسياً جديداً لشركة الهند البريطانية وذلك عندما وصل التاجر البريطاني (ريشارد ستيل) إلى ميناء سورات الفارسي للحصول على امتيازات تجارية ومعاينة الأماكن المناسبة لإقامة وكالات تجارية للشركة ، فوجد أن المكان يصلح أن يكون مركزاً تجارياً بريطانياً ينافس فيه هرمز ، فكتب إلى الملك (جيمس) ملك بريطانيا بذلك ووافق الملك على الفكرة ، فشهد عام ١٦١٦ م فتح مركزين تجاريين بريطانيين لشركة الهند الشرقية على الساحل الفارسي واحد في (سورات) والثاني في (جاسك) ، ثم قام الشاه عباس بمنح تسهيلات أخرى لهم في ميناء (جمبرون) أو (بندر عباس) وهو الاسم الجديد للميناء الذي تم تحريره من البرتغاليين ثم أن الشاه بدأ يفكر جدياً في تحرير هرمز وإعادتها إلى السيادة الفارسية مستعيناً بالانجليز على تنفيذ ذلك الأمر .

وقد شهد عام ١٦١٨ م أحداثاً غامضة على الساحل العربي وقعت في مدينة (صُحار) العُمانية ، حيث ذُكرت روايتان لما حدث هناك ، الأولى في المصادر العُمانية ، والثانية في المصادر البرتغالية .

ففي المصادر العُمانية المشوشة الصورة في ذكر الأحداث ، ورد إسم (النصاري) لأول مرة على صفحاتها . والمقصود بالنصاري البرتغاليون أو الأسبان حسبما كانوا في ذلك الزمن ، فتقول تلك المصادر إنه عندما مات الملك العُماني سليمان بن مظفر النبهاني عام ١٠١٩ هـ الموافق لحوالي عام ١٦١٠ م ، فإن عدداً من الملوك الضعاف تسنموا الحكم بعده ، وإن قسماً منهم لم يحتفظ بعرشه أكثر من شهرين لذلك فقد كثرت الفوضى والحروب الداخلية والقيادات . ويفهم من سير الأحداث أن نزاعاً وقع بين حاكم مدينة صحار وهو محمد بن مهنا بن محمد الهديفي وكانت تسانده مجموعة من السياسيين أمثال سيف بن محمد وعلي بن ذهل وسلطان بن حمير

وكهلان بن حمير ، وبين الأمير عمير بن حمير ومعه مجموعة أيضاً من أمثال الأمير سنان بن سلطان ، والأميران علي بن حمير وسعيد بن حمير ، وأن محمد الهديفي هاجم الأمير سنان وجماعته وأوقع بهم وقتلهم ، فقرر الأمير عمير بن حمير أن يهاجم (صحار) ويحتلها انتقاماً لمقتل هؤلاء .

لذلك فقد راح يكتب إلى زعماء القبائل المناصرة له ، وذهب إلى مسقط ليجمع الأعوان من هناك ، ثم طلب النجدة من ملك هرمز فأرسل له هذا عسكرياً كثيراً ، وفي تلك الأثناء وصل إلى مسقط مركب (نصراني) ، يذكر المؤرخون أن الرياح دفعته إلى هناك ويقولون : «وكان قد وصل مركب من الهند بعسكر كثير وفيه آلة الحرب فردته الريح إلى (مسكد) وكان مراده أن يمضي إلى فارس فأخذه الأمير عمير بن حمير وسار هو ومن معه من النصاري » . أي أن الأمير عمير بن حمير اتفق مع البرتغاليين على مهاجمة صحار .

وتمضي الرواية العُمانية فتقول إن الأمير عمير سار بجيشه براً وعسكر لمدة سبعة أيام في (باطنة السيب) ، ثم هاجم مدينة صحار ، حيث يعتصم محمد بن مهنا الهديفي ومجموعته ، ثم لم تلبث بعد يوم أو يومين أن نزلت القوات البرتغالية من جانب البحر لتهاجم الهديفي .

« ثم بعد ذلك بيوم أو يومين هبطت النصاري من المراكب بما عندهم من آلة الحرب ، وكانوا يجرون قفع القطن (أي الدروع الخشبية) ليتقوا بها رصاص البنادق ، وكانت عندهم مدافع تسير على عجالات من الخشب وعليها سور من الخشب أيضاً . »

أما محمد بن مهنا فقد اعتصم بقلعة المدينة وراح يقاتل هناك ، فقامت مدفعية البرتغاليين بقصفه وهاجمه الجنود البرتغاليون فنشبت معركة بين قواته والقوات البرتغالية استمرت إلى المساء ، وحينئذ هاجم عمير بن حمير بشدة أكثر ، وانتهت المعركة بمصرع محمد بن مهنا الهديفي ومن معه ، «وأقام النصاري في حصن صحار ،

ورجع الأمير عمير إلى بلدة سمائل جداً مسروراً^(١١) .

وهكذا تنتهي الرواية العُمانية عن الحادث وكأنها مبتورة بدون أصل وبدون نتائج ، ومن الجدير بالتأكيد هنا هو أن هذه الحادثة التي وقعت عام ١٦١٧م حسبما تذكرها المصادر البرتغالية ، كانت الحادثة الأولى التي يرد فيها ذكر للبرتغاليين أو (النصارى) عند المؤرخين العُمانيين .

أما المصادر البرتغالية ، فقد نقلت ما حدث في مدينة (صُحار) في عُمان ، بأن الأمير محمد حاكم المدينة قد استقل في مدينته وتمكن من القيام بعمليات تجارية جيدة جذبت السفن التي تحمل البضائع الهندية لتتوقف في صحار وتتم الصفقات التجارية هناك ، بحيث أثرت تلك العمليات التجارية على تجارة هرمز ومسقط فكان على السلطات البرتغالية أن تتخذ إجراءً لإيقاف الأمير محمد عند حده ، وعلى هذا الأساس قام نائب الملك في الهند وهو (جيرونيمو دي أزافيدو) بتجهيز حملة بحرية بقيادة (فرانسيسكو رويم) لتذهب إلى مسقط وتلتحق بقوة الحاكم البرتغالي (فاسكو دي غاما) والتي كانت مكونة من خمس سفن ، على أن يتم التعاون والتنسيق هناك مع أحد أمراء القبائل الذين يكنون العداء للأمير محمد ، كما أوصى نائب الملك أن تكون قوة المشاة المساندة من (١٢٠٠) جندي . وبعد أن تم هذا ، توجهت القوة البرتغالية البحرية المشتركة نحو صحار ، وتم إنزال الجنود على مسافة من البلدة ، واتخذت سرايا الإنزال الأولى من أحد المساجد القريبة من المكان محلاً للاختفاء إلى أن تم إنزال المدفعية من السفن ، ثم قام الجنود بالهجوم على قلعة الأمير محمد المقامة على أحد التلال ، وفي تلك المعركة أصيب الأمير محمد بطلقة بندقية أردته قتيلاً ، إلا أن مقاتليه استمروا بالقتال طيلة المساء والليل إلى الصباح إلى أن استطاع الجنود البرتغاليون الخروج من الخنادق والمخابيء وشنوا هجوماً كبيراً تمكنوا فيه من كسر شوكة المدافعين واندفعوا إلى داخل مدينة (صُحار) حيث أسروا عدداً كبيراً من النساء

(١١) حميد بن محمد بن رزيق - الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيدين - ص ٢٥٥-٢٥٦ . وكذلك السالي - المصدر نفسه - ص ٢٧٨-٢٧٩ .

والأطفال ، علاوة على سلب ونهب الأموال والمتاع هناك . وإزاء ذلك فإن شقيق الأمير محمد الذي كان لا يزال يقاتل في أحد أقسام القلعة قد استسلم فجيء به أسيراً ونُفذ فيه حكم الإعدام ، ثم لم يلبث القائد البرتغالي أن أصدر أمراً بإعدام كل المقاتلين العرب الذين كانوا موجودين في القلعة ، فتم قطع رؤوسهم جميعاً . ولم يترك البرتغاليون المدينة إلا بعد أن أخذوا معهم عدداً من فتياتها بحجة أنهم سيقدموهن إلى الكنيسة ليصبحن كاثوليكيات^(١٢) .

وعلى كل حال ، فعلى الرغم مما حدث في صحار ، فإن الوجود البرتغالي في الخليج أصبح مهدداً بالزوال نتيجة للتواجد البريطاني هناك واحتمال تعاونهم مع الشاه القوي الذي لا بد وأن يقوم عاجلاً أو آجلاً بطرد البرتغاليين ، لذلك فقد قام ملك أسبانيا بتعيين ضابط برتغالي قدير هو (روي فيريرا دي أندرادا RUY FREIRE DE ANDRAD) ليكون مسؤولاً عَنِ القِيادة العسكرية في هرمز ، والتي يكن واجبها مراقبة التحركات في البحر الأحمر أيضاً ، وقد غادر (روي فيريرا) لشبونة عام ١٦١٩م ووصل إلى هرمز في ٢٠/٦/١٦٢٠م .

وكان أول ما فعله هو قيامه بدفع رواتب الجنود المتأخرة ومن ثم زيارة الكنيسة ، وبعدها زاره حاكم الجزيرة الهرمزي حيث أخبره عن مواقع الأسطول الانجليزي في ميناء (جاسك) كما علم فيريرا بأن التعليمات الواردة من (كوا) في الهند نصت على أن تبقى السفن البرتغالية في ميناء مسقط وأن لا تحاول الاشتباك بالسفن الانجليزية ، وذلك بسبب معركة وقعت بين الطرفين في أوائل العام انتهت بانكسار البرتغاليين ، كما علم بأن قيادة القوة الفارسية قد أودعت إلى القائد (قلي خان) ، لذلك فقد قام باستطلاع جزيرة (القسم) التي تقع في مدخل الخليج العربي ، وهي قريبة من هرمز أيضاً وتمتاز عن هرمز بوجود آبار الماء العذب فيها ، وقد وافق حاكم هرمز على رأي (فيريرا) القيام ببناء قلعة وقاعدة بحرية برتغالية جديدة هناك . وعلى هذا فقد تم ارسال (٢٠٠٠) جندي برتغالي و(١٠٠٠) جندي هرمزي قاموا ببناء القلعة والقاعدة

(١٢) DANVERS - المصدر نفسه - ص ١٩٢ .

بتاريخ ٧/ ٥/ ١٦٢١م ، وعندما وصلت هذه الأخبار إلى الفرس قام القائد (قلي خان) بإيفاد قوة بقيادة عبدالله خان لاستطلاع الوضع هناك ، وقام عبدالله بالتزول في الطرف الآخر من الجزيرة والتحصن في مواضع دفاعية بعيدة عن القاعدة البرتغالية ، فيما أشيع بين البرتغاليين والهرمزيين أن (قلي خان) يحشد جيشاً تعداده ٢٥ ألف مقاتل لمهاجمتهم هناك .

لذلك فقد قام روي فيريرا بإرسال سفن بحرية لتقوم بواجب الدورية لمراقبة احتمال تقدم القوات الفارسية ، كما قام بالتعاون مع رجل ظهر اسمه على صفحات التقارير البرتغالية بأنه (علي كمال) وهو من أصل عربي كان يحكم بلدة (نخيلو) على الساحل الفارسي واختلف مع الشاه عباس فهرب إلى الساحل العربي وسكن في منطقة ما قرب جلفار .

كما قام باستطلاع منطقة الساحل الجبلي الصخري في رأس مسندم وما يعرف بمنطقة رؤوس الجبال في عُمان ، وهي منطقة صخرية وعرة تكثر بها الخلجان والرؤوس الصخرية والجزر الحصينة .

وهناك هاجم مدينة (خصب) فوجد سفينتين محملتين بالخيول كما وجد شيخين من شيوخ مدينة (رمس) المجاورة وعلم أن الخيول مشحونة لتباع للجيش الفارسي ، فقام بقطع أعناق بحارة السفن من أبناء المنطقة ، وأمر بوضع الشيخين بالسجن وإرسالهما مخفورين إلى هرمز حيث قابلهما (غلام الدين) وهو المسؤول عن الجنود العرب الموجودين في جيش هرمز ، وحصل منهما على معلومات عن الفرس الموجودين في مدينة الصير (أحد الأسماء المرادفة لمدينة جلفار أو مدينة رأس الخيمة) ، ولم يطلق سراحهما إلا بكفالة مالية ضخمة .

لقد كان من نتائج المذبحة التي ارتكبها (فيريرا) بحق البحارة العرب في مدينة (خصب) أن جعلت المنطقة كلها تخضع له ما عدا مدينة (جلفار) التي كانت فيها

حامية فارسية بقيادة خوجا نديم ، لذلك فقد أصدر أوامره إلى الأسطول البرتغالي الموجود قرب مدينة (لافت) الفارسية ، أن يتعاون مع علي كمال لمهاجمة جلفار ، وقد تم الهجوم بنجاح واستسلم الخوجا نديم للمهاجمين ، وأصدر فيريرا تعليماته باحتلال المدينة وعيّن علي كمال حاكماً عليها ، وفي المقابل قام الفرس بإرسال قطعات بحرية لمقاتلة الوحدة البرتغالية الموجودة في جزيرة القسم ، بينما قام روي فيريرا بهجمات متعددة على الموانئ الفارسية وتمكن من تدمير ميناء (جاسك) .

وفي تلك الأثناء وصلت إلى فيريرا رسالة من نائب الملك في (كوا) ، يرفض فيها الإجراء الذي اتخذته في جزيرة (القسم) ويطلب منه أن لا يدخل في معارك مع الفرس ويأمره بترك الجزيرة ، وعندما ناقش فيريرا هذا الأمر مع حاكم هرمز وافق الأخير على هذا الرأي واقترح إخلاء الجزيرة وحشد الجيوش في هرمز التي من المتوقع أن يهاجمها الانجليز أو الفرس في أية لحظة ، لكن فيريرا لم ينسحب من الجزيرة إلا بعد أن قام بالهجوم على ميناء (لافت) الفارسي وتدميره . إلا أنه وقبل أن يكمل انسحابه فوجيء بتسع سفن بريطانية تظهر أمامه فاشتبك معها بمعركة بالمدفعية ، ثم لم تلبث أن ظهرت السفن الفارسية المساندة للهجوم البريطاني ، وإزاء الضغط الشديد عليه فإنه أصدر أوامره لجنوده بالتوجه نحو السفن بسرعة كي يهربوا إلى هرمز بينما بقي على أرض الجزيرة الجنود الهرمزيون ، فنزل اليهم الجنود الفرس وأعملوا السيف برقابهم وأفنؤهم عن بكرة أبيهم .

أما القائد روي فيريرا ، فلم يتمكن من الوصول إلى هرمز لأنه وقع أسيراً بيد الانجليز^(١٣) .

وعلى كل حال فإن مصير البرتغاليين في هرمز بدا واضحاً وهو ، أن لا أمل لهم في

(13) B.B. SLOT : THE DISINTERCOATION OF PORTOGEUES POWER IN THE GULF .

وهو بحث قدمه البروفسور سلوت الذي يشغل منصب مدير مركز الوثائق التاريخية في هولندا إلى ندوة (العلاقات التاريخية بين الخليج العربي والدولة العثمانية) رأس الخيمة ٢١/ نوفمبر ١٩٨٨ والتقارير مستمد من ترجمة لكتاب برتغالي اسمه : DO CONSELHO DO ESTADO . كما أن هذه التفاصيل موجودة في كتاب (عرب الخليج) للمؤلف نفسه وقد طبعه ونشره الجمع الثقافي في أبوظبي .

الخلاص ، خاصة بعد أن أنهى الشاه عباس مفاوضاته مع ممثلي شركة الهند الشرقية لمساعدته على طردهم ، وتم الاتفاق على خمسة شروط وهي تخصص كيفية تقسيم عوائد هرمز بعد النصر ومصير الأسرى . . الخ . وبعد أن تم كل شيء شنت القوات البريطانية الفارسية المشتركة هجوماً في بداية شهر يناير ١٦٢٢م على الجزيرة وتم تطويقها من جميع الجهات ، وجرت معارك متعددة استمرت إلى شهر فبراير تقريباً خسرها البرتغاليون فقرر بعدها القائدان المسؤولان عن دفاعات الجزيرة وهما (سيمون دي ميللو) و(لويس دي برتيو) أن يستسلما . وفي يوم ٢٢ / ٤ / ١٧٢٢م إستسلم البرتغاليون ومن كان معهم من أسبان أيضاً إلى الانجليز وقيل إن الأسرى كانوا ألفي أسير قام الانجليز بتسليمهم جميعاً حيث نقلوهم إلى مسقط ، أما الفرس فقد دخلوا المدينة وأعدموها كل الهرازمة المتعاونين مع البرتغاليين .

وهكذا انتهت قصة التواجد البرتغالي على أرض فارس ونكس العلم البرتغالي بعد أن ارتفع قرناً من الزمان على القلعة التي بناها (أفونسو دي البوكيرك) في جزيرة هرمز .

وعلى إثر ذلك فإن نتيجتين سياسيتين ظهرت إلى الوجود :

الأولى : هي بداية قصة التواجد السياسي والعسكري للهلنديين لفترة مؤقتة ، ثم للإنجليز بصورة دائمة في الخليج العربي وما أدى ذلك التواجد إلى أحداثٍ سياسية هي خارج موضوع كتابنا هذا .

الثانية : هي أن البرتغاليين ولكي يعوضوا عن خسارتهم في هرمز ، فقد كثفوا وجودهم السياسي والعسكري في الساحل العربي من الخليج خاصة في عُمان ، وسيبقون هناك إلى أن يقدر الله لعُمان حاكماً مقتدراً هو الإمام ناصر بن مرشد اليعربي مؤسس الدولة اليعربية التي ستنتزل الضربة القاضية والنهائية بهم ، وتنتهي بذلك قصة العرب والبرتغال في التاريخ ، كما سنرى ذلك في الفصول القادمة .

الفصل السادس والثلاثون

- * قوات فارسية تحتل مواقع لها في عُمان، والبرتغاليون يتواجدون في مسقط.
- * روى فيريرا يهرب من أسره ويعيد تنظيم قواته ويتخذ من مسقط قاعدة له.
- * احتلال رأس مسندم ومنطقة رؤوس الجبال من قبل البرتغاليين.
- * الشاه عباس يحتل بغداد عام ١٦٢٣، وعلاقات جيدة بين باشا البصرة العثماني والبرتغاليين.
- * معاهدة صلح بين البرتغاليين والفرس.
- * انتهاء الحروب بين البرتغاليين وخصومهم الانجليز والهولنديين في الخليج العربي.
- * عام ١٦٢٤ يشهد قيام الدولة اليعربية في عُمان.

استغل الشاه عباس سقوط هرمز، وهروب القوات البرتغالية المنكسرة إلى مسقط وهم لا يصدقون أنهم نجوا من القتل على يد الجيشين المتعاونين الفرس والانجليز، فأراد أن يأخذهم على ما هم فيه من اضطراب لذا أمر قواته بملاحقتهم إلى السواحل العُمانية واحتلال ما يمكن احتلاله من قواعد لهم هناك، فهاجم الفرس بمساعدة حشود من العرب مدينة جُلفار واحتلوها. ولعل زعيم أولئك العرب كان الشيخ كايد بن عدوان، وهو الزعيم العربي القاسمي الذي كان يقطن مدينة (لنجه) التي تقع على الساحل الفارسي كما أنه الجد الأكبر والزعيم المؤسس للإمارة القاسمية في الخليج العربي^(١)، واندفعت الجيوش لتحتل مواقع أخرى وتمكنت من أن تركز نفسها

(١) عبدالله بن صالح المطوع - مخطوطة الجواهر واللكي في تاريخ عُمان الشمالي .

بالقرب من القلاع البرتغالية في مدن صُحار وخورفكان ودبا ، وانتشرت أيضاً في المناطق الوعرة من منطقة رأس مسندم ورؤوس الجبال في مدخل الخليج العربي ، في مدن ليما وخصب ورمس وغيرها .

أما على الجانب البرتغالي ، فإن القائد روي فيريرا الذي كان قد وقع أسيراً بيد الإنجليز ووُضِعَ تحت الحراسة في السفينة البريطانية (لاين) ، فقد تمكن من الهرب من أسره وذهب إلى مسقط ، حيث اجتمع بالحامية الموجودة هناك واطلع منهم على الموقف المنهار للبرتغاليين في عُمان ، وعن أماكن وجود القطعات الفارسية في المدن والسواحل العُمانية ، كما علم بأن نائب الملك في الهند أرسل نجدة مكونة من ثمان سفن غرقت كلها بسبب العواصف . وبعد أن أتم جمع المعلومات الكافية عن الموقف في عُمان ، أبحر إلى (كّوا) ليقابل المسؤولين هناك .

وفي (كّوا) لم يكن الوضع جيداً إذ إن المدينة والأسطول البرتغالي تعرضا أكثر من مرة إلى هجمات من الأساطيل الإنجليزية والهولندية التي تريد أن تحل محلهم . كما أن ملك أسبانيا فيليب الثالث مات ، وأن الملك فيليب الرابع قد اعتلى العرشين الأسباني والبرتغالي ، ولم يكن هذا الملك بذي مقدرة أو كفاءة ، لذلك فإن العد التنازلي للامبراطورية الأسبانية قد ابتداءً بالتنازل .

وفي (كّوا) قام الحاكم البرتغالي (أفونسو نورونها) بتقديم روي فيريرا للمحاكمة بتهمة عدم الدفاع عن هرمز ، إلا أن المحكمة برأت ساحته وأعيد له اعتباره ومُنِحَ منصب قائد القوات المسلحة العاملة في هرمز والبحر الأحمر ، ثم أبحر ثانية إلى مسقط ليتخذها قاعدة لعملياته المقبلة في المنطقة ووصلها في نهاية إبريل ١٦٢٣ م .

وفي مسقط أعاد (فيريرا) تنظيم قواته ، ولما تم له ذلك قرر أن يهاجم القلعة الفارسية الموجودة في مدينة (صحار) ، فأبحر إليها وأنزل قواته على الشاطئ وتمكن من التوغل بمشاته ومدفعيته إلى داخل المدينة واحتل سوقها الذي يقع قبالة القلعة التي يعتصم بها الجنود الفرس ، وفتح نيران مدافعه على جدرانها فتهدمت بفعل القذائف

واستسلم من كان في داخلها ، ومن بينهم الأمير (محمد بن منفر) كما ورد اسمه في المصادر البرتغالية ، ولعل الاسم الصحيح هو محمد بن مظفر ، وهو الاسم الغالب على آخر ملوك دولة النباهنه في عمان آنذاك . ومن هناك أبحر إلى خورفكان حيث أنزل قواته فيها ، وعلم أن قائد الحصن الفارسي ، قريب لعلي كمال الذي كان يتعاون مع البرتغاليين فتم اقناعه بالاستسلام ، فاستسلم وتم له فتح المدينة بدون قتال . ثم توجه بعد ذلك إلى مدينة (دبا) حيث توجد فيها حامية فارسية قوية ، وعندما استقبله الشيخ العربي للمدينة وأخبره بأنه حالما علم بوجود البرتغاليين في خورفكان فإنه هاجم الحامية الفارسية وقتلها عن بكرة أبيها ، فوافق (فيريرا) أن يثبته حاكماً على المدينة بشرط أن يقوم بجمع إيرادات الميناء وإرسالها له ، كما ترك معه حامية من خمسين جندي برتغالي .

وعندما تم له ذلك تطلع إلى الموقع الاستراتيجي المهم في مدخل الخليج العربي الذي يقع قبالة هرمز التي خسرها ، وهو موقع رأس مسندم في منطقة رؤوس الجبال المتبعة الحصينة الوعرة والحماية بخلجان عميقة المياه ، فقرر أن يتخذ من مدنها قواعد لأسطوله لكي يختفي فيها ويهاجم منها .

فهاجم أولاً مدينة (ليما) حيث توجد قلعة فارسية هناك وأجبرها على الاستسلام ، واستقبله أهالي المنطقة وهم المعروفون باسم (الكمازرة) نسبة إلى مدينة (كُمار) الموجودة هناك ثم توجه بعدها إلى بلدة (خصب) ودمر القلعة الفارسية هناك وقصف المدينة وأجبر سكانها على الهرب ، ثم نزل فيها وقرر أن يتخذها قاعدة للأسطول البرتغالي العامل بمواجهة هرمز وأمر ببناء قلعة عسكرية فيها ، ثم استدعى سكان المدينة ، وأجبر الحاكم وهو (الشيخ مالك) حسبما أورده المصادر البرتغالية وكما ورد اسمه في المصادر المحلية أيضاً على أن يعقد معاهدة للتعاون مع البرتغاليين ، ثم أتاه وفد من مدينة رمس وعقد معه معاهدة أيضاً . وتوجه بعد ذلك نحو مدينة (جلفار) ، لكن حاكم المدينة (غلام الدين) لم يدخل في معركة ضده بل استسلم له ، فقام ببناء قلعة

برتغالية هناك^(٢) .

وهكذا تمكن هذا القائد من احتلال الساحل العُماني المواجه لبحر عُمان ، وأقام مواقع حصينة ممتدة من منطقة رؤوس الجبال ورأس مسندم في الخليج العربي ، إلى موقع جلفار الحصين الذي يمثل بداية المنطقة الساحلية الرملية ونهاية منطقة رؤوس الجبال ، أي طوَّق هرمز من جهة الساحل العربي^(٣) .

وقد انتهرز روي فيريرا فرصة سقوط بغداد بيد الشاه عباس الصفوي عام ١٦٢٣م ، وظهور موقف سياسي صعب في البصرة التي كان يحكمها رجل من عائلة افراسياب كان يعمل ضابطاً بالجيش العثماني ، وتمكن من شراء باشوية البصرة من حاكمها الباشا العثماني واستقل بها . لذلك ما إن سمع هذا الباشا بسقوط بغداد بيد الفرس حتى خشي على منصبه فقام بالاتصال بالبرتغاليين لحمايته منهم . كما استقبل بعثة من رجال الدين المسيحيين الذين تهدمت أديرتهم في هرمز ومنحهم مساعدات مالية سخية ، وطلب الرهبان منه السماح لهم ببناء الأديرة والكنائس في البصرة ، فوعدهم خيراً بشرط أن يتوسطوا عند حاكم (گوا) كي يرسل سفناً حربية إلى البصرة . ويبدو ذلك من رسالة بعثها وكيل شركة الهند الشرقية في سورات يقول فيها : « إن البرتغاليين حصلوا على امتيازات شخصية من الباشا حاكم البصرة ، وإنه سمح لهم ببناء كنائس وأديرة وقد شرعوا ببناء قلعة حصينة هناك » . وفي العام التالي أي في سنة ١٦٢٥م بعث نائب القنصل الهولندي في حلب رسالة إلى امستردام ورد فيها : « إن ميناء البصرة أصبح مركزاً هاماً بالنسبة للبرتغاليين ، وإن سفنهم التجارية تتوالى على هذا الميناء بصورة دائمة » . وعندما وصلت تلك الأخبار إلى الشاه ، حاول مهاجمة البصرة وقام جيشه بحصارها ، إلا أن وصول عدد من السفن البرتغالية إلى هناك جعله يفك الحصار وينسحب .

وفي شهر ابريل عام ١٦٢٥م أقام حاكم البصرة حفلاً كبيراً أطلقت فيه المدفعية

(٢) انظر كتابنا - الشحوح وتاريخ منطقة رؤوس الجبال في الخليج العربي - الذي يظهر فيه اسم الشيخ مالك .

(٣) B. F. SLOT - المصدر نفسه - الفصل الرابع ص ٤ .

طلقاتها ترحيباً بوصول (١٢) سفينة برتغالية^(٤) .

وفيما كان (فيريرا) يحقق تلك الانتصارات فإن الحكومة المركزية في مدريد قررت إرسال مدد إليه بقيادة (نونا الفاريز بوتيلو-NANO AL VAREZ BOTELLO) فوصل هذا إلى مسقط عام ١٦٢٥م وياشر من هناك بشن هجمات على الأسطول الإنجليزي في بندر عباس . إلا أن الإنجليز كانوا قد اتخذوا الحيلة لذلك بأن اتفقوا مع الهولنديين الذين أصبح لهم موطىء قدم فيها وعقدوا معاهدة مع الشاه كما أرسلوا سفناً حربية لترابط في الخليج ، وكذلك أرسلوا أسطولاً ليهاجم البرتغاليين في (كوا) ، وقد اشتبك الأسطول البرتغالي بالأسطولين الإنجليزي والهولندي عدة مرات في مياه الخليج فقد فيها الطرفان أعداداً كبيرة من جنودهم وسفنهم كما أن (بوتيلو) نفسه أصيب بجرح ، وأخيراً انسحب كل واحد منهم إلى قواعده .

وعلى كل حال فيبدو أن القتال قد أنهك الطرفين ، إذ إننا لم نسمع عن اشتباكات برتغالية بريطانية لفترة من الزمن ، فيما راح البرتغاليون يوطدون أقدامهم في مسقط وجزيرة لارك والبصرة ، كما أنهم تعاونوا في إحدى المرات مع باشا البصرة ضد تحركات قام بها زعماء القبائل في ساحل القطيف والبحرين ، وأخيراً تهدأوا مع الفرس قبل وفاة الشاه عباس الصفوي . ففي حوالي عام ١٦٢٩م عقد روي فيريرا معاهدة مع فارس وافق فيها على عدم إرسال سفنه الحربية إلى البصرة والقطيف لمساعدة الأتراك هناك كما وافق على تقسيم عوائد بندر (كنك) بنسبة ٥٠٪ ، وبالمقابل وافق الفرس على عدم التعرض للمواقع البرتغالية الموجودة في رأس مسندم خاصة في مدينة (خصب) ، كما وافق الطرفان على أن يقوم كل منهما ببناء قلعة أو قلعتين في مدينة جلفار^(٥) .

وعندما توفي الشاه عام (١٦٣٠م) فإن الموقف بالنسبة للقوات الأوربية المتصارعة

(٤) مصطفى عقيل الخطيب - المصدر نفسه - ص ١٠٠ إلى ص ١٠٤ . وكذلك DANVERS - المصدر نفسه - ص ٢٣ .

(٥) B. F. SLOT - المصدر نفسه - الفصل الرابع ص ٥ .

في مياه الخليج قد هُداً نسبياً ، إذ إن الهولنديين لم يلبثوا أن انسحبوا بعد فترة قليلة من الخليج وتركوا قواعدهم التجارية الموجودة في بندر (ريق) بعد أن طردهم من هناك الأمير مهنا بن ناصر الزعابي^(٦) .

أما الإنجليز فقد كانوا يشعرون بدنو أجل البرتغاليين في الخليج ، ذلك أن دولة عربية ، عُمانية ظهرت إلى الوجود عام ١٦٢٤م يرأسها الإمام ناصر بن مرشد البعري ، وهي الدولة التي سيقدرُ لها أن تنهي قصة الوجود البرتغالي في عُمان والساحل العربي من الخليج العربي ، كما سنرى ذلك في الفصل القادم .

(٦) البروفسور د. ج. سلوت - عرب الخليج - ص ٣٥٥ .

الفصل السابع والثلاثون

- * نظرة على أحوال عُمان قبل عام ١٦٢٤ .
- * انتخاب ناصر بن مرشد اليعربي إماماً على عُمان عام ١٦٢٤ وبداية قيام الدولة اليعربية هناك .
- * الإمام يقضي على الزعامات المتفرقة في البلاد ويبدأ بحرب التحرير ضد البرتغاليين .
- * الإمام يفتح مدن جلفار ودبا ويحاصر صحار .
- * ثورة في البرتغال عام ١٦٤٠ ضد إسبانيا والبرتغال تحصل على استقلالها تحت عرش الملك دون جوان الرابع .
- * وفاة الإمام ناصر بن مرشد اليعربي عام ١٦٤٩ وولاية ابن عمه سلطان بن سيف اليعربي .
- * الإمام سلطان بن سيف يحتل مسقط في شهر يناير ١٦٥٠ ويقضي نهائياً على الوجود البرتغالي في عُمان والخليج العربي .

عندما اتخذ روي فيريرا من مدينة مسقط ومُدن الساحل العُماني قواعد عسكرية له كي ينطلق منها لقتال الفرس بغية استعادة هرمز ، فإن عُمان كانت تشهد حالة بائسة من التمزق والتشتت ، إذ لم يبقَ لسلطة بني نبهان الحاكمة هناك من أثر ، ولا معلومات لدينا مَنْ كان الحاكم أو الإمام وكل ما يمكن القول هو أن عُمان كانت مُقسمة سياسياً كما يلي :

١ : مُدن مسقط وصحار وصور وقريات ومطرح وخور فكان ودبا كانت تحت حكم

البرتغاليين .

- ٢ : مدينة جلفار ومنطقة الصير تحت النفوذ الفارسي والبرتغالي .
- ٣ : مدن وموانيء ساحل مسندم ومنطقة رؤوس الجبال مثل مُدن (خَصَب) و(قدا) وغيرها توجد فيها قواعد بحرية برتغالية .
- ٤ : مدينة بهلا كانت تحت حكم سيف بن محمد الهنائي .
- ٥ : مدينة سمائل تحت حكم مانع بن سنان العميري .
- ٦ : مدن منطقة الظاهرة تحت حكم قبائل الجبور .
- ٧ : مدينة سمد الشأن تحت حكم علي بن قطن الهلالي .
- ٨ : مناطق الغبي وعبري وضنك يتحكم فيها زعماء من بني هلال ومنهم قطن بن قطن الهلالي .
- ٩ : مدينة إيرا تحت حكم محمد بن جفير بن جبر الجبري .
- ١٠ : منطقة منح تحت حكم النباهنه .
- ١١ : بلدة أزكى يحكمها أناس يسمونهم أهل الفكر .
- ١٢ : مدينة النخل تحت حكم سلطان بن أبي العرب اليعربي .
- ١٣ : مدينة الرستاق تحت حكم مالك بن أبي العرب اليعربي .
- ١٤ : حصون وقلاع متفرقة هنا وهناك تحت قيادات مختلفة .

وإلى حوالي عام ١٠٣٤هـ - ١٦٢٤م كانت الأوضاع في عُمان وحسب وصف أحد المؤرخين العُمانيين كما يلي :

« وخربت عُمان بعد العدل والأمان ، وعاثت فيها الجبابرة وقل فيها العلم والخير ، وانضمت العلماء في بيوتها ولازمت سربها حتى قيل إن أميراً من الرستاق احتاج إلى قاض فلم يجد قاضياً ، وقيل إنهم استطولوا ليلة من الليالي فظنوا أن ذلك بدء الساعة وبقيت عُمان كذلك حتى أظهر الله الإمام الأرشد والهمام الأمجد إمام المسلمين ناصر بن مرشد رحمه الله »^(١) .

(١) السالمي - المصدر نفسه - ج الاول - ص ٢٨١ .

فمن مدينة الرستاق في عُمان خرج الزعيم الذي سيوحد هذه الأمة الممزقة وهو شاب في الواحدة والعشرين من عمره اسمه ناصر بن مرشد اليعربي ينتسب إلى العائلة الحاكمة في المدينة . وكان هذا الشاب معروفاً بالتقوى والعلم والحزم يسكن في ضاحية اسمها (قصر) من ضواحي بلدة الرستاق ، ويُفهمُ من أقوال المؤرخين العُمانيين أن ناصر هذا لم يكن زعيماً سياسياً بالمعنى المعروف وإنما توسّم فيه زعماء البلد الخير ، خاصة الشيخ خميس بن ناصر الشقصي وهو من كبار دعاة الوحدة الوطنية في البلاد فاتفق مع العلماء ورجال السياسة والفكر وشكلوا وفداً لدراسة أوضاع الأمة واختيار القائد المناسب واتفق رأيهم على ناصر بن مرشد ، وفي بيت الزعيم الشاب في ضاحية قصر في بلدة الرستاق قابله وطلبوا اليه قيادة الأمة وتوحيدها وانقاذها من التمزق والفضلال .

ويقول المؤرخون : « فأجابهم بعد عذرٍ طويل » .

فلما خلصت له البيعة اتخذ راية جديدة ، وشكل وحدات عسكرية قبلية عين عليها قادة ممن بايعوه من القضاة والولاة والزعماء وأركان الأمة ، ويعتبر اعتلاء ناصر بن مرشد اليعربي ، السلطة في عُمان عام ١٦٢٤ م بداية ظهور الدولة اليعربية هناك^(٢) .

لم تكن مهمة هذا الزعيم سهلة يسيرة ، فهو وإن كان قد تلقب بلقب (الإمام) وهو لقب يقابل الملك أو السلطان ، فقد كان عليه حسب المذهب الإباضي القائم في عُمان أن يقوم بتنفيذ واجبين قبل أن تتحقق له شروط الإمامة ، الأول يقضي بتوحيد البلاد وتخليصها من فوضى الزعامات والدويلات ، الثاني تحرير البلاد من (النصارى) أي المستعمرين البرتغاليين والاسبان الذين كانوا يعيشون في مسقط وسواحل البلاد .

ولكن وعلى الرغم من إجماع مفكري القوم وفقهائهم على إمامة ناصر بن مرشد ، إلا أن الزعامات التي كانت تتحكم في المدن والمناطق المختلفة سرعان ما أعلنت الثورة ضده ، لذلك فقد راح هذا الإمام يكتف جهوده ليتغلب على مشكلة تعدد الزعامات

(٢) عبدالله بن خلفان بن قيصر - سيرة الإمام ناصر بن مرشد - تحقيق عبدالحيد القيسي - ص ١٤ .

فمن عاصمته الرستاق راح يعمل على جمع الكلمة وإخماد الفتن وتأديب خصومه السياسيين وإخضاعهم لسلطته ، ومنذ عام ١٠٣٤هـ إلى عام ١٠٤٠هـ والرجل يقاتل الزعامات المستقلة المنفردة ويسقطها الواحدة تلو الأخرى ، وظهر له الكثير ممن والاه في أول الأمر ، ثم لم يلبث أن قلب له ظهر المجن وأعلن الثورة ضده ، فكانت السنوات الست الأولى من حكمه سنوات بناء الجبهة الداخلية^(٣) .

ولعل أخطر معركة خاضها هذا الإمام ضد خصومه ، هي المعركة التي وقعت ضد مانع بن سنان حاكم مدينة سمائل الذي شق عصا الطاعة واتصل بزعيم آخر هو سيف بن محمد الهنائي حاكم مدينة (بهلا) ، إلا أن الإمام تصدى لهما وهزمهما ، فهرب مانع بن سنان إلى مسقط وطلب اللجوء والمساعدة من البرتغاليين كما لجأ أخوه سيف بن محمد إلى البرتغاليين في مدينة صُحار ، إلا أن الإمام لم يُمهّل المتآمرين اللاجئين عند البرتغاليين فهاجم صُحار ، وكان المتآمرون قد اعتصموا في (منفل مقرن) إلا أن قوات الإمام هزمتهم هناك ، ولما كان مانع بن سنان العميري لا زال في مسقط في حماية البرتغاليين ، فإن الإمام قرر أن يضربه في عقر داره ، فتقول المصادر العُمانية ، إن الإمام جهز جيشاً بقيادة مسعود بن رمضان وأمره أن يهاجم المدينة ، فتحشد الجيش العُماني في (طوى الرولة) قرب مدينة (مطرح) ، وهناك خرجت لهم وحدة عسكرية برتغالية إلا أن الجيش العُماني هزمها وأجبرها على التقهقر إلى داخل القلعة في المدينة ، كما أن مدفعية العُمانيين راحت تصب نيرانها على أبراج القلعة فهدمت بعض أجزائها ، ثم أن البرتغاليين طلبوا الصلح فوافق الإمام على ذلك ، فما كان من مانع بن سنان إلا أن هرب إلى مدينة (دبا) ومنها إلى (صُحار) ، إلا أن قوات الإمام كانت له بالمرصاد حيث أطبقت عليه هناك وأهلكته^(٤) .

كانت الخطوة الثانية للإمام ناصر بن مرشد اليعربي هي أن يقوم بتحرير عُمان من

(٣) السالي - المصدر نفسه - ج ٢ - ص ٧ . وكذلك ابن رزق - الشعاع الشائع بالعمان - ص ٨٩ . وكذلك ابن رزق - الفتح المبين - ص ٢٦٢ . وكذلك سرحان بن سعيد الأزكوي - كشف الغمة - ص ٩٥ .

(٤) السالي - المصدر نفسه - ص ١٣ . وكذلك قيصر - المصدر نفسه - ص ٤٣ .

الوجود البرتغالي والفراسي الموجود على أراضيها ، ولم تكن الظروف التي كانت سائدة في عُمان آنذاك مساعدة له كما ساعدت في السابق الشاه اسماعيل في حربه ضد البرتغاليين ، أي أن العرب لم يتحالفوا مع أية قوة خارجية أجنبية لمساعدتهم في حربهم ، كما أن حركة التحرير العُمانية هذه تمت أثناء مصالحة البرتغاليين والفرس ، لكن عزيمته الإمام وحسن قيادته دفعته إلى المباشرة بالتعرض للوحدات والقلاع والحصون البرتغالية ، وذلك بعد أن انتهى من توحيد عُمان تحت راية واحدة . ويجب أن نذكر هنا بأن سلسلة المعارك الباسلة التي خاضها هذا الإمام ضد البرتغاليين اعتباراً من معركة تحرير جلفار إلى بقية المعارك في بقية المدن خاصة دبا وخورفكان وصحار والتي تم تحرير معظمها ، فإن أخبارها موجودة في كتب المؤرخين والرواة العُمانيين فقط ، ولا توجد إلا إشارات عابرة لها في المصادر البرتغالية ، ما عدا معركة تحرير مسقط ، لذلك فإن تفاصيل سلسلة المعارك العُمانية ضد البرتغاليين والتي سنسردها في هذا الفصل ، إنما تعتمد على المصادر العُمانية مع بعض التأكيد في مصادر هولندية كانت قريبة من أماكن وقوع المعارك .

ويشرح البروفسور (أنطونيو دياس فارينها ANTONIO DIAS FARINHA) من جامعة لشبونة والخبير المعاصر في التاريخ البرتغالي سبب إخفاق المؤرخين البرتغاليين وتقصيرهم ، في الحديث عن تلك الفترة بقوله : « إن سبب إخفاق البرتغاليين في الاهتمام بتدوين أحداث أيامهم الأخيرة في عُمان ووضع تاريخ مفصل لها هو أن المشاكل كانت قد انهالت على البرتغاليين من كل جانب ، فإن الأساطيل الإنجليزية والهولندية راحت تدك عاصمتهم (كُوا) في الهند ، فقطعت عليهم سبل التجارة والمواصلات مع الوطن ، كما أن المشاكل الداخلية في البرتغال قد ظهرت على السطح وتفاقت ، إذ إن حركة سياسية قوية وبواد عصيان مسلح وحرب أهلية كانت قائمة هناك ضد التسلط الإسباني على البرتغال ، كما أن وفاة قائد القوات البرتغالية في الخليج (روي فيريرا) عام ١٦٣٢ م ، وهو القائد الذي اشتهر بمقدرته العسكرية

المتفوقة ، قد أفقد القوات البرتغالية الكثير من معنوياتها وقوتها السابقة»^(٥) .

وقد وجدنا ذكراً للإمام العُماني عند المؤرخ البرتغالي أنطونيو بوكارو في مؤلفه (DECADO XIII DE HISTORIS DA INDIA) الصادر في مجلدين في لشبونة عام ١٨٧٦م وقد وصف صعود نجم الإمام بهذه السطور : « لقد جعل هذا الإمام من نفسه منذ سبع سنوات أقوى حاكم في جميع أنحاء الجزيرة العربية ، بمناصرته للشريعة المحمدية الذي كان نفسه من أشد المتمسكين بها ، وكان مقر حكمه في نزوى وهي أكبر مدن الجزيرة العربية بأسرها ، وتقع على مسافة أربعة أيام إلى الساحل من مسقط باتجاه الغرب ، وتحت أمرة هذا الإمام حوالي ١٤٠٠٠ أو ١٥٠٠٠ من المقاتلين ذوي المهارة العالية ، وليس هناك شك في أن بمقدوره أن يزيد هذه الأعداد بأعداد أكثر إذا ما أراد أن يدعو الناس إلى الجهاد إذ أنهم ملزمون ديناً وعرفاً بطاعته ، وكل هؤلاء المقاتلون يحملون سيوفاً عريضة النصال كما أن فرسانهم مزودون بالرمح والسهم ، ومقاتلوهم يركبون الجمال التي لا تقل عن الجياد استعداداً للقتال نظراً لسرعتها وقوة تحملها حيث يمكنها البقاء يومين أو ثلاثة أيام دون أن تشرب المياه ، كما أنها تستهلك من الطعام أقل بكثير مما تستهلكه الجياد ، وعلى كل حال فإن هؤلاء الفرسان سواء كانوا على ظهور الجمال أو الجياد لا يشكلون أي تهديد على مسقط ، بسبب منحدراتها الحادة التي لا يمكن اجتيازها ، لكن الخطر يأتي من الجنود الراجلين فهم يتميزون بخفة الحركة تماماً لاعتيادهم على تسلق الجبال والصخور ، وهو ما يفعلونه بسهولة ، وبالنسبة لشيوخ القبائل الذين يمتلكون الجياد أو الجمال ، فإن من يملك أكثر يكون موضع احترام وطاعة أكثر من يملك أقل منها ، ولكن ليس هناك من بين زعمائهم من يمكن مقارنته بالإمام إذ ليس هناك في كل الجزيرة من يمكن أن يساويه أو يطاوله في مكانته ، كما أن الجياد في هذا الاقليم من الجزيرة العربية (عُمان) تعتبر أفضل وأقوى الجياد في الشرق كله ، إن حالة الصداقة والسلام التي تربط هذا الإمام بالبرتغاليين هي حالة محفوفة بالمخاطر للغاية وتتصف بالتدهور السريع ، نظراً لأنه يعلن على الملأ أنه هو الذي سيرفع

(٥) مقابلة خاصة جرت في أبوظبي مع البرفسور فارينها في شهر كانون ثاني ١٩٨٩ .

راية الشريعة المحمدية ، فهو يقول إنه بناءً على معتقدات دينه فإنه ملزم بحرب المسيحيين حرباً دائمة ، ورغم أنه يعقد في بعض الأحيان سلاماً مع حكومة الهند ، إلا أنه لا يحفظ هذا السلام لفترة طويلة على الإطلاق ، بل يُبقي عليه بقدر ما يكون ملائماً له ، ويقدر ما يعتقد أننا أقوىاء بالدرجة التي تجعلنا ننجح في الوقوف في وجهه»^(٦) .

إن المصادر العُمانية تذكر أن مدينة (جلفار) كانت أول المدن العُمانية التي تم تحريرها وانتزاعها من يد الأجانب ، حيث كان فيها حصنان واحد برتغالي والثاني فارسي ، فقد أمر الإمام بتشكيل جيشين لهذا الغرض عهد بقيادة الأول إلى القائد علي بن أحمد بن عثمان النزوي والثاني إلى ابن عمه أبي العرب سلطان بن سيف ، وتحرك الجيشان متجهين نحو أهدافهما ، ويؤرخ لها أهل عُمان للمعركة بأنها جرت عام ١٠٤٠ هـ وهو ما يوافق عام ١٦٣١ م تقريباً .

كان هدف الهجوم الأول هو الحصن الفارسي الذي كان فيه الأمير ناصر الدين العجمي ، وعندما باشر الطرفان القتال ، استمرت المعركة مدة يومين أوشك العجمي على الاستسلام ولكن وفجأة بوغت العُمانيون بنيران مدفعية كثيفة تنطلق نحوهم من الحصن البرتغالي المجاور للحصن الفارسي ، إلا أن هذا الهجوم المباغت والغادر من قبل البرتغاليين لم يؤثر على عزيمة العُمانيين الذين سرعان ما اقتحموا الحصن الفارسي وأسقطوه ، وعندما وصل خبر سقوط الحصن الفارسي بيد العرب ، أصدر الإمام أوامره إلى القائد علي بن أحمد بالبقاء في جلفار ، ثم أمر بتشكيل جيش من قبيلة (الدهامشه) بقيادة الشيخ خميس بن مخزوم ليذهب إلى جلفار ويقاتل البرتغاليين وقد تمكن هذا الجيش من احتلال الحصن البرتغالي هناك .

ويؤكد هذا الهجوم العُماني مصدر هولندي أيضاً منقول عن سفينة هولندية تجارية كانت راسية في جلفار يوم هجوم العرب عليها ، إذ أرسل قائدها رسالة مؤرخة في

(٦) بروفيسور : س . بوكسر C. BOXER - مقال بعنوان ملاحظات جديدة عن الصلات بين العُمانيين والبرتغاليين ١٦١٣ - ١٦٣٣ م - منشور في كتاب حصاد ندوة الدراسات العُمانية - نوفمبر ١٩٨٠ م .

عام ٦٣٣م قال فيها : « إن جلفار التي كانت تحت حكم ملك اسبانيا قد هاجمها العرب وإنهم احتلوا القلعة البرتغالية فيها ، وإن خسائر البرتغاليين بلغت ما بين ثلاثين إلى أربعين قتيلاً وإن بقية جنود القلعة قد هربوا إلى مسقط^(٧) .

وفي هذا النصر قال عبدالله بن خلفان بن قيصر الذي أرخ سيرة الإمام ناصر بن مرشد :

إمام زككي إذا ما أتى	تخر الملوك له سجداً
جرى الآن بالصير ما قد جرى	من القتل بين الملا سمرمدا
وزلزلت الأرض واشتد حرب	بضرب المدافع لما اعتدى
وظن النصارى وأشياعهم	بلوغ المُنَى من إمام الهدى
فخيّب ذو العرش آمالهم	بدنياهم هذه بل غدا

وهكذا فما إن تم تحرير جلفار حتى أصدر الإمام تعليماته إلى جيش الدهامشة بقيادة الشيخ خميس أن يتوجه إلى مدينة دبا وأن يحتل الحصن البرتغالي الموجود فيها ، وتمكن القائد المذكور من طرد البرتغاليين الموجودين في المدينة وأجبرهم على الهرب واللجوء إلى قلعته ، ثم قام بمحاصرة القلعة التي استسلمت بعد حين أيضاً .

وفي هذا النصر قال ابن قيصر :

بأرض دبا لقد وقعت حروب	تكاد الصياخذ أن تلينا
لقد قدت بها هامات قوم	وأودوا في الضريح ملحدينا
وكان النصر للإسلام فيها	على قوم النصارى المعتدنا
فأصبحت البلاد ومن عليها	لناصر بن مرشد خاضعينا
كذلك من حباه الله نصراً	تصير له الخلائق طائعينا

ثم قرر الإمام اليعربي أن يقترب بقواته من مدينة (صحار) التي يعتبرها البرتغاليون إحدى قواعدهم القوية هناك وكانت خطته ضرب المتعاونين من العرب مع

(٧) المصادر العُمانية السابقة نفسها وكذلك تقرير (B.J. SLOT) الفصل الرابع .

البرتغاليين ، ثم بناء قاعدة وقلعة هناك لتقف بوجه القلعة البرتغالية ، ثم القيام بمناوشات وهجوم على الثكنة البرتغالية ، فأصدر أوامره إلى القائد حافظ بن سيف بالتوجه إلى صحار على رأس جيش من قبائل بني لام وبني خالد والعمور ، وما إن شعرت القوات البرتغالية باقتراب الجيش العُماني حتى تهيأت للقتال ، فاشتبك الطرفان في معركة أجبرت البرتغاليين على الانسحاب داخل الحصن فيما قامت القوات العُمانية بفرض الحصار ، وجرت معارك بالمدفعية بين الطرفين وشدد العرب هجماتهم ، وفي إحدى معاركهم فقدوا القائد راشد بن عباد ، ولما أنهى القائد العُماني بناء القلعة أمر جنوده بالانسحاب إليها ومن هناك راح يراقب الحصن البرتغالي الذي كان محاصراً من البر ، وبقيت المدينة محاصرة من قبل العرب لمدة عام تقريباً .

ثم قامت قوات الإمام بمهاجمة الحامية البرتغالية في مدينة قريات وأنزلت بها هزيمة وحررت المدينة إلا من قلعة واحدة بقيت بيد البرتغاليين .

ثم أمر الإمام بتشكيل جيش بقيادة الشيخ خميس بن سعيد الشقصي لمحاربة العدو في مسقط فتقدم الجيش نحو منطقة (بوشر) التي تبعد سبعة أميال عن مسقط وتوقف لغرض إعادة التنظيم ، كما أنه أرسل كتائب لتذهب إلى مدينة مطرح لمقاتلة البرتغاليين هناك .

وما إن شعر القائد البرتغالي العام في مسقط بحركة هذه الجيوش ، حتى أرسل وفداً ليفاوض القائد الشقصي الذي كان قد تقدم بقواته إلى مناطق أقرب إلى مسقط ، بحيث حاصرها من جانب البحر أيضاً ، وتذكر لنا المصادر العربية أن الشقصي وافق على عقد معاهدة صلح مع الحاكم البرتغالي في مسقط .

وبالنسبة إلى معاهدات الصلح هذه التي نوه عنها البرتغاليون أيضاً فلقد ذكر العُمانيون أن أول معاهدة عقدها الإمام كانت عند الهجوم الأول على حصون مسقط كان من شروطها :

١ : أن يتنازل البرتغاليون عن الأراضي والمباني العائدة لهم في مدينة صحار .

٢ : أن يحتفظ البرتغاليون بوجودهم في مدينتي مسقط ومطرح .

٣ : أن يقوم البرتغاليون بدفع الجزية للإمام مقابل ذلك .

أما بالنسبة للمعاهدة الجديدة مع الشقصي ، فقد وافق البرتغاليون على دفع الجزية للإمام وكذلك دفع التأخرات التي توقفوا عن دفعها خلال الأعوام السابقة .

إلا أن الإمام لم يكتف بهذه المعاهدة بل قرر الاستمرار قدماً في تحرير البلاد ، ذلك لأن المناخ السياسي العام في داخل البرتغال أصبح خطيراً إذ شهد عام ١٦٤٠م ثورة كبرى حدثت في داخل العاصمة لشبونة للتخلص من حكم الاسبان ، قادها (دوق أوف براكانزا) من داخل مدينة (إيفورا) البرتغالية وراح يهاجم الوحدات الاسبانية الموجودة في البلاد وتمكن في الأول من ديسمبر من عام ١٦٤٠م من أن يصل إلى أبواب لشبونة العاصمة ، والتي ما إن شعرت به حتى خرج أهلها بما يملكونه من سلاح وهاجموا قلعة (سان جورج) وهي مقر الحاكم الاسباني ، ثم حدثت معركة عظيمة في شوارع المدينة بين الأهالي والجنود الاسبان انتهت باستسلام القوات الاسبانية يوم ١٢/٣ / ١٦٤٠م ، وسرعان ما دقت أجراس الكنائس وأعلنت البرتغال ميلادها الجديد كدولة مستقلة تحت قيادة الملك دون جوان الرابع (JOAO IV)^(٨) .

وتذكر المصادر البرتغالية في أخبار ذلك العام أن الموظفين العرب الموجودين في دائرة جمارك مسقط كتبوا إلى الإمام يشرحون له ما حدث في البرتغال ويؤكدون له أن الوحدة العسكرية الموجودة في مسقط في حالة ضعف شديد ، وأنه آن الاوان لمهاجمتها وتخليص المدينة منها ، لذلك أمر الإمام بشن هجوم على مسقط ، إلا أن الحامية البرتغالية تمكنت من صد الهجوم ، وتعترف المصادر البرتغالية أن الإمام هاجم مدينة صحار المجاورة لمدينة مسقط في السابع من نوفمبر ١٦٤٣م وأنه تمكن من احتلال المدينة ، وقتل عدداً كبيراً من جنود حاميتها وأسر ٣٧ برتغالياً^(٩) .

(٨) - DANVERS - المصدر نفسه - ص ٢٧٢ .

(٩) - المصدر نفسه أعلاه .

أما خبر المعاهدة التي عقدوها مع العرب فيقول البرتغاليون إنه في يوم ١٦ / ٨ / ١٦٤٨م قامت قوات عربية عُمانية بقيادة (سعيد بن خليفه) بحصار مسقط ، ودارت معارك بين الطرفين استمرت إلى يوم ٩ / ١١ / ٩ تقريباً عندما أرسل قائد الحامية رسالة إلى حاكم المدينة ، بأنه أوشك أن يستنفذ كل العتاد الموجود لديه ، فوافق حاكم مسقط على الدخول في مفاوضات للصلح مع العُمانيين .

وقد تقدم العُمانيون بمطالبهم التي كانت تنص على أن تستسلم الحاميات البرتغالية الموجودة في بعض المدن العُمانية وأن تُهدم قلاع وحصون تلك الحاميات كما يجب على البرتغاليين عدم التعرض للقلعة العُمانية الموجودة في مدينة (مطرح) ، كما طالبوا بأن لا يدفع التجار العُمانيون أية رسوم جمركية للسلطات البرتغالية الموجودة في مسقط ، وكان آخر شرط عند العُمانيين هو أن يقوم البرتغاليون بتهديم سور مسقط وإزالته من الوجود ، فإذا نفذ البرتغاليون هذه الشروط فإن الإمام سيقوم بدفع مبلغ (٢٠٠٠٠ رباردوس PARDAS) للبرتغاليين تعويضاً لهم عن أضرار الحرب .

فلما وصلت تلك الشروط إلى حاكم مسقط والمسؤول المالي فيها وكان اسمه (جوليا دي نورونها DOM JOLIAO DE NORONHA - CAPTIN GENERAL AND VEDOR (جوليا دي نورونها - (OF FINANCE OF MUSCAT

لم يوافق عليها ، إلا أن الأتباء التي وصلت اليه أفادت أن كافة الجبال المحيطة بمسقط قد امتلأت بالمقاتلين العُمانيين ، وأزاء إحكام العرب الحصار على مسقط وانعدام قدرة الحامية البرتغالية على القتال ، فإنه وافق يوم ٣١ / ١٠ / ١٦٤٨م على الدخول في مفاوضات مع العرب ، فاجتمع الطرفان واتفقا على ما يلي :

- ١ : أن يقوم البرتغاليون بتهديم قلاعهم في مدن قريات ومطرح وصحار .
- ٢ : يقوم العُمانيون كذلك بتهديم قلاعهم الموجودة في مدينة مطرح .
- ٣ : تبقى مدينة مطرح مستقلة بذاتها لا تخضع لحكم الإمام أو لحكم البرتغاليين لذلك فإنه يمكن للطرفين المرور بها بجنودهم واسلحتهم أو

ببضائعهم التجارية .

٤ : يمكن للسفن العُمانية الإبحار بحرية تامة إلى جميع الأماكن ، ما عدا المناطق التي تسيطر عليها قوات ملك البرتغال فلا يجوز الدخول إليها إلا بإذن مسبق .

٥ : أما بالنسبة لدفع الرسوم الجمركية في مسقط ، فقد وافق حاكم مسقط على إعفاء التجار العُمانيين الذين يستخدمون الميناء من دفع الرسوم الجمركية ، كما وافق على أن يقوم هؤلاء التجار بتصريف بضائعهم بحرية هناك .

٦ : يقوم العُمانيون بتهديم كافة الحصون والقلاع التي بنوها حوالي مسقط خلال فترة حصارهم لها ، على أن لا يقوم البرتغاليون بإعادة بنائها واستخدامها لأغراضهم الخاصة .

وعندما وصلت تلك المعاهدة إلى لشبونة وقام الملك بالإطلاع عليها غضب غضباً شديداً وأمر باعتقال (جوليا دي نورونها) حاكم مسقط وتقديمه لمحكمة عسكرية ، ففي رسالته المؤرخة ١٦ / ١ / ١٦٤٩م أمر بتعزيز القوة العسكرية الموجودة في مسقط بأعداد من السفن والجنود ، على أن تقوم هذه القوة بإعادة احتلال مدن صحار وقربات ومطرح ، كما أكد على ضرورة تقوية القاعدة العسكرية الموجودة في مدينة (خصب) في منطقة رؤوس الجبال في رأس مستندم عند مدخل الخليج العربي ، وشدد في رسالته أيضاً على ضرورة مراقبة كل العرب الذين يعيشون في مدينة مسقط ، حيث قال إنهم يعملون جواسيس للإمام^(١٠) .

ولكن رغم ذلك فإنه لم يبق بيد البرتغاليين في عام ١٦٤٩م من الأراضي العُمانية ، إلا مدينة مسقط والقاعدة البحرية في مدينة خصب .

وفي ذلك العام انتقل إلى رحمة الله الإمام ناصر بن مرشد اليعربي مؤسس الدولة

(١٠) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٢٩٦-٢٧٠ .

اليعرية في عُمان والبطل الذي صارع البرتغاليين وكسر حاجز الرهبة والخوف منهم ، إلا أنه مات ولم تسعد عيناه برؤية آخر جندي برتغالي يرحل عن بلاده ، وبوفاته يوم ٢٤ / نيسان / ١٦٤٩ م ، عقد أهل عُمان البيعة إلى ابن عمه وقائد جيوشه سلطان بن سيف بن مالك اليعربي .

فلما آل الأمر إلى الإمام الجديد واستلم مقاليد الحكم فإن أول ما فعله هو أنه باشر بوضع الخطط الحربية اللازمة لمهاجمة مسقط وانتزاعها من يد البرتغاليين وتحريرها . وتصف لنا المصادر العُمانية ذلك بأن الوحدات العسكرية البرتغالية الموجودة في عُمان كانت مكونة من كتائب من الجنود البرتغاليين وكتائب مرتزقة من الهنود من (هند جوه) أي (كُوا) وكانت تلك الوحدات قد اتخذت مواضع دفاعية لها خارج المدينة في التلال والجبال المحيطة بها ، أما قلعتا مسقط (كابيتان) و(سانت جوا) فقد كانتا بمثابة مقرات للقيادة العامة والتموين ومدفعية الساحل ، وقد كانتا محصنتين تحصيناً جيداً وقوياً ، وتوزع المشاة البرتغاليون والهنود على جبال السعالي والمكلا ، وكان أمنع حصونهم الجبلية حصناً يسمى (المربع) حيث كان يسيطر على طريق التقرب الرئيسي من المدينة ، وقد سده البرتغاليون بسلسلة حديدية .

كان الإمام الجديد قد بدأ يحشد جيشه في منطقة اسمها (طوى الرولة) وهي منطقة تمتد من بلدة مطرح إلى منطقة سد روى ، فلما أتم تحشده هناك اتخذ من منطقة طوى الرولة قاعدة متأخرة له وتقدم بوحداته المحاربة إلى منطقة التجمع والثوب في سبخ الحرم ، ومن هناك أصدر أوامره بالهجوم ، فتقدمت قواته واحتلت أول أهدافها وهي مجموعة تلال تسمى (بير الراويه) ، لكنهم جوبهوا بنيران شديدة من بنادق البرتغاليين أجبرتهم على التبعثر والانسحاب ، وقد حدث الشيء نفسه للموجة الثانية من الهجوم العُماني ، حيث أجبرت القوات العُمانية على التوقف ثم الانسحاب ، مما اضطر الإمام إلى إصدار أوامره بالكف عن الهجوم ، فاستغلت القوات البرتغالية تلك الفرصة وانسحبت بشكل سريع إلى داخل مدينة مسقط ولجأت إلى قلعتها وسدت

أبوابها ، فسارع العُثمانيون بالدخول إلى مدينة مسقط ومحاصرة القاعدتين البرتغاليتين ، وقاموا بالإقتراب من أسوار القلعتين وتحدي الموجودين فيها للنزول إلى الخارج للمبارزة ، لكن البرتغاليين لم يكونوا يجرؤون على ذلك . وتستمر الرواية العُمانية بسرد القصة ، فتقول إن الحصار انتهى بنصر حاسم للإمام عندما اتفق مع رجل هندي اسمه (ناريتم) كان يشغل منصب ضابط مستودعات القلعة ، وكان القائد البرتغالي قد طلب يد ابنته ، ولم يكن الهندي راضياً بهذا الزواج فاتصل سراً بالإمام الذي أوعز له بأن يفسد مخزون البارود في مستودعات القلعة على أن يكون ذلك مساء السبت أي ليلة الأحد ، وقد فعل ناريتم ما طلب منه الإمام مساء ذلك السبت الذي صادف عيداً للنصارى فاحتسى الجنود البرتغاليون الخمر ورقصوا طول الليل ، وفي الساعات المبكرة من صباح الأحد المصادف لليوم العاشر من رجب سنة ١٠٥٩ هـ (ولعله كان يوم السنة الميلادية الجديدة ١٦٥٠ م) قام الإمام بتأدية صلاة الفجر مع قادة جيشه وعندما أتمها أصدر أوامره بالهجوم ، فاندفعت حشود المقاتلين العُثمانيين وعرب المنطقة تكتسح كالموج الهادر الحصون والمنعات والجدران التي تساقطت تحت ضرباتهم الساحقة وتسلقوا جدران القلعتين واقتحموها وأعملوا السيف برقاب البرتغاليين والهنود ، وكان من أصلب جيوب المقاومة البرتغالية هي الوحدة التي كان يقودها الضابط (كبريته) ولكنه اضطر أخيراً إلى الإنسحاب إلى داخل أسواق مدينة مسقط حيث أطبق عليه المقاتلون العُثمانيون هناك وقتلوه وجميع من معه ، وكانت نتيجة المعركة أن القوات العُمانية أبادت المعسكر البرتغالي في مسقط عن بكرة أبيه إذ لم يتمكن من الإفلات منه إلا نفر قليل هرب قسم منه إلى الهند والآخر إلى حصن برتغالي آخر بالقرب من مطرح ، فدخل الإمام القلعتين فاتحاً وطهرهما وأسماهما (الميراني) و(الجلالي) ثم لم يلبث أن أتاه وفد من القلعة البرتغالية في مطرح وهم يرفعون الراية البيضاء علامة التسليم .

ويذكر لنا المؤرخون العثمانيون أنه لم يبق من البرتغاليين إلا ستين أو سبعين برتغالياً

أعتنقوا الإسلام وذابوا في المجتمع الجديد^(١١) .

أما المصادر البرتغالية فتصف لنا ما حدث في مسقط كما يلي :

في يوم ١٨ / ١ / ١٦٥٠م استلم نائب الملك البرتغالي في الهند رسالة من مدينة (ديو) تفيد بأن مركباً قد وصل إلى هناك من مدينة مسقط وعلى ظهره (٧٠٠) جندي برتغالي تمكنوا من الهروب من المدينة التي تمكن العرب من اقتحامها بعد أن حاصروها مدة من الزمن ، وأن القوات الفاتحة قد أبادت بشكل تام تقريباً الحامية الموجودة في القلاع هناك ، وأن حاكم مسقط كان قد نظم دفاعاته عن المدينة في الخارج إلا أنه اضطر إلى الانسحاب إلى داخل المدينة بعد أن هاجمته القوات العُمانية وهو في مراكزه الجبلية خارج المدينة وأجبرته على الانسحاب إلى داخل القلاع ، ولكنه فوجيء وهو في القلاع بأن العُمانيين الذين كانوا يعملون معه ، قد شهبوا السلاح بوجهه في داخل القلعة ، كما علم بأن الأسطول البرتغالي الموجود في مسقط ليدافع عنها قد هرب إلى الهند ، وأن قائد الاسطول (براز كالديريا دي ماتوس BRAZ CALDEIRA DE MATOS) موجود في مدينة (كوشن) الهندية ، وقد حاول قائد حامية مسقط أن يطلب العون من حاكم جزيرة هرمز الفارسي ، إلا أن الحاكم لم يسعفه لذلك فإنه اضطر إلى التسليم^(١٢) .

وهكذا تم تحرير التراب العُماني من البرتغاليين منذ أن دخلوا البلاد عام ١٥٠٧م إلى عام ١٦٥٠م .

ويعترف البرتغاليون بأن سقوط مسقط أدى إلى انهيار تام للوجود البرتغالي في الخليج العربي ، ولم يبق لهم هناك إلا قاعدة صغيرة مختفية في المناطق الساحلية الجبلية الوعرة في مدينة خصب ومنطقة كمزار في ساحل مسندم وقد حاولوا بعد هذا استعادة مسقط إلا أنهم فشلوا . وعموماً يمكن القول بأنه وعملياً فإن قصة استعمار

(١١) المصادر العُمانية السابقة نفسها . السالي - ص ٤١ - ٥٨ . ابن رزيق - ص ١٨٤ - ٢٩١ . الأوكري - ص ١٠٨ .

(١٢) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٢٩٨ .

البرتغال لآخر قطر عربي قد انتهت في عام ١٦٥٠ م ، بل إن قصة النهاية للبرتغال
كدولة عالمية مستعمرة قد انتهى أيضاً منذ ذلك العام .

وفي قصيدة للشيخ محمد بن مسعود الصارمي يذكر في بعض أبياتها تحرير مسقط
فيقول :

فامتثلوا الأمر ولا قصرُوا	وجردوا أسيافهم والرماح
واقتحموا السور كأسد الفلا	واشتدت الحرب وضرب الصفاح
كأنما القتلَى بأرجائها	من فئة الافرنج صرعى طراح
كأنهم أعجاز نخل بها	مقعر من عاصفات الرياح
فانهزم الافرنج من بنة	بالذل والخزي والافتضاح
بعزم سلطان بن سيف الذي	أباد أهل الكفر يوم الكفاح

الفصل الثامن والثلاثون

- * محاولة برتغالية لاسترداد مسقط عام ١٦٥٢ .
- * وفاة الإمام سلطان بن سيف وخلافة ابنه بلعرب ثم ابنه الآخر سيف بن سلطان .
- * يف بن سلطان يشتبك مع البرتغاليين في ممباسة وينتزع المدينة منهم في معركة قلعة يسوع عام ١٦٩٩ .
- * هجمات البحرية العُمانية على القواعد البرتغالية في الهند .
- * عُمان على أيام السلطان اليعربي الخامس سيف بن سلطان .
- * نهاية قصة العرب والبرتغال في التاريخ .

قبل أن تصل أنباء تحرير مسقط وهزيمة القوات البرتغالية في عُمان إلى الهند ، كان نائب الملك هناك قد تبدل ثلاث مرات تقريباً وذلك بسبب سوء الإدارة وضعف القوات البرتغالية وكثرة المشاكل الداخلية .

وفي عام ١٦٥٢م استلم نائب الملك (فاسكو ماسكارانهاس - DOM VASCO MASCA RANHAS) أمراً بأن يسترجع مسقط مهما كلف الأمر . ولم تكن لشبونة تدرك عمق الثغرات السياسية والاجتماعية والعسكرية التي حدثت في الهند كما أنها لم تعلم بأن الدولة اليعربية الجديدة قد قامت في عُمان على أسس عسكرية فعالة ، وأنها ستصبح عما قريب دولة ذات قوة بحرية قوية تتجول سفنها من سواحل الهند إلى سواحل أفريقيا بحثاً عن القواعد والسفن البرتغالية لتحطيمها . وعندما استلم (ماسكارانهاس) الأمر أرسل سبع سفن مقاتلة وصلت أولاً إلى ميناء (كنج) في

فارس ، حيث كانت هناك ممثلية تجارية برتغالية صغيرة ، وبعد أن تزودت بما تحتاج إليه ذهبت إلى ساحل القطيف ، ثم توقفت في منطقة (لارا) الفارسية .

وعندما كانت في (لارا) علم العُثمانيون بأمرها فجهزوا أسطولاً قوياً توجهوا به نحو (كنج) حيث تقع الممثلة التجارية البرتغالية وقاموا بتدميرها وعندما سمعت السفن البرتغالية بذلك هربت إلى بلدة (خصب) في رأس مسندم واختفت في الأخوار بين السواحل الجبلية الوعرة هناك ، بينما راح نائب الملك في الهند يضع خططاً جديدة لاعادة احتلال مسقط ، وإرسال تقويات إلى السفن المختبئة في خصب . بحيث صارت خصب قاعدة بحرية برتغالية سرية^(١) .

وكانت سفن العُثمانيين تجوب السواحل الأفريقية في مناطق (باتا) و(مباشرة) و(زنجبار) وتصطدم بين الفينة والفينة بسفن برتغالية ، لكنها لم تكتشف القاعدة السرية الموجودة في خصب ، فيقول تقرير هولندي عن المنطقة عام ١٦٥٤م إن البرتغاليين كانوا يشاهدون في مناطق (كمزار) و(شابوص) و(خصب) و(قدا) في رؤوس الجبال ، وأن القائد البرتغالي هناك كان (أندريا ساردانا ANDRIES SARDANGH) . كما أن الهولنديين تركوا لنا وصفاً لمسقط بعد تحريرها ، وقاموا بزيارتها وقابلوا الإمام سلطان بن سيف وعرضوا عليه مساعدتهم ضد البرتغاليين وأن الإمام أرسل رساله جوابية إلى (هندريك فان مرك) في بوشهر يرحب بالتعاون التجاري مع هولندا^(٢) .

وعندما وصلت التعزيزات إلى الأسطول البرتغالي الموجود في خصب ، فإن القائد أعاد تنظيم نفسه وتحرك يوم ١٦ / مارس / ١٦٥٢م متوجهاً إلى مسقط بغية احتلالها ، وتفيد المصادر البرتغالية أن الأسطول أوشك على النجاح في مهمته لولا أن تصدى له أسطول عُثماني ضخم ، كما أن المدفعية العُثمانية الموجودة في القلاع راحت تصب نيرانها عليه وأجبرته على الفرار . وعلى كل فإن المصادر الهولندية المتوفرة لدينا تعتقد

(١) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٢٩٩ .

(٢) B.J. SLOT - المصدر نفسه - الفصل الخامس - ص ٥ .

بأن القاعدة البرتغالية السرية الموجودة في (خصب) من منطقة رؤوس الجبال ورأس مسندم العُمانية في مدخل الخليج العربي قد انتهت بصورة تامة في حوالي عام ١٦٥٥ م .

كانت القوة البحرية العُمانية قد أخذت بالصعود والتعاظم على عهد ملوك الدولة اليعربية وهُم الإمام سلطان بن سيف اليعربي ، الذي انتقل إلى رحمة الله عام ١٠٩١ هـ - ١٦٨٠ م وخَلَفَهُ ابنه بلعرب بن سلطان بن سيف اليعربي الذي حكم إلى عام ١١٠٢ هـ - ١٦٩٠ م ، ويَعْدُها اعتلى العرش الإمام اليعربي الرابع سيف بن سلطان بن سيف اليعربي الملقب (قيد الأرض) .

وفي خلال تلك الفترة نقل لنا المؤرخون العُمانيون أن هجوماً عُمانياً تم شنه على قاعدة (ديو) البرتغالية في الهند عام ١٦٥٦ م ، إلا أننا نعتقد أن هذا التاريخ غير صحيح ، فإن الهجوم على (ديو) تم على عهد الإمام اليعربي الرابع ، إذ شهدت أيام هذا الإمام معارك بين السفن العُمانية والسفن البرتغالية . ففي عام ١٦٩٤ م حدث صدام بين سفن عُمانية وبرتغالية قرب مدينة (باسين) على ساحل الهند وكذلك في جزيرة اسمها (سالت) ، وفي سنة ١٦٩٥ م هاجم العُمانيون المركز البرتغالي في (كنج) على الساحل الفارسي .

وكانت أعظم معارك هذا الإمام ضد البرتغاليين قد جرت في ممباسة على الساحل الأفريقي فقد تمكن من انتزاع المدينة منهم في معركة (قلعة يسوع - FORT JESES) . إذ أعد حملة مكونة من ثلاثة آلاف جندي عُماني غادرت أرض الوطن في شهر آذار من عام ١٦٩٦ م على متن سبع سفن لتقوم بمهاجمة القلعة البرتغالية واحتلال ممباسة . إلا أن القلعة استطاعت الصمود أمام المهاجمين بعد أن تمكنت قيادة (گوا) من أن ترسل لها نجدة عسكرية ، لكنها لم تستطع أن تفك الحصار عنها إذ استمر إلى عام ١٦٩٧ م . إلا أن هجوماً كاسحاً قاده القائد ناصر بن عبدالله يوم ١٣ / ١٢ / ١٦٩٨ م انتهى بالنجاح وتمكن من اقتحام القلعة وقتل قائدها وإبادة

الموجودين فيها⁽³⁾ .

وكان ذلك النصر بداية لتوسع عربي عُثماني في شرقي أفريقيا ، إذ أصبحت ممباسة التي تقع في كينيا اليوم ، وجزيرة زنجبار من جملة الممتلكات العُمانية ، وامتدت عُمان من أراضيها في بلاد العرب إلى أراضيها في شرقي أفريقيا ، حيث استمر الحكم العربي هناك إلى عام ١٩٦٤ م .

أما التحركات العسكرية العُمانية والهجمات على قواعد البرتغاليين في (سورات) و(ديو) و(باسين) فقد حصلت على أيام الإمام اليعربي الخامس سلطان بن سيف الثاني ، وليس على أيام جده سلطان بن سيف الأول كما ذكرته المصادر العُمانية التي اشتبهت عليها الأسماء . فتقول المصادر البرتغالية ، إن رسالة مؤرخة بتاريخ ١٢ / ١ / ١٧١٥ م أرسلها نائب الملك في الهند إلى ملك البرتغال يخبره فيها أن ميناء (سورات) الفارسي الذي كان يعتبر ملكاً للبرتغال حسب اتفاق خاص مع الشاه ، قد سقط بيد العرب خلال العام الماضي ، وأنه عندما سمع بسقوطه أصدر أوامره إلى قيادة المنطقة الشمالية في الهند أن تقوم بهجوم على العرب ، قبل أن يتمكنوا من التوسع بعملياتهم العسكرية لأن العرب قد أسروا مركباً كبيراً من مراكب ملك البرتغال . وتستطرد الرسالة قائلة إن الهجوم جرى يوم ١٩ / ٢ / ١٧١٤ م وقد استمرت المعركة منذ الصباح إلى الليل ، وإن العرب خسروا فيها (١٨٠٠) قتيل حسب المعلومات التي وصلت إليه ، بينما فقد البرتغاليون ثمانية وعشرين قتيلاً وأربعة وثلاثين جريحاً . وأن العرب بعد أن احتلوا (سورات) لفترة تركوها واتجهوا نحو ميناء (كنك) الفارسي وأجبروا الحاكم الفارسي (الشاهبندر) على أن يسلمهم السفينة الملكية (فيتور) كما طلبوا منه تسليم الموظف البرتغالي المسؤول عن المصالح البرتغالية هناك ، فلما امتنع الشاهبندر عن ذلك هاجموا الوكالة وأحرقوها وانسحبوا ، وأن شاه إيران قد غضب غضباً شديداً وأوشك أن يشن الحرب على مسقط ، لذلك فقد تم إرسال نجدة برتغالية

(3) H. BRITIAN AND P. RIPLEY. ASIMPLE HISTORY OF EAST AFRICA. P. 82 .

إليه مكونة من أربع سفن بقيادة (الجنرال فرانسيسكو بيريرا)^(٤) .

أما بالنسبة للهجوم العُماني على القاعدة البرتغالية في (ديو) فقد ذكرت المصادر البرتغالية أن ذلك قد حصل في أواسط عام ١٧١٧م حيث ورد تقرير من مقر القيادة الشمالية البرتغالية يفيد أن هجوماً شنته ثلاث عشرة سفينة مسقطيه ، وأن القائد (لويو جوزيف دي الميادا) قد اشتبك معهم بمعركة ، وأن العرب تمكنوا من تدمير ميناء (ديو) وانهم توجهوا إلى (سورات) للاشتباك بالبرتغاليين هناك .

وفي صيف عام ١٧١٨م قام الإمام العُماني بمهاجمة البحرين وتمكن من طرد القوة الفارسية الموجودة فيها وضمها إلى الدولة اليعربية مما دفع بالشاه حسين الصفوي إلى أن يكتب إلى نائب الملك البرتغالي في (گوا) يطلب منه مساعدته في استرجاع البحرين ، وقد وافق نائب الملك على طلب الشاه وأمر بتجهيز حملة بحرية لهذا الغرض ، وتم إرسالها ووصلت إلى ميناء (كنك) الفارسي في شهر شباط من عام ١٧١٩م ، إلا أن هذا الأسطول لم يستطع أن يشتبك بالأسطول العُماني إلا في شهر نيسان/ ابريل من ذلك العام بمعركة استمرت من الساعة التاسعة صباحاً إلى الساعة مساءً إلا أنها لم تكن في صالح الأسطول العُماني ، ثم استغل الطرفان حلول الظلام لإعادة التنظيم والمباشرة بالقتال في صباح اليوم التالي . وفي الساعة السادسة من صباح اليوم التالي اشتبك الطرفان ثانية واستمرت المعركة إلى الليل فيما بدا الانهالك والتعب على الأسطول العُماني ، فصدرت الأوامر اليه بالانسحاب إلى عُمان . وقام البرتغاليون بمطاردته لمدة ثمانية أيام إلى أن تمكن من الوصول إلى جلفار ، أما الأسطول البرتغالي فقد ذهب إلى ميناء (كنك) الفارسي ، وتقول المصادر البرتغالية إن خسائر العُمانيين بلغت (٥٠٠) قتيل بينما خسائرهم (١٠) فقط . وعندما كان الأسطول البرتغالي في (كنك) فإن القائد بقي خائفاً من احتمال مهاجمته من قبل سفن انجليزية أو هولندية لذلك قرر أن يضرب الأسطول العُماني في جلفار ويدمره

(٤) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٣٨٠ . وكذلك ابن رزيق - المصدر نفسه - ص ٢٨٥ .

فتوجه اليه يوم ٢٩/ نيسان ، واستمرت المعركة بين الطرفين إلى اليوم الثاني ، إلا أن الاسطول العُماني تمكن من التملص من المعركة والوصول سالماً إلى مسقط^(٥) .

وعلى كل حال ، فإن أخبار المعارك التي حدثت بين العُمانيين والبرتغاليين بعد تحرير مسقط ، ذكرها المؤرخون العُمانيون بشكل غير مفصل ، ويمكن استخلاص بعضها من المراسلات والمكاتبات التي أرسلها ملوك عُمان للملوك اليمن ، كما وجدنا بعض أخبارها في صفحات التقارير الهولندية . وهي على العموم معارك باسلة ، يبدو فيها بوضوح كيف تحولت عُمان من دولة يعيش فيها البرتغاليون ويقومون بجذع أنوف وأذان أبنائها ، إلى دولة عسكرية تملك أساطيل بحرية قوية انتقلت من البرتغاليين وأرعبت أساطيلهم واستطاعت أن تهزمهم وتهزم حلفاءهم ومن يتعاون معهم ، فسبحان مغير الأحوال .

ومن المفيد أن نختم هذا الفصل بالقول إن هذه الدولة العربية العُمانية العربية بدأت بالاضمحلال والضمور بعد وفاة الإمام سلطان بن سيف الثاني في جمادي الآخرة سنة ١١٣١هـ المصادف لآخر عام ١٧١٨م ، إذ بموته دخلت عُمان في مشاكل سياسية وحروب أهلية مدمرة ، وكان السبب في اختلاف أهلها هو أن ولي عهده المسمى سيف بن سلطان الثاني كان صبيّاً دون العاشرة من عمره ولم يكن له إخوة أكبر منه سناً ، فاختلف القضاة والولاة والعلماء في أمر من سيسوس الأمة ، وظهر له منافسون نافسوه على العرش ، فسقط من كرسي العرش خمس مرات ودفعه طموحه حينما بلغ مبلغ الرجال أن يغامر بالسياسة فجر النكبات إلى البلاد وعرضها للمخاطر وسمح بدخول قوات أجنبية فارسية إلى عُمان لغرض المحافظة عليه من خطر الانقلابات المتتالية ومن تأمر كل الفئات ضده ، إلا أن القوات الفارسية التي أتت إلى عُمان لتثبت عرشه ما لبثت أن قلبت له ظهر المجن وأعلنت أنها في عُمان لغرض ضمها إلى مملكة فارس .

(٥) D'ANVERS - المصدر نفسه - ص ٣٨٥ . وكذلك السلي - المصدر نفسه - ص ٩٢ .

وتتحدث المصادر الهولندية عن حالة الضعف والتفكك التي آلت اليها عُمان آنذاك ، وتقول إنها فقدت معنوياتها وقابلياتها على القتال ، كما أن مسقط لم تعد مركزاً تجارياً .

أما المصادر البرتغالية فتذكر أن هذا الإمام طلب معاونتهم ضد الفرس فتقول :
« إن وفاة إمام عُمان ، أعقبتها ظهور حوادث عنف شديدة في مسقط ، حيث خلفه على العرش (ابن أخيه) الذي أرسل وفداً ليفاوض البرتغاليين بشأن عقد صلح معهم ، إلا أنه غير رأيه عندما تأكد أن الفرس لا ينوون احتلال مسقط ، لكن هذه الحادثة كانت بداية لسلام مع العرب ، حيث إن الأسطول البرتغالي الحربي الموجود في فارس قد تم سحبه إلى (كوا) إذ لم يعد لوجوده فائدة هناك ، وكان ذلك في حوالي عام ١٧٢٠م لذلك فقد أصدر نائب الملك البرتغالي أمراً بوضع الخطط المناسبة لاستعادة (مباسه) من يد العُمانيين ، كما أمر بإعادة بناء كنيسة (سانت لوشيا) التي دمرها العُمانيون في (ديو) وكذلك الكنيسة التي دمرها في مدينة (باسين) ، وفي هذه السنة أيضاً ساد الهدوء والاطمئنان جميع أهالي (ديو) وازدهرت التجارة في المنطقة . »

وكانت نهاية هذا الإمام أنه تنازل عن العرش عام ١٧٤٤م ، وانتهت بتنازله الدولة اليعربية في عُمان لتقوم مقامها دولة البوسعيد القائمة إلى يومنا هذا ، كما انتهت أيضاً القصة السياسية للعرب والبرتغال في التاريخ .

الفصل التاسع والثلاثون

الخاتمة

تلك كانت قصة العرب والبرتغال في التاريخ ، وهي كما بيناها ، قصة عمرها ألف عام ، ابتدأت في سنة ٧١١م وانتهت في سنة ١٧٢٠م ، وقد شهدت تلك الأعوام أحداثاً خطيرة في تاريخ الأمتين ، فكما بدا في صفحات هذا الكتاب أن دولة البرتغال تأسست رسمياً في عام ١١٤٨م ، عندما تمكن البرتغاليون بمساعدة الجيوش الأوربية الصليبية من إخراج العرب من لشبونة ، كما أن بداية سقوط البرتغال من عليها في المسرح السياسي كأول دولة فتحت باب الاستعمار الحديث في العالم ، قد تم على يد العرب عام ١٥٧٨م .

وهي قصة عامرة بالدروس والعبر ، تبين بوضوح قصة الصراعات المختلفة ودوافعها بين البشر ، فهي صراعات دينية وسياسية واقتصادية وأخرى مختلفة ، وكيف تدفع تلك الصراعات والأطماع والطموحات بالبشر ، وتحركهم في طاقة هائلة . حسب سُنَّة الخالق بخلقه ، فتقوم أمم وتهلك أخرى ، وترتفع شعوب وتهبط غيرها ، وهكذا تتداول الأيام بين الناس .

ففي قصة أيام العرب في البرتغال والتي استمرت حوالي خمسمائة عام ، كانت بدايتها امتداداً واستمراراً لقصة تفوق العرب على الغرب ، والذي برز بالدفع الإسلامي الذي أوصل العرب إلى الأندلس الاسبانية والغرب البرتغالية ، فدخلوا تلك

الديار ومشعل العلم في أياديهم وأثارهم الموجودة إلى الآن هناك خير شاهد على أنهم قدموا للعالم الكثير من العلوم الإنسانية وساعدوا على غزو الحضارات هناك ، ولم يحاولوا إرغام أحد من الناس على اعتناق الإسلام أو التعرب ، بل إن طبيعة الظروف والأحداث أدت إلى تعريب تلك البلاد ، فلا يرجع انتصار العرب إلى التفوق العسكري المادي فحسب ، ولكن إلى نوع البناء العسكري للفرد المقاتل والذي كان يقوم على العقيدة الإسلامية الراسخة .

إلا أن تغير الطابع العربي العام في الأندلس ، من طابع التقشف والإيمان إلى طابع الرخاء والرفاهية والانغماس في وسائل الترف ، أدى إلى فساد الأخلاق وتغيير المعايير الاجتماعية وارتباك الميزان الاقتصادي خاصة حين استفحل الأمر بسقوط الخلافة الأموية في قرطبة ، فامتدت نزعة الانفصال والاستقلال إلى الحكام العرب هناك ، فأسسوا دويلات صغيرة مبعثرة هنا وهناك ، وصار همُّهم أن يتلقبوا بالقباب التعظيم ، وصعد إلى دست الحكم بعض الرؤساء من غير ذوي الأهلية الذين لم يصلوا إلى عروشهم إلا بدفع من عصبية مؤيدة أو حظٍ مقتدر .

وكان من سوء تدبير العرب وانعدام الحنكة السياسية عندهم ، أن فترة التفرق والتجزئة هذه ، عاصرت فترة تنبه وتوثب وحسن تدبير وتنظيم خصومهم ، فاهتزت الأندلس لسقوط (قرطبة) واهتز الغرب لسقوط (لشبونة) ، ثم ابتدأت مرحلة التهافت ولم تنجح المحاولات التي قامت بها الدول والحكومات المغربية المختلفة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه فضاعت الأندلس الإسبانية وضاع الغرب البرتغالي .

ثم وقعت فترة التحول الكبرى في العالم العربي والإسلامي بسقوط الخلافة العباسية ، ففقد العرب اسمهم ، وتحولوا من حاكمين إلى محكومين ومن سادة إلى رعايا ، ليس للمغول فقط ، ولكن حتى للشعوب المسلمة التي اتخذت من الإسلام طريقة لحكم العرب .

ثم جاءت الطامة الأخرى بالحروب الصليبية التي شنتها أوروبا على العرب والمسلمين طيلة مائتي عام ، حيث لم تكن هذه الحروب دينية فقط حسب أهدافها المعلنة ، إنما كانت اقتصادية أيضاً في دوافعها لتحويل الربح الذي تنتجه البلاد العربية إلى رجال الاقطاع الأوربيين ، وهم أي الأوربيون حتى بعد هزيمتهم ، قد أدرك سياسيوهم واقتصاديوهم سر الثراء العربي من حيث اعتماد الدول العربية والإسلامية على تجارة الهند ، لذا فقد راحوا يضعون الخطط لانتزاعها منهم ، فكان الاستعمار البرتغالي الذي كان باكورة الاستعمار في العصر الحديث والذي قام نتيجة لتحضيرات واستعدادات طويلة وخطط متقنة باحتكار تجارة الشرق واحتكار السيطرة الاقتصادية في العالم ، ثم التبشير بالمسيحية .

إن الفترة التي واكبت الغزو البرتغالي للدول العربية والإسلامية ، كانت فترة انتقال بالغة الأهمية بالنسبة للقوى العربية والإسلامية التي تصدرت الزعامة فيه ، فقد تعاقبت دول مختلفة في المغرب العربي ، وسقطت دول أخرى في المشرق العربي إلى أن ظهرت الدولة العثمانية التي انتزعت الخلافة بصورة رسمية من يد العرب وأعلنت نفسها حامية لحمى المسلمين في العالم وظهرت معها الدولة الصفوية في إيران ، وكانت دولة المماليك تحكم مصر وسوريا والحجاز ، وقد أدى ظهور تلك القوى الإسلامية إلى انحسار تام تقريباً للأجهزة العربية الحاكمة .

صحيح أن قصة الصراع العربي - البرتغالي قد غلفها في جميع مظاهرها الطابع الديني ، أي عنصر الصدام بين المسلمين والأوربيين ، إلا أن انشغال القوى الإسلامية في صراعات مذهبية أو توسعية أضعف تماسكها ، فقد قامت الحروب بين الدول الإسلامية الثلاث المماليك والعثمانيين والفرس ، وكانت حروباً متعددة الأوجه بحيث يستحيل القول الفصل بخصوصيتها وأبعادها ، فهي صراعات شخصية وقومية ذات أبعاد اجتماعية أو اقتصادية أو مذهبية متداخله مع أبعادها السياسية ، فكان التفكك السياسي الذي عانت منه تلك القوى في المشرق عاملاً رئيسياً ساعد البرتغاليين على

توطيد أقدامهم هناك .

وقد برز ذلك الأمر جلياً في أوجه تعامل حكام فارس مع الغزو البرتغالي ، فالكثير من مائة عام لم يتعامل هؤلاء الحكام بحسن نية مع العرب ، بل إنهم شكلوا حلقاً مع البرتغاليين ضد عرب الخليج والدولة العثمانية ، كما أن الدولة العثمانية لم تقدر على وضع أسس للتعاون الاقليمي في مواجهة البرتغاليين ، بل إن سياسة القسوة وشدة البطش التي عُرف بها الأتراك والاعتماد على لغة الدم كقاعدة بدلاً من الحوار السياسي ، دفعت ببعض القادة العرب إلى أن يكونوا في وضع أُجبروا فيه على عقد صلح مع البرتغاليين ، للوقوف أمام التهورات السياسية العثمانية .

وعلى العكس كانت قصة صراع القوى الإسلامية الهندية ضد البرتغاليين ، فالحق يقال إن الملوك والأمراء الهنود المسلمين لم يهدأ لهم بال ولم يغمدوا سيوفهم لمدة المائة عام الأولى من حكم البرتغاليين للهند ، فكانت أسرة عادل شاه قد تعاقبت حفيداً عن حفيد لقتال البرتغاليين إلى أن وهنت قواها .

لذلك فإن قصة العرب والبرتغال في التاريخ عامرة بالدروس والعبر ، وقد أوضحت أمراً مهماً ألا وهو الأهمية الاستراتيجية للأمة العربية وحقيقة الدور الذي لعبه القادة العرب في تلك الحقبة . إذ بدا جلياً أن السيوف العربية المغربية هي وحدها التي تمكنت من القضاء على البرتغاليين في المغرب ، كما أن السيوف العربية العُمانية تمكنت وحدها من القضاء على البرتغاليين في عُمان والخليج العربي .

لقد حقق البرتغاليون خلال العقدين الأولين من القرن السادس عشر إنجازات سياسية وعسكرية كبيرة ، فاحتفظوا بامبراطورية واسعة رغم صغر حجمهم الجغرافي وقلة عدد نفوسهم ومواردهم الاقتصادية ، إلا أن استراتيجيتهم العسكرية كانت صائبة وقد قامت على حسابات تكتيكية دقيقة بحسن اختيارهم للمواقع ذات التأثير الفعال في السيطرة على طرق المواصلات البحرية وتشبيد القواعد البحرية والقلاع الضخمة

التي توفر لجنودهم الحماية الكافية ، بل توفر لهم نقاط انطلاق ووثوب قتالية ممتازة .
إلا أنه وقبل أن تتمكن السيوف العربية المغربية من تحطيم الجزء الأكبر من الهيكل
الأمبراطوري البرتغالي ، فإن عوامل الضعف والانحلال بدأت تدب إلى جسم ذلك
الهيكل .

فالبرتغاليون عانوا منذ البداية من قلة عددهم ، وبمرور الزمن ولكثرة التوسعات
والفتوحات الاستعمارية وما تحتاجه امبراطوريتهم الممتدة من البرازيل في أمريكا إلى
الصين في آسيا ، فإنه لم يعد معقولاً أن تستمر الدولة بتلبية كل الاحتياجات لتلك
الامبراطورية الممتدة الأطراف ، فكان لذلك القصور نتائج خطيرة ، فهم علاوة على
قلة عددهم ، فإنهم وبعد أن أكملوا فتوحاتهم ارتخوا واستراحوا في مستعمراتهم
فظهر جيل منهم تنقصه الكثير من شجاعة الآباء الأوائل وإقدامهم .

وقد بدا واضحاً من خلال صفحات هذا الكتاب كيف كان الفساد مستشرياً عند
طبقة الحكام الذين ترسلهم لشبونة إلى مستعمراتها في الشرق فقد كان جل همهم هو
نهب ما يمكن نهبه وحشو جيوبهم بسرعة ، لذلك لم يتمكنوا من القضاء على التجارة
العربية الإسلامية بصورة تامة رغم وسائل العنف والقهر التي اتبعوها ، فتعرضت
الأمبراطورية إلى ضغوط مالية أفسدت الكثير من أجهزتها الإدارية ، وانعكس ذلك
على ممارساتهم السياسية والعسكرية ، وتعصبهم الديني وفقدانهم المرونة ، فقد كانت
معاربة المسلمين وتحطيم تجارتهم وتدنيس مقدساتهم هدفاً رئيسياً من أهدافهم ،
لذلك فلا عجب أن أثار ذلك حقد المسلمين وخاصة العرب الذين لم يستطع
البرتغاليون أن يتركوا أثراً حسناً لديهم ، وتمثل الغرور العسكري البرتغالي الممزوج
بالتعصب الديني والمحاط بإطار الدافع الاقتصادي بحملة الملك سيباستيان التي انتهت
بكارثة عام ١٥٧٨ م .

لقد كانت تلك الكارثة التي حلت بالبرتغال ، ذات شقين ، الأول : أنها وضعت
البرتغال تحت الحماية الاسبانية فتخلخلت بذلك قيم الشعب البرتغالي المعنوية ،

والثاني : تنبيه القوى الأوربية الأخرى مثل الهولنديين والانجليز إلى أهمية المستعمرات البرتغالية ومناطق نفوذهم ومصادر ثروتهم . فلم تمنع الأخوة المسيحية ووحدة الدين من عدم الصدام بين تلك الدول في سبيل مصالحها الاقتصادية وأطماعها ، فراحت بريطانيا تضع الخطط لتحطيم اسبانيا والبرتغال عسكرياً وسياسياً ، ومن ثم إخضاع ممتلكاتهم لنفوذ التاج البريطاني وبأسلوب التدرج المبني على الخنكة السياسية وبعد النظر ، فحدث ما حدث من تحالف بين الشاه عباس الصفوي والملكة اليزابث ، وما أدى ذلك التحالف إلى توجيه ضربة قاصمة للبرتغاليين وإنهائهم في فارس .

إلا أنه إذا تمكن الشاه من القضاء على البرتغاليين في بلاده مستعيناً بالسيوف الإنجليزية فإن البرتغاليين كثفوا وجودهم في الجانب العربي من ساحل الخليج ، ولم ينتهوا هناك إلا بالسيوف العربية العُمانية للدولة اليعربية .

كما أن تخبط الشاه عباس الصفوي بمغامراته السياسية وكثرة طموحاته أدت به إلى أن يقع في فخ السياسة الإنجليزية ، فيفتح الباب على مصراعيه لاستعمار جديد في المنطقة جثم على صدور العرب أكثر من غيرهم ، وهو الاستعمار البريطاني في الخليج والذي لم ينته إلا في عهدنا هذا .

وأخيراً ، فإن ما بقي لدينا أن نقوله ، هو : ماذا آل الأمر بالبرتغاليين بعد أن انتهت قصتهم مع العرب . . ؟

لقد بقوا بشكل مترجرج في مستعمراتهم في الهند وشرقي أفريقيا ، وابتدأ نفوذهم بالانحسار في الهند منذ أن تنازلوا عن مدينة بومباي إلى الإنجليز ، وبقوا يجابهون هناك ثورات المسلمين الدائمة ضدهم ، فالحق يقال إن الملوك والحكام المسلمين الهنود لم يهدأ لهم أوار ولم يغمدوا سيوفهم أبداً في مجابهة البرتغاليين ، وإن تاريخ العلاقات الهندية - البرتغالية يعج بأخبار حروب الهنود المسلمين ضد البرتغاليين ، ولو وسعني المجال على صفحات هذا الكتاب لكتبتها مع الشرح الوافي لها .

وقد أعاد البرتغاليون تنظيم أنفسهم بعد أن زاحمهم الإنجليز والهولنديون

والفرنسيون وغيرهم من أمم الاستعمار الغربي لأفريقيا والشرق فشكلوا وزارة للمستعمرات لتدبير أملاكهم ومستعمراتهم خاصة في الموزمبيق وأنجولا وغينيا بيساو ، وكان حكام تلك المقاطعات تابعين لنائب الملك في الهند ، وعليهم أن يرفعوا إليه التقارير السياسية ، وأطلقت وزارة المستعمرات اسم (البرتغال فيما وراء البحار) على تلك المستعمرات ، وراحت تشجع البرتغاليين على الهجرة إليها واستغلال خيراتها ، كما تم إنشاء معهد باسم (معهد دراسات ما وراء البحار) ، ثم صار اسم وزارة ما وراء البحار يطلق أيضاً على وزارة المستعمرات البرتغالية ، حيث أصدرت هذه الوزارة عام ١٩٣٣م قانوناً اعتبرت فيه جميع الأراضي الخاضعة للبرتغال جزءاً لا يتجزأ من أرض البرتغال .

إلا أن أعوام ما بعد عام ١٩٤٨م ، شهدت في المستعمرات البرتغالية في أفريقيا حركات تهدف إلى الاستقلال ، فنشطت في الموزمبيق حركة الاتحاد الوطني ، انضم إليها بعض البرتغاليين الذين شعروا بضرورة تغيير الأوضاع في المستعمرات حتى لا يؤدي الموقف إلى انفجار ، ثم تشكلت جبهة تحرير الموزمبيق التي أعلنت الكفاح المسلح عام ١٩٦٤م .

وعندما نالت الهند استقلالها التام من بريطانيا عام ١٩٤٧م دخلت في مفاوضات مع البرتغاليين للخروج من (گوا) وإعادتها إلى الوطن الأم ، إلا أن البرتغاليين ماطلوا في مفاوضاتهم فلم يبق أمام نهرولا طريق استخدام القوة المسلحة فتمكن في عملية عسكرية خاطفة عام ١٩٦١م من طردهم بصورة نهائية من (گوا) ومن أرض الهند .

أما المستعمرات الأفريقية فقد نالت كلها استقلالها عام ١٩٧٤م ، وبذلك انتهت قصة الاستعمار البرتغالي في العالم كله .

- انتهى الكتاب -

مراجع الكتاب

المصادر العربية

- ابن بسام - مقتطفات من كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - المختار من التراث العربي - منشورات وزارة الثقافة والإرشاد - دمشق ١٩٧٨ .
- ابن سماك العاملي - الزهرات المنثورة في نكت الأخبار الماثورة - المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ١٩٨٤ .
- ابن كردبوس - تاريخ الأندلس - تحقيق الدكتور أحمد مختار عبادي - معهد الدراسات الإسلامية بمرسيد ١٩٧١ .
- ابن دراج القسطلي - ديوان شعر حققه د. محمود علي مكي .
- ابن المجاور - صفة بلاد اليمن - مطبعة مدينة ليدن - هولندا ١٩٥١ .
- ابن إياس ، أبو البركات محمد بن أحمد الحنفي - بدائع الزهور في وقائع الزهور - القاهرة ١٣١٢ هـ .
- ابن المظهر عيسى بن لطف الله - مخطوطة روح الروح - كما وردت في كتاب البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية للسيطرة عليه للدكتور محمد عبدالعال أحمد .
- أبو محمد عبدالله بن حميد بن سلوم السالمي - تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان - مطبعة الإمام - القاهرة .
- د. إبراهيم علي الطرخان - امبراطورية البورنو الإسلامية - الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٥ .
- د. إبراهيم علي الطرخان - امبراطورية غانا الإسلامية - الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٠ .
- د. إبراهيم علي الطرخان - دولة مالي الإسلامية - الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٣ .
- د. إبراهيم شحاته حسن - واقعة وادي المخازن في تاريخ المغرب - دار الثقافة - الدار البيضاء ١٩٧٩ .
- أحمد بن ماجد - كتاب الفوائد في أصول البحر والقواعد - تحقيق إبراهيم خوري وعزة حسن .

أحمد فضل بن علي محسن العبدلي - هدية الزمن في أحياء ملوك لحج وعدن - دار العودة - بيروت ١٩٨٠ .

أحمد برخت ماح - وثائق عن الصومال - الحبشة - اريتيريا - القاهرة ١٩٨٣ .

د. أحمد أبو شرب - مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الأحمر والخليج العربي - مجلة الوثيقة - مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين - العدد العاشر - ١٩٨٧ .

أحمد العناني - البرتغاليون في البحرين وحولها - مجلة الوثيقة - العدد الثاني - ١٩٨٣ .

آدم عبدالله الآلوري - موجز تاريخ نيجيريا - دار الحياة - بيروت .

آرنست باركر - الحروب الصليبية - دار النهضة العربية - بيروت ١٩٦٧ .

أرنولد ولسون - الخليج العربي - مكتبة الأمل - السالمية - الكويت

أمين توفيق الطيبي - دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس - الدار العربية للكتاب - ليبيا ١٩٨٤ .

أنور عبدالعليم - ابن ماجد الملاح - سلسلة اعلام العرب - العدد ٦٣ .

اورهنتلو - بروفسوري. أورهنلو - تقرير حول الحملة العثمانية على البحرين - مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية - العدد ٢٤ .

ب. ج. روجرز - تاريخ العلاقات الإنجليزية المغربية حتى عام ١٩٠٠ - ترجمة الدكتور يونان لبيب رزق - الدار البيضاء ١٩٨١ .

د. بدیع محمد جمعه - الشاه عباس الكبير - دار النهضة العربية - بيروت ١٩٨٠ .

يشير حمود كاظم - حركة الكشوف البرتغالية وأهدافها - أبحاث ندوة رأس الخيمة - ١٩٨٧ .

بسام العسلي - القانوني القائد - سيرة سليمان القانوني - دار النفائس - بيروت ١٩٨٦ .

تاريخ العصر الحديث - وزارة التربية الوطنية - المملكة المغربية .

جمال زكريا قاسم - الأوضاع السياسية في الخليج العربي إبان الغزو البرتغالي - أبحاث ندوة رأس الخيمة - ١٩٨٧ .

جلال الدين أبو الفضل عبدالرحمن السيوطي - نظم العقيان في أعيان الأعيان - المطبعة السورية الأمريكية في نيويورك ١٩٢٧ .

حامد ربيع - النظام الدولي الاقليمي في منطقة الخليج العربي خلال فترة الاستعمار البرتغالي - أبحاث ندوة رأس الخيمة - ١٩٨٧ .

د. حسين علي الداقوقي - تقرير حول الحملة العثمانية على البحرين سنة ١٥٥٩ وهو ترجمة مقال البروفسور أور هو نلو - مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية - العدد ٢٤ .

د. حسن إبراهيم حسن - تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - دار إحياء التراث العربي - بيروت ١٩٦٤ .

حمد بن محمد بن رزيق - الفتح المبين في سيرة السادة البو سعيديين - وزارة التراث القومي - سلطنة عُمان - ١٩٧٧ .

حمزه علي لقمان - معارك حاسمه من تاريخ اليمن - مركز الدراسات اليمنية - ١٩٧٨ .

د. رجب حراز - اريتريا الحديثة - معهد البحوث والدراسات العربية - جامعة الدول العربية - ١٩٧٤ .

روجي لوتورنو - حركة الموحدين في المغرب - ترجمة الدكتور أمين الطيبي - ليبيا ١٩٧٨ .
زين الدين ، الفقيه الشيخ زين الدين - تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين - وهو كتاب يقع ضمن صفحات كتاب برتغالي بعنوان :

HISTORIA DOS PORTUGUESE NO MALABAR

س. بكنجهام - بعض الملاحظات عن البرتغاليين في عُمان - حصاد ندوة الدراسات العُمانية - مسقط ١٩٨٠ .

س. بوكستر - ملاحظات جديدة عن الصلات بين العُمانيين والبرتغاليين من ١٦١٣-١٦٣٣ - حصاد ندوة الدراسات العُمانية - مسقط ١٩٨٠ .

سبنسر ترمينجهام - الإسلام في شرق أفريقيا - ترجمة محمد عاطف النواوي - مكتبة الانجلو مصرية ١٩٧٣ .

د. سعدون عباس نصر الله - دولة المرابطين في المغرب والاندلس - دار النهضة العربية - بيروت ١٩٨٥ .

د. سعاد ماهر - البحرية في مصر الإسلامية - دار الكاتب العربي للطباعة والنشر - القاهرة - ١٩٦٧.

سلوت بي. جي - عرب الخليج - المجمع الثقافي - أبوظبي.

د. سهيل زكار - مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية - دار الفكر - دمشق ١٩٧٢.

الشاطر بصيلي عبدالجليل - تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٢.

شوقي عطا الله الجمل - الصراع العربي البرتغالي في المحيط الهندي - أبحاث ندوة رأس الخيمة - ١٩٨٧.

د. صالح محمد العابد - الصراع العُماني البرتغالي خلال القرن الرابع عشر - مجلة الوثيقة - العدد ١٣ - ١٩٨٨.

د. صالح أوزبران - الأتراك العثمانيون والبرتغاليون - منشورات مركز دراسات الخليج العربي - جامعة البصرة.

د. صادق ياسين الطو - الغزو البرتغالي للخليج العربي من خلال المصادر الفرنسية - أبحاث ندوة رأس الخيمة ١٩٨٧.

صلاح البكري - تاريخ حضرموت السياسي - القاهرة ١٩٥٦.

د. صلاح العقاد - عُمان في مواجهة البرتغال - حصاد ندوة الدراسات العُمانية - مسقط ١٩٨٠.
صفحات من تاريخ النفوذ البرتغالي في البحرين - مجلة الوثيقة - مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين - العدد الأول - ١٩٨٢.

د. طارق نافع الحمداني - الرحالة البرتغاليون في الخليج العربي - أبحاث ندوة رأس الخيمة - ١٩٨٧.

د. طارق نافع الحمداني - دراسة في الوثائق والمصادر المنشورة عن الغزو البرتغالي.

عادل سعيد بشتاوي - الأندلسيون المواركة - القاهرة ١٩٨٣.

عبدالرحمن علي الحجي - التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة - دار الاعتصام - بيروت ١٩٧٦.

عبدالله بن خلفان بن قيصر - سيرة الإمام ناصر بن مرشد - تحقيق عبدالمجيد القيسي - وزارة

التراث القومي - سلطنة عُمان .

د. عبدالعزيز سالم - المغرب الكبير - القاهرة ١٩٦٦ .

د. عبدالعزيز سالم - تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس - دار النهضة العربية - بيروت ١٩٨١ .

عبدالرحمن علي الديبع - الفضل المزيدي على بغية المستفيد في اخبار مدينة زبيد، تحقيق الدكتور يوسف شلحد - مركز الدراسات والبحوث اليمني - صنعاء ١٩٨٣ .

د. عبدالهادي التازي - ابن ماجد والبرتغال .

د. عبدالهادي التازي - الموجز في تاريخ العلاقات الدولية للمملكة المغربية .

د. عبدالكريم كريم - المغرب على عهد الدولة السعدية - الرباط ١٩٧٨ .

د. عبدالأمير أمين - نظرة جديدة للإنجازات السياسية والعسكرية والتجارية البرتغالية في آسيا - مجلة الوثيقة - العدد ١٣ - ١٩٨٨ .

عبدالرزاق علي عثمان - البرتغاليون في شرق أفريقيا وطردهم منها - مجلة الوثيقة - العدد ١٤ - ١٩٨٩ .

د. عبدالوهاب القيسي - المجابهة البرتغالية العثمانية في المياه العربية - أبحاث ندوة رأس الخيمة - ١٩٨٧ .

العرب وأفريقيا - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت ١٩٨٤ .

د. عماد أحمد الجواهري - الدور التاريخي للبصرة على الخليج العربي - ١٥٠٠ - ١٦٠٠ - مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية - العدد ١٣ .

د. عماد أحمد الجواهري - العراق والتوسع الصفوي - ١٥٠٢ - ١٥٣٠ - مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية - العدد ٢٠ .

علي إبراهيم حسن - تاريخ الممالك - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة .

د. علي أبا حسين - بنو جابر ينطلقون من نجد لتأسيس إحدى الدول الكبيرة بالبحرين - مجلة الوثيقة - العدد الثالث - ١٩٨٣ .

علي أحمد الزبيدي - أصداء الغزو البرتغالي في أدب الخليج - مجلة الوثيقة - العدد ١٤ - ١٩٨٩ .

- د. عليه عبدالسميع الجنزوري - إمارة الرها الصليبية - القاهرة ١٩٧٥ .
- غانم الرميض - معركة تحرير مسقط - أبحاث ندوة رأس الخيمة - ١٩٨٧ .
- د. فاروق عثمان أباطة - الحكم العثماني في اليمن - دار العودة - بيروت ١٩٧٩ .
- د. فوزية العطية - الأوضاع الاجتماعية في الخليج العربي أبان الغزو البرتغالي - أبحاث ندوة رأس الخيمة - ١٩٨٧ .
- فيليب حتى وأدور جبور وجبرائيل جبور - تاريخ العرب - دار الكشف ١٩٤٩ .
- قطب الدين النهر والي - البرق اليماني في الفتح العثماني - دار اليمامة - الرياض .
- كارل بروكلمان - تاريخ الشعوب الإسلامية - دار العلم للملايين .
- لوريمر ، ج. ح. - لوريمر - دليل الخليج - القسم التاريخي - مكتب صاحب السمو أمير قطر .
- ليفي بروفنسال - حضارة العرب في الاندلس - ترجمة ذوقان قرقوط - دار الحياة - بيروت .
- محمد بن أحمد المقدسي - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم .
- محمد عبدالعال أحمد - البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية للسيطرة عليه . وفي الكتاب تحقيق لمخطوطة (قلادة النحر) للمؤرخ اليماني بامخرمة ومقارنة بمخطوطة (النور السافر في أخبار القرن العاشر) للعيدروسي وغيرها من المخطوطات اليمانية المهمة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٠ .
- د. محمد مظفر الأدهمي - دراسات في التاريخ الأوربي الحديث - الرباط ١٩٨٤ .
- محمد مرسي أبو الليل - الهند تاريخها وتقاليدها - القاهرة ١٩٦٤ م .
- محمد فريد وجدي المحامي - تاريخ الدولة العلية العثمانية - دار النفائس - بيروت ١٩٨١ .
- محمد عبداللطيف البجراوي - فتح العثمانيين لعدن - مكتبة دار التراث - القاهرة .
- د. مصطفى السيد سالم - الفتح العثماني الأول لليمن - معهد البحوث والدراسات العربية - جامعة الدول العربية .
- محمد عيسى صالحية - التدخل العثماني في اليمن - مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية - العدد ٢٤ .
- محمد عارف الكيالي - الأسس الاقتصادية للاستعمار البرتغالي في الخليج العربي - مجلة

الوثيقة - العدد ١٤ - ١٩٨٩ .

محمود ياسين أحمد التكريتي - الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة - العراق ١٩٨١ .

مصطفى عقيل الخطيب - التنافس الدولي في الخليج العربي - بيروت ١٩٨١ .

د. نعيم زكي فهمي - طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٣ .

نوال حمزة الصيرفي - النفوذ البرتغالي في الخليج العربي - دار الملك عبدالعزيز - الرياض ١٩٨٣ .

نوار عبدالوهاب القيسي - الخليج العربي ، الأهمية الاستراتيجية وملامح السياسة البرتغالية - مجلة الوثيقة - العدد ١٤ .

نونو بي سلفا - صفحات عن الغزو البرتغالي للبحرين - مجلة الوثيقة - العدد ٨ - ١٩٨٦ .

ياقوت الحموي - معجم البلدان - دار الكتاب العربي - بيروت .

يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد علي - غاية الأمان في أخبار القطر اليماني - تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور - جامعة القاهرة .

يونس نكروف - معركة وادي المخازن - منشورات عويدات - باريس .

د. يوسف بن علي الثقفي - موقف الممالك ودول الخليج من الاستعمار البرتغالي - أبحاث ندوة رأس الخيمة ١٩٨٧ .

هيفاء عبدالعزيز كريم - التنافس والصراع بين البرتغاليين والتحالف الإنجليزي الهولندي في الخليج العربي - أبحاث ندوة رأس الخيمة ١٩٨٧ .

المصادر الانجليزية

1) THE PORTUGUESE IN INDIA - FREDERIC CHARLES DANVER.

وهو كتاب يقع في جزئين وتبلغ عدد صفحاته حوالي الألف ، وقد تم طبعه مرتين ، المرة الأولى في عام ١٨٩٤م والثانية في عام ١٩٦٦م ، وأهمية هذا الكتاب أنه اعتمد على أربعين مصدراً برتغالياً مهماً ، فكتب قصة البرتغال منذ البداية إلى حوالي عام ١٨٩٠م ، ولعل أهم مصادر هذا الكتاب هي الكتب البرتغالية التالية :

A) LENDAS DA INDIA - GASPAR CORREA .

B) HISTORIA DO DESCOBRIMENTO E CONQUEST DA INDIA - FERNAO LOPEZ DE CASTANHEDA .

C) DA ASIA POR JOAO BARROS E DIOGO DE COUTO .

D) DECADA XIII DA HISTORIA DA INDIA ANTONIO BOCARRO .

E) ASIA PORTUGUESE - M. DE FARIA - Y - SOUSA .

F) RECORDS OF PORTUGUESE GOVERNMENT .

2) THE HISTORY OF THE DISCOVERY AND CONQUEST OF INDIA BY THE PORTUGUES

ومؤلف الكتاب هو : MANUEL DE FARIA Y SOUSA

وقد ترجمه إلى الانجليزية CAP JOHN STEVES

مطبوع في لندن عام ١٦٩٥م

3) THE PORTUGUESE PIONEERS - EDGAR PRESTAGE - LONDON - 1933 .

4) FOUNDATIONS OF THE PORTUGUESE EMPIRE 1415 - 1580 . BAILEY. W. DIFFIE AND GEORGE. D WINIUS - OXFORD UNIVERSITY PRESS 1977 .

5) PORTUGAL AND THE QUEST FOR THE INDIES - CHRISTOPHER BELL - CONSTABLE - LONDON .

6) THE DISINTEGRATION OF PORTUGUESE POWER IN THE LUF - B. J. SLOT .

وهو جزء من كتاب أصدره البروفسور سلوت مدير الأرشيف التاريخي في هولندا بعنوان عرب الخليج وقد نشره المجمع الثقافي في أبوظبي .

7) IN THE LAND OF THE WHITE TOWER B. . SLOT .

وهو المؤلف نفسه، ويبحث باختصار عن الفترة الهولندية في الخليج العربي .

8) (a) TWO LETTERS FROM ALVARO DE NORONHA FROM HORMUZ .

(B) BHARAIN IN 1559 .

(C) SOME NOTES IN THE OTTOMAN EMPIRE AS ORGANISED IN ARABI.

المؤلفات الثلاثة اعلاه للبروفسور صالح أوزبران - جامعة استانبول .

9) THE PORTUGUES OFF THE SOUTH ARABIAN COAST - R. B. SERJEANT.

وهو كتاب باللغة الإنجليزية إلا أن المؤلف كتب مادته الأصلية معتمداً على ترجمة عدد من المخطوطات اليمانية التي بحثت في موضوع النشاطات البرتغالية في السواحل اليمانية مثل :

(١) تاريخ بافقيه للشحري .

(٢) تاريخ شنبال .

(٣) كتاب قلادة النحر لبامخرمه .

(٤) كتاب النور السافر .

(٥) كتاب السناء الباهر .

(٦) تاريخ الشحري .

وعدد آخر من المصادر ، وقد أضاف إليها المؤلف الكثير من الهوامش والتعليقات المهمة ، وقد

كتب نسخته في صنعاء عام ١٩٧٢ .

10) GOA. YESTERDAY - TODAY - TOMORROW A. D. FURTADO - COA. 1981 .

11) GOA - J.M. RICHARDS - INDIA - 1982 .

12) EAST AFRICA . H. BRITTAN AND PRIPLEM - LONDO - 1970 .

13) FORT JESUS - JAMES KIRKMAN .

14) PORTUGAL AND THE SEA BY. R. RAS - QUILHO AND J. BARROS LIS - BON . 1983 ..

15) PORTUGUESE CONQUEST AND COMMERCE IN SOUTHERN ASIA 1500 - 1750 BY. C. R. BOXEOR - LONDON 1985 .

المصادر البرتغالية

1) CONENTARIOS DE GRAND

AFONSO DE ALBUQUERQUE - BY, ANTONIO BAIÃO COIMBRA - 1922 .

2) DA ASIA - BY, JOÃO DE BARROS LISBOA - 1973 .

3) DA ASIA - BY, DIOGO DE COUTO LISBOA - 1973 .

4) AFONSO DE ALBUQUERQUE BY DR. JOSE FRANEIXCO DOS SANTOS .

5) SEIS FORTALEZAS FEITORIAS DA INDIA BY, JULIO GONCALVES LISBOA - 1942 .

6) ASIA PORTUGUESA - BY, MANUEL DE FARIA E SOUSA .

7) HISTORIA DOS PORTUGUESES NO MALABAR BY, DAVID LOPES - LISBOA - 1898 .

8) ASSENTOS DO GENSELHO DO ESTADO (1644 - 1658)

وهو كتاب يبحث في أيام البرتغال الأخيرة في شبه الجزيرة العربية .

9) HSTORYA CONCISA DE PORTUFAL DM JOSE HERMANO SARAIVO - 1983 .

10) ADESCORERTA DE PORTUGAL - LISBOA - 1984 .

11) DOCU MENTOS ARABICO .

وهو كتاب يحتوي على مجموعة الرسائل التي تبادلها الحكام العرب والفرس والافارقة مع ملوك البرتغال مطبوع في لشبونة عام ١٧٩٠ م .

12) VESTIGIOS DA LINCUA ARABICA EM PORTUGAL BY, JOÃO DE SOUSA .

وهو معجم فيما دخل إلى اللغة البرتغالية من مفردات عربية .

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	9
الفصل الأول :	17
طارق بن زياد يفتح الأندلس عام ٧١١ م موسى بن نصير يفتح البرتغال عام ٧١٤ م عبد العزيز بن موسى بن نصير يكمل فتح غرب الأندلس أي جنوب البرتغال ويمد نفوذ العرب هناك كاملاً	
الفصل الثاني :	25
بداية عهد الإمارة في الأندلس والبرتغال من عام ٧٥٥ م إلى عام ١٠٠٩ م عصيان العلاء بن المغيث في مدينة (باجه) البرتغالية هجوم النورمند (الفايكنك) الأول على لشبونة عام ٨٤٤ م هجوم النورمند (الفايكنك) الثاني على لشبونة عام ٨٥٩ م هجوم النورمند (الفايكنك) الثالث على لشبونة عام ٨٦١ م هجوم النورمند (الفايكنك) الرابع على لشبونة عام ٩٦١ م هجوم النورمند (الفايكنك) الخامس على لشبونة عام ٩٧١ م هجوم النورمند (الفايكنك) السادس على لشبونة عام ٩٧٢ م	
الفصل الثالث :	33
البرتغال في عهد الطوائف في الأندلس ١٠٠٩ م إلى ١٠٩١ م مملكة بطليوس البرتغالية الملك أبو محمد عمر بن الأفطس الملقب (المتوكل على الله) يحكم شمال البرتغال مملكة اشبيلية تحكم جنوب البرتغال	
الفصل الرابع :	39
نظرة على حكم اسبانيا المسيحية أيام حكم ملوك الطوائف	

الفهرس

رقم الصفحة

الموضوع

43

الفصل الخامس :

البرتغال في عهد دولة المرابطين في الأندلس ١٠٩٢-١١٣٤ م
معركة الزلاقة عام ١٠٨٦ م وهزيمة القوات الأسبانية بقيادة
القونس السادس
خلع ملوك الطوائف في الأندلس وإعدام ملك البرتغال العربي عمر
بن مظفر الأقطس (المتوكل على الله)
القائد المغربي الأمير سير بن ابي بكر يصبح حاكماً على البرتغال

49

الفصل السادس :

نظرة على أحوال المشرق الإسلامي
الحملة الصليبية الأولى وسقوط القدس عام ١٠٩٩ م
الحملة الصليبية الثانية تنتزع (لشبونة) من يد العرب عام
١١٤٧ م
قيام (دولة البرتغال) وظهورها على المسرح السياسي لأول مرة
في التاريخ بقيادة الملك هنري أوف بورغندي

57

الفصل السابع :

البرتغال في عهد دولة الموحدين في الأندلس
معركة (القرق) بين الملك البرتغالي والعرب وهزيمة العرب وشعار
الدولة البرتغالية لزال إلى يومنا يحمل خمس نقاط تمثل
رؤوس الملوك العرب الذين قتلوا في (القرق)
انقسام البرتغال إلى قسمين : الشمال تحت سيطرة البرتغالية
والجنوب تحت سيطرة العرب
مصرع الخليفة المغربي أبو يعقوب بن يوسف المؤمن في معركة
(شنترين) في البرتغال على يد القوات البرتغالية عام ١١٨٤ م
الملك سانجو الأول يعتلي عرش البرتغال عام ١١٨٥ م

الفهرس

رقم الصفحة

الموضوع

معرك (الأرك) عام ١١٩٤م بين العرب والاسبان
معركة (العقاب) عام ١٢١٣م وبداية النهاية للحكم العربي في
اسبانيا والبرتغال
سقوط دولة الموحدين في المغرب وقيام دولة بني مرين
الملك البرتغالي (دون دينيز) يعلي عرش البرتغال ويدحر العرب
تماماً من الأراضي البرتغالية عام ١٢٥٠م ونهاية أيام العرب
في البرتغال في الفترة التي سقطت فيها بغداد عام ١٢٥٨م بيد
المغول ونهاية الدولة العباسية

71

الفصل الثامن :

أثر الحضارة العربية والإسلامية في البرتغال

81

الفصل التاسع :

الأحوال السياسية في المغرب العربي في أيام دولة بني مرين
تعاضم قوة البرتغال وتعاقب الملوك والمستكشفين البحريين
لاكتشاف الطريق البحري إلى الهند
سقوط ميناء سبته المغربي بيد القوات البرتغالية

89

الفصل العاشر :

الأمير البرتغالي هنري الملاح ومحاولاته لاكتشاف الطريق البحري
المؤدي إلى الهند
حركة الاكتشافات البرتغالية للفترة من عام ١٤١٥م إلى وفاة
هنري الملاح عام ١٤٦٠م

95

الفصل الحادي عشر :

سقوط دولة بني مرين وقيام دولة بني وطاس في المغرب

علاقات متازمة بين المغرب والبرتغال
القوات البرتغالية تحتل مدن طنجة والقصر الصغير واصيلا
المغربية

103

الفصل الثاني عشر :

صعود الملك دون جوان الثاني عرش البرتغال
اسبانيا تحتل قاعدة (سانتا كروز) في جنوب المغرب
اكتشاف رأس الرجاء الصالح
جواسيس ومغامرون برتغاليون يصلون إلى البلاد العربية
والاسلامية
سقوط مدن (اسفي، وازمور، والعرائش) المغربية بيد القوات
البرتغالية
سقوط الحكم العربي في (غرناطة) عام ١٤٩٢م ونهاية العرب في
الأندلس بصورة عامة
الملك البرتغالي مانويل الأول يعتلي العرش
فاسكو دي غاما يصل إلى الهند - وقصة الدليل العربي أحمد بن
ماجد
اتفاقية (تورسيلاس) بين اسبانيا والبرتغال لاقتسام العالم

127

الفصل الثالث عشر :

حملات برتغالية جديدة إلى الشرق
حملة بيدرو فاريز عام ١٥٠٠م
حملة جواى نوفا عام ١٥٠١م
حملة فاسكو دي غاما الثانية عام ١٥٠٢م
الحملة العسكرية الأولى ١٥٠٣م
حملة لوبو سوريش عام ١٥٠٤م

137

الفصل الرابع عشر :

الأحوال السياسية في مصر والعلاقات المصرية مع حكومة

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
البندقية عام ١٥٠ م	
الأحوال السياسية في اليمن آنذاك	
الأحوال السياسية في المغرب والعلاقات المغربية البرتغالية ظهور	
الحركة السعدية	
اسبانيا تحتل ميناء (المرسى الكبير) الجزائر ومدينة (غصاصه)	
المغربية	
الفصل الخامس عشر :	147
حملة دون فرانسيسكو الميادا وعلان منصب نائب الملك البرتغالي	
في الهند	
الحملة المصرية الأولى إلى الهند بقيادة الأمير حسين الكردي لقتال	
البرتغاليين	
انتصار الحملة المصرية في معركة (شول) ومصرع القائد	
البرتغالي (لورنزو) ابن نائب الملك	
الفصل السادس عشر :	157
الأوضاع السياسية في اليمن قبل الحملة البرتغالية الكبرى ضد	
البلاد العربية	
الأوضاع السياسية في عُمان	
الأوضاع السياسية في إيران	
جزيرة سقطره	
الفصل السابع عشر :	167
تفاصيل الحملة البرتغالية الكبرى ضد البلاد العربية بقيادة	
أفونسو البوكيرك	
سقوط سقطره	
حرق سفن (كوريا موريا) العُمانية	

الفهرس

المرض	وع	رقم الصفحة
سقوط مدينة (قلهات) العُمانية		
سقوط مدينة (قريات) العُمانية		
استسلام مدينة (صحار) العُمانية		
سقوط مدينة (مسقط)		
سقوط مدينة (خورفكان)		
سقوط (هرمز) الفارسية		
القائد أفونسو البوكيرك يصل الهند ويصبح نائباً للملك في عام ١٥٠٩م		

197

الفصل الثامن عشر :

المغرب على عهد السلطان محمد بن محمد الشيخ الوطاسي
المعروف باسم (محمد البرتغالي)
معاهدة (سنترا) المعقودة عام ١٥٠٩م بين اسبانيا والبرتغال
لاقتسام سواحل المغرب العربي
تدهور الأوضاع السياسية في المغرب بشكل خطير - قيام نواة
الدولة السعدية في منطقة السوس في الجنوب - انقسام
المغرب إلى مملكتين هما : مملكة فاس في الشمال ومملكة
السوس في الجنوب
تدهور الاقتصاد المصري نتيجة لاحتكار البرتغال تجارة الهند
مصر تعد لحملة عسكرية ثانية لقتال البرتغاليين في الهند

209

الفصل التاسع عشر :

خروج الحملة المصرية الثانية
البحرية المصرية تهاجم مدينة (كوا) عاصمة البرتغال في الهند
القوة المصرية تقاتل البرتغاليين لمدة سنة في المياه الهندية
ومصرع (القائد دي منزيس)
انكسار القوة المصرية وهروب قائدها

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
البوكيرك يدخل (كوا) ويرتكب مجزرة هناك رسالة البوكيرك إلى ملك البرتغال في ٣٠/١٠/١٥١٢م البوكيرك يتهيا لحملة كبرى لاحتلال عدن والحجاز ومصر	
الفصل العشرون :	217
خطة جهنمية يضعها (البوكيرك) للسيطرة على العالم الإسلامي خروج الحملة البرتغالية الكبرى الثانية من الهند لقتال العرب بتاريخ ٨/٣/١٥١٣م الأمير مرجان الظافري حاكم عدن ينزل هزيمة بالقوات البرتغالية البوكيرك يتوجه نحو البحر الأحمر لتنفيذ خطته الأتمة بمهاجمة قبر الرسول الأعظم وظهور معجزة اللهب الناري في السماء (بيرودي البوكيرك) يصل إلى البحرين في رحلة استطلاعية الرسائل المتبادلة بين البوكيرك والشاه اسماعيل الصفوي وعلاقات برتغالية - فارسية البوكيرك يهلك في شهر ديسمبر ١٥١٥م وتعيين لوبو سوريز نائبا ملك البرتغال في الهند	
الفصل الحادي والعشرون :	245
القائد المصري الأمير حسين الكردي يعود إلى مصر ويستعد لحملة عسكرية ثالثة ضد القوات البرتغالية في الهند خروج الحملة المصرية الثالثة بتاريخ ٢٠/٨/١٥١٥م معركة (جالدران) وسقوط العاصمة الإيرانية (تبريز) بيد السلطان العثماني ياووز سليم معركة (مرج دابق) ومقتل سلطان مصر قانصوه الغوري وسقوط (القاهرة) بيد السلطان العثماني سليم ياووز الحملة المصرية الثالثة تصل إلى اليمن وتخرج عن واجبها في قتال البرتغاليين وتدخل في المشاكل السياسية لليمن	

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
حملة نائب الملك البرتغالي (لوبيو سوزا) إلى عدن والبحر الأحمر وفشله وعودته إلى الهند	
الفصل الثاني والعشرون :	265
ثورة الحجاز ضد القوات المصرية وإعدام القائد حسين الكردي مصرع القائد المصري (يرسباي) في اليمن مصرع سلطان اليمن عامر بن عبد الوهاب على يد القوات المصرية نظرة على الأوضاع السياسية المتدهورة في العالم الإسلامي والعربي الذي يقف بمواجهة البرتغاليين المغرب العربي ينقسم إلى أربعة ممالك - ظهور اسم السلطان أحمد الأعرج السعدي كبطل قومي	
الفصل الثالث والعشرون :	279
الرسائل المتبادلة بين ملوك البرتغال والحكام العرب والمسلمين	
الفصل الرابع والعشرون :	309
(دييكو دي سكويرا) يصبح نائباً لملك البرتغال في الهند بتاريخ ١٥١٨/١٢/٢٠ م حملة (دي سكويرا) ضد البحرين والاحساء وعدن نظرة على الأوضاع السياسية هناك معركة البحرين - القائد انطونيو كوريا يهاجم البحرين فيتصدى له الأمير مقرن بن أجود الجبري - ثم قصة إعدام هذا الأمير العربي وفاة ملك البرتغال دون مانويل وولاية ابنه دون جوان الثالث ثورة في هرمز ومسقط وصحار وقريات، تدمير مدينة صحار العُمانيّة اضطرابات جديدة في اليمن وحملة برتغالية تهاجم مدينة الشحر	

معاهدة صلح بين حاكم عدن والبرتغاليين
وفاة الشاه اسماعيل الصفوي مؤسس الدولة الصفوية في إيران

325

الفصل الخامس والعشرون :

حاكم الهند البرتغالي (لوبيو فاز دي سامباليو) يدمر مدينتي
قلهات ومسقط العُمانيتين
نظرة على الوضع السياسي في البصرة والبحرين
ثورة جديدة في البحرين عام ١٥٢٩ م ومصرع قائد الحملة
البرتغالية هناك
معاهدة جديدة بين حاكم عدن والبرتغاليين
السلطان العثماني سليمان القانوني يصدر أوامره إلى والي مصر
سليمان باشا الخادم لتهئية حملة عسكرية تحتل اليمن ثم
تذهب لقتال البرتغاليين في الهند

337

الفصل السادس والعشرون :

الحملة العثمانية - المصرية تحتل عدن، إعدام سلطان اليمن عامر
بن داوود الظاهري وبداية الاحتلال العثماني لليمن عام ١٥٣٨ م
الحملة تذهب إلى الهند وتهاجم مدينة (ديو) واستمرار المعارك
لمدة ستة شهور بين القوات المصرية والبرتغاليين

347

الفصل السابع والعشرون :

تولي السلطان أحمد بن محمد الوطاسي الحكم في مملكة فاس ثم
قيامه بعقد معاهدة صلح بينه وبين البرتغاليين لمدة أحد عشر
عاماً .
تولي السلطان أحمد الأعرج السعدي ملك السوس السلطة في
الجنوب ثم قيامه بعقد معاهدة صلح مع البرتغاليين لمدة ثلاث
سنوات

السلطان أحمد السعدي يعلن الحرب على البرتغاليين حال انتهاء
أمد المعاهدة ويحتل حصن (سانتا كروز)
السلطان محمد الشيخ السعدي (المهدي) يستولي على السلطة في
السوس ثم يهاجم السلطان أحمد الوطاسي
سقوط الدولة الوطاسية وقيام الدولة السعدية التي أعادت
الوحدة إلى المغرب العربي

357

الفصل الثامن والعشرون :

ثورة اسلامية في الحبشة بقيادة أحمد قران
(استافو دي غاما) يصبح نائباً لملك البرتغال في الهند عام
١٥١٤م ويقوم بتجهيز حملة للدخول إلى البحر الأحمر
والوصول إلى السويس
مصرع القائد البرتغالي (كريستوفر دي غاما) وهو آخر حكام الهند
على يد الناصر المسلم الحبشي
اضطراب الأمن في جنوب العراق والبصرة والحكومة العثمانية
تخضع المنطقة لسيطرتها
رسالة من حاكم هرمز البرتغالي إلى ملك البرتغال تكشف عن
الأوضاع السائدة آنذاك

373

الفصل التاسع والعشرون :

مصادمات مسلحة بين الدولة السعدية والقوات العثمانية
الموجودة في الجزائر وعودة الاضطرابات إلى المغرب
مصرع السلطان محمد الشيخ السعدي وولاية ابنه عبدالله الغالب
بالله سلطاناً على المغرب عام ١٥٥٧م
ولادة الأمير دون سيياستيان ولي عهد البرتغال
ثورة مسلمي غرناطة عام ١٥٦٨م في السنة التي اعتلى فيها (دون
سيياستيان) عرش البرتغال

الملك البرتغالي الجديد يضع الخطط العسكرية لمهاجمة معاقل
الإسلام وتدمير الدولة السعدية المغربية

385

الفصل الثلاثون :

فشل ثورة (الطواقي) في اليمن وهزيمة القوة العسكرية
البرتغالية التي ذهبت لنجدته
أهالي منطقة (ظفار) في عُمان ينزلون هزيمة بقوة برتغالية
ويقتلون قائدها (لويس فيغرو)
حملة (دون انطونيو دي نوروها) إلى الخليج العربي تنزل هزيمة
بالأتراك في القطيف والبصرة
حملة القائد التركي (بيري بك ريس) إلى الخليج عام ١٥٥٣م
استسلام حامية مسقط البرتغالية
إعدام بيري بك ريس في مصر بعد عودته
القائد العثماني سيدي علي شلبي يخفق في إنقاذ الاسطول
العثماني المحاصر في البصرة
معركة بين العثمانيين والبرتغاليين في البحرين عام ١٥٥٩م،
ومصرع القائد البرتغالي (دون جوا دي نوروها)

399

الفصل الحادي والثلاثون :

رسائل مختلفة متبادلة بين الملوك والحكام العرب والمسلمين
وملوك البرتغال

445

الفصل الثاني والثلاثون :

السلطان محمد المتوكل السعدي يعتلي عرش المغرب عام ١٥٧٤م
الملك البرتغالي يقوم بمناورة عسكرية في (طنجة) المغربية
السلطان عبدالمالك المعتصم يعتلي عرش المغرب عام ١٥٧٤م
تفاصيل الاستعدادات البرتغالية للحملة العسكرية الكبرى ضد

الفهرس

رقم الصفحة

الموضوع

المغرب

الملك البرتغالي يبحر من لشبونة على رأس حملته الكبرى ويصل
إلى (طنجة) يوم ٩/٧/١٥٧٨ م

457

الفصل الثالث والثلاثون :

يوم ٣/٨/١٥٧٨ م الملك البرتغالي يتخذ قراراً بعبور نهر المخازن
لملاقاة الجيش المغربي
يوم الاثنين ٤/٨/١٥٧٨ م معركة وادي المخازن أو القصر الكبير أو
الملوك الثلاثة الفاصلة
هزيمة كبرى ينزلها الجيش المغربي بالجيش البرتغالي - معركة
وادي المخازن مفخرة المعارك العسكرية العربية، مصرع الملك
البرتغالي وتمزق جيشه
خرافة (السيباستيانية) تعم البرتغال والبرازيل

473

الفصل الرابع والثلاثون :

السلطان أحمد بن محمد بن الشيخ السعدي - المنصور - يعتلي
عرش المغرب
ملك اسبانيا فيليب الثاني يقرر احتلال البرتغال ويدخل لشبونة
فاتحاً يوم ١٦/٤/١٥٨١ م
هزيمة الأسطول الإسباني في معركة الارمادا
الانجليز يظهرون على مسرح الأحداث في المغرب العربي - علاقات
بريطانية مغربية جيدة

481

الفصل الخامس والثلاثون :

حملة علي بك شلبي على مسقط عام ١٥٨١ م
استسلام علي بك شلبي للبرتغاليين في ممباسة
اكمال بناء قلعتي مسقط

المملكة اليزابث ملكة بريطانيا توقع مرسوماً بتاريخ
١٦٠٠/١٢/٣١م بتأسيس شركة الهند الشرقية
اعتلاء الشاه عباس الصفوي - عرش إيران وسياسة التعاون مع
بريطانيا
الشاه ينزل هزيمة بالبرتغاليين في البحرين عام ١٦٠١م
وينتزعها منهم
أحداث غامضة تقع في مدينة (صحار) العُمانية وظهور أول خبر
عن البرتغاليين في التاريخ العُماني
الشاه يقضي على الوجود البرتغالي في هرمز بشكل نهائي -
متعاوناً مع قوات بريطانية على ذلك في عام ١٦٢٢م

499

الفصل السادس والثلاثون :

قوات فارسية تحتل مواقع في مدن عُمان، بينما انحصر
البرتغاليون في مسقط
هروب القائد البرتغالي (روي فيريرا) من الأسر عند الانجليز
وتعيينه قائداً للقوات البرتغالية في عُمان والخليج العربي
احتلال ساحل مسندم ورؤوس الجبال ومدينة خصب في عُمان من
قبل الاسطول البرتغالي
الشاه عباس الصفوي يحتل بغداد عام ١٦٢٣م وعلاقات جيدة بين
والي البصرة العثماني والبرتغاليين
انتهاء الحروب بين البرتغاليين وخصومهم الفرس والانجليز
والهولنديين في الخليج العربي
عام ١٦٢٤م يشهد قيام الدولة اليعربية في عُمان

505

الفصل السابع والثلاثون :

نظرة على أحوال عُمان الداخلية قبل عام ١٦٢٤م
انتخاب ناصر بن مرشد اليعربي إماماً على عُمان وقيام الدولة

الفهرس

رقم الصفحة

الموضوع

اليعربية هناك

تقرير برتغالي عن الإمام

الإمام يحتل مدينتي جلفار ودبا ويحاصر صحار والقوات

البرتغالية هناك

ثورة في البرتغال عام ١٦٤٠م ضد اسبانيا - البرتغال تستعيد

استقلالها ثانية

وفاة الإمام ناصر بن مرشد واعتلاء الإمام سلطان بن سيف

اليعربي عرش عمان

الإمام سلطان بن سيف ينتزع مسقط من أيدي البرتغاليين في

يناير عام ١٦٥٠م

الوصول إلى نهاية قصة الاستعمار البرتغالي في الخليج العربي

521

الفصل الثامن والثلاثون :

محاولة برتغالية لاسترداد مسقط عام ١٦٥٢م

البرتغاليون يختفون في منطقة رأس مسندم إلى حوالي عام

١٦٥٥م

وفاة الإمام سلطان بن سيف ثم ولاية ابنه بلعرب وبعدها ولاية

ابنه الآخر سيف بن سلطان (قيد الأرض)

سيف بن سلطان يشتبك مع البرتغاليين في ممباسة (معركة قلعة

يسوع) وينتزعها منهم عام ١٦٩٩م

نهاية قصة العرب والبرتغال في التاريخ

529

الفصل التاسع والثلاثون :

الخاتمة

537

مراجع الكتاب

هزار وکشی

عندما دخل الفاتحون العرب إلى إسبانيا، فانهزم وفي السنة الثالثة من الفتح دخلوا (إشبونة) أي لشبونة عاصمة البرتغال في يومنا هذا، وكان ذلك في حوالي عام ٧١٤ م على يد عبد العزيز بن موسى بن نصير. غير أنه لم يكن للبرتغال وجود سياسي أو كيان مستقل يومذاك. لذلك فقد أطلق العرب اسم (الغرب) أي غربي الأندلس على أرض البرتغال. وقد بقي العرب في لشبونة إلى عام ١١٥٠ تقريبا عندما انتزعها منهم أول ملك برتغالي هو دون أفونسو هنريك، وقام هذا بإعلان استقلال دولة البرتغال، لكن العرب بقوا في جنوب البرتغال إلى عام ١٢٥٠ م، وكانت تلك سنوات مقارعة بأسلة، حاول فيها المغرب العربي إنقاذ ما يمكن إنقاذه هناك ولكن بدون جدوى. ثم دارت عقارب الساعة حينما باشر البرتغاليون عالم الفتوحات البحرية فاحتلوا سواحل المغرب وتمكنوا من الوصول إلى الهند وبذلك احتلوا بعض مناطق الخليج العربي إلا أن بداية النهاية للبرتغال كدولة عالمية كبرى تم على يد الدولة المغربية السعيدية التي تمكنت من قهر جيش أوروبي يقوده ملك البرتغال سيباستيان، فأهلكوه وأهلكوا جيشه معه، وكان ذلك في عام ١٥٧٨، ثم تمكنت بعد ذلك الدولة اليعربية العثمانية من طرد البرتغاليين بصورة نهائية من الخليج العربي في حوالي عام ١٧٢٠.



المجمع الثقافي

Cultural Foundation

ابوظبي - الإمارات العربية المتحدة - ص. ب ٢٣٨٠ - هاتف : ٢٢٥٣٠٠
ABU DHABI - U. A. E. - P.O. BOX : 2380 - TEL. 215300 Cultural Foundation